عِلم المعَاني

دراسة بلاغيّة ونقديّة لمسائل المعانى

الدكتور/ بسيونى عبد الفتاح فيود
أستاذ البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مؤسسة المختار
للنشر والتوزيع

علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

عبد الفتاح فيود، بسيونى

علم المعانى

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى

تأليف: د. بسيونى عبد الفتاح فيود

القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2015

541 ص، 24 سم

تدمك: 978-977-5283-26-4

رقم الإيداع: 11832 / 1998

الطبعة الرابعة

1436 هـ ـ 2015م

مؤسسة المختار

للنشر والتوزيع

الإدارة: 16 ش محمد حسن الجمل ـ عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة

تليفون: 22713945

فاكس: 22713202

المكتبة: 33 ش محمد عبده ـ خلف جامع الأزهر ـ القاهرة

تليفون: 25105891

E-mail:mokhtar_est@hotmail.com

علم المعاني

دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني

الدكتور/ بسيوني عبد الفتاح فيود
أستاذ البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مؤسسة المختار
للنشر والتوزيع

مدونة لسان العرب

الأستاذ / علاء الدين شوقي

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين رفع قدر العلم، وجعله ميراث الأنبياء، فالأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبد الله ﷺ النبي الأمي قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٣].

عَلَّمَ ﷺ وحَثَّ على العلم، وأخبر أن هذا العلم يحمله عدول الخلف، فقال ﷺ: «**يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ**»(١) ... اللهم صل وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،،،

فهذا الكتاب: «علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني" يتتبع التراكيب فيبرز خصائصها، ويظهر دلالاتها في ضوء ما قرره البلاغيون، وهو لا يقف عند ما قاله البلاغيون فيحسن عرضه فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى مناقشته وتجليته وإبداء الرأي فيه، ولذا آثرنا له هذا العنوان: "علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني".

إن سبر أغوار المعاني يتطلب صبرا وتأملاً وتدبرا ومراجعة دقيقة متأنية للتراكيب ولما قاله العلماء، والباحث عندما يكون كذلك، فإنه يغوص في بحار التراكيب ويستخرج منها دررها ولآلئها، وهذا ما ألزمنا به أنفسنا في هذا المؤلف، الغوص في بحار التراكيب ومناقشة كلام العلماء وإيضاح ما يحتاج إلى إيضاح وتحرير ما يحتاج إلى تحرير مما قالوه ووجدناه يتجافى مع التراكيب وسياقاتها.

هذا المؤلف انتهينا من تأليفه في السابع عشر من شهر رمضان المبارك في سنة

---

(١) صححه الإمام أحمد بن حنبل... انظر الإصابة، القسم الرابع ترجمة: «إبراهيم العذري»... وانظر أيضا الجامع الكبير للإمام السيوطي.

ست وأربعمائة وألف من الهجرة في مدينة عنيزة بالقصيم من المملكة العربية السعودية، وطبعته مطبعة السعادة بالقاهرة بجمهورية مصر العربية سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م الطبعة الأولى.

ولما نفدت هذه الطبعة، وبدت حاجة طلاب العلم ودارسيه إلى الكتاب، طبع طبعة ثانية سنة ١٤١٨هـ - ١٩٨٨م نهضت بهذه الطبعة دار المعالم الثقافية للتوزيع والنشر بالأحساء بالمملكة العربية السعودية بالمشاركة مع مؤسسة المختار للنشر والتوزيع بالقاهرة بجمهورية مصر العربية، واستمر الكتاب يؤتي ثماره، محققًا الغاية المرجوة منه، جناه دانٍ وأثره بادٍ حتى نفدت هذه الطبعة.

نهضت مؤسسة المختار للنشر والتوزيع بطبعه طبعة ثانية أخرى انفردت بها دون دار المعالم الثقافية، وكان ذلك سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م وقد أرادت مؤسسة المختار أن تزيد من جمال الكتاب، فقامت بضبط الأبيات الشعرية وضبط بعض النصوص، وهذا الضبط جاء خاطئًا في معظمه، فأفسد المعنى، وأطفأ الثمرة؛ حيث صار القارئ للكتاب يتخبط، ولا يستطيع الوصول إلى المعنى، فكيف يدرك المعنى، ويصل إلى المراد، والبيت مضبوط ضبطًا خاطئًا؟... أنَّى له أن يفهم النص، ويدرك ما وراء تراكيبه من أسرار ولطائف والنص غير مستقيم؟... لا بد من تصحيح وإقامة النص حتى يتمكن القارئ من الفهم والإدراك.

اتصل بي كثيرون ممن يريدون الكتاب صحيحًا، وشكوا إليّ ما صار إليه حال الكتاب فكان لزامًا عليّ أن أعيد النظر في الكتاب، وأن أنهض بتصحيحه، وأن أقوِّم ما اعوج منه حتى يستقيم، وقد وفقني الله -عز وجل- وأعانني للنهوض بذلك... ثم أمرنا بإعادة طبع الكتاب، فكانت هذه الطبعة الثالثة، وهي طبعة صحيحة مصوبة، نسأل الله -تعالى- أن تؤتي ثمارها، وأن يتحقق بها الغاية المرجوة من الكتاب.

نهضنا في هذه الطبعة بتصحيح كل ما حدث من أخطاء في الطبعة السابقة فضبطنا الأبيات ضبطًا صحيحًا دقيقًا، عدنا فيه إلى مصادر الأبيات لنتمكن من ذلك، وشرحنا ما يحتاج إلى شرح حتى تتم الفائدة المرجوة، ونسبنا الأبيات إلى

قائليها، وكشفنا عن المناسبة التي قيلت فيها تلك الأبيات، كلما وجدنا أن ذلك كان ضروريًا؛ حيث تتجلى من خلاله الأسرار البلاغية الكامنة وراء الألفاظ والتراكيب.

وقفنا وقفة متأنية أمام الأحاديث النبوية الموجودة في الكتاب، فقمنا بتخريج تلك الأحاديث، وضبطناها ضبطًا صحيحًا، وزدنا الخصائص والأسرار البلاغية الكامنة وراء ألفاظها وتراكيبها تجلية وإيضاحًا.

وجدنا تداخلاً بين فقرات التعبيرات، وهذا التداخل يحول بين القارئ والفهم الجيد لأول وهلة عند القراءة، فقمنا بإعادة تنظيم تلك الفقرات حسب اتصال المعنى واستمراره ثم انتهائه والوصول إلى آخر المراد منه وأقصاه .. نهضنا بهذا التنظيم والتنسيق بين فقرات التعبيرات، لأن هذا يساعد القارئ وييسر له الوقوف على المراد، والكتاب كان في حاجة إلى هذا التنظيم.

في كثير من المواطن وجدنا مسائل تحتاج إلى إضافات، وأخرى تحتاج إلى إيضاحات وتعديلات، فلم نتردد في النهوض بذلك، وقمنا بمراجعة تلك المسائل، وأطلنا الوقوف أمامها، نتأمل ونتدبر، ونبحث ما يحتاجه القارئ، ثم أضفنا ما تحتاجه تلك المسائل من إضافات، وأوضحنا ما هو في حاجة إلى إيضاح.

إن هذا الكتاب يتناول مسائل علم المعاني، وهذا العلم كما عرفه البلاغيون "علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال"(١) ولذا فإن الكتاب يمضي وراء اللفظ العربي المفرد فيدرس أحواله في جملته التي سبك بها، والتي جاءت في سياق حواها وحوى غيرها من الجمل، يمضي الكتاب وراء هذه الألفاظ في جملها من سياقاتها فيدرس أحوالها وما تفيض به هذه الأحوال من خصائص وأسرار ومزايا بلاغية.

وقد نهض الكتاب في هذا الميدان بدراسة أحوال الإسناد الخبري وأحوال المسند إليه وأحوال المسند وأحوال متعلقات الفعل مجليًا ما يكمن وراءها من أسرار وخصائص، وما هو مستكن وراء العدول عن مقتضى الظاهر فيها من أغراض ونكات بلاغية.

---

(١) الإيضاح جـ١ ص٣٥.

كما يمضي الكتاب في تتبعه للفظ العربي وراء الجملة فيدرس "القصر" طرقه وأغراضه وفروقه ودقائقه وأسراره، ويدرس الجملة الإنشائية مفرقًا بينها وبين الجملة الخبرية، مجليًا في ذلك أنواع الإنشاء الطلبي من أمر ونهي واستفهام وتمن ونداء، كاشفًا عن وجهة نظر البلاغيين في التفرقة بين الإنشاء الطلبي والإنشاء غير الطلبي، موصيًا بضرورة دراسة الإنشاء غير الطلبي لما يكمن وراءه من دقائق ولطائف يقف عليها الدارس لهذه الأنماط من الكلام، ونقصد بها: أنواع الإنشاء غير الطلبي، والتي منها: القسم والترجي والتعجب والمدح والذم وغيرها[١].

ويمضى الكتاب كذلك في تتبعه للفظ العربي وراء الجمل الملتقية فيدرس العلاقات بين تلك الجمل متتبعًا المواضع التي تتطلب الوصل والمواضع الأخرى التي تقتضي الفصل، فيكشف عن تلك المواضع .. كما يدرس ما يقتضيه المقام من إيجاز أو إطناب عند التقاء تلك الجمل، فيتتبع مواضع الإيجاز ومواطن الإطناب، مفرقًا بينها ومجليًا ما يستكن فيها من أسرار ولطائف ومزايا بلاغية.

هذا والكتاب في تتبعه ذلك لم يقف عند عرض ما قاله البلاغيون فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى تجلية مسائل وقضايا تهم الدارس وتفيده، إن الكتاب يحسن عرض ما قرره البلاغيون موضحًا إياه بالشواهد، ثم يناقش هذه المقررات البلاغية .. ما يحتاج منها إلى إيضاح يوضحه .. ما اختلف فيه البلاغيون يناقشه ويبدي فيه رأيه ويرجح ما يراه أهلاً للترجيح .. ما قصر فيه البلاغيون يكمله ويستوفيه .. ما يحتاج إلى تحرير يحرره ويصلحه ويقيمه ويصوبه، مستندًا في ذلك إلى ما تفيض به التراكيب.

والكتاب في تناوله لكل هذه القضايا البلاغية يثبت ما يقرره بالبراهين والأدلة، ويوضحه بالشواهد، حتى يثبت في الأذهان، ويستقر بالوجدان، فلم يعرض المقررات البلاغية عرضًا جافًا، بل يرويه بالشواهد التي توضحه وترطبه، فيستسيغه القارئ ويقبل عليه ويستوعبه وَيُثْلَجُ به صدره؛ حيث يجد فيه بغيته ومآربه.

---

(١) ارجع إلى هذه الأنماط في الفصل الثاني من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

إن هذه الطبعة بما نهضت به من إصلاح للكتاب – على نحو ما ذكرنا – شكلاً ومضمونًا، جعلته يستوي على عوده، ويؤتي ثماره، فجناه – إن شاء الله تعالى – سيكون دانيًا، وأثره سيكون باديًا، وسيعجب – إن شاء الله – القراء؛ حيث يجدون فيه بغيتهم التي عهدوها، وضالتهم التي ينشدونها .. لقد نَحَّيْنَا عنه ما عَلِقَ به من أدران في الطبعة السابقة، فصح واستقام؛ إذ انتفض كما انتفض العصفور بلَّلَهُ القطر، وكان نتيجة هذه الانتفاضة أن زالت عنه أدرانه، فبدا صحيحًا مستقيمًا جناه دانٍ وأثره بادٍ.

نسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع به طلاب العلم ودارسيه ومحبيه، وأن يجزنا به خير الجزاء، ويغفر زلاتنا، ويمحو ذنوبنا، ويكفر عنا سيئاتنا، ويرحم والدينا، ويهدي أبناءنا، ويشفي مرضانا، ويحفظنا فهو خير حافظًا، ويهدينا سواء السبيل، إنه خير مسئول وهو نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

بسيوني عبد الفتاح فيود

الجيزة – جمهورية مصر العربية

١٥ من جمادى الأولى ١٤٢٩هـ

٢٠ من مايو سنة ٢٠٠٨م.

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله القائل: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق: ١-٥] والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فكتابنا "علم المعاني" يتناول مسائل المعاني التي أقرها علماء البلاغة فيبرز الأسرار البلاغية وراء بناء التراكيب، ويعالج أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات، ويكشف عن أحوال الإسناد الخبري، ويجلي الأسرار البلاغية وراء العدول عن الأصل والخروج عن مقتضى الظاهرة.

كما يعالج الجملة وارتباطها بغيرها من الجمل، فيكشف عن دقائق القصر وطرقه وأغراضه وبناء جمله، ويجلي الفرق بين الخبر والإنشاء مبرزًا الأساليب الإنشائية وأنواعها وما وراءها من معانٍ وأسرار، ويظهر العلاقات بين الجمل الملتقية وما وراء أبنيتها من دقائق ومزايا بلاغية، ويعرض لمقامات المقالات فيكشف عن الإطناب وألوانه ومقاماته، وعن الإيجاز وأنواعه وأسراره ودقائقه.

وقد امتلأ الكتاب بالشواهد من آيات الذكر الحكيم وأحاديث المصطفى ﷺ والشعر الجيد، وفي تلك الشواهد تتجلى مسائل المعاني التي قمنا بمعالجتها حيث بذلنا الجهد في تحليل هذا الشواهد، وتجلية ما وراء بناء تراكيبها من أسرار ولطائف، وتقريب ذلك إلى أذهان الدارسين بضرب الأمثلة ليتم الغرض المنشود وتتحقق الفائدة المرجوة.

ويقع الكتاب في جزءين نفدت طبعتهما الأولى وبدت لنا حاجة الدارسين إلى الكتاب، فقمنا بإعادة النظر فيه فحصًا وتدقيقًا وتنقيحًا وتهذيبًا، واقتضت إعادة النظر في الكتاب أن نضيف إليه ما رأيناه ضروريًا، وأن نوضح ما وجدناه في حاجة إلى إيضاح، ونبسط ما هو في حاجة إلى بسط ليكتمل بذلك - والكمال لله وحده - تحقيق الغرض والفائدة المرجوة من الكتاب.

ثم أمرنا بإعادة طبعه طبعة جديدة لينتفع الدارس وتتيسر له الإفادة .. والله - عز وجل- نسأل أن ينفع به، وأن يجزينا خير الجزاء، وأن يعفو عما يكون قد جرى به القلم في غفلة منا فخط منا ما لا يليق أو كتب ما لا ينبغي أن يكتب أو توقف عن كتابة ما كان ينبغي أن يكتب وإيضاح ما كان يجب أن يوضح .. كما نضرع إليه تعالى أن يرحم ضعفنا وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولمن سبقنا بالإيمان إنه خير مسئول وهو نعم المولى ونعم النصير .. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

بسيوني عبد الفتاح

الهفوف - الأحساء

٢٣ من ذي القعدة ١٤١٨هـ

مقدمة الطبعة الأولى

أحمد الله تعالى وأصلي وأسلم على رسوله الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحابته ومن نهج نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا هو الجزء الأول من كتاب "علم المعاني" دراسة بلاغية ونقدية وقد خصصته لدراسة أجزاء الجملة، فبدأته بتمهيد تناول الحديث عن النظم وصياغة الجملة وما وراء ذلك من اعتبارات وملاحظات .. كما تناول بيان مفهوم الفصاحة والبلاغة .. ثم أتبعته بفصول الكتاب الأربعة وهي:

الفصل الأول: أحوال الإسناد الخبري.

الفصل الثاني: أحوال المسند إليه.

الفصل الثالث: أحوال المسند.

الفصل الرابع: أحوال متعلقات الفعل.

وسيتلوه الجزء الثاني بمشيئة الله تعالى والذي خصصته لدراسة الجملة وارتباطها بغيرها من الجمل .. فالله عز وجل أسأل أن ينفع به وأن يجزينا خير الجزاء وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

بسيوني عبد الفتاح فيود

عنيزة – القصيم – السعودية

في ١٧ رمضان ١٤٠٦هـ

الجزء الأول

أحوال أجزاء الجملة

المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل

- مفهوم الفصاحة والبلاغة.
- أحوال الإسناد الخبري.
- التجوز في الإسناد.
- أحوال أجزاء الجملة.
- أحوال المسند إليه.
- أحوال المسند.
- أحوال متعلقات الفعل.
- الخروج عن مقتضى الظاهر.

تمهيد

مناط المزية بين اللفظ والمعنى والنظم

الألفاظ قوالب للمعاني، إذ الكلام يتكون من لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم، وقد شغلت قضية اللفظ والمعنى الدارسين منذ القدم، واختلفت وجهات نظرهم في رجوع المزية، فنرى الجاحظ يتحدث عن اللفظ والمعنى في مواضع كثيرة من كتابه: "البيان والتبيين"، والذي لا ينعم النظر في كلام الجاحظ يتوهم أنه قد فضل اللفظ على المعنى أو المعنى على اللفظ.

انظر إلى قوله: "ثم اعلم -حفظك الله أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوطة على غيره غاية وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة"[1]، تجده قد جعل المعاني مبسوطة ممتدة، والألفاظ التي هي أسماء المعاني محدودة معدودة، فهل قدم المعاني هنا على الألفاظ؟، لو كان الأمر كذلك، فكيف يقول في موضع آخر: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير"[2]؟ إنك تشعر هنا بأنه يقدم اللفظ على المعنى، وليس الأمر كذلك، فالذي أراه، أن الجاحظ لم يقدم اللفظ على المعنى هنا ولا المعاني على الألفاظ هناك، وإنما رجع المزية للنظم، وجعل التفاضل به.

تأمل قوله: "إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير".. فهو يريد بذلك النظم لا الألفاظ المجردة، وهو عندما جعل المعاني مطروحة، أراد المعاني العامة التي هي كأغراض الشعر، وعندما جعلها ممتدة ومبسوطة أراد المعاني المركبة، المعاني الخاصة المنبعثة من النظم الجيد والتراكيب الرفيعة، وعندما جعل الألفاظ محصورة محدودة، أراد الألفاظ المجردة لا المنظومة، إذًا الجاحظ لم يقدم لا اللفظ ولا المعنى، وإنما رجع المزية إلى النظم.

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٦٧.

(٢) الحيوان ٣/ ١٣١.

فينبغي على الدارس أن يعرف الفروق الدقيقة التي تكمن وراء النظم، إذ به يفضل الكلامُ الكلامَ ويتقدم عليه، وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه. وللجاحظ كتاب في النظم سماه "نظم القرآن" ولكنه فقد ضمن ما فقد من تراث المسلمين، ونرى الجاحظ يشير إليه في كثير من كتاباته في البيان والتبيين وغيره، ويحيل عليه في كثير من الأمور والقضايا.

فما هو النظم إذًا الذي رجع الجاحظ إليه المزية؟ إنه ضم الكلمات بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة، وهذه الطريقة المخصوصة تكون – كما يرى القاضي عبد الجبار في كتابه المغنى- بالإبدال الذي تختص به الكلمات، أو التقديم والتأخير الذي تختص به مواقع الكلمات أو الحركات التي تختص بالإعراب(١).

وقد أفاد الإمام عبد القاهر من إشارات القاضي عبد الجبار وكتابات الجاحظ، فشرح نظرية النظم وحلل الشواهد الكثيرة التي يتضح فيها مفهوم النظم.

ويرى الشيخ عبد القاهر: أن الناظم إذا أراد أن ينظم كلامًا في أي غرض، يبدأ فيرتب المعاني في نفسه أولاً ويبذل جهدًا في ترتيبها، ثم يحذو على ترتيبها الألفاظ، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق، ويفرق عبد القاهر بين حروف منظومة وكلم منظوم، وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضٍ عن معنى ولا الناظم لها بمقتضٍ في ذلك رسمًا من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال: "ربض" مكان: "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد، أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني فترتب ألفاظ الكلام على حسب ترتيب المعاني في النفس(٢).

فالمعاني التي يتعلق بها الفكر والتي ترتب ألفاظها على حسب ترتيبها في النفس، إنما هي معاني النحو، وليست المعاني اللغوية للمفردات.

---

(١) انظر المغنى في أبواب التوحيد والعدل ١٦/ ١٩٩ وما بعدها.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص٩٦.

يقول عبد القاهر: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو" وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها وذلك أنا لا نعلم شيئًا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد وزيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق.

وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعًا وجاءني يسرع وجاءني وهو مسرع أو وهو يسرع وجاءني وقد أسرع، فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له.

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه، نحو أن يؤتي "بما" في نفي الحال و"بلا" إذا أراد نفي الاستقبال، وإن فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون وبإذا فيما علم أنه كائن.

وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل، موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع أو من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام وفي الحذف والتكرار والإظهار والإضمار فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.

هذا هو السبيل فلست بواجد شيئًا يرجع صوابه إن كان صوابًا وخطؤه إن كان خطأ إلى "النظم" ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصبت به موضعه ووضعته في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلامًا قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته في أصل من

أصوله ويتصل بباب من أبوابه"[١].

ثم يأخذ بعد ذلك في عرض الشواهد التي يتضح فيها ما ذكره محللاً لتلك الشواهد، ومبرزًا لموطن الحسن أو الفساد فيها، فيعرض لقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٤٤] قائلاً: "هل تشك إذا فكرت في هذه الآية فتجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها، وأن الفضل حصل من مجموعها.

وإن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ .. قل: " ابلعي" واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها.

وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت ثم في أن كان النداء "بيا" دون "أي" نحو "يا أيتها الأرض" ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: "ابلعي الماء" ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل: "وغيض الماء" فجاء الفعل على صيغة "فُعِل" الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: "وقضي الأمر" ثم ذكر ما هو هو فائدة هذه الأمور وهو: "واستوت على الجودى" ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة "قيل" في الخاتمة "بقيل" في الفاتحة .

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقًا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق، أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟

---

(١) دلائل الإعجاز ص١١٧، ١١٨.

فقد اتضح إذًا اتضاحًا لا يدع مجالاً للشك أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"(١).

ويستمر عبد القاهر في سوق الشواهد فيقول: "ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ الأخدع في بيت الحماسة -للصمة بن عبد الله القشيري-:

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي   وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتًا وَأَخْدَعَا

وبيت البحتري:

وإِنِّي وَإِنْ بَلَّغْتَنِي شَرَفَ الْغِنَى   وَأَعْتَقْتَ مِنْ رِقِّ الْمَطَامِعِ أَخْدَعِي

فإنك تجد لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ   أَضْجَجْتَ هَذَا الأَنَامَ مِنْ خُرُقِكَ

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والإيناس والبهجة.

ومن أعجب ذلك لفظة "الشيء" فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع وضعيفة مستكرهة في موضع آخر، وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر ابن أبي ربيعة المخزومي:

وَمِنْ مَالِئٍ عَيْنَيْهِ مِنْ شَيْءِ غَيْرِهِ   إِذَا رَاحَ نَحْوَ الْجَمْرَةِ الْبِيضُ كالدُّمَى

وإلى قول أبي حَيَّةَ النميري:

إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءَ يومٌ وليلةٌ   تَقَاضَاهُ شيءٌ لاَ يَمَلُّ التَّقَاضِيَا

(١) دلائل الإعجاز صـ٨٩، ٩٠.

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول. ثم انظر إليها في بيت المتنبي:

لَوِ الْفَلَكُ الدَّوَّارُ أَبْغَضْتَ سَعْيَهُ ... لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ الدَّوَرَانِ

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم(١).

وهكذا يستمر عبد القاهر في عرض العديد من شواهد النظم الرديء والآخر الجيد، فمن الأول:

قول الفرزدق:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلاَّ مُمَلَّكًا ... أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُه

وقول المتنبي:

وَلِذَا اسْمُ أَغْطِيَةِ الْعُيُونِ جُفُونُهَا ... مِنْ أَنَّهَا عَمَلَ السُّيُوفِ عَوَامِلُ

وقول أبي تمام:

ثَانِيهِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَلَمْ يَكُنْ ... كَاثْنَيْنِ ثَانٍ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ

ومن الثاني:

قول إبراهيم بن العباس الصولي يمدح محمد بن عبد الملك الزيات:

فَلَوْ إِذْ نَبَا دَهْرٌ وَأُنْكِرَ صَاحِبٌ ... وَسُلِّطَ أَعْدَاءٌ وَغَابَ نَصِيرُ

تَكُونُ عَنِ الْأَهْوَازِ دَارِي بِنَجْوَةٍ ... وَلَكِنْ مَقَادِيرٌ جَرَتْ وَأُمُورُ

وَإِنِّي لأَرْجُو بَعْدَ هَذَا مُحَمَّدًا ... لأَفْضَلِ مَا يُرْجَى أَخٌ وَوَزِيرُ

وقول البحتري:

بَلَوْنَا ضَرَائِبَ مَنْ قَدْ نَرَى ... فَمَا إِنْ رَأَيْنَا لِفَتْحٍ ضَرِيبَا

هُوَ الْمَرْءُ أَبْدَتْ لَهُ الْحَادِثَا ... تُ عَزْمًا وَشِيكًا وَرَأْيًا صَلِيبَا

تَنَقَّلَ فِي خُلُقَيْ سُؤْدَدٍ ... سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأْسًا مَهِيبَا

فَكَالسَّيْفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا ... وَكَالْبَحْرِ إِن جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

---

(١) دلائل الإعجاز صـ٩١، ٩٢.

وقول كُثَيِّر عزة:

فَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِالأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَى دُهْمِ الْمَطَايَا رِحَالُنَا ... وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الأَبَاطِحُ

إلى غير ذلك من الشواهد الّتي يعرض لها عبد القاهر محللاً لها ومبرزًا لما فيها من جمال مرده إلى النظم ومعرفة ماله من رسوم ومناهج، أو من قبح وعيب مردهما إلى الخروج عن رسوم النظم ومناهجه[١].

ثم يأخذ عبد القاهر بعد أن وضح نظرية النظم وحلل العديد من شواهدها، وبين ما ينبغي على البليغ أن يلتزم به في بناء جمله وعند صياغة عباراته ... يأخذ بعد ذلك في بيان قوانين النحو وأصوله ومناهجه التي ينبغي على الناظم أن يضع كلامه الوضع الذي تقتضيه تلك المناهج، فلا يزيغ عنها ولا يحيد .. وهي تشمل كل أبواب علم المعاني التي سنعرض لها في فصول هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

---

(١) دلائل الإعجاز ص١٢٠ وما بعدها.

مفهوم الفصاحة والبلاغة

الفصاحة في اللغة معناها الظهور والبيان، يقال: يوم مفصح، لا غيم فيه وأفصح اللبن وفصح، ذهبت عنه الرغوة، قال نضلة السلمي:

وَتَحْتَ الرَّغْوةِ اللَّبَنُ الْفَصِيحُ

ويقال أفصحت الشاة والناقة: خلص لبنها، وأفصح الصبح: بدا ضوؤه واستبان. ويقال: رجل فصيح، وامرأة فصيحة، وقوم فصحاء وكلام فصيح، أي بليغ .. ولسان فصيح أي طلق وأفصح الرجل عن الشيء إفصاحًا، إذا بينه وكشفه، ويقال تفصح أي: ازداد فصاحة واستعمل الفصاحة، أو تكلَّف الفصاحة وتشبه بالفصحاء .. والفصيح: المنطلق اللسان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رديئه .. قال الله عز وجل: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ [القصص ٣٤]. وقال عليه الصلاة والسلام: "أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ"(١) .. فمعنى الفصاحة في الآية والحديث: الظهور والبيان(٢).

والبلاغة في اللغة تعني: الانتهاء والوصول وتعني أيضًا الفصاحة وحسن الكلام .. يقال: بلغ الشيء يبلغ بلوغًا وبلاغًا: وصل وانتهى إلى مراده .. والبلاغ: ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب .. والبلاغة: الفصاحة. وَرَجُلٌ بَلِيغٌ وَبَلْغ وَبِلْغُ: حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، والجمع: بلغاء، وقد بلغ بلاغة: صار بليغًا(٣).

قال الله -عز وجل- ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾[النساء ٦٣]، ذهب الزمخشري إلى أن القول البليغ: المؤثر في قلوبهم، فيغتمون به اغتمامًا ويستشعرون من الخوف استشعارًا(٤).

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير: [٦/ ٣٥ برقم ٥٤٣٧].

(٢) انظر لسان العرب مادة فصح.

(٣) انظر لسان العرب مادة بلغ.

(٤) انظر الكشاف جـ١ ص٤٠٧.

وبهذا يتضح لنا أن مفهوم الفصاحة في اللغة، لا يختلف عن مفهوم البلاغة فهما مترادفان والمقصود منهما: الظهور والبيان والانتهاء إلى المعنى وبلوغ المراد باللفظ الجيد والقول البليغ المؤثر، والتعبير الحسن الفصيح .. ولذا فإن أكثر البلاغيين يرون أن الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلهما، لأن المراد بكل منها: الإبانة عن المعنى والإظهار له وحسن التعبير عنه.

ويرى بعضهم أن الفصاحة تمام آلة البيان، فهي تختلف عن البلاغة، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى، أما البلاغة فتتعلق بالمعنى دون اللفظ، إذ المراد منها: إنهاء المعنى إلى القلب .. وقد اختار المتأخرون هذا الرأي. فقالوا الفصاحة تقع وصفًا للكلمة وللكلام وللمتكلم، فيقال: كلمة فصيحة، وكلام فصيح، ومتكلم فصيح .. أما البلاغة فتقع وصفًا للكلام وللمتكلم، فيقال: كلام بليغ، ومتكلم بليغ، ولا تقع وصفًا للكلمة، فلا يقال: كلمة بليغة، ثم راحوا يفسرون ذلك على النحو الآتي:

فصاحة الكلمة

الكلمة الفصيحة هي الكلمة التي تخلو من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوي أو الصرفي، ومن الكراهة في السمع.

فتنافر الحروف: وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة نطق اللسان بها، وهذا التنافر قد يكون شديدًا متناهيًا في الثقل كما في قول الأعرابي عندما سئل عن ناقته: "تركتها ترعى الهعخع"، فكلمة "الهعخع" كلمة شديدة الثقل على الأذن، شديدة الصعوبة في اللسان وقد قالوا: إنها اسم شجر مر المذاق كريه الرائحة، كأنه هذه الكلمة التي لا يطاق النطق بها، وقيل إنها كلمة للمعاياة لا أصل لها وهم كثيرًا ما يخترعون كلمات للمعاياة، ومثلها كلمة: "العقعجق" و"الظش" و"الشصاصاء" ونحو ذلك.

وقد يكون التنافر خفيفًا والثقل ضئيلاً. كما في قول امرئ القيس:

وَفَــرْعٍ يُغَــشِّي الْــمتْنَ أَسْــوَدَ فَــاحِمٍ أَثِيــثٍ كَقِنْــوِ النَّخْلَــةِ الْــمُتَعَثْكِلِ

غَــدَائِرُهُ مُسْتَــشْزِرَاتٌ إِلَى العُــلاَ تَــضِلُّ الْــمِدَارَي فِي مُثَنًّــى وَمُرْسَــلِ(١)

فكلمة "مستشزرات" كلمة ثقيلة في السمع، يتعثر اللسان عند النطق بها، ولكن ثقلها أقل من ثقل "الهعخع".

ومثله قول المتنبي:

إِنَّ الْكِــرَامَ بِــلاَ كِــرَامٍ مِــنْهُمُ مِثْــلُ الْقُلُــوبِ بِــلاَ سُــوَيْدَاواتِهَا(٢)

فكلمة "سويداواتها" كلمة ثقيلة على اللسان، وقد نشأ هذا الثقل من طول الكلمة، كما نشأ الثقل في كلمة "مستشزرات"، من طولها أيضًا ومن توسط الشين المهموسة الرخوة بين التاء الشديدة والزاي المجهورة، ومع كل فالثقل في الكلمتين أقل من الثقل في كلمة "الهعخع".

ويرجع البلاغيون السبب في تنافر الحروف وثقلها في الأذن واللسان إلى قرب مخارج الحروف أو بعدها بعدًا شديدًا وقالوا: إن البعد الشديد بين مخارج الحروف يكون بمنزلة الطفر، والقرب الشديد بينها يكون بمنزلة مشى المقيد الذي يثقله القيد، والعرب قد بنيت لغتهم على الخفة، ولذا رأيناهم يعمدون إلى إدغام المثلين والمتقاربين نحو رد ومد وشد واضطر، وإلى الإبدال في نحو: اصطبر وذلك دفعًا للثقل.

ومع أنه لا يمكن إنكار ما لمخارج الحروف وصفاتها وهيئة تأليفها من أثر في ثقل الكلمة وخفتها إلا أنه ينبغي أن يكون المعول عليه في ذلك هو الذوق الصحيح

---

(١) الفرع: الشعر، ويغشى: يغطى. والمتن: الظهر، والأثيث: الكثير الشعر، وقنو النخلة: عنقودها، والمتعثكل: المتراكم، والغدائر: الذوائب، ومستشزرات: مرتفعات، والمدارى: جمع مدرى، وهو الأمشاط، والمثنى: المفتول، والمرسل: غير المفتول.

(٢) المعنى: إن الكرام من الخيل إذا لم يكن عليها فرسان كرماء من هؤلاء الممدوحين صارت كالقلب بلا سويداء.

فنحن نرى الكلمة قد تألفت من حروف متقاربة وليست ثقيلة نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [يس ٦٠]. فلا ثقل في كلمة: "أعهد" مع قرب مخرج الهمزة والعين والهاء. وكما في قولنا "ذقته بفمي" فالباء والفاء والميم أحرف شفوية متقاربة ولا ثقل فيها، فكون قرب مخارج الحروف أو تباعدها موجبًا للثقل والتنافر، ليس مطردًا، ولذا كان المعول عليه هو الذوق السليم، والحسن الصادق.

هذا وثقل الكلمة في النطق ليس معيبًا في جميع الأحوال وعلى الإطلاق، بل إذا اقتضاه المقام كان من أهم مظاهر فصاحة الكلمة، ولذا لا أجد عيبًا في كلمة "مستشزرات" في بيت امرئ القيس لأنها لاءمت المقام؛ حيث يصف شعرًا كثيفًا غزيرًا قد تراكم وصار كقنو النخلة المتعثكل، ولو قال: "مرتفعات" لأخل بما يقتضيه السياق ويتلاءم مع الألفاظ التي وصف بها الشعر.

كما لا أرى عيبًا في قول أبي تمام:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا اطْلَخَمَّ الأَمْرُ وَانْبَعَثَتْ عَشْوَاءُ تَالِيَةً غُبْسًا دَهَارِيسَا[1]

لأن الثقل في كلمة "اطلخم" يتلاءم مع الشدة والظلام والدواهي التي يصورها الشاعر – أبو تمام – في هذا البيت.

يقول الدكتور: محمد أبوسى: "فينبغي أن يلاحظ أن استعمال هذا المقياس يحتاج إلى وعي وذوق لأن هناك كلمات ثقيلة على اللسان، ولكن ثقلها من أهم مظاهرة فصاحتها، من حيث أن هذا الثقل يصور معناها بحق، انظر إلى كلمة "اثاقلتم" في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة ٣٨].

تجد فيها قدرًا من الثقل الفصيح لأنه يصف تقاعسهم وتثاقلهم وخلودهم إلى الأرض، واستشعارهم مشقة الجهاد، وعزوف أرواحهم عنه، وقد دعوا إليه في عام

---

(١) اطلخم الأمر: اشتد، والعشواء: الناقة لا تبصر ليلاً، غبسًا: الظلام الشديد، والدهاريس: الدواهي.

العسرة، فكان منهم ما وصفت الآية، ولذا جاء التهديد البالغ ليواجه تخاذل أرواحهم، فقال سبحانه وتعالى ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة ٣٩].

وخذ قوله تعالى يحكى مقالة سيدنا نوح عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هود ٣٨] وتأمل كلمة "أَنُلْزِمُكُمُوهَا" وما فيها من صعوبة في النطق تحكي صعوبة الإلزام بالآيات وهم لها كارهون، وانظر إلى كلمة "فعميت" وما فيها من الإدغام والمجهول وكيف يصفان معنى التعمية والإلباس[1].

والغرابة: أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فتحتاج في معرفتها إلى النظر والتنقيب عنها في كتب اللغة المبسوطة، والمرجع في ذلك إلى العرب الخلص، فلا يعول على غيرهم من المحدثين الذين ظهروا بعد فساد اللغة وضعف السليقة، ولذا قيد التنقيب عن تلك الكلمات الغريبة بكونه في كتب اللغة المبسوطة التي حوت كلمات قد ماتت وصارت غير مستعملة عند الفصحاء من الخلص، كما في الألفاظ: "زرجون واسفنط وخندريس" التي تطلق على الخمر و"فدوكس وهرماس" على الأسد، و"الحلقد" على سئ الخلق و"الطرموق" "على الطين، والاستمصال" على الإسهال و"الإطرغشاش" و"الإبرغشاش" على الشفاء و"الابتشاك" على الكذب.

يقول الشاعر:

وَمَا أَرْضَى لِمُقْلَتِهِ بِحُلْمٍ ... إِذَا انْتَبَهَتْ تَوَهَّمَهُ ابْتِشَاكَا

وكما في قول عيسى بن عمرو النحوي لأناس قد تجمعوا حوله عندما سقط عن حماره: "مَالَكُمْ تَكَأْكَأْتُمْ" عَلَيَّ تَكَأْكُؤَكُمْ عَلَى ذِي جِنَّةٍ، افْرَنْقِعُوا عَنِّي" فقد أطلق "تكأكأ" على الاجتماع، و"افرنقع" على التنحي والابتغاء، وهو يهدف بتخير هاتين الكلمتين الغريبتين، المزاح ومداعبة من اجتمعوا حوله، ولذا قالوا: دعوه فإن

(١) خصائص التراكيب ص٢٣.

شيطانه يتكلم بالهندية .. فمثل هذه الكلمات لا نراها إلا في كتب اللغة المطولة، ولا نجدها مستعملة على لسان الخلص، ولذا عُدَّت غريبة ومخلة بالفصاحة.

ولا يجوز أن نطلق على ما خفي علينا معناه من النظم الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، وأشعار الفحول من الشعراء، بأنه غريب ومنافٍ للفصاحة، لأن الذي يعتد به ويعول عليه في ذلك - كما قلت - إنما هم العرب الخلص الذين سلمت سليقتهم، ولم تفسد طباعهم ..

ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن الغرابة نوعان: نوع فصيح وهو تلك الألفاظ المستعملة التي جرت على ألسنة الخلص والفحول، وإن خفي علينا معناها وغمض .. ومن هذا النوع غريب القرآن وغريب الحديث والأثر، وغريب الشعر، ونوع معيب مخل بالفصاحة وهو تلك الألفاظ التي أهملها الخلص وهجرها الفصحاء فلم يستعملوها، وبقيت في بطون أمهات كتب اللغة المطولة، على نحو ما شاهدنا في الأمثلة..

وذكر البلاغيون أن الكلمة تعد غريبة كذلك، غرابة تخل بفصاحتها، إذا احتملت معنيين أو أكثر، واحتار السامع في فهم المعنى المراد منها لعدم وجود القرينة التي تعينه وتحدده، كما في قول رؤبة بن العجاج:

أَيَّامَ أَبْدَتْ وَاضِحًا مُفَلَّجَا ... أَغَرَّ بَرَّاقًا وَطَرْفًا أَبْرَجَا

وَمُقْلَةً وَحَاجِبًا مُزَجَّجَا ... وَفَاحِمًا ومَرْسِنًا مُسَرَّجا[1]

فإنه لم يعرف ما أراد بقوله: "مسرّجا"، حتى اختلفوا في تخريجه، فقيل إنه أراد أن يشبه أنفها بالسيف في الدقة والاستواء، وعليه "فمسرّجا" نسبة إلى سريج الذي اشتهر بصناعة السيوف، ونسبت إليه فسميت سيوفًا سريجية .. وقيل إنه أراد أن يشبه أنفها بالسراج في البريق واللمعان "فمسرّجا" في البيت نسبة إلى السراج

(١) مفلجًا: الفلج تباعد ما بين الأسنان، والأغر: الأبيض، والطرف: العين، وأبرجَ: البرج عظم العين وحسنها، ومزججاً: مدققاً، وفاحمًا: شعرًا أسود كالفحم، ومرسنا: اسم لمحل الرسن من البعير وإطلاقه على أنف الإنسان من باب المجاز المرسل.

المضيء، من قولهم: سَرُجَ وجهه أي: حسن، وسرَّج الله وجهه أي: حسنه وبهجه، والاشتقاق من الاسم الجامد على جهة التشبيه وارد في كلام العرب كما في قولهم:

وَبُــــــرُودٍ مُــــــدَنَّرَاتٍ وَقَــــــزٍّ وَمُــــلاَءٍ مِــــنْ أَعْتَــــقِ الْكِتَّــــانِ

أي: وبرود وشيها كالدنانير، فاشتق من الدنانير "مدنرات" على جهة التشبيه بها.

ومخالفة القياس: أن تأتي الكلمة غير جارية على قوانين اللغة وقواعد الصرف، كما في قول أبي عبادة:

تَــشُقُّ عَلَيْــهِ الــرِّيحُ كُــلَّ عَــشِيَّةٍ جُيُــوبَ الْغَــمَامِ بَــيْنَ بِكْــرٍ وَأَيِّــمِ

فقد استعمل "الأيم" في مكان "الثيب"، والأيم من لا زوج لها ولو كانت بكرًا .. وكحذف النون من لكن في قول النجاشي:

فَلَـــسْتُ بِآتِيـــهِ وَلاَ أَسْـــتَطِيعُهُ وَلاَكِ اسْــقِنِي إِنْ كَــانَ مَــاؤُكَ ذَا فَــضْلِ

أراد ولكن اسقني .. وكفك الإدغام في قول أبي النجم:

اَلْحَــمْدُ لِلَّــهِ الْعَــلِيِّ الأَجْلَــلِ الْوَاهِــبِ الْفَــضْلَ الْكَــرِيمِ الْــمُجْزِلِ

وكقول قعنب بن ضمرة:

مَهْــلاً أَعَــاذِلُ قَــدْ جَرَّبْــتَ مِــنْ خُلُقِــي أَنِّي أَجُــــودُ لأَقْــــوَامٍ وَإِنْ ضَــــنِنُوا

فقد فك الإدغام في كلمتي "الأجل" و"ضنوا" وقوانين اللغة توجب إدغام المثلين.

وكصياغة أفعل التفضيل من "أفعل فعلاء" في قول القائل:

لَأَنْــتَ أَسْــوَدُ فِي عَيْنِــي مِــنَ الظُّلَــمِ

حيث استعمل أفعل التفضيل من وزن "أفعل" الذي مؤنثه "فعلاء" أسود وسوداء .. وهذا لا يتم إلا بمساعد كأن يقال: لأن أشد سوادًا.

ويستثنى من مخالفة القياس، ما ثبت استعماله لدى العرب، فهو فصيح وإن جاء مخالفًا لقوانين اللغة أو قواعد الصرف، فمن ذلك إبدال الهاء همزة في كلمتي "آل" و"ماء" إذ أصلهما: أهل وموه، وإبدال الهاء همزة في الكلمتين، وإن كان على

خلاف القياس، إلا أنه ثبت استعماله لدى العرب وورد عنهم، فهو فصيح وإن خالف القياس .

ومنه " أبى يأبى" بفتح عين المضارع فالقياس أن "فعل" بفتح العين لا يأتي مضارعه على "يفعل" بالفتح إلا إذا كانت عين ماضيه أو لامه من حروف الحلق مثل: ذهب، وسأل وسعى ونفع ونشع، فمجيء المضارع من "أبى" على وزن "يأبى" بالفتح وليست عين ماضيه ولا لامه من حروف الحلق مخالف للقياس، ولكن قد ثبت استعماله وورد عن العرب فهو فصيح وإن خالف القياس قال تعالى: ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ ﴾ [التوبة ٣٢]. ومنه عَوِرَ يَعْوَرُ، واسْتَحْوَذَ، يَسْتَحْوِذُ، فالقياس: عار يعار، واستحاذ يستحيذ، بقلب الواو ألفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها، أو ياء لتحركها وكسر ما قبلها في "يستحيذ"، ولكن هذه الأفعال وردت بالواو واستعملها العرب بدون إعلال، قال – عز وجل-: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ [المجادلة ١٩]. فهي فصيحة وإن خالفت القياس.

والكراهة في السمع: أن تبرأ الأذن من سماع الكلمة، ولا تقبلها لمجيئها غير ملائمة للسياق الذي قيلت فيه، ولو كانت هذه الكلمة فصيحة في حد ذاتها، كما في قول أبي الطيب المتنبي:

مُبَارَكُ الإِسْمِ أَغَرُّ اللَّقَبِ   كَرِيمُ الْجِرِشَّي شَرِيفُ النَّسَبِ(١)

فكلمة "الجرشي" تأباها الأذن في هذا السياق وتنفر من سماعها، لأن المقام مقام مدح، ومقام المدح هنا في هذا البيت تلائمه الكلمة العذبة الخفيفة التي تتلاءم مع بقية الألفاظ المذكورة وتمضي معها في تناسق تام .. ولو كان المقام مقام هجاء لما نفرت الأذن من سماع هذه الكلمة، فلو قيل في مقام ذم: لئيم الجرشي قبيح النسب، لاستساغت الأذن ذلك ولم تنفر من قبول كلمة "الجرشي" .. وبهذا يتضح أن كراهة الكلمة في السمع يتوقف على المقام وسياقات الكلام، فما تكرهه الأذن في موضع وتأبى سماعه قد تستسيغه وتميل إليه وتلذ سماعه في سياق آخر.

(١) الجرشي: النفس، والأغر: أصله الأبيض من الخيل ويطلق على الأبيض من كل شيء واللقب: ما دل على مدح كزين العابدين أو ذم كأنف الناقة، وقد مدح سيف الدولة بهذا لأن اسمه "علي" ولقبه "سيف الدولة" وهما مما يمتدح به.

فصاحة الكلام

أما فصاحة الكلام فهي خلوصه من تنافر كلماته، ومن ضعف التأليف، والتعقيد اللفظي والمعنوي، وكثرة التكرار وتتابع الإضافات، بالإضافة إلى تحقق فصاحة مفرداته التي يتألف منها.

فتنافر الكلمات: أن تكون بتأليفها ونظمها الذي سلكت فيه ثقيلة على اللسان، يتعسر النطق بها، وإن كانت كل كلمة فصيحة بانفرادها واستقلالها عن هذا النظم المتنافر، كما في قول الشاعر:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بمكانٍ قَفْرِ ... وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فالشطر الثاني في هذا البيت شديد الثقل على اللسان لا يستطيع أن ينطق به ثلاث مرات متتاليات دون أن يتعثر ويخطئ، وقد زعموا أن قائل البيت جِنِّيٌّ، صاح به على حرب بن أمية في فلاة فمات بها، ومرجع الثقل والتنافر إلى النظم الذي عليه البيت، فلو جردت الكلمات من نظمها لصارت فصيحة، خالية من الثقل، قرب. حرب. قبر.

ومنه قول أبي تمام:

وَالْمَجْدُ لاَ يَرْضَى بِأَنْ تَرْضَى بِأَنْ ... يَرْضَي امْرُؤٌ يَرْجُوكَ إِلاَّ بالرِّضَا

وقول المتنبي:

فَقَلْقَلْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلْقَلَ الْحَشَا ... قَلاَقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلاَقِلُ (١)

ومنه قول الآخر:

فلَمْ يَضِرْهَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شَيْءٌ ... وَانْثَنَتْ نَحْوَ عَزْفِ نَفْسٍ ذَهُولِ

فألفاظ النصف الثاني من البيت -كما يقول الجاحظ- يتبرأ بعضها من بعض، ويرجع ذلك إلى سوء النظم الذي سلكت فيه ..

---

(١) فقلقلت: حركت، وقلاقل الأولى جمع قُلْقُل وهي الناقة السريعة يقال: قلقل قلاقل كبلبل وبلابل، وقلاقل الثانية جمع قَلْقَلَة: وهي الحركة الشديدة.

ومنه قول أبي تمام:

كَـريمٌ مَتَى أَمْدَحُهُ أَمْدَحُهُ وَالْوَرَى   مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

فالتنافر الذي نراه في قوله: أمدحه أمدحه، قد نتج عن تكرار اللفظ وهو أقل من التنافر الذي لمسناه في الأبيات قبله، ومما يحمد للشاعر في هذا البيت، إيثاره التعبير باللوم في قوله "لمته"، دون "الهجاء" المقابل للمديح، فهو يفيد أن الممدوح ربما يلام على شيء وقع منه عفوًا، ولكنه لا يفعل ما يستحق عليه الهجاء. ولكن يؤخذ على الشاعر إدخاله "إذا" التي تفيد تحقق الوقوع على اللوم، ولو عبر "بإن" دون "إذا" لكان أولى وأبلغ في المديح.

ومنه قول الآخر:

وَازْوَرَّ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا   وَعَافَ عَافِي الْعُرْفِ عِرْفَانَهُ

ففي الشطر الثاني تنافر لا يخفى بين الكلمات مرجعه إلى تأليفها ونظمها الذي وضعت فيه، والكلمات في حد ذاتها فصيحة لا تنافر بين حروفها.

وضعف التأليف:

أن يكون الكلام جاريًا على خلاف طريقة العرب في التعبير والقول، مخالفًا لقوانين النحو المعتبرة عند جمهور النحاة، أما إذا خالف الكلام ما اتفق عليه النحاة وأجمعوا عليه، كجر الفاعل ورفع المفعول ونصب المجرور أو رفعه، فليس الكلام عندئذ مخلاً بالفصاحة فقط، بل هو فاسد وغير عربي، لا يسمح به ولا يقال، فضعف التأليف المخل بفصاحة الكلام، مجيء التأليف على خلاف ما اشتهر بين جمهور النحاة، وليس على خلاف ما اتفقوا عليه.

من ذلك عود الضمير على متأخر في اللفظ والرتبة كما في قول حسان بن ثابت ﷺ:

فَلَوْ أَنَّ مَجْدًا يُخْلِدُ الدَّهْرَ وَاحِدًا   مِنَ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطْعَمَا(١)

---

(١) مطعم: هو مطعم بن عدي أحد رؤساء مكة وكان يدافع عن النبي ﷺ ضد المشركين.

فالضمير في "مجده" يعود إلى المفعول به "مُطْعَمًا" وهو متأخر في اللفظ وفي الرتبة.

وكما في قول زهير:

إنْ تَلْــقَ يَوْمًــا عَــلَى عِلاَّتِــهِ هَرِمًــا ... تَلْــقَ الــسَّمَاحَةَ منــهُ وَالنَّــدَى خُلُقَــا[1]

فالضمير في "علاته" يعود إلى المفعول "هرمًا" المتأخر في اللفظ وفي الرتبة.

وقول النابغة الذبياني:

جَــزَى رَبُّــهُ عَنِّــي عَــدِيَّ بْــنَ حَــاتِمٍ ... جَــزَاءَ الْكِــلاَبِ الْعَاوِيَــاتِ وَقَــدْ فَعَــلْ[2]

فالضمير في "ربه" يعود إلى "عدى" المتأخر لفظًا ورتبة لأنه مفعول به. والقاعدة المشهورة بين النحاة أن يعود الضمير على متقدم في اللفظ والرتبة أو في الرتبة دون اللفظ أو في اللفظ دون الرتبة، ولا يعود إلى متأخر في اللفظ والرتبة معًا، وقد أجاز ذلك بعضهم كابن جنى وابن مالك وغيرهما.

ومنه وقوع الضمير المتصل بعد إلا كما في قول الشاعر:

وَمَــا عَلَيْنَــا إِذَا مَــا كُنْــتِ جَارَتَنَــا ... ألاَّ يُجَاوِرَنَــــــا إِلاَّكِ دَيَّــــــارُ

وقول الآخر:

لَــيْسَ إِلاَّكَ يَــا عَــلِيُّ هُــمَامُ ... سَــيْفُهُ دُونَ عِرْضِــهِ مَــسْلُولُ

ومنه حذف أداة النصب "أن" مع بقاء عملها، في غير المواضع التي تضمر فيها وجوبًا أو جوازًا.

كما في قوله طرفة:

ألاَ أَيُّهَــذا الزَّاجِــري أَحْــضُرَ الْــوَغَى ... وَأَنْ أَشْــهَدَ اللَّــذَّاتِ هَــلْ أَنْــتَ مُخْلِــدِي

والقاعدة المشهورة تمنع وقوع الضمير المتصل بعد إلا، وتمنع حذف أداة النصب مع بقاء عملها إلا في المواضع المعروفة.

---

(١) على علاته: على قلة مال وعدم.

(٢) جزاء الكلاب العاويات: أي القذف بالحجارة، دعاء عليه بهذا.

والتعقيد:

أن يكون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد به فيحتاج إلى إعمال الفكر وكد الذهن وإطالة النظر والتأمل حتى نقف على المعنى المراد، والعربي يكره الغموض المؤدى إلى اللبس، ويحب الوضوح والظهور فمن أقوالهم: خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك، ولا يعني ذلك أنهم يكرهون لطافة المعنى ودقته، كيف وهم يرون أن المعنى إذا نيل بعد طلب له وكد وإعمال فكر يكون أوقع في النفس وأشد تأثيرًا؟ وَلَكِنْ فرق بين إعمال فكر لا يثمر وهو ما كان مرجعه إلى غموض المعنى وتعقيده... وبين إعمال فكر يثمر وهو ما كان مرجعه إلى دقة المعنى ولطافته.

والتعقيد إما أن يكون تعقيدًا لفظيًا وإما أن يكون تعقيدًا معنويًا.

فالتعقيد اللفظي: ما كان سببه اختلال نظم الكلام بالتقديم والتأخير بين أجزائه، فلا يدري السامع كيف يتوصل منه إلى معناه.

كما في قول الفرزدق يمدح خال الخليفة:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلاَّ مُمَلَّكًا ... أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

فالمعنى الذي يريده الفرزدق: وما مثله في الناس أحد يشبهه في الفضائل إلا ابن أخته هشام بن عبد الملك وكان ينبغي أن يكون ترتيب أجزاء البيت: وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه.

فالضمير في "أمه" للملك وفي "أبوه" للممدوح وهو إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، خال هشام بن عبد الملك بن مروان، وقد قدم الفرزدق وأخر بين أجزاء البيت، ففصل بين المبتدأ والخبر بأجنبي، وفصل بين النعت والمنعوت كذلك، وقدم المستثنى على المستثنى منه، فصار البيت في غاية التعقيد، ولعل الفرزدق كان يقصد بهذا الصنيع التهكم بالممدوح والاستخفاف به، وهذا لا يبعد إذا علمنا ولاء الفرزدق للعلويين وعداءه لبني أمية والممدوح منهم.

ومثله قول الفرزدق أيضًا:

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ ... أَبُوهُ ولا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

يريد: إلى ملك أبوه ليست أمه من محارب، أي: إلى ملك ما أم أبيه من قبيلة محارب.

وقول أبي تمام:

ثَانِيهِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَلَمْ يَكُنْ ... كَاثْنَيْنِ ثَانٍ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ

يريد: أنه لم يكن كثاني اثنين.

وقول ذي الرمة:

كَأَنَّ أَصْوَاتَ مِنْ إِيغَالِهِنَّ بِنَا ... أَوَاخِرِ الْمَيْسِ إِنْقَاضُ الْفَرَارِيجِ

يريد: كأن أصوات أواخر الميس إنقاض الفراريج من إيغالهن بنا.

وقول الآخر يصف دارًا بالية:

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطِّ بَهْجَتِهَا ... كَأَنَّ قَفْرًا رُسُومَهَا قَلَمَا

يريد: فأصبحت قفرًا بعد بهجتها كأن قلما خط رسومها.

هذا والتقديم والتأخير بين أجزاء الكلام إنما يؤدي إلى التعقيد إذا انعدمت القرينة الدالة التي تعين المعنى وتحدد المراد من الكلام كما في الشواهد المذكورة، أما إذا قامت القرينة الدالة على المراد، فعندئذٍ لا يؤدى التقديم إلى التعقيد والغموض، بل يكون من أسباب حسن المعنى وجماله، وداعيًا من دواعي فصاحته وبلاغته.

والتعقيد المعنوي:

ما كان سببه اختلال المعنى وذلك بألا يكون انتقال الذهن من المعنى الأصلي للتركيب إلى المعنى المقصود ظاهرًا بينًا.

كما في قول العباس بن الأحنف:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا ... وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

فقد كنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق والبعد من الحزن والألم لفراق

الأحبة، وقد أصاب وأحسن لأن البكاء يستلزم الحزن والأسى، ويدل عليه دلالة بينة حيث جرى على ألسنتهم، فقالوا: أبكاني وأضحكني أي: ساءني وسرني.

وقال الحماسي:

أَبْكَانِي الدَّهْرُ وَيَا رُبَّمَا أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بِمَا يُرْضِي

كنى بإبكاء الدهر إياه عن إساءته له وبإضحاكه عن فرحه وسروره، فدلالة البكاء على الحزن والألم والأسى، دلالة ظاهرة بينه، وردت في كلام العرب وجرت على ألسنتهم.

ثم كنى ابن الأحنف بجمود العينين عما يوجبه دوام التلاقي والقرب من الفرح والسرور، وقد أخطأ في هذا وأساء؛ حيث اعتقد أن الجمود هو خلو العين من البكاء مطلقًا دون اعتبار شيء آخر، لكنهم أطلقوه على خلوها منه عند إرادته وطلبه، فكنوا بجمود العين عن بخلها بالدمع عند الحاجة إليه وقت الحزن والأسى.

كما في قول الخنساء.

أَعَيْنَيَّ جُودَا وَلاَ تَجْمُدَا أَلاَ تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى

وقول أبي عطاء السندي:

أَلاَ إِنَّ عَيْنًا لَمْ تَجُدْ يَوْمَ وَاسِطٍ عَلَيْكَ بِجَارِي دَمْعِهَا لَجَمُودُ[1]

فقد كنيا بجمود العين عن بخلها بالدمع عند الحاجة إليه وطلبه منها لشدة الحزن والأسى، فهي عين جمود أي: لا خير فيها، كما قالوا: سنة جماد. أي: لا مطر فيها وناقة جماد: لا لبن فيها، ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء في حالة الفرح والمسرة، لجاز أن يدعى به للرجل فيقال: "لا زالت عينك جامدة"، كما يقال. "لا أبكى الله عينك".

فالكلام الخالي من التعقيد المعنوي، ينتقل فيه الذهن من المعنى الأصلي إلى

(١) واسط: مكان بين البصرة والكوفة، سمي باسم القصر الذي بناه الحجاج بين الكوفة والبصرة .. انظر لسان العرب مادة: وسط.. والبيت من قصيدة لأبي عطاء السندي في رثاء ابن هبيرة وقد قتله المنصور بواسط بعد أن آمنه. انظر شرح الحماسة للتبريزي جـ٢ ص١٥١.

المعنى المجازي أو الكنائي المراد في وضوح ودون خفاء لظهور العلاقة بين المعنيين وجريان الاستعمال على لسان العرب، ووفق عاداتهم وعرفهم وطرائقهم في التعبير، كما في الكناية بكثرة الرماد، وجبن الكلب، وهزال الفصيل وإشعال النار في الأماكن العالية عن الكرم.

أما إذا جاء الكلام على خلاف ما عرف عن العرب، وعلى خلاف ما قد استعملوه وجرى على ألسنتهم، فعندئذ يصعب فهم المراد ويتعذر على الذهن الوقوف على مرمى الكلام والمقصود منه، فيوصف بالتعقيد المعنوي.

كما في بيت ابن الأحنف السابق وكما في بيت أبي تمام:

مِنَ الْهِيفِ لَوْ أَنَّ الْخَلاَخِلَ صُيِّرَتْ   لَهَا وُشُحًا جَالَتْ عَلَيْهَا الْخَلاَخِلُ

فقد كنى عن دقة الخصر وضمور البطن، بجولان الخلاخل عليها لو اتخذتها وشاحًا فأخطأ وأساء، لأن جولان الخلاخل المتخذة وشاحًا، يدل على بلوغها غاية القصر، ولا يدل على الدقة والضمور، إذ الوشاح ما يضرب للمرأة من العاتق إلى الكشح، فالعلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المراد غير ظاهرة، وانتقال الذهن من المكنى به إلى المكنة عنه يشوبه كثير من الكدارة وعدم الصحة.

أما كثرة التكرار وتتابع الإضافات:

فلا يخلان بفصاحة الكلام، إلا إذا كانا ثقيلين في السمع واللسان، ولذا فهما يرجعان إلى تنافر الكلام، فمن كثرة التكرار المستكره في الأذن، قول المتنبي:

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ   سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ(١)

حيث كرر الضمير في: "لها منها عليها".

ومن تتابع الإضافات الثقيل على اللسان والأذن، قول ابن بابك:

حَمَامَةَ جَرْعَا حَومَةِ الْجَنْدَلِ اسْجَعِي   فَأَنْتِ بِمَرأَى مِنْ سُعَادَ وَمَسْمَعِ(٢)

---

(١) الغمرة: الشدة. والسبوح: الفرس السريعة. والشواهد: العلامات.

(٢) جرعا: مؤنث الأجرع وهو المكان ذو الرمل لا ينبت شيئاً. وحومة الشيء: معظمه، والجندل: الحجارة، واسجعي: غني، وسجع الحمام: هديله.

فالأذن تنفر من كثرة الإضافات في: "حمامة جرعا حومة الجندل"، واللسان يتعثر ويستثقل النطق بها.

أما إذا لم تؤد كثرة التكرار ولا تتابع الإضافات إلى الثقل، فلا يخلان عندئذ بفصاحة الكلام، كما في قول الله عز وجل ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم ٢]، وقوله تعالى: ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ ... ﴾ [غافر ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس ٧، ٨] وكما في قوله عليه الصلاة والسلام: "اَلْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُف بْنُ يَعْقُوبَ بْنُ إِسْحَاقَ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ"(١)

فالأذن لا تحس ثقلاً واللسان لا يجد صعوبة نطق بها في الآيات الكريمة والحديث الشريف من كثرة التكرار وتتابع الإضافات ..

وكما في قول ابن المعتز:

وَظَلَّتْ تُدِيرُ الرَّاحَ أَيْدِي جَآذِرٍ   عِتَاقِ دَنَانِيرِ الْوُجُوهِ مِلاَحِ(٢)

وقول الخالدي:

وَصَيْرَفِيِّ الْقَرِيضِ وزَّانُ دِينَارِ الْمَعَانِي الدِّقَاقِ مُنْتَقِدُ(٣)

فالإضافات المتتابعة في البيت الأول: "عتاق دنانير الوجوه"، وفي البيت الثاني: "وزان دينار المعاني"، لا ثقل فيها على الأذن ولا صعوبة على اللسان في النطق بها.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء رقم [١٩ / ٣٣٩٠].

(٢) الراح: الخمر، والجآذر: جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية وعتاق جمع عتيق بمعنى كريم، وإضافة دنانير إلى الوجوه من إضافة المشبه به إلى المشبه.

(٣) الصيرفي: المحتال في الأمور، والقريض: الشعر، والمنتقد: الخبير بالتمييز بين جيد الأشياء ورديئها.

فصاحة المتكلم

أما فصاحة المتكلم فهي ملكة تتكون لديه ويكتسبها بكثرة المران والتدريب وقراءة التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة، وحفظ كثير من الشعر والنثر حفظًا دقيقًا واعيًا متأملاً وقبل هذا وبعده حفظ كتاب الله عز وجل وحديث النبي ﷺ والتفقه فيهما، وبتكون تلك الملكة يستطيع المتكلم أن يعبر عما يريد وعما يقصد بلفظ فصيح، ويوصف هذا المتكلم بالفصاحة فيقال له: متكلم فصيح.

❊ ❊ ❊

بلاغة الكلام

ذكر البلاغيون المتقدمون في تعريف البلاغة أقوالاً متعددة منها قول معاوية لصحار العبدي ما البلاغة: فقال: البلاغة؟ الإيجاز، قال وما الإيجاز؟ فقال صحار: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ(١).

وسئل ابن المقفع ما البلاغة؟ فقال: البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب، الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السماطين، وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملال.

وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، قيل فإن ملَّ السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف، قال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنهما لا يرضيهما شيء(٢).

وقالوا: البلاغة لمحة دالة. والبلاغة معرفة الفصل والوصل. والبلاغة اختيار

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٩٦.

(٢) نفس المصدر ١/ ١١٥.

الكلام وتصحيح الأقسام. والبلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى. والبلاغة كلمة تكشف عن البقية والبلاغة حسن العبارة وصحة الدلالة والبلاغة القدرة على البيان مع حسن النظام.

أما المتأخرون فقد عرفوا البلاغة تعريفًا يقرب مما ذكره ابن المقفع حيث قالوا: بلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته.

والمراد بالحال: الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يعتبر في كلامه خصوصية ما، ومقتضى الحال هو تلك الخصوصية التي اعتبرها المتكلم في كلامه، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال: هي مجيء الكلام مشتملاً على تلك الخصوصية التي اقتضاها الحال، فمثلاً إذا كان هناك من ينكر قيام زيد، فهذا الإنكار حال يقتضي أن يؤكد المتكلم كلامه فيقول: إن زيدًا لقائم، ومجيء الكلام مؤكدًا هو مطابقته لمقتضى الحال.

وإذا كان هناك إنسان عظيم نبيه الشأن جليل القدر وأردت أن تتحدث عنه فإنك تقول: هذا هو الرجل، فعظم هذا الرجل ونباهة شأنه وجلالة قدره حال يقتضي تعريفه بالألف واللام، ومجيء الكلام معرفًا هو مطابقته لمقتضى الحال.

وعلى العكس يقال للحقير: أهذا رجل؟ فالحقارة حال. والتنكير مقتضاه، ومجيء الكلام منكرًا هو مطابقته لمقتضى الحال، وهكذا يختلف الكلام تبعًا لاختلاف الأحوال، فمقام التألم أو الخوف يقتضي الإيجاز، إذ المتألم تكفيه الكلمة، والخائف تغنيه الإشارة، ومقام الأنس والتلذذ يقتضي الإطناب، لأن الأنس يحتاج إلى الإسهاب وإطالة القول.

والبلاغة أن يأتي الكلام مطابقًا للحال التي يلقَى فيها، وأن تتحقق فصاحة كلماته وتراكيبه، فإن طابق الكلام مقتضى الحال ولم يكن فصيحًا، لا يعد بليغًا، وكذا إن كان الكلام فصيحًا ولم يطابق مقتضى الحال، فليس من البلاغة.

هذا ويذكر البلاغيون أن البلاغة تتفاوت تبعًا لوفاء الكلام بخصائص تراكيبه ومقتضيات أحواله، فالرماني يجعل البلاغة ثلاث طبقات: عليا ووسطى ودنيا.

فالعليا هي بلاغة القرآن الكريم والوسطى والدنيا تتفاوت فيهما بلاغة البلغاء من البشر.

والقزويني يجعل للبلاغة طرفين أعلى إليه تنتهي وهو حد الإعجاز وما يقرب منه، وطرفًا أسفل منه تبتدئ وهو ما إذا غير الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات وإن كان صحيح الإعراب، وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوتة حسب تفاوت البلغاء في التعبير والوفاء بمقتضيات الأحوال.

***

بلاغة المتكلم

أما بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ، وتلك الملكة تتكون لديه بكثرة المران والقراءة ومعايشة التراكيب الجيدة والتعبيرات الرفيعة وتأملها تأملاً واعيًا وإدراكها إدراكًا تامًا، يضاف إلى هذا أن يكون ذلك المتكلم ذات طبع وذكاء يستطيع بهما الابتكار وتوليد المعاني، وعندئذ يستحق أن يوصف بالبلاغة، فيقال له: متكلم بليغ. وبهذا يتضح أن بلاغة المتكلم لا تختلف عن فصاحته.

هذا ولا تقع البلاغة وصفًا للكلمة المفردة – كما ذكرنا – إلا إذا أريد بالكلمة الكلام المركب، فتوصف بالبلاغة على هذا الاعتبار ويقال كلمة بليغة، لأن المراد بالكلمة عندئذ: الكلام المركب كالخطبة أو القصيدة أو الجملة أو الجمل، وليس المراد بها "اللفظ المفرد"، وقد أطلقت الكلمة على الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [المؤمنون ١٠٠] حيث أطلت الكلمة في الآية الكريمة على ثلاث جمل وهي: " رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ".

علم المعاني ومباحثه

عرف البلاغيون علم المعاني بقولهم: "هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال".

و "اللفظ العربي" يشمل اللفظ المفرد واللفظ المركب أي الجملة وأجزاءها والجمل الملتقية، فأحوال الجملة: الإسناد الخبري، والإنشاء وأسلوب القصر، وأحوال الجمل: الفصل والوصل والإيجاز والإطناب والمساواة، وأحوال أجزاء الجملة: أي المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل، كالتعريف والتنكير والحذف والذكر والتقديم والتأخير والإظهار والإضمار وغير ذلك.

فعلم المعاني يبحث في تلك الأحوال، وكيف تأتي مطابقة لمقتضى حال المخاطب، أي أنه يبحث في بناء الجملة العربية: صياغتها، اختيار أجزائها، علاقة الجمل المتتابعة بعضها ببعض، واختيار نوع الكلام الملائم لمقتضى حال المخاطب، خبرًا أو إنشاء، إيجازًا أو إطنابًا أو مساواة، ولذا فإن مباحثه تنحصر فيما يلي:

١ - أحوال الإسناد الخبري.

٢ - أحوال المسند إليه.

٣ - أحوال المسند.

٤ - أحوال متعلقات الفعل.

٥ - أساليب القصر.

٦ - أساليب الإنشاء.

٧ - مواضع الفصل والوصل.

٨ - الإيجاز والإطناب والمساواة.

وعلم النحو وإن كان قد تعرض لدراسة هذه الأحوال فدرس أحوال المسند إليه من حذف وذكر وتقديم وتأخير وتنكير وتعريف وكذا أحوال المسند والمتعلقات والحصر وغير ذلك.. إلا أن دراسته لها تختلف عن دراسة البلاغيين، فالنحوي يدرس هذه الأحوال من حيث الجواز والوجوب والامتناع. أي: من

حيث الحكم وإمكان الاستعمال. أما البلاغي فيدرس الأسرار الكامنة وراء هذه الأحوال، لأنه يتناولها من حيث كونها مطلبًا بلاغيًا يقتضيه المقام ويدعو إليه حال المخاطب.

الفرق بين الخبر والإنشاء

يتنوع الكلام إلى نوعين: خبر وإنشاء:

فالخبر هو الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته، نحو قولنا: "جاء زيد"، فهذه الجملة أفادت نسبة المجيء إلى زيد والحكم به عليه، فإن وافق ذلك الواقع كان الخبر صادقًا ووصف الكلام بالصدق وإن خالفه كان الخبر كاذبًا ووصف الكلام بالكذب ...

وكذا قولنا "ما جاء زيد" أفاد نفي المجيء عن زيد، فإن وافق ذلك الواقع وصف الكلام بالصدق، وإن خالفه وصف بالكذب ..

وفي بعض الأحيان قد يوصف الخبر بالصدق فحسب، أو بالكذب فقط، ولكن هذا ليس لذات الكلام من حيث هو كلام خبري وإنما باعتبار أسباب أخرى خارجة عن نطاق الجملة تؤيد صدقه أو كذبه .. فأخبار القرآن الكريم لا تحتمل إلا الصدق باعتبارها كلام الله جل وعلا، وإن كانت تحتمل الصدق والكذب من حيث هي أخبار بصرف النظر عن قائلها .. وقول اليهود: عزيز ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، كلام لا يحتمل إلا الكذب، لأن الواقع يكذبه ويبطله، وإن كانت تحتمل الصدق والكذب من حيث هي أخبار.

فوصف الخبر بالصدق فقط أو بالكذب فقط، إنما هو باعتبار أسباب خارجة عن نطاق العبارات – كما قلت – وليس لذات الكلام من حيث هو كلام خبري، لذا كان هذا القيد في التعريف "لذاته" أي: لذات القول.

أما الإنشاء فالهدف منه والمقصد إيجاد الشيء وإنشاؤه ابتداء ولذا عرفوه بأنه: قول لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، وهذا لا يعني أنه ليس لمفهوم الكلام الإنشائي واقع يوافقه أو يخالفه، بل له واقع خارج نطاق العبارة، له واقع في ذهن المتكلم به، ولكن لا يقصد موافقة مفهوم الكلام الإنشائي لهذا الواقع الخارجي

الكائن في ذهن المتكلم أو عدم موافقته، بل القصد – كما قلت – إلى إيجاد الشيء وإنشائه ابتداء: فقولك: حافظ على الصلاة، اقرأ القرآن. لا تقرب الفواحش. أين محمد؟. ليت الشباب يعود. يا خالد .. هذه أساليب إنشائية القصد منها إحداث الشيء وإيجاده ابتداء، ولا يقصد وصفها بالصدق أو بالكذب، ولذا قالوا: الإنشاء قول لا يحتمل الصدق والكذب.

هذا وتفصيل القول في أساليب الإنشاء وأنواعه وما يكن وراءه من دقائق، وفي الخبر وأجزائه وأحواله وما يكمن في الصياغة والتراكيب من أسرار ودقائق ولطائف هو ما سنتناوله بالدراسة في فصول هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

الفصل الأول

أحوال الإسناد الخبري

الكلمات المفردة مثل: محمد - زيد - ذهب - شكر - لا يفهم منها سوى معانيها اللغوية التي وضعت لها، ولكي تفيد معنى تامًا، لابد من ترابطها وضم بعضها إلى بعض، وصياغتها في تراكيب مفيدة، ونظم معبر، هذا الترابط وذاك الضم، وتلك الصياغة، هي ما أطلق عليه البلاغيون اسم: "الإسناد" وعرفوه بقولهم: هو ضم كلمة إلى كلمة على وجه يفيد أن مفهوم إحداهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفى عنه، فقولنا: شكر محمد، ولم يذهب زيد، نجد أن كلمة "شكر" قد أسندت إلى كلمة "محمد" على وجه يفيد أن مفهوم "شكر" ثابت لمفهوم "محمد" ونجد في المثال الثاني أن كلمة: "يذهب" قد أسندت إلى كلمة "زيد" على وجه يفيد أن الذهاب منفى عن زيد.

ويسمى كل من: "محمد وزيد" مسندًا إليه أو محدثًا عنه، كما يسمى: "شكر ويذهب"، مسندًا أو حديثًا، وتسمى النسبة بين المسند إليه والمسند "إسنادًا" وكذا القول في الجمل: هدانا الله، الحق واضح، محمد فاضل، الفراغ مفسدة، الشمس ليست مشرقة، حيث أسندت الهداية إلى الله، والوضوح إلى الحق، والفضل إلى محمد، والفساد إلى الفراغ على وجه الإثبات، وأسند الإشراق إلى الشمس على وجه النفي، ولا يخفى عليك معرفة المسند والمسند إليه في الجمل المذكورة.

أغراض الخبر

عند ضم الكلمات وإسناد بعضها إلى بعض تتكون الجمل المفيدة أو الأخبار، والمتكلم الذي بصدد الإخبار والإعلام، يقصد بخبره غرضًا، ويسعى من وراء الإعلام به إلى غاية، وقد حصر البلاغيون أغراض الخبر في مقصدين أساسيين؛ حيث قالوا: إن قصد المخبر بخبره إما إفادة المخاطب أو السامع مضمون الخبر ونفس الحكم كقوله: جاء عمرو، وزيد ناجح لمن لا يعلم مجيء عمرو، ونجاح زيد، ويسمى هذا "فائدة الخبر" وهي المقصد الأول من الأسلوب الخبري.

وإما إفادة المخاطب أنه أي: المتكلم، عالم بالحكم وبمضمون الخبر الذي

يعلمه المخاطب، وذلك عندما يكون المخاطب عالمًا بمضمون الخبر ولكنه يجهل معرفة المتكلم به، كقوله لمن ظهرت نتيجة اختباره ووقف على نبأ نجاحه: "أنت نجحت"، وكقوله لمن اسمه محمد: "اسمك محمد"، فالمخاطب يعلم نبأ نجاحه ولا يجهل اسمه، ولكن المتكلم يريد إفادته أنه هو الآخر عالم بالحكم وبمضمون الخبر، ويسمى هذا: **"لازم الفائدة"** وهو المقصد الثاني من الأسلوب الخبري.

ثم نبه البلاغيون، إلى أن الخبر غالبًا ما يقصد به أغراض أخرى غير هذين الغرضين الأساسيين وأن تلك الأغراض الأخرى أكثر من أن تحصى، والمرجع في معرفتها إلى تفهم السياق وقرائن الأحوال اعتمادًا على الذ ِق الأدبي السليم والطبع العربي الأصيل.

تأمل قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ** ﴾ [آل عمران ٣٦].

تجد أن امرأة عمران لم ترد بالخبر فائدته ولا لازم الفائدة، لأن الله عز وجل أعلم بهذا، وإنما أرادت أن تظهر تحسرها وتحزنها على خيبة الرجاء حيث كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكرًا كي تهبه لخدمة بيت المقدس.

ثم تأمل قوله تعالى ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ [البقرة ١٨٥]. ولاحظ مدى الفرق بين الأخبار في هذه الآية الكريمة والخبر في الآية السابقة، فالأخبار في هذه الآية، أريد بها إعلام المؤمنين حكمًا إسلاميًا وخبرًا جديدًا لم يكن معلومًا لهم من قبل، وهذا ما سمي "بفائدة الخبر".

ومن هذا القبيل تلك الأخبار التي يكون الغرض منها عرض المسائل العلمية على الطلبة في قاعة الدراسة وفي الكتب العلمية المؤلفة في مختلف فنون العلم، وتعد إجابات الطلاب على ما يوجه إليهم من أسئلة أخبارًا قصد بها "لازم الفائدة" إذ الغرض منها إفادة المعلم أنهم على علم بصحة الإجابة التي يعلمها.

ومن الأخبار التي لم يرد بها الفائدة ولا لازمها قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا** ﴾ [مريم ٤] إذ المراد إظهار الضعف والتخشع والخضوع لله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ٩٥]. فالمراد حث الهمم وتحريك حمية القاعد.

ومن ذلك إرادة الفخر كما في قول عمرو بن كلثوم:

إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا رَضِيعٌ ... تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا

والنصح والإرشاد كما في قول زهير:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ ... عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ

والمدح كما في قول النابغة يمدح النعمان بن المنذر:

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

والهجاء كما في قول جرير يهجو الفرزدق:

زَعَمَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مِرْبَعًا ... أَبْشِرْ بِطُولِ سَلاَمَةٍ يَا مِرْبَعُ

وإظهار الحزن والأسى كما في قول العرجي:

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتًى أَضَاعُوا ... لِيَومِ كَرِيهَةٍ وَسَدَادِ ثَغْرِ

والرثاء كما في قول أبي ذؤيب الهذلي:

أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي غُصَّةً ... بَعْدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةً لاَ تُقْلِعُ

وكما في قول ابن الرومي:

طَوَاهُ الرَّدَى عَنِّى فَأَضْحَى مَزَارُهُ ... بَعِيدًا عَلَى قُرْبٍ قَرِيبًا عَلَى بُعْدِ

وإظهار الضعف وإبداء الملل والسآمة كما في قول عوف بن محلم:

إِنَّ الثَّمَانِينَ -وَبُلِّغْتَهَا- ... قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تُرْجُمَانِ

والتوبيخ والإنكار كقولك لمن يؤذي أباه: "إنما هو أبوك" إلى غير ذلك من الأغراض التي نبه البلاغيون إلى أنها أكثر من أن تحصى(١).

---

(١) انظر المطول صـ٤٣.

وجه دلالة الخبر على أغراضه

اختلفت آراء البلاغيين في وجه دلالة الخبر على أغراضه المذكورة فبعضهم يرى أن الغرض الأول وهو "فائدة الخبر" يفهم من ذات الخبر ويدل عليه دلالة حقيقية مباشرة، فعندما تقول لمن لا علم له بنجاح محمد: نجح محمد، فإنه يفهم مضمون الخبر وفائدته من ذات الجملة ونفس الإسناد.

أما بقية الأغراض فيدل عليها الخبر دلالة تبعية، فهي من مستتبعات التراكيب، ومعنى مستتبعات التراكيب أن تلك الأغراض تفهم من الخبر بمعرفة السياق ومعرفة قرائن الأحوال، فدلالة الآية الكريمة ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ على إظهار التحسر وإبداء التحزن، تم عن طريق معرفة السياق والوقوف على قرائن أحواله، من أن امرأة عمران قد وهبت ما في بطنها لخدمة بيت المقدس، وأنه قد خاب رجاؤها ولم يتحقق ما أملته عندما وضعت أنثى، وهكذا بقية الأغراض يدل عليها الخبر بمعونة السياق ومعرفة قرائن أحواله.

ويرى آخرون أن "فائدة الخبر" و**"لازم الفائدة"** قد دل عليهما الخبر دلالة حقيقية حيث يفهمان من ذات الإسناد ونفس البناء وما عداهما دل عليه الخبر عن طريق الكناية، فكما دلت كثرة الرماد وهزال الفصيل وجبن الكلب على صفة الكرم، فكذلك الدلالة على الأغراض المذكورة: إظهار التحسر – إبداء الضعف – الفخر –المدح–الهجاء– الرثاء – قد فهمت من أخبارها في الشواهد المذكورة عن طريق الكناية.

ورأي ثالث يقول: إن هذه الأغراض التي خرجت عن الأصل من قبيل المجاز المرسل، حيث استعمل الكلام في معنى الفخر أو المدح أو التحسر أو تحريك الحمية مثلاً مجازًا مرسلاً مركبًا من استعمال المركب في غير ما وضع له لعلاقة اللزوم(١).

ولا أرى فائدة ولا ثمرة وراء هذه الاختلافات في تحديد وجه دلالة الخبر،

---

(١) ارجع إلى هذه الآراء في شروح التلخيص ١/ ٤٧.

والذي أرجحه هو الرأي الأول، لأن المخاطب عندما يقف على السياق ويعرف قرائن أحواله تتضح له هذه الأغراض، فليس هنالك ما يدعو إذًا للقول بأن إفادتها عن طريق الكناية أو المجاز المرسل المركب.

أضرب الخبر

يعد المبرد أول من أشار إلى أضرب الخبر وذلك عندما سأله الفيلسوف الكندي قائلاً: أجد في كلام العرب حشوًا، أراهم يقولون: عبد الله قائم، وإن عبد الله قائم، وإن عبد الله لقائم، والمعنى واحد، فأجابه المبرد قائلاً بل المعاني مختلفة، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل، وإن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر.

وقد أفاد البلاغيون من إجابة المبرد، ونبهوا إلى ضرورة أن يكون المتكلم عالمًا بأحوال المخاطبين، خبيرًا بما في نفوسهم وما يجول في خواطرهم ويتردد في أذهانهم، وأن يلقى إليهم كلامه ملائمًا لتلك الأحوال، فإذا كان المخاطب خالي الذهن ألقى إليه الكلام بدون تأكيد فيقال له مثلاً: الحق واضح. انتصر الحق. عاد الغائب، فيتمكن هذا في ذهنه لمصادفته إياه خاليًا.

وإذا كان المخاطب مترددًا في إسناد أحد الطرفين إلى الآخر ألقى إليه الكلام مؤكدًا بمؤكد واحد استحسانًا فيقال: إن الحق واضح. قد انتصر الحق، قد عاد الغائب.

ومؤكدات الحكم كثيرة منها: إن وأن ولام الابتداء والقسم ونون التوكيد وحروف التنبيه نحو ألا وها، والحروف الزائدة وقد وضمير الفصل والتقديم إلى غير ذلك من المؤكدات.

وإذا كان المخاطب منكرًا للحكم وجب توكيد الخبر له حسب إنكاره فيقال له: إن الحق واضح، إن كان لا يبالغ في إنكاره، وإن الحق لواضح إن كان يبالغ، ووالله إن الحق لواضح لمن اشتد إنكاره وغالى فيه.

فأضرب الخبر ثلاثة: "ابتدائي" وهو ما يلقى للمخاطب الخالي الذهن، ويكون خاليًا من التوكيد، و"طلبي" وهو ما يلقى للمخاطب المتردد في الحكم،

ويكون مصحوبًا بمؤكد واحد استحسانًا، و" إنكاري" وهو ما يلقى للمخاطب المنكر لمضمون الخبر، ويجب أن يكون الكلام حينئذ مصحوبًا بمؤكد أو أكثر حسب قوة الإنكار وضعفه.

انظر في قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ [يس ١٣-١٦] تجد أن أصحاب القرية قد كذبوا الرسولين وأنكروا رسالتهما فعزز الله بثالث فقالت الرسل الثلاثة: ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ مؤكدين الخبر لأصحاب القرية، لأنهم منكرون له، فلما اشتد إنكارهم وجحدهم لرسالتهم: ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ قالت الرسل: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾، مؤكدين الخبر بإن واللام وصدروا الجملة بما هو في معنى القسم: " رَبُّنَا يَعْلَمُ" .

وانظر في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر ٩] تجد أن المقام قد اقتضى تأكيد الخبرين بأكثر من مؤكد دفعًا لإنكار المنكرين وتبديدًا لارتياب وشك الشاكين فالكفرة قد أنكروا نزول القرآن وقالوا ساخرين: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الحجر ٦، ٧] واقتضى هذا الإنكار تأكيد الخبر – كما ترى – بإن وضمير الفصل "نحن" وتكرار الإسناد للضمير "نحن نزلنا". ولما كانت هناك شكوك محتملة أن يصيب القرآن ما أصاب التوراة والإنجيل من التحريف والتبديل، جاء الخبر الثاني مؤكدًا بإن ولام التوكيد وتقديم الجار والمجرور "له" وهذا التأكيد يدفع تلك الشكوك المحتملة ويبث الطمأنينة في قلوب المؤمنين.

وخذ قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ [النجم من

٤٢ إلى ٥٢]. وتأمل تجد أن ضمير الفصل "هو" قد جاء في بعض الآيات دون بعض، وأن الآيات التي جاء بها تحتاج إلى مزيد من تأكيد الخبر وتقوية نسبة أفعالها إلى الله عز وجل واختصاصها به، فالإضحاك والإبكاء – بمعنى السرور والحزن – والإحياء والإماتة والإغناء والإقناء – "أقنى": أعطى القنية وهو المال الذي تملكته وعزمت ألا تخرجه من يدك – هذه الأفعال لما كانت مظنة الشركة وأن لغير الله – سبحانه وتعالى – دخلاً وفاعلية فيها، وكان هناك من ينكر البعث، جاء ضمير الفصل ليؤكد نسبة هذه الأفعال إلى الله تعالى واختصاصها به وليبطل أن يكون لغيره دخل في شئون عباده، وليستأصل مظنة الشركة فيها فلا يتطلع المؤمن ولا ينظر إلا إلى مالك الملك رب السموات والأرض ورب العرش العظيم.

وكذلك "الشعرى" لما كانت خزاعة تعبدها من دون الله، أكد النظم ربوبيتها له تعالى، وانظر إلى تقديم الجار والمجرور .. " إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى". " عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى"، ليؤكد بهذا التقديم ما ينكره المعاندون من انقلابهم إليه تعالى وإحيائه لهم بعد مماتهم، ثم انظر إلى الأفعال التي جاءت بدون ضمير الوصل في الآيات ولاحظ أنها ليست موضع إنكار ولا مظنة شركة: "وأنه خلق الزوجين"، "وأنه أهلك عادًا". فهم لا ينكرون أن الله هو الخالق بل يقرون بذلك وينطقون بنسبة الخلق إليه تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف ٧٨] وإهلاك عاد وثمود وقوم نوح يعلمونه ويسمعونه من غير القرآن ولا ينكرونه فليس الخلق والإهلاك مما تظن فيه الشركة، ولذا خلت الآيتان من ضمير الفصل، وهكذا تجد نبرة التوكيد في الآيات تعلو وتهبط لتلائم مواقع المعاني في النفوس وما يكمن داخلها وسبحان المحيط بالأسرار(١).

هذا ومجيء الخبر على هذه الأضرب الثلاثة وملائمًا لحال المخاطب، فيخلو من التأكيد عند إلقائه لخالي الذهن ويؤكد استحسانًا للمتردد ووجوبًا للمنكر، يسمى إخراجًا للكلام على مقتضى الظاهر، وكثيرًا ما يخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر فيأتي على أمور اعتبارية يعتبرها المتكلم في المخاطب فينزل حاله

---

(١) ارجع إلى خصائص التراكيب ص٥٠.

منـزلة حال أخرى ويكون ذلك لدواعٍ وأسرار بلاغية يقتضيها المقام.

إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر

قد يقتضي المقام أن يفترض المتكلم حالاً في المخاطب غير حاله الحقيقية التي هو عليها، فينـزل خالي الذهن منـزلة المتردد أو المنكر، وينـزل المنكر منـزلة غير المنكر، وذلك لا يكون إلا لأسرار يلتفت إليها المتكلم ويعيها البصير بلطائف هذه اللغة ودقائقها، فعندما تكون الجمل المتقدمة في سياق الكلام متضمنة ما يشير إلى الخبر وَيُلَوِّحُ به ويومئ إليه فإنها تثير في النفس المتلقية تساؤلاً يجعلها تتطلع وتستشرف إلى معرفة الخبر والوقوف عليه، وعندئذ تأتي جملة الخبر مؤكدة لتمحو وتزيل ما أثير في نفس المخاطب من تساؤلات واستشرافات منـزلة إياه منـزلة المتردد السائل، ويقع هذا غالبًا إذا كانت الجمل السابقة تتضمن نصائح أو إرشادًا وتوجيهًا أو نهيًا وأمرًا، أو حدثًا غريبًا يستدعي وقوف النفس وتأملها.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾[هود ٣٦، ٣٧] تجد أن جملة: " إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ "، قد جاءت مؤكدة بإن، والمخاطب وهو نوح – عليه السلام- ليس مترددًا في مضمون إفادتها وذلك لأنه لما تقدم في سياق الآيات الكريمة إخباره أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، ونهيه عن أن يحزن لما صنعوا: "فَلاَ تَبْتَئِسْ" ثم أمره بصنع الفلك ونهيه عن مخاطبة الله في شأن من أعرض وكفر، هذا الذي تقدم أثار في نفس نوح عليه السلام تساؤلاً عما سيحل بالقوم وتطلعت نفسه إلى معرفة الخبر، أهو إغراق؟ خاصة وأن الأمر بصنع الفلك يشير إليه إشارة ظاهرة؟ فنـزل لهذا منـزلة المتردد السائل وألقى إليه الخبر مؤكدًا "إنهم مغرقون" ليجيب ما أثير في نفسه.

ومثله قوله تعالى ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة ٤٠] فتقدم النهي "لا تحزن" أثار في نفس أبي بكر ﷺ تطلعًا وتشوقًا إلى معرفة الخبر، ولذا جاء مؤكدًا: "إن الله معنا" تنـزيلاً له منـزلة السائل المتردد".

ومثل هذا كثير في أساليب القرآن الكريم تأمل قوله تعالى ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [التوبة ٩٥] وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة ٥٣] وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة ٨٤] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء ٣٢] ولا يخفى عليك مجيء الخبر مؤكدًا بعد الأوامر والنواهي في الآيات الكريمة، لأن الأمر أو النهي المتقدم أثار في نفس المخاطب تساؤلاً وتطلعًا إلى معرفة الخبر فنزل منزلة السائل المتردد.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف ٥٣] تجد أن صدر الآية قد تضمن خبرًا غريبًا وهو اتهام المتكلم نفسه ونفي التبرئة عنها، والمتكلم وهو يوسف – عليه السلام – أو امرأة العزيز، على خلاف بين المفسرين، فعلى أنه يوسف، يكون نفى التبرئة عن نفسه أمرًا غريبا يثير في النفس تساؤلاً واستشرافًا لمعرفة الخبر، إذ كيف لا يبرئ يوسف نفسه وهو التقي النقي؟ ولذا جاء الخبر مؤكدًا "إن النفس لأمارة بالسوء" تنزيلاً للمخاطب خالي الذهن منزلة السائل المتردد، وعلى الرأي القائل بأن المتكلم امرأة العزيز فلا يخلو نفي التبرئة عن نفسها من إثارة التساؤل في نفس المخاطب، لأن اتهام النفس ونفي التبرئة عنها من الأمور المستبعدة.

ومن أشعارهم في هذا الصدد قول الرَّاجز:

فَغَنِّهَا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ إِنَّ غِنَاءَ الْإِبِلِ الْحُدَاءُ

فحينما قال الشاعر: غنها ليشتد سيرها، استشرف السامع وتساءل: ما غناؤها أهو الحداء أم غيره؟ فجاء الخبر مؤكدًا "إن غناء الإبل الحداء"، على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيل خالي الذهن منزلة المتردد السائل ليزيل ما أثير في نفس السامع.

ومما يروى أن أبا عمرو بن العلاء وخلف الأحمر كانا يأتيان بشارًا، فيستمعان إليه ويكتبان عنه، وقد أتياه يومًا فقالا: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة؟

قال هي ما بلغتكما. قالا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب، قال: نعم إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف، قالا: فأنشدنا يا أبا معاذ، فأنشدهما:

بَكِّـرَا صَـاحِبَيَّ قَبْـلَ الْـهَجِيرِ إنَّ ذاكَ النَّجَـاحَ فِي التَّبْكِيرِ

حتى فرغ منها، فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان "إن ذاك النجاح"، "بكرا فالنجاح"، كان أحسن، فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية، فقلت: "إن ذاك النجاح"، كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت: "بكرا فالنجاح" كان هذا من كلام المولدين، ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة، فقام خلف فقبل ما بين عينيه.

وإنما كان "بكرا فالنجاح" من كلام المولدين، لأنه ليس فيه من دقة الإشارة إلى تنـزيل غير المتردد منـزلة السائل المتردد، ما في قوله: "إن ذاك النجاح"، ولكن فيه تكرير الأمر بالتبكير لتأكيده على وجه ظاهر ليس فيه دقة ذلك التأكيد الخفي، والمولدون يؤثرون السهولة على الدقة(١).

وقد ينـزل المنكر منـزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره. لأنه لو فكر وتأمل لارتدع، وانتهى عن إنكاره، وأقلع عن جحوده وتكذيبه.

انظر في قوله تعالى: ﴿ **وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة١٦٣] تجد أن الخطاب موجه إلى المشركين المعاندين الذين لا يقرون بالوحدانية لله تعالى، وكان مقتضى حالهم أن يلقى إليهم الكلام مؤكدًا ولكنهم نزلوا منـزلة غير المنكرين، لعدم الاعتداد بهذا الإنكار،لأنهم لو تأملوا وتدبروا لأقلعوا عن إنكارهم ولأقروا بما ينبغي لجلال سلطانه وعظيم شأنه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ **كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ** ۝ ﴾ [الرعد ٣٠] تجد أن الخبر "هو ربي" قد وجه إلى هؤلاء المنكرين الذين

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٧٧، ١٨٨.

كفروا بالرحمن، خاليًا من التأكيد، حيث لم يعتد بإنكارهم، وهذا ينبئ بضعف عقولهم وقرب نظرهم، لأنهم لو تأملوا وفكروا ما أنكروا.

وخذ قوله تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ [الشورى ١٥] تجد أن الخبر "الله ربنا وربكم" مساق للكفرة الذين ينكرونه، وقد خلا من التوكيد إشارة إلى أنه مما ينبغي ألا يجحد وينكر، ومثل هذا كثير في النظم الكريم... انظر إلى الآيات الكريمة: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة ١، ٢] وقوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ ﴾ [غافر ١، ٢] وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح ٢٨، ٢٩].

نجد أن الخطاب فيها موجه إلى المؤمن والكافر، ولكنها لم تعبأ بإنكار الكافر وتكذيبه رسالة محمد ﷺ، وتنزيل الكتاب، فألقت الخبر بلا تأكيد: "ذلك الكتاب لا ريب فيه" "تنزيل الكتاب من الله"، "محمد رسول الله.." تنبيهًا إلى أنه لو تأمل وتدبر لأقر بذلك ولم يجحد.

وتقول لمنكر الإسلام ولجاحد الصلاة ولمنكر وجود الله: الإسلام حق، الصلاة واجبة، الله موجود، فتنزله منزلة غير المنكر لعدم اعتدادك بإنكاره.

وانظر إلى قول الفرزدق مخاطبًا هشام بن عبد الملك حينما أنكر معرفته لعلي بن الحسين.

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمُ ... هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ ... بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا
وَلَيْسَ قَوْلُكَ مَنْ هَذَا بِضَائِرِهِ ... الْعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ

فلم يعتد الفرزدق بإنكار هشام وتجاهله "عليًا"، وألقى إليه الخبر مجردًا من التوكيد، تنزيلاً له منزلة غير المنكر، لأنه لو أنصف ما أنكر وتجاهل، ولذا لم يعتد

الشاعر بهذا الإنكار، وفيه توبيخ وتبكيت لهشام حيث أنكر أمرًا معلومًا واضحًا ما كان ينبغي له أن ينكره.

وقد ينـزل غير المنكر منـزلة المنكر، إذ بدا عليه شيء من أمارات الإنكار، فيلقى إليه الخبر مؤكدًا. انظر إلى قول الباهلي:

جَاءَ شَقِيقٌ عَارِضًا رُمْحَهُ   إِنَّ بَنِي عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحُ

لما رأي شقيقًا قد جاء عارضًا رمحه أي: واضعه على عرضه وجاعله على فخذه، مدلاً بشجاعته، مفتخرًا بقوته، لم يعبأ ببني عمه، وكأنهم عزل من السلاح، لما رآه الشاعر هكذا نزله منـزلة المنكر الذي يجحد قوة بني عمه ولا يقر بما لديهم من عتاد وأسلحة، فخاطبه خطابه، وألقى إليه الخبر مؤكدًا: "إن بني عمك فيهم رماح"..

وخذ قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النمل ٨٠، ٨١] لما كان ﷺ شديد الحرص على هدايتهم، مجهدًا نفسه في إبلاغهم ما أنزل إليه، متطلعًا إلى استجابتهم وقبولهم الحق وإقلاعهم عن الضلال والكفر، لما كان كذلك نزل منـزلة من يعتقد أنه يستطيع إسماع الصم وهداية العمى وينكر عدم قدرته على إسماعهم وهدايتهم فألقى إليه الخبر مؤكدا: "إنك لا تسمع الموتى"..

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف ١٥٣]، تجد أن الذين تابوا وآمنوا لا ينكرون مغفرة الله ورحمته، ولكنهم لما كانوا قد ارتكبوا السيئات واقترفوا الذنوب والآثام صاروا في خوف من عقاب الله، وكلما تذكروا ما اقترفوا اقشعرت جلودهم وتذكروا عذاب الله، فنـزلت حالتهم هذه وما هم فيه من خوف وقلق وعدم أمن، منـزلة من ينكر رحمة الله ومغفرته، وألقى إليهم الخبر مؤكدًا: "إن ربك من بعدها لغفور رحيم" طمأنة لهم وتثبيتًا..

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر ٩]، فقد

أكد الخبر الأول "إنا نحن نزلنا الذكر" دفعًا لإنكار المنكرين – كما مر بنا –وأكد الخبر الثاني: "وإنا له لحافظون" بثًا للطمأنينة في قلوب المؤمنين الذي رأوا ما أصاب الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل من تحريف وتبديل، فخافوا أن يصيب القرآن ما أصاب هذه الكتب وتطلعوا إلى حفظه من التحريف وجال القلق على القرآن في نفوسهم، ولذا خوطبوا خطاب المنكر فأكد لهم الخبر على خلاف مقتضى الظاهر، تثبيتًا لهم.

وتأمل قول أبي العتاهية:

تَرْجُــو النَّجَــاةَ ولَــمْ تَــسْلُكْ مَــسَالِكَهَا ... إِنَّ الــسَّفِينَةَ لاَ تَجْــرِي عَــلَى الْيَــبَسِ

فلما كان المخاطب يطلب النجاة ولم يأخذ بأسبابها ولم يسلك طرقها نزل منـزلة من يعتقد أن السفينة تجري على اليبس وينكر عدم جريانها عليه، فأكد له الخبر: "إن السفينة لا تجري على اليبس".

وانظر في قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون ١٤، ١٦] تجده قد أكد الخبر الأول بمؤكدين وهو مما لا ينكر، وأكد الثاني بمؤكد واحد وهو مما ينكر ويدفع، حيث أنكر الكفرة البعث ولم ينكروا الموت، ويعلل ذلك القزويني بقوله: "أكد إثبات الموت تأكيدين وإن كان مما لا ينكر، لتنـزيل المخاطبين منـزلة من يبالغ في إنكار الموت، لتماديهم في الغفلة والإعراض عن العمل لما بعده، ولهذا قيل "ميتون" دون تموتون، لإفادة الثبوت والدوام وأكد إثبات البعث تأكيدًا واحدًا وإن كان مما ينكر، لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديرًا بألا ينكر، بل إما أن يعترف به أو يتردد فيه، فنـزل المخاطبون منـزلة المترددين تنبيهًا لهم على ظهور أدلته وحثًا على النظر فيها ولذا جاء "تبعثون" على الأصل"(١).

(١) الإيضاح ١ / ٥١ .. لتنـزيل غير المنكر منـزلة المنكر في الآية الكريمة:" ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ" ثلاثة دواع بلاغية ذكر الخطيب واحداً منها وهو: التمادي في الغفلة، وثانيها: استبعاد النفس البشرية أن يميت الله تعالى خلقا خلقه بهذا الإبداع الذي أفصح عنه السياق الكريم، وثالثها: كراهة النفس البشرية للموت وحبها للحياة .. لهذه الدواعي نزل غير المنكرين للموت منـزلة المنكرين له.

وتقول للمسلم الذي يهمل الصلاة ولا يدفع زكاة ماله، وللابن الذي يؤذي أباه: إن الصلاة لواجبة، وإن الزكاة لحق للفقير .. وإنما هو أبوك، فتنزله منزلة المنكر وتجري الكلام على خلاف ظاهر حاله لعدم جريه على وفق ما يعلم.

* * *

هذا وحال المخاطب ليست دائمًا هي المعول الذي يعول عليه في تأكيد الخبر أو عدم تأكيده، فقد يؤكد الخبر دون نظر إلى أحوال المخاطب، بل لدواع أخرى بعيدة عن تلك الأحوال، كما قد يترك توكيده دون أن يكون لحال المخاطب دخل في ترك التوكيد ..انظر إلى قول الفرزدق يخاطب جريرًا:

خَالِي الَّذِي غَصَبَ الْمُلُوكَ نُفُوسَهُم ... وَإِلَيْهِ كَانَ حِبَاءُ جَفْنَةَ يُنقَلُ

إِنَّا لَنَضْرِبُ رَأْسَ كُلِّ قَبِيلَةٍ ... وَأَبُوكَ خَلْفَ أَتَانِهِ يَتَقَمَّلُ

لا يتأتى أن يقال: إن الشاعر أكد الخبر في قوله: "إنا لنضرب"، لأنه يخاطب من ينكر عليهم هذا الضرب، أو من قد نزل هذه المنزلة إذ كيف يتصور الشاعر أن هناك من ينكر ذلك وهو يمدح ويفخر بالشجاعة وشدة الفتك، إن مجرد جريان مثل هذا في ذهنه وخياله يناقض المعنى الذي أراد إثباته ..

كما أنه لا يقال إن جريرًا غير منكر للخبر الثاني "وأبوك خلف أتانه" بل هو ينكره أشد الإنكار، ومع ذلك ألقاه إليه الفرزدق خاليًا من التوكيد، فحال المخاطب في البيت لا يعول عليها في تأكيد الخبر الأول، ولا في ترك تأكيد الخبر الثاني.. فما المعول عليه إذًا؟

المعول عليه هو حال المتكلم نفسه، حيث نظر المتكلم إلى حال نفسه ومدى انفعاله بالحقائق التي يصورها، وحرصه على إذاعتها ونقلها إلى النفوس كما أحسها، فقد صاغ الخبر الأول، كما أحسه مؤكدًا مقررًا وصاغ الثاني عاريًا من التوكيد ليوهم أنها حقيقة لا ينبغي لجرير أن ينكرها..

ونظير ذلك قول ابن الرومي في رثاء ابنه:

وإِنِّي وإنْ مُتِّعْتُ بِابْنَيَّ بَعْدَهُ ... لَذَاكِرُهُ مَا حَنَّتِ النِّيبُ فِي نَجْدِ

وقول نهشل المازني:

إنَّا لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أَوائِلَهُمْ ... قِيلُ الْكُماةِ أَلاَ أَيْنَ الْمُحَامُونَا

وقول أبي نخيلة في مدح مسلمة بن عبد الملك:

أَمُسْلِمُ إنِّي يَا ابْنَ كُلِّ خَلِيقَةٍ ... وَيَا جَبَلَ الدُّنْيا وَيَا وَاحِدَ الْأَرْضِ

شَكَرْتُكَ إنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ التُّقَى ... وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ صَالِحًا يَقْضِي

وَأَنْبَهْتَ لِي ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلاً ... وَلَكِنَّ بَعْضَ الذِّكْرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْضِ

وقول مضرّس بن ربعى:

لَعَمْرُكَ إنِّي بِالْخَلِيلِ الَّذِي لَهُ ... عَلَيَّ دَلاَلٌ وَاجِبٌ لَمُفَجَّعُ

وَإنِّي بِالْمَوْلَى الَّذِي لَيْسَ نَافِعِي ... وَلاَ ضَائِرِي فُقْدَانُهُ لَمُمَتَّعُ

ففي مثل هذه الأبيات لم ينظر في تأكيد الخبر إلى حال مخاطب قد أنكر الحكم، وإنما أراد الشعراء أن يبرزوا أحوال أنفسهم وأن ينقلوا للسامع ما جال في خواطرهم، فصاغوا هذه الأخبار كما شعروا بها وأحسوها مقررة مؤكدة.

وهذا كثير في النظم القرآني، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم ٣٧]، لقد جرى الخبر على لسان إبراهيم – عليه السلام- مؤكدًا كما أحسه، وكما انفعلت به نفسه، ولم ينظر في صياغته إلى اعتبارات خارجية يلحظها عند المخاطب .. ومثله قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم ٣٨]، وقوله عز وجل: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [آل عمران ٩]، وقول جل وعلا: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران ١٩٣]،

وانظر في قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون ١] تجد أن المنافقين قد أكدوا الخبر: "إنك لرسول الله" ليفيدوا أنه قد امتلأت به نفوسهم وأن هذه الشهادة صادرة عن صميم قلوبهم ولما كان قولهم هذا من غير اعتقاد، فقد جاء

تأكيد الخبرين: "إنك لرسوله"، "إن المنافقين لكاذبون" ليفيد أن ما قرروه وأكدوه عن غير اعتقاد، سيبقى مؤكدًا قويًا في علم الله وفي اعتقاد المؤمن، وليبرز كذبهم بنفس القوة والتأكيد الذي أكدوا به شهادتهم عن غير اعتقاد، وفي هذا توبيخ وتقريع لهؤلاء المنافقين...

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة ١٤] تجد أن إلقاء الخبر إلى الذين آمنوا قد جاء بلا تأكيد: "آمنا" وهذا يدل على أن نفوسهم غير ممتلئة به وأنه لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، أما إلقاؤه إلى شياطينهم فقد جاء مؤكدًا: "إنا معكم إنما نحن مستهزءون" وهذا ينبئ أن نفوسهم قد امتلأت بهذا القول وأنهم يقولونه عن صدق رغبة واعتقاد، ويجدون فيه أريحية لا يجدونها في القول الأول..

هذا وكما يكون داعي التوكيد هو رغبة المتكلم في إبراز الخبر مؤكدًا كما أحسه وانفعل به وامتلأت به نفسه، فقد يكون داعي التوكيد هو الرغبة في تحقيق الوعد أو الوعيد كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ﴾ [الحج ٣٨، ٣٩] وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ [الزمر ٨] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء ٩٨].

وقد يكون داعي التوكيد هو رغبة المتكلم في تقوية مضمون الكلام وتقريره في نفس المخاطب كما في الآيات الكريمة: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴾ [الإنسان ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه ١٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ [الشعراء ١٩١، ١٩٢].

وقد يكون التوكيد لغرابة الخبر كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ

ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [القصص ٣٠].

وقد يأتي التوكيد للإشارة إلى مجيء الخبر على غير ما كان يرجو المتكلم ويأمل، وكأن نفس المتكلم تنكره فيؤكده لها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران ٣٦] وقوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الشعراء ١١٧، ١١٨] إلى غير ذلك من الدواعي والأسباب التي تقتضي تأكيد الخبر[١].

❊ ❊ ❊

التجوز في الإسناد

الإسناد – كما تقدم – معناه: بناء الجملة أو تكوين العبارة أو ضم الكلمة إلى الكلمة ليتكون نظم معبر وكلام مفيد وتركيب جيد، وهذا الإسناد لا يجري دائمًا على أسلوب الحقيقة، بل قد يتم عن طريق المجاز بمعنى أن يتجوز المتكلم في بناء جمله أو تكوين عباراته وقد يتم عن طريق الحقيقة، فمن الأبنية الحقيقية قولك: جاء محمد – ضرب زيد عمرًا – ربح علي في تجارته – حمينا نساءنا – حيث تجد الفعل قد أسند إلى فاعله الحقيقي الذي فعله وقام به.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان ٣٤] وقوله عز وجل: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ [آل عمران ٢٦] تجد أن الأفعال ينـزل، يعلم، تؤتي، تنـزع، تعز، تذل، قد أسندت إلى فاعلها الحقيقي وهي "الله تعالى".

ومن الأبنية المجازية قولك ربحت التجارة، حمت السيوف النساء، سار الطريق، جرى النهر، أذل الحرص أعناق الرجال، تخطفهم الطريق، جمعتهم الطاعة وفرقتهم المعصية، حيث أسندت الأفعال كما ترى إلى غير فاعلها الحقيقي، فالتجارة

---

(١) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٥٧ وما بعدها.

لا تفعل الربح والسيوف لا تفعل الحماية والطريق لا يسير ولا يتخطف والنهر لا يجري والحرص لا يفعل الإذلال والطاعة لا تفعل الجمع والمعصية لا تفعل التفريق ولذا كان الإسناد في هذه الأمثلة إسنادًا مجازيًا.

وانظر في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ ﴾ [القارعة ٦، ٧] وقوله عز وجل: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة ١٦]. تلاحظ أنه قد أسندت كلمة "راضية" اسم فاعل إلى ضمير العيشة، والعيشة تكون مرضية لا راضية، وأسند الربح إلى التجارة والرابح هو صاحبها وليست هي، فالإسناد في الآيتين الكريمتين إسناد مجازي.

ويزعم بعض الباحثين أن المجاز العقلي من ابتكارات الإمام عبد القاهر الجرجاني، ولكن عندما ترجع إلى أصول البلاغة في التراث العربي لدى الدارسين الأوائل، تراهم قد اهتموا بدراسة هذا الأسلوب وأشاروا إليه كما أشاروا إلى غيره من مسائل البلاغة وفنونها، وإن لم يسموه بهذه التسمية فقد أشار إليه سيبويه عند حديثه عن بيت الخنساء:

تَرْتَعُ مَا غَفَلَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَرَتْ ... فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

إذ يقول: "فجَعْلُها الإقبال والإدبار مجاز على سعة الكلام كقولك: نهارك صائم وليلك قائم"(١).

وتحدث عنه أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن في أكثر من موضع، إذ يقول عن الآية الكريمة ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [القارعة ٧].. "وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها"(٢).

ويقول عن الآية: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [النمل ٨٦] "مجازه مجاز ما كان العمل والفعل فيه لغيره أي: يبصر فيه، ألا ترى أن البصر

---

(١) الكتاب ١/ ١٦٩.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٧٩.

إنما هو في النهار، والنهار لا يبصر كما أن النوم في الليل، ولا ينام الليل، فإذا نيم فيه قالوا: ليله نائم ونهاره صائم.

قال جرير:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلاَنَ فِي السُّرَى فَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ(١)

وينمو الحديث عن أسلوب المجاز العقلي عند الفراء، إذ أشار إليه في الآيات الكريمة:

﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود ٤٣]، ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق ٦]، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة ٧] وفي قول الحطيئة:

دَعِ الْمَكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

فالمعنى: لا معصوم اليوم من أمر الله، خلق من ماء مدفوق، فهو في عيشة مرضية، واقعد فإنك أنت المطعوم المكسو(٢).

كما تحدث عنه في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة ١٦] إذ يقول: "ربما قال قائل: كيف تربح التجارة وإنما يربح الرجل التاجر؟ وذلك من كلام العرب: ربح بيعك وخسر بيعك، فحسن القول بذلك، لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة، فعلم معناه، ومثله من كلام العرب: هذا ليل نائم، ومثله من كتاب الله ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد ٢١]، وإنما العزيمة للرجال(٣).

فهنا نراه يضيف جديدًا إلى دراسة هذا اللون وهو أن يكون المخاطب عالمًا بموضع التجوز عارفًا الإسناد الحقيقي الذي عدل عنه، وهذا يتم عن طريق السياق وقرائن الأحوال، فلو قلت: خسر عبدك، على أن العبد تجارة يقع فيها الربح والخسارة، لا يعلم أنك متجوز في الإسناد إلا إذا أقمت قرينة دالة، كأن تقول ربحت أغنامك وإبلك وخسر بَزُّك(٤) ورقيقك، وذلك لأن العبد قد يكون تاجرًا وهذه إشارة دقيقة من الفراء.

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٩٦.

(٢) انظر معاني القرآن ٢/ ١٥، ١٦.

(٣) معاني القرآن ١/ ١٤.

(٤) البزّ: الثياب، ويقال لبائع الثياب: بَزَّازٌ.

وتحدث الجاحظ عن المجاز العقلي إذ يقول: "وسمع الحسن رجلاً يقول: طلع سهيل وبرد الليل، فكره ذلك وقال: إن سهيلاً لم يأت بحر ولا ببرد قط، ولهذا الكلام مجاز ومذهب، وقد كرهه الحسن كما ترى، وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة: ما أخلقها للمطر! وهذا كلام مجازه قائم وقد كرهه ابن أنس، كأنهم من خوفهم عليهم العود في شيء من أمر الجاهلية، احتاطوا في أمورهم، فمنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى تعلق"(١).

فالجاحظ هنا يشير إلى وجود أسلوب المجاز العقلي في اللغة، كما يشير إلى كفر من يعتقد أنه أمطر بنوء كذا، فالمؤمن يعتقد أنه يمطر بأمر الله -تعالى- لا بطلوع كوكب.. ويشير أيضًا إلى قضية خلق الأفعال التي شغلت المسلمين في عصره، فالمعتزلة اعتقدوا أن العبد يخلق أفعاله الاختيارية، وأهل السنة يعتقدون أن الأفعال كلها مخلوقة لله، وليس هذا موضع مناقشة تلك الأمور الاعتقادية، ولكن ينبغي أن تعلم أن قولك: قام زيد، ليس مجازًا عقليًا، بل هو حقيقة، وزيد فاعل للقيام بتأثير الله عز وجل فيه، وفرق بين الخلق بمعنى: الإيجاد والتأثير والخلق بمعنى القيام بالفعل بأمر الله، بمعنى: أن العرب إنما وضعت "قام" لفعل العبد الواقع بخلق الله تعالى، فالقيام معنى قائم بزيد، ووصف له، وله فيه كسب وتحصيل، وهذا يكفي ليكون الإسناد حقيقيًا".

فالإسناد الحقيقي ثلاثة أقسام:

١- ما يراد وقوعه من فاعله حقيقة بمعنى التأثير، وذلك يختص بالله تعالى كقولنا: خلق الله ورزق وأعطى وأحيا وأمات.

٢- ما يراد وقوعه حكمًا مثل: قام زيد وذهب عمرو.

٣- ما يراد به مجرد الاتصاف مثل: مرض زيد، وبرد الماء(٢).

---

(١) الحيوان ١/ ٣٤١.

(٢) شروح التلخيص ١/ ٣٢٨.

وهكذا نرى العلماء قد شغلوا بأمر المجاز العقلي وبوجوده في اللغة، فنرى ابن قتيبة يتحدث عنه ويذكر شواهده في معرض حديثه عن المجاز ووجوده في القرآن الكريم وتفنيد مطاعن الطاعنين إذ يقول: "وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز، فإنهم زعموا أن المجاز كذب، لأن الجدار لا يريد والقرية لا تسأل، وهذا من أشنع جهالاتهم، وأدلها على سوء نظرهم وقلة إفهامهم ولو كان المجاز كذبًا، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً، كان أكثر كلامنا فاسدًا. لأنا نقول: نبت البقل وطالت الشجرة وأينعت الثمرة وأقام الجبل ورخص السعر. والله تعالى يقول: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [محمد ٢١] وإنما يعزم عليه، ويقول تعالى ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾ [البقرة ١٦] وإنما يربح فيها، ويقول: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف ١٨]، وإنما كذب به..."[١].

ويقول المبرد في قول الشاعر:

حَمَلَتْ بِهِ فِي لَيْلَةٍ مَزْءُودَةٍ كُرْهًا وَعِقْدُ نِطَاقِهَا لَمْ يُحْلَلِ

"مزءودة: ذات زؤد وهو الفزع، فمن نصب "مزءودة"، فإنما أراد المرأة، ومن خفض فإنما أراد الليلة، وجعل الليلة ذات فزع لأنه يفزع فيها. قال الله تعالى ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [سبأ ٣٣]، والمعنى: بل مكركم في الليل والنهار..."[٢].

وكذا تحدث عنه ابن فارس وابن جنى وعبد الجبار وغيرهم وأشاروا إلى شواهده وأمثلته في اللغة.... ولما جاء عبد القاهر حلل هذه الشواهد وفصل القول فيه ووضع له تلك التسمية "المجاز العقلي" أو "المجاز الحكمي" وفرق بينه وبين المجاز اللغوي، وشأن عبد القاهر في حديثه عن أسلوب المجاز العقلي، شأنه في تناوله لغيره من فنون البلاغة ومسائلها، فهو يتأثر بمن سبقه ويمتاز بالتحليل وعرض الشواهد وتفصيل القول، فمن الخطأ أن يقال: إن عبد القاهر هو الذي ابتكر هذا المجاز- ولعل القائل بهذا وهو يغالي ويسرف في إثبات مدى تأثر عبد

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٩٩، ١٠٠.

(٢) الكامل ١/ ٧٩.

القاهر بأرسطو فيما يعرض من مسائل البلاغة – لعله لما لم يجد أرسطو قد تحدث عن المجاز العقلي، جعله من اختراعات عبد القاهر وابتكاره[١].

هذا ويطلق البلاغيون على المجاز العقلي تسميات كثيرة منها "المجاز في الإسناد" لكثرة وروده في النسب الإسنادية على نحو ما سترى، ومنها "مجاز الملابسة" ليشمل النسب الإسنادية وغيرها، ومنها "المجاز الحكمي" نسبة إلى حكم العقل، أو إلى الحكم الذي هو النسبة بين المسند والمسند إليه ومنها "المجاز النسبي" لوقوعه في النسبة كما قلنا. ويسميه بعضهم بالمجاز في الإثبات، وبعضهم بالمجاز في الجملة وآخرون بالمجاز التركيبي، وأشهر هذه التسميات: "المجاز العقلي" لرجوعه إلى تصرف العقل وحكمه.

الحقيقة العقلية

وقد اعتاد البلاغيون أن يتحدثوا عن الإسناد الحقيقي قبل أن يتناولوا هذا المجاز، لأن معرفته تنبني على معرفة الحقيقة العقلية والإحاطة بها.

يقول الخطيب في تعريفه للحقيقة العقلية: "هي إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر"[٢].

وما في معنى الفعل يشمل اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والمصدر، فإنها تدل على الحدث مجردًا من الزمن، أما الفعل فإنه يدل على الحدث المقترن بالزمن، ولذا كانت الأسماء المذكورة فيها معنى الفعل حيث تدل على الحدث وهو جزء من معنى الفعل، ولا تدل على الزمن وهو جزء آخر من معنى الفعل.

وقوله "إلى ما هو له" يعني أن تسند الفعل أو ما في معناه إلى فاعله الذي هو له وفعله حقيقة أو حكمًا كقولك: خلق الله الخلق وأحيا الأرض وأبدع السموات، فالله هو الفاعل الحقيقي لهذه الأفعال، هو المؤثر في إيجادها، وكقولك: قام زيد

(١) مقدمة نقد النثر ٢٩.

(٢) الإيضاح ١/ ٥٤.

وذهب عمرو ومرض خالد وبرد الماء، فزيد وعمرو فاعلان للفعلين المذكورين حكمًا بمعنى أن لهما كسبًا وتحصيلاً فيهما، وهذا يكفي لأن يكون الإسناد حقيقيًا "وخالد والماء" قد اتصف كل منهما بالفعل الذي أسند إليه وهذا أيضًا كافٍ لكون الإسناد حقيقيًا.

فالفاعل إما أن يكون هو الذي فعل الفعل حقيقة وأثر في إيجاده وذلك لا يكون إلا لفاعل واحد هو الله سبحانه وتعالى، وإما أن يكون فاعلاً للفعل حكمًا بمعنى أن يقوم به بأمر الله وتأثيره فيه ويكون له فيه كسب وتحصيل، وإما أن يكون متصفًا بالفعل، وفي كل ذلك يكون الإسناد حقيقيًا كما في الأمثلة.

وقوله: "عند المتكلم في الظاهر": قيد في التعريف يفيد أن المعول عليه في الإسناد هو اعتقاد المتكلم وما يبدو للمخاطب من ظاهر حاله، وبهذا يدخل في الحقيقة العقلية الأقوال التي تطابق الاعتقاد دون الواقع، والأقوال الكاذبة التي لا تطابق الواقع ولا الاعتقاد، كما يدخل فيها ما طابق الواقع والاعتقاد معًا، وما طابق الواقع دون الاعتقاد، فالحقيقة العقلية أربعة أقسام.

الأول: ما طابق فيه الإسناد الواقع والاعتقاد معًا، كقول المؤمن: شفى الله المريض... أنبت الله النبات، فشفاء المريض وإنبات النبات لله تعالى في الواقع وهما كذلك في اعتقاد المتكلم المؤمن.

الثاني: ما طابق فيه الإسناد اعتقاد المتكلم وخالف الواقع كقول الجاهل شفى الطبيب المريض... وأنبت الربيع النبات فاعتقاد الجاهل أن شفاء المريض من الطبيب وأن إنبات النبات من الربيع ولكن الواقع يخالف ذلك ويناقضه إذ الشفاء من الله والطبيب سبب له، والإنبات من الله تعالى والربيع ظرف له وزمان يقع فيه.

ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن الدهريين ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية ٢٤]، فالدهري يعتقد أن الدهر هو الفاعل وهو الذي يهلك وهذا اعتقاد باطل لأن الواقع يدفعه والمؤمن عندما يسند الأفعال إلى الدهر أو الأيام، فإنه لا يعتقد أنها الفاعل، بل يكون متجوزًا كما سنرى.

الثالث: ما طابق فيه الإسناد الواقع وخالف اعتقاد المتكلم وذلك كقول

المعتزلي لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها عنه: "إن خالق الأفعال كلها هو الله". فإسناد خلق الأفعال إلى الله إسناد حقيقي، يطابق الواقع، ولكنه يخالف اعتقاد المعتزلي إذ اعتقاده أن الأفعال الاختيارية تسند إلى العبد لا إلى الله تعالى، ولا يمكن حمل هذا على المجاز لأن المخاطب لا يعلم حال المتكلم الخفية، فإن علمت هذه الحال أو وجدت القرينة الدالة على أن إسناد الفعل لغير ما هو له، كان الإسناد مجازيًا.

الرابع: ما خالف الإسناد فيه الواقع والاعتقاد معًا، وذلك كالأقوال الكاذبة التي يكون القائل عالمًا بها دون المخاطب كأن يقول نجح فلان وهو لم ينجح، فهذا القول يخالف الواقع ويخالف اعتقاد القائل، وإنما كان من قبيل الإسناد الحقيقي لأن المخاطب لا يعلم أنه كذب، والمتكلم الكاذب لا ينصب قرينة تدل على أنه كاذب.

هذا ونلاحظ أن الخطيب قد قصر الإسناد الحقيقي على الفعل وما في معناه، وكأن الإسناد الذي لا يكون المسند فيه فعلاً ولا ما في معنى الفعل نحو: زيد أخي وعمرو أخوك، ليس من الحقيقة العقلية، ولذلك كان تعريف عبد القاهر للحقيقة العقلية أدق وأصوب إذ عرفها بقوله: "كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه.."[١] فلم يقيد الإسناد بالفعل ولا ما في معناه، كما صنع الخطيب.

❊ ❊ ❊

المجاز العقلي

أما المجاز العقلي فقد عرفه الخطيب القزويني بقوله: "هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول"[٢].

ونلاحظ أيضًا أنه قصر التجوز في الإسناد على الفعل وما في معناه وهو أعم من ذلك على نحو ما سنرى، والإسناد هنا في المجاز ليس إلى ما هو للمسند، أي: ليس إلى الفاعل الحقيقي، بل هو إلى ملابس للمسند غير ما هو له، وهذا هو الفرق

---

(١) أسرار البلاغة ٢/ ٢٥٦.

(٢) الإيضاح ١/ ٥٦.

بين الإسناد الحقيقي والإسناد المجازي، فالحقيقي إسناد الفعل إلى ما هو له، والمجازي إسناده إلى ملابس له، وعند إسناد الفعل إلى ملابسه لابد أن يكون هذا الإسناد بتأول، وإلا كان الإسناد حقيقة.

فقول المسلم: شفى الطبيب المريض مسندًا الشفاء إلى الطبيب، لا يقوله إلا وهو متأول ومعتقد أن الطبيب سبب للشفاء وليس فاعلاً، ولذا كان إسناده مجازيًا.

أما قول الجاهل: شفى الطبيب المريض، فهو غير متأول بل يعتقد أن الطبيب فاعل الشفاء، ولذا كان الإسناد حقيقة، فالمراد بالتأول في تعريف الخطيب: القرينة التي تدل على أن المتكلم قد تجوز في الإسناد، وسيأتيك حديث عن هذه القرينة.

أما الحديث الآن فهو عن ملابسات الفعل، أو علاقات المجاز العقلي والبلاغيون ينظرون في تحديد هذه العلاقات أو تلك الملابسات إلى ما بين الفعل والفاعل المجازي من تعلق وارتباط، أو إلى ما بين الفاعل الحقيقي والفاعل المجازي، فقولك: سار الطريق وقوله عز من قائل: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ [البقرة ١٦]، هنالك ارتباط وتعلق بين "سار" و"الطريق" باعتبار أن الطريق مكان للسير، كما أن هناك تعلقًا بين "ربح" و"التجارة" باعتبار التجارة مفعولاً يقع عليها الربح، وهنالك أيضًا تعلق وارتباط بين "الطريق والناس"، وبين "التجارة والمشترين" باعتبار تلبس الفعل وتعلقه بكل منهما، ولك أن تنظر في تحديد الملابسة إلى أيهما شئت، لأنه إذا كانت هناك ملابسة بين الفعل والفاعل المجازي لزم أن يكون هناك ملابسة بين الفاعلين الحقيقي والمجازي كما هو واضح وإليك بيان هذه الملابسات.

❋ ❋ ❋

ملابسات المجاز العقلي

١ - إسناد المبني للفاعل إلى المفعول.. كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [البقرة ١٦]، فالتجارة ليست هي الفاعل الحقيقي للفعل "ربح" وإنما أسند إليها لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها، والأصل فما ربح المشترون في تجارتهم، والتجوز هنا بإسناد الربح المنفي إلى التجارة، أفاد المبالغة في خسرانهم، فالذي خسر ليس هم، وإنما هو التجارة وهي

تجارة غريبة من نوعها حيث اشترى هؤلاء الضلالة ودفعوا الهدى ثمنًا لها، وتلك تجارة لا يرتاب عاقل في بوارها، ولذا بولغ في تأكيد الخسران بإسناد عدم الربح إلى التجارة ذاتها، والذي لم يربح هم المتاجرون فيها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ ﴾ [القارعة: ٦، ٧] ففاعل "راضية" ضمير يرجع إلى العيشة والعيشة مرضية لا راضية، إذ الأصل: في عيشة رضي صاحبها بها، فأسند الرضا إلى العيشة لتلبسه بها من حيث وقوعه عليها، ويفيد هذا التجوز المبالغة في النعيم الذي أعده الله تعالى للمؤمنين في الجنة فرضوا به وسعدوا، إلى درجة أن العيشة أصبحت راضية بصاحبها تألفه ويألفها، وتحبه ويحبها فهي عيشة دائمة باقية، لأنها مبنية على الألفة والمحبة، ولو كانت مبنية على التنافر ما دامت.

وتأمل التعبيرين: المؤمن في عيشة راضية، والكافر في عيشة نافرة، تجد أن التجوز في الأول ينبئ بالدوام والبقاء حيث الرضا والألفة، أما التجوز في الثاني فينبئ بالفرقة والابتعاد حيث النفور والكراهية، ولذا كان أمر الحبيب عليه الصلاة والسلام بأن نحسن جوار النعمة إذ دخل ﷺ على عائشة فرأى كسرةً مُلقاةً فأخذها فمسحها ثم أكلها وقال: " يَا عَائِشَةُ أَكْرِمِي كَرِيمًا فَإِنَّهَا مَا نَفَرَتْ عَنْ قَوْمٍ قَطُّ فَعَادَتْ إليهم"(١) فتأمل المجاز في قوله: "نفرت النعمة" وما يوحى به من الكراهية التي تستلزم الزوال والمفارقة..

وخذ قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ ﴾[الطارق ٥، ٦] تجد أن "دافق" قد أسند إلى ضمير الماء، والماء مدفوق وليس دافقًا، فالملابسة بين "دافق والماء" ملابسة بين الفعل ومفعوله، والتجوز في الإسناد هنا قد جعل المدفوق دافقًا مبالغة في سرعة اندفاعه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود ٤٢، ٤٣] فقد أسند "عاصم" اسم فاعل إلى ضمير

(١) رواه ابن ماجة في الأطعمة برقم [٥٢/ ٣٣٥٣].

المفعول، إذ المعنى: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه، وذلك مبالغة في نفي العصمة عمن كفر وتولى .. أما إسناد: "يعصم" إلى ضمير الجبل في قوله: "جَبَلٍ يَعْصِمُنِي" فهو مجاز عقلي علاقته السببية – كما سيأتي – لأن الجبل يكون سببًا في العصم وليس فاعله.

وانظر إلى قول الحطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر:

دَعِ الْمَكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا   وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

فهو يهجوه ويطلب منه أن يدع المكارم ولا يسعى لطلب المعالي وأن يظل قاعدًا فهو المطعوم المكسو الذي يطعمه غيره ويكسوه وقد أسند الشاعر "طاعم وكاسٍ" إلى ضمير المفعول مبالغة في تحقيره والحط من شأنه والاستهزاء به ..

ونقول: "سر كاتم" أي: مكتوم وذلك مبالغة في كتمانه وإخفائه، إذ الأصل: كتم الرجل السر، فلما أريد المبالغة في حفظ السر وكتمانه، أسند الفعل إلى مفعوله فقيل: سر كاتم، تجوزًا في الإسناد، فقد بلغ الكتمان مبلغًا صار السر فيه كاتمًا لا مكتومًا.

٢- إسناد المبني للمفعول إلى الفاعل .. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء ٤٥]، فقد أسند اسم المفعول "مستورًا" إلى ضمير الحجاب والحجاب ساتر أي: فاعل للستر، وليس مستورًا، فالملابسة بين اسم المفعول: "مستورًا" وبين نائب الفاعل "الحجاب" ملابسة بين الفعل وفاعله، إذ الحجاب فاعل للستر لا مفعول، والتجوز في الإسناد أفاد المبالغة في قسوة قلوبهم وشدة جحودهم، فقد زادت مكابرتهم وطغى عنادهم حتى وصل حدًّا لم يعودوا فيه مستورين، بالحجاب، بل صار الحجاب هو المستور بطغيانهم وجحودهم. ومعنى الآية: إذا قرأت القرآن الناطق بالبراهين الدالة على الحق جعلنا بمقتضى حكمتنا في الإضلال والهداية بينك وبين الكفرة الذين ينكرون البعث حجابًا يمنعهم عن الحق، وذلك بالختم على قلوبهم ووضع الغشاوة والأغطية على سمعهم وأبصارهم، وقد جعل الحجاب المانع الساتر مستورًا – كما بينا – لإبراز شدة جحودهم وقسوة قلوبهم ولبيان أنهم بلغوا في العناد والمكابرة مبلغًا عظيمًا.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ جَنَّـٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحۡمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا ﴾ [مريم ٦١] فقوله: "مأتيًا" اسم مفعول وقد أسند إلى ضمير الوعد الذي هو فاعل في الحقيقة، لأن الوعد آتٍ وليس مأتيًّا، وقد أفاد التجوز في الإسناد كمال المبالغة في إنجاز وعد الله وتحقيقه فضلاً وكرمًا حيث جعله مأتيًّا إليهم وكأن هناك من يحمله ويأتي به إلى المؤمنين ساعيًا به إليهم ..

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحزاب ١٥]، وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ ﴾ [التكوير ٨، ٩] تجد أن "مسئولا" قد أسند إلى ضمير العهد، و"سئلت" قد أسند إلى ضمير الموءودة، والعهد لا يسأل بل المسئول صاحبه، وكذا الموءودة لن تسأل، بل وائدها هو الذي يسأل، وقد أفاد التجوز في الإسناد كمال المبالغة في وجوب الالتزام بالعهد وشدة الوعيد والتهديد لمن يئد البنات ..

ونقول: "سيل مُفْعَم" بالبناء للمفعول، والمفعم هو المملوء، والسيل في الحقيقة مالئ للوادي، فالوادي هو الذي يُفْعَم أي يمتلئ بالماء والإسناد الحقيقي: "أفعم السيل الوادي" ولكننا تجوزنا في الإسناد فأسندنا "مُفْعَم" اسم المفعول إلى السيل الذي هو الفاعل الحقيقي، وكان حقه أن يسند إلى الوادي فيقال: وادٍ مفعم، وقد أفاد هذا التجوز شدة المبالغة في فيضان الماء وامتلاء الوادي به، حتى أصبح الماء مملوءًا لا مالئًا.

٣- إسناد الفعل المبني للفاعل إلى مصدره .. كما في قولهم: فلان ثارت ثورته وغضبت غضبه وسحر سحره وشعر شعره وجد جده، فقد أسند الفعل المبني للفاعل في هذه الأمثلة إلى مصدره، والأصل: ثار فلان ثورة، وغضبت الغاضب غضبًا، وسحر الساحر سحرًا، وشعر الشاعر شعرًا، وجد الجاد جدًا، ولكنهم تجوزوا فأسندوا ما حقه أن يسند إلى الفاعل، إلى المصدر، وذلك تحقيقًا للمبالغة في الأفعال المذكورة ..

ومن ذلك قول أبي فراس الحمداني:

فقد أسند المبني للفاعل "جد" إلى المصدر "جدهم" إسنادًا مجازيًا للملابسة بين الفعل ومصدره، وأفاد هذا الإسناد المبالغة فيما نزل بالقوم وحل بهم من خطوب جسام، أخذوا يستعدون لها ويفتقدون الغائب ويطلبونه، كما يفتقد البدر ويطلب عند اشتداد الظلام، وخاصة إذا كان الغائب من المدافعين عن الأحساب، الذائدين عن الحمى، أمثال أبي فراس.

٤- إسناد المبني للفاعل إلى الزمان .. كما في قولك: فلان نهاره صائم وليله قائم، فالليل لا يقوم والنهار لا يصوم، وقد أسند إليهما اسما الفاعل: "قائم وصائم" لأنهما زمانان للقيام والصيام ويفيد هذا التجوز المبالغة في تمام الصيام وكمال القيام بوضوح أهدافهما في سلوك المسلم الصائم القائم.

ومن ذلك قول طرفة بن العبد:

سَتُبْدِي لَكَ ٱلْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً ... وَيَأْتِيكَ بِٱلْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

حيث أسند الفعل "تبدى" إلى زمانه "الأيام" على سبيل المجاز العقلي والأصل سيبدي لك الله في الأيام.

ومنه قول أبي البقاء الأندلسي:

هِيَ ٱلْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

فالزمن ليس فاعلاً للسرور ولا للإساءة، ولكن لما كان السرور واقعًا فيه، وكذلك الإساءة، فقد أسندا إليه على سبيل المجاز العقلي لعلاقة الزمانية ..

وقول جرير:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السُّرَى ... فَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ

حيث أسند اسم الفاعل "نائم" إلى ضمير الليل، والليل ليس فاعلاً للنوم ولكنه زمان ينام فيه النائمون.

وانظر في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [يونس ٦٧]، وقوله عز وجل: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل ١٧]، تجد أن اسم الفاعل "مبصرا" قد أسند إلى

ضمير النهار، والنهار لا يفعل الإبصار، بل هو زمان يبصر الناس فيه، وكذا الفعل "يجعل" قد أسند إلى ضمير اليوم، واليوم زمان يقع فيه الفعل، وحقيقة الإسناد: يومًا يجعل الله فيه الولدان شيبًا فأسند الفعل إلى زمانه على سبيل المجاز العقلي.

٥- إسناد المبني للفاعل إلى المكان .. كما في قولهم: طريق سائر، ونهر جارٍ، أسندوا السير إلى ضمير الطريق، والجري إلى ضمير النهر، والسائر هم الناس، والذي يجري هو الماء، والطريق مكان للسير، والنهر مكان لجري الماء فأسند الفعل إليهما تجوزًا، ويفيد هذا المجاز المبالغة في قوة اندفاع الماء وشدة فيضانه، وكثرة ازدحام الناس في الطريق، حتى ليخيل للسامع أن النهر هو الذي يجري، وأن الطريق هو الذين يمضي ..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ [التوبة ٧٢]، فالأنهار اسم للأمكنة والوديان التي تجري فيها المياه، وقد أسند إليها الجريان على سبيل المجاز العقلي لعلاقة المكانية، وتكمن بلاغة المجاز في الآية في أن المياه لكثرة فيضانها وشدة جريانها ترى وكأن محلها هو الذي يجري، وكأن الجري قد تجاوز الماء إلى مكانه .. وعندما تقرأ الآيات الكريمة التي تحدثت عن الجنة وما أعد فيها من نعيم تجد الجري فيها قد أسند إلى الأنهار لا إلى المياه لهذا السر البلاغي.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة ٢] حيث أسند الإخراج إلى الأرض وهي مكان للأثقال، والأصل: وأخرج الله منها أثقالها، ويفيد هذا التجوز في الإسناد: التهويل والتفظيع من شأن ذلك اليوم، وشدة قذف الأرض وإلقائها ما بداخلها من أثقال، وكأنها هي التي تخرج وتقذف تلك الأثقال.

وخذ قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ [القصص ٥٧] تجد أن اسم الفاعل "آمنًا" قد أسند إلى الضمير العائد إلى الحرم، والحرم مكان للأمن، والأصل. حرمًا آمنًا أهله، فأسند الأمن إلى الحرم مبالغة في كمال النعمة، نعمة الأمن التي تفضل الله بها على سكان حرمه.

وانظر إلى قول المتنبي:

وَكُلُّ امْرِئٍ يُولِي الْجَمِيلَ مُحَبَّبٌ ... وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ الْعِزَّ طَيِّبُ

فقد أسند الفعل ينبت إلى ضمير المكان، والمكان لا يفعل الإنبات والأصل: ينبت الله فيه ... وإلى قول الحيص بيص .. أبي الفوارس:

مَلَكْنَا فَكَانَ الْعَفْوُ مِنَّا سَجِيَّةً ... فَلَمَّا مَلَكْتُمْ سَالَ بِالدَّمِ أَبْطُحُ

فهو يفخر بأن قومه لما قدروا عفوا وصفحوا، بينما المخاطبون عندما قدروا أسرفوا في سفك الدماء حتى سالت بالأبطح وهو المسيل الواسع فيه دقائق الحصى، وقد أسند الشاعر "سال" إلى الأبطح مبالغة في كثرة الدماء التي أريقت من جراء الحكم الظالم، وأصل الإسناد: سالت الدماء بالأبطح.

٦- إسناد المبني للفاعل إلى السبب .. كقولنا: بنى الأمير المدينة وحقيقته: بنى العمال المدينة بأمر الأمير، فإسناد "البناء" إلى الأمير مجاز عقلي علاقته السببية، لأن الأمير سبب البناء، وهو ينبئ بمدى عناية الأمير واهتمامه بشأن المدينة، حتى كأنه فاعل البناء ..

ونقول محبتك جاءت بي وسرتني رؤيتك، فنسند المجيء إلى المحبة وهي سببه، والسرور إلى الرؤية وهي سببه أيضًا مبالغة في قوة المحبة وكثرة السرور الناجم عن الرؤية.

ومنه قول أبي نواس:

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا ... إِذَا مَازِدْتَهُ نَظَرَا

فقد أسند "زيادة الحسن" إلى الوجه وهو سببها، مبالغة فيما أودعه الله فيه من دقائق الحسن ولطائف الجمال.

وانظر إلى قول عوف بن الأحوص:

فَلاَ تَسْأَلِينِي وَاسْأَلِي عَنْ خَلِيقَتِي ... إِذَا رَدَّ عَافِي الْقِدْرِ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا[1]

(١) المراد "بعافي القدر": إما الضيف الذي تنصب القدر لإعداد الطعام له، وإما المرق المتبقي بالقدر، حيث يحتفظ به صاحبها لأنهم في جدب.

فالشطر الثاني من البيت كناية عن شدة الجدب، وذلك إذا كان المراد بعافي القدر: بقية المرق الذي يوجد في القدر، فيكون سببًا في أن يرد صاحبها من يطلب إعارتها، لشدة ما هم فيه من جدب وقحط، أما إذا كان المراد بعافي القدر: الضيف، فإن البيت يكون عندئذ كناية عن الكرم، إذ تسبب الضيف في رد المستعير حيث يرى القدر منصوبة له فلا يطلبها .. والشاعر قد أسند "رد" إلى "عافى القدر"، وعافى القدر لم يفعل الرد وإنما تسبب فيه وحقيقة الإسناد: إذا رد صاحب القدر من يستعيرها بسبب عافيها فهو مجاز عقلي علاقته السببية ..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات ٥٥] أسند النفع إلى ضمير الذكرى وهي سببه، والأصل: ينفع الله بسببها المؤمنين ..

وتأمل الآيات الكريمة: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص ٤] ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ [غافر ٣٦] ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا ﴾ [القصص ٣٨] ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه ١١٧] تجد أن الأفعال بها قد أسندت إلى أسبابها، فقد أسند "يذبح" ويستحيى إلى فرعون وهو الآمر بهما وليس فاعلهما الحقيقي، وأسند البناء والإيقاد إلى هامان، وهما يفعلان بسببه، وأسند الإخراج إلى إبليس وهو سببه .. وتلاحظ أن المسند في الآيات الثلاث الأخيرة هو فعل الأمر أو النهي: ابن .. أوقد.. اجعل.. لا يخرجن.. وبهذا يتضح لك أن المجاز العقلي كما يقع في الخبر يقع في الإنشاء.

٧- إسناد الفعل إلى الجنس وهو في الحقيقة مسند إلى بعضه .. كما في قولهم " بنو فلان قتلوا فلانًا" والقاتل واحد منهم .. وكما في قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [الأعراف ٧٧] فقد أسند العقر إلى جميعهم وهو لبعضهم كما جاء في آية أخرى ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [القمر ٢٩] وإسناد الفعل إلى الجميع وهو للبعض ينبئ بأنه قد تم بعلمهم ووقع برضاهم[١].

(١) الكشاف ٢/ ٩١.

٨- إسناد الفعل إلى الجارحة التي هي آلته .. كقولهم: أبصرته عيني .. وسمعته أذني .. وعرفه قلبي .. وقاله لساني .. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ [البقرة ٢٨٣] فقد أسند اسم الفاعل "آثم" إلى القلب وإنما الآثم هو الشخص، وذلك لأن كتمان الشهادة أن يضمرها الشخص ولا يتكلم بها، فلما كان إثمًا مقترفًا بالقلب أسند إليه، لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ(١).

٩- إسناد الفعل إلى ماله مزيد اختصاص وقربى بالفاعل الحقيقي .. كما في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ [الحجر ٦٠] فقد أسندت الملائكة التقدير إلى أنفسهم والمقدر هو الله وحده، وذلك لأن لهم مزيد اختصاص وقربى من الله عز وجل.

هذا ولم يتحدث الخطيب القزويني عن الملابسات الثلاث الأخيرة، حيث ذكر من ملابسات المجاز العقلي الملابسات الست الأولى فقط، وقد لف لفه كثير من الدارسين بعده.. وعندما نرجع إلى تعريفه للمجاز العقلي نجد أنه قد قصره على إسناد الفعل وما في معناه – كما وضحنا – وقد ضاق هذا التعريف عن صور كثيرة من صور التجوز في الإسناد.. من ذلك.

١- النسبة الإضافية .. كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [سبأ ٣٣] والتقدير: بل مكركم في الليل والنهار، فقد أضيف المكر إلى الليل والنهار وهما زمان له، وكان حقه أن يضاف إلى الناس، كما في التقدير .. ومثله قوله عز وجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ [النساء ٣٥] والتقدير: وإن خفتم شقاق الزوجين في الحالة التي بينهما .. فقد أضيف الشقاق إلى الظرف "بين" على سبيل المجاز العقلي لعلاقة المكانية، وكان حقه أن يضاف إلى الزوجين كما في التقدير.

٢- النسبة الإيقاعية .. بمعنى أن يقع الفعل المتعدى على غير ما حقه أن يقع عليه لعلاقة وقرينة مانعة، وسميت نسبة إيقاعية، لأن الفعل المتعدى واقع على

---

(١) الكشاف ١/ ٤٠٦.

مفعوله المجازي، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الشعراء ١٥١] تجد أن الأصل: ولا تطيعوا المسرفين بسبب أمرهم، وقد وقع الفعل "تطيعوا"، على المفعول "أمر" على سبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية، إذ لا تقع الطاعة على الأمر، وإنما تقع على صاحب الأمر فهو الذي يطاع..

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونًا ﴾ [القمر ١٢] فقد وقع الفعل "فجر" على الأرض، وهو في الأصل للعيون إذ المعنى، وفجرنا عيون الأرض، فهو مجاز عقلي علاقته المكانية وقد أفاد هذا المجاز المبالغة في فوران الماء واندفاعه، وكأن الأرض قد صارت كلها عيونًا .. فكما أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجاز، فكذلك إيقاعه على غير ما حقه أن يوقع عليه مجاز أيضًا

٣- النسبة الوصفية .. وذلك بأن يوصف الشيء بوصف صاحبه كقولنا: الكتاب الحكيم، والأسلوب الحكيم، وضلال بعيد، ورجل عدل، فالحكمة في الحقيقة ليست وصفًا للكتاب ولا للأسلوب، وإنما هي وصف لصاحبهما وكذا البعد ليس وصفًا للضلال، بل هو وصف للضال، والعدل ليس وصفًا للرجل، وإنما وصف لأقواله وأفعاله، فالأصل أن يقال: رجل ذو عدل، كما يقال: رجل ذو رأي، ورجل ذو خلق.. فكما أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجاز، كذلك وصف الشيء بغير ما حقه أن يوصف به مجاز أيضًا ..

٤- الإسناد بين المبتدأ والخبر.. كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [البقرة ١٨٩] والأصل: ولكن ذا البر من اتقى. أو ولكن البر بر من اتقى، فقد أسند "من اتقى" إلى "البر" إسنادًا مجازيًا إذ البر مفعول له، فالمتقي يتقي من أجل البر، والعلاقة إما الفاعلية أو المفعولية، لأن من اتقى فاعل والبر مفعول له.

ومن ذلك قول الخنساء في وصف الناقة:

تَرتَــعُ مَــا غَفَلَــتْ حتَّــى إذَا ادَّكَــرَتْ   فَــإنَّمَا هِــيَ إقْبَــالٌ وَإدْبَــارُ

يقول عبد القاهر في تجليه المجاز العقلي في هذا البيت: "ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء تَرتَعُ مَا غَفَلَتْ حتَّى إذَا ادَّكَرَتْ .. فَإنَّمَا هِيَ إقْبَالٌ وَإدْبَارُ ..وذلك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة،

لم يكن لها حال غيرهما، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار .. واعلم أن ليس بالوجه أن يعد هذا على الإطلاق معد ما حذف منه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مثل قوله عز وجل: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف ٨٢] .

ومثل قول النابغة الجعدي:

وَكَيْــفَ تُوَاصِــلُ مَــنْ أَصْـبَحَتْ خِلاَلَتُـــهُ كَــأَبِي مَرْحَــبِ[١]

وقول الأعرابي:

حَــسِبْتَ بُغَــامَ رَاحِلَتِــي عَنَاقًــا وَمَــا هِــيَ وَيْــبَ غُــيْرِكَ بِالْعَنَــاقِ[٢]

وإن كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون إنه في تقدير: "فإنما هي ذات إقبال وإدبار" ذاك لأن المضاف المحذوف من نحو الآية والبيتين في سبيل ما يحذف من اللفظ ويراد في المعنى، كمثل أن يحذف خبر المبتدأ أو المبتدأ إذا دل الدليل عليه، إلى سائر ما إذا حذف كان في حكم المنطوق به، وليس الأمر كذلك في بيت الخنساء، لأنا إذا جعلنا المعنى فيه الآن، كالمعنى إذا نحن قلنا: فإنما هي ذات إقبال وإدبار، أفسدنا الشعر على أنفسنا وخرجنا إلى شيء مغسول، وإلى كلام عامي مرذول وكان سبيلنا سبيل من يزعم مثلاً في بيت المتنبي:

بَــدَتْ قَمَــرًا وَمَالَــتْ خُــوطَ بَــانٍ وَفَاحَــتْ عَنْــبَرًا وَرَنَــتْ غَــزَالاَ

أنه في تقدير محذوف، وأن معناه الآن كالمعنى إذا قلت: "بدت مثل قمر ومالت مثل خوط بان وفاحت مثل عنبر ورنت مثل غزال"، في أنا نخرج إلى الغثاثة، وإلى شيء يعزل البلاغة عن سلطانها"[٣].

فهذا تحليل دقيق لبيان المجاز العقلي في البيت وإبراز ما يفيده من المبالغة، وأن الناقة كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار، وأنت إذا رمت تقدير مضاف لتبين

---

(١) الخلالة: بكسر الخاء: الصداقة، وأبو مرحب بفتح الميم والحاء: الظل ووجه الشبه هو الزوال وعدم الدوام.

(٢) بغام الناقة: صوتها. والعناق: أنثى المعز. والويب: الويل، والخطاب في قوله: "حسبت" للذئب الذي حسب صوت ناقته صوت عناق، ولذا قال له: ويب غبرك، فتوعده بلونه لأن الذئب لونه أغبر.

(٣) دلائل الإعجاز ٢٩٢.

الإسناد الحقيقي، فقلت: "فإنما هي ذات إقبال وإدبار"، ضاعت هذه المبالغة، وفقدت حلاوة الشعر، كما تضيع أيضًا وتفقد إذا أولت المصدر باسم الفاعل فقلت: فإنما هي مقبلة ومدبرة.

ولما كان تعريف الخطيب للمجاز العقلي لا يتسع لمثل هذه النسب فإننا نفضل عليه تعريف عبد القاهر له، إذ عرفه بقوله: "كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأويل"(١).

وسبب ترجيحنا لتعريف عبد القاهر، أنه لم يحدد الإسناد بالفعل، وما في معناه كما صنع الخطيب، ولم يحدد أنواع العلاقات التي تسوغ الإسناد، فاتسع المجاز العقلي عنده لكل إسناد ولكل ملابسة.

❋ ❋ ❋

قرينة المجاز العقلي

لابد للمجاز سواء أكان مجازًا عقليًا أم مجازًا لغويًا، من وجود قرينة دالة تبين المجاز وتوضح عدم إرادة المعنى الأصلي في المجاز اللغوي، وعدو إرادة الإسناد الحقيقي في المجاز العقلي، فالقرينة في المجاز العقلي هي الأمر الذي يوضح أن المسند قد أسند إلى غير ما حقه أن يسند إليه، وأن المتكلم قد تجوز في بناء الكلام وتأليف العبارة، وهذه القرينة إما لفظية وإما غير لفظية:

انظر إلى قول أبي النجم العجلي:

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الْخِيَارِ تَدَّعِي ... عَلَيَّ ذَنْبًا كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ

مِنْ أَنْ رَأَتْ رَأْسِي كَرَأْسِ الْأَصْلَعِ ... مَيَّزَ عَنْهُ قُنْزُعًا عَنْ قُنْزُعِ

جَذْبُ اللَّيَالِي أَبْطِئِي أَوْ أَسْرِعِي

أَفْنَاهُ قِيلُ اللَّهِ لِلشَّمْسِ اطْلُعِي ... حَتَّى إِذَا وَارَاكِ أُفُقٌ فَارْجِعِي(٢)

---

(١) أسرار البلاغة ٢/ ٢٥٧.

(٢) القنزع: الشعر المتجمع في نواحي الرأس .. والأصلع: الذي سقط شعر مقدم رأسه. وجملة أَبْطِئِي أو أسرعي: حال من الليالي بتقدير القول أي مقولاً فيها ذلك. وجذب الليالي: مضيها. واراك: غيبك.

تره قد أسند الفعل "ميز" إلى جذب الليالي، إسنادًا مجازيًا من إسناد الفعل إلى سببه أو زمانه، والقرينة هي قوله: "أفناه قيل الله"، وهي قرينة لفظية توضح عقيدة الشاعر، وأنه مؤمن حيث أسند إفناء شعر الرأس إلى الله تعالى، وما دام كذلك، فإنه يكون قد تجوز في كلامه الأول وهو إسناده: "ميز" إلى جذب الليالي.

ومثله قول الصلتان العبدي ينصح ابنه عَمْرًا:

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِيـ ... ـرَ كَرُّ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِيِّ

نَرُوحُ وَنغْدُو لِحَاجَاتِنَا ... وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَ لاَ تَنْقَضِي

تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ ... وَتبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِي

أَلَمْ تَرَ لُقْمَانَ أَوْصَى ابْنَهُ ... وَأَوْصَيْتُ عَمْرًا وَنِعْمَ الْوَصِي

فَمِلَّتُنَا أَنَّنَا مُسْلِمُونَ ... عَلَى دِينِ صِدِّيقِنَا وَالنَّبِي

فالبيتان الأخيران يبرزان عقيدة الشاعر، إذ يريد بوصية لقمان، قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان ١٣] والبيت الأخير يفصح عن إيمانه وأن ملته الإسلام، وتلك قرينة لفظية تدل على أن الشاعر قد تأول ولم يرد الحقيقة عندما أسند "أشاب وأفنى" إلى تعاقب الليل والنهار.

ونقول: "هزتني الأيام وشيبني الدهر والله وحده المستعان" فتكون الجملة الأخيرة: "والله المستعان" قرينة لفظية تدل على أن إسناد "هز" إلى "الأيام" و"شيب" إلى "الدهر" مجاز عقلي، وليس إسنادًا حقيقيًا.

أما القرينة المعنوية، فهي أمر غير لفظي يدل على أن المتكلم متأول في إسناده ولم يرد الحقيقة، بل أراد المجاز، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ [القصص ٤] تجد أن إسناد الفعل: "يذبح" إلى فرعون، مجاز عقلي لعلاقة السببية، إذ فرعون لم يفعل التذبيح بل أمر به وفعله جنوده بأمره فهو سبب لوقوع الفعل وليس فاعلاً حقيقيًا، والقرينة هنا معنوية وهي استحالة صدور الفعل من "فرعون" عادة، وإن

أمكن ذلك عقلاً، ومثله قولك: بنى الأمير المدينة، وهزم الأعداء، فإسناد "البناء" وهزيمة الأعداء إلى الأمير مجاز عقلي، قرينته استحالة وقوع الفعل منه عادة، وإن أمكن عقلاً.

وقد تكون القرينة استحالة وقوع الفعل من الفاعل عقلاً كقول تأبط شرًّا.

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَحْتَلْ وَقَدْ جَدَّ جِدُّهُ أَضَاعَ وَقَاسَى أَمْرَهُ وَهُوَ مُدْبِرُ

فإسناد الفعل "جد" إلى المصدر مجاز عقلي قرينته استحالة قيام الفعل بمصدره استحالة عقلية، ومثله قولهم: محبتك جاءت بي إليك، وأقدمني بلدك حق لي على فلان، إذ يستحيل عقلاً قيام المجيء بالمحبة، والإقدام بالحق.

وقد تكون القرينة المعنوية هي صدور الكلام من المؤمن، كقول النبي ﷺ "إِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ "(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام " وقد دخل البيت فرأى كِسْرةً مُلْقَاةً فأخذها فمسحها ثم أكلها وقال: " يَا عَائِشَةُ أَكْرِمِي كَرِيمًا فَإِنَّهَا مَا نَفَرَتْ عَنْ قَوْمٍ قَطُّ فَعَادَتْ إليهم"(٢)، فوقوع الفعل منه ﷺ، قرينة على أنه لم يرد الإسناد الحقيقي وأنه قد تأول عندما أسند الإنبات إلى الربيع والقتل إلى ما ينبته الربيع والنفور إلى النعمة وكذلك الرجوع، فالإسناد كما ترى مجازي، وقرينته صدور الكلام من خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام.

❊ ❊ ❊

ما الفرق بين المجاز العقلي والمجاز اللغوي

ومما سبق يتضح لك أن المجاز العقلي تجوز في الإسناد، أي في النسبة بين المسند والمسند إليه، فقولك: أنبت الربيع، ليس التجوز في "أنبت" ولا في "الربيع". وإنما في إسناد الإنبات إلى الربيع، أما المجاز اللغوي فهو تجوز في الكلمة لا في الإسناد، فقولك: رأيت أسدًا يتكلم، المجاز في لفظ الأسد حيث نقل من الحيوان المفترس إلى الرجل الشجاع.

---

(١) حبطا: الحبط انتفاخ البطن، يقال: حبط بطنه إذا انتفخ يحبط حبطاً، انظر لسان العرب مادة: حبط. والحديث رواه البخاري في الجهاد برقم [٣٧/ ٢٨٤٢] ومسلم في الزكاة برقم ب١٢٣/ ١٠٥٢].

(٢) رواه ابن ماجة في الأطعمة برقم [٥٢/ ٣٣٥٣].

يقول عبد القاهر: "ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء":

تَرْتَعُ مَا غَفَلَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ولغلبة ذاك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن لها حال غيرهما، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار، وإنما كان يكون المجاز في نفس الكلمة لو أنها كانت قد استعارت الإقبال والإدبار لمعنى غير معناهما الذي وضعا له في اللغة، ومعلوم أن ليس الاستعارة مما أرادته في شيء"(١).

هذا والمجاز العقلي المتصرف فيه هو العقل، إذ هو الذي يقيم الروابط والصلات بين أجزاء الكلام، ولذا سمي مجازًا عقليًا، أما المجاز اللغوي فمرجعه إلى واضع اللغة، إذ هو الذي وضع مفرداتها، وحدد معاني المفردات، فكان التجوز في تلك المفردات بنقلها من معنى إلى معنى، تصرف لغوي في نطاق ما حددته اللغة ووضحت معانيه، ولذا سمي التجوز في المفردات مجازًا لغويًا. وبعض العلماء يرون أن الواضع – واضع اللغة – كما وضع مفرداتها وضع كذلك تراكيبها، وهؤلاء يسمون التجوز في الإسناد، مجازًا لغويًا، كالتجوز في المفردات، لأن كليهما تجوز في نطاق ما وضعته اللغة وحددته.. ولا أرى داعيًا للخوض في مثل هذه الخلافات، إذ لا يجني الدارس من وراء معرفتها والوقوف عليها ثمرة تذكر.

❋ ❋ ❋

صور المجاز العقلي

وينقسم المجاز العقلي باعتبار حقيقة طرفيه ومجازيتهما إلى أربعة أقسام وهي:

١ – أن يكون طرفا الإسناد حقيقتين لغويتين: أي يكون المسند والمسند إليه مستعملين استعمالاً حقيقيًا، والتجوز إنما هو في الإسناد فقط، كقولك أنبت الربيع النبات، فكل من "أنبت" و"الربيع" مستعمل في معناه الحقيقي الذي وضع له، والمجاز في إسناد الإنبات إلى الربيع.

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٩٢.

ومثله قول الصلتان العبدي:

أَشَابَ الصَّغِيرَ وأفنَى الكبيـ ـرَ كَرُّ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِي

وقول جميل:

وشَيَّبَ أَيَّامُ الْفِرَاقِ مَفَارِقِي وَأَنْشَزْنَ نَفْسِي فَوْقُ حيثُ تَكُونُ

يريد أن أيام الفراق رفعت نفسه عن مكانها في الجسم وبلغت بها الحلقوم. وواضح أن أجزاء الكلام من مسند ومسند إليه مستعملة في معانيها الحقيقية، والمجاز إنما هو في الإسناد فقط، في إسناد "أشاب وأفنى" إلى "كر الغداة ومر العشى" وإسناد "شيب وأنشز" إلى أيام الفراق. واقرأ الآيات الكريمة: ﴿ **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا** ﴾ [الأنفال ٢]، ﴿ **وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا** ﴾ [الزلزلة ٢]، ﴿ **فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ** ﴾ [القارعة ٧]، ﴿ **يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا** ﴾ [المزمل ١٧]، تجد أن المجاز في إسناد الزيادة للآيات، والإخراج للأرض والرضا للعيشة، والجعل لليوم، أما طرفا الإسناد فلا مجاز فيهما..

ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج:

يَا رَبِّ قَدْ فَرَّجْتَ عنِّي غَمِّي قَدْ كُنْتُ ذَا هَمٍّ وَرَاعِي نَجْمِ

فنامَ لَيْلِي وتجلَّى هَمِّي

فقد أسند النوم إلى الليل إسناديا مجازيًا لعلاقة الزمانية، أما النوم والليل فمستعملان فيما وضعا له.

وقول سلمة الجعفي يرثي أخاه:

فتىً كانَ يُعطِي السيفَ في الرَّوْعِ حَقَّهُ إِذَا ثَوَّبَ الدَّاعِي وَتَشْقَى بِهِ الْجُزْرُ

فتىً كان يُدْنِيهِ الْغِنَى مِنْ صَدِيقِهِ إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ

وصفه بالشجاعة والكرم حيث كان يضرب بالسيف في حال الشدة ويجيب الداعي الذي يثوب أي يرجع صوته حتى يسمع فيجيبه الشجعان ويغيثونه، وكانت الجزر تشقى به إذ كان ينحرها لضيوفه وقد أسند الشاعر الإدناء إلى الغنى والإبعاد إلى الفقر إسنادًا مجازيًا لعلاقة السببية، أما طرفا الإسناد فقد استعملا فيما وضعا له، استعمالاً حقيقيًا.

٢- أن يكون المسند مجازًا لغويًا، والمسند إليه حقيقة لغوية: أي مستعملاً فيما وضع له استعمالا حقيقيًا، كقولك: أحيا الأرض الربيع: فالمسند "أحيا" مجاز لغوي حيث استعير الإحياء للإنبات والمسند إليه "الربيع" مستعمل فيما وضع له.

ومن ذلك قول المتنبي:

وَتُحْيِي لَهُ الْمَالَ الصَّوَارِمُ وَالْقَنَا ... وَيَقْتُلُ مَا تُحْيِى التَّبَسُّمُ وَالْجَدَا

حيث يصف الممدوح بالشجاعة والكرم، فهو يحصل المال بشجاعته وقوته، ثم ينفقه على الضعفاء والمحتاجين كرما وسخاء، وقد أسند الشاعر "الإحياء" إلى "الصوارم والقنا" و"القتل" إلى التبسم والجدا إسنادًا مجازيًا، وكل من القتل والإحياء مستعمل في غير ما وضع له استعمالاً مجازيًا، حيث استعير القتل "للإنفاق" والإحياء لجمع المال وتحصيله بقوة السلاح، أما المسند إليهما "الصوارم والقنا"، و"التبسم والجدا" فمستعملان فيما وضعا له استعمالا حقيقيًا.

ونقول "أهلك الناس الدينار والدرهم" فإسناد "أهلك" إلى "الدينار والدرهم" مجاز عقلي علاقته السببية ولفظ "أهلك" المسند، ليس حقيقة، بل مجاز عن الفتنة، إذ الإهلاك مسبب عن الفتنة، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية وقد أسند إلى الدينار والدرهم إسنادًا مجازيًا، فالتجوز واقع في الإسناد، وفي المسند، في الإسناد مجاز عقلي وفي المسند مجاز لغوي.

وانظر في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم ٤] حيث أسند "اشتعل" إلى "الرأس" إسنادًا مجازيًا لعلاقة المكانية إذ الرأس مكان للاشتعال والذي يفعل الاشتعال حقيقة إنما هو الشعر ولفظ المسند "اشتعل" مجاز لغوي، إذ المراد به: ظهور شيب الرأس، فاستعير الاشتعال للظهور، وتفيد هذه الاستعارة عموم الشيب وإحاطته بجميع الرأس، كما تفيد المفاجأة في ظهور الشيب، فهو اشتعال وليس ظهورًا، وتفيد أيضًا حب زكريا – عليه السلام – لهذا الشيب حيث أحس به إحساسًا مشرقيًا مضيئًا، لا تكاد تراه في شعر الشعراء الذين يصورون ظهور الشيب بالرأس تصويرًا حزينًا مؤلمًا إذ يكون سببًا في فراق الأحبة وابتعادهن.

انظر إلى قول دعبل:

لاَ تَعْجَبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

وقول الأعشى:

قَالَتْ قَتِيلَةُ مَالَهُ قَدْ جُلِّلَتْ شَيْبًا شَوَاتُهُ

وقول أبي تمام:

لَهُ منظرٌ في الْعَيْنِ أبيضُ نَاصِعٌ وَلَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ[(١)]

تجد أنهم يشعرون بالشيب شعورًا حزينًا كئيبًا، لأنه يؤذن بتولي الشباب، ويعلن عن فراق الحبيبات.

ونعود إلى المجاز العقلي لننظر في شواهد هذه الصورة التي وقع التجوز فيها في المسند وفي الإسناد، فمنها قولهم: "سال بهم الوادي"، استعير السيلان للسير، ثم اشتق منه سال بمعنى سار على سبيل الاستعارة التبعية، وأسند "سال" إلى "الوادي" إسنادًا مجازيًا لعلاقة المكانية، ويفيد هذا التجوز المبالغة في سرعة سير القوم وكأن المكان قد فاض بهم ودفع.

ومثله قول كثير عزة:

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

وقول سبيع بن الخطيم التيمي:

سَالَتْ عَلَيْهِ شِعَابُ الْحَيِّ حِينَ دعَا أَنْصَارَهُ بِوُجُوهٍ كَالدَّنَانِيرِ

ففي إسناد "السيلان" إلى "الأباطح" وإلى "شعاب الحي" مجاز عقلي علاقته المكانية، والمسند "سال" مجاز لغوي حيث استعير "السيلان" للسير، ولا يخفى عليك بلاغة المجاز في البيتين، فقد أبرز شدة اندفاع المطى في الأباطح، وسرعة اندفاع الأنصار إلى الداعي، وكأن الشعاب قد فاضت بهم ودفعتهم إليه، وكأن

---

(١) الأبيض الناصع: شديد البياض، والأسود الأسفع: هو الأسود المائل إلى حمرة، وقد استعير الأسود الأسفع لما يحدثه الشيب من الهم والحزن.

الأباطح هي التي تسيل وتمضي لا الإبل، وما من شك في أن المجاز اللغوي قد ساهم في تحقيق هذه المبالغة بنصيب وافر.

٣- أن يكون المسند إليه مجازًا لغويًا والمسند حقيقة لغوية: أي مستعملاً فيما وضع له استعمالاً حقيقيًا، كقولك: أنبت شباب الزمان النبات فالمسند "أنبت" مستعمل فيما وضع له استعمالاً حقيقيًا، والمسند إليه "شباب الزمان" مجاز لغوي؛ حيث استعير لزمن الربيع وإسناد الإنبات إلى "شباب الزمان" مجاز عقلي علاقته الزمانية ..

وانظر إلى قول ابن خفاجة الأندلسي:

وإِنِّي إذا مَا شَاقَنِي لِحَمَامَةٍ   رَنِينٌ وَهَزَّتْنِي لِبَارِقَةٍ ذِكْرَى

لأَجْمَعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ لَوْعَةً   فمِنْ مُقْلَةٍ رَيًّا وَمِنْ كَبِدٍ حَرَّى

تجد أنه قد أسند الشوق إلى الرنين إسنادًا مجازيًا، لأن الرنين باعث الشوق وليس بفاعله، والرنين في البيت مستعار لهديل الحمام وسجعه وترجيعه.

وخذ قول الفرزدق:

سَقَاهَا خُرُوقٌ فِي الْمَسَامِعِ لَمْ تَكُنْ   عِلاَطًا وَلاَ مَخْبُوطَةً فِي الْمَلاَغِمِ[١]

فهو يتحدث عن إبلهم المهملة في الصحراء والتي ترد الماء فلا يمنعها مانع. وخروق المسامع: مجارى الصوت في الأذن، يقال: جرى حديثه في خروق المسامع أي: سمعه الناس.

ومنه قول مجنون ليلى:

وكيفَ تَرَى ليلىَ بِعَيْنٍ تَرى بهَا   سِوَاهَا وَمَا طَهَّرْتَهَا بِالْمَدَامِعِ

وَتَلْتَذُّ مِنْهَا بِالْحَدِيثِ وقَدْ جَرَى   حَدِيثُ سِوَاها في خُرُوقِ الْمَسَامِعِ

أي: وقد جرى حديث سواها في أذنك، وقد استعمل الفرزدق خروق

(١) العلاط: صفحة العنق ويطلق على السمة في عنق البعير مجازاً مرسلاً من إطلاق المحل على الحال وقد كثر هذا حتى صار كأنه حقيقة. مخبوطة: موسومة .. والملاغم: الأشداق وما حولها.

المسامع مجازًا مرسلاً في شهرة الذكر وبعد الصيت، من إطلاق المحل على الحال، وفي إسناد السقى إلى خروق المسامع مجاز عقلي علاقته السببية، لأن خروق المسامع بمعنى الذكر وبعد الصيت سبب في السقى، وليست فاعلته وهذا التجوز وضح السبب وأبرزه حيث خيل أنه هو الذي سقى الإبل(١).

٤- أن يكون كل من المسند والمسند إليه مجازًا لغويًا: أي مستعملاً في غير ما وضع له استعمالاً مجازيًا، فيكون في الجملة ثلاثة مجازات، مجاز عقلي في الإسناد، ومجازان لغويان في كل من المسند والمسند إليه، وقد مثل البلاغيون لهذا بقولهم: أحيا الأرض شباب الزمان؛ حيث استعير الإحياء للإنبات وشباب الزمان للربيع وفي إسناد "أحيا" إلى، "شباب الزمان" مجاز عقلي علاقته الزمانية، ومن ذلك قولنا: "أحيتنا مصابيح الإسلام"، و"أحيانا نبراس من الله"، فقد استعيرت الحياة للهداية، ومصابيح الإسلام للعلماء، والنبراس، للقرآن، وفي إسناد الحياة إلى كل من المصابيح والنبراس مجاز عقلي، ففي كل جملة ثلاثة مجازات، مجازان لغويان في كل من المسند والمسند إليه، ومجاز عقلي في الإسناد.

***

استلزام المجاز العقلي الحقيقة

ما من ريب في أن المجاز العقلي يستلزم الحقيقة العقلية، فكل تجوز في الإسناد له في التقدير فاعل حقيقي، إذا أسند إليه المسند صار الإسناد حقيقة، غير أن الفاعل الحقيقي تارة يكون تقديره واضحًا يدرك بيسر وسهولة كقولك: شفى الطبيب المريض وأنبت الربيع النبات، وكقول الفرزدق:

يَحْمِي إِذَا اخْتُرِطَ السُّيُوفُ نِسَاءَنَا ... ضَرْبٌ تَطِيرُ لَهُ السَّوَاعِدُ أَرْعَلُ(٢)

وقول الله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا

---

(١) ارجع إلى خصائص التراكيب ص ٩١..

(٢) اخترط السيوف: استلت. وأرعل: من رعل النبات فهو أرعل إذا تهدلت أغصانه. والمعنى: أن الضرب يطير سواعد المضروب ويقطع لحمه فيدعه مدلي كما تتدلى الأغصان المتهدلة.

كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦] فالفاعل الحقيقي في مثل هذه الشواهد واضح وجرى به الاستعمال العربي حيث قالوا: شفى الله المريض، وأنبت الله النبات، وربح الناس في تجارتهم، ونحمي نساءنا بضرب شديد أرعل.

وتارة يكون الفاعل الحقيقي خفيًا لا يدرك إلا بالتأمل والنظر، كقولهم: سرتني رؤيتك وأمتعني حديثك، ومحبتك جاءت بي وأقدمني بلدك حق لي على فلان.

وكقول أبي نواس:

وَجَوْهَرُ عِنْدنَا تَحْكِي ... بَدَارَةُ وجْهِهَا الْقَمَرَا

يَزِيدُكَ وَجْهُهَا حُسْنًا ... إذا مَا زِدْتَهُ نَظَرَا

وقول أبي عبد الله محمد بن أبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي:

أَتَيْتُكَ عَائِذًا بِكَ مِنْكَ لَمَّا ضَاقَتِ الْحِيَلُ

وَصَيَّرَنِي هَوَاكَ وبِي ... لِحَيْنِي يُضْرَبُ الْمَثَلُ

فَإِنْ ظَفَرَتْ بِكُمْ نَفْسِي ... فَمَا لاَقَيْتُهُ جَلَلُ

وَإِنْ قَتَلَ الْهَوَى رَجُلاً ... فَإِنِّي ذَلِكَ الرَّجُلُ

فالفاعل الحقيقي في هذه الشواهد هو "الله تعالى" إذ التقدير: سرني الله وأمتعني وجاء بي وأقدمني بلدك بسبب رؤيتك وحديثك ومحبتك وحق لي على فلان، وكذا التقدير في البيتين: يزيدك الله حسنًا بسبب النظر إلى وجهها، وصيرك الله بسبب هواه، ولكن لما كان الإسناد الحقيقي في مثل هذه الشواهد لم يجرِ به الاستعمال العربي، وأن الإسناد المجازي قد كثر وجرى على ألسنتهم خفي الإسناد الحقيق، الذي يصار إليه عند التقدير وصار لا يخطر على البال ولا يدرك إلا بشيء من التأمل وإنعام النظر وتذكر الحقيقة الثابتة التي تقرر أن الله تعالى هو خالق الأفعال كلها.

هذا واستلزام المجاز العقلي الحقيقة العقلية قد أجمع عليه البلاغيون واتفقوا،

(١) الحين في الأصل: الهلاك وقد استعير هنا لما وصل إليه من سوء الحال في هواه.

ولكن بعضهم خفي عليه كلام عبد القاهر في هذا الصدد فاعتقد أنه ينكر أن يكون لكل فعل فاعل حقيقي يصار إليه عند التقدير، وكلام عبد القاهر لا يفيد هذا، إذ يذكر أن من أساليب المجاز العقلي ما يمكنك أن ترجع بالإسناد فيه إلى الفاعل الحقيقي، مثل نام ليلي وتجلى همي، وقوله تعالى: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾ [البقرة ١٦] وقول الشاعر:

تَجُوبُ لَهُ الظَّلْمَاءَ عَيْنٌ كَأَنَّهَا ... زُجَاجَةُ شُرْبٍ غَيْرُ مَلأَى وَلاَ صِفْرِ

فمن السهل معرفة الفاعل الحقيقي في مثل هذه الشواهد، إذ يقال: نمت في ليلي وربحوا في التجارة، ويجوب الجمل الظلماء بعينه.

وهناك أساليب من المجاز العقلي لم يألفها الاستعمال مسندة إلى ما حقها أن تسند إليه، مثل: أقدمني بلدك حق لي عليك، وقول أبي عبد الله محمد بن أبي محمد يحيي بن المبارك اليزيدي:

وَصَيَّرَنِي هَوَاكَ وبِي ... لِحَيْنِي يُضْرَبُ الْمَثَلُ

وقول أبي نواس:

يَزِيدُكَ وَجْهُهَا حُسْنًا ... إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظَرَا

يقول عبد القاهر: "إنك لا تستطيع أن تزعم أن "لصيرني" فاعلاً قد نقل عنه الفعل فجعل للهوى، كما فعل ذلك في: "ربحت تجارتهم": ولا تستطيع كذلك أن تقدر "ليزيد" في قوله: يزيدك وجهه، فاعلاً غير الوجه.."[(١)] ومراد عبد القاهر بعدم الاستطاعة أنه لم يؤلف الاستعمال الحقيقي في مثل هذا ولم يجر على ألسنة القوم، بل الذي أُلِف وكثر استعماله وجرى على ألسنتهم هو الاستعمال المجازي.

وقد أخذ هؤلاء الذين خفي عليهم كلام عبد القاهر يقدرون لما ذكر من شواهد فاعلاً حقيقيًا ثم يقولون: إن أي مسند إليه يرتضى العقل صحة إسناد هذه الأفعال إليه يكون الإسناد معه حقيقًا[(٢)] .. وعبد القاهر لم ينكر هذا كما رأينا، وقد

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٨٩.

(٢) انظر نهاية الإيجاز.

وضحنا مراده .. ولا نرى للخوض في مثل هذه الخلافات فائدة ترتجي، ولذا ننصح الدارس بعدم الخوض فيها وأن يتجاوزها إلى ما هو مفيد ومثمر..

***

إنكار المجاز العقلي

وقد أنكر السكاكي المجاز العقلي أو بمعني أدق رجعه إلى الاستعارة المكنية، فقال في نحو: أنبت الربيع البقل، إن الربيع استعارة مكنية؛ حيث شبه الربيبه بالفاعل الحقيقي وهو الله تعالى في تعلق الفعل بكل منهما، ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإنبات، وإثبات الإنبات للربيع استعارة تخييلية، وبهذا يخرج السكاكي المجاز العقلي من علم المعاني ويضعه في علم البيان مع صور الاستعارة المكنية، والذي دفعه إلى هذا – كما قال – الرغبة في تقليل الأقسام، ومن أجل تلك الرغبة أنكر أيضًا الاستعارة التبعية وأدخلها في المكنية ..

وممن أنكروا المجاز العقلي أيضًا يحيي بن حمزة العلوي، صاحب الطراز أو بمعنى أدق عده من المجازات المركبة اللغوية، إذ يقول: "اعلم أن هذه المجازات المركبة التي ذكرناها ومثلناها بقوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة ٢] وبقوله تعالى: ﴿ مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة ٦١] وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ [يونس ٢٤] وغير ذلك من الأمثلة، فإنها كلها مجازات لغوية استعملت في غير موضوعاتها الأصلية، فلأجل هذا حكمنا عليها بكونها لغوية، وبيانه هو أن صيغة "أنبت" وأخرج، و"أخذ" وضعت في أصل اللغة بإزاء صدور الخروج والنبات والأخذ من القادر الفاعل، "فإذا استعملت في صدورها من الأرض"، فقد استعملت الصيغة في غير موضوعها، فلا جرم حكمنا بكونها مجازات لغوية"(١).

ومما لا ريب فيه أن تقليل الأقسام مما يفيد الدارس وينفع الباحث، بشرط ألا يؤدي هذا التقليل إلى تجاهل الخصوصيات ونحن عندما نقرأ صور المجاز العقلي، وننظر في شواهده نرى لها مذاقًا يختلف وخصوصيات تبتعد عن مذاق الاستعارة المكنية وعن خصوصياتها، وكذا القول في المجاز المركب، وفي الاستعارة التبعية، ولا

---

(١) الطراز ١/ ٥٧، ٧٦.

يخفى عليك هذا عندما تنظر في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة ١٦] وقوله عز وجل: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ [القارعة ٧].

وفي قول الفرزدق:

سَقَاهَا خُرُوقٌ فِي الْمَسَامِعِ لَمْ تَكُنْ ... عِلاَطًا وَلاَ مَخْبُوطَةً فِي الْملاَغِمِ

وقوله أيضًا:

يَحْمِي إِذَا اخْتُرِطَ السُّيُوفُ نِسَاءَنَا ... ضَرْبٌ تَطِيرُ لَهُ السَّوَاعِدُ أَرْعَلُ

وقول الهذلي:

وإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ

وقول الحبيب ﷺ: "مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ إِلَيهَا يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْموتَ مَظَانَّهُ"(١)..

وقولنا للمتردد "أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى".

وقول ابن ميادة:

أَلَمْ تَكُ فِي يُمْنَى يَدَيْكَ جَعَلْتَنِي ... فَلاَ تَجْعَلَنِّي بَعْدَهَا فِي شِمَالِكَا

وقول بعض العرب:

فَإِنْ تَعَافُوا الْعَدْلَ وَالإِيمَانَا ... فَإِنَّ فِي أَيْمَانِنَا نِيرَانَا

حيث ترى أن الخصوصيات التي اقتضاها المجاز العقلي في الآيتين الكريمتين، وفي بيتي الفرزدق، تختلف عن الخصوصيات التي اقتضتها الاستعارة المكنية في بيت أبي ذؤيب، والاستعارة التبعية في الحديث الشريف، والاستعارة التمثيلية في القول المذكور وفي بيت ابن مياده، والاستعارة التصريحية في البيت الأخير، وسيتضح لك هذا عندما تدرس هذه الألوان في علم البيان.

والمهم الآن أن تعرف أن مذاق المجاز العقلي يختلف عن مذاق تلك الألوان،

---

(١) رواة مسلم في الإمارة برقم [١٢٥/ ١٨٨٩] وابن ماجة في الفتن برقم [١٣/ ١٩٧٧].

ففي الآية الأولى أفاد إسناد الربح إلى التجارة المبالغة في تأكيد سببية التجارة في الربح، وفي الآية الثانية تجد أن إسناد الرضا إلى ضمير العيشة أفاد كمال المبالغة في رضاهم بها وانسجامهم فيها، وفي البيت الأول للفرزدق أفاد إسناد السقى إلى خروق المسامع، تأكيد هذه السببية بجعلها فاعلاً للسقى، وكذا القول في يحمي نساءنا ضرب، وهكذا تجد للمجاز العقلي مذاقًا لا تجده في الألوان الأخرى، فلا مجال لإنكاره إذًا ورده إلى المجازات المركبة، أو رجعه إلى الاستعارة المكنية رغبة في تقليل الأقسام، لأن تقليل الأقسام: إذا تناف مع الخصوصيات التي يقتضيها المقام، فلا مزية لهذا التقليل، ولا يصح الأخذ به.

هذا وقد دفع الخطيب القزويني إنكار السكاكي للمجاز العقلي، أو جعله إياها استعارة مكنية، دفعًا شديدًا ورده بردود قوية وذلك حيث يقول: " وفيما ذهب إليه نظر، لأنه يستلزم أن يكون المراد بعيشة في قوله تعالى: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [القارعة ٧] صاحب العيشة لا العيشة وبماء في قوله: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق ٦] فاعل الدفق لا المنى، لأن مبني الاستعارة بالكناية عنده أن المشبه يصير من أفراد المشبه به، وألا تصح الإضافة في نحو قولهم: فلان نهاره صائم، لأن المراد بالنهار على هذا فلان نفسه وإضافة الشيء إلى نفسه لا تصح، وألا يكون الأمر بالإيقاد على الطين في الآية: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ ﴾ [القصص ٣٨] لهامان مع أن النداء له – بل يكون لجنوده الذين شبه بهم – وأن يتوقف جواز التركيب في نحو قولهم: أنبت الربيع البقل، وسرتني رؤيتك، على الإذن الشرعي، لأن أسماء الله توقيفية .. ثم ما ذكره منقوض بنحو قولهم: فلان نهاره صائم، فإن الإسناد فيه مجاز ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان، لأن ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ويوجب حمله على التشبيه"(١).

❊ ❊ ❊

---

(١) الإيضاح جـ١ ص ٧٠، ٧١.

بلاغة المجاز العقلي ودقة مسلكه

وتكمن بلاغة المجاز العقلي فيما يفيده من المبالغة في التعبير، وإيجاز القول، وإثارة الخيال عندما يسند الفعل إلى غير فاعله الحقيقي، كما ترجع بلاغة المجاز العقلي إلى أنه يفتح أمام المتكلم الميدان للتفنن في القول، وتلوين العبارة، وإخضاع الكلام لما يريد، وتشكيل البناء حسبما يهدف إليه ويرمي، فهو يلجأ إليه لنفي تهمة، أو لتخلص من جريمة، أو لتحقيق مقصد من المقاصد؛ حث يجد في إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي ميدانًا رحبًا لتحقيق هذه المقاصد.

ولذا يقول فيه عبد القاهر.. "وهذا الضرب من المجاز على حدته كنـز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ، في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعًا مصنوعًا، وأن يضعه بعيد المرام، قريبًا من الإفهام"[١].

ويتضح لك هذا من خلال تأملك لشواهده وأمثلته .. انظر في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[الزلزلة ٢] تجد أن الفعل قد أسند إلى مكانه وفي هذا الإسناد تخييل محرك ومثير؛ إذ يصور لنا الأرض فاعلة جاهدة تخرج أثقالها وتقذف بنفسها ما بداخلها، فلا تبقى في باطنها شيئًا، وتأمل الشواهد التي أسند فيها الفعل إلى سببه أو إلى زمانه أو مكانه نحو: بنى الأمير، ونهاره صائم، وليله قائم، وطريق سائر، ولاحظ ما فيها من الإيجاز وتقليل الألفاظ، إذا المراد: بنى العمال بأمر الأمير، وصام الناس في النهار، وقام العابد الليل، ومضى السائرون في طريقهم، وفضلاً عن إفادة الإيجاز تجد التجوز في تلك الأمثلة قد أفاد المبالغة في وقوع هذه الأفعال وشدة اهتمام الأمير بالبناء، وتأكيد كمال الصوم وتمام القيام وسرعة السير في الطريق ..

وكثيرًا ما يلجأ المتكلم إلى المجاز العقلي لتحقيق مقصد من المقاصد – كما قلت انظر إلى قولهم: "فلان قتله جهله وقضى عليه غروره"، وهم يريدون بهذا تبرئة

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٨٨.

القاتل من جريمة قتله، ونفى التهمة عمن قضى على غيره، وذلك بإسناد القتل إلى جهل المقتول، "وقضى" إلى غرور المقضي عليه وتكبره وعجرفته. فقد وجدوا في المجاز العقلي تحقيقًا لهذا المقصد.

ومن هذا ما روى أن عمار بن ياسر -رضي الله عنهما- لما قتل يوم صفين وكان في جند عليّ -كرم الله وجهه-، اضطرب أهل الشام لعلمهم بقول النبي ﷺ: «**وَيْحَ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ**»[1]، فقال لهم معاوية ﷺ: "إنما قتله من أخرجه"، فقد وجد معاوية ﷺ في المجاز دفعًا للتهمة عن جماعته وإزالة لاضطراب الناس وارتيابهم.

ومنه أيضًا ما ورد أن زيادًا عندما كان واليًا على الكوفة من قبل معاوية، اتهم حجر بن عدي وأصحابه بالخروج على معاوية، وأشهد على ذلك سبعين من وجوه الكوفة، ثم أرسلهم إلى معاوية مع شهادتهم بهذا الخروج فقتل معاوية حجرًا وصحبه، فلما حج معاوية، مر على أم المؤمنين السيدة عائشة -رضي الله عنها- فاستأذن عليها فلما أذنت له وقعد سألته: "أما خشيت الله في قتل حجر بن عدي وأصحابه"؟ فأجاب: "لم أقتلهم وإنما قتلهم من شهد عليهم" فقد وجد في المجاز ما يدفع به عن نفسه تهمة قتل حجر وأصحابه.

هذا والمتكلم يحتاج في استخدامه لهذا المجاز أن يهيئ العبارة له، فليس كل شيء – كما يقول عبد القاهر – يصلح لأن يتعاطى فيه هذا المجاز، بل تجدك في كثير من الأمر وأنت تحتاج إلى أن تهيئ الكلام، وتصلحه لذلك بشيء تتوخاه في النظم، وكلما هيأ المتكلم العبارة لهذا المجاز تجده قد صار أوقع في النفس وألطف، وآكد وأبلغ.

انظر إلى قول بعضهم:

تَنَاسَى طِلاَبَ الْعَامِرِيَّةِ إِذْ نَأَتْ ... بِأَسْجَعَ مِرْقَالِ الضُّحَى قَلِقَ الضَّفْرِ

إِذَا مَا أَحَسَّتْهُ الْأَفَاعِي تَحَيَّزَتْ ... شُوَاةُ الْأَفَاعِي مِنْ مُثَلَّمَةٍ سُمْرِ

---

(١) رواه البخاري في الصلاة برقم [٤٤٧/ ٦٣].

تَجُـــوبُ لَـــهُ الظَّلْـــمَاءَ عَـــينٌ كَأَنَّهَـــا زُجَاجَـــةُ شُرْبٍ غَـــيرُ مَـــلأَى وَلاَ صِـــفْرِ[١]

تجده قد أسند "تجوب" إلى "العين" والأصل: يجوب الجمل بعينه الظلماء، ولكنه عدل إلى المجاز فأسند الفعل إلى آلته، ثم هيأ البيت وتوخى من النظم ما يجعل المجاز ألطف وأوقع في النفس إذ تراه نكر العين ليتسنى له وصفها بالجملة الواقعة بعدها، ولو قال: تجوب له الظلماء عينه ما تمكن من وصفها بتلك الجملة، وعندما نكر العين وقطعها عن الإضافة إلى الجمل وصلها به بقوله "له" فبدون الضمير في "له" يصير الكلام لا علاقة له بالجمل[٢].

وانظر في قول الفرزدق:

يَحْمِـــي إِذَا اخْـــتُرِطَ الـــسُّيُوفُ نِـــسَاءَنَا ضَرْبٌ تَطِـــيرُ لَـــهُ الـــسَّوَاعِدُ أَرْعَـــلُ

تجده قد قدم الشرط: "إذا اخترط السيوف" على الفاعل والمفعول فأبرز بهذا صعوبة الموقف وشده الحال، ثم إن بناء الفعل للمجهول "اخترط"، قد أشار إلى سرعة سل السيوف باندفاع وتهور، وتأمل القولين: يحمي نساءنا ضرب إذا اخترطنا السيوف، ويحمي إذا اخترط السيوف نساءنا ضرب، تجد أن تقديم الشرط والمجيء به معترضًا بين الفعل وفاعله، قد هيأ العبارة للمجاز العقلي فدق ولطف، ووقع في النفس موقعه..

وخذ قول الخنساء:

تَرْتَـــعُ مَـــا غَفَلَـــتْ حَتَّـــى إِذَا ادَّكَـــرَتْ فَـــإِنَّمَا هِـــيَ إِقْبَـــالٌ وَإِدْبَـــارُ

تجد أن أسلوب القصر قد هيأ المجاز العقلي أحسن تهيئة حيث قصرت الناقة على الإقبال والإدبار، وقارن بين: هي إقبال وإدبار، وإنما هي إقبال وإدبار، فستتضح لك قوة المبالغة المنبعثة من أسلوب القصر.

---

(١) الأسجع من الإبل: الرقيق المشفر، ومرقال: سريع العدو والضفر: الحزام فهو قلق الضفر من شدة الضمور. وشواة الأفاعي: جلودها، وتحيزت. انقبضت. والمثلمة السمر: الأخفاف وثلمها من السير على الحجارة والسمر منها أقواها. وصفر: خالية، وتجوب: تقطع وتنفذ.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ٢٩٠.

ثم تأمل قول كثير:

أَخَـــذْنَا بِـــأَطْرَافِ الأَحَادِيـــثِ بَيْنَنَـــا وَسَـــالَتْ بِأَعْنَـــاقِ الْـــمَطِيِّ الأَبَـــاطِحُ

تجد أن اختيار هذا الجزء من الإبل "الأعناق" قد أضفى على العبارة جمالاً وأبرز وجلى ما يفيده المجاز العقلي من تخييل وتصوير الأباطح متحركة تدفع بهذه المطى دفعًا وتسيل بها سيلانًا، وذلك لأن حركة الإبل عندما تسرع في السير تظهر تمام الظهور في أعناقها، ويتضح لك هذا عندما تقارن بين قولك وسالت بالمطي الأباطح وبين ما قاله كثير:

وســـالت بأعنـــاق المطـــي الأبـــاطح

وهكذا تجد المجاز العقلي في حاجة إلى تهيئة العبارة وتوخي النظم، وأن الشاعر أو المتكلم عندما يراعي هذا فيتوخى من النظم ما يلائم المجاز ويهيىء العبارة له، فإنه يقع في النفس موقعه، ويحقق ما يقصده الشاعر من الإيجاز والمبالغة والتخييل.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني
أحوال المسند إليه

المسند إليه هو أحد أجزاء الجملة – كما عرفت – إذ تتكون الجملة من مسند ومسند إليه وأحد المتعلقات – إن وجد – كالمفعول والظرف والمصدر والجار والمجرور .. وسنتناول في هذا الفصل أحوال المسند إليه من حذف وذكر وتعريف وتنكير وإتباع وتقديم وتأخير .. ثم نتبع ذلك بأحوال المسند وأحوال المتعلقات في الفصلين التاليين. وفي ختام هذا الجزء سنعرض لظواهر أسلوبية تشمل كل أجزاء الجملة المذكورة.

حذف المسند إليه

لابد لكل حذف يقع في اللغة من وجود أمرين بدونهما يكون الحذف عبثًا وضربًا من الهذيان، وهذان الأمران هما:

١ – وجود القرينة الدالة التي تدل على المحذوف وترشد إليه وتعينه.

٢ – وجود سر بلاغي يدعو إلى الحذف ويرجحه على الذكر.. وهذه الأسرار كثيرة، ولا يمكن استقصاؤها والإحاطة بها، ولذا يقول عبد القاهر في إبراز فوائد الحذف وبيان قيمته البلاغية: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبن .. وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر، وأنا أكتب لك بديئًا أمثلة مما عرض فيه الحذف، ثم أنبهك على صحة ما أشرت إليه، وأقيم الحجة من ذلك عليه.."[١]

وأخذ يعرض كثيرًا من شواهد حذف المبتدأ والمفعول مبينًا دقة الحذف فيها ومزيته وفضله على الذكر، وموضحًا أن تقدير المحذوف والنظر إليه واعتباره في الكلام يعد تكلفًا ويذهب بمزية الحذف ويضيع رونقه .. يقول: "تكلف أن ترد ما حذف الشاعر وأن تخرجه إلى لفظك وتوقعه في سمعك، فإنك تعلم أن الذي قلت

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٠.

كما قلت وأن رب حذف هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد" ويقول: "إنك ترى نصبه الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ أو تباعده عن وهمك، وتجتهد ألا يدور في خلدك، ولا يعرض لخاطرك وتراك كأنك تتوقاه توقي الشيء يكره مكانه، والثقيل يخشى هجومه" ويقول: "ترى النفس كيف تتفادى من إظهار المحذوف، وكيف تأنس إلى إضماره، وترى الملاحة كيف تذهب إن أنت رمت التكلم به"، ويقول: "فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه، وحذف في الحال التي ينبغي أن يحذف فيها، إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به"(١).

هذا ونستطيع أن نقول إن هناك ثلاث مزايا تراها كامنة وراء كل حذف يقع في اللغة وهي: الإيجاز، وإثارة وتحريك خيال المخاطب وأحاسيسه ليدرك من العبارة ما طوى ذكره وسكت عنه، والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، لأن ذكر الكلمة التي أقيم عليها الدليل وأشار إليها السياق وأرشدت إليها قرائن الأحوال، يعد عبثًا بمقتضى البلاغة، وإن كان لا يسمى عبثًا عند التحقيق، ولذا قيدوه بقولهم "بناء على الظاهر".

وعندما ننعم النظر ونتأمل الشواهد التي طوى فيها المسند إليه نجد أن حذفه قد كثر واطرد عند ذكر الديار والأطلال، وفي مقامات المدح والهجاء والفخر والرثاء، وأن هنالك أسرارًا بلاغية، تكمن وراء الحذف في تلك المقامات.

ذكر عبد القاهر أن حذف المسند إليه "المبتدأ" يكثر عند ذكر الديار والأطلال، ويطرد كذلك عند المدح والفخر وعند الهجاء أو الرثاء إذ تراهم يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام ويستأنفون كلامًا آخر، وهم إذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ .. ويعرض عبد القاهرة كثيرًا من الشواهد لهذا الحذف.

من ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

اعْتَادَ قَلْبَكَ مِنْ لَيْلَى عَوَائِدُهُ ... وَهَاجَ أَهْوَاءَكَ الْمَكْنُونَةَ الطَّلَلُ

---

(١) ارجع إلى هذه الأقوال في دلائل الإعجاز ١٧٤، ١٧٥

رَبْعٌ قَوَاءٌ أَذَاعَ الْمُعْصِرَاتُ بِهِ ... وَكُلُّ حَيْرَانَ سَارٍ مَاؤُهُ خَضِلُ(١)

أراد: ذلك ربع قواء فحذف المبتدأ.

ومثله قول عمر بن أبي ربيعة أيضًا:

هَلْ تَعْرِفُ الْيَوْمَ رَسْمَ الدَّارِ وَالطَّلَلاَ ... كَمَا عَرَفْتَ بِجَفْنِ الصَّيْقَلِ الْخِلَلاَ

دَارٌ لِمَيَّةَ إِذْ أَهْلِي وَأَهْلُهُمُ ... بِالْكَانِسِيَّةِ نَرْعَى اللَّهْوَ وَالْغَزَلاَ(٢)

وكأنه قال: تلك دار ..

ونحوه قول ذي الرمة:

إِلَى لَوَائِحَ مِنْ أَطْلاَلِ أَحْوِيَةٍ ... كَأَنَّهَا خِلَلٌ مُوشِيَّةٌ قُشُبُ

دِيَارُ مَيَّةَ إِذْ مَيٌّ تُسَاعِفُنَا ... وَلاَ يُرَى مِثْلُهَا عُجْمٌ وَلاَ عَرَبُ(٣)

أراد: تلك ديار أو هذه ديار ..

ومما ورد من ذلك في مقام المدح ونحوه قول الشاعر:

هُمُ حَلُّوا مِنَ الشَّرَفِ الْمُعَلَّى ... وَمِنْ حَسَبِ الْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا

بُنَاةُ مَكَارِمٍ وَأُسَاةُ كَلْمِ ... دِمَاؤُهُمُ مِنَ الْكَلَبِ الشِّفَاءُ(٤)

وقول عمرو بن معد يكرب:

وَعَلِمْتُ أَنِّي يَوْمَ ذا ... كَ مُنَازِلٌ كَعْبًا وَنَهْدَا

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا الْحَدِيـ ... ـدَ تَنَمَّرُوا حَلَقًا وَقِدَّا(٥)

---

(١) قواء: موحش قفر. والمعصرات: السحاب وكذا الحيران والساري وخضل: كثير.

(٢) الصيقل: السيف المصقول... والخلل بكسر الخاء: مفردها خلة وهي جفن السيف المبطن بالجلد ونحوه.. والكانسية: موضع.

(٣) اللوائح: ما تبين ولاح، وأحوية: بيوت مجتمعة مفردها: حِوَاء. وموشية: منقوشة. وقشب: جدد.

(٤) الكلم: الجرح. والكلب: داء يصيب الإنسان إذا عضه كلب، وكانوا يعتقدون أن دم الشريف إذا قطر في فم المصاب بداء الكلب فإنه يشفيه.

(٥) كعب ونهد: قبيلتان. وتنمروا: تشبهوا بالنمور، والقد: الجلد تصنع منه بعض الدروع. والحلق: حلق الدروع.

وقول محمد بن سعد الكاتب التميمي البغدادي:

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي ... أَيَادِيَ لَمْ تُمْنَنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ

فَتَى غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ ... وَلاَ مُظْهِرُ الشَّكْوَى إِذَا النَّعْلُ زَلَّتِ

وقول لقيط بن زرارة:

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ ... دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الْجِزْعَ ثَاقِبُهُ

نُجُومُ سَمَاءٍ كُلَّمَا انْقَضَّ كَوْكَبٌ ... بَدَا كَوْكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ[1]

وقول الأقيشر الأسدي في هجاء ابن عمه:

سَرِيعٌ إِلى ابْنِ الْعَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَهُ ... وَلَيْسَ إِلَى دَاعِي النَّدَى بِسَرِيعِ

حَرِيصٌ عَلَى الدُّنْيَا مُضِيعٌ لِدِينِهِ ... وَلَيْسَ لِمَا فِي بَيْتِهِ بِمُضِيعِ

أرادوا: هم بناة مكارم .. هم قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا .. هو فتى.. هم نجوم سماء.. هو سريع وحريص.

وعبد القاهر كعادته يحيلك إلى الذوق لتدرك سر بلاغة الحذف في تلك الشواهد، ويطلب منك أن تقارن بين الجمل وقد قدرت المحذوف وبين ما قاله الشاعر لتدرك بعد ما بين الكلامين وتعرف أن تقدير المحذوف قد أفسد المعنى الذي أراده الشاعر.

وأزيدك أن حذف المبتدأ عند ذكر الديار والأطلال يحقق معنى أراده الشاعر، وهو كراهته أن تنسب تلك الرسوم والأطلال والدمن والآثار حيث تغيرت الديار وتبدلت وأذاعت بها المعصرات فصارت تلوح لك كالحلل الموشية، وكانت من قبل ديارًا للهو والغزل.. كراهته أن تنسب تلك الديار التي بدلت إلى اسم حبيبته فيقال: تلك ديار مية. وذلك ربع ليلى، ونظير هذا أن ترى صديقًا حميمًا لك قد رسب في الامتحان ولم يوفق فتقول محدثًا عنه: رسب .. لم ينجح، ولا تذكر اسمه كراهة أن تضيف الرسوب إليه..

---

(١) الجزع: خرز فيه بياض وسواء.

وقارن كما يقول عبد القاهر بين: "دار لمية"، وبين "تلك دار لمية"، فستجد أن ذكر اسم الإشارة قد جعل ديارمية تنسب إليه وهو مشار به إلى الرسوم والدمن التي عصفت بها الرياح فصارت تلوج لك، كالخلل الموشية القشب، أما طيه والسكوت عنه فيجعل الديار ديارًا باقية بذكرياتها وحياتها، ذكريات اللعب ولهو الشباب وحياة الحب والعشق.

وشيء آخر وراء هذا الحذف وهو أن الشاعر عند ذكر الأطلال والديار والمنازل التي بددتها الأيام وغيرها الزمن، يكون ممتلئ النفس، متوتر الحس، حزينًا كئيبًا، وتلك حال تقتضي الحذف، وتدعو إلى طي الكلمات وإيجاز القول.

أما حذف المبتدأ في مقام المدح ونحوه، عندما يقطع الشاعر المعنى مستأنفًا معنى آخر، فأرى أن سر الحذف عندئذ هو رغبة الشاعر في تميز هذه المعاني، وظهورها صنوفًا متباينة وألوانًا مختلفة وأجناسًا متغايرة وحذف المبتدأ في تلك الجمل المستأنفة، يحقق هذه الرغبة، إذ يجعل الجمل المستأنفة مستقلة بمعانيها، غير مرتبطة بما قبلها، وعليك أن تقارن بين قولهم بناة مكارم.. قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا.. فتى غير محجوب الغنى.. نجوم سماء كلما .. سريع إلى ابن العم.. وبين قولك: هم بناة مكارم .. هم قوم.. هو فتى .. هم نجوم سماء.. هو سريع إلى ابن العم.. فستجد أن ذكر الضمير "المسند إليه" قد ربط بين المعاني المسندة إليه، والمعاني السابقة، إذ يرجع إلى المتحدث عنهم فيجعل تلك الأوصاف التي يراد وصفهم بها واحدة مرتبطة يندمج بعضها في بعض، وهذا ما لا يريده الشعراء في هذا المقام، إذ أرادوا بحذفه من صدر الاستئناف، تميز المعاني المستأنفة عن المعاني السابقة وكأنها – كما قلت – ضروب متباينة وأجناس متغايرة، وإضافة تلك المعاني إلى المتحدث عنهم على هذا النحو مما يفيد كمال المبالغة في المدح أو الفخر أو الرثاء أو الهجاء..إلخ.

وشيء آخر وراء حذف المسند إليه في هذا المقام، وهو أنه ينبئ بمدى انفعال الشاعر، وامتلاء نفسه بتلك المعاني، فيفيض بها صنوفًا مختلفة، وألوانًا متميزة.

ومن الأسرار البلاغية الكامنة وراء حذف المسند إليه: "ضيق المقام" ويرجع

ذلك إلى ما يكون فيه المتحدث من حزن، وألم، أو ملل وسأم، أو إلى خوفه من فوات فرصة أو ضياع شيء، أو إلى سماعه أمرًا غريبًا يدعو إلى التعجب ويثير الاستغراب.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝ ﴾ [الذاريات:٢٨، ٢٩] فقد حذف المسند إليه وتقديره: "أنا عجوز عقيم"، وسر بلاغة حذفه، يرجع إلى تعجبها من بشارة الملائكة، واستبعادها أن تلد وهي عقيم وقد وصلت حد الكبر وصار بعلها شيخًا كبيرًا، وكأن المقام وما هي فيه من تعجب واستغراب واستبعاد يضيق بالمسند إليه ويقتضي طيه وحذفه..

وتأمل قول الشاعر:

قَالَ لِي: كَيْفَ أَنْتَ قُلْتُ عَلِيلُ   سَهَرٌ دَائِمٌ وَحُزْنٌ طَوِيلُ(١)

تجد أن ضيق المقام بسبب ما هو فيه من حزن وألم قد اقتضى حذف المسند إليه، وتقديره. قلت: أنا عليل وحالي حزن دائم وسهر طويل..

وتسمع من ينادي مستغيثًا: حريق أو غريق، والتقدير: هذا حريق، وهذا غريق، فضيق المقام بسبب خشية المنادي أن تفوت فرصة الإنقاذ، جعله يطوي المسند إليه، ويبادر بذكر المسند.

والحذف لضيق المقام يقع كثيرًا في اللغة، ومنه في غير المسند إليه، قوله تعالى: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف ٧٧] في قراءة من قرأ بترخيم المنادي، فقد قالوا في سبب هذا الترخيم: إنهم لشدة ما هم فيه من عذاب وتألم، عجزوا عن إتمام الكلمة، وكأن المقام لا يسعفهم لنداء مالك، فحذفوا آخر الاسم ترخيمًا. "يامال"..

وقوله عز وجل: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف ٢٩]، فقد حذف حرف النداء، وهذا الحذف يشير إلى ما صار إليه حال العزيز، وقد رأى براءة يوسف، وأيقن بثبوت التهمة على امرأته، وأنها هي

(١) نسب البيت إلى سعيد الجعفري، وكان في عهد هارون الرشيد.

التي أرادت السوء، وكأن الكلمات لا تسعفه حتى يتم النداء فطوى هذا الحرف، ثم أجمل القصة كلها في اسم الإشارة "هذا"، لأن المقام مقام ضيق وحزن، فهو يقتضي الإيجاز وطي الكلمات..

وانظر إلى قول الحارث يخاطب امرأته وقد أخذت تحثه على أن يأخذ بثأر أخيه من قومه:

قَومِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي ... فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي

فحال الشاعر حال حزينة مؤلمة، لأن قاتلي أخيه هم قومه فكيف يثأر منهم، إنه إن رمى يصيبه سهمه.. وتأمل إضافة القوم إلى ياء المتكلم: "قومي" وما يكمن وراء هذه الإضافة من أحزان وآلام، تلك الحال قد اقتضت من الشاعر إيجاز القول وطي الكلمات، فحذف حرف النداء ورخم المنادى، إذ الأصل "قومي هم قتلوا يا أميمة أخي" وتأمل أيضًا قوله: "هم قتلوا"، وما يفيده تقديم المسند إليه وإيلاؤه الخبر الفعلي من تأكيد القتل وقصره عليهم، فهذا القصر ينبعث منه ما يمزق نفس الشاعر ويوجع قلبه ويضيق صدره، فقد استطاع الشاعر أن يصور آلامه وأحزانه، وأن يبرز مبعث أساه: "قومي.. هم قتلوا" ومن ثم اقتضى المقام الحذف وإيجاز القول.

وعد إلى المسند إليه، فانظر إلى طيه في قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد ٩]، تجد أنه قد طوى لأن المسند المذكور "عالم الغيب" لا ينصرف إلا له "سبحانه وتعالى"، ولذا قال البلاغيون: إن سر حذف المسند إليه في الآية هو تعينه للمسند المذكور، وهو هنا متعين حقيقة إذ علم الغيب لا يكون إلا له تعالى، وقد يحذف لتعينه، ادعاء ومبالغة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر ٢٣، ٢٤] أي: هذا ساحر كذاب، فحذفوا المسند إليه لتعينه -في اعتقادهم- للمسند المذكور "ساحر كذاب"، وغلبة هذا المسند عليه وشهرة اتصاف موسى به -في اعتقادهم-، إلى حد أنه إذا أطلق لفظ "ساحر" أو "كذاب" انصرف إليه، وكأنه قد تعين له ادعاء ومبالغة..

ومن ذلك قولنا "عادل في حكمه" نريد بهذا عمر الفاروق ﷺ، فقد حذف المسند إليه في هذا القول لتعينه للوصف المذكور مبالغة في عدالته، وذلك لشهرته ﷺ بالعدل.. ففي الحذف دلالة على أنه قد بلغ في الاتصاف بهذه الصفة مبلغًا عظيمًا..

وقد يحذف المسند إليه لتعينه عهدًا كقولك لصديقك: "حضر" تريد شخصًا معهودًا لك وله فقد طويت المسند إليه في هذا القول لتعينه للاتصاف بالمسند المذكور عهدًا، إذ ينصرف ذهن صديقك إليه عند سماعه لقولك: حضر..

وتأمل تلك الأمثال: رمية من غير رام.. قضية ولا أبا حسن لها.. شنشنة أعرفها من أخزم، تجد أنها قد وردت بحذف المسند إليه، إذا التقدير: تلك رمية .. هذه قضية.. وتلك شنشنة.. وعندما تضرب هذه الأمثال ينبغي عليك أن تلتزم موردها، فقد حذف المسند إليه اتباعًا للاستعمال الوارد، لأن الأمثال لا تغير.

ومن حذف المسند إليه: بناء الفعل للمفعول، إذ يحذف الفاعل ويقام مقامه غيره، ووراء هذا الحذف أغراض كثيرة، منها الخوف على الفاعل الحقيقي.

كما في قول النابغة الذبياني يعتذر للنعمان بن المنذر:

نُبِّئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي ... وَلاَ قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الأَسَدِ

فقد حذف النابغة من أنبأه خوفًا عليه..والخوف منه كقولك: "سرق المتاع"، تريد: سرق اللص المتاع.

واحتقاره كما في قول النابغة:

لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً ... لَمُبْلِغُكَ الْوَاشِي أَغَشُّ وَأَكْذَبُ

وضيق المقام كقول أبي فراس:

أُسِرْتُ وَمَا صَحْبِي بِعُزْلٍ لَدَى الْوَغَى ... وَلاَ فَرَسِي مُهْرٌ ولا ربُّه غَمْرُ

والجهل به كقولك: قتل المجرم، إذا كنت تجهل قاتله والعلم به كما في قول المتنبي:

سُبِقْنا إِلَى الدُّنْيَا فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا ... مُنِعْنَا بِهَا مِنْ جَيْئَةٍ وذُهُوبِ

وكقوله عز من قائل: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجمعة ١٠].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود ٤٤] تجد أن الفعل قد بني للمفعول في قوله: "قيل.. غيض.. قضى" للعلم بالفاعل الحقيقي وهو الله القادر، ووراء حذف الفاعل سر آخر وهو الإشارة إلى سرعة الإجابة والامتثال وأن هنالك قوة خارقة هي قدرة الله عز وجل قد اختطفت الماء فانمحى وزال.

وانظر في قوله عز وجل: ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأعراف ١١٩، ١٢٠] تجد أن وراء حذف المسند إليه دقائق ولطائف أهمها: الإشارة إلى قدرة الخالق فهو الغالب وليس موسى، بل لقد أوجس موسى في نفسه خيفة عندما رأى حبالهم وعصيهم وخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فقوله تعالى "غلبوا" بالبناء للمجهول إشارة إلى قدرة الله القاهر وتنبيهًا إلى أن الغلبة كانت بتدبيره وصنعه، وبهذا يظل موسى في مرتبة العبودية العاجزة التي لا تصنع شيئًا خارقًا، وإنما يجريه الله تعالى على يديه، وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ وإشارته إلى سرعة امتثالهم لأمر الله وكأن قوة القهار قد نزعت العناد والكفر من رءوسهم فانكبوا ساجدين، مؤمنين برب العالمين.

وقد يحذف المسند إليه لظهوره ظهورًا لا لبس فيه، انظر في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾ [القيامة ٢٦] وقوله عز وجل: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ [الواقعة ٨٣]، تجد أنه قد طوى المسند إليه وتقديره: إذا بلغت الروح التراقي والحلقوم، وطيه في الآيتين لظهوره ظهورًا بينًا، إذ لا يبلغ الحلقوم والتراقي عند الموت إلا الروح والنفس، وشيء آخر وراء الحذف في الآيتين وهو الإشارة إلى ما عليه الروح من وشك المفارقة وكأن إسقاطها من العبارة يؤذن بذهابها وزوالها.

ومن ذلك قول حاتم:

أَمَاوِيُّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى   إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

أراد: إذا حشرجت النفس فحذفت النفس لما بينا من أن طيها من العبارة يوحي بوشك زوالها وانتقالها إلى بارئها.

ومن ذلك أيضا قوله عز وجل: ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ [ص ٣٢]، فالمراد: حتى توارت الشمس، فحذفت لظهورها، ظهورًا تامًا، ولإيذان الحذف بالموارة والاختفاء، وكأن إسقاطها من العبارة ينبئ بالغروب والاختفاء.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ [الأنعام ٩٤]، وقوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ [يوسف ٣٥]، تجد أن المسند إليه قد حذف في الآيتين الكريمتين والتقدير: لقد تقطع ما كان بينكم من علاقات موهومة.... ثم بدا لهم الأمر وهو السجن.... وحذف المسند إليه يشير إلى عدم الاعتداد به وسقوطه، فتلك علاقات واهية وأمور واهمة لا اعتداد بها، وهذا أمر ساقط جائر وضح لهم بعدما رأوا الآيات فكيف يسجنونه عندئذ؟ الحذف في الآيتين الكريمتين يشير إلى عدم الاعتداد بالمسند إليه، وكأن إسقاطه من العبارة ينبئ بأنه لا وجود له ولا اعتداد به عند ذوي العقول السليمة والأفكار السديدة.

هذا ويذكر البلاغيون من أغراض حذف المسند إليه: تعجيل المسرة إذ يؤدي حذفه إلى سرعة إيراد المسند والمبادرة بذكره كقولك لمخاطبك: انظر "دينار" تريد: هذا دينار، فحذفت المسند إليه تعجيلاً للمسرة بذكر الدينار، ومثله أن يبادرك أخوك بقوله: حفل مقام. يريد ذاك حفل، ومن تلك الأغراض أيضًا: تأتي الإنكار عند الحاجة كقولك في شأن إنسان يطغى ويتكبر: لئيم فاجر غادر، ولا تصرح بذكر اسمه ليتأتى لك الإنكار إذا ما واجهك فتقول له: ما قصدتك بقولي..

ومنها تحقير المسند إليه وصون اللسان عن النطق به كما في قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج ٣٩]، فحذف المسند إليه في قوله: "يقاتلون. ظلموا" تحقيرًا له وصونًا للسان عن ذكره، أما حذفه في قوله: "أذن" فللتعظيم والإجلال، وللعلم به تعالى.. ومن الحذف تحقيرًا وصيانة للسان قول الأقيشر الأسدي في ابن عم له موسر سأله فمنعه ولم يعطه ولطم وجهه:

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَهُ ... وَلَيْسَ إِلَى دَاعِي النَّدَى بِسَرِيعِ
حَرِيصٌ عَلَى الدُّنْيَا مُضِيعٌ لِدِينِهِ ... وَلَيْسَ لِمَا فِي بَيْتِهِ بِمُضِيعِ

فقد حذف المسند إليه تحقيرًا له وصونًا للسان عن التلفظ به وقد ذكرنا سرًا آخر وراء الحذف في البيت فارجع إليه وتبينه، وفي معنى صون اللسان عن النطق بالمسند إليه يقول القائل:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّهُمْ نَجَسٌ ... فَإِذَا ذَكَرْتُهُمُ غَسَلْتُ فَمِي

ومنها تعظيم المسند إليه وصونه عن اللسان، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [البقرة ٤]، فقد حذف لفظ الجلالة تعظيمًا له.

ومن ذلك حذف أسماء الممدوحين كما في قول لقيط بن زرارة:

نُجُومُ سَمَاءٍ كُلَّمَا انْقَضَّ كَوْكَبٌ ... بَدَا كَوْكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ

وارجع إلى ما قلناه من أسرار أخرى في مثل هذا البيت، ويعد من هذا القبيل إخفاء الشاعر لأسماء صواحبه حتى لا تتردد على ألسنة الغير، وإيثاره أن ينطق بأسمائهن وحده بعيدًا عن الناس، كما يدل على هذا المعنى قول أحد بني عامر:

وَإِيَّاكَ وَاسْمَ الْعَامِرِيَّةِ إِنَّنِي ... أَغَارُ عَلَيْهَا مِنْ فَمِ الْمُتَكَلِّمِ

وقول ذي الرمة:

أُحِبُّ الْمَكَانَ الْقَفْرَ مِنْ أَجْلِ أَنَّنِي ... بِهِ أَتَغَنَّى باسْمِهَا غَيْرَ مُعْجِمِ

إلى غير ذلك من الأسرار والدقائق التي تراها وراء حذف المسند إليه والتي لا يمكن الإحاطة بها – كما ذكرت – لأن الذي يرشد إليها هو السياق وقرائن الأحوال، فما يبدو للمتأمل الواعي ذي الذوق السليم والطبع القويم، من دقائق كامنة وراء حذف المسند إليه وطيه في الأساليب الجيدة، فهو ذاك الذي تبين له.

***

ذكر المسند إليه

قد توجد في الكلام القرينة القوية التي تدل على المسند إليه لو حذف ولكن المتكلم لا يحذفه بل يذكره على الرغم من وجوده تلك القرينة القوية وذلك ليحقق غرضًا من الأغراض الآتية:

زيادة التقرير والإيضاح كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة ٥]، ففي إعادة ذكر المسند إليه: {وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ} زيادة تقرير وإيضاح وإبراز لمكانة هؤلاء المؤمنين الذين آمنوا بالغيب وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وآمنوا بما نزل وأيقنوا بالدار الآخرة وما فيها من جزاء، فاستحقوا تلك المكانة السامية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، فقد أدى تعريفهم باسم الإشارة، وإعادة ذكره، إلى زيادة إيضاح وتقرير تلك المعاني السامية المنسوبة إليهم "على هدى من ربهم .. هم المفلحون.."

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥] ففي إعادة ذكر المسند إليه: "الروح" زيادة تقرير وإيضاح، إذ تجد في ارتباطها بخبرها ما يثبت معنى الجملة في النفس ويجمع أطرافها في الفؤاد، فيزداد المعنى إيضاحًا وتقريرًا ومثله قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد ٥] ففي إعادة ذكر اسم الإشارة: "أولئك" ما يبرز تلك المعاني المنسوبة إليهم ويزيدها إيضاحًا.

وترى ذكر المسند إليه لهذا الغرض يكثر في مقام المدح والفخر والعتاب والرثاء ونحو ذلك، حيث يذكر الشاعر اسم الممدوح أو اسم من يعاتبه أو يرثيه، ثم يعيد ذكره مع كل خبر يريد أن يضيفه إليه، فتبدو المعاني بهذا في صورة واضحة ومؤكدة.

انظر إلى قول عمرو بن كلثوم:

وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ ... إذا قُبَبٌ بِأَبْطَحِهَا بُنِينَا

بِأَنَّا الْمُنْعِمُونَ إِذَا قَدَرْنَا ... وَأَنَّا الْمُهْلِكُونَ إِذَا أُتِينَا

وَأَنَــــا الْعَاصِـــــمُونَ إِذَا أُطِعْنَـــــا ... وَأَنَّــــا الْغَـــــارِمُونَ إِذَا عُـــــصِينَا
وَأَنَّــــا الْـــــحَاكِمُونَ بِــــمَا أَرَدْنَــــا ... وَأَنَّــــا النَّــــازِلُونَ بِحَيْـــــثُ شِــــينَا

تجد أن تكرار ذكر المسند إليه: "أنا" قد أبرز تلك المعاني التي افتخر بها الشاعر والتي قد علمتها القبال من معد، ووراء هذه النون المشددة يكمن النغم الموسيقي الذي حلا للشاعر أن يتغنى به مفتخرًا ..

وتأمل قول الخنساء في رثاء صخر:

وَإِنَّ صَــــخْرًا لَكَافِينَــــا وَسَــــيِّدُنَا ... وَإِنَّ صَــــخْرًا إِذَا نَــــشْتُو لَنَحَّــــارُ
وَإِنَّ صَــــخْرًا لَتَــــأْتَمُّ الْــــهُدَاةُ بِــــهِ ... كَــــأَنَّه عَلَــــمٌ فِي رَأْسِــــهِ نَــــارُ

تجد أن تكرارها لاسم صخر قد أبرز تلك المعاني التي أضافتها إليه في صورة مقررة مؤكدة، كما أن في ترديدها لهذا الاسم ما يخفف آلامها ويداوي جراحها، وشيء آخر وراء ذكر المسند إليه وتكراره في البيتين، يشعر به الدارس الواعي، ويدركه المتأمل الدقيق، وهو إبراز هذا الاسم في الوجود وتخليده في الأذهان فهو وإن كان قد طوى من الحياة، إلا أنه مذكور في العقول دائمًا ومخلد في الأذهان أبدًا ..

وانظر في قول ابن الدمينة معاتبًا صاحبته:

وَأَنْــــتِ الَّتِــــي قَطَّعْــــتِ قَلْبِــــي حَــــزَازَةً ... وَقَرَّفْــــتِ قَــــرْحَ الْقَلْــــبِ فَهُــــوَ كَلِــــيمُ
وَأَنْــــتِ الَّتِــــي كَلَّفْتِنِــــي دَلْــــجَ الــــسُّرَى ... وجُــــونُ الْقَطَــــا بِالْــــجَلْهَتَيْنِ جُثُــــومُ
وَأَنْــــتِ الَّتِــــي أَحْفَظْــــتِ قَــــوْمِي فَكُلُّهُــــمْ ... بَعِيــــدُ الرِّضَــــا دَانِي الــــصُّدُودِ كَظِــــيمُ

تجد أن الشاعر كرر ضمير صاحبته في كل بيت مضيفًا إليه تلك الأخبار، فبدت في صورة واضحة مقررة، وحققت ما أراده من العتاب واللوم.

ومن أغراض ذكر المسند إليه الرغبة في إطالة الكلام وامتداد الحديث، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه ١٧، ١٨] فقد كان يكفي في الجواب أن يقول: عصا، ولكن موسى – عليه السلام – رغبة منه في أن يطول الكلام إذ هو في حضرة رب العزة جلا وعلا، ذكر المسند إليه "هي" وأضاف العصا إليه: "عصاي" ثم أخذ يتحدث عن عصاه:

"أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخر" وأجمل تلك المآرب طمعًا في أن يسأل عنها فيجيب، وبهذا يزداد الحديث طولاً..

وقد يذكر المسند إليه تلذذًا بذكره وترديده، ويحلو هذا في مقام الغزل وذكر الأحبة.

كما في قول العرجي:

بِاللهِ يَا ظَبَيَاتِ الْقَاعِ قُلْنَ لَنَا لَيْلَايَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِنَ الْبَشَرِ

وقول قيس:

أَلَا لَيْتَ لُبْنَى لَمْ تَكُنْ لِي خُلَّةً وَلَمْ تَلْقَنِي لُبْنَى وَلَمْ أَدْرِ مَاهِيَا

فقد كرر الأول اسم ليلى تلذذًا بنطق اسمها والتغني به وكرر الثاني اسم لبنى لنفس الغرض، فحب الشاعر لاسم صاحبته يجعله يكثر من ذكره ويردده تمتعًا، بل يذكر ويردد كل ما أشبه اسمها أو قاربه أو كان منه مدانيًا.

يقول قيس:

أُحِبُّ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا وَافَقَ اسْمَهَا وَأَشْبَهَهُ أَوْ كَانَ مِنْهُ مُدَانِيَا

وهو عندما يردد ذلك ويستمتع به، يختار الأماكن البعيدة النائية،كي يردد فيها ويتغنى وذلك حتى لا يسمعه أحد فيردد ما ردد..

يقول ذو الرمة:

أُحِبُّ المكانَ القَفْرَ مِنْ أَجْلِ أَنَّنِي بِهِ أَتَغَنَّى بِاسْمِهَا غَيْرَ مُعْجِمِ

فهو يغار على صاحبته ويكره تلذذ الغير بترديد اسمها، ولذا أحب ذاك المكان القفر، بل توعدوا من يردد اسم من أحبوا، فقال قائلهم:

وَإِيَّاكَ وَاسْمَ الْعَامِرِيَّةِ إِنَّنِي أَغَارُ عَلَيْهَا مِنْ فَمِ الْمُتَكَلِّمِ

وقد يذكر المسند إليه بغرض التسجيل على السامع حتى لا يتأتى له الإنكار بعدئذ.

انظر إلى قول الفرزدق في علي بن الحسين عندما أنكر هشام بن عبد الملك معرفته له:

هَـــذَا ابْـــنُ خَـــيْرِ عِبَـــادِ اللهِ كُلِّهِـــمُ ... هَـــذَا التَّقِـــيُّ النَّقِـــيُّ الطَّـــاهِرُ الْعَلَـــمُ
هَـــذا الَّـــذِي تَعْـــرِفُ الْبَطْحَـــاءُ وَطْأَتَـــهُ ... وَالْبَيْـــتُ يَعْرِفُـــهُ وَالْـــحِلُّ وَالْـــحَرَمُ
هَـــذَا ابْـــنُ فَاطِمَـــةَ إِنْ كُنْـــتَ جَاهِلَـــهُ ... بِجَـــدِّهِ أَنْبِيَـــاءُ اللهِ قَـــدْ خُتِمُـــوا
وَلَـــيْس قَوْلُـــكَ مَـــنْ هَـــذَا بِـــضَائِرِهِ ... الْعُـــرْبُ تَعْـــرِفُ مَـــنْ أَنْكَـــرْتَ والْعَجَـــمُ

فقد كرر المسند إليه مضيفًا إليه تلك الصفات تسجيلاً على المخاطب المنكر حتى لا يتأتي له الإنكار بعدئذ، وتلاحظ أن الفرزدق لم يعتد بإنكار المنكر فأورد له الخبر خاليًا من التوكيد منبهًا بهذا إلى وضوحه وظهوره وأنه لا ينبغي لأحد إنكاره أو تجاهله.

وذكر البلاغيون من أغراض ذكر المسند إليه كذلك: ضعف التعويل على القرينة كما إذا سئلت: من حضر ومن ذهب؟ فتجيب الذي حضر هو عمرو والذي ذهب خالد، لأنك لو حذفت المسند إليه فقلت: عمرو وخالد، لم يفهم السائل المراد لضعف القرينة عندئذ.. والتنبيه على غباء السامح كقولك لسائل غبي لا يفهم إلا بالتصريح، وقد سألك: من حضر؟ فتجيبه الذي حضر علي .. وإظهار تعظيمه أو إهانته كقولك لمن ينتظر مقدم الأمير، ويترقب رؤية السارق: أمير المؤمنين سيأتي .. السارق اللئيم يتقدم أمامك الآن .. والتبرك بذكره كقولك في جواب من سألك: هل يرضى الله هذا؟ وهل محمد خاتم الأنبياء؟: الله جل جلاله يرضى هذا ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء .. إلى غير ذلك من الأغراض التي تجعل المتكلم يصرح بالمسند إليه ويعمد إلى ذكره في الكلام.

❊ ❊ ❊

تعريف المسند إليه

يرد المسند إليه معرفة ويرد نكرة ولكل منهما مقام يقتضيه وداع يستدعيه، وسيأتي الحديث عن تنكير المسند إليه، ودواعي تنكيره أما تعريفه فقد يكون بنفس اللفظ دون حاجة إلى قرينة، وذلك في التعريف بالعلمية، وقد يكون بقرينة التكلم أو الخطاب أو الغيبة، وذلك في التعريف بالضمائر، وقد يكون بقرينة حسية كتعريفه

باسم الإشارة، أو بنسبة معهودة كتعريفه بالاسم الموصول، أو بحرف وهو المعروف بأل، أو بإضافة معنوية وذلك عند التعريف بالإضافة.

وإليك بيان هذه المعارف وما يكمن وراء التعريف بها من دقائق وأسرار.

❊ ❊ ❊

التعريف بالضمائر

يؤتى بالمسند إليه ضميرًا إذا كان الحديث في أحد المقامات الثلاثة: التكلم – الخطاب – الغيبة، فإذا كان المتكلم يتحدث عن نفسه، كان المقام لضمير المتكلم نحو: أنا فعلت كذا، ونحن فعلنا، وتكمن وراء التعبير بضمير المتكلم معان دقيقة ومزايا لطيفة يدركها ذو الحس المرهف والذوق السليم.

انظر في قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤ ﴾ [طه ١١: ١٤] تجد أن التعبير بضمير المتكلم "إني أنا ربك. وأنا اخترتك، إنني أنا الله لا إله إلا أنا" أفاد من الإيناس والتلطف ما لا يفيده غيره، خاصة وأن الله تبارك وتعالى ينادي موسى أول مرة فالمقام يحتاج إيناسًا وتلطفًا.

وخذ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر٩] وتأمل إيثاره التعبير بضمير التكلم "إنا نحن نزلنا. إنا له" وما وراءه من تأكيد الحفظ وبث الطمأنينة في نفس المؤمن.. ثم تأمل قول النبي ﷺ: "أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ أَنَا أبْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ"[١] وما وراء التعبير بضمير التكلم من الاعتداد بالنفس وتمام الثقة وبعث الطمأنينة في نفوس المؤمنين.

وكذا القول في بيت المتنبي:

أَنَـا الـذِي نَظَـرَ الأعْمَـى إلى أَدبِي   وَأَسْـمَعَتْ كَلِـمَاتِي مَـنْ بِـهِ صَـمَمُ

(١) رواه البخاري في الجهاد برقم [٥٢/ ٢٨٦٤].

وقول بشار بن برد:

أَنَا الْمُرَعَّثُ لاَ أَخْفَى عَلَى أَحَدِ ... ذَرَّتْ بِي الشَّمْسُ لِلقَاصِي وَلِلدَّانِي(١)

وقول عمرو بن كلثوم:

وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ ... نُطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يَبِينَا

وَنَحْنُ إِذَا عِمَادُ الْحَيِّ خَرَّتْ ... عَلَى الأَحْفَاضِ نَمْنَعُ مَنْ يَلِينَا(٢)

إذ لا يخفى عليك ما يكمن وراء التعبير بضمير التكلم في الأبيات المذكورة من الفخر والاعتداد بالنفس.

وإذا كان المتكلم يخاطب إنسانًا أمامه، كان المقام للخطاب، تقول: أنت فعلت كذا، ومنه قوله تعالى: مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم ٤] وقوله عز وجل:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب ٣٧] وقوله جل وعلا: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى ٩: ١١] ويكثر التعريف بضمير الخطاب في مقام العتاب واللوم، إذ يحلو للمتكلم أن يخاطب من يعاتبه وأن يردد ضميره مسندًا إليه ما يريد من لوم وعتاب، على نحو ما نرى في قول أمامة الخثعمية تخاطب ابن الدمينة:

وَأَنْتَ الَّذِي أَخْلَفْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي ... وَأَشْمَتَّ بِي مَنْ كَانَ فِيكَ يَلُومُ

وَأَبْرَزْتَنِي لِلنَّاسِ ثُمَّ تَرَكْتَنِي ... لَهُمْ غَرَضًا أُرْمَى وَأَنْتَ سَلِيمُ

فأجابها ابن الدمينة:

وَأَنْتِ الَّتِي قَطَّعْتِ قَلْبِي حَزَازَةً ... وَقَرَّفْتِ قَرْحَ الْقَلْبِ فَهُوَ كَلِيمُ

---

(١) المرعث: المقرط، وكان بشار يلقب بالمرعث لقرطٍ كان يعلقه في أذنه وهو صغير. وذرت: طلعت، كناية عن الشهرة والذيوع، يصف نفسه بأنه ذائع الصيت.

(٢) الحَفَض: متاع البيت إذا هُيِّئ للحمل وقيل هو ردئ المتاع ورذاله، وسمي البعير الذي يحمل عليه حفضاً، ولا يكاد يكون ذلك إلا رذال الإبل .. انظر لسان العرب مادة حفض.

وَأَنْتِ الَّتِي كَلَّفْتِنِي دَلْجَ السُّرَى ... وَجُونُ الْقَطَا بِالْجَلْهَتَيْنِ جُثُومُ
وَأَنْتِ الَّتِي أَحْفَظْتِ قَوْمِي فَكُلُّهُمْ ... بَعِيدُ الرِّضَا دَانِي الصُّدودِ كَظِيمُ

وأصل الخطاب أن يكون للمعين المشاهد، وقد يعدل عن هذا الأصل لسر بلاغي، فيخاطب غير المشاهد إشارة إلى حضوره في الذهن وقربه من القلب، وتعلق النفس به كما رأيت في الشواهد المتقدمة .

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة ٥، ٦] فتوجه المؤمن بالخطاب إلى المولى جل وعلا يكمن وراءه ما ذكرنا من التقرب إليه تعالى وتعلق الفؤاد به ودوام حضوره في نفس المؤمن..

وقد يخاطب غير المعين كقولنا: "إن اللئيم إن أكرمته أهانك وإن أحسنت إليه أساء إليك.."، إذ لا يراد بالخطاب في مثل هذا القول مخاطب معين، بل يراد به العموم، ويكمن وراء ذلك معنى دقيق وهو الإشارة إلى شناعة اللؤم وقبح الصنع وفظاعة الإساءة، وأن هذا لا يختص بواحد دون آخر..

ومثله قول المتنبي:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ ... وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وقول بعضهم:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ لِنَفْسِكَ حَقَّهَا ... هَوَانًا بِهَا كَانَتْ عَلَى النَّاسِ أَهْوَنَا

وقول الشافعي:

إِذا مَا كُنْتَ ذَا قَلْبٍ قَنُوعٍ ... فَأَنْتَ وَمَالِكُ الدُّنْيَا سَوَاءُ

فليس المراد بالخطاب في تلك الأبيات مخاطبًا معينًا، بل أريد عموم الخطاب وشموله لكل من يتأتى منه الخطاب..

وانظر في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝ ﴾ [السجدة ١٢]، تجد أن الخطاب في قوله: "ترى" قد أريد به كل من يتأتى منه الخطاب، وهذا ينبئ بأن الأمر من الوضوح بمكان وأن حال المجرمين وما هم فيه، قد بلغ من الظهور لأهل

المحشر مبلغًا يمتنع خفاؤه، فلا يختص به راءٍ دون آخر، ولا يخفى عليك ما يفيده حذف جواب "لو" من شدة هذه الحالة وفظاعتها، كما لا يخفى عليك ما يريده النظم القرآني من التنفير والتحذير من صنيع هؤلاء المجرمين الذي أدى بهم إلى تلك الحال المخزية.

ومثل هذا تراه في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ ٥١] وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان ٢٠].

وتأمل قول الحبيب المصطفى ﷺ "بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ في الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.."(١) تجده ﷺ لم يرد مخاطبًا معينًا وإنما أراد أن: كل من يتأتى منه الخطاب ينبغي أن يقوم بهذا التبشير، وفي هذا غاية التكريم وتمام الرضا عن هؤلاء المشائين إلى المساجد في الظلمات.

وإذا كان المتكلم يتحدث عن غائب فينبغي أن يتقدم ذكره إما لفظًا كقوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [الأعراف ٨٧].

وقول أبي البرج القاسم بن حنبل المرى:

مِنَ الْبِيضِ الْوُجُوهِ بَنِي سِنَانٍ ... لَوَ انَّكَ تَسْتَضِيءُ بِهِمْ أَضَاءُوا

هُمُ حَلُّوا مِنَ الشَّرَفِ الْمُعلَّى ... وَمِنْ حَسَبِ الْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا

وتجد أن ضمير الغائب "هم" قد أبرز علو مكانتهم وبعد منـزلتهم ..

وإما معنى بأن يكون في حكم الملفوظ به كقوله تعالى: ﴿ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة ٨] وقوله عز وعلا: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ [النور ٢٨] فالضمير "هو" يعود إلى العدل والرجوع المفهومين من قوله: "اعدلوا .. فارجعوا..".

وقد يكون للمرجع قرينة تدل عليه كقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ [ص ٣٢] فالضمير المستتر "هي" يرجع إلى

(١) رواه الترمذي في الصلاة برقم [٥١/ ٢٢٣] وابن ماجة في المساجد برقم [١٤/ ٧٨١]

الشمس، وقد دلت عليها قرائن السياق والأحوال من ذكر العشي والتواري وفوات وقت الصلاة..

وقد يكون الضمير مفسرًا بما بعده كما في ضمير الشأن نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج ٤٦] فالضمير في "إنها" مفسر بالجملة بعده ولا يخفى عليك ما في ذلك من الإيضاح بعد الإبهام، وأن لهذا أثره ووقعه في أنفس المخاطبين.

❊ ❊ ❊

التعريف بالعلمية

ويؤتي بالمسند إليه معرفًا بالعلمية لأغراض كثيرة أهمها:

١ - أن يقتضي المقام إحضار مدلوله بعينه وشخصه في ذهن السامع ابتداء باسم مختص به.. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص ١ -٢] فالمقام مقام رد على الملحدين وإيضاح التوحيد لهم والعلمية "الله" أنسب بهذا المقام دون سائر المعارف.

وانظر إلى قول مالك بن عويمر في رثاء أبيه .

أَبُو مَالِكٍ قَاصِرٌ فَقْرَهُ   عَلَى نَفْسِهِ وَمُشِيعٌ غِنَاهُ

فقد اقتضى مقام الرثاء أن يبرز الشاعر المرثى وأن يذكره بهذه الكنية التي تفيد تشخصه وإضافته إلى مالك، وبذا يبرز أمام الناس فردًا في محاسنه، علمًا في مآثره وأمجاده.

وتأمل قول الحارث بن هشام معتذرًا لفراره عن أخيه أبي جهل يوم بدر:

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ   حَتَّى عَلَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ[1]

فقد ناسب مقام الاعتذار أن يذكر الشاعر لفظ الجلالة ناسبًا إليه العلم بأنه لم يفر إلاَّ بعد أن أبلى بلاء حسنًا وسالت دماؤه، ليعلم بهذا أنه صادق في اعتذاره وأن ما يقوله صادر من قلبه، وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي، وإفادة ذلك قصر العلم عليه تعالى، مما يبرز إرادة الشاعر، ويظهر صدق اعتذاره وصدق قوله ..

---

(١) الأشقر: لون يأخذ من الأحمر والأصفر ويريد به الدم، والمزبد: الذي له زبد.

وترى مثل هذا الأسلوب يرد كثيرًا في النظم الكريم عند ذكر الأمور التي تختص بالمولى جل وعلا ولا تنسب إلا إليه تبارك وتعالى، ويتضح لك هذا في قوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد ٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران ٣٦]، وقوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد ٢]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

٢- أن يقصد إلى تعظيمه أو إلى إهانته وتحقيره، وذلك عند استخدام الكنى والألقاب المحمودة أو المذمومة كقولك: أبو الخير جارك وأبو المعالي جاء، وأبو الجهل صديقك، وأنف الناقة حضر، والعربي بطبعه ينفر من الألقاب المذمومة ويكره الانتساب إليها ويقبل إلى اللقب المحمود ويحب الانتساب إليه..

وقد كان لقب "أنف الناقة" مكروهًا، ولا يحب أهله الانتساب إليه حتى قال الحطيئة:

قَوْمٌ هُمُ الأَنْفُ وَالأَذْنَابُ غَيْرُهُمُ ... وَمَنْ يُسَوِّي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَا

فصاروا بعد ذلك يفخرون بالانتساب إلى أنف الناقة.. وكان الرجل من نمير يفخر بنسبته إليها ويمد صوته عند النطق بهذه النسبة «نميريّ» مفتخرًا بذلك فلما قال جرير:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلاَ كَعْبًا بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا

صار يكره وينفر من تلك النسبة.

٣- أن يقصد إلى التبرك والتلذذ بنطق العلم، كقولك: **الله ربي ومحمد نبيي**.

وكقول العرجي متلذذا بليلاه:

بِاللهِ يَا ظَبَيَاتِ الْقَاعِ قُلْنَ لَنَا ... لَيْلاَيَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِنَ الْبَشَرِ

وقول قيس مرددًا اسم لبنى ومتلذذا بهذا الترديد:

أَلاَ لَيْتَ لُبْنَى لَمْ تَكُنْ لِي خُلَّةً ... ولمْ تَلْقَنِي لُبْنَى ولمْ أَدْرِ مَا هِيَا

ولذا يقول المتنبي معللا ذكره لأسماء آباء الممدوح:

أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضُدَ الدَّوْ ... لَةِ فَنَّا خُسْرُوا شَهَنْشَاهَا

أَسَامِيًا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً ... وَإِنَّمَا لَذَّةً ذَكَرْنَاهَا

٤- أن يقصد إلى التفاؤل كقولك: سعد في دارك، أو إلى التطير كقولك: السفاح قادم .. إلى غير ذلك من أغراض يقصدها المتكلم بتعريف المسند إليه بالعلمية.

❊ ❊ ❊

التعريف بالأسماء الموصولة

عندما يعرف المسند إليه بالاسم الموصول ينبغي أن يكون المخاطب والمتكلم عالمين بجملة الصلة، فأنت لا تقول: الذي تحدث بالأمس رجل فاضل إلا إذا كنت عالمًا بحديثه وكان مخاطبك أيضًا يعلمه، ولذا يعمد المتكلم إلى تعريف المسند إليه بالموصولية، إذا كان لا يعلم هو أو مخاطبه من أحوال المسند إليه سوى جملة الصلة، كأن يقول: الذي كان معنا بالأمس رجل صالح، وهو لا يعلم عن ذاك الرجل سوى وجوده بالأمس معهما، أو يعلم عنه ولكن المخاطب لا يعرفه إلا بهذه الصلة فقد وجد المتكلم في جملة الصلة ما يمكنه من الحديث عمن تحدث عنه، حيث لا يعرف إلا بها..

ومن أغراض تعريف المسند إليه بالصلة: زيادة التقرير، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف ٢٣] فجملة الصلة: "هو في بيتها" أبرزت نزاهة يوسف - عليه السلام - وهي الغرض المسوق له الكلام وزادتها تأكيدًا وتقريرًا، لأن كونه في بيتها وهي متمكنة منه: وعلى الرغم من ذلك أعرض ونأى وقال: "معاذ الله" مما يؤكد نزاهته وإعراضه عن تلك الفاحشة، وفي الصلة تقرير أيضًا للمراودة وهي المسند، لأن وجوده في بيتها، وانفرادها به، مما يدعو إلى تمكنها منه، وإقبالها على مراودته، وتفننها في تلك المراودة، وفيها أيضًا زيادة تقرير للمسند إليه وهو: "التي" وتأكيد أنها هي الفاعلة دون غيرها، ولو قيل: وراودته امرأة العزيز أو وراودته زليخا، لأمكن احتمال أن المراوِدة غيرها أو شبيهة بها. فالتعبير بالاسم الموصول نفى أي احتمال يحتمل وأكد أنها هي الفاعلة للمراودة.

ووراء التعبير بالموصول في الآية سر بلاغي آخر وهو استهجان التصريح باسمها أو بنسبتها إلى العزيز، لأن من تقبل على فعل الفاحشة تنفر منها النفوس وتكره الألسن التفوه باسمها، وتأبى الطباع نسبتها إلى زوجها وهو ذو الشأن في الدولة، إنه العزيز، وهي بفعلها هذا صارت لا تستحق أن تنتسب إليه..

ومما عُرِّف فيه المسند إليه بالصلة استهجانًا للتصريح به قولنا: الذي يخرج من السبيلين ناقض للوضوء، والخارج هو البول والغائط وغيرهما وهو مما ينفر اللسان من النطق به وتأبى الأذن سماعه، ولذا لجأنا إلى التعريف بالصلة تحاشيًا للنطق به وتلافيًا لإساءة المخاطب..

وانظر إلى قول حسان ﷺ في تبرئة نفسه مما نسب إليه من حديث الإفك:

فإنْ كُنْتُ قدْ قُلْتُ الَّذِي قدْ زَعَمْتُمُو ... فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي

وإنَّ الذِي قدْ قِيلَ لَيْسَ بِلائِطٍ ... بِهَا الدَّهْرَ بَلْ قَوْلُ امْرِئٍ بِي مَاحِلِ

فقد استهجن أن يصرح بحادثة الإفك، وأن يذكر اتهام عائشة رضي الله عنها، فعبر بالاسم الموصول "الذي" وقد مكنته جملة الصلة من أن يشير إلى معنى لطيف دقيق، فتأمل: "قد زعمتمو.. قد قيل" فهو مجرد زعم، وهو قول ساقط غير منسوب إلى عاقل يستحق أن يذكر..

وقد يكون التعريف بالصلة لتنبيه المخاطب إلى خطئه، كما في قول عبدة بن الطبيب من قصيدة له في وصية بنيه:

إنَّ الَّذِينَ تَرَوْنَهُمْ إِخْوَانَكُمْ ... يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهِمْ أَنْ تُصْرَعُوا

فجملة الصلة: "ترونهم إخوانكم" تفيد: تنبيه الأبناء إلى خطئهم فيما يرون وأنهم مخدوعون في هؤلاء حيث ظنوهم إخوانهم والواقع أن صدورهم تتوقد حقدًا عليهم، ويتمنون هلاكهم، ولو قال عبدة: "إن قوم فلان يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا" ما أفاد هذه الإفادة.

وخذ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ [الأعراف ١٩٤] تجد أن جملة الصلة " تدعون من دون الله" تفيد تنبيه المشركين إلى خطئهم في عبادتهم غير الله تعالى.

وقد يكون في التعريف بالصلة إيماء إلى وجه بناء الخبر كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر ٦٠] فإن الاستكبار عن عبادة الله الذي دلت عليه الصلة: "يستكبرون عن عبادتي"، قد أومأ إلى وجه بناء الخبر، وأنه من جنس العذاب والنكال: "سيدخلون جهنم".

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور ١١] وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف ١٠٧]، وقوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت ٣٠]، وهذا كثير في النظم الكريم...

ومنه شعرا قول الفرزدق:

إنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنا ... بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

فقوله: "سمك السماء" يشير إلى أن الخبر من نوع الرفعة والسمو، وتقول: الذي لا يتذوق الجمال ألف في البلاغة، فتشير بهذا إلى سوء ما ألف وحقارته، كما يفهم منه إهانة من ألف والحط من شأنه، وقد يفهم من تحقير الخبر تعظيم غيره كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف ٩٢]، فقد أومأت الصلة "كذبوا شعيبًا" إلى وجه بناء الخبر وأنه من جنس الخسران والبوار، ويفهم من هذا تعظيم شعيب الذي كُذِّبَ ورفعة شأنه.

ومن أجل إيماء الصلة إلى وجه بناء الخبر عيب قول عبدة بن الطبيب:

إنَّ الَّتِي ضَرَبَتْ بيتًا مُهَاجِرَةً ... بِكُوفَةِ الْجُنْدِ غَالَتْ وُدَّهَا غُولُ(١)

فقد جرت عادة الشعراء على أن البعد والحرمان يلهب العاطفة ويضاعف الشوق والحنين، ولذا قال قائلهم:

---

(١) غالت: أكلت، والود مفعول به مقدم والغول فاعل مؤخر .. ويضرب بالغول المثل في الإخافة والإهلاك، يقال تغولت به الغول وفي الحديث: "إِذَا تَغَوَّلَتْ بِكُمُ الْغِيلاَنُ فَاْدْفَعُوهَا بِالآذَانِ" رواه الإمام أحمد برقم [١٤٢٧٧].

لَكَمِ الْتَمَسْتُ الْبُرْءَ مِنْ دَاءِ الْهَوَى بِالبُعْدِ عَنْكِ فَزِدْتُهُ أَزْمَانَا

وكم من شاعر قد اشتد غرامه واشتعل هيامه بعد رحيل القوم بفتاته وابتعادها عنه..

أما عبدة فقد انقطع حبه وزال وده لخولة بعد أن هاجرت وأقامت بعيدًا عنه، وبيان ذلك أن جملة الصلة: "ضربت بيتًا مهاجرة بكوفة الجند" تومئ إلى أن وجه بناء الخبر هو اشتعال نار الحب وازدياد الود الروحي بينهما، ولكن الشاعر خالف هذا وبنى الخبر بناء مغايرًا إذ جعله زوال الحب وانقطاع الود: "غالت ودها غول"، وهذا يناقض ما جرت عليه عادة الشعراء كما بينا، وربما يعتذر لعبدة أنه قد قال هذا البيت بعد تولي الشباب وحلول الشيخوخة وفتور الصبوة، وكأنه كان ينتظر هجرتها ليقطع وده ولذا قال عقب البيت المذكور:

فعُدْ عَنْهَا وَلاَ تَشْغَلْكَ عَنْ عَمَلٍ إِنَّ الصَّبَابَةَ بَعْدَ الشَّيْبِ تَضْلِيلُ

وقد نظر السكاكي إلى هذا فجعل ما في البيت إيماء إلى وجه بناء الخبر، بل إيماء إلى تحقيقه، ونظر الخطيب إلى عادة الشعراء فجعل الصلة في البيت تومئ إلى نقيض ما ذكره الشاعر(١).

وقد يقصد من التعريف بالموصولية إفادة معنى التفخيم والتهويل كما في قوله تعالى:

﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه ٧٨]، وقوله عز وجل: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم ١٦]، وقوله جل وعلا: ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ [النجم ٥٤]، فالاسم الموصول في هذه الآيات الكريمة، فيه إيهام أدى إلى التفخيم والتهويل ولو أردت تفصيل ما أفاده الموصول فقلت: غشيهم من اليمِّ أمور عظيمة مبهم أمرها.. إذ يغشى السدرة خلائق عظيمة مبهم أمرها في الجلال والكثرة، لو قلت مثل هذا ما أفدت ما أفاده الاسم الموصول من تفخيم وتهويل، فقد أفاد ما لا يكتنهه النعت، ولا يحيط به الوصف..

(١) انظر مفتاح العلوم ٩٧ والإيضاح ١/ ٨٩.

وانظر إلى قول أبي نواس في وصف ما تفعله الخمر بعقل شاربها.

مَضَى بِهَا مَا مَضَى مِنْ عَقْلِ شَارِبِهَا   وفي الزُّجَاجَةِ بَاقٍ يَطْلُبُ الْبَاقِي

تجد أن الموصول: " ما مضى" أفاد تفخيم أمر الخمر وتهويل ما تفعله بعقول شاربيها، ونلمس وراء ذلك معنى لطيفًا وهو التحذير من شرب الخمر لما تصنعه بالعقل، ولأن من أدمن شربها فلن يتركها إلا بعد فقدان عقله، فلو بقيت بقية من عقله لطلبته الزجاجة حتى تذهبه: "وفي الزجاجة باق يطلب الباقي".

ومن ذلك في غير باب المسند إليه قول الحماسي:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلاَ الشَّيْبُ رَأْسَهُ   فَلَمَّا عَلاَهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ ابْعُدِ

وقول أبي نواس:

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مع الغُوَاةِ بِدَلْوِهِمْ   وَأَسَمْتُ سَرْحَ اللَّحْظِ حَيْثُ أَسَامُوا

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ   فَإِذَا عُصَارَةُ كُلِّ ذَاكَ أَثَامُ

المراد بنهز الدلو: إلقاؤها في الماء لتمتلئ.. والسرح في الأصل" ذهاب الماشية إلى المرعى، وأريد بسوم سرح اللحظ: إخراج الماشية إلى المرعى من إضافة الصفة إلى الموصوف، والمعنى في الموضعين قائم على التمثيل، إذ يريد أنه فعل كل شيء في شبابه، وغوي مع الغواة.

وقول كثير:

تَجَافَيْتِ عَنِّي حِينَ لا لِي حِيلَةٌ   وَخَلَّفْتِ مَا خَلَّفْتِ بَينَ الْجَوَانِحِ

ولا يخفى عليك ما يفيده التعريف بالموصولية في الأبيات من تهويل وتفخيم ..

وقد يعرف المسند إليه بالموصولية لتشويق السامع إلى الخبر حتى يتمكن في ذهنه فضل تمكن، كما في قول أبي العلاء:

وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرِيَّةُ فِيهِ   حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ

فقد تضمنت جملة الصلة أمراً غريبًا جعلت السامع مشتاقًا إلى معرفة الخبر والوقوف عليه، فعندما يأتي الخبر يتمكن في نفسه فضل تمكن..

وقد يقصد بالتعريف بالموصولية إخفاء الأمر عن غير المخاطب كما في قول بعضهم:

وَأَخَذْتُ مَا جَادَ الأَمِيرُ بِهِ وَقَضَيْتُ حَاجَاتِي كَمَا أَهْوَى

وقد يقصد إخفاء اسم المتحدث عنه رغبة في هدايته واستمالة له نحو الحق والهدى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة ٢٠٤]، وقوله عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج ٨]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ [لقمان ٦] إلى غير ذلك من المقاصد التي يقصد إليها البلاغي عندما يعرف بالموصولية.

❊ ❊ ❊

التعريف بأسماء الإشارة

ويعرف المسند إليه باسم الإشارة لأغراض بلاغية كثيرة أهمها:

١- أن يقصد تمييز المسند إليه أكمل تمييز، لأن اسم الإشارة بطبيعة دلالته يفيد تحديد المراد منه تحديدًا ظاهرًا وتمييزه تمييزًا تامًا، ولذا فإن المتكلم قد يقصد إلى هذا التحديد ليحضر المسند إليه في ذهن السامع متميزًا تمام التميز، وذلك عندما يكون معنيًا بالحكم الذي يريد إضافته إليه ويرغب في إبرازه وزيادة تأكيده.

انظر إلى قول ابن الرومي في مدح أبي الصقر الشيباني:

هَذَا أَبُو الصَّقْرِ فَرْدًا فِي مَحَاسِنِهِ مِنْ نَسْلِ شَيْبَانَ بَيْنَ الضَّالِ وَالسَّلَمِ

تجد أن اسم الإشارة: "هذا" أفاد تميز الممدوح وحضوره في ذهن السامع محسوسًا مشاهدًا، وبعد هذا التميز أضاف إليه الشاعر هذه الصفات التي تفيد تفرده في المحاسن وبلوغه الغاية في العزة والمجد فهو من نسل شيبان عاش بين الضال وهو شجر السدر البري، والسلم وهو شجر ذو شوك، وتلك الأشجار بالبادية وهي مجد العرب وعزهم، وإضافة الشاعر هذه المآثر إلى الممدوح بعد تميزه في الذهن

واستحضاره أمام السامع يؤدي إلى تمكنها في الأنفس فضل تمكن، وكأنه يتحدى أن يكون له ضريب أو نظير.

وتأمل قول الفرزدق مشيرًا إلى على بن الحسين عندما تجاهله هشام:

هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللهِ كُلِّهِمُ ... هذا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هذا الذي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا ... إِلَى مكارم هذا يَنْتَهِي الْكَرَمُ
يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

فقد دفع الفرزدق إنكار هشام بهذا الفيض من الإشارات التي أكدت ذيوع مناقب عليٍّ وشهرة مآثره، حيث أضيفت إليه هذه المناقب وتلك المآثر بعد كمال تميزه، وبعد صيرورته حاضرًا في الأذهان، مرئيًّا أمام الأعين.

ومن إفادة اسم الإشارة لكمال التميز قول حسان بن ثابت:

وَإِذَا تَأَمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مُقْبِلٍ ... مُتَسَرْبِلٍ سِرْبَالَ لَيْلٍ أَغْبَرِ
أَوْ مَا إِلَى الْكَوْمَاءِ هَذَا طَارِقٌ ... نَحَرَتْنِيَ الْأَعْدَاءُ إِنْ لَمْ تُنْحَرِي(١)

فالكوماء: الناقة الضخمة، وقد أفادت الإشارة: "هذا" تحديد المقبل وتميزه في ذهن الممدوح، ولا يخفى عليك ما وراء اسم الإشارة والإيماء إلى الكوماء، من فرحة غامرة أحاطت بالممدوح وألمت به عندما رأى الضيف المقبل، وكأنه كان يبحث عنه ويفتش، وهذا ينبئ بكرمه، ولكن يؤخذ على الشاعر تعبيره بالفعل "تأمل" الذي يفيد أن الممدوح لا يهم بالذبح إلا بعد التحقق من رؤية الضيف، ولو قال: "تخيل أو توهم" لكان أبلغ في المدح بالكرم..

---

(١) البيتان قيل هما لحسان رضي الله عنه وقيل هما لرجل يمدح حاتمًا وقيل هما لابن المولى محمد بن عبد الله بن مسلم وقيل هما للعلوي صاحب الزنج.

ومن ذلك قول المتلمس:

وَلاَ يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ إِلاَّ الأَذَلاَّنِ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتَدُ

هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثِي لَهُ أَحَدُ

تجد أن الإشارة: "هذا وذا .." قد ميزت المسند إليه وحددته وجعلته ماثلاً أمام الأعين .. وإفادة الإشارة لكمال التمييز تجدها كثيرًا في النظم الكريم، وترى لها مذاقًا حسنًا.

انظر إلى قوله تعالى في حادثة الإفك: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور ١٣] فالحكم على ما وقع وخاض فيه الخائضون بأنه: "إفك مبين" بعد الإشارة إليه "هذا" وإبرازه أمام العين، يفيد قوة الحكم وصدق اليقين بأنه إفك مبين، وتأمل قوله عز وجل بعد ذلك: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور ١٦]، تجد أن تميز الحدث وكمال إبرازه بالإشارة إليه: "أن نتكلم بهذا.. سبحانك هذا.." قد جعل الحكم عليه بأنه: "بهتان عظيم" يقع موقعه في الأنفس، ولا يخفى عليك ما وراء الإشارة من تحقير وإهانة لمن خاض في هذه الحادثة.

٢- القصد إلى تعظيم المسند إليه أو إلى تحقيره، وهذا مقصد تحققه أسماء الإشارة أحسن تحقيق وتقوم به خير قيام، لأنك تعلم أن الإشارة تكون للقريب، فيقال هذا رجل، وللبعيد فيقال: ذلك وللتوسط فيقال ذاك وقد ينزل البعد أو القرب المعنوي منزلة القرب أو البعد الحسي، وعندئذ ترى أسماء الإشارة تفيد ما تفيد من التعظيم أو التحقير.

فمن إفادة التحقير باسم الإشارة المشار به للقريب قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴾ [الفرقان ٤١]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء ٣٦] فقد أشير إلى النبي ﷺ باسم الإشارة الموضوع للقريب "هذا" تحقيرًا له في اعتقادهم وإعلانًا عن رفضهم رسالته، وأنه لا يليق به أن يذكر آلهتهم بسوء لقربه ودنو منزلته ..

وانظر إلى قول الهذلول بن كعب العنبري متحدثًا عن زوجه:

تَقُولُ وَدَقَّتْ نَحْرَهَا بِيَمِينِهَا ... أَبَعْلِيَ هَذَا بِالرَّحَا الْمُتَقَاعِسُ
فَقُلْتُ لَهَا لاَ تَعْجَبِي وَتَبَيَّنِي ... بَلاَئِي إِذَا الْتَفَّتْ عَلَيَّ الْفَوَارِسُ

ففي إشارتها إليه بالقريب "هذا" معاني الاستخفاف والتحقير ودنو المنزلة، ولذا رد عليها مبينًا منزلته في ميدان القتال، وبلاءه عند الموقف الصعب..

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت ٦٤] فقد أشير إلى الدنيا بالقرب "وما هذه" تنبيهًا على حقارتها ووضاعتها في نفس المؤمن الذي لا يلقى لها بالاً.

ومن إفادة التعظيم باسم الإشارة المشار به للقريب قوله تعالى في شأن القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء ٩]، فأتى باسم الإشارة الموضوع للقريب مؤذنًا بقربه قربًا يحقق الانتفاع به والاسترشاد بهديه العظيم، لأن المقام مقام حديث عن هدايته إلى أقوم الطرق، وكلما كان الهادي قريبًا، كان أنجح لرسالته، وأقطع لعذر من ينصرف عن هدايته والاسترشاد به.. وعد إلى أبيات الفرزدق في علي بن الحسين، تجد أن إشارته إليه بالقريب يفيد تعظيمه وقربه من القلوب وتعلق الناس به ومحبتهم له..

ومن إفادة التحقير باسم الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون ١، ٢] فقد دلت الإشارة بالبعيد "ذلك" على حقارة المكذب، وحرمانه من ساحة القرب وشرف الحضور.. وتقول: ذلك الواشي وشى بي عند فلان، فتحقره بالإشارة وتبعده عن نفسك وعن المخاطبين..

ومن إفادة التعظيم باسم الإشارة المشار به للبعيد قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة ١، ٢] أشار إلى القرآن بالبعيد "ذلك" لبيان منزلته وعلو مكانته وأنه لا تدانيه منزلة، فقد بلغ الغاية في الكمال

والهداية.. وقوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ [يوسف ٣٢]، أشارت إليه بالبعيد وهو قريب لتظهر علو منزلته في الحسن، ولتبرز عذرها في الافتتان به، وقوله جل وعلا: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم ٦٣]، أفادت الإشارة تعظيم الجنة وبعد مكانتها..

ومن أقوالهم في هذا الصدد قول الفرزدق مفتخرًا بآبائه ومشيرًا إلى علو مكانتهم ورفعة شأنهم متحديًا جريرًا أن يأتي بمثلهم:

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ

فقد أفادت الإشارة: "أولئك" تعظيم الآباء وسمو مكانتهم، وفي ذلك تعريض بالمخاطب ودنو آبائه وضعة شأنهم، والأمر في قوله "فجئني" للتعجيز..

ومثله قول الحطيئة:

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا البُنَا وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا[1]

فقد أفادت الإشارة "أولئك" تعظيم المشار إليهم وبعد مكانتهم وعلو مجدهم .. ولكن يؤخذ على الشاعر، استخدامه "إن" دون "إذا" فقلل بهذا بناء المجد والعهد والعقد .. ولو استخدم "إذا" لكان أبلغ وأوفى بمقام المدح.. وقد اجتمع التعظيم والتحقير في قوله تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المؤمنون ١٠٢، ١٠٣].

٣- وقد يقصد بالتعريف باسم الإشارة: التنبيه على أن المشار إليه المذكور بعد أوصاف عديدة للشيء، جدير من أجل تلك الصفات بما يذكر بعد اسم الإشارة.. من ذلك قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة ٥] فقد تقدم وصفهم بالتقوى والإيمان بالغيب وهو أعلى مراتب الإيمان، ثم وصفهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فوفوا بذلك حق الله وحق الفقراء، وهم

---

(١) بنوا: يريد ما يبنونه من المجد والمكارم ويقال: بنا: يبنو بُنا في المجد والشرف، وبنى: يبنى بناء في العمران. وعقدوا: أبرموا أمراً وعزموا عليه.

يؤمنون بكل ما أنزل على أنبيائه، ثم جاءت الإشارة "أولئك" لتفيد أنهم جديرون من أجل الصفات المتقدمة بما يذكر عقبها من الهدى والفلاح.. وهذا كثير في النظم القرآني.. ارجع إلى قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ [المؤمنون ١٠]، وفي سورة البقرة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة ٢٧] وفي سورة الرعد: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد ٢٢]، وتأمل ما قبله وما بعده ليتضح لك ما قلناه.

٤- ومن أغراض التعريف بالإشارة: تجسيد المعنويات وإبرازها في صورة محسة مشاهدة، على نحو ما ترى في قوله تعالى: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور ٤٤]، فالإشارة، قد أبرزت التقليب في صورة محسة مرئية، ولكنها بعيدة: "ذلك"، لأنه لا يأخذ العظة منها إلا النفوس المؤمنة القوية المهيأة للوعي والإدراك .. ومثله قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المؤمنون ٨٢، ٨٣]، فقد أبرزت الإشارة البعث في صورة محسة مرئية .. وقوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ [يوسف ٣٧] .. وعد إلى الآيات التي ذكرناها في حادثة الإفك لترى كيف أبرزت الإشارة تلك الحادثة في صورة مرئية مشاهدة.

٥- ومن مزايا اسم الإشارة أنك تجده في كثير من الأساليب يلخص الكلام إذ يستطيع به المتحدث أن يطوي جملاً كثيرة بل وربما صفحات كاملة دون حاجة إلى إعادتها، لأن اسم الإشارة يقوم مقام هذه الإعادة ويغني عنها.. انظر إلى قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء ٣٩] تجد اسم الإشارة: "ذلك" قد أغنى عن آيات عديدة حوت كثيرًا من الأوامر والنواهي .. وهذا كثير في النظم الكريم وفي الأساليب الرفيعة وهو لا يخفى على الناظر الدقيق والمتأمل الواعي.

٦- ومن مزايا اسم الإشارة أيضًا أنه يقوم مقام أدوات الربط فيصل بين الجمل المستأنفة والجمل المتقدمة على نحو ما ترى في الآيات الكريمة: ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [ص ٤٨، ٤٩].. ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ

لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [ص ٥٤، ٥٥].. إلى غير ذلك من الأغراض والمزايا والمعاني اللطيفة الدقيقة التي تكمن وراء التعريف بأسماء الإشارة.

❊ ❊ ❊

التعريف بالألف واللام

يعرف المسند إليه بالألف واللام لغرضين أولهما: الإشارة إلى فرد من أفراد الحقيقة، معهود بين المتكلم والمخاطب، وتسمى اللام عندئذ لام العهد الخارجي وتأتي على ثلاثة أنواع:

١- لام العهد الخارجي الصريحي: وهي التي يتقدم لمدخولها ذكر صريح في الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ ﴾ [النور ٣٥]، فلفظا "المصباح والزجاجة" كل منهما مسند إليه، وقد جاءا معرفين "بأل" إشارة إلى معهود خارج، وهذا المعهود قد صرح به في قوله تعالى: "فيها مصباح.. في زجاجة" ولذا تسمى اللام، لام العهد الخارجي الصريحي.. ومنه قولك: غرست شجرة فأثمرت الشجرة وأينعت وآتت أكلها.

٢- لام العهد الخارجي الكنائي: وهي التي يتقدم لمدخولها ذكر كنائي كما في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران ٣٥، ٣٦]، فلفظ "الذكر" مسند إليه، وقد عرف "بأل" إشارة إلى العهد الخارجي الكنائي؛ حيث لم يصرح بلفظه، وإنما كنى عنه بقوله تعالى: "ما في بطني محررًا" إذ أرادت ذكرًا كي تهبه لخدمة بيت المقدس، أما "أل" في "الأنثى" فللعهد الخارجي الصريحي لتقدم مدخولها صريحًا في قوله تعالى: "رب إني وضعتها أنثى"..

٣- لام العهد الخارجي العلمي، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح ١٨]، فاللام في: "الشجرة" للعهد الخارجي العلمي حيث لم يتقدم لمدخولها ذكر لا صريحًا ولا كنائيًا.

ثانيهما: الإشارة إلى نفس الحقيقة وتسمى اللام عندئذ لام الحقيقة أو لام الجنس وترد أيضًا على ثلاثة أنواع:

١- لام الجنس أو الحقيقة، وهي التي يكون مدخولها مرادًا به الحقيقة نفسها، كقولك: الرجل خير من المرأة، أي: حقيقة الرجل خير من حقيقة المرأة، فلام الجنس أغنت عن تفصيل يتعذر إذ لا يستطيع القائل أن يستقصي جميع أفراد الجنس في تلك المفاضلة، كما أن التعريف بلام الجنس في المثال المذكور، لا ينافي أن بعض أفراد حقيقة المرأة، خير من بعض أفراد حقيقة الرجل، ففي هذا إيجاز وإيحاء دقيق..

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري:

وَالْخِلُّ كَالْمَاءِ يُبْدِي لِي ضَمَائِرَهُ مع الصَّفَاءِ وَيُخْفِيهَا مَعَ الْكَدَرِ

أراد جنس الخل وجنس الماء..

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة ١٣]، تجد أن اللام في "الناس" يصح أن تكون لام العهد العلمي، أي: كما آمن الرسول ﷺ ومن معه ويصح أن تكون لام الجنس، أي: كما آمن جنس الناس، والجنسية هنا يتولد منها معنى لطيف، لأنها تشير إلى أنهم هم الناس الكاملون في الإنسانية، فالذين آمنوا هم جنس الناس، ومعدن الإنسانية، ومن عداهم ليسوا منها في شيء[١].

٢- لام العهد الذهني: وهي أن يأتي المعرف بلام الحقيقة أو الجنس مرادًا به فرد مبهم من أفراد الحقيقة باعتبار عهديته في الذهن لاشتمال الحقيقة عليه، كقولك لمخاطبك: "ادخل السوق" وليس بينك وبينه سوق معهودة في الخارج ..

وعليه قول عميرة بن جابر الحنفي:

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي فَأَعِفُّ ثُمَّ أَقُولُ لاَ يَعْنِينِي

فالمراد باللئيم فرد غير معين من أفراد الحقيقة، وليس المراد به الحقيقة لاستحالة المرور على ما لا وجود له، ولا فردًا معينًا من أفرادها، إذ لا عهد به في الخارج.

---

(١) انظر الكشاف جـ١ ص١٨٢.

ومثله قول المتنبي:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ [يوسف ١٣] فلفظ "الذئب" في الآية المراد به فرد من أفراد حقيقة الذئاب، كما أن لفظي "الكريم" و"اللئيم" في البيت المراد بالأول فرد من أفراد حقيقة الكرام، وبالثاني فرد من أفراد حقيقة اللئام.

٤- لام الاستغراق: وهي التي يراد بمدخولها جميع الأفراد المندرجة تحت الحقيقة عند قيام القرينة الدالة على ذلك، وقد سميت لام الاستغراق لاستيعابها جميع الأفراد.

والاستغراق إما حقيقي، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [العصر: ١، ٢]، فاللام في "الإنسان" للاستغراق الحقيقي لجميع أفراد جنسه، ولذا استثنى الذين آمنوا فهم ليسوا في خسران، ومنه قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الأنعام ٧٣]، أي: كل غيب وكل شهادة، "فأل" فيهما للاستغراق الحقيقي، إذ أريد بمدخوليها جميع الأفراد التي يتناولها اللفظ بحسب الوضع.

وإما عرفي كقولك: امتثل الطلاب رأي المعلم، "فأل" في الطلاب أريد بها الاستغراق العرفي، لأن مدخولها أريد به جميع الأفراد التي يتناولها بحسب العرف وما جرت به العادة، لا جميع الأفراد حقيقة، ومثله قولك: جمع الأمير الصاغة، فالمراد: جمع صاغة بلده أو أطراف مملكته فحسب لا صاغة الدنيا، فأل في "الصاغة" للاستغراق العرفي.

* * *

التعريف بالإضافة

ويعرف المسند إليه بالإضافة لإفادة أغراض بلاغية كثيرة، والدلالة على أسرار ومزايا جمة.. أهمها ما يلي:

١- إرادة الإيجاز كقولك: كتابي مفيد، إذ الإضافة فيه هي أخصر طريق لإحضار المسند إليه "كتابي" في ذهن السامع فما من ريب في أن هذا أخصر من قولك: الكتاب الذي أملكه مثلاً..

وانظر إلى قول جعفر الحارثي وكان مسجونًا بمكة فزارته فتاته مع ركب قومها فلما رحلت عنه قال واصفًا ألمه وأحزانه:

هَوَايَ مَعَ الرَّكْبِ الْيَمَانِينَ مُصْعِدُ جَنِيبٌ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوثَقُ(١)

تجد أن الإضافة في قوله: "هواي" هي أخصر طريق لإحضار المسند إليه في ذهن المخاطب، وقد اقتضى المقام هذا الإيجاز، لأن الشاعر حزين متألم ضائق الصدر لسجنه وفراق أحبته ومثل هذا المقام يلائمه الإيجاز وطي الكلمات واختصار القول.

٢- أن يكون التعريف بالإضافة مغنيًا عن تفصيل يتعذر أو عن تفصيل تركه أرجح لاعتبار ما، فمن الأول قولك: أهل مصر كرام، إذ يتعذر عليك ذكرهم والإحاطة بهم..

ومثله قول أبي السمط مروان بي أبي حفصة:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ أُسُودٌ لَهَا فِي غِيلِ خَفَّانَ أَشْبُلُ(٢)

إذ يتعذر عليه الإحاطة ببني مطر واستقصاء أسمائهم.

---

(١) هواي: المراد الذي أهوى فهو من إطلاق المصدر على اسم المفعول مجازاً مرسلاً، واليمانين: جمع يمان وألفه عوض عن ياء النسب والمصعد: اسم فاعل من أصعد بمعنى أبعد في السير، والجنيب: المستتبع من جنب البعير إذا قاده إلى جنبه، وموثق: مقيد محبوس.

(٢) بنو مطر: قوم الشاعر أو قوم الممدوح. والغيل: الشجر الملتف. وخفان: مأسدة قرب الكوفة، والأشبل: أولاد الأسود مفرده شبل.

ومن الثاني قول الحارث بن وعلة الجرمي – وقد مر بك في أسرار الحذف:

قَومِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي ... فَإذا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي

فالإضافة في قوله: "قومي" أغنت عن تفصيل تركه أرجح، لأنه لو فصل فذكر القتلة بأسمائهم لأوغر صدورهم عليه، ولا يخفى عليك ما وراء الإضافة والاختصاص "هم قتلوا" وترخيم المنادى: "أميم" من حزن وألم ومن إبراز لجريمة قومه وتصوير لبشاعتها(١).

٣- أن تكون الإضافة متضمنة تعظيم المضاف كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن ١٩]، وقوله عز وجل: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم ٣٠]، وقوله جل وعلا: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان ٦٣]، فالإضافة إلى الله تعالى تشريف ما بعده وتعظيم ما بعده تعظيم، ولذا حق للقاضي عياض أن يقول مفتخرًا بعبوديته لله الخالق تبارك وتعالى:

وَمِمَّا زادَنِي شَرَفًا وَتِيهًا ... وَكِدْتُ بِأَخْمُصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا

دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ: "يَا عِبَادِ" ... وَأَنْ جَعَلْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيَّا

أو تعظيم المضاف إليه كقولك: خادمي جاء .. أموالي لا تعد، تفتخر بأنك عظيم لك خادم ولديك أموال، فالإضافة تضمنت تعظيم المضاف إليه أي: "المتكلم".

٤- أن يقصد بالإضافة تحقير شأن المضاف أو المضاف إليه كقولك: أعداء الإسلام يتربصون به ... أموال السارق لم تنفعه... فلا يخفى عليك تحقير المضاف في الأول والمضاف إليه في الثاني ... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقد اجتمع التحقير والتعظيم في قول جميل:

أَبُوكَ حُبَابٌ سَارِقُ الضَّيْفِ بُرْدَهُ ... وَجَدِّيَ يَا حَجَّاجُ فَارِسُ شَمَّرَا(٢)

---

(١) ارجع إلى ما قلناه في هذا البيت عند حديثنا عن حذف المسند إليه.

(٢) شمَّرْ: اسم ناقة والشَّمرية: الناقة السريعة. وشَمَّرُ: أيضا اسم فرس وهذا هو المراد في البيت .. يفخر جميل بأن جده فارس شَمَّرَ وصاحب خيل.

فالإضافة في "سارق الضيف" أفادت تحقير أبي المخاطب "حباب" وفي "فارس شمراء" أفادت تعظيم جد الشاعر.

٥- وقد يقصد بالإضافة إفادة معنى لطيف كما في قول بعضهم:

إِذَا كَوْكَبُ الْخَرْقَاءِ لَاحَ بِسُحْرَةٍ ... سُهَيْلٌ أَذَاعَتْ غَزْلَهَا فِي الْأَقَارِبِ(١)

فقد جعل للخرقاء كوكبًا وأضافه إليها لأدنى مناسبة وهي أنها لا تتذكر كسوة الشتاء إلا وقت طلوعه سحرًا، وهو لا يطلع سحرًا إلا في الشتاء، وتكمن وراء تلك الإضافة معان دقيقة كالمداعبة والمزاح، والسخرية من تلك المرأة الخرقاء الكسول، وإثارتها واستنهاضها وحثها على العمل وترك الإهمال.

٦- وقد يقصد بالإضافة الاستعطاف والحث على الشفقة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة ٢٣٣]، فقد أضيف الولد إليها وإلى الأب: "بولدها.. بولده" استعطافًا لهما وحثا على الإشفاق عليه، والكف عن مضرته، أو عن المضارة بينهما بأن يضر كل منهما الآخر بسببه. لأن تلك المضرة ترجع في الأخير إلى ولدهما..

يقول الزمخشري: "فإن قلت: كيف قيل بولدها وبولده؟ قلت: لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافًا لها عليه، وأنه ليس بأجنبي منها فمن حقها أن تشفق عليه، وكذلك الوالد"(٢).

❊ ❊ ❊

تنكير المسند إليه

يأتي المسند إليه نكرة لإفادة أنه فرد غير معين من أفراد جنسه، أو لإفادة النوعية، فإذا قلت: جاءني رجل، صلح هذا القول لإرادة الإفراد، أي: جائني رجل لا رجلان وصلح لإرادة النوعية أي: جاءني رجل لا امرأة، وهذه الإفادة إفادة

---

(١) الخرقاء: يريد: المرأة الخرقاء أي المهملة الكسول. وسهيل بدل من الكوكب، وأذاعت غزلها في الأقارب: فرقته عليهم ليعاونوها ويسعفوها.

(٢) الكشاف جـ١ ص ٣٧١.

أصلية للنكرة، وقد تتمحض النكرة للدلالة على العدد، وذلك إذا وصفت به كقولك: جاءني رجل واحد، ورجلان اثنان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النحل ٥١]، وقد تتمحض لإفادة النوعية أي الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام ٣٨] فقد محض الوصف في "الأرض.. ويطير بجناحيه" النكرتين: "دابة وطائر"، لإفادة الجنس.. هذا وقد يقصد بتنكير المسند إليه وجوه بلاغية كثيرة أهمها:

١ – القصد إلى أن المسند إليه فرد غير معين من أفراد حقيقته حيث لا يتعلق بتعريفه غرض، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ [القصص ٢٠]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ [غافر ٢٨]، فقد نكر المسند إليه في الآيتين: "رجل" لأن القصد إلى إفادة أنه فرد غير معين من أفراد جنسه، إذ لا حاجة إلى تعريفه ولا غرض من تعيينه، فالمراد أن يصل إلى موسى نبأ الائتمار لقتله، وأن يعلم المخاطب أن قولا قد قيل وأن تنبيهًا إلى ما في قتل موسى من خطأ قد وقع، ولا يخفى عليك ما وراء التنكير من تعظيم المسند إليه وإعلاء شأنه، فقول كلمة الحق في مثل هذه المجتمعات الفاسدة لا يصدر إلا من رجل عظيم الشأن جليل القدر، كما لا يخفى عليك ما أفاده تنكير المفعول في قوله تعالى: "أتقتلون رجلاً" من تعظيم لموسى عليه السلام.

٢ – القصد إلى تعظيم المسند إليه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة ١٧٩]، فقد نكرت الحياة التي يحققها القصاص للإشارة إلى أنها حياة عظيمة .. وقوله عز وجل: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾ [الانشراح ٥، ٦] أفاد تنكير اليسر وتكراره الدلالة على تفخيمه وتعظيمه.

يقول الزمخشري: "فإن قلت: فما معنى هذا التنكير.. قلت: التفخيم، كأنه قيل إن مع العسر يسرا عظيما، وأي يسر"(١) ومن ذلك قول الرسول ﷺ: "إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ

(١) الكشاف جـ٤ ص ٢٦٧.

سِحْرًا وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ حُكْمًا"(١) أي: سحرًا عظيما وحكمًا كبيرًا.

ومنه من غير باب المسند إليه قول المتنبي:

أَهُـــمُّ بِـــشَيْءٍ وَاللَّيَـــالِي كَأَنَّهَـــا ... تُطَـــارِدُنِي عَـــنْ كَوْنِـــهِ وَأُطَـــارِدُ

فقد نكر "بشيء" ليشير إلى أن ما يهم به شيء عظيم تطارده الليالي عن إدراكه، ويطاردها، فهو يهم بعظائم الأمور ويطارد الليالي من أجل نيل جلائل الأشياء.

٣- القصد إلى تحقيره، كقولك: لك عدو لا يعتد به، أي: عدو حقير الشأن، لا يقام له وزن، ولا يلقى له بال، وكقول إبراهيم بن العباس وكان واليًا على الأهواز من قبل الواثق بالله ثم عزل في وزارة محمد بن عبد الملك الزيات فقال مخبرًا بنبو الدهر عنه وتخلي الصاحب وتسلط الأعداء وغياب النصير:

فَلَـــوْ إِذْ نَبَـــا دَهْـــرٌ وَأُنْكِـــرَ صَـــاحِبٌ ... وَسُـــلِّطَ أَعْـــدَاءٌ وَغَـــابَ نَـــصِيرُ

تَكُـــونُ عَـــنِ الْأَهْـــوَازِ دَارِي بِنَجْـــوَةٍ ... وَلَكِـــنْ مَقَـــادِيرٌ جَـــرَتْ وَأُمُـــورُ

فقد نكر الدهر ليشير إلي أنه دهر منكر ومجهول، وليس هو الدهر الذي كان يعهده أيام ولايته على الأهواز، ولذا تمنى أن تكون داره بعيدة عنها عندما تغير وتبدل الدهر، وقلب له ظهر المجن.. كما نكر "صاحب" ليشير إلى حقارته ولؤمه، ثم تأمل بناء الفعل للمجهول وأنه لم يقل "وأنكرت صاحبًا" حتى لا يسند إنكار الصاحب إلى نفسه صريحًا في اللفظ، ولو كان صاحبًا لئيمًا حقيرًا، وتأمل تنكير الأعداء وبناء الفعل للمجهول: "سلط أعداء" للإشارة إلى حقارتهم وضعة شأنهم، وأنهم أداة في أيدي الغير وليسوا من مشاهير الرجال.. أما تنكير "نصير" في قوله: "وغاب نصير" فللإشارة إلى تعظيمه وفخامته، وأنه لولا غيابه لما حدث للشاعر ما حدث.

ومما اجتمع فيه التعظيم والتحقير قول الشاعر أبي السمط مروان بن أبي حفصة:

---

(١) رواه البخاري في النكاح برقم [٤٧/ ٥١٤٦] ومسلم في الجمعة برقم [٤٧/ ٨٦٩] وأحمد في مسنده برقم [٢٤٢٤] واللفظ لأحمد.

فَتًى لاَ يُبَالِي الْمُدْلِجُونَ بِنُورِهِ إِلَى بَابِهِ أَلاَّ تُضِيءَ الْكَوَاكِبُ
لَهُ حَاجِبٌ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ يَشِينُهُ وَلَيْسَ لَهُ عَنْ طَالِبِ الْعُرْفِ حَاجِبُ

فقد أفاد تنكير "حاجب" الأول: التعظيم والتفخيم، فهو حاجب أي حاجب، ذلك الذي يحول بينه وبين فعل ما يشين، إنه حاجب قوي هائل، وأفاد تنكير "حاجب" الثاني التحقير والتقليل، فليس له حاجب ما، يحول بينه وبين طالبي معروفه.

ومثله قول الآخر:

وَللهِ مِنِّي جَانِبٌ لاَ أُضِيعُهُ وَلِلَّهْوِ مِنِّي وَالْخَلاَعَةِ جَانِبُ

فتنكير "جانب" الأول للتعظيم والثاني للتحقير والتقليل.

أما قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [مريم ٤٥] فقد قالوا: إن تنكير "عذاب" يفيد أنه عذاب هائل عظيم لا يكتنه ولا يحيط به الوصف، ولا تتعارض هذه الإفادة مع ذكر "المس"، لأنه ذكر مع العذاب العظيم قال تعالى: ﴿ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور ١٤]، كما لا تتعارض مع ذكر الرحمن لأن عذاب الرحمن يكون أشد وأعظم، وغضبه يكون أقوى وأعتى، ولذا قالوا: "أعوذ بالله من غضب الحليم" وقالوا: "اتق شر الحليم إذا غضب"(١).

ورأى الزمخشري أن تنكير "عذاب" في الآية، يفيد التقليل، لأن الكلام لم يخل من حسن الأدب مع أبيه إذا لم يصرح بأن العذاب لاحق به ولاصق، بل قال: "أخاف" وذكر أنه مس والمس أقل تمكنًا من الإصابة، ثم نكر العذاب وذكر "الرحمن" ولذا يكون تنكير العذاب – في رأيه – للتقليل وليس للتعظيم والتهويل كما ذكر البلاغون(٢).

---

(١) ورد عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ كتابًا فغضب وتغير لونه ثم قال: «مَا تَرى فِي رَجُلٍ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ويُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؟» قلت: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله رواه الترمذي في الجهاد برقم [١٧٠٤].

(٢) الكشاف جـ٢ ص٥١١.

٤- القصد إلى تكثيره، كما في قولهم: "إن له لإبلا وإن له لغنمًا" يريدون بذلك الكثرة، أي: إبلاً كثيرة وغنمًا عديدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف ١١٣] أفاد تنكير المسند أنهم يريدون أجرًا كثيرًا ومكافأة كبيرة إن تحققت لهم الغلبة على موسى – عليه السلام – وقد أجابهم فرعون بأن لهم ما طلبوا وزيادة: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف ١١٤].

ومن ذلك قول حسان في مدح النبي ﷺ:

لَهُ هِمَمٌ لاَ مُنْتَهى لِكِبَارِهَا ... وَهِمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلُّ مِنَ الدَّهْرِ

أفاد تنكير "همم التكثير والتعظيم معًا، أي: همم كثيرة عظيمة، ولذا قال: "لا منتهى لكبارها".. "أجل من الدهر" فدل الأول على الكثرة ودل الثاني على التعظيم والتفخيم ..

ومنه قول الإمام الشافعي رحمه الله:

وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ لا عِدَادَ لَهَا ... وليسَ يُكْسَفُ إلاَّ الشَّمسُ وَالْقَمَرُ

أراد: نجومًا كثيرة.

ومما أفاد التكثير والتعظيم معًا قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر ٤]، فالمقام مقام تسلية للرسول ﷺ وتسرية عنه وقد أفاد تنكير "رسل" الإشارة إلى أنهم رسل عظام كثيرو العدد.

٥- القصد إلى إفادة التقليل، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة ٧٢]، أفاد تنكير "رضوان" الإشارة إلى أن القليل من رضوان الله أكبر من كل نعيم، فالمعنى: وشيء ما من رضوان الله أكبر من ذلك كله، لأن رضاه سبب كل سعادة وفلاح، فالعبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعيم، ولذا كان القصد من تنكير المسند إليه "رضوان" إفادة التقليل، أي: أقل قدر من رضاء الله خير من كل نعيم، ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من تعظيم رضوان الله تعالى ..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم ١٥]، فقد أفاد تنكير المسند إليه: "سلام" التقليل، لأنه من قبل الله تعالى: والقليل منه كثير ومغن عن كل تحية، ولذا جاء معرفًا في قصة عيسى عليه السلام: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [مريم ٣٣]، لأنه ليس واردًا من جهة الله تعالى بل هو من قول عيسى-عليه السلام-: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ﴾[مريم: ٢٠]، ولهذا الغرض تجد أن السلام لم يرد من جهة الله تعالى في النظم الكريم إلا منكرًا، ارجع إلى الآيات الكريمة: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يس ٥٨]، ﴿ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا ﴾ [هود ٤٨]، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾ [الصافات ١٣٠].

ومما أفاد تنكيره التقليل أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ [الأنبياء ٤٦]، فقد أفاد التنكير وبناء المرة في "نفحة" التقليل، أي: نفحة قليلة ضئيلة، ولا يخفى عليك ما في هذا اللفظ من التهكم والسخرية، لأن النفح يستعمل في الخير كنفح الطيب ونفح الهواء العليل، وقد استعملت هنا في الشر على سبيل الاستعارة التهكمية،كما في قوله تعالى: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ [الدخان ٤٩]، وقوله جل وعلا: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران ٢١].

٦- القصد إلى إفادة أن المسند إليه من نوع خاص، متميز عما يعرفه المخاطب ويألفه ويعهده، من ذلك قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ ﴾ [البقرة ٧] فقد أفاد تنكير "غشاوة" الإشارة إلى أنها نوع خاص من الغشاوة متميز عن سائر الغشاوات، لا يعرفه الناس، ولا يعهدونه فهو يغطي ما لا يغطيه شيء من الغشاوات المعهودة، ولا يخفى عليك ما يفيد التنكير بالإضافة إلى ذلك من تعظيم وتهويل.

ومنه في غير باب المسند إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ ﴾ [البقرة ٩٦] أي: على نوع من أنواع الحياة يكون زائدًا، ومميزًا عن حياة الناس، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ ﴾ [النور ٤٥]، فالتنكير فيها يحتمل النوعية بمعنى خلق كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع الماء، ويحتمل الإفراد، أي خلق كل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف.

ومما أفاد تنكير المسند إليه فيه النوعية قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة ١٧٩] أي: حياة متميزة خاصة، فاقت كل حياة وأربت عليها، وقد مر بك ما أفاده التنكير في هذه الآية أيضًا من تعظيم وتفخيم لشأن تلك الحياة الخاصة..

ومن ذلك قول عبد الله بن المعتز:

وإِنِّي عَلَى إِشْفَاقِ عَيْنِي مِنَ العِدَا ... لَتَجْمَحُ مِنِّي نَظْرَةٌ ثُمَّ أُطْرِقُ

فقد أشار بتنكير النظرة إلى أنها نظرة من نوع خاص، نظرة ظامئة شرود، ولذا وصفها بالجموح وأخبر أنه لا يستطيع أن يردها ويسيطر عليها إلا بعد زمن طويل ممتد "ثم أطرق" وذلك على الرغم من وجود الرقباء وإشفاقه منهم، وهذا يوضح أنها نظرة متميزة تختلف عن النظرات المعهودة لدى البشر.

ومنه قول الآخر:

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ ... إِلاَّ الْحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا

أفاد تنكير الداء والدواء النوعية وأن لكل من الداءات نوعًا خاصًا من الأدوية، يصلح لعلاجه، فمتى اهتدى إلى ذلك النوع الخاص من الدواء وعولج به الداء شفى وعوفي صاحبه بإذن الله تعالى إلا داء واحدًا وهو الحماقة فإنها داء أعيا الأطباء فلم يجدوا لها دواء.

٧- وقد يقصد بتنكير المسند إليه: كراهة أن ينسب الفعل إليه معرفًا، ويكون ذلك في مقامات المدح والفخر التي تقتضي المبالغة في الصفات..

انظر إلى قول أبي العلاء المعري:

إِذَا سَئِمَتْ مُهَنَّدَهُ يَمِينٌ ... لِطُولِ الْحَمْلِ بَدَّلَهُ شِمَالاً

فالمراد "بيمين": يمين الممدوح، ولكن الشاعر نكرها فلم يقل: "إذا سئمت مهنده يمينه" احترازًا من نسبة السآمة في اللفظ إلى يمين الممدوح، لأن في ذلك الإسناد جفوة ينبو عنها حس الشعر حيث يقلل من شأن المبالغة في صفة الشجاعة التي يقتضيها مقام المدح، ويؤخذ على الشاعر استخدامه إذا، التي تفيد تحقق وقوع

الشرط، ولو عبر "بإن" دون "إذا" لكان أبلغ في هذا المقام حيث تفيد "إن" ندرة وقوع الشرط كما سيأتي.

* * *

توابع المسند إليه

وقد يتبع المسند إليه بتابع كالوصف والبدل والتوكيد والعطف وذلك لغرض يقصد إليه البلاغي، وشأن المسند إليه في هذا شأن غيره من أجزاء الجملة، كما لا يخفى عليك أن الأحوال التي ذكرناها للمسند إليه تجري أيضًا على غيره من أجزاء الكلام.. وإليك بيان هذه التوابع.

١- الوصف

يوصف المسند إليه أو المسند أو أحد متعلقات الفعل لدواع بلاغية كثيرة. منها أن يكون الوصف مفسرًا وكاشفًا عن معنى الموصوف.. كما في قول أوس بن حجر يرثى نضالة بن كلدة:

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعًا ... إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا
إن الَّذي جَمَعَ الشجاعةَ والنَّجْـ ... ـدَة والبِرَّ والتُّقَى جُمِعَا
اَلْأَلْمَعِيَّ الَّذي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ ... كَأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا
أَوْدَى فَلاَ تَنْفَعُ الْإِشَاحَةُ مِنْ ... أَمْرٍ لِمَرْءٍ يُحَاوِلُ الْبِدَعَا

فقوله: "الألمعي" صفة كاشفة وموضحة للمسند إليه "الذي جمع الشجاعة، والنجدة والبر والتقى" ولذا حكى أن الأصمعي سئل عن معنى الألمعي فأنشد تلك الأبيات ولم يزد..

واقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج ١٩ -٢٠] فقوله "هلوعًا" حال من نائب الفاعل فهو وصف كاشف ومفسر وموضح لحقيقة الإنسان، يقول الزمخشري: "الهلع سرعة الجذع عند مس المكروه، وسرعة المنع عند مس الخير، من قولهم "ناقة هلوع":

سريعة السير وعن أحمد بن يحيى[(١)] قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع؟ قلت: قد فسره الله تعالى، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره"[(٢)].

ومنها أن يكون الوصف مخصصًا للموصوف، ومعنى تخصيصه له: تحديده ورفع احتمال غيره في المعارف، وتقليل الاشتراك في النكرات كقولك: زيد التاجر حضر ومحمد العالم ذهب.. ورجل فقير عندي وامرأة مؤمنة تزوجت..

ومنها أن يكون الوصف مشعرًا بمدح كما في قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وقوله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر ٢٤]، وقوله عز وعلا: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة ١٢٨] أو بذم كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل ٩٨]، أو بتأكيد لإظهار الفرح والسرور كقولك: أمس الدابر كان يومًا عظيمًا، أو لإظهار التأسف كقولك: أمس الدابر كان يومًا مؤلمًا حزينًا.

ومنها أن يكون الوصف بيانًا للموصوف ومحددًا للمراد منه كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النحل ٥١]، وذلك أن الاسم النكرة الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين: الجنسية والعدد المخصوص فإذا أريدت الدلالة على أن المُعنَّى به منهما والذي سيق له الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه، والعناية به، ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الألوهية لا الوحدانية، وكذا إذا أريدت الدلالة على أن الْـمَعنِيَّ به منهما الجنسية شفع بالصفة التي تبين ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام ٣٨] فقد شفع لفظ "دابة" "بفي الأرض" ولفظ طائر "بيطير بجناحيه" لبيان أن القصد بهما إلى الجنسية لا إلى العدد، وفي ذلك زيادة لمعنى التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما

(١) أحمد بن يحيي هو أبو العباس ثعلب من أئمة اللغة والنحو. ١١.

(٢) الكشاف ٤/ ١٥٨ وانظر الإيضاح ١/ ١٠٨.

من دابة قط في جميع الأرضين السبع ولا طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم..

ومنها إفادة الترحم وطلب المغفرة كما في قول إبراهيم بن أدهم:

إِلَـــهِي عَبْـــدُكَ الْعَـــاصِي أَتَـــاكَ   مُقِـــرًّا بالـــذُّنُوبِ وَقَـــدْ دَعَـــاكَ

فقد وصف العبد التائب المقر بالذنوب "بالعاصي" استعطافًا وطلبًا للمغفرة والرحمة..

هذا وعندما تقع الجملة صفة للنكرة يشترط فيها أن تكون خبرية، لأنها في المعنى حكم على صاحبها كالخبر، فلا يستقيم أن تكون إنشائية، أما قول عبد الله بن رؤبة التميمي:

حتَّـــى إذا جَـــنَّ الظَّـــلامُ واخْـــتَلَطْ   جـــاءَ بِمَـــذْقٍ هَـــلْ رَأَيْـــتَ الـــذِّئْبَ قَـــطْ(١)

فمعناه: جاءوا بمذق يقال عند رؤيته: هل رأيت الذئب قط؟ فالجملة الاستفهامية ليست صفة وإنما هي مقول للصفة المحذوفة كما هو واضح.

٢- التوكيد

يؤكد المسند إليه وكذا المسند أو أحد المتعلقات ليتحقق بهذا التأكيد أغراض بلاغية يقصد إليها المتكلم.. منها إبراز المؤكد وزيادة تقرير المعنى في ذهن السامع كقولك: هو يعطي الجزيل، هو يدفع الشدائد، فتقديم المسند إليه على خبره الفعلي في المثالين قد أفاد تأكيد المعنى وتقريره وإبراز المسند إليه لوقوعه في ابتداء الكلام فانشغل الذهن به وتطلع إلى خبره، وأيضًا لتكرار الإسناد، لأن الفعل أسند إلى الضمير المذكور مرتين، مرة باعتباره مبتدأ وأخرى باعتباره فاعلاً(٢)..

ومنها دفع توهم التجوز، كقولك: قطع الأمير نفسه السارق، فلو لم تقل:

---

(١) جن الظلام أقبل أوله، واختلاطه: إنما يكون بعد ذهاب نور النهار كله. والمذق: اللبن المخلوط بالماء فهو مصدر بمعنى اسم المفعول.. والشاعر يصف قوماً أضافوه فأطالوا عليه ثم أتوه بهذا المذق..

(٢) ارجع إلى تقديم المسند إليه ص ١٥٠ وما بعدها.

"نفسه" لجاز أن يتوهم أن القاطع غيره بأمره على ما جرت به العادة في ذلك.. وكذا قولك: نجح الطلاب كلهم، فقد رفعت "كل" احتمال التجوز بأن يكون الناجح معظمهم

ومنها دفع توهم السهو كقولك: نجحت أنا، وأقبل زيد زيد، وجاءني محمد محمد، وقلت أنت هذا القول، فهذا التأكيد يدفع توهم السامع أن المتكلم سها في إثبات الحكم لغير ما هو له..

ومنها تأكيد العموم مع رفع احتمال التجوز كقولك: عرفني الرجلان كلاهما، وجاءني القوم كلهم، فإنك لو قلت: عرفني الرجلان، جاءني القوم، بلا تأكيد، لتوهم أن أحد الرجلين هو الذي عرفك وأن بعض القوم قد جاء وبعضهم لم يأت، ولكنك لم تعتد بمن لم يعرفك ولا بمن لم يأت، فأطلقت الكل وأردت البعض على سبيل المجاز.. فدفعًا لهذا التوهم جاءت "كل" لتأكيد العموم ورفع احتمال التجوز، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ [آل عمران ٩٣]، وقوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ [طه ٥٣]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢ ﴾ [القمر ٤١، ٤٢]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝٣١ ﴾ [الحجر ٣٠، ٣١] ولا يخفى عليك ما في الآية الأولى من إشارة إلى عظم النعمة، حيث أحل لهم كل طعام، كما لا يخفى عليك ما في الآيات الأخرى من إشارة إلى فظاعة تكذيب فرعون وقومه فقد كذبوا بالآيات كلها، وإلى فظاعة استكبار إبليس اللعين، حيث سجد الملائكة كلهم أجمعون إلا هو أبى واستكبر وكان من الكافرين.

هذا ولفظ "كل" تارة يقع تأكيدًا وذلك عندما يستخدم مع المعارف كما في الشواهد المذكورة، ومعنى وقوعها تأكيدًا أن الشمول مفاد بدونها فهي تأتي لتوكيده ودفع توهم غيره – كما رأيت – وتارة تقع تأسيسًا وذلك عند إضافتها إلى النكرات كما في قوله تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون ٥٣]، وقوله عز وجل: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء ١٢]، وقوله جل وعلا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء

٩٦]، ومعنى وقوعها تأسيسًا أنها هي التي تفيد الشمول وتؤسسه، فهو لا يفاد أصلاً إلا بها، وهذا واضح في الآيات الكريمة، إذ بدون "كل" لا تجد فيها شمولاً.

٣- عطف البيان

ويقصد البلاغي إلى عطف البيان لأغراض بلاغية أهمها: إيضاح المعطوف عليه باسم مختص به كقولك: قدم صديقك خالد، فخالد عطف بيان للصديق وقد وضحه وبينه، لأن المخاطب له أصدقاء كثيرون، فعندما تقول له: جاء صديقك، لا يدري أيهم، وعندما تقول: خالد. فقد وضحت وبينت، إذ حصرت المجيء في خالد دون غيره من الأصدقاء.

وقد يكون عطف البيان غير مختص بمتبوعه ولكن يحصل الإيضاح والاختصاص بمجموعهما، كما في قول النابغة الذبياني:

والمؤمنِ العائذاتِ الطَّيْرَ يَمْسَحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بينَ الغَيْلِ والسَّنَدِ
مَا إنْ أَتَيْتُ بشيءٍ أنت تكرهُهُ إذَنْ فلا رَفَعَتْ سَوْطِي إليَّ يَدِي[1]

والمعنى: والله الذي آمن الطير الملتجئة للحرم والساكنة به للأمن من الاصطياد والأخذ، وقد حصل لها ذلك، إذ لا يجوز لأحد أخذها، بل الركبان القاصدون مكة المارون بين الغيل والسند تمسحها ولا تتعرض لها.. فالطير عطف بيان للعائذات وهو غير مختص بها، لأن العائذات صادق على الطير وعلى غيره مما يعوذ بالحرم ويؤمنه الله سبحانه وتعالى فيه.. وعند التأمل نجد أن عطف البيان في المثال الأول غير مختص أيضًا بمتبوعه.. لأن الصداقة تطلق على خالد وعلى غيره.. ولذا فالمهم أن يكون عطف البيان أخص من متبوعه حتى يتحدد ويتضح ذلك المتبوع في ذهن السامع عندما ينصرف إلى تابعه..

ومنها مدح المتبوع والدلالة على عظم شأنه كما في قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ

(١) والمؤمن: الواو للقسم والمراد بالمؤمن: الله جل جلاله، والعائذات: جمع عائذة من العوذ وهو الالتجاء وتعرب مفعولاً به للمؤمن أو مضافاً إليه، والطير: عطف بيان على العائذات.. والغيل: بفتح الغين وسكون الياء والسند بفتح السين والنون: موضعان في جانب الحرم فيهما الماء.. وجواب القسم قوله: "ما إن أتيت بشيء" وإن فيه زائدة للتوكيد.

ﱡﭐ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﱠ [المائدة ٩٧]، فالبيت الحرام عطف بيان للكعبة قصد به المدح والدلالة على عظم شأنها لا الإيضاح، لأن الكعبة أظهر من نار على علم، فليست في حاجة إلى إيضاح وبيان، وكان البيت الحرام مدحًا وتعظيمًا؛ لأن فيه دلالة على أن هذا البيت موصوف بالحرمة والاحترام والمنع من كل امتهان وانتهاك..

ومنها ذم المتبوع بالدلالة على حقارته، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ [إبراهيم ١٥ : ١٧]، فالصديد بيان للماء قصد به الذم والدلالة على حقارته وامتهانه وقبحه.. وذلك حتى يرتدع ذلك الجبار ويقلع عن عناده.

٤ – البدل

ويقع الإبدال من المسند إليه أو المسند أو أحد المتعلقات لأغراض بلاغية يقصد إليها المتكلم ويقتضيها المقام، أهمها: زيادة التقرير والإيضاح كقولك: جاء زيد أخوك، فأخوك بدل من زيد وقد دل على تقريره وإبرازه، لأن مفهومه هو مفهوم زيد.. ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة ٦، ٧] فصراط الذين أنعمت عليهم، بدل من الصراط المستقيم وفيه بيان وإيضاح وزيادة تقرير لكون الصراط المستقيم هو صراط المنعم عليهم بالإيمان والرضوان..

ومنها التفصيل بعد الإجمال والإيضاح بعد الإبهام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ [الفرقان ٦٨، ٦٩] فقوله: "يلق أثامًا" فيه إجمال للعقاب وقوله بعده: "يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا" بدل منه وفيه تفصيل وإيضاح لما أجمل فيه، ولا يخفى عليك ما للبيان والتفصيل بعد الإجمال والإبهام من وقع في النفس، لأنه عند الإجمال تتطلع النفس وتستشرف إلى التفصيل، فعندما يأتي التفصيل يكون له وقعه وأثره؛ حيث أتى والنفس إليه متطلعة وله مترقبة.

ومنه قول كثير عزة:

وَكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ: رِجلٍ صحيحةٍ ورجلٍ رمَى فيهَا الزَّمَانُ فَشُلَّتِ

ففي قوله: "ذي رجلين" إبهام وإجمال أزاله ووضحه البدل في قوله: "رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت..".

ومثله قول النابغة الجعدي:

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنا وسناؤُنا وَإِنَّا لنرجُو فَوْقَ ذلكَ مَظْهَرَا

ففي قوله: "بلغنا" إجمال وقد جاء البدل: "مجدنا وسناؤنا" مفصلاً وموضحًا هذا الإجمال.. ولا يخفى عليك أن البدل في البيت الأخير، بدل اشتمال وفي الشواهد السابقة بدل مطابق.

ومن بدل الاشتمال أيضًا قولك: سلب عمرو ثوبه.. وأجبني المعلم علمه.. والغرض البلاغي من البدل في المثالين هو الإيضاح والتفصيل بعد الإبهام والإجمال، لأن قولك: سلب عمرو، وأعجبني المعلم.. فيه إبهام وإجمال يظل معه المخاطب متعلقًا إلى إيضاحه ومستشرفًا إلى تفصيله وعندئذ يأتي البدل: "ثوبه وعلمه"، موضحًا ومبينًا فيقع المعنى في النفس موقعًا حسنًا ويثبت فيها ويرسخ..

ومن بدل البعض قولك: جاءني القوم أكثرهم، وفيه كما ترى، زيادة إيضاح وتقرير، وبيان لما في المسند إليه "القوم" من إجمال..

ومن الأغراض البلاغية للبدل، القصد إلى المبالغة والتفنن في بناء العبارات، ويكثر هذا في بدل الغلط كما في قول البحتري:

أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرَى أَمْ ضَوْءُ مِصْبَاحِ أَمِ ابْتِسَامَتُهَا بالْمَنْظَرِ الضَّاحِي

حيث أراد المبالغة في وصف الابتسامة ومدى وقعها عليه فتفنن في العبارة كما ترى..

وقوله أيضًا في وصف الإبل الأنضاء:

كَالْقِسِيِّ الْمُعَطَّفَاتِ بَلِ الْأَسْـ ـهُمِ مَبْرِيَّةً بَلِ الْأَوْتَارِ

فقد قصد إلى المبالغة في وصف الإبل المهازيل فتفنن في التشبيه مترقيًا عن طريق الإضراب من الدقيق إلى الأدق.

وبهذا يتضح لك أن نظرة البلاغي للتوابع تختلف عن نظرة النحوي، فالبلاغي ينظر إلى ما وراءها من دقائق وأغراض ومزايا جمالية، أما النحوي فينظر إلى أحكامها وكيفية استعمالها في الكلام، ولذا تجد النحوي مثلاً يسوي بين البدل المطابق وعطف البيان فيجعلهما شيئًا واحدًا، وليس الأمر كذلك عند البلاغي، بل هما مختلفان ولكل منهما مقامات خاصة به ومقاصد يقصد إليها على نحو ما رأيت في الشواهد.

٥- عطف النسق

يستخدم البلاغي عطف النسق ليحقق أغراضًا بلاغية ومقاصد يقصد إليها، وهذه الأغراض تراها كامنة وراء حروف العطف وهي: الواو، وثم، والفاء، ولا، وبل، ولكن، وحتى، وأو، وما بين تلك الحروف من فروق دقيقة، فالواو لمطلق الجمع، والفاء للترتيب مع التعقيب، و"ثم" للترتيب مع التراخي، وبل للإضراب وصرف الحكم عن محكوم له إلى آخر، و"لا" للترتيب مع التراخي، وبل للإضراب وصرف الحكم عن محكوم له إلى آخر، و"لا" للعطف ونفي الحكم عما بعدها، و"لكن"و "بل" عكس لا، و"حتى" للتدرج إلى الأعلى أو إلى الأدنى، و"أو": للتخيير أو للإباحة أو للشك أو للتشكيك.. والبلاغي يستغل تلك المعاني - كما قلت - ليحقق أغراضًا يهدف إليها.

تقول، مثلاً: جاءني زيد وعمرو وخالد، فتفيد تفصيل المسند إليه مع الإيجاز، حيث أفادت الواو اشتراك زيد وعمرو وخالد في المجيء ففصلت المسند إليه وأغنت عن قولك: جاءني خالد وجاءني زيد، وجاءني عمرو، وهذا هو وجه الإيجاز في المثال.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص ٨] تجد أن فرعون وهامان قد ذكرا مفصلين معطوفًا أحدهما على الآخر

ثم عطف عليهما بقية القوم "إجمالاً" و"جنودهما" وذلك لغرض بلاغي وهو أن فرعون وهامان كانا السبب في الخطيئة دون جنودهما.

وتقول: جاء زيد فعمرو فتفيد تفصيل المسند "المجيء" مع الإيجاز والإنباء بالتعقيب إذ المراد: جاء زيد، وجاء عمرو بعده مباشرة، وتقول: جاء زيد ثم عمرو فتومئ إلى ما بين المجيئين من تراخ بالإضافة إلى إفادة التفصيل والإيجاز.. وكذا تقول: اشتدت العاصفة ثم هدأت مشيرًا بالحرف "ثم" إلى امتدادها وأنها لم تسكن إلا بعد زمن طويل.. وقد تريد التدرج بالمعاني علو أو دنوا فتستعمل "حتى" في عطف تلك المعاني..

انظر إلى قول الشاعر:

قَهَرْنَاكُمْ حَتَّى الْكُمَاةَ فَأَنْتُمُ ... تَهَابُونَنَا حَتَّى بَنِينَا الْأَصَاغِرَا[1]

حيث ارتفع بقهرهم إلى أعلاه: "حتى الكماة" ثم انخفض بهيبتهم إلا مالا يخيف: "حتى بنينا الأصاغر"، وهذا معنى جميل وتموج رائع، إذ بدأ بالأدنى مرتفعًا بالقهر ثم انحدر بالإخافة منتهيًا إلى أدنى ما يمكن أن يخيف ..

وقد يلجأ البلاغي إلى عطف النسق ليرد السامع عن الخطأ في الحكم إلا الصواب بأخصر طريق فيقول مثلا: جاء زيد لا عمرو، لمن اعتقد أنهما جاءا معًا أو أن الذي جاء عمرو دون زيد.. وكذا تقول ما جاء زيد لكن عمرو وما جاء زيد بل عمرو لمن اعتقد مجيئهما معًا أو مجيء زيد دون عمرو..

وقد يراد بالعطف التشكيك كما في قول توبة بن الحمير الخفاجي (ت ٨٥هـ) وكان يهوى ليلى الأخيلية:

وقَدْ زَعَمَتْ لَيلَى بأَنِّي فَاجِرٌ ... لِنَفْسِي تُقَاهَا أَوْ عَلَيْهَا فُجُورُهَا

فقد عطف "بأو" ليشكك السامع وعندئذ ينظر في أمره ويتأمل حتى يصل إلى الخبر اليقين ويعرف أفاجر الشاعر أم تقي.

---

(١) الكماة: جمع كَمِيٍّ بفتح الكاف وكسر الميم وتشديد الياء وهو الفارس المقدام الذي تكمَّى في سلاحه أي: تغطى به، انظر لسان العرب مادة: كمي.

وقد يراد به الإبهام استمالة للمخاطب وترغيبًا له في الاهتداء وقبول الحق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ ٢٤].

ومنه قول الشاعر:

نَحْنُ أو أَنْتُمُ الأُولَى أَلِفُوا الْحَقَّ فَبُعْدًا لِلْمُبْطِلِين وسُحْقَا

فقد استخدمت "أو" للإبهام حتى لا يواجه الضال بضلاله فيكون في هذا تنفير له من قبول الحق والهداية.

وبهذا يتضح لك أن البلاغي يجد في معاني حروف العطف وسائل لتحقيق مآربه وإبراز أهدافه البلاغية السامية، التي يهدف إليها ويقصد.

تعقيب المسند إليه بضمير الفصل

وقد يعقب المسند إليه بضمير الفصل فيفيد ذلك القصر، أي قصر المسند على المسند إليه كقولك: زيد هو المنطلق وخالد هو الذي يجود بماله، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [التوبة ١٠٤] فالمعنى لا يقبل التوبة عن عباده إلا الله.. أو قصر المسند إليه على المسند، كقولك: الكرم هو التقوى، والحسب هو المال، أي: لا كرم إلا بالتقوى، ولا حسب إلا بالمال..

وقد يكون ضمير الفصل لمجرد التوكيد، وذلك إذا كان القصر مفادًا بغيره بأن تكون الجملة معرفة الطرفين مثلاً، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات ٥٨]، وقوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة ١١٧]،، وقوله عز وجل: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر ٢٠].. وسيتضح لك هذا عند دراستك لأسلوب القصر وطرقه في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

❊ ❊ ❊

تقديم المسند إليه

اهتم البلاغيون في دراستهم لتقديم المسند إليه بدراسة تقديمه على الخبر الفعلي في النفي أو في الإثبات نحو: ما أنا فعلت هذا، وأنا ما فعلت هذا، وأنا فعلت.. كما اهتموا بدراسة تقديم النكرة، ومثل وغير، وألفاظ العموم نحو: كل وجميع، ولعل اهتمام البلاغيين بدراسة التقديم بصفة عامة وتقديم هذه الأدوات بصفة خاصة، يرجع إلى ما يكمن وراءها من دقائق وأسرار ينبغي على الدارس الوقوف عليها والإحاطة بها.. وإليك بيان ذلك:

تقديم المسند إليه في النفي

إذا قدم المسند إليه فولى أداة النفي مثل: ما أنا فعلت.. ما محمد صنع هذا، أفاد التقديم عندئذ "الاختصاص" لأن مثل هذا التعبير: "ما أنا فعلت.. ما أنت قلت.. ما هو يجود بمال.. ما محمد صنع".. يفيد – كما قال عبد القاهر – ثلاثة أمور:

١ – نفى الفعل عن المسند إليه المقدم.

٢ – إثبات نفس الفعل المنفي.

٣ – وجود فاعل آخر غير المسند إليه المقدم قد فعل هذا الفعل.

فعندما تقول: ما أنا قلت هذا الشعر.. ما أنا بنيت هذا الدار.. فأنت تنفي عن نفسك قول هذا الشعر، وبناء تلك الدار، وتثبتهما لفاعل آخر غيرك، ولذا كان من الخطأ أن تقول: ما أنا قلت هذا الشعر ولا قاله أحد.. ما أنا بنيت هذه الدار ولا غيري. ما محمد صنع هذا الشيء ولا غيرُه.. لأن صدر الجملة أفاد بتقديمك المسند إليه، أن الفعل قد انتفى عنه وأثبت لغيره، وعجزها أفاد نفي الفعل المذكور عن الغير وهذا تناقض وتدافع، إذ كيف تثبت الفعل للغير وتنفيه عنه في آن واحد.. إن العطف في الأمثلة المذكورة قد جعل الفعل يقع بغير فاعل وهذا محال، فالصواب أن يقال: ما أنا قلت هذا الشعر بل قاله غيري.. ما أنا بنيت هذه الدار بل بناها أحد غيري.. ما محمد صنع هذا الشيء بل صنعه غيره.

فإن قلت: ألا يجوز أن تقول: ما قلت هذا ولا قاله أحد غيري..؟ ما بنيت هذه الدار ولا بناها غيري..؟ ما صنع محمد هذا الشيء ولا صنعه أحد غيره..؟

فالجواب: يمنع من هذه الأقوال اسم الإشارة المذكور، لأنك تشير به إلى معين قد وجد وفعلْ، تشير إلى الشعر مقولاً "هذا الشعر" وإلى الدار مبنية: "هذه الدار" وإلى الشيء مصنوعًا: "هذا الشيء" ولا يتأتى أن يكون المشار إليه، الموجود أمامك، لم يفعله أحد لا أنت ولا غيرك، اللهم إلا إذا قيل: إن اسم الإشارة، لم يشر به إلى شيء محقق مرئي، بل أشير به إلى معنى في ذهن المخاطب.. إلى دعوى قد ادعاها.. وكأنه قد ادعى أن شعرا قيل وأن دارًا بنيت وأن شيئًا قد صنع، فأنت تقول: "هذا" مشيرًا إلى ما ادعاه وقاله، لا إلى شيء مشاهد أمامكما وكأنك تقول له: إن ما ادعيته لم يفعل لا منى ولا من غيري، فأنت في دعواك واهم، وهذا الذي في ذهنك لا وجود له مطلقًا، إن أردت ذلك فما سألت عنه جائز ولك أن تقوله.

ومن الخطأ أيضًا أن تقول: ما أنا أكلت اليوم شيئًا. ما أنا قلت شعرًا قط فتجعل المنفي هكذا عامًا، لأنه يقتضي المحال وهو أن يكون ههنا إنسان غيرك قد قال كل شعر في الدنيا وأكل كل شيء يؤكل، ولكن الصواب في مثل هذا أن تقول: ما أكلت اليوم شيئًا.. ما قلت شعرًا قط، لأن قولك "ما فعلت"، لا يفيد سوى نفي الفعل عنك فقط، دون تعرض للغير لا بنفي عنه ولا بإثبات له.

ومن الخطأ كذلك قولك: ما أنا ضربت إلا زيدًا، لأن معناه: ما أنا ضربت أحدًا إلا زيدًا، وهذا يقتضي أن يكون هناك أحد غيرك قد ضرب جميع الناس ما عدا زيدًا وهذا محال.. فالصواب في مثل هذا أن يقال: ما ضربت إلا زيدًا.

ومما جرى على هذه الطريقة في الدلالة على الاختصاص من التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة، قول المتنبي:

وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جِسْمِي بِهِ ... وَلاَ أَنَا أَضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارَا

فالمعنى: هذا السقم الحاصل في جسدي وتلك النيران المشتعلة في فؤادي، لم أفعلها أنا بل فعلهما غيري، ووراء هذا التركيب معنى لطيف هو عجز الشاعر أمام عواطفه المشبوبة التي أضنته وكأنه يقول: لو كان الأمر بيدي لأنقذت نفسي، ولكن لا طاقة لي بذلك..

ومثله قوله أيضًا:

وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا الشِّعْرَ كُلَّهُ ... وَلَكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

فهو ينفي أن يكون هذا الشعر الكائن قد قاله هو وحده وإنما قاله معه غيره، وهذا الغير هو الشعر نفسه لأنه شعر شاعر..

وتلاحظ أن المسند في كل ما ذكر من شواهد وأمثلة فعل، فهل تلك الإفادة، إفادة تقديم المسند إليه بعد النفي للقصر، قاصرة على الخبر الفعلي؟ قال بهذا بعض البلاغيين، وقال آخرون: هي ليست قاصرة على الخبر الفعلي. بل تتعداه إلى غيره، وأن قولك: ما أنا ضارب زيدًا. وما محمد بجاحد نعمة ربه، يفيد الاختصاص كما يفيده قولك: ما أنا ضربت. وما محمد جحد نعمة ربه.

والذي أراه أن السياق هو الذي يحدد الإفادة.. ففي قوله تعالى ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود ٩٢]، نجد قوله تعالى: "وما أنت علينا بعزيز" أفاد الاختصاص بمعنى نفي العزة عن شعيب وإثباتها لرهطه، ولذا قال -عليه السلام- في جوابهم منكرًا ذلك منهم: "أرهطي أعز عليكم من الله".

ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ۝﴾ [البقرة ١٦٧]، فالخروج من النار منفى عن المسند إليه المقدم "هم" العائد إلى الكفار الذين تبرأ بعضهم من بعض، ومثبت لغيرهم وهم عصاة المؤمنين لأن المؤمن العاصي لا يخلد في النار..

أما قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝﴾ [البقرة ٨، ٩] وقوله عز وجل: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝﴾ [الطور ٢٩]، فواضح أن تقديم المسند إليه "وما هم بمؤمنين" "ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي". "فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون"، لا يفيد الاختصاص، بل يفيد فقط تأكيد نفي المسند إليه المقدم..

ولهذا ينبغي علينا ألا نغفل دور السياق وأثره في تحديد الإفادة في مثل هذه الأساليب وأن ننظر إليها في سياقها، فما يحكم به السياق ويقضي فهو ذلك..

كما أنه ينبغي أن تبنى الأحكام البلاغية على الأكثر والغالب ولا تبنى على القطع والإطلاق، لأننا عندما نتأمل التراكيب الجيدة نرى أن ما قطع البلاغيون بإفادته للقصر وهو تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بعد النفي نحو: ما أنا فعلت، نراه منخرمًا وقابلاً للرد.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝﴾ [الأنبياء ٣٩، ٤٠]، تجد أن قوله "ولا هم ينصرون"، قد أفاد الاختصاص، إذ النصر في هذا اليوم منفى عن الكفرة مثبت لغيرهم وهم المؤمنون، فالله عز وجل ينصرهم في ذلك اليوم ويتجلى عليهم برحمته، وهذا يتفق مع ما قاله البلاغيون.. أما قوله تعالى: "ولا هم ينظرون" فالتقديم فيه يفيد التأكيد وتقوية الحكم، ولا يفيد الاختصاص، لأنه لا أحد ينظر حين تأتيه الساعة، وهذا يتعارض مع ما قاله البلاغيون، ولذا نقول ينبغي أن تبنى الأحكام البلاغية على الأكثر والغالب، لا على القطع والإطلاق(١).

وكذا القول في الآية الكريمة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات ٤٧] إذ المراد تأكيد نفي النـزف من خمر الجنة عن المؤمنين، ولا يتأتى أن يقال إن النـزف من خمر الجنة منفي عن المؤمنين مثبت لغير المؤمنين، أنى يكون ذلك؟

فإذا قدم المسند إليه على أداة النفي نحو: أنا ما فعلت، وأنت ما قلت، ومحمد لا يصنع هذا، والمؤمن لا يرضي الضيم، أفاد هذا التقديم، إما الاختصاص وإما التوكيد وتقوية لحكم.. والسياق هو الذي يحدد المراد.

انظر إلى قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس ٧]، وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القصص٦٦]،

---

(١) خصائص التراكيب ١٧٩.

وقوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال ٢٢] تجد أن التقديم في هذه الآيات الكريمة قد أفاد من التأكيد وتقوية الحكم مالا يفيده تأخير المسند إليه، وتأمل قولك: "فلا يؤمنون" وما عليه النظم الكريم "فهم لا يؤمنون" فستدرك ما قد أفاده تقديم المسند إليه في النظم القرآني من تأكيد نفي الإيمان عن هؤلاء، وقد يفاد بهذا التقديم القصر كقولك: أنا لا أقبل الظلم.. المؤمن لا يسعى في الشر، إذا كنت تريد نفي الفعل عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره.

تقديم المسند إليه في الإثبات

وتقديم المسند إليه في الإثبات يفيد كذلك أحد الأمرين المذكورين، إما التأكيد وتقوية الحكم وإما الاختصاص، حسبما يحدد السياق وقرائن الأحوال، فقولك محمد يفعل الخير، صالح لإفادة التأكيد فهو آكد من قولك: يفعل محمد الخير وصالح لإفادة الاختصاص، إذا كنت تريد أن فعل الخير مقصور على محمد المقدم ومنفي عن غيره.. وتقول: أنا فعلت كذا.. أنا أطعم الفقير.. تريد أنك وحدك تفعل هذا أو أنك تفعله دون فلان، فيكون التقديم مفيدًا للقصر الحقيقي أو القصر الإضافي.

واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة ١٠١]. وقوله عز وجل: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود ٦١]. وقوله جل وعلا: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر ٢٣]، وقوله عز من قائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾ [الإنسان ٢٣].

واقرأ في سورة النحل: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ..... وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ.... وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ.... وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا..... وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا..... وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا.....وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا

وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ [النحل ٦٥ -٨١]، تجد أن الفعل مختص بالمسند إليه المقدم وهو لفظ الجلالة أو الضمير العائد إليه، فالتقديم في الآيات الكريمة قد أفاد الاختصاص – كما لا يخفى – وعندما يفيد التقديم الاختصاص فهو يفيد التوكيد لا محالة، لأن الاختصاص يستلزم التوكيد..

ومن ذلك المثل المشهور: "أَتُعَلِّمُنِي بِضَبٍّ أَنَا حَرَشْتُهُ" أي: صدته فالتقديم فيه أفاد الاختصاص، لأن المراد: أنه حرشه وحده دون غيره فهو عليم به وخبير، ولذا أنكر أن يعلمه به أحد.

ومما أفاد التقديم فيه التأكيد وتقوية الحكم دون الاختصاص قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل ٢٠] فقوله: "وهم يخلقون"، أفاد التقديم فيه تأكيد خلقهم فهم من مخلوقات الله تعالى والمخلوق لا يعبد ولا يستطيع أن يخلق شيئًا وفيه ما فيه من تسفيه أحلام الكفرة الذين دعوا هؤلاء من دون الله.. ولا يفيد التقديم في الآية الكريمة اختصاصًا، لأن الخلق ليس مقصورًا عليهم، فالله تعالى يخلقهم ويخلق غيرهم.

وقد علل البلاغيون سر إفادة تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي للتأكيد وتقوية الحكم، فقال عبد القاهر: "فإن قلت: فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل آكد لإثبات ذلك الفعل له، وأن يكون قوله: "هما يلبسان المجد" أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقال: يلبسان المجد؟ .. فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتي بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه، وإذا كان كذلك فإذا قلت: عبد الله، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً: قام أو قلت: خرج أو قلت: قدم، فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المتهيئ له المطمئن إليه وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشك وأدخل في التحقيق.. وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشيء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام،

ومن ههنا قالوا: إن الشيء. إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم إضمار.."[١].

وعلله السكاكي بتكرار الإسناد ففي مثل قولهم: "هم يضربون الكبش ببرق بيضه" قد أسند الضرب إليهم مرتين، مرة إلى واو الجماعة في "يضربون" والثانية في إسناد جملة: "يضربون" إلى الضمير "هم" الذي هو المسند إليه المقدم، فهذا التكرار للإسناد هو منشأ التوكيد وتقوية الحكم ودفع الشك عند السكاكي[٢].

المقامات التي تقتضي التوكيد

وقد ذكر عبد القاهر المقامات التي تقتضي التأكيد وتقوية الحكم والتي ينبغي أن يقدم فيها المسند إليه على خبره الفعلي وهي:

١- ما سبق فيه إنكار من منكر كقولهم: هو يعلم وإن أنكر، وهو يعلم أن الكذب فيما قال وإن حلف عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران ٧٥]، أي يعلمون كذبهم، فهم ينكرون الكذب، وينكرون أيضًا علمهم بكذبهم لأن الكاذب لا يعترف بكذبه، وإذا لم يعترف بكذبه كان أبعد من ذلك أن يعترف بالعلم بأنه كاذب.. ومعلوم أن الإنكار يقتضي توكيد الحكم، ومن أجل ذلك قدم المسند إليه.

٢- مقام التكذيب وإبطال دعوى مدع، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المائدة ٦١]، فقولهم "آمنَّا" دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به، فالمقام مقام تكذيب يقتضي التأكيد إبطالاً لما ادعوه، ولذا قدم المسند إليه "وهم قد خرجوا به".

٣- فيما القياس في مثله ألا يكون، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل ٢٠]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الفرقان ٣]، وذلك أن عبادتهم لتلك الآلهة تقتضي أن تكون خالقة لا مخلوقة، لأن من شأن المعبود أن يكون خالقًا، وهم

(١) دلائل الإعجاز ١٥٩.

(٢) انظر مفتاح العلوم ٩٣.

وإن كانوا لا ينكرون أنها مخلوقة، إلا أنهم نزلوا منزلة من ينكر ذلك، فأكد لهم الكلام، تنبيها إلى خطئهم وضلالهم.

٤- أن يكون الخبر غريبًا لوقوعه على خلاف العادة، كقولك: البقرة تكلمت.. الجبان يصارع الأسود.. ونحو ذلك.. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل ٢٠]، فهذا خبر غريب جرى على خلاف ما تقضي به العادة فوجب التقديم دفعًا لغرابته.

٥- في مقام الوعد والضمان، كقولك للفقير: أنا أعطيك وأكفيك.. أنا أقوم بهذا الأمر، وذلك لأن من شأن من تعده وتضمن له أن يعترضه شك في تمام الوعد وفي الوفاء به فهو أحوج إلى التوكيد.

٦- يكثر في مقام المدح والفخر والرثاء، كقولك: هو يعطي الجزيل.. وأنت تقري الضيف.. ومنه قول طرفة:

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى ... لاَ تَرَى الآدِبَ مِنَّا يَنْتَقِرْ[1]

وقول الأخنس بن شهاب التغلبي:

هُمْ يَضْرِبُونَ الْكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ ... عَلى وَجْهِهِ مِنَ الدِّمَاءِ سَبَائِبُ[2]

وقول الحماسي المعذل بن عبد الله الليثي:

هُمْ يُفْرِشُون اللِّبْدَ كُلَّ طِمِرَّةٍ ... وَأَجْرَدَ سَبَّاحٍ يَبُذُّ الْمُغَالِيا[3]

وقول عمرة الخثعمية في رثاء ابنيها:

هُمَا يَلْبِسَانِ الْمَجْدَ أَحْسَنَ لِبْسَةٍ ... شَحِيحَانِ مَا اسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلاهُمَا

وإنما احتاج المدح والفخر إلى التوكيد، لأن من شأن المادح والمفتخر أن

(١) المشتاة: زمن الشتاء أو مكانه. والجفلى: الدعوة العامة لا يخص بها أحد. والآدب: الداعي إلى الطعام.. وينتقر: يدعو النقرى وهي الدعوة الخاصة.

(٢) الكبش: رئيس القوم، والبيض: مفردها بيضة وهي الخوذة. والسبائب: الطرائق.

(٣) اللبد: المتلبد من الصوف أو الشعر. والطمرة: الفرس الكريمة والذكر طمر. والأجرد: القصير الشعر. والسباح: الذي يشبه سيره السباحة في اللين واليسر، ويبذ: يغلب. المغاليا: الذي يسبق ويغلب في عدوه وجريه.

يلقيا الخبر مؤكدا كما امتلأت به أنفسهما وأن يمنعا السامعين من الشك فيه والارتياب[١].

واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان ٥]، تجد التقديم في قوله: "فهي تملى" قد أكد الخبر وأنبأ بما في أنفس الكفرة ورغبتهم في أن يلقى الخبر مؤكدًا وأن تقرعْ به الأسماع قويًا فيثبت فيها ويقر، ولا يكون هنالك مجال للشك فيما يخبرون والارتياب فيما يصفون، بل تمتلئ به أنفس السامعين ويرسخ بها كما امتلأت به أنفس الكفرة..

وخذ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف ١٩٦]، وتأمل قوله: "وهو يتولى الصالحين"، وكيف أفاد تقديم المسند إليه قوة إيمان المصطفى ﷺ وكمال ثقته بربه، حيث جاء الخبر قويًا مؤكدًا، قد امتلأت به نفسه - عليه الصلاة والسلام - فلا شك - ولا ارتياب في نصر الله تعالى وتوليه له.

وانظر إلى قوله عز وجل: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل ١٧]، وقف على معنى كلمة "يوزعون"، إذ معناها: يحبس أولهم على آخرهم بإيقاف أولهم حتى يلحق به آخرهم، هذا غبر غريب جرى على خلاف ما تقضي به العادة، إنس وجن وطير على هيئة من الإيزاع والتداخل قد ضج بهم المكان واضطرب، فغرابة هذا الخبر تقتضي تأكيده حتى تأنس به النفوس ويتقرر لديها، ولو قيل: "يوزعون" هكذا مرسلاً بلا تأكيد، لما كان التركيب ملائمًا لحال النفس المتلقية[٢].

ولذا رأينا عبد القاهر يقول في مثل هذه الآيات الكريمة: "ومما هو بهذه المنزلة في أنك تجد المعنى لا يستقيم إلا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَحُشِرَ

(١) انظر دلائل الإعجاز ١٦٠، ١٦١

(٢) انظر خصائص التراكيب ١٧٤، ١٧٥.

لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾، فإنه لا يخفى على من له ذوق أنه لو جيء في ذلك بالفعل غير مبني على الاسم فقيل: إن ولي الله الذي نزل الكتاب ويتولى الصالحين، واكتتبها فتملى عليه، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فيوزعون: لوجد اللفظ قد نبأ عن المعنى، والمعنى قد زال عن صورته والحال التي ينبغي أن يكون عليها"[(١)].

ونبو اللفظ عن المعنى عندئذ مرجعه إلى خلو التركيب من التوكيد الذي اقتضاه المقام على نحو ما بينت لك.

تقديم النكرة

إذا كان المسند إليه نكرة وقدمت على الخبر الفعلي فإن تقديمها لا يختلف في الدلالة عن تقديم المعرفة سوى أن النكرة قد يراد بها الجنس وقد يراد بها العدد، فأنت تنظر في إفادة تقديم النكرة للاختصاص أو للتأكيد إلى أحد هذين الأمرين: الجنس أو العدد، فتعتبر التخصيص أو التأكيد لأحدهما، حسبما يقتضيه المقام ويحدده السياق وقرائن الأحوال فإذا قلت: ما رجل جاءني، فالمراد نفي المجيء عن الرجل وإثباته لغيره، وهذا الغير إما: امرأة وإما رجلان أو أكثر حسبما يقتضيه المقام. فإن كان المخاطب يعتقد أن الذي جاء رجل وقد أتتك امرأة، فالمراد عندئذ: ما رجل جاءني بل امرأة وإن كان يعتقد أن من جاءك رجل واحد وقد جاءك أكثر من رجل، كان المراد ما رجل جاءني بل رجلان أو ثلاثة أو أربعة حسب العدد الذي قد حل بك ونزل عندك..

وإذا قلت: رجل جاء، فالمراد إما التأكيد وتقوية الحكم وإما التخصيص حسبما يقتضي المقام، فإن كان مخاطبك ينكر المجيء ويجحده أو يشك فيه أو يستبعده.. فالمقام عندئذ يستدعي التأكيد ويتطلب التقوية، وعندما تقول له: رجل جاء وتقدم المسند إليه النكرة، فأنت تؤكد له الخبر ليقر في ذهنه ويثبت.

أما إن كان يعتقد أن الذي جاء امرأة، أو أكثر من رجل، فالمراد بالتقديم عندئذ تخصيص الجنس في الأول وتخصيص العدد في الثاني، أي: رجل جاء لا

---

(١) دلائل الإعجاز: ١٦٣.

امرأة.. ورجل جاء لا رجلان، ومنه المثل: "شر أهر ذاناب"..

فإذا لم ترد لا تأكيدًا ولا تخصيصًا قلت: جاء رجل بدون تقديم.. وكذا القول في نحو قولك "رجل ما جاءني"، على حسب ما مر بك في تقديم المعرفة.

تقديم مثل وغير

مثل وغير يلزم تقديمهما إذا أريد بهما الكناية عما أضيفتا إليه بدون تعريض، كما في قولنا: مثلك يرعى الود.. مثلك يعطي الجزيل.. غيرك لا يجود، ونُرِيدُ بذلك الكناية عن الممدوح دون أن نعرض بشخص آخر، فالمراد: أنت ترعى الود، وأنت تعطي الجزيل، وأنت تجود، استعملت "مثل وغير" مكني بهما عما أضيفتا إليه دون تعريض بغيره أو إيماء إلى أن هذا الغير لا يفعل مثلما يفعل المتحدث عنه..

وتقدم "مثل وغير" إنما يكون لازمًا عندئذ، لأن الكناية أبلغ من التصريح وآكد فهي كدعوى الشيء بدليل وبينة والدعوى المشفوعة بالبينة، والمصحوبة بالدليل أقوى وآكد من الدعوى المرسلة، الخالية من الدليل، العارية من البينة.. فلما كان الغرض هو التأكيد والتقوية لزم أن تقدم "مثل وغير" لأن تقديمهما مما يحقق التأكيد، ويفيد التقوية.. ولزوم التقديم إنما هو لزوم بلاغي مرجعه إلى استعمال العرب وإلى كون التقديم أعون على تحقيق الغرض المقصود.. ولذا ذكر عبد القاهر أن هذا التقديم كاللازم حيث يقول: "ومما يرى تقديم الاسم فيه كاللازم "مثل وغير"، في نحو قوله:

مِثْلُكَ يَثْنِي الْحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ ... وَيَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ[1]

وقول الناس: مثلك رعى الحق والحرمة، وكقول الذي قال له الحجاج لأحملنك على الأدهم، يريد القيد، فقال على سبيل المغالطة. "مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب"[2].

فقد كنى المتنبي في البيت المذكور عن الممدوح وهو عضد الدولة وقد كان

---

(١) يثني الحزن: يكفه ويمنعه، وصوبه: انسكابه، وغرب الدمع: انهماله من العين... والبيت للمتنبي.

(٢) دلائل الإعجاز: ١٦٤.

يعزيه في فقد عمته، كنى عنه بقوله: "مثلك"، ولم يرد "بمثل" شخصًا آخر مماثلاً له، وقد صرح بهذا في نفس القصيدة إذ قال:

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ ... سِوَاكَ يَا فَرْدًا بِلاَ مُشْبِهِ

وكان تقديم لفظ المثل لازمًا لزومًا بلاغيا أو كما قال عبد القاهر "كاللازم" ليفيد مع الكناية المبالغة في التوكيد وتقوية معنى المدح.. وكذا قول الناس "مثلك رعى الحق والحرمة، وقول الخارجي للحجاج: "مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب" المراد بلفظ المثل فيهما: الكناية عما أضيفتا إليه، ولذا لما قال الحجاج للخارجي: "إنه الحديد" قال: لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا، ومراد عبد القاهر بقوله: "على سبيل المغالطة" أسلوب الحكيم، وقد كان يسميه بالمغالطة وهي مغالطة أدبية لطيفة كما سنرى عند دراسة هذا الأسلوب في خروج الكلام عن مقتضى الظاهر .

ومما جاء فيه لفظ: "غير" مقدمًا على سبيل الكناية عما أضيفت إليه، قول أبي تمام:

وَغَيْرِي يَأْكُلُ المعروفَ سُحْتًا ... وتَشْحَبُ عندَهُ بِيضُ ألأَيَادِي[1]

لم يرد أبو تمام شخصًا آخر مغايرًا له هو الذي يصنع ذلك بل أراد الكناية عن نفسه، وأنه لا يفعل ما ذكر، وكان قد وشى به واش إلى وزير المعتصم فزعم أن أبا تمام قد هجاه، وكانت للوزير أياد بيض على أبي تمام فقال مدافعًا ورادًّا لتلك الوشاية: "كيف أهجوك وقد غمرني معروفك؟ لو فعلت لكنت آكلاً له حرامًا وأنا لا آكل المعروف حرامًا"، فقد أراد بقوله: "غيري يأكل" الكناية عن نفسه – كما قلت – ولم يرد تعريضًا بغيره..

ومثله قول المتنبي:

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ ... إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

---

(١) السحت: الحرام، وشحب لونه تغير من هزال أو مرض، وبيض الأيادي: النعم، من إضافة الصفة إلى الموصوف.

أراد: أنه لا ينخدع ولم يقصد التعريض بشخص آخر يغر ويخدع فقد كنى عن نفسه بقوله: "غيري"، كنى عن نفسه بضد هذا الحكم، وهو أنه لا يغر ولا يخدع.

فإن أريد بمثل شخص آخر مماثل أو مشابه لما أضيفت إليه.. وأريد بغير شخص مغاير له، فعندئذ لا يلزم تقديمهما، لأن الكلام فيهما يكون على سبيل الحقيقة لا الكناية..

من ذلك قول الصابي:

تـــشابَه دَمْعِـــي إذ جـــرَى ومُـــدَامَتِي   فمِـــن مِثْـــلِ مـــا في الكـــأسِ عَيْنِـــي تَـــسْكُبُ

وقول ابن شرف القيرواني:

غـــيرِي جنَـــى وأنـــا الْـــمُعَاقَبُ فِـــيكُمُ   فكـــأنَّنِي ســـبَّابَةُ الْـــمُتَنَدِّمِ

فلم يرد بمثل وغير في البيتين الكناية، بل أريد بهما الحقيقة، ولذا فإن تقديمهما غير لازم في حكم البلاغة، إذ ليس هنالك ما يقتضي ويستلزم تقديمهما.

تقديم ألفاظ العموم على النفي

ألفاظ العموم مثل "كل" و"جميع" إذا تقدمت على أدوات النفي في التعبيرات أفادت عموم السلب بمعنى شموله لكل أفراد المسند إليه..

من ذلك قول أبي النجم:

قـــدْ أصـــبحتْ أُمُّ الْـــخِيارِ تَـــدَّعِي   عـــلَيَّ ذنبًـــا كلُّـــه لم أَصْـــنَعِ

فقوله: "كله لم أصنع" أفاد عموم السلب أي أنه لم يفعل شيئًا مما تدعيه أم الخيار..

وقول الحماسي إبراهيم بن كنيف النبهاني:

فكيـــف وَكُـــلٌّ لَـــيْسَ يَعْـــدُو حِمَامَـــهُ   وَلاَ لِامْـــرِئٍ عَـــمَّا قَـــضَى اللَّـــهُ مَزْحَـــلُ[1]

فالمعنى على نفي أن يعدو أحد من الناس حمامه.

---

(١) الحمام: قضاء الموت وقدره والمراد: الأجل المحتوم. ومزحل بفتح الميم والحاء: زوال أو مفر.

ومثله قول دعبل:

فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي بِأَيِّ سِهَامِهَا ... رَمَتْنِي وَكُلٌّ عِنْدَنَا لَيْسَ بِالْمُكْدِي

أَبِالْجِيدِ أَمْ مَجْرَى الْوِشَاحِ وَإِنَّنِي ... لأُتْهِمُ عَيْنَيْهَا مَعَ الْفَاحِمِ الْجَعْدِ(١)

والمعنى: على نفي أن يكون في سهامها مكد على وجه من الوجوه..

ومن الواضح في إفادة عموم السلب قول النبي ﷺ عندما سأله ذو اليدين: أَقُصِرَتِ الصَّلاةُ أَمْ نَسِيتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: "كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ" أي: لم يكن واحد منهما، لا قصر ولا نسيان، ولذا قال ذو اليدين وقد سمع إجابة المصطفى ﷺ: "قد كان بعض ذلك يا رسول الله".. فأتم ﷺ ما بقي من صلاته ثم سجد سجدتين وهو جالس بعد التسليم(٢).

وتقول: جميع القوم لم يأتوا، وعامة الطلاب لم يحضروا، تريد بهذا أنه لم يأت أحد من القوم ولم يحضر أحد من الطلاب.

وإنما كان تقديم لفظ العموم على النفي مفيدًا لعموم السلب، لأنك إذا بدأت به كنت قد بنيت النفي عليه، وسلطت الكلية على النفي وأعملتها فيه، وإعمال معنى الكلية في النفي يقتضي ألا يشذ شيء عن النفي.

أما إذا تقدم النفي على ألفاظ العموم، فإنه يفيد سلبها، أي: سلب العموم والشمول بمعنى ثبوت البعض ونفي البعض الآخر..

من ذلك قول المتنبي:

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ ... تَأْتِي الرِّيَاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِي السُّفُنُ(٣)

يريد أن المرء قد يدرك بعض ما يتمناه ولكنه لا يدركه جميعه، فتقدم "ما" على "كل" أفاد سلب العموم.

ومثله قول أبي العتاهية:

ما كُلُّ رأْيِ الفتى يدعُو إلى رَشَدٍ ... إذا بدَا لكَ رَأْيٌ مُشْكِلٌ فَقِفِ

---

(١) المكدي: الذي يحفر ولا يجد ماء، يريد أن سهامها لا تخطئ المرمى، والوشاح: ما يضرب للمرأة من العاتق إلى الكشح. والفاحم: الشعر الأسود. وأتهم: بسكون التاء وكسر الهاء من أتهمه إذا نسب إليه ما يتهم به.

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد برقم [٩٩/ ٥٧٣].

(٣) السفن: بضم السين والفاء جمع سفينة.

يريد أن بعض رأى الفتى قد يدعو إلى رشد وبعضه قد لا يدعو..

وقول البحتري:

وَأَعْلَمُ مَا كُلُّ الرِّجَالِ مُشَيِّعٌ وَمَا كُلُّ أَسْيَافِ الرِّجَالِ حُسَامُ[١]

يريد: أن هناك رجالا فيهم أصالة الشجاعة والإقدام وهنالك من ليس كذلك، وأن بعض الأسياف تقطع وبعضها ليس كذلك.. ولو قيل: كل ما يتمنى المرء لا يدركه.. كل رأى الفتى لا يدعو إلى رشد..كل الرجال ليس مشيعًا وكل الأسياف ليس حساما.. لتغير المعنى وكان المراد عموم السلب، أي أن المرء لا يدرك شيئًا مما يتمناه، ورأى الفتى لا يدعو إلى رشد أبدًا، والشجاعة منفية عن كل رجل، والجودة منفية عن كل سيف.

وتقول: ما جاء كل القوم.. ما حضر الطلاب كلهم.. لم آخذ كل حقي.. تريد بهذا: أن بعض القوم قد جاء، وبعض الطلاب قد حضر، وبعض حقك قد أخذته، والبعض الآخر لم تأخذه.

وإنما كان تقديم النفي على ألفاظ العموم مفيدًا سلب العموم أي: نفي البعض وإثبات البعض الآخر، لأن أداة النفي إذا تقدمت على كلمة "كل" وشبهها مما يفيد العموم توجه النفي إلى الشمول خاصة دون أصل الفعل، وأفاد الكلام ثبوته لبعض ونفيه عن بعض، ووجه ذلك، أن الكلية نوع من التقييد، والنفي إذا اتجه إلى كلام مقيد انصب على القيد خاصة.

هذا وقد استدرك سعد الدين علي عبد القاهر رافضًا القطع بهذا الحكم الذي قطع به عبد القاهر في قوله: "إنا إذا تأملنا وجدنا إعمال الفعل في "كل" والفعل منفي لا يصلح أن يكون إلا حيث يراد أن بعضًا كان وبعضًا لم يكن"[٢] استدرك عليه العلامة سعد الدين قائلاً: "وفيه نظر لأنا نجده حيث لا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان ١٨].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة ٢٧٦]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم ١٠]، فالحق أن هذا الحكم أكثري لا كلي"[٣].

---

(١) المشيع: الشجاع الصعب المتهور الذي كأنه يشيع قلبه.

(٢) دلائل الإعجاز ١٨٢.

(٣) المطول ١٢٥.

فسعد الدين قد جعل القاعدة غالبة لا لازمة، لأن الآيات الكريمة التي ذكرها – ومثلها كثير في النظم الكريم – تقدم فيها النفي على "كل" وهذا يعني – لو سلمت القاعدة – أن الله جل وعلا، لا يكره كل مختال وكل كفار وإنما يكره البعض دون البعض، والنبي عليه الصلاة والسلام، ليس منهيًا عن طاعة كل حلاف، بل منهي عن طاعة البعض دون البعض الآخر، وهو ما لا يكون(١)

ولا وجه لهذا الاستدراك لأن حديث عبد القاهر عن "كل" التي تقيد بها المعرفة فتؤكد العموم الذي تفيده المعرفة، وذلك نحو قولهم: جاء كل القوم وحضر كل الطلاب، فلفظ "القوم" وكذا لفظ "الطلاب" معرفة، أفادت العموم مع احتمال التجوز.. جاءت "كل" فأكدت العموم ورفعت احتمال التجوز.. فإذا جاء النفي فقيل.. ما جاء كل القوم، ما حضر كل الطلاب، انتفى القيد، وصار المعنى على إثبات المجيء والحضور لبعض ونفيهما عن بعض آخر وهذا هو سلب العموم.

أما كل في الآيات التي استدرك بها سعد الدين فهي كل التأسيسية التي دخلت على النكرة فأسست العموم، فعندما يدخل النفي عليها ينتفي الحكم الذي أسسته ويكون هذا من قبيل عموم السلب.

وخلاصته القول أن الجهة منفكة فعبد القاهر حديثه عن "كل" التي تقيد بها المعرفة وسعد الدين يستدرك بـ"كل" التي تؤسس العموم بدخولها على النكرة فلا وجه لاستدراكه حيث انفكاك الجهة..

وارجع إلى تفريق الخطيب القزويني بين كل التأسيسية وكل التقييدية حيث يقول: "كل" تارة تقع تأسيسًا، وذلك إذا أفادت الشمول من أصله حتى لولا مكانها لما عقل، وتارة تقع تأكيدًا، وذلك إذا لم تفده من أصله بل تمنع أن يكون اللفظ المقتضى له مستعملاً في غيره، أما الأول فهو أن تكون مضافة إلى نكرة كقوله تعالى: ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون ٥٣] وقوله: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء ١٢] وقوله ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء ٩٦] وأما الثاني فما عدا ذلك كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [ص: ٧٣](٢).

---

(١) انظر خصائص التراكيب ١٨٥، ١٨٦.

(٢) الإيضاح جـ١ ص١١٢، ١١٣.

الفصل الثالث
أحوال المسند
حذفه

يحذف المسند عند وجود القرينة الدالة على حذفه ليفيد أغراضًا بلاغية متعددة.. هذه الأغراض لا يمكن الإحاطة بها – كما ذكرت لك عند الحديث عن حذف المسند إليه – وذلك لأنها دقائق ولطائف، تكون وراء العبارات والصيغ ولا يدركها إلا المتأمل الواعي والذواقة الخبير بالنظم وأحواله، ونحن عندما نتحدث عن أغراض الحذف إنما نذكر بعضًا من تلك الدقائق، وأنت عندما تتأمل النظم الجيد والأساليب الرفيعة لا تقف عند ذاك القدر الذي نذكره، بل عليك أن تطيل النظر والبحث والتنقيب حتى تصل إلى دقائق أخرى كثيرة قد لا تحيط بها في تلك الدراسة العاجلة.

ووراء كل حذف – سواء أكان المحذوف مسندًا إليه أم مسندًا أم أحد متعلقات الفعل، ثلاث مزايا بلاغية وهي: الإيجاز – الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر – إثارة حس المخاطب وإيقاظ مشاعره كي يقف على المطوي من العبارة ويحيط به.. وقد بينت لك هذه المزايا الثلاث عند حديثنا عن حذف المسند إليه فارجع إليها هناك.

وبالإضافة إلى تلك المزايا التي تكمن وراء كل حذف، نجد لحذف المسند أغراضًا بلاغية أخرى تتجلى من خلال النظر في السياق.. أهمها ما يلي:

١ – ضيق المقام .. كما في قول ضابئ بن الحارث البرجمي، وكان عثمان ﷺ قد حبسه في المدينة لهجائه بني نهشل ورميه أمهم، فضاق ضابئ بسجنه وقال معبرًا عن آلامه، وواصفا ومصورًا أحزانه.

وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بالمدينةِ رَحْلُهُ فإنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ[1]

أراد: من أمسى بالمدينة مستقرًا، له منزله الذي يأوي إليه، وأهله وأصحابه

---

(١) رحله: منزله ومأواه. وقيار: اسم فرسه أو بعيره.

الذين يأنس بهم ويسكن إليهم فقد طابت نفسه وحسن حاله ورضي بعيشته، أما أنا وقيار فإنا بها لغريبان، وأنى للغريب أن يسعد ويهنأ، فالشاعر حزين مكروب، قد ضاق صدره لغربته وحبسه، وتتجسد آلامه كلما تذكر الأهل والأصحاب والمنزل الهنيء، وكلما مر بخياله الانطلاق والحرية.

ولذا تراه قد طوى المسند إلي "قيار" في الشطر الثاني وتقديره: فإني لغريب بها وقيار غريب بها أيضًا فطيه ينبئ بالحال الكئيبة التي يعيشها الشاعر، كما تراه قد طوى جواب الشرط وتقديره: ومن يك أمسى بالمدينة رحله فهو مسرور طيب النفس مستريح البال، طواه لنفس السبب، وكأن الكلمات لا تسعفه كي يذكر جواب الشرط وخبر قيار، ثم كيف يذكر الجواب وهو من جنس السعادة والهناء؟ إن لسانه ليتوقف عاجزًا عن النطق به، لأن في الإفصاح عنه زيادة لآلامه وأحزانه.

وتأمل كيف قدم "قيارًا" فقال: "فإني وقيار" ولم يقل: "فإني لغريب بها وقيار"، وذلك للإشارة إلى أن قيارًا ولو لم يكن من جنس العقلاء، قد بلغه هذا الكرب واشتدت عليه تلك الغربة حتى صار مساويًا للعقلاء في التشكي منها ومقاساة شدائدها، فتقديم قيار وإقحامه بين جزئي الجملة، ينبئ بالتسوية بينهما في التحسر ومقاساة الألم، وينبئ بالتالي بشدة ما يلاقيه الشاعر، فلم تعد الآلام مقصورة عليه بل تجاوزته إلى جواده فصار الجواد يشعر بما يشعر به "ضابئ" صاحبه من ألم وضيق..

ومن ذلك قول عمرو بن امرئ القيس الخزرجي يخاطب مالك بن العجلان حين رد قضاءه في واقعة للأوس والخزرج:

يَا مَالُ وَالسَّيِّدُ الْمُعَمَّمُ قَدْ ... يُبْطِرُهُ بَعْضُ الرَّأْيِ وَالسَّرَفُ
نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا ... عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ(١)

يريد: نحن بما عندنا من الرأي راضون، لأن رأينا هو الصواب والحق، وأنت

(١) مال: منادى مرخم والأصل: يا مالك، وترخيم المنادى مما يبرز حال المتكلم وينبئ بآلام الشاعر وأحزانه. والمعمم: الذي عممه القوم وارتضوا حكمه ورأيه. ويبطره: يقطعه، والمعنى يخونه التوفيق فيحكم بغير الصواب ويقضي بغير الحق..

بما عندك من رأي راضٍ وقد قضيت به وحكمت على الرغم من منافاته للصواب ومجانبته للحق، فالرأي مختلف والحق بجانب الشاعر والصواب في رأيه، وعلى الرغم من ذلك لم يأخذ به مالك ولم يقضِ لعمرو وهذا هو ما يؤلم الشاعر ويحزنه.

ومما يضاعف آلامه ويزيد أحزانه، أن القاضي ذو رأي وصاحب عقل راجح، إنه السيد المعمم، قد عممه الجميع وارتضوا رأيه، ولكن لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة، فالسيد المعمم ذو العقل الراجح قد يبطره بعض الرأي ويخونه التوفيق، فيقضي بغير الصواب، وهذا ما قد حدث، وهو الذي يؤلم عمرا ويحزنه، ولذا تراه قد طوى المسند من الشطر الأول في البيت الثاني، فلم يقل: نحن بما عندنا راضون، بل حذف الرضا من جانبهم لدلالة رضا المخاطب برأيه، في الشطر الثاني عليه..

هذا الحذف ينبئ بآلام الشاعر وضيقه، وكأنه يأبى أن يصرح بنسبة الرضا إليهم في اللفظ، فهم مقتنعون بصواب رأيهم، وغير راضين بما حكم به مالك ذو الرأي والعقل، فحذف المسند يبرز لك حالتهم تلك.

وانظر إلى قول المتنبي:

قَالَتْ وقَدْ رَأَتْ اصْفِرَارِي: مَنْ بِهِ؟ وَتَنَهَّدَتْ فَأَجَبْتُهَا: الْمُتَنَهِّدُ[(١)]

يريد: لما رأت حالي وما وصلت إليه بسبب حبها تساءلت متنهدة: من فعل بك هذا؟ ومن وراء حالتك هذه؟ فأجبتها: المتنهد أي: فعل بي ما ترين أنت، فأنت التي أهواها وأعشقها، فالشاعر قد حذف المسند وطواه، فلم يقل صنع ما ترين المتنهد، بل قال: المتنهد، والمتنهد هي السائلة، وكأن ألم العشق قد وَصَّله إلى حالة لم يستطع معها أن يكمل الجواب، وكأن الشاعر أيضًا، أراد بهذا الحذف أن يبادر بذكر المتنهد، وأن يفصح لها عن حبه، فهي التي وصَّلته إلى تلك الحال، وقد وجدها فرصة عندما سألته: من به؟ كي يسارع بالإفصاح عن حبه، فحذف المسند يحقق تلك المسارعة، ولو ذكره فقال: فعل هذا بي المتنهد، لكان هنالك تباطؤ في الإعلان عن حبه.

---

(١) اصفراري: يريد ما يصيب المحب من ضنى وشحوب وصفرة ناجمة عن العشق والغرام.

ولا يخفى عليك ما وراء الالتفات في البيت من دلال المحب وتمنعه، فهي تخاطبه ولم تقل له: من بك؟ بل التفتت فقالت: من به؟ دلالاً وتمنعًا، ويصح أن يقدر المسند المحذوف اسمًا فيكون المعنى: من المطالب به فأجبتها المتنهد هو المطالب به وعندئذ يكون الضمير في "به" عائدًا إلى الاصفرار فلا التفات.

٢- قد يفيد حذف المسند تعظيمًا للمسند إليه على نحو ما ترى في قوله عز وجل:

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [التوبة ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة ٦٢]، فالأصل: إلا أن أغناهم الله من فضله وأغناهم رسوله.. والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، فحذف المسند في الموضعين لدلالة المذكور عليه، وحذفه يفيد تعظيم رسول الله -ﷺ- "المسند إليه"، إذ جعل إرضاءه من إرضاء الله وإغناءه من إغنائه تعالى، وهذا تعظيم ما بعده تعظيم.

وتأمل تقديم المسند إليه "رسوله"، وإيلاءه لفظ الجلالة، ففيه تنبيه ولفت إلى تعظيم رسول الله -ﷺ- ودلالة على أنه من الله بمكان.. ومن البلاغيين من يرى أنه لا حذف في الآيتين مجوزًا أن تكون جملة واحدة، وتوحيد الضمير في: "من فضله... ويرضوه" ينبئ بأنه لا تفاوت بين إغناء الله وإغناء رسوله، ولا بين إرضاء الله وإرضاء رسوله فهما في حكم مُغْنٍ واحد ومُرْضٍ واحد، كما تقول: إحسان عمرو وكرمه وغمرني، فتفرد الضمير جاعلاً الإحسان والكرم بمعنى واحد، ولا يخفى عليك ما في هذا أيضًا من "تعظيم" لرسول الله ﷺ ورفعة شأنه(١).

وتأمل قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [الرعد ٣٣]، تجد أنه قد حذف المسند وتقديره: أفمن هو قائم.. كمن ليس كذلك، والقائم على كل نفس هو الله عز وجل فهو متولي أمر كل نفس وحافظ شأنها، ومن ليس كذلك هو المعبود بالباطل من دون الله عز وجل، والحذف هنا يشعر بتعظيم وتنزيه الله عز

(١) انظر الإيضاح ١/ ١٧٣.

وجل، وتحقير وازدراء تلك المعبودات وينبئ بأنه لا وجه للمقارنة بين الخالق القادر القائم على كل نفس بما كسبت وبين تلك المعبودات.. فينبغي عدم الجمع بينهما ولو في اللفظ.

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر ٢٢]، والتقدير: كمن أقسى قلبه وجعل صدره ضيقًا حرجًا.. ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الزمر ٢٤]، أي: كمن ينعم في الجنة.. ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر ٨]، أي: كمن لم يزين له أو كمن هداه الله؟ فالحذف في الآيات يشعر بأنه لا وجه للمقارنة بين الاثنين، فهذا قد شرح الله صدره للإسلام وذاك قد أقسى قلبه وجعل صدره ضيقًا حرجًا، وهذا يتقي بوجهه سوء العذاب وذاك ينعم في الجنة.. هذا قد زين له عمله السيئ فرآه حسنا وذاك قد هداه الله للخير والعمل الصالح..

فحذف المسند كما ترى ينبئ بالتباعد بين الفريقين ويوحي بالمسافات المتناهية بينهما ويجعل الذهن يتشبع ويمتلئ بصورة المسند إليه فتقر في القلب وترسخ في العقل.. ولا يخفى عليك أن الحذف في الآيتين الأخيرتين قد أفاد تعظيم المسند المحذوف ورفعة شأنه وتحقير المسند إليه المذكور وانحطاطه، وذلك عكس ما أبصرت في الآيتين السابقتين، إذ أفاد الحذف فيهما تعظيم المسند إليه المذكور وعلو منـزلته، وتحقير المسند المحذوف وانحطاطه وازدراء النفوس له.

٣- وقد يحذف المسند اتباعًا للاستعمال الوارد عن العرب، كقولك خرجت فإذا زيد.. لولا زيد لهلك الناس.. لعمرك لأفعلن.. كل رجل وضيعته، والتقدير: فإذا زيد حاضر.. لولا زيد موجود.. لعمرك يميني.. كل رجل وضيعته مقترنان.. فقد ذكر النحاة أن الأساليب العربية جرت على إسقاط المسند في هذه المواضع وهي: إذا الفجائية ولولا والقسم الصريح وواو المصاحبة وكذا مع الحال الممتنع كونها خبرًا نحو: ضربي زيدًا قائمًا أي: ضربي زيدًا حاصل إذا كان قائمًا.

وذكر سيبويه أن الحروف الخمسة التي تعمل فيما بعدها عمل الأفعال وهي: إن ولكن وليت ولعل وكأن، يحسن السكوت عليها مع إضمار خبرها..

من ذلك قول النبي ﷺ للمهاجرين وقد شكروا عنده الأنصار: "أليس قد عرفتم أن ذلك لهم؟" قالوا بلى، قال عليه الصلاة والسلام: "فإن ذلك" يريد: فإن ذلك مكافأة لهم..

وقول عمر بن عبد العزيز لرجل من قريش جاء يكلمه في حاجة له فجعل يمت بقرابته فقال له عمر: "فإن ذلك" أي: فإن ذلك لك، ثم ذكر الرجل حاجته فقال عمر: "لعل ذلك" أي: لعل ذلك ييسر لك ويقضي..

وتقول لمن قال لك: هل ينصرك أحد إن الناس إلب عليك؟ أي: قد اجتمعوا ضدك: إن زيدًا وإن عمرًا وإن ولدًا وإن إبلاً وإن غنمًا وإن مالاً..

وعليه قول الأعشى:

إِنَّ مَحَلاً وإِنَّ مُرْتَحَلاً ... وَإِنَّ فِي السَّفْرِ إذ مَضَوْا مَهَلاَ

يريد: إن لنا محلاً في الدنيا وإن لنا مرتحلاً عنها إلى الآخرة، ومحلاً ومرتحلاً مصدران ميميان بمعنى الحلول والارتحال، والسفر: اسم جمع بمعنى المسافرين، والمراد بهم في البيت: الموتى، والمهل: مصدر بمعنى الإمهال وطول الغيبة، والمعنى: إن في غيبة الموتى طولاً وبعدًا، لأنهم مضوا مضيًا لا رجوع معه إلى الدنيا.

وقول العجاج:

يَا لَيْتَ أَيَّامَ الصِّبَا رَوَاجِعَا

يريد: ليت أيام الصبا لنا رواجعًا أو أقبلت رواجعًا.. وتقول لمن قال لك: هل أحد يشبه عمر في عدله؟: كأن فلانًا.. ولمن قال لك الخسارة فادحة والخطب جلل والناس جميعًا ضدك: "لكن مالا ولكن ولدًا" تريد: كأن فلانًا يشبهه، لكن لي مالاً ولي ولدًا والحذف في هذا الموضع أفاد الإيجاز ونقاء الجمل وترويقها أو كما قال البلاغيون: "الاحتراز عن العبث" فالذي حذف قد وجدت القرينة الدالة عليه والمقام مقام إيجاز ولمح، وذكر ما قد دل الدليل عليه في مثل هذا المقام يعد عبثًا..

تأمل قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "فإن ذلك" وقول عمر "لعل ذلك". فستدرك قوة لمح المتكلم وحسن اقتداره على تصفية العبارة وترويقها من زوائد لا يستدعيها المقام..

وتأمل قولك: ضربي زيدًا قائمًا، ووازن بينه وبين قولك: ضربي زيدًا حاصل إذا كان قائمًا، فستجد أن المحذوف أكثر من المذكور وعلى الرغم من ذلك فقد ازداد المثال جمالاً بسبب الحذف وبدا موجزًا أنيقًا..

وأراك تشعر بها وراء قول القائل: إن مالا، وإن إبلا، ولكن ولدًا، من اعتداد واعتزاز وقوة لا تكون لو قدر المحذوف فقيل: إن لنا مالا، ولكن لنا ولدًا، لأن استرخاء العبارة عندئذ يوحي بفتور الشعور وضعف المعنى..

وتأمل بيت الأعشى:

إِنَّ مَحَلاًّ وِإنَّ مُرْتَحَلاَ ... وَإِنَّ فِي السَّفْرِ إذ مَضَوْا مَهَلاَ

تجد أن الشاعر يصف السرعة الخاطفة في الحلول والارتحال وكأن هذه السرعة التي يحسها بزوال الدنيا قد انعكست على عبارته فَطُوِيَ فيها كثير من الكلمات، لأن سياق المعنى في البيت طي وإضمار واختصار، حلول يخطفه الارتحال، وارتحال دائم وسَفْرٌ لا أوبة لهم[١].

٤- وقد يفيد حذف المسند التأكيد والاختصاص كما في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ [الإسراء ١٠٠]، فالتقدير: لو تملكون تملكون، فأضمر "تملك" الأول إضمارًا على شريطة التفسير، ولما أضمر الفعل انفصل الضمير "أنتم" فأنتم فاعل الفعل المضمر و"تملكون" تفسيره، ودليل الحذف "لو"، لأن "لو" لا تدخل إلا على الأفعال..

قال الزمخشري: "هذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب، فأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن "أنتم تملكون" فيه دلالة على الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ..

ونحوه قول حاتم:

.. لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي[٢]..

---

(١) انظر خصائص التراكيب ص: ٢٢.

(٢) هو لحاتم الطائي وقد قاله عندما لطمته أمة قد جاءته ببعير لها ليفصده فنحره ويعني بذات السوار =

وقول المتلمس:

وَلَوْ غَيْرُ إِخْوَانِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي جَعَلْتُ لَهُمْ فَوْقَ الْعَرَانِينِ مِيسَمَا(١)

وذلك لأن الفعل الأول لما أسقط لأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر.."(٢).

ولذا أفاد حذف المسند في الشواهد المذكورة الاختصاص والتوكيد وقد اعترض على الزمخشري بأن الاختصاص إنما يكون في الجملة الاسمية التي يقدم فيها المسند إليه على الخبر الفعلي مثل: محمد يفعل كذا، وقوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾[نوح: ١٧] والشواهد المذكورة ليست كذلك، لأنها جمل فعلية.. ويدفع هذا الاعتراض بأمرين:

أولهما: أنه لما أسقط الفعل برز الكلام في صورة الجملة الاسمية "المبتدأ والخبر" كما ذكر الزمخشري.

ثانيهما: أن الاختصاص قد علق بـ"لو" وهي حرف امتناع لامتناع كما تعلم.

٥- ومن أحسن مواقع حذف المسند ما ترى الجملة فيه قد بنيت على كلمة واحدة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ [سبأ ٥١]، أي: فلا فوت لهم، فحذف المسند وبقيت كلمة واحدة: "فلا فوت" وهذه الكلمة تراها كالطود الشامخ والحاجز المنيع الذي قضى على كل أمل لهم في الفوت والتفلت، ولا يخفى عليك ما في حذف جواب الشرط، وبناء الفعل "أخذوا" للمجهول من إفادة التهويل والتفظيع..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ

=

السوار الحرة من النساء وقيل: لطمه من هو أقل منه فقال ذلك، ويقصد: لو لطمني من هو كفء لي فكنى بذات السوار عن الكفء، ويروى: لو غير ذات سوار، يريد أنه لا يقتص من النساء فلو لطمه رجل لاقتص منه.. والسِّوار بكسر السين وبضمها.

(١) العرانين: مفردها عرنين وهو الأنف كله أو ما صلب منه.. والميسم اسم للآلة التي يوسم بها، واسم لأثر الوسم أي العلامة أو السمة التي يصنعها الوسم وهذا هو المراد في البيت.

(٢) الكشاف ٢/ ٤٦٨.

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء ٤٩، ٥٠]، أجاب السحرة وعيد فرعون وتهديده لهم بكلمة واحدة: "لا ضير" أي: لا ضير علينا فيما تصنعه بنا إنا إلى ربنا منقلبون.. وهذا ينبئ بقوة الإيمان وصدق اليقين، إذ أجابوا توعده بكلمة واحدة كالسهم النافذ الذي بدد كل وعيد وشتت كل تهديد.

٦- وقد يأتي الكلام على الحذف ثم تراه يحتمل أن يكون المحذوف هو المسند أو المسند إليه، على نحو ما ترى في قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف ١٨]، ففي هذه الآية الكريمة يحتمل آن يكون المحذوف المسند إليه، وتقديره: فصبرى صبر جميل أو فشأني وأمري صبر جميل، ويحتمل أن يكون المحذوف المسند وتقديره: فصبر جميل أولى بي أو فصبر جميل أجمل.. والصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه وغير الجميل ما كان معه شكاية، ولكنه خير من عدمه فيصح تفضيل الصبر الجميل عليه..

والأرجح أن يكون المحذوف هو المسند إليه إذ الآية الكريمة مسوقة لمدح يعقوب – عليه السلام – وحين يكون المحذوف هو المسند إليه يكون الكلام دالاً على حصول الصبر له، إذ التقدير: فأمرى أو فصبرى صبر جميل، أما على جعل المحذوف هو المسند فليس في الكلام ما يدل دلالة مباشرة على حصول الصبر ليعقوب عليه السلام، إذ التقدير: فصبر جميل أولى بي أو فصبر جميل أجمل[١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ [النور ١]، فيحتمل أن يكون التقدير: هذه سورة أنزلناها، فيكون المحذوف هو المسند إليه ويحتمل أن يكون: فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها، فيكون المحذوف هو المسند.. وكذا قوله جل وعلا: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ [النور ٥٣]، هذه الآية نزلت في شأن المنافقين الذين ذهبوا إلى رسول الله -ﷺ- وأقسموا بالله جهد أيمانهم، لئن أمرهم أن يخرجوا من أموالهم لخرجوا، فنزلت هذه الآية الكريمة "قل لا تقسموا طاعة معروفة"، وهي تحتمل حذف المسند إليه فيكون المعنى: أمركم أو الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب،

(١) انظر المطول ١٤٢.

كطاعة الخلص من المؤمنين الذين طابق باطن أمرهم ظاهره، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم، وقلوبكم على خلافها، أو طاعتكم طاعة معروفة، أي: بأنها بالقول دون الفعل..

وتحتمل حذف المسند فيكون المعنى: طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة.. وما من ريب في أن الكلام إذا احتمل حذف المسند أو المسند إليه، يكون أوفر معنى وأغزر دلالة، لأنه يحتمل وجهين، ووفرة التأويلات من فضائل الكلام الجيد(١).

هذا وتقدير المحذوف أو القول بالحذف يحتاج من الدارس إلى تأمل دقيق ونظر واع حتى لا يتناقض مع صحة المعنى واستقامته.. انظر إلى قول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ ﴾ [النساء ١٧١]، فالمراد النهي عن التثليث، أي: لا تقولوا بالتثليث، انتهوا عنه يكن خيرًا لكم. فالله واحد لا شريك له.. الآية الكريمة فيها حذف ويحتمل أن يكون المحذوف المسند والتقدير:: لنا آلهة ثلاثة أو في الوجود آلهة ثلاثة، فحذف المسند "لنا" أو "في الوجود"، ثم حذف الموصوف "آلهة" فصارت الآية: "لا تقولوا ثلاثة"، أو التقدير: لا تقولوا: لنا أو في الوجود ثلاثة آلهة، فحذف الخبر ثم التمييز المضاف إليه فصارت الآية: "لا تقولوا ثلاثة"..

ويحتمل أن يكون المحذوف المسند إليه وتقديره: ولا تقولوا الله والمسيح وأمه ثلاثة، أي لا تعبدوهما كما تعبدون الله، ولا تسووا بينهم في الرتبة والصفة، كقوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ ﴾ [المائدة ٧٣]، وذلك أنهم إذا أرادوا التسوية بين اثنين قالوا: هما اثنان، وإذا أرادوا إلحاق واحد باثنين قالوا: هم ثلاثة..

ولا يصح أن يكون التقدير: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، لأن في هذه التقدير تقريرًا لثبوت آلهة، إذ النفي إذا سلط على الجملة لا يتوجه إلى أحد طرفيها، وإنما يتوجه إلى الحكم المستفاد من الطرفين، فإن قلت: ليس أمراؤنا ثلاثة فإنك تثبت بهذا القول أن

---

(١) انظر خصائص التراكيب ٢٢٢.

لكم أمراء وتنفي أن يكون عددهم ثلاثة، فجائز أن يكون عددهم أقل من ثلاثة، أو أكثر، ولذا فإن التقدير: لا تقولوا آلهتنا ثلاثة، فيه إثبات أن عدد الآلهة اثنان أو أكثر من ثلاثة، وهذا إشراك وقوله جل وعلا بعده: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ [النساء: ١٧١]، يناقضه ويبطله.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة ٣٠]، في قراءة من حذف تنوين "عزيز"، فلا يجوز أن يقدر مسند محذوف، وأن تعرب "عزيز" مبتدأ و"ابن" صفته، ويكون التقدير: عزيز بن الله معبودنا، هذا خطأ وإشراك، لأن فيه إثبات وتقرير الصفة للموصوف، أي: صفة "ابن الله " ثابتة لعزيز، فنحن عندما نقول: "ليس زيد بن علي ناجحًا" فقد نفينا نجاحه ولم ننف كونه ابنا لعلي، ولا يخفى عليك ما في هذا من فساد.

فالصواب أنه لا حذف في الآية، وأن "عزيز" مبتدأ وخبره: "ابن الله" وأن التنوين تنوين "عزيز" مراد، وقد حذف لالتقاء الساكنين.. أو أنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة كآزر.. أو أن القول في الآية ليس المراد به الحكاية بل المراد به الذكر، والمعنى أن اليهود قد بلغوا الغاية في الجهل والشرك فهم عند ذكرهم عزيزًا يفرطون في تعظيمه فيذكرونه ابنًا لله(١).

٧- وقد يحذف كل من المسند والمسند إليه، كما في قولهم: "أهلك والليل، يريدون: الحق أهلك وبادر الليل حتى لا يحول بينك وبينهم، فالمقام يقتضي السرعة الخاطفة، ولذا حسن حذف المسند والمسند إليه..

ومن لطيف ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ﴾ [النحل ٣٠]، أي: أنزل ربنا خيرًا. فحذف الفعل والفاعل، وحذفهما ينبئ بسرعة استجابة هؤلاء المتقين وقوة إيمانهم وامتثالهم لأمر ربهم.. وفرق بين إجابة المتقين فيه هذه الآية وإجابة الكفرة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل ٢٤]، أي: ذلك أساطير الأولين، فحذف المبتدأ المسند إليه.

---

(١) انظر الإيضاح ١/ ٢٢٥.

يقول الزمخشري: "فإن قلت: لم نصب هذا ورفع الأول؟، قلت: فصلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد، يعني أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفًا مفعولاً للإنزال فقالوا: خيرًا أي: أنزل خيرًا، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأولين وليس من الإنزال في شيء"[١].

ومثله قوله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ ٢٣]، أي قال ربنا الحق، فحذف المسند والمسند إليه إسراعًا إلى الإفصاح عن الجواب، إذ المقام مقام إيجاز يتطلب أن تكون الإجابة إشارة أو لمحًا، كيف لا وقد فزع عن قلوبهم، إن الكلمة الواحدة بل الإشارة في مثل هذا المقام تغني عن الكلمات الكثيرة..

وتأمل قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ۝ ﴾ [الشمس: ١١ - ١٣]، أي: ذروا ناقة الله، واحذروا سقياها، تجد أن الحذف هنا ينبئ بلهفة صالح عليه السلام وشدة حرصه على هداية قومه ونجاتهم ولذا صاح بهم محذرًا: "ناقة الله وسقياها".

وانظر إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام لجابر: "هَلْ تَزَوَّجْتَ"؟ فأجاب: "نَعَمْ" قال ﷺ: "أَبِكْرًا أمْ ثَيِّبًا"؟ قال: "ثَيِّبًا" فقال ﷺ: "فَهَلاً جَارِيَةً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ"[٢].. أراد عليه الصلاة والسلام: فهلا تزوجت جارية.. فحذف الفعل والفاعل لدلالة الكلام عليهما وفي هذا الحذف تنقية للعبارة وتصفيه لها مما أقيم عليه الدليل حتى لا يكون ذكره عبثًا وفضولاً..

وقد يحذف المسند والمسند إليه ويقام المصدر مقامها، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ [محمد ٤]، أي فاضربوا رقابهم ضربًا، فحذف الفعل وفاعله، وهذا حذف يلائم السياق، إذ الضرب المأمور به هو الضرب السريع الخاطف فور اللقاء.. وتأمل هذه الفاءات: "فإذا لقيتم.. فضرب.. فشدوا الوثاق فإمامنا.." وما يقتضيه من التعقيب والسرعة الخاطفة..

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ٤٠٧.

(٢) رواه مسلم في كتاب الرضاع برقم [٥٥/ ٧١٥].

ومن حذف المسند والمسند إليه، حذف القول، وفاعله وهو كثير في كتاب الله جل وعلا.. من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ [الكهف ٤٧، ٤٨]، أي: فيقال لهم لقد جئتمونا.. ولعلك تشعر بها وراء هذا الحذف من تأنيب وتعنيف شديد ويساعد في إبراز هذا التعنيف الالتفات من الغيبة إلى الخطاب: "وعرضوا. جئتمونا"..

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ [الأحقاف ٣٤]، أي: فيقال لهم: أليس هذا بالحق، ولا يخفى عليك ما وراء الحذف هنا من سرعة إبراز السخرية والتهكم بهؤلاء الكفرة الذين لم يجدوا بدًا من الإذعان والإقرار بعد فوات الأوان: "بلى وربنا".

قرينة حذف المسند

ولابد لكل حذف – كما ذكرت لك – من وجود القرينة التي تدل على المحذوف وترشد إليه، وإلا كان الحذف عبثًا ومن القرائن الدالة على حذف المسند وقوع الكلام جوابًا عن سؤال محقق كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان ٢٥]، أي: خلقهن الله.. وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت ٦٣].

أو عن سؤال مقدر كما في قول الحارث بن ضرار النهشلي يرثى أخاه يزيدًا:

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ ... وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ(١)

"لِيُبْكَ" بالبناء للمجهول و"يزيد" نائب فاعل، فلما حذف الفاعل وأقيم المفعول به مقامه، انبعث من الجملة سؤال تقديره: من يبكيه؟ فجاء الجواب: ضارع لخصومة، وقد حذف منه الفعل لدلالة السؤال المقدر عليه، والمعنى: يبكيه ضارع..

---

(١) الضارع: الذليل. والمختبط: الذي يأتي إليك للمعروف من غير وسيلة، وتطيح بمعنى تذهب وتهلك، والطوائح جمع مطيحة على غير قياس، وقياسه: مطاوح أو مطيحات، يصف يزيداً بأنه كان ملجأ للذليل وعوناً للمحتاج الذي أطاحت به المطيحات.

وفضل هذا التركيب أي البناء للمجهول: "لِيُبْكَ يزيدُ ضَارعٌ" على البناء للمعلوم: "لِيَبْكِ يزيدَ ضارعٌ"، من عدة أوجه وهي:

١- تكرار الإسناد، حيث أسند البكاء إلى الفاعل مرتين، إجمالاً وذلك عند البناء للمجهول ثم تفصيلاً وذلك عند ذكر الفاعل: "ضارع" فاعلاً للبكاء المقدر، وتكرار الإسناد أبلغ في مقام الرثاء وآكد.

٢- فيه بيان وإيضاح بعد الإبهام والإجمال.. والإيضاح بعد الإجمال أو البيان بعد الإبهام يكون أوقع في النفس وأقوى أثرًا..

٣- وقوع "يزيد" فيه نائب فاعل فيكون ركنا أسند إليه الفعل المبني للمجهول، وكونه ركنًا أولى من جعله فضلة في التركيب الآخر، إذ مدار الحديث إنما هو عنه..

وعلى الرغم من هذا فإن التركيب الآخر لا يخلو من مزية، وهي تقديم المفعول "يزيد"، فقد جعل النفس تشتاق إلى معرفة الفاعل "ضارع" وتتطلع إليه، فعند مجيئه يقع في النفس موقعًا حسنًا..

ومن وقوع الكلام جوابًا عن سؤال مقدر قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [النور ٣٦]، وقوله عز وجل: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الشورى ٣]، وذلك في قراءة من قرأ ببناء الفعل للمجهول في الآيتين ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ [الأنعام ١٠٠]، وذلك على جعل "لله شركاء" مفعولين للفعل "جعل"، و"الجن" مفعولاً به لفعل محذوف دل عليه سؤال مقدر والمعنى: من جعلوه لله شركاء؟ فيجاب: الجن.. وفي الآية وجهان آخران وهما:

١- جعل "الجن" بدلاً من "شركاء" بدل بعض من كل، والمعنى: وجعلوا الجن من الشركاء لله تعالى.

٢- إعراب لفظ الجلالة "جارًا ومجرورًا متعلقًا بشركاء مقدمًا عليه، و"شركاء الجن" مفعولين قدم فيهما "شركاء" على "الجن" استعظامًا لأن يتخذ لله شريك، جنًا

كان أم ملكًا أم غيرهما، ومن أجل هذا المعنى قدم لفظ الجلالة: "لله" على الشركاء[١].

ومن ذلك أيضًا باب نعم وبئس: على جعل المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ خبره محذوف نحو: نعم الرجل عمرو، وبئس الرجل زيد، كأنه قيل: من الممدوح ومن المذموم؟ فأجيب زيد المذموم وعمرو الممدوح، فكل من زيد وعمرو ومبتدأ محذوف الخبر، والقرينة وقوع المخصوص في جواب سؤال مقدر.

ذكر المسند

المسند والمسند إليه هما ركنا الجملة، وذكرهما هو الأصل فلا يحذفان إلا إذا وجد في الكلام ما يقتضي العدول عن هذا الأصل – كما مر بك – وقد يوجد في الكلام ما يدل على المسند لو حذف، وعلى الرغم من هذا يذكر ويصرح به لأغراض بلاغية يقتضيها المقام، وأهم هذه الأغراض:

١ – التعريض بغباوة السامع كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝﴾ [الأنبياء ٦٢، ٦٣]، فلو قال إبراهيم – عليه السلام- في جوابهم: بل كبيرهم هذا، لكان المسند مفهومًا لدلالة السؤال عليه، ولكنه –عليه السلام- عدل عن الحذف إلى الذكر، تنبيهًا إلى غباوتهم وضعف عقولهم، لأن في الحذف تعويلاً على ذكاء المخاطب وتنويهًا بفهمه وإدراكه.

وانظر إلى اسم الإشارة في قوله: "كبيرهم هذا"، وكأنهم لا يفهمون إلا بالإشارة إلى الفاعل وتعيينه وتحديده وجعله مرئيًا أمامهم.. ومن ذلك قولك لمن سألك: من نبيكم؟: محمد – عليه الصلاة والسلام – نبينا، فتذكر المسند، ولو حذفته لدل عليه سؤال السائل دلالة واضحة، ولكنك ذكرته تعريضًا بغباوة السامع وإشارة إلى ضعف فهمه، إذ لو كان له فهم لما سأل عن نبينا، فهو أظهر من أن يتوهم خفاؤه، وكأنه لا يفهم بالقرائن الواضحة، ولابد من التصريح له بأجزاء الجملة كاملة..

---

(١) انظر الإيضاح ١/ ١٧٩.

٢- ضعف التعويل على القرينة، وذلك بأن يكون في الكلام قرينة تدل على المسند لو حذف، ولكن ليس لها من القوة والإيضاح ما يلهم السامع المعنى ويضعه أمام عينيه من أول الأمر.. كما إذا سألك سائل: من أشجع العرب وأجودهم في الجاهلية؟ فتجيب: عنتره أشجع الجاهليين وحاتم أجودهم، ذاكرًا أشجع وأجود حتى لا يلتبس على السائل لو قلت: عنترة وحاتم، من غير أن تعين صفة كل واحد منهما.

٣- قد يذكر المسند ليتعين بالذكر كونه اسمًا فيفيد الثبوت والدوام، أو كونه فعلا فيفيد التجدد والحدوث، كقولك: زيد منطلق وعمرو ينطلق، إذ لو حذفت المسند الثاني فقلت: زيد منطلق وعمرو، لفهم انطلاق عمرو لدلالة انطلاق زيد عليه، ولكنك آثرت ذكره بصيغة الفعل لتفيد أنه يخالف انطلاق زيد، فانطلاق زيد مستمر وانطلاق عمرو يتجدد شيئًا فشيئًا. وكذا تقول: زيد ينطلق وعمرو منطلق، فتذكر الانطلاقين ليتعين كون الأول فعلاً مفيدًا للتجدد والحدوث، وكون الثاني اسمًا مفيدًا للثبوت والدوام، ولو حذفت أحدهما لدلالة الآخر عليه لما تحققت هذه الإفادة.

٤- التعجب من شأن المسند إليه وذلك عندما يكون المسند من الأمور العجيبة الغريبة كأن يسألك سائل: من يصارع الأسود فتجيبه: زيد يصارح الأسود.

٥- ومن أهم أغراض ذكر المسند زيادة التقرير والإيضاح، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف ٩]، فلو حذف المسند وقيل: "العزيز العليم"، لدل عليه السؤال المصرح به، ولكنه ذكر زيادة للتقرير والإيضاح، وللتسجيل على هؤلاء الكفرة، وإبراز سفاهتهم وضعف عتولهم، حيث عبدوا ما لا يصنع شيئًا ولا يخلق ذبابًا، فالخالق هو الله القادر على كل شيء. "خلقهن العزيز العليم"..

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [يس ٧٨، ٧٩]، فقد

ذكر المسند "يحييها" في الجواب، وكان يمكن الاستغناء عنه لدلالة السؤال عليه، وذلك لزيادة التقرير والإيضاح وفيه أيضًا تنبيه وإشارة إلى غباوة السائل وضعف عقله، إذ لا يسأل هذا السؤال إلا منكر معاند، قد ختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة تمنعه من الإدراك وتحجب عنه نور الحق..

وتأمل كيف أوثر التعبير بالاسم الموصول: "الذي أنشأها أول مرة"، لأن في جملة الصلة برهان قاطع ودليل بين، فإن من قدر على إنشاء هذه العظام أول مرة لهو قادر على إحيائها وإعادتها..

وتأمل قول الشاعر:

لولاَ التُّقَى لَجَعَلْتُ قَبْرَكِ كَعْبَتِي ... وجَعَلْتُ قَوْلَكِ سُنَّتِي وَكِتَابِي

تجد أنه لو أسقط "جعلت" الثانية، لفهمت من الأولى ولكنه أراد إبراز الجعل وزيادة تقرير هذا المعنى الذي أراده وإيضاحه، فأعاد ذكر المسند كما ترى..

وانظر إلى قول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

أَعَيْنَيَّ جُوداَ وَلاَ تَجْمُدَا ... أَلاَ تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى

أَلاَ تَبْكِيَانِ الْجَوَادَ الجمِيلاَ ... ألا تبكيانِ الفتَى السَّيِّدَا

تجد أن إعادة ذكر البكاء، وتكراره، قد أبرز المعنى وقرره وأوضح آلام الخنساء وصور مدى لهفتها وحزنها على صخر الندى.

إفراد المسند

قد يرد المسند مفردًا نحو: محمد عالم وزيد كريم، وقد يرد جملة بها ضمير يعود إلى المبتدأ، وهذا الضمير ليس مسندًا إليه، نحو: محمد أبوه عالم، علي أجداده ملوك، وهذا المسند يسميه البلاغيون: مسندًا سببيًا، أي أن المسند إليه بسبب من المسند ومرتبط به بروابط قويه.. وقد يرد المسند جملة بها ضمير يعود على المسند إليه المتقدم، وهذا الضمير يكون مسندًا إليه أيضًا نحو: محمد يعطي الجزيل، خالد يحمل السلاح، والمقام هو الذي يحدد نوع المسند الذي ينبغي على المتكلم أن يستعمله، فإذا

أراد المتكلم مجرد الإخبار عن المسند إليه، أورد المسند مفردًا، فيقول: محمد عالم.. علي جواد.

وإن أراد وصله بآبائه وأنه ورث المآثر والأمجاد عنهم، أورده سببيًا، فيقول: محمد أبوه كريم.. خالد آباؤه أبطال.

وإن أراد تقوية الحكم أورده جملة غير سببية، فيقول: محمد يعطي الجزيل، وخالد يجود بماله.. هم يضربون الكبش.

إيراد المسند فعلاً أو اسمًا

لا يخفى عليك الفرق بين الاسم والفعل، فالفعل يدل على حدث وقع في زمن نحو: قام ويقوم، والاسم يدل على حدث مجرد من الزمن نحو: قائم وذاهب.. راكع وساجد، كما أن الفعل المضارع يفيد الحدوث والتجدد، والاسم يفيد الثبوت والدوام، نحو: زيد ينطلق وزيد منطلق، فالأول أفاد انطلاقًا يتجدد، والثاني أفاد انطلاقًا ثابتًا.

ولذا فإن المتكلم عندما يورد المسند فعلاً فهو يقصد إما تقييده بأحد الأزمنة نحو: فاز المجد.. ويجاهد الجندي فالأول أفاد حدوث الفوز في الزمن الماضي، والثاني أفاد حدوث الجهاد في زمن الحال واستمرار حدوثه في الزمن المستقبل.. وإما إفادة الحدوث والتجدد، وذلك إنما يكون في الفعل المضارع فهو يفيد التجدد الاستمراري لمعونة السياق وقرائن الأحوال، وغالبًا ما يكون ذلك في مقامات المدح والفخر..

انظر إلى قول طريف بن تميم:

أَوَكُلَّمَا وَرَدَتْ عُكَاظَ قَبِيلَةٌ ... بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ[1]

يقول: إنه شجاع مقدام، له موقف مع كل قبيلة، فالقبائل جميعها تطلبه، وكلما وردت سوق عكاظ قبيلة بعثوا عريفهم يتفرس الوجوه ويتوسمها لعله يهتدي إليه فيثأر منه، وتلاحظ أن الشاعر قد استخدم الفعل المضارع "يتوسم" لإفادة التجدد

(١) العريف: القيم الذي يقوم بأمر القوم.

والحدوث فالعريف دائم المراجعة والتأمل وإعادة النظر في وجوه القوم، يحدث منه التوسم شيئًا فشيئًا، ولو قال: بعثوا إلى عريفهم متوسمًا لما تحققت هذه الإفادة ولما كان هنالك إشعار بحالة التجدد هذه..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [فاطر ٣]، فالرزق من الله متجدد ومستمر، يتجدد بتجدد العباد، لا ينقطع ولا يزول، وهذا يلائمه التعبير بالفعل "يرزقكم" ولو قيل: "هل من خالق غير الله رازقكم.." لما أفيدت هذه الإفادة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُ ﴾ [الرعد ٣٩]، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴾ [ص ١٨]، فالمحو والإثبات يتجددان ومستمران، وتسبيح الجبال يحدث آنا بعد آن ويقع حينًا بعد حين وهذا يناسبه التعبير بالفعل الذي آثره النظم الكريم: "يمحو.. يثبت.. يسبحن"..

وعندما يورد المتكلم المسند اسمًا فإنه يقصد به إفادة الثبوت والدوام، وذلك يكون بمعونة السياق وقرائن الأحوال، إذ الاسم يدل على الحدث مجردًا من الزمان، والمتكلم قد يسوقه في سياق ترشد قرائنه إلى إفادة الثبوت والدوام والاستمرار.

انظر وتأمل قول النضر بن جؤبة:

قَالَتْ طَرِيفَةُ مَا تَبْقَى دَرَاهِمُنَا ... وَمَا بِنَا سَرَفٌ فِيهَا وَلاَ خَرَقُ

إِنَّا إذاَ اجْتَمَعَتْ يومًا دَرَاهِمُنَا ... ظَلَّتْ إِلَى طُرُقِ الْخَيْرَاتِ تَسْتَبِقُ

لاَ تَأْلَفُ الدِّرْهَمَ الْمَضْرُوبَ صُرَّتُنَا ... لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيْهَا وَهُوَ مُنْطَلِقُ[1]

تجد أن الشاعر يمدح قومه بالكرم والعطاء، فهم لا يبقون من المال بقية، وصرتهم لا تألف الدرهم، وإنما يمر عليها الدرهم منطلقًا ومندفعًا إلى الخيرات.. مثل هذا المقام يلائمه التعبير بالاسم "منطلق"، لأنه يفيد انطلاق الدرهم انطلاقًا ثابتًا ومستمرًا، ولو قال يمر عليها وهو ينطلق لكان المعنى أن انطلاقه يتجدد، وهذا يعني أنهم يمسكونه زمنًا ما، ولا يخفى عليك عدم مناسبة ذلك لمقام المدح..

(١) الدرهم المضروب: المسبوك.

والبيت يروي برفع الدرهم ونصب الصرة، وبنصب الدرهم ورفع الصرة، والرواية الثانية أبلغ، لأنها تدل على غناهم وأن الدراهم تمر والصرة لا تألفها، أما الرواية الأولى ففيها إيهام أنهم فقراء وأن الصرة خالية لا يألفها الدرهم المضروب..

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ [الكهف ١٨]، فلا يخفى عليك ما يفيده الاسم: "باسط" من ثبوت البسط ودوامه واستمراره وأنه لو قيل: يبسط ذراعيه لما أدى هذا الغرض..

وتأمل قوله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ [الملك ١٩]، تجد أنه لما كان الأصل في الطيران هو صف الأجنحة، فقد عبر عنه بالاسم الذي يفيد الثبوت والدوام، ولما كان القبض طارئًا على البسط فقد عبر عنه بالفعل الذي يفيد الحدوث والتجدد..

يقول الزمخشري: "فإن قلت: لم قيل: ويقبضن ولم يقل: وقابضات؟، قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة، كما يكون من السابح"(١).

والجملة كالمفرد في هذا الحكم، فإذا كان الاسم يفيد الثبوت والدوام في نحو قولك: زيد منطلق، فكذلك الجملة الاسمية، وإذا كان الفعل يفيد التجدد والحدوث في نحو قولك: ينطلق زيد فكذلك الجملة الفعلية، ولكون الجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام كانت آكد من الجملة الفعلية، ومن أجل هذا فإنه يحسن إيثار التعبير بالجملة الاسمية في المقامات التي تتطلب التأكيد.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ﴾ [البقرة ١٤]، تجد أن المنافقين لكونهم قد أظهروا الإيمان خوفًا ومداراة للمؤمنين، وليس عن يقين راسخ وثابت، فقد عبروا عنه

---

(١) الكشاف ٤/ ١٣٨.

بالجملة الفعلية. "آمنا"، ولما كان الكفر ثابتًا وراسخًا في عقولهم فقد خاطبوا شياطينهم بالجملة الاسمية المؤكدة: "إنا معكم إنما نحن مستهزءون"..

وكذا القول في قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ [الأعراف ١٩٣]، إذ كان الوثنيون الذين عبدوا الأصنام من عادتهم أنهم لا يدعون تلك الأصنام إذا نزلت بهم شدة بل يدعون الله.. ولذا ناسب التعبير عن صمتهم بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت والدوام وتأكيد الحكم، ولما كان الدعاء غير معتاد، فقد عبر عنه بالجملة الفعلية التي لا تفيد ثبوتًا، والمراد: سواء عليكم أأحدثتم الدعاء على غير عادة، أم بقيتم مستمرين على عادة صمتكم..

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود ٦٩] فالأصل: نسلم سلامًا فقال سلام عليكم، تلاحظ أن تحية إبراهيم عليه السلام بالجملة الاسمية، وتحيتهم بالجملة بالفعلية، وكأنه – عليه السلام – أراد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به آخذًا بآداب التحية في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء ٨٦]..

وخذ قوله عز وجل: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء ٥٥]، أرادوا: أحدث منك مجيء بالحق ولم تكن كذلك، أم أنت مستمر في لعبك الذي عهدناه فيك؟ عبروا عن مجيئه بالحق بالفعل الذي يفيد التجدد وعن اللعب بالجملة الاسمية التي تفيد تأكيد لعبه واستمرار أحوال لهوه – في اعتقادهم – ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من عنادهم وإعراضهم عن الإذعان للحق وقبول الهداية..

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة ٨]، فقولهم: "آمنا" إخبار بوقوع الإيمان وإحداثه، ولكونهم كاذبين في دعواهم، فقد نفاها الله عز وجل بالجملة الاسمية المؤكدة "وما هم بمؤمنين"..

وقوله عز وجل: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة ٣٧]، أرادوا حدوث خروج فأجيبوا بدوام البقاء واستمرار العذاب..

وقوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ

وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة ٤٣]، عبر عن الصادقين بالفعل لأنهم يحدثون صدقًا بعد صدق في كل موطن، وعبر عن الكاذبين بالاسم، لأن ما صدر عنهم كذب مستمر وجارٍ على عادتهم الدائمة المستمرة وناشئ عن رسوخ في الكذب وثبات..

***

تنكير المسند وتعريفه

ومن أحوال المسند أنه يرد أحيانًا نكرة وأحيانًا معرفًا، وتنكيره أو تعريفه إنما يكون لإفادة أغراض يقصد إليها البلاغي، فمن أغراض تنكيره: عدم إرادة القصر أو العهد، كقولك: محمد كاتب، وعمرو شاعر، إذا أردت مجرد الإخبار عنهما بالكتابة والشعر، أما إذا أردت التخصيص قلت: محمد الكاتب، وعمرو الشاعر، وكذلك إذا أردت كاتبًا أو شاعرًا معهودًا قلت: فلان الكاتب أو الشاعر، فتعرف المسند في الحالتين، كما سيأتي..

ومن أغراض تنكيره إرادة التفخيم والتعظيم كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ٢]، أي: هو هدى، فتنكير المسند "هدى" أفاد تعظيم هداية القرآن وتفخيمها وأنها بلغت درجة لا يمكن إدراك كنهها..

ومثله قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام ١٥٥]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت ٤٤]، ولا يخفى عليك ما في تنكير المسند في الآيتين من إفادة التفخيم والتعظيم "كتاب.. قرآنًا.. هدى وشفاء.. وقر.. عمى"، التنكير كما ترى أفاد تفخيم القرآن وتعظيم هدايته والتنويه بشأنه.

ومنها إفادة التحقير والتهوين كما ترى في قول قيس بن جروة يخاطب عمرو بن هند:

غَـــدَرْتَ بِـــأَمْرٍ كُنْـــتَ أنْـــتَ دَعَوْتَنَـــا إلَيْـــهِ وَبِـــئْسَ الـــشِّيمَةُ الْـــغَدْرُ بِالْعَهْـــدِ
وَقَـــدْ يَـــتْرُكُ الْغَـــدْرَ الْفَتَـــى وَطَعَامُـــهُ إذَا هُـــوَ أَمْـــسَى حَلْبَـــةٌ مِـــنْ دَمِ الفَـــصْدِ(١)

فتنكير المسند "حلبة" أفاد التحقير، والمعنى أن الوفي لا يغدر ولو أخنى عليه الدهر وأمسى طعامه بهذه الحقارة "حلبة من دم الفصد". إلى غير ذلك من أغراض تنكير المسند.

وأما تعريفه فيكون كذلك لأغراض شتى منها: إرادة العهد بمعنى أن يكون المسند معلومًا للمخاطب معهودًا له، ولكنه لا يعلم المسند إليه، وذلك بأن يعلم مخاطبك أن انطلاقًا وقع ولكنه لا يدري ممن، فتقول له: "زيد المنطلق"، تعريف المسند هنا غرضه البلاغي إرادة العهد، أي: الانطلاق المعهود لدى صاحبك، فإذا كان لا يعهد انطلاقًا ولا يعلمه قلت له: "زيد منطلق"، تريد مجرد إخباره بوقوع انطلاق من زيد، ولذا كان من الخطأ أن تقول: زيد المنطلق وعمرو، لأنك تتحدث عن انطلاق معروف للمخاطب ومعين فإذا أثبته لزيد، لا يصح لك أن تثبته ثانية لعمرو، لأن هذا تناقض.. فالصواب أن تقول: زيد منطلق وعمرو.. أو تقول زيد وعمرو المنطلقان، ويتضح لك هذا أكثر عندما تقول مثلاً: امرؤ القيس هو القائل:

قِفَـا نبـكِ مِـن ذكـرَى حَبِيـبٍ وَمَنْـزِلِ بِـسِقْطِ اللِّـوَى بـينَ الـدَّخُولِ فَحَوْمَـلِ

لا يصح أن تقول: امرؤ القيس هو القائل هذا البيت وأبو ذؤيت الهذلي، إنك إن قلت هذا حاولت محالاً وقلت ما ليس بقول.

ومن أغراض تعريف المسند. إفادة قصره على المسند إليه، تقول: زيد الشاعر وعمرو الشجاع وحاتم الجواد. تريد بهذا قصر المسند على المسند إليه قصرًا ادعائيًا بهدف المبالغة في الوصف، ويكون ذلك غالبًا في مقامات المدح والفخر والرثاء ونحوها..

انظر إلى قول المتنبي:

---

(١) الفصد: شق العرق، وفصد الناقة: شق عرقها ليستخرج دمه فيشربه وذلك عند الحاجة.. وفصد المريض أخرج مقداراً من دم وريده بقصد العلاج.

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ دُونَ صَوْتِي فَإِنَّنِي ... أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ والآخَرُ الصَّدَى

أراد المبالغة في قوة شاعريته، فقصر الصياح بمعنى إنشاد الشعر عليه قصرًا ادعائيًا، فهو الصائح وغيره من الشعراء يرددون صوته، وينهجون نهجه.

ومن الخطأ أيضًا أن تقول في مثل هذا: عمرو الشجاع وخالد، إذ كيف تخص عمرًا بالشجاعة ثم تشرك فيها غيره، فالصواب أن تقول: عمرو وخالد الشجاعان أو تنكر المسند فتقول: عمرو شجاع وخالد.

ومن ذلك قول ابن الدمينة:

وَنَحْنُ التَّارِكُونَ عَلَى سَلِيلٍ ... مَعَ الطَّيْرِ الْخَوَامِعَ يَعْتَرِينَا[1]

يريد أنهم هم الذين قتلوا سليلاً وتركوهم طعامًا للطير وللخوامع أي: الضباع، هم الذين فعلوا ذلك دون سواهم..

وتأمل قول عمرو بن كلثوم.

وقَدْ عَلِمَ القبائلُ من مَعَدٍّ ... إذا قُبَبٌ بِأَبْطُحِهَا بُنِينَا

بأَنَّا العَاصِمُونَ إذا أُطِعْنَا ... وَأَنَّا الْغَارِمُونَ إذا عُصِينَا

وأَنَّا الْمُنْعِمُونَ إذا قَدَرْنَا ... وَأَنَّا الْمُهْلِكُونَ إذا أُتِينَا

وأَنَّا الْحَاكِمُونَ بما أردنا ... وأنا النَّازِلُونَ بحيثُ شِينَا

تجد أنه يفخر بقصر تلك الصفات عليهم قصرًا حقيقيًا ادعائيًا بمعنى أنها لا تتعداهم ولا تتجاوزهم إلى غيرهم على سبيل المبالغة والادعاء.

وخذ قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ ﴾ [طه ٦٧، ٦٨]، أي: أنت الأعلى لا هم، فتعريف المسند أفاد قصره على "المسند إليه قصرًا إضافيًا بمعنى أنه لا يتعداه إلى هؤلاء السحرة.

ومنها أن يعرف المسند بالموصولية فيفيد بالإضافة إلى قصره على المسند إليه

---

(١) الخوامع: الضباع.. وهو اسم لازم لها لأنها تخمع في مشيتها أي: تعرج، فالخماع: العرج .. المفرد منه خامع وخامعة وجمعه: أخماع وخوامع.. ومعنى: يعترين: يصبن ويغشين يقال: اعتراه: غشيه وأصابه.

دقائق ولطائف يدركها اللماح الذواقة، الخبير بالأساليب الرفيعة والتعبيرات الجيدة..

انظر إلى قول المتنبي:

أَنَا الَّذي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدَبِي ... وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ

أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا ... وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

تجد أن تعريف المسند بالموصولية أفاد بالإضافة إلى قصر مدلول الصلة على المتنبي، اشتهار جملة الصلة وانشغال الناس بها فهي أمر معروف بين الناس جميعًا يعرفونه ولا أحد يجهله.

وتأمل الآيات الكريمة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون ٧٨ -٨٠]، وقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء ٣٣].

فالمسند في الآيات الكريمة مقصور على المسند إليه قصرًا حقيقيًا، ثم إن إيثار التعريف بالموصولية أفاد انشغال الخلق بتلك الأمور المثارة في جملة الصلة واشتهارها بينهم وخوضهم فيها وترددها على الأسماع وتلك ميزة يمتاز بها التعريف بالاسم الموصول.

ومنها أن يقيد المسند بقيد فيفيد تعريفه عندئذ قصره مقيدًا بذلك القيد على المسند إليه وكأنه أي: المسند قد صار نوعًا خاصًا وجنسًا برأسه. تقول: زيد الكريم حين يبخل الناس وهو الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيرًا، وهو المقدام حين تفر الأبطال، فالمقصور ليس مطلق الكرم وإنما هو نوع خاص منه وكذا الوفاء والشجاعة في المثالين الأخيرين..

ومن ذلك قول الأعشى:

هُوَ الْوَاهِبُ الْمِائَةَ الْمُصْطَفَا ... ةَ إِمَّا مَخَاضًا وَإِمَّا عِشَارًا[1]

---

(١) المخاض: الحوامل من النوق اسم جمع ويقال للواحدة بنت مخاض والعشار: جمع عشراء وهي من

فإنه قصر هبة المائة من الإبل في إحدى الحالتين: مخاضًا أو عشارًا لا هبتها مطلقًا، ولا الهبة المطلقة، فالهبة مقيدة بالمائة المصطفاة، والمائة مقيدة بكونها إما مخاضًا وإما عشارًا.

وعند تقييد المسند بتلك القيود يكون القصر قصرًا حقيقيًا لا ادعائيًّا فهو الواهب المائة المصطفاة دون غيره.. وزيد وحده هو الكريم حين يبخل الناس وهو وحده الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيرًا، والمقدام حين تفر الأبطال.

ومنها إفادة التقرير وبيان أن ثبوت المسند للمسند إليه أمر مقرر بارز، وظاهر ظهورًا لا يخفى على أحد.

كما في قول حسان:

وَإِنَّ سَنَامَ الْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ وَوَالِدُكَ الْعَبْدُ

أراد بتعريف العبد تقرير صفة العبودية لوالده. وأنها أمر مشهور وذائع لا يخفى على أحد، ولم يرد قصر العبودية على الوالد لا حقيقة ولا ادعاء..

ومثله قول الخنساء في رثاء صخر:

إِذَا قَبُحَ الْبُكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ ... رَأَيْتُ بُكَاءَكَ الْحَسَنَ الْجَمِيلاَ

لم ترد قصر صفة الحسن على بكائها صخرًا، وإنما أرادت أن تقرر لبكائه صفة الحسن وأن تجعل حسن بكائه بينًا ظاهرًا لا يجهله أحد ولا ينكره منكر.

ومنها الإشارة إلى بلوغ المسند إليه في الاتصاف بالمسند مبلغ الكمال كقولك: "هو البطل المحامي"، تريد أن تقول للمخاطب: هل تصورت البطل المحامي وكيف يكون الإنسان حين يبلغ في هذه الصفة مبلغها الأعلى؟، إذا تصورت هذا في نفسك فعليك بفلان فهو الذي تجد فيه الصفة كما تمثلتها وتخيلتها.. وكذا تقول: هو الحامي لكل حمى، والمرتجي لكل ملمة والدافع لكل مكروه..

=

من النوق كالنفساء من النساء أو التي مضى لحملها عشرة أشهر.

ومن ذلك قول ابن الرومي:

هُوَ الرَّجُلُ الْمَشْرُوكُ فِي جُلِّ مَالِهِ ... وَلَكِنَّهُ بِالْمَجْدِ وَالْحَمدِ مُفْرَدُ

يريد منك أن تسبح بخيالك في تصور رجل لا يتميز عن عفاته وطالبي معروفه فهو وهم سواء يأخذون من المال ما يشاءون، فإذا حصلت صورته في مخيلتك فاعلم أنه ذلك الرجل..

ومثله قول الفرزدق في هجاء الحجاج:

فَلَوْلاَ بَنُو مَرْوَانَ كَانَ ابنُ يُوسَفَ ... كَمَا كَانَ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِ إِيَادِ

زَمَانَ هُوَ الْعَبْدُ الْمُقِرُّ بِذِلَّةٍ ... يُرَاوِحُ أَبْنَاءَ القُرَى وَيُغَادِي

أراد بقوله: "هو العبد: بلوغه الغاية القصوى في الاتصاف بصفة العبودية وذل الرق في هذا الزمان حتى خلصه بنو مروان من قيدها فصار له شأن وكيان.

ومنها إفادة تعظيم المسند إليه وذلك عند إضافة المسند إلى ما يكسبه التشريف والتعظيم ويسمو به، ويرفع شأنه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم ٣٠]، وقوله جل وعلا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح ٢٩] فقد اكتسب المسند إليه بإضافة المسند إلى لفظ الجلالة التعظيم، وعلو المنزلة ورفعة الشأن ولا يخفى عليك ما في تنكير "أشداء" و"رحماء" من تفخيم وتعظيم.

***

تخصيص المسند بالوصف أو بالإضافة

قالوا: إن الغرض من تخصيص المسند بالوصف أو بالإضافة هو تربية الفائدة وتكثيرها، وجعلها أتم وأكمل، أو بمعنى آخر تكثير المعنى والدلالة على غزارته، لأن زيادة المبني كما قالوا تدل على كثرة المعنى، تقول مثلاً: امرؤ القيس شاعر فارس، وزهير شاعر حكمة فقد كثر المعنى الأول بالوصف وتمت الفائدة في الثاني بالإضافة..

ومن ذلك قول مالك الأشتر (ت٣٧هـ):

حَمِيَ الْحَدِيدُ عَلَيْهِمْ فَكَأَنَّهُ وَمَضَانُ بَرْقٍ أَوْ شُعَاعُ شُمُوسِ

وقول قيس بن الخطيم:

وَكُنْتُ امْرًا لاَ أَسْمَعُ الدَّهْرَ سُبَّةً أُسَبُّ بِهَا إلاَّ كَشَفْتُ غِطَاءَهَا

قد خصص المسند في البيت الأول بالإضافة: "ومضان برق أو شعاع شموس"، وخصص في البيت الثاني بالوصف: "امرأ لا أسمع الدهر سبة أسب بها..".

ومنه قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب ٤٠]، فقد خصص المسند بالإضافة في قوله: "أبا أحد من رجالكم" لتكثير الفائدة وعمومها، فهو عليه الصلاة والسلام ليس أبا لأحد منهم، ثم عرف المسند بالإضافة في قوله: "رسول الله وخاتم النبيين"، لإفادة التعظيم وشهرة اتصافه ﷺ بتلك الصفة.

تقديم المسند

المسند إليه إذا كان مبتدأ فرتبته التقديم نحو: زيد قائم، وعمرو منطلق، وخالد في الميدان، وإذا كان فاعلاً فرتبته التأخير أي الوقوع بعد الفعل "المسند" نحو قام زيد، ويعطي محمد الجزيل، فإذا قدم المسند إليه على خبره الفعلي كان ذلك لأسرار بلاغية – كما درست في أحوال المسند إليه – وكذلك إذا قدم المسند على المسند إليه الذي رتبته التقديم "المبتدأ" فإن هذا التقديم يكون لأسرار ومزايا بلاغية أهمها:

١ – إفادة القصر أي قصر المسند إليه على المسند المقدم كما في قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون ٦]، والمعنى: إن دينكم الذي هو الإشراك مقصور على كونه لكم لا يتجاوزكم إِلَيَّ، وديني الذي هو التوحيد مقصور على كونه لي لا يتجاوزني إليكم.. فالمقصور عليه هو المسند المقدم والمقصور هو المسند إليه المؤخر.

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الأنبياء ٩٧].. ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية ٢٥، ٢٦].. ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾

[القيامة ٢٩، ٣٠].. ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة١٢]، فالتقديم في هذه الآيات الكريمة أفاد قصر المسند إليه على المسند المقدم..

ومنه قوله تعالى في وصف خمر الجنة: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝ ﴾ [الصافات ٤٥- ٤٧]، فتقديم الجار والمجرور في قوله: "لا فيها غول"، أفاد نفي الغول عن خمر الجنة وإثباته لخمور الدنيا أو بمعنى آخر، أفاد قصر عدم الغول على خمر الجنة بحيث لا يتجاوزه إلى خمور الدنيا، ولو قيل: "لا غول فيها" لأفاد ذلك مجرد نفي الغول عن خمر الجنة دون تعرض لخمور الدنيا.

ولذا جاء قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ ﴾ [البقرة ١، ٢] بدون تقديم إذ المراد نفي الريب عن القرآن دون تعرض لغيره من الكتب السماوية ولو قيل: "لا فيه ريب"، لأدى هذا إلى نفي الريب عن القرآن وإثباته لغيره وهو غير مراد..

ومن أقوالهم قول أبي العلاء:

تَعَبٌ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أَعْـ ... ـجَبُ إِلاَّ مِنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيَادِ

أفاد التقديم قصر الحياة على التعب قصرًا ادعائيًا، أي: أن ما فيها من فترات الراحة والأنس والمسرة لا اعتداد به..

وقول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

رَضِينَا قِسْمَةَ الْجَبَّارِ فِينَا ... لَنَا عِلْمٌ وَلِلْجُهَّالِ مَالُ

وقول الآخر:

وَلَيْسَ بِمُغْنٍ فِي الْمَوَدَّةِ شَافِعٌ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الضُّلُوعِ شَفِيعُ

وقول الإمام الشافعي رحمه الله:

إذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلاَ تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ

ولا يخفى عليك معرفة موطن التقديم والمقصور والمقصور عليه في هذه الأبيات:

٢- التنبيه من أول الأمر على أن المسند خبر لا نعت كما في قول حسان بن ثابت ﷺ في مدح الرسول ﷺ:

لَــــهُ هِمَـــــمٌ لاَ مُنْتَهَـــــى لِكِبَارِهَــــا وَهِمَّتُــــهُ الــصُّغْرَى أَجَــلُّ مِــنَ الــدَّهْرِ

فإنه لو قال: "همم له لا منتهى لكبارها"، لتوهم أن الجار والمجرور "له" نعت لا خبر، لأن النكرة تحتاج إلى الوصف حتى يكون مسوغًا للابتداء بها، ولتوهم أن الخبر هو الجملة بعده، وهذا لا يتفق مع غرض المدح، لأن الشاعر يريد مدح الرسول ﷺ لا مدح هممه..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف ٢٤] حيث قدم الجار والمجرور "لكم" على المسند إليه "مستقر" لدفع توهم أنه نعت وليس بخبر..

٣- إفادة التشويق إلى ذكر المسند إليه، كما في قوله ﷺ "مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ مَالٍ"[1] ... وكقول محمد بن وهيب في مدح أبي إسحاق:

ثَلاَثَــــةٌ تُــــشْرِقُ الــــدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَــــا شَــمْسُ الــضُّحَى وأَبُــو إِسْــحَاقَ وَالْــقَمَرُ

وقول الرَّاجز:

ثَلاَثَــــةٌ تَجْلُــــو عَــــنِ القَلْــــبِ الْــــحَزَنْ المــــاءُ وَ الْخُــــضْرَةُ وَالوَجْــــهُ الْحَــــسَنْ

وقول الآخر:

ثَلاَثَـــــــةٌ لَــــــيْسَ لَهَــــــا إِيَــــــابُ اَلْوَقْــــــتُ وَالْــــــجَمَالُ وَالــــــشَّبَابُ

وقول أبي العلاء المعري:

وَكَالنَّـــــارِ الْــــحَيَاةُ فَمِــــنْ رَمَــــادٍ أَوَاخِرُهَــــــا وَأَوَّلُهَــــــا دُخَــــــانُ

فتقديم المسند في هذه الشواهد أفاد التشويق إلى معرفة المسند إليه والإفصاح عنه، ولا يخفى عليك القصر في البيت الأخير، أي: قصر الحياة على كونها نارًا لا استقرار فيها.

---

(١) رواه الدارمي في المقدمة برقم ٣٢.

٤- إظهار التفاؤل.. كما في قول الثعالبي- عبد الملك بن محمد إسماعيل (ت٤١٩ هـ):

سَعِدَتْ بِغُرَّةِ وَجْهِكَ الْأَيَّامُ وَتَزَيَّنَتْ بِبَقَائِكَ الْأَعْوَامُ

فالمسند "سعدت" قد قدم ليفيد التفاؤل لأنه من جنس السرور والسعادة وكذلك "تزينت" قدم على المسند إليه "الأعوام" لنفس الغرض..

٥- إظهار التألم والتضجر.. كما في قول المتنبي:

وَمِنَ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

إلى غير ذلك من الأغراض التي تقتضي تقديم المسند على المسند إليه.

* * *

تقييد الفعل بأدوات الشرط: إن وإذا ولو

اهتم البلاغيون "بإن، وإذا، ولو" من أدوات الشرط، وذلك لما يكمن وراء تقييد المسند "الفعل" بهذه الأدوات الثلاث من اعتبارات بلاغية وملاحظات دقيقة:

قال البلاغيون: إن "إن وإذا" للشرط في الاستقبال، بمعنى تقييد حصول الجزاء بحصول الشرط في المستقبل نحو إن تزرني أكرمك.. إذا جاءك الفقير فأحسن إليه، وتختلف "إن" عن "إذا" في أن "إذا" تستعمل في الشرط المقطوع بوقوعه، وذلك بأن يكون الشرط مجزومًا بوقوعه في المستقبل نحو: إذا غربت الشمس حل الظلام.. إذا أذن المؤذن أسرع المسلم للصلاة.. أو يظن ظنًّا قويًّا وقوعه فيه نحو: إذا جئتني أكرمتك، إذا كنت تعتقد اعتقادًا قويًا أنه سيأتي وترجح مجيئه على عدم مجيئه ولذا كان الغالب في الفعل المستعمل مع إذا أن يكون بلفظ الماضي للإشعار بتحقيق الوقوع.

أما "إن" فتستعمل في الشرط غير المقطوع بوقوعه، بأن يتردد في وقوعه في المستقبل، أو يظن عدم وقوعه ويترجح على الوقوع أو يكون مما لا يقع إلا نادرًا، كما سترى في الشواهد.. فإذا كان الشرط مجزومًا ومقطوعًا بعدم وقوعه في المستقبل،

فلا تستعمل فيه "إن" ولا "إذا" إلا لنكتة بلاغية. كما سنبين في الشواهد(١)..

انظر إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف ١٣١]، تلاحظ أنه قد استعملت "إذا" في جانب الحسنة، و"إن" في جانب السيئة، وذلك لأن مجيء الحسنة أمر مقطوع به، محقق الوقوع، إذ المراد بالحسنة، الحسنة المطلقة عن التقييد بنوع معين، ولذا عرفت تعريف الجنس لتشمل كل فرد من أفراده، وكل نوع من أنواع الحسنات، وشأن هذا أن يقع كثيرًا لاتساعه وكثرة أفراده وأنواعه، ولكون مجيء الحسنة محققًا ومقطوعًا بوقوعه، فقد عبر عنه بلفظ الماضي: "جاءتهم الحسنة" أما إتيان السيئة فغير محقق الوقوع، إذ نادرًا ما تقع السيئة بالنسبة إلى الحسنة، ولذا استعملت "إن" معها، ونكرت السيئة لإفادة التقليل، وعبر عن الإصابة بلفظ المضارع "تصبهم" المشعر بعدم تحقق الوقوع..

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم ٣٦]، تجد أنه قد نكرت الرحمة "رحمة"، وعبر عن الإذاقة بالماضي "أذقنا"، واستعملت "إذا"، وذا للدلالة على أن إذاقة الناس قدرًا قليلاً من الرحمة أمر مقطوع به.. ثم استعملت "إن"، والمضارع "تصبهم" ونكرت السيئة "سيئة" لإفادة أن إصابة السيئة لهم أمر غير مقطوع به، فالله عز وجل لا يؤاخذهم بما كسبوا بل يعفو عن كثير، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر ٤٥]..

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الروم ٣٣، ٣٤]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت ٥١]، تجد أن قوله عز من قائل: "أذاقهم منه رحمة" "أنعمنا على الإنسان"، مقطوع بوقوعه، وهذا واضح كما بينا في الآيتين

(١) ارجع إلى الإيضاح جـ١ ص١٨٦، ١٨٧.

السابقتين، ولذا استعملت "إذا" في الموضعين، أما قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ ﴾.. ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ فقد يلتبس عليك التعليق بـ"إذا" فيهما وتقول: إن مس الضر أو الشر ينبغي أن يكون نادرًا وغير مقطوع بوقوعه، فالموضع موضع "إن" لا "إذا"، ولكن هذا الالتباس سرعان ما يزول عندما تتأمل السياق في الآيتين وتعرف أن الحديث عن الإنسان الكافر الذي إذا مسه شر أو ضر دعا ربه منيبًا إليه، دعاه دعاء عريضًا، فإذا ما أنعم الله عليه، أعرض ونأى بجانبه وكفر بأنعم ربه، ولهذا توعدهم الله عز وجل "فتمتعوا فسوف تعلمون"، فمثل هذا الكافر ينبغي أن يكون مس الضر أو الشر له في حكم المقطوع به، وتلاحظ التعبير بلفظ "المس" في الآيتين وهو أقل من الإصابة أو الإذاقة، ثم تنكير الضر "ضر"، وتعريف الشر بأل الجنسية المفيدة أي نوع من أنواع الشر، فإذا ما أضفت ذلك إلى الإنسان المتحدث عنه وقد وقفت على حقيقته، تيقنت أن الشرط ينبغي أن يكون مجزومًا به ومقطوعًا بوقوعه..

وعندما تتأمل الشعر الجيد تجد للتعليق بهاتين الأداتين موقعًا لطيفًا ومذاقًا حلوًا..

اقرأ قول أبي الطيب المتنبي:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ ... وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

تجده قد استخدم "إذا" في جانب إكرام الكريم، فدل على أنه أمر محقق، وينبغي أن يوجد دائمًا وأن يقع كثيرًا، ثم استخدم "إن" في جانب إكرام اللئيم، فدل على أنه نادرًا ما يقع، لأن النفوس تنفر من اللئام وتأبى إكرامهم..

وتأمل قول المتنبي أيضًا مخاطبًا سيف الدولة:

أَجِزْنِي إِذَا أُنْشِدْتَ شِعْرًا فَإِنَّمَا ... بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدَّدَا

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ دُونَ صَوْتِي فَإِنَّنِي ... أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ وَالْآخَرُ الصَّدَى

تجده قد استعمل "إذا" فدل باستعمالها على قوة شعره، وكثرة إنشاده، وذيوعه في الناس، حيث غلب شعر الشعراء فصاروا يرددونه وصار هو الصائح المحكي..

وخذ قول قعنب بن أم صاحب في الهجاء:

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتَ بِهِ ... وَإِنْ ذُكِرْتَ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

تجده قد دل "بإذا" على أن سماع الخير عنه أمر محقق ويقع كثيرًا، ودل "بإن" على أن ذكره بسوء نادرًا ما يقع، فهو لا يفعل إلا ما يحمد عليه ويستحق به الثناء وشكر الشاكرين.. وعلى الرغم من ذلك فهم يذيعون السوء الذي قل أن يذكر به الممدوح ويصمون آذانهم عن الخير الكثير الذي يذكر به.

وقول محمد بن المولى في مدح يزيد بن قبيصة والي مصر في عهد أبي جعفر:

وَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً أَتْمَمْتَهَا ... بِيَدَيْنِ لَيْسَ نَدَاهُمَا بِمُكَدَّرِ

تراه قد دل "بإذا" على كثرة صنائعه وتحقق فعله الخير وسد حاجات المحتاجين..

ثم تأمل قول سعد بن ناشب:

فَيَا لَرِزَامٍ رَشِّحُوا بِي مُقْدِمًا ... إِلَى الْمَوْتِ خَوَّاضًا إِلَيْهِ الْكَتَائِبَا

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ... وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبَا

تجده قد دل باستخدام "إذا" على كثرة همه وتحقق وقوعه، فهو لا يخشى العواقب بل يدعها جانبًا ويسرع إلى الموت خواضًا إليه الكتائبا وتدبر تلك الصورة البديعة: "ألقى بين عينيه عزمه" حيث جسد العزم وأبرزه محسًّا مشاهدًا أمام عينيه.

وعد إلى النظم الكريم: فتأمل قوله تعالى: ﴿ **ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾** ﴾ [يس ٢٣، ٢٤]، تجد أن إيثار الأداة "إن" بالتعبير أفاد أن إرادة الضر غير محققة الوقوع وأنها نادرًا ما تقع، ومما يقوى هذا استخدام المضارع "يردن"، ولفظ "الرحمن" الذي ينبئ بالرحمة وعدم إرادة الضر، ثم تنكير الضر "بضر" لإفادة التقليل ولا يخفى عليك ما في الآية من التعريض، إذ المراد: أتتخذون من دونه آلهة إن يردكم الرحمن بضر لا تغن عنكم شفاعتهم شيئًا ولا ينقذوكم إنكم إذًا لفي ضلال مبين.. وإجراء الآية على التعريض فيه ترغيب لهؤلاء في قبول الحق واستمالة لهم نحو الهداية

والإيمان بالله وحده، لأنه ترك التصريح بنسبتهم إلى الباطل والضلال، ومحض النصح لهم حيث لم يرد لهم إلا ما يريده لنفسه(١)..

ومما جاء من ذلك وقد أريد به التعريض أيضًا قوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر ٦٥]، وقوله: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة ١٤٥]، وقوله عز وجل: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٠٩]، ولا يخفى عليك السر البلاغي الكامن وراء استخدام "إن" في الآيات الكريمة، وللتعريض في الآيات الكريمة بالإضافة لما سبق، فائدة أخرى جليلة وهي الإشارة إلى سلطان الألوهية القاهر، فمحمد ﷺ، وقد قربه ربه واصطفاه، وهؤلاء الصفوة من المهاجرين والأنصار يجري عليهم ما يجري على غيرهم، فالمعول عليه وأساس التفاضل بين البشر إنما هو التقوى والعمل الصالح، وفي هذا تعميق وتحديد لصفة البشرية، وحفظ لعقيدة التوحيد حتى لا يشوبها ما شابها في الشرائع الأخرى حيث قالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، ولهذا المعنى ترى القرآن الكريم يذكر الأنبياء بلفظ العبد: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن١٩]، ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم ٣٠]، وذلك للإشارة إلى أن البشرية جميعها سواء في العبودية. وإلى أن فضيلة هؤلاء إنما كانت بالعبادة(٢).

وعد إلى التعليق "بإن" و"إذا" فاقرأ قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر ٢]، تجد أن التعليق بإن في الآية الكريمة، أفاد إعراض هؤلاء الكفرة وشدة رفضهم وتعاميهم عن رؤية الآيات، فآيات الله في كونه كثيرة لا تتناهى:

ففي كلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ ... تدلُّ على أنَّهُ الْوَاحِدُ

ولكن هؤلاء قد تعاموا عن رؤيتها، لم ينقبوا عنها، لم ينظروا نظر متأمل،

---

(١) انظر الإيضاح ١/١٩٦.

(٢) انظر خصائص التراكيب ٢٧٠.

وإن حدث وعرضت لهم آية دون أن يبحثوا عنها، وتبين لهم وجه الحق فيها أعرضوا وقالوا: سحر مستمر..

واقرأ قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة ١]، وقوله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر ١-٣]، تجد التعليق "بإذا" في الآيتين أفاد تحقيق وقوع الشرط، فزلزلة الأرض وإخراجها أثقالها في ذلك اليوم من الأحداث الثابتة المحققة، ومجيء نصر الله الذي وعد به سبحانه وتعالى، حق ثابت لا ريب فيه، ولا يتردد في إثباته مؤمن، وقد جاء كما وعد جل وعلا..

وخذ قوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران ١١١]، وقوله عز وجل: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة ٢]، أفاد التعليق "بإن"، ضعف شوكة الكفرة وعدم جرأتهم على قتال المؤمنين، فقتالهم أمر نادر الوقوع، غير مقطوع به وكذا الظفر بالمؤمنين، أي: ظفر هؤلاء الأعداء بالمؤمنين أمر غير محقق وغير مقطوع به، "إن يثقفوكم" أي: يظفروا بكم.

ثم تأمل قوله: "وودوا" بالماضي عطفًا على المضارع: "يكونوا" "يبسطوا"، وما ينبئ به استعمال الماضي في موضع المضارع من رغبة الكفرة وتمنيهم وحرصهم الشديد على أن يتحقق هذا الفعل، وكأنه قيل: وودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم عن دينكم، فهم يتمنون لكم مضار الدنيا والآخرة من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفارًا، وردكم كفارًا أسبق المضار عندهم لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه..

هذا هو رأي الزمخشري ويرى الخطيب أن: "وودوا" ليس معطوفًا على الجزاء بل هو معطوف على الجملة الشرطية، كما في عطف: "ثم لا ينصرون" في الآية السابقة، وذلك لأنه ليس في تقييد: "وودوا" بالشرط فائدة، إذ ودادتهم أن يرتدوا

كفارًا حاصلة وإن لم يظفروا بهم[(١)].

❊ ❊ ❊

وللجهل بموقع "إن وإذا"، يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب فيغلطون.. انظر إلى قول عبد الرحمن بن حسان يخاطب بعض الولاة وقد سأله حاجة فلم يقضها:

ذُمِمْتَ وَلَمْ تُحْمَدْ وَأَدْرَكْتُ حَاجَتِي   تَوَلَّى سِوَاكُم أَجْرَهَا وَاصْطِنَاعَهَا

أَبَى لَكَ كَسْبَ الْحَمْدِ رَأْيٌ مُقْصِرٌ   وَنَفْسٌ أَضَاقَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ بَاعَهَا

إِذَا هِيَ حَثَّتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً   عَصَاهَا وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرٍّ أَطَاعَهَا

فالأبيات – كما ترى – في الهجاء والذم، إذ المخاطب ذو رأي مقصر، ونفسه أضاق الله بالخير باعها، وكان يقتضي ذلك أن يقول: إن هي حثته على الخير مرة عصا وإذا همت بشر أطاعها، ليناسب مقام الهجاء والذم، وتكون تلك النفس لا تهم بالخير إلا نادرًا، وإن همت به مرة عصاها، وتهم كثيرًا بالشر وإذا همت به أسرع إلى إجابتها.. ولذا قال الزمخشري: لو عكس لأصاب..

وقد حاول بعض أن ينتصر للشاعر، وأن يجيب عنه، فرأى أنه يقصد إثبات حث نفس الوالي له على الخير ووقوعه منها كثيرًا وعلى الرغم من ذلك فهو يعصيها ويقاومها ولا يجيبها، وأنه يبادر إلى الشر بمجرد أن تهم به نفسه، وهذا أبلغ في هجاء الوالي وذمه..

ولكن يدفعه قوله "مرة"، فهو تصريح بأن حثها على الخير قليل ونادرًا ما يقع، وإن وقع فإنه يقع مرة واحدة وأيضًا تصريحه في البيت الثاني بأن هذه النفس نفس أضاق الله بالخير باعها يمنع ذلك ويدفعه..

وتأمل قول أبي تمام مادحًا:

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ والورَى   مَعِي وإذا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

فقد مر بك هذا البيت في الحديث عن فصاحة الكلام وتبين لك أن قوله:

---

(١) انظر الكشاف ٤/ ٩٠ والإيضاح ١/ ١٩٧.

"وإذا مالمته" لا يناسب مقام المديح لأنه يدل على أن اللوم يقع من الشاعر كثيرًا، ولو قال: وإن لمته لمته وحدي، لأصاب وأجاد، ومما يحمد للشاعر في البيت أنه قابل المدح باللوم والذي يقابل المدح هو الهجاء لا اللوم وكأن الممدوح لا يفعل ما يستحق عليه هجاء، وإنما قد تصدر منه أشياء يسيرة يلام عليها فقط(١).

وكذا القول في بيت أبي العلاء المعري:

إِذَا سَئِمَتْ مُهَنَّدَهُ يَمِينٌ ... لِطُولِ الْعَهْدِ بدَّلَهُ شِمَالاَ

فقد عبر "بإذا" فدل ذلك على تحقق السأم والقطع بوقوعه وهذا ينافي مقام المدح، فالموضع موضع "إن" لا "إذا"(٢).

وقول الحطيئة في المدح أيضًا:

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبُنَا ... وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وإنْ عَقَدُوا شَدُّوا

أساء الحطيئة باستخدامه "إن" ولو استخدم "إذا" لأجاد وأحسن لأن الموضع موضعها كما لا يخفى، وقد مر بك البيت في الحديث عن تعريف المسند إليه بأسماء الإشارة.

استخدام "إن" في موضع "إذا" و"إذا" في موضع "إن"

وقد تستعمل "إن" في موضع "إذا"، أي في الشرط المقطوع بوقوعه، المجزوم بتحققه، وتستعمل "إذا" في موضع "إن"، أي في الشرط غير المقطوع بوقوعه، وذلك لاعتبارات بلاغية يقتضيها المقام ويستدعيها الحال.. تقول: إن طلعت الشمس ذهبت إلى الحبيب، فطلوع الشمس أمر محقق مقطوع بوقوعه، فحقه أن تدخل عليه "إذا" لا "إن"، ولكنك استخدمت "إن" لهدف بلاغي، وهو استبطاؤك طلوع الشمس، وامتداد الظلام عليك وطول الليل، وكأنه لا يمر، ولا يريد أن ينجلي بصبح، وأنت تترقب وتنتظر بزوغ الضوء حتى تسرع إلى لقاء الحبيب..

إن استخدامك "لإن" أنبأ بامتداد الليل، وكأن طلوع الشمس صار بالنسبة لك أمرًا غير محقق الوقوع، صار أمرًا مستبعدًا..

---

(١) ارجع إلى هذا البيت في الحديث عن مفهوم الفصاحة والبلاغة في التمهيد.

(٢) ارجع إلى هذا البيت في الحديث عن تنكير المسند إليه.

وتقول: إن مات فلان البخيل انتفع الناس بماله، فالموت أمر محقق الوقوع: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران ١٨٥]، ولكنك استخدمت إن لتشعر باستثقالك وجود البخيل وعدم ارتياحك له ورغبتك في التخلص منه، وكأنك لطول تمنيك موته والتخلص منه، صرت تستبعد وقوعه، صار موته أمرًا غير مجزوم بوقوعه على الرغم من تحققه وأنه آت لا محالة..

وتقول لمن يؤذي أباه ولا يحسن إليه ولا يبره: إن كان أباك فلا تؤذه.. إن كان أباك فأحسن عشرته وبره، فكونه أباه أمر محقق ولكنك جعلته أمرًا غير مجزوم به، فنزلته منزلة الجاهل الذي لا يعلم أنه أبوه لعدم جريه على موجب علمه وكأنك تريد بهذا تأنيب المخاطب وتوبيخه وحثه على بر أبيه والإحسان إليه.

وتأمل قوله عز وجل: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف: ٥]، في قراءة من قرأ بكسر الهمزة "إن"، والمعنى أنهملكم فنضرب عنكم القرآن بترك إنزاله لكم، وترك ما فيه من الأمر والنهي والوعد والوعيد إن كنتم مسرفين، فكونهم مسرفين أمر مقطوع به وحقيقة ثابتة مقررة، وقد استعملت "إن" في هذا الشرط المقطوع به لقصد توبيخهم على الإسراف، وتصوير أن المقام لا يحتمل هذا الإسراف فالعاقل لو تدبر وتأمل آيات الله في كونه لما أسرف، ولأقلع عن إسرافه وعناده، فحق هذا الإسراف الانتفاء وألا يكون إلا على سبيل الفرض والتقدير، كما تفرض المحالات، ولذا استخدمت "إن" في الآية الكريمة على الرغم من تحقق إسرافهم.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة ٢٣]، فهم في ريب قطعًا، وقد استخدمت "إن" في هذا الأمر المحقق توبيخًا لهم ولإفادة أن المقام يشتمل على ما يزيله ويقلعه من أصله، وهو الآيات الدالة على أنه منزل من عند الله، فوقوع الريب منهم ينبغي ألا يكون إلا على سبيل الفرض. كما يفرض المحال..

ويرى بعض البلاغيين أن تكون الآية من قبيل تغليب غير المرتابين من المخاطبين على المرتابين منهم، لأنه كان فيهم من يعرف الحق وإنما ينكره عنادًا وتكبرًا، فجعل الجميع كأنهم لا ارتياب لديهم، ولذا استعملت فيه "إن"، على سبيل

الغرض للتبكيت والإلزام[١].

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج٥]، فالقوم وهم الكفرة في ريب حقيقة، وقد استعملت "إن" توبيخًا لهم وإشارة إلى أن الأدلة على إمكان البعث بينة جلية، فلا ينكر وقوعه ولا يشك فيه إلا معاند أو جاهل، فحق هذا الريب الواقع منهم، ألا يوجد إلا على سبيل الفرض كما يفرض المحال..ويمكن جعل الآية من قبيل التغليب كما في الآية السابقة..

وتأمل الآيات الكريمة: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [آل عمران ١٦٠]، ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ۝١٥٨ ﴾ [آل عمران ١٥٧، ١٥٨].. ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران ١٤٤]، تجد أن "إن" قد دخلت على أمر محقق واقع لا محالة أو مجزوم بوقوعه، وهو الموت أو القتل في سبيل الله، ونصر الله للمؤمن، ما عدا قوله تعالى: "وإن يخذلكم" فخذلانه تعالى للمؤمنين لا يقع إلا نادرًا، وهو إن وقع يكون ابتلاء واختبارًا ولحكمة لا يعلمها إلا هو، وعندما تفتش عن السر البلاغي الكامن وراء استعمال "إن" في الآيات الكريمة تراه دقيقًا ولطيفًا، فقوله: "إن ينصركم الله" تشير إلى أن أهليتهم للنصر أمر عزيز نادر، فالله ينصر من ينصره، والذين ينصرونه هم فئة قليلة.. وقوله: "ولئن متم أو قتلتم.." تشير إلى غفلتهم و:أنهم لعدم عملهم لما بعد الموت قد صاروا في حال من لا يتوقع وقوعه، وفيه أيضًا أن خلوص الموت لله مما هو عزيز نادر.. وقوله: "أفإن مات أو قتل"، تشير إلى مدى حب الصحابة لرسول الله ﷺ - وتعلقهم به إلى حد صاروا فيه كأنهم يستبعدون موته أو استشهاده في سبيل الله ويعدون ذلك نادرًا عزيزًا أي: مستبعدًا، وغير خاف عليك ما وقع منهم رضوان الله عليهم عندما سمعوا نبأ وفاته عليه الصلاة والسلام، وقول عمر عندما سمع الآية من أبي بكر رضي الله عنهما: "والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت حتى

(١) انظر المطول: ١٥٨.

ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض"..

وانظر إلى قول المتنبي:

إِذَا صَرَفَ النَّهَارُ الضَّوءَ عَنْهُمْ ... دجَا لَيْلاَنِ ليلٌ والغُبَارُ
وإن جُنْحُ الظَّلامِ انْجَابَ عَنْهُمْ ... أَضَاءَ الْمَشْرَفِيَّةُ والنَّهَارُ

فهو يتحدث عن مجاهدين أثاروا الغبار وأشهروا السيوف، فإذا حل ظلام الليل رأيت ظلامين، ظلام الليل وظلامًا ناجمًا عن الغبار المثار، وإذا انجاب ظلام الليل رأيت ضوءين، ضوء النهار، وضوء السيوف.. فذهاب الليل وحلول النهار، وذهاب النهار وحلول الليل من الأمور المحققة الثابتة، وعلى الرغم من ذلك تجد الشاعر قد استعمل "إذا" في البيت الأول مفيدًا بهذا أن ذهاب النهار وحلول الليل أمر محقق ثابت الوقوع.. ثم استعمل "إن" في البيت الثاني وكأن ذهاب الليل وحلول النهار من الأمور غير المحققة التي لا تقع إلا نادرًا.

ويهدف الشاعر بهذا إلى تصوير حال هؤلاء المجاهدين وأنهم مستمرون في الجهاد والقتال، فالليل ممتد متواصل والكفاح مستمر وكأنه لن يحل نهار مكان ليلهم الممتد، ولا هدوء أو سكينة مكان كفاحهم المتواصل، وإن حل ذلك ووقع فهو من الأمور النادرة، وهذا معنى دقيق أبرزه الشاعر باستخدامه "لإن" في موضع "إذا" في البيات الثاني.

❊ ❊ ❊

وكما تستخدم "إن" في موضع "إذا" فكذلك تستخدم "إذا" في موضع "إن"، تقول لمن شك في عطف الأمير، ويئس من قضاء حاجته، وأخذ يقول: لا أدري أيكرمني الأمير ويتفضل على بقضاء حاجتي أم لا؟، تقول له: إذا أكرمك الأمير وقضى لك حاجتك فكيف يكون شكرك..

فكرم الأمير قد تشكك فيه الرجل وتردد وجعله من الأمور النادرة غير المقطوع بوقوعها، وجعلته أنت باستخدامك "إذا" من الأمور الثابتة المحققة الوقوع، وكأنك تريد الإشعار بأنه لا ينبغي الشك في كرم الأمير وتفضله..

ومن ذلك قول أبي ذؤيب:

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا ... وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

فقد وضع "إذا" في الشطر الثاني موضع "إن" لسر بلاغي وهو الحث على تملك النفس وردها إلى القليل وبناء الفعل للمجهول يوحي باستبعاد من ينهض بهذا الرد، كما أن التعبير بالمضارع يوحي بأن النفس تتفلت وترغب في الكثير وأن على المرء أن يمسك بزمامها ويجدد ردها إلى القليل كلما حاولت أن تتفلت منه..

وتأمل قول الأحوص:

إِذَا رُمْتُ عَنْهَا سَلْوَةً قَالَ شَافِعٌ ... مِنَ الْحُبِّ مِيعَادُ السُّلُوِّ الْمَقَابِرُ

سَتَبْقَى لَهَا فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا ... سَرِيرَةُ حُبٍّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ

تجده يتحدث عن حب قد تغلغل بداخله، وعشق قد استقر في قلبه وأحشائه، وهو حب باق ودائم لا يبلى، بل سيبقى سره يوم تبلى السرائر، ولو حاول الأحوص سلوا ناداه مناد وزجره زاجر: "ميعاد السلو المقابر".. فالموضع - كما ترى - موضع "إن" لأن إرادة السلو ونسيان مثل هذا الحب من الأمور غير المحققة التي لا تقع إلا نادرًا، ولكن الشاعر أراد "بإذا" معنى دقيقًا، مغزاه: أن هذا الحب باق حتى لو رمت سلوه وجزمت، وثبت ذلك وتكرر مني، ووقع كثيرًا، وصار من الأمور المحققة المجزوم بها، حتى لو حدث هذا فحبها باق لن يزعزع.. أي: لن يُحرك ولن يُقتلع.

وانظر إلى قول المتنبي مخاطبًا سيف الدولة عندما تخلى عنه وتغير عليه:

إِنْ كَانَ سَرَّكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا ... فَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ

فلا يخفى عليك استخدام "إن" في الشطر الأول في موضع "إذا" واستخدام "إذا" في الشطر الثاني في موضع "إن"، وذلك لأن سيف الدولة قد ثبت وتحقق تخليه عن الشاعر، وسره ما قال حاسدوه، وهو أي سيف الدولة من هو، إنه لا يرضى لجريح أن يتألم، وقلما يرضى لمكلوم أن يقاسي ألم جرحه، وكأن المتنبي بإيثاره هذا التعبير، يريد أن يقول لسيف الدولة: ما كان ينبغي لما بيننا من الألفة والمحبة

وطول الود والمخالطة، أن يكون منك هذا التغير وأن يسرك ما قال حاسدنا وأن يثبت ويتحقق رضاك بآلامي وجراحي التي ستصيبني لفراقك والبعد عنك بل كان ينبغي أن يكون ذلك من الأمور النادرة.. ويتضح لك هذا المعنى في قوله:

يـــا مَـــنْ يَعِـــزُّ علينَـــا أنْ نُفَـــارِقَهُمْ وُجْـــدَانُنَا كُـــلُّ شَيْءٍ بَعْـــدَكُم عَـــدَمُ

هذا وقد تدخل "إن" و"إذا" على الأمور المفروضة المحالة المجزوم بانتفائها وذلك لغرض بلاغي يقتضيه المقام.. تأمل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف ٨١]، تجد أن "إن" قد دخلت على أمر مستحيل مجزوم بانتفائه وهو أن يكون للرحمن ولد تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، والغرض من ذلك هو إرخاء العنان للمعاندين بفرض ذلك المحال تبكيتًا لهم وتوبيخًا..

ومثله قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ [البقرة ١٣٧]، فما آمنوا به ليس له مثل، وقد فرض ذلك تبكيتًا للكفرة وتسفيهًا لأحلامهم..

وقوله جل وعلا: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال ٣٢]، فهم يعتقدون أنه باطل وقد قالوا هذا على سبيل الفرض كما يفرض المحال، وذلك لإعلان رفضهم وتمسكهم بضلالهم، فهم لن يؤمنوا بالقرآن ولو فرض كونه حقًا وتحقق هذا الفرض، فليمطروا بحجارة من السماء أو يأتيهم عذاب أليم، أما الإيمان به فلا ولن يكون منهم..

ويقول لك البخيل: إذا طرت في السماء بجناحين كالطائر أعطيتك درهمًا، يريد أن يقطع كل أمل لك في الحصول على شيء منه، فلو تحقق المحال وطرت بجناحيك في الجو حصلت على درهم منه، ولكن هيهات هيهات، أنَّي يتحقق لك هذا المحال..

مجيء الماضي لفظًا مع "إن"

قلت لك: إن "إذا" و"إن" للشرط في المستقبل، أي لتعليق حصول الجزاء على حصول الشرط في الاستقبال، فإذا دخلتا على الماضي فهو ماض لفظًا مستقبل

معنى نحو: إذا جاءني الفقير أكرمته.. إن استجبت لزيد أحسن معاملتك، فالمراد بالشرط والجزاء في المثالين الاستقبال.. ولكون "إذا"، الأصل فيها أن تدخل على الشرط المجزوم بوقوعه، كان الغالب في الفعل المستعمل معها أن يكون بلفظ الماضي للإشعار بتحقق الوقوع على نحو ما مر بك في الشواهد..

أما "إن" فالأصل فيها أن تدخل على الشرط غير المجزوم بوقوعه، ولذلك ينبغي أن تدخل على المضارع فيقال إن تكرمني أكرمك، ولا يجيء الماضي مع "إن" لفظًا إلا لغرض بلاغي وهو إبراز غير الحاصل الذي يحدث في المستقبل في معرض الحاصل الذي وقع في الماضي وتحققنا من وقوعه، ويكون ذلك لأسباب عديدة نذكر منها:

إظهار التفاؤل كقولك إن ظفرنا على الأعداء تحقق الأمان. ومنها التعريض بما هو واقع كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٠٩]، فهو تعريض بالزلل الواقع من المشركين.. ومنها: الرغبة في وقوع الشرط وحصوله، كقولك: إن نجح خالد أولم لنا.. إن قرأت البلاغة تكون لديك الذوق السليم.. ومنها: الإشارة إلى أن الفعل واقع لا محال كقولك: إن مت كان كذا.. إن زالت الشمس جاء فلان.

ومما عبر فيه بالماضي مع "إن" رغبة في تحقق الشرط وحصوله، قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النور ٢٣]، فالمعنى: ولا تكرهوا إماءكم على الزنا إن أردن تحصنا، والأصل: إن يردن تحصنًا، فعبر بالماضي إظهارًا للرغبة في وقوع إرادة التحصن من الفتيات.. وقد عبر "بإن" دون "إذا" للإشعار بندرة إرادة التحصن بينهن وأن الكثيرات كن يفعلن ذلك عن طواعية ورغبة في البغاء..

أما فائدة تعليق النهي عن الإكراه بإرادة التحصن، المشعر بأن الإماء إذا أردن البغاء فلا نهي، فهي تبشيع هذه الصورة وحث المكره الغاصب على أن يأنف من هذه الرذيلة.. ووجه التبشيع والحث على الانتهاء هو إقراع سمعه والنداء عليه بأن أمته خير منه، فقد آثرت التحصن على الفاحشة، وهو يأبى إلا إكراهها على

البغاء[١].

والرغبة في وقوع الأمر وحصوله قد تقوى لدى الراغب وتشتد وتبلغ مبلغًا يتصور فيه غير الحاصل حاصلاً والمحال واقعًا، بل ويقيم عللاً يعلل بها وقوع هذا المحال الذي قويت رغبته في حصوله ووقوعه، على نحو ما نرى في قول أبي العلاء المعري:

مَا سِرْتُ إلاَّ وَطَيْفٌ مِنْكِ يَصْحَبُنِي ... سُرًى أَمَامِي وَتَأْوِيبًا عَلَى أَثَرِي

اشتدت رغبته في مصاحبة فتاته وملازمة طيفها له، وتصور أنه لا يسير إلا وذاك الطيف يصحبه ويتبعه ويلازمه، ويعلل عدم رؤيته إياه بأن الظلام يحول بينه وبين تلك الرؤية ليلاً "سرى أمامي" أما نهارًا فإن الطيف يتبعه ويسير وراءه "تأويبًا على أثرى" ولذا فإنه لا يراه.

ومما عدل فيه عن المضارع إلى الماضي بعد "إن" إظهارًا للرغبة في وقوع الفعل وتحققه قوله تعالى: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة ٢]، فقد عبر بالماضي في قوله "وودوا" لرغبة العدو وشدة حرصه على أن يقع هذا الكفر ويتحقق، فالعدو يريد أن يلحق بالمسلم مضار الدين والدنيا من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض ورده كافرًا، ورده كافرًا أسبق المضار عند العدو وأقواها لعلمه أن الدين أعز على المسلم من روحه وأنه بذَّال لها دونه، ولذا كان التعبير بالماضي "وودوا لو تكفرون"[٢].

هذا وقد تستعمل "إن" في غير الاستقبال قياسًا مطردًا، إذا كان فعل الشرط "كان" كقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف ٢٧]، وقوله عز وجل: ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ [المائدة ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة ٢٣]، أي: إن

(١) انظر الكشاف جـ٣، ص٦٦.

(٢) انظر الإيضاح جـ١ ص١٩٧. والأولى أن يكون قوله: "وودوا لو تكفرون" معطوفاً على الجملة الشرطية لا على الجواب لأن ودادتهم أن يرتدوا حاصلة وإن لم يظفروا بهم. هذا ما يراه الخطيب، والزمخشري يرى الرأي الأول.. انظر الكشاف جـ٤ ص٩٠.

حصل منكم ريب فيما مضى واستمر ذلك إلى وقت الخطاب.. وربما ورد دخولها على غير كان وهو ماض.. كما في الشواهد السابقة.

وكما في قول أبي العلاء المعري:

فَيَا وَطَنِي إِنْ فَاتَنِي بِكَ سَابِقٌ   مِنَ الدَّهْرِ فَلْيُنْعَمْ لِسَاكِنِكَ الْبَالُ

كما قد تدخل "إذا" على الماضي لفظًا ومعنى، على نحو ما ترى في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ [الكهف ٩٦]، وعلى الماضي الدال على الاستمرار كما في قوله عز وجل: ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون** ﴾ [البقرة ١٤].

بقى أن تعلم أن هاتين الأداتين: "إن وإذا" قد تستعملان لمجرد الربط فقط كما في قوله تعالى: ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ [النساء ١٣٥]، ولذا ينبغي أن يقال: إن هذه الأحكام التي ذكرها البلاغيون مبنية على الأكثر والغالب، لا على القطع واليقين وأن هاتين الأداتين قد تكونان في النادر لمجرد الربط بين الشرط والجزاء، كما في الآية المذكورة(١).

وأن تعلم أيضًا الرد على هؤلاء الذين يقولون: إذا كانت "إن" تدخل على الشرط غير المقطوع به، وإذا تدخل على المجزوم بوقوعه، فكيف تقعان في القرآن الكريم والله تبارك وتعالى عالم بحقائق الأشياء على ما هي عليه ويستحيل في حقه تعالى الشك والتردد، وكذا لا يتصور منه تعالى جزم، لأنه علام الغيوب.. والرد عليهم هين وهو أن القرآن الكريم قد نزل على مذاهب العرب في الكلام وجاء على طرقهم في التعبير والقول، ثم إن الأداتين من أدوات الشرط، فالمعنى قائم على الربط والتعليق، لا على الإخبار.

استعمال "لو"

وأما "لو" فأصلها أن تكون للشرط في الماضي مع القطع بانتفاء الشرط

---

(١) انظر خصائص التراكيب ص٦٤.

وانتفاء الجزاء، فهي موضوعة للدلالة على امتناع الجزاء وعلى أن امتناعه ناشئ عن امتناع الشرط.. تقول: لو جئتني لأكرمتك، فيدل هذا على أن الإكرام لم يحدث، لأن المجيء لم يتم، أي أن الجواب قد انتفى لانتفاء الشرط، ولذا قيل إنها حرف يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط..

وإذا كانت "لو" للشرط في الماضي، بمعنى أنها تدل على ارتباط مضمون الجزاء بمضمون الشرط فيما مضى، فيلزم من هذا كون جملتيها فعليتين ماضيتين، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء ٢٢]، وكقول أبي العلاء:

وَلَوْ دَامَتِ الدَّولاَتُ كَانُوا كَغَيْرِهِمْ ... رَعَايَا ولكنْ مَا لَهُنَّ دوامُ

ولا تدخل "لو" على المضارع إلا لنكتة بلاغية، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات ٧]، والمعنى: لو يعطيكم في كثير من الوقائع لشق ذلك عليكم ولوقعتم في هلاك وجهد، فقد امتنع عنتهم بسبب امتناع استمراره ﷺ على طاعتهم.. فتلاحظ أنه قد عدل عن الماضي إلى المضارع في الآية لقصد استمرار الفعل فيما مضى وقتًا بعد وقت، لأن المضارع يفيد الاستمرار والتجدد..

ومنه قول مجنون ليلى قيس بن الملوح (ت٦٨هـ):

وَلَوْ تَلْتَقِي أَرْوَاحُنَا بَعْدَ مَوْتِنَا ... وَمِنْ دُونَ رَمْسَيْنا مِنَ الأرض سَبْسَبُ

لَظَلَّ صَدَى صَوْتِي وَإِنْ كُنْتُ رِمَّةً ... لِصَوْتِ صَدَى لَيْلَى يَهَشُّ وَيَطْرَبُ[1]

عبر بالمضارع "تلتقي" للدلالة على رغبته في استمرار التقاء صدى صوتيهما بعد مماتهما، وبهذا الاستمرار يظل صدى صوته يهش ويطرب لصدى صوت ليلاه.

ومنه في غير "لو" قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة ١٤، ١٥]، فقد جاء قوله تعالى: "الله يستهزئ بهم"، بعد قول المنافقين: "إنما نحن مستهزءون"، لأن المضارع يفيد استمرار الاستهزاء على سبيل التجدد، وهو أبلغ من الاستمرار والثبوت الذي تفيده الجملة

(١) الرمس: القبر، وسبسب: امتداد واتساع.

الاسمية..

وقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة ٧٩]، فلم يعبر عن الكسب بالماضي كما عبر عن الكتابة، لأن كسبهم يتجدد بخلاف ما كتبوه.

وتأمل دخول "لو" على الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [السجدة ١٢]، وقوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ [الأنعام ٢٧]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [سبأ ٣١]، تجد أن "لو" قد دخلت على المضارع في الآيات الكريمة لتنزيله منزلة الماضي في تحقق الوقوع لصدوره عمن لا خلاف في صدق إخباره كما نزل "يود" في قوله تعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر ٢]، منزلة "ود"، لأن الفعل الواقع بعد "رب"، المكفوفة يجب أن يكون ماضيًا..

ويجوز أن يكون الغرض من التعبير بالمضارع في الآيات استحضار الصورة العجيبة صورة المجرمين وهم ناكسو الرءوس يطلبون ردهم إلى الدنيا كي يغيروا نهجهم في الحياة ويعملوا صالحًا، وصورة الكفرة وقد وقفوا على النار، والظالمين وهم موقوفون عند ربهم، وصورة وداد الكفرة لو أسلموا، وما من ريب في أن استحضار الصورة وإبرازها أمام المخاطبين مرئية مشاهدة يكون أشد وقعًا وأبلغ تأثيرًا..

ومن استحضار الصورة قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [فاطر ٩]، فقد عبر عن الماضي "أثار" بالمضارع "تثير" استحضارًا لتلك الصورة البديعة العجيبة الدالة على القدرة الباهرة، وهي صورة الرياح تثير السحاب وتحركه فينقاد لها ويساق، فقد جعل المضارع الصورة حاضرة أمام الأعين، وكأنها تبصر وتشاهد.. والتعبير بالمضارع عن الماضي استحضارًا للصورة، لا يحسن إلا في الأمور الغريبة العجيبة التي يهتم برؤيتها ومشاهدتها لفظاعتها وغرابتها وشدة تأثيرها كما رأيت في الآيات الكريمة.

وكما ترى في قول تأبط شرًا:

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ فِتْيَانَ فَهْمٍ ... بِمَا لاقَيْتُ عِنْدَ رَحَابِطَانِ

بِأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِي ... بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ

فَقُلْتُ لَهَا كِلاَنَا نِضْوُ أَرْضٍ ... أَخُو سَفَرٍ فَخَلِّي لِي مَكَانِي

فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِي فَأَهْوَتْ ... لَهَا كَفِّي بِمَصْقُولٍ يَمَانِي

فَأَضْرِبُهَا بِلاَ دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ(١)

فهو يتحدث عن أمر غريب إذ يزعم أنه قد التقى بالغول في تلك الفلاة وتحدث إليها وطلب منها المسالمة فأبت فقتلها، وتراه قد عبر بالمضارع "فأضربها" والسياق للماضي ليصور تلك الحال العجيبة التي تشجع فيها على ضرب الغول، كأنه يرينا إياها ويطلب منا مشاهدتها، تعجيبًا من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة..

ثم تأمل قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج ٣١] تجده قد عبر بالمضارع "فيكون"، استحضارًا لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة.. وفي الآية الثانية عبر بالمضارع أيضًا عن الماضي في قوله: "فتخطفه الطير أو تهوى به الريح"، إذ الأصل: فخطفته الطير أو هوت به الريح.. والغرض هو استحضار وإبراز هذه الصورة العجيبة وتصويرها مرئية ومشاهدة أمام الأعين.

(١) فهم: قبيلة الشاعر "تأبط شراً" وهذا لقب قد غلب عليه واسمه ثابت بن جابر بن سفيان.. ورحابطان اسم موضع، وتهوى بمعنى: تسرع مقبلة إلى .. والسهب: الفلاة.. والصحصحان: ما استوى من الأرض.. والنضو: المهزول من كل شيء فعل بمعنى مفعول، كأنه نضى وأخرج عن لحمه من جدب الأرض، وصريعاً: فعيل بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث.. والجران في الأصل مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره.

الفصل الرابع
أحوال متعلقات الفعل

"متعلقات" تقرأ بكسر اللام وتقرأ بفتحها، والكسر أرجح إذ يقال: تعلق المفعول بالفعل، وتعلق الجار بالمجرور بالفعل، فالمفعول متعلق بالفعل والجار والمجرور متعلق به.. والمراد بمتعلقات الفعل ما يتصل بالفعل ويتعلق به من فاعل ومفعول وجار ومجرور وظرف ومصدر وحال وتمييز وغير ذلك.. فالفعل يلابس هذه المتعلقات ويتصل بها فيتحقق بهذا الاتصال أو بتركه كثير من الأغراض البلاغية، ثم إن هذه المتعلقات يكمن وراء بنائها وتركيبها مع الفعل كثير من المزايا والدقائق اللطيفة، وعلى الدارس أن يلم بتلك المزايا، وأن يعلم كيف يقدم المتعلق على الفعل أو يتأخر عنه وما أغراض تقديمه أو تأخيره.. وإذا وجد أكثر من متعلق فكيف تصاغ الجملة؟ وما هو موضع كل متعلق فيها؟ ومتى يحذف؟.. نجد وراء ذلك كثيرًا من الأسرار والدقائق والمزايا التي ينبغي للدارس أن يقف عليها ويحيط بها.. ويلحق بالفعل في هذا ما هو بمعناه كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعل التفضيل وغيرها من المشتقات، ولذا ستكون دراستنا في هذا الفصل – إن شاء الله– هادفة إلى إيضاح وتجلية الأسرار البلاغية التي تكمن وراء الصيغ والعبارات في الموضوعات التالية:

١ – تقييد الفعل بالمفعول ونحوه..

٢ – دراسة المفعول والمزايا البلاغية التي تكمن وراء حذفه..

٣– تقديم المعمولات على الفعل أو ما في معناه..

٤ – تقديم بعض المعمولات على بعض..

وبعد ذلك سنعمد إلى دراسة ظواهر أسلوبية، وصور من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وهي تعم جميع أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات الفعل.

تقييد الفعل بمفعول ونحوه

إذا أردت أن تخبر عن مجرد وقوع الحدث وحصوله، دون إشارة لفاعله الذي صدر منه أو مفعوله الذي وقع عليه قلت: وقع ضرب أو حدث مجيء أو تحقق نجاح، فتجعل مصدر الحدث فاعلاً لفعل عام، إذ مرادك أن تخبر عن وقوع الحدث وحصوله من غير إفادة تعلقه بفاعل أو مفعول أو نحوهما، فأنت في غنى عن ذكر الفاعل والمفعول.

أما إذا أردت أن تقيد وقوع الفعل من فاعل فعليك أن تذكر ذلك الفاعل فتقول مثلاً: ضرب محمد، جاء زيد، نجح خالد.. وإذا أردت أن تقيده أي: الفعل بمفعول ونحوه، قلت: ضرب محمد اللص.. جاء زيد من البيت.. نجح عمرو في الاختبار.. اندفع خالد اندفاعًا وهكذا..

يقول عبد القاهر: "وههنا أصل يجب ضبطه وهو أن حال الفعل مع المفعول الذي يتعدى إليه حاله مع الفاعل، وكما أنك إذا قلت: ضرب زيد فأسندت الفعل إلى الفاعل كان غرضك من ذلك أن تثبت الضرب فعلاً له، لا أن تفيد وجود الضرب في نفسه وعلى الإطلاق، كذلك إذا عديت الفعل إلى المفعول فقلت: ضرب زيد عمرًا، كان غرضك أن تفيد التباس الضرب الواقع من الأول بالثاني ووقوعه عليه.

ألا ترى أنك إذا قلت: هو يعطي الدنانير، كان المعنى على أنك قصدت أن تعلم السامع أن الدنانير تدخل في عطائه أو أنه يعطيها خصوصًا دون غيرها، وكان غرضك على الجملة بيان جنس ما تناوله الإعطاء لا الإعطاء في نفسه، ولم يكن كلامك مع من نفى أن يكون كان منه إعطاء بوجه من الوجوه، بل مع من أثبت له إعطاء إلا أنه لم يثبت إعطاء الدنانير فاعرف ذلك فإنه أصل كبير عظيم النفع.."[1].

وذكر الخطيب أن تقييد الفعل بمفعول ونحوه إنما يكون لتربية الفائدة أي تكثيرها، تقول: ضربت فتفيد نسبة الضرب إليك ووقوعه منك، وتقول: ضربت

---

(١) دلائل الإعجاز ص١٧٦، ١٧٧.

زيدًا فتفيد وقوع الضرب منك على زيد، وتقول: ضربت زيدًا ضربًا شديدًا، ضربت زيدًا ضربًا شديدًا يوم الجمعة أمام الناس، فكلما زدت قيدًا ازدادت الفائدة، وأنت لا تزيد هذه القيود هكذا عبثًا، وإنما المقام هو الذي يملي عليك تلك الزيادة ويقتضيها، فأنت إذا أردت أن تخبر عن رؤيتك لزيد تقول: رأيت زيدًا، فإذا أردت أن تؤكد تلك الرؤية قلت: رأيته بعيني، فزيادة الجار والمجرور أفادت تأكيد الرؤية التي اقتضاها المقام(١).

وتأمل قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب ٤]، تجد أن القول لا يكون إلا بالفم والقلب لا يكون إلا في الجوف، ولما كان المقام مقام إنكار وزجر لمن يظاهر زوجه، قائلاً لها: "أنت عليَّ كظهر أمي" ولمن يجعلون الدعى ابنًا ويسوون بينه وبين الابن، فقد ذُكِر هذان القيدان: "في جوفه".. "بأفواهكم" تأكيدًا للإنكار ومبالغة في الردع والزجر..

ثم انظر إلى هذا القيد "لرجل" وتأمل فرق ما بين "ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه"، وبين "ما جعل الله من قلبين في جوف"، فستراه دقيقًا لطيفًا، لأن ذكر هذا القيد "لرجل" وتقييد الجعل به أبلغ في الإنكار وآكد في الردع والزجر، إذ المرأة قد يتصور وجود قلبين في جوفها، قلبها وقلب جنينها، وذلك عندما تكون حاملاً. أما الرجل فلا يتصور وجود قلبين في جوفه بحال من الأحوال، ولذا كان تقييد الجعل به أشد في الإنكار وأقوى في الزجر والردع..

وكذا القول في قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [النور ١٥]، فذكر هذين القيدين: "بألسنتكم" "بأفواهكم" قد أكد الإنكار والزجر، إذ الآية في سياق الحديث عن أولئك الذين خاضوا في حادثة الإفك. والتلقي لا يكون إلا بالألسنة، والقول لا يكون إلا بالأفواه، فذكر هذين القيدين فيه مزيد من الإنكار والردع والتوبيخ الذي اقتضاه المقام..

---

(١) انظر الإيضاح ١/ ١٢٥.

واقرأ في سورة الكهف قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف ٧٥]، تجد أن زيادة الجار والمجرور "لك" فيه مزيد من تأكيد اللوم وتقريره، وقد اقتضى المقام ذلك، إذ موسى عليه السلام قد اتبع العبد الصالح "الخضر" ليتعلم منه، وقال له الخضر: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف ٧٠]، ولكن موسى أنكر خرق السفينة ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ فذكَّره الخضر: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف ٧٢] واعتذر موسى ثم انطلقا، فلما قتل الغلام أنكر موسى مرة ثانية: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾؟ فذكره: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف ٧٥]، نلاحظ أن القيد "لك" فيه إبراز وإيضاح وتأكيد للوم الذي اقتضاه المقام، لأن موسى قد وعد العبد الصالح – عليهما السلام- ألا يسأله عن شيء يحدث، ولكنه لم يستطع صبرًا، فأنكر خرق السفينة، ولامه العبد الصالح على عدم صبره، ثم أنكر قتل الغلام، فأكد العبد الصالح اللوم بالجار والمجرور "لك"..

وبهذا يتضح –كما قلت- أن تلك القيود لا تزاد عبثًا، بل لداعٍ يقتضيه المقام، وينبغي على الدارس أن يكون بصيرًا بتلك المقامات وأن يقف على معاني تلك القيود وما يكمن وراءها من دقائق، وما يكون وراء استعمالها وتقييد الفعل بها من لطائف وأسرار..

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء ٩٧]،؟ وقوله تعالى: ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ [الصافات ١١٣]، وتأمل القيد "عليه وعلى إسحاق" وما يفيده من استعلاء البركة وإحاطتها بهما، ثم قارن بينه وبين القيد في الآية الأولى "على وجوههم"، وتبين كيف أبرز ذلك القيد أولئك الكفرة وقد علوا وجوههم، إن الحرف "على" يفيد الاستعلاء ولكنه استعلاء تعظيم في آية الصافات، واستعلاء خزي وإهانة في آية الإسراء..

وتأمل فرق ما بين اللام وعلى في الآيات الكريمة: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة ٢٨٦]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ [الأنبياء ١٠١]،

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات ١٧١]، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ [هود ٤٠]، تجد أن "اللام" قد ذكرت عند سبق النفع و"على" قد ذكرت عند سبق الضر، وذلك لأنك تلحظ في اللام معنى التملك والانتفاع وتلحظ في "على" معنى القهر والاستعلاء.

لذا يقول مجنون ليلى:

عَلَى أَنَّنِي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الْهَوَى وأخْلُصَ مِنْهُ لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِيَا

وتأمل فرق ما بين "على" و"في" في الآية الكريمة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة ٥]، ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ ٢٤]، ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [الكهف ١٠١]، تجد أن "على" تحمل معنى العزة والارتفاع، و"في" تحمل معنى الذل والانحطاط، وكأن المؤمن مستعل على جواد يركضه حيث شاء، والكافر منغمس في ظلام مرتبك فيه، لا يرى أين يتوجه..

وقد تجد في "في" معنى العزة والرفعة وذلك عندما يكون الانغماس في النعيم والغرفات والمقام الأمين.. كما في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ ٣٧].. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ﴾ [الدخان ٥١، ٥٢] ففرق بين انغماس في جنات وعيون ومقام أمين وغرفات ورحمة. وبين انغماس في ضلال أو غطاء عن ذكر الله أو عذاب مهين. . تأمل: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران ١٠٧]، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [سبأ ٣٨]..

إلى غير ذلك من المعاني الدقيقة التي تراها كامنة وراء استخدام حروف الجر في القرآن الكريم والتراكيب الجيدة .. فالمقام لا يتسع هنا لكي نفصل القول في تلك المعاني، ولذا سنخصها –إن شاء الله تعالى– بدراسة مستقلة، تجليها وتبرز ما وراءها من دقائق وأسرار..

وشأن الجار والمجرور شأن سائر المتعلقات، فهي لا تذكر إلا إذا اقتضاها المقام ودعا إليها داع.. انظر إلى ذكر المفعول المطلق وإفادته للتأكيد في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الفرقان ٢١]، وقوله عز وجل: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ [الفرقان ٣٦]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الفرقان ٣٨، ٣٩]، فتقييد الفعل بالمفعول المطلق في الآيات الكريمة: "عتوا عتوا.. دمرناهم تدميرًا. تبرنا تتبيرًا" قد أدى إلى المبالغة وتوكيد وقوع هذه الأفعال، والمقام قد اقتضى ذلك فهؤلاء لا يرجون لقاء الله ويطلبون إنزال الملائكة عليهم ويطلبون رؤية ربهم، وهذا عتو ما بعده عتو.. وأولئك قد كذبوا واستكبروا، منهم من قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات ٢٤]، ومنهم من قال: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت ١٥]، ومنهم من عقر الناقة وعتا عن أمر ربه، فاستحقوا لهذا أن يضاعف لهم العذاب وأن يؤخذوا أخذ عزيز مقتدر، استحقوا أن يدمروا تدميرًا وأن يتبروا تتبيرًا، فالمصدر قد أبرز قوة العقاب وكشف عن شدة الإهلاك..

وتأمل ذكر الحال في قوله تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل ١٩]، وكيف أبرزت الفعل وبينت كيفية وقوعه من سليمان – عليه السلام- فهو تبسم واضح قد قوى حتى وصل إلى حد الشروع في الضحك[1] وانظر إلى الحال في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب ٤٥، ٤٦]، وكيف أفصحت عن مهمة النبي ﷺ وبينت الهدف والغاية من إرسال الرسل..

وتأمل ذكر الحال في قول البحتري يمدح إبراهيم بن المدبر:

دَنَوْتَ تَوَاضُعًا وَعَلَوْتَ مَجْدًا ... فَشَأْنَاكَ انْخِفَاضٌ وَارْتِفَاعُ

وكيف أبرزت ما يقصده الشاعر وبينت المراد من الدنو والعلو، ثم انظر كيف

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ١٤٢.

يكون المعنى لو لم تذكر هذه الحال فقيل: "دنوت وعلوت فشأنك انخفاض وارتفاع، إن المعنى يكون ملبسًا ومشكلاً.. وبهذا يتبين لك أن تلك القيود لا تذكر إلا لمعنى يقتضيه المقام ويدعو إليه الداع.

❊ ❊ ❊

حذف المفعول

أبرز عبد القاهر الجرجاني في كتابه: "دلائل الإعجاز" ما يكمن وراء حذف المفعول به من دقائق ولطائف، وعندما ترجع إلى كتابه المذكور يتبين لك أن كل من جاء بعده من البلاغيين قد استمدوا وأفادوا من حديثه عن المفعول وتجليته لما يكمن وراء حذفه من مزايا وأسرار بلاغية.. وإليك بيان ذلك، وتفصيل القول في مزايا حذف المفعول وأسراره.

الفعل إما أن يكون لازمًا وإما أن يكون متعديًا، فالفعل اللازم لا يحتاج إلى مفعول نحو فرح محمد، وسعد على، وبكى عمرو، وشقى الكافر.. ولذا لا يدخل معنا في حذف المفعول، إذ لا مفعول له أصلاً، إلا إذا عديته بالهمزة أو بالتضعيف نحو: أسعدت عليًا وبكَّيت عمرًا وأشقيت فلانًا، فعندئذ يصير الفعل متعديًا ويجري عليه ما يجري على المتعدي من أحكام..

والفعل المتعدي له مفعول يقع عليه، ولا يحذف ذاك المفعول ويرد الفعل بدونه إلا لأغراض بلاغية وأسرار دقيقة يقتضيها المقام.. منها: أن يكون الغرض من التركيب إثبات المعنى الذي اشتق منه الفعل لفاعله أو نفيه عنه، من غير نظر إلى تعلقه بمفعول معين وعندئذ يكون الفعل المتعدي كاللازم في أنك لا ترى له مفعولاً لا لفظًا ولا تقديرًا.. تقول: فلان يحل ويعقد ويعطي ويمنع ويأمر وينهى ويضر وينفع وتقول: محمد يعطي ويجزل ويضيف ويقرى، فالمراد من ذلك إثبات المعاني التي اشتقت منها الأفعال لفاعليها دون نظر إلى تعلقها بمفعول ونحوه، وكأنك تريد: صار فلان بحيث يكون منه الحل والعقد والإعطاء والمنع، والأمر والنهي والضر والنفع والإعطاء، والإجزال والقرى والضيافة – صار أهلاً لذلك – ولو أثبت المفعول فقلت مثلاً: يعطي الذهب أو الدراهم لضاع هذا الغرض، إذ ينصرف الذهن إلى نوع المعطى لا إلى جنس الإعطاء.

ولذا فإنك عندما تريد بطي المفعول هذا الغرض، وهو إثبات المعنى في نفسه للفاعل، فإنك لا تنظر إلى المفعول المطوي، ولا تلتفت إليه، ولا تخطره ببالك، ولا تقدره إذ المقدر كالمذكور.

ومما ورد من ذلك في النظم الكريم قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ﴾ [الزمر ٩] – فالمعنى والله أعلم- هل يستوي من له علم ومن لا علم له من غير أن يقصد النص على معلوم.. وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝ ﴾ [النجم ٤٣، ٤٤، ٤٨]، فالمراد: هو الذي منه الإضحاك والإبكاء والإحياء والإماتة والإغناء والإقناء دون قصد إلى مفعول يقع عليه الفعل. وقوله تعالى: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة ٢٥٨]، أي يكون منه الإحياء والإماتة دون نظر إلى من أحيا ولا إلى من أمات.. وقوله عز وجل: ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة ١٧]، فالمفعول المطوي في "يبصرون" من قبيل المتروك المطروح الذي لا يلتفت إليه ولا يخطر بالبال ولا يقدر، إذ المراد وتركهم في ظلمات لا يتأتى فيها الإبصار منهم.. وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢٢]، أي وأنتم يقع منكم العلم وتتصفون به.. وقوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[الأنعام ١١٠]، أي: ونتركهم في ضلالهم يترددون حائرين متصفين بالعمه..

"وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى في نفسه فعلاً للشيء وأن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه أو لا يكون إلا منه أو لا يكون منه فإن الفعل لا يعدي هناك، لأن تعديته تنقض الغرض وتغير المعنى"(١).

فمثال الإخبار بأن الفاعل من شأنه أن يكون منه الفعل قولك: هو يعطي، إذا أريد التوكيد وتقوية الحكم لا القصر، وقولك يعطي محمد ويكرم خالد.. ومثال

(١) دلائل الإعجاز ص١٧٧.

الإخبار بأن الفعل لا يكون إلا من الفاعل قولك: هو يعطي.. هو يحل، إذا أردت بتقديم المسند إليه القصر.. ومثال الإخبار بأن الفعل لا يكون من الفاعل قولك: هو لا يعطي .. فلان لا يحل ولا يعقد..

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ [القصص ٢٣]، تجد أن المفعول قد طوى في أربعة مواضع، إذ المعنى وجد عليه أمة من الناس يسقون غنمهم أو مواشيهم وامرأتين تذودان غنمهما حتى يصدر الرعاء، وقالتا لا نسقى غنمنا فسقى لهما غنمهما.. ولكن هذا التقدير غير مراد فالمفعول لا يلتفت إليه في الآيات ولا يخطر بالبال ولا ينوي، لأن إرادته وتقديره يؤديان إلى خلاف المراد..

يقول عبد القاهر: "لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره ويؤتي بالفعل مطلقًا، وما ذاك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقى، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى، فأما ما كان المسقى أغنما أم إبلا أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه وذلك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم الإبل لم ينكر الذود، كما أنك إذا قلت: مالك تمنع أخاك؟ كنت منكرًا المنع لا من حيث هو منع، بل من حيث هو منع أخ.."(١).

وقد يكون الغرض من طي المفعول والسكوت عنه إثبات المعنى في نفسه للفاعل دون قصد إلى مفعول معين إلا أن هذا الإثبات المطلق يستلزم إثباتًا مقيدًا.. انظر إلى قول البحتري يمدح الخليفة "المعتز" ويعرض بالمستعين:

شَجْوُ حُسَّادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِ

فالمعنى: إن ما يؤلم حساده ويغيظ أعداءه أن يوجد في الدنيا من يرى ويسمع

---

(١) دلائل الإعجاز ص١٨٢.

"أن يرى مبصر ويسمع واع"، لأنه إذا وجد من يرى ويسمع، فسوف يرى قطعًا مآثره وأمجاده وسوف يسمع لا محالة عن محاسنه وسيرته، فقد اشتهرت محاسنه وذاعت مآثره بحيث لا تخفى على من يسمع ويرى، لأنها ملأت الآفاق وحلت بكل موضع، والذي يحزن حساده ويغيظ أعداءه -يعرض بالمستعين- أن يوجد من يرى ومن يسمع، لأن وجوده يستلزم أن يسمع أخبار المعتز وأن يرى فضائله ومحاسنه..

ولذا يذكر الخطيب أن الفعل مطلقًا قد جعل كناية عن الفعل مقيدًا بمفعول مخصوص، إذ بين مجرد الرؤية والسماع وبين رؤية المحاسن وسماع الأخبار تلازم وارتباط[1].

ومن جيد ذلك قول عمرو بن معد يكرب:

فَلَوْ أنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ ... نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتِ

يصف قومه بالجبن والفرار وأنهم لم يبلوا في الحرب بلاء، ولم يصنعوا شيئًا يستحقون به الحمد والثناء فما كان منهم قد حبس لسانه وقطعه عن النطق مشيدًا بهم، ولو كان منهم جهاد وبلاء حسن لنطق وأشاد به، هذا هو المعنى، وتجد الشاعر قد سكت عن المفعول وطواه في قوله: "ولكن الرماح أجرت"، لأن غرضه أن يثبت أنه كان من الرماج إجرار وحبس للألسنة عن النطق ولو قال: "أجرتني" لجاز أن يتوهم أنها أجرت لسانه هو دون ألسنة غيره، وأن الرماح قد صنعت شيئًا لو أبصره غير عمرو لأشاد به ونطق، فلما كان في تعديه "أجرت" ما يوهم ذلك وقف فلم يعد البتة ولم ينطق بالمفعول لتخلص العناية لإثبات الإجرار للرماح ويصحح أنه كان منها، وتسلم بكليتها لذلك[2].

ويرى الخطيب أن غرض الشاعر أن يثبت أنه كان من الرماح إجرار وحبس للألسنة عن النطق بمدحهم والافتخار بهم حتى يلزم بطريق الكناية

---

(١) انظر الإيضاح ١/ ٢١٦.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص١٧٧.

مطلوبه وهو أنها أجرت لسانه هو، فإثبات الإجرار للرماح مطلقًا يستلزم إثباته مقيدا[١]..

ولا يخفى عليك أن الاعتداد بالمعنى المكني به أولى وأبلغ في تحقيق مراد الشاعر من الاعتداد بالمعنى المكني عنه، ولذا كان رأي عبد القاهر أدق وعباراته وتحليلاته لطي المفعول أولى بالقبول وما كان أغنى الخطيب عن القول بالكناية وعن ذلك التحديد القاتل للمغزى من الحذف، إن ما ذكره مستمد من كلام عبد القاهر، ومحاولة لإيجازه وتحديده ولكنه إيجاز مخل، وتحديد قد قتل روح التذوق والاستمتاع.

وتأمل طي المفعول في قول طفيل الغنوي مادحًا بني جعفر بن كلاب:

جَزَى اللهُ عنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِئِينَ فَزَلَّتِ

أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلاَقِي الَّذِي لاَقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

هُمُ خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ وَأَلْجَأُوا ... إِلَى حُجُرَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظَلَّتِ

فقد طوى المفعول في قوله: "ملت وأدفأت وأظلت" إذ الأصل: "لملتنا وأدفأتنا وأظلتنا"، وسبب هذا الطي هو القصد إلى إثبات الفعل للفاعل دون نظر إلى مفعول معين، وهذا ينبئ ويشير إلى أن تلك الأفعال قد بلغت حد التناهي، فالأم لو لاقت ما لاقوه بنو جعفر منهم لكان شأنها الملل.. وتلك الحجرات حجرات عظيمة معدة إعدادًا طيبًا ومجهزة تجهيزًا خاصًا، فشأن مثلها أن يدفئ وأن يظل، كما تقول: هذا بيت يدفئ ويظل، تريد أنه بهذه الصفة ولو ذكر المفعول لما تحقق هذا المعنى الذي قصد إليه الشاعر..

واقرأ تحليل عبد القاهر للسر البلاغي الكامن وراء حذف المفعول في هذه الأبيات والبيت السابق إذ يقول: "واعلم أن لك في قوله: "أجرت" و"لمت" فائدة أخرى زائدة على ما ذكرت من توفير العناية على إثبات الفعل للفاعل وهي أن تقول: كان من سوء بلاء القوم ومن تكذيبهم عن القتال ما يجر مثله وما القضية فيه أنه لا يتفق على قوم إلا خرس شاعرهم فلم يستطع نطقًا، وتعديتك الفعل تمنع من

---

(١) انظر الإيضاح ١/ ٢١٨.

هذا المعنى، لأنك إذا قلت: "ولكن الرماح أجرتني" لم يمكن أن يتأول على معنى أنه كان منها ما شأن مثله أن يجر قضية مستمرة في كل شاعر قوم، بل قد يجوز أن يوجد مثله في قوم آخرين فلا يجر شاعرهم، ونظيره أنك تقول: "قد كان منك ما يؤلم"، تريد ما الشرط في مثله أن يؤلم كل أحد وكل إنسان ولو قلت ما يؤلمني، لم يفد ذلك، لأنه قد يجوز أن يؤلمك الشيء لا يؤلم غيرك.

هكذا قوله: "ولو أن أمنا تلاقى الذي لا قوه منا لملت"، يتضمن أن من حكم مثله في كل أم أن تمل وتسأم وأن المشقة في ذلك إلى حد يعلم أن الأم تمل له الابن وتتبرم به، مع ما في طباع الأمهات من الصبر على المكاره في مصالح الأولاد، وذلك أنه وإن قال "أمنا".. فإن المعنى على أن ذلك حكم كل أم مع أولادها، ولو قلت: "ملتنا" لم يحتمل ذلك، لأنه يجري مجرى أن تقول: لو لقيت أمنا ذلك لدخلها ما يملها منا، وإذا قلت ما يملها منا فقيدت، لم يصلح لأن يراد به معنى العموم وأنه بحيث يمل كل أم من كل ابن.

وكذا قوله: "إلى حجرات أدفأت وأظلت" لأن فيه معنى قولك: حجرات من شأن مثلها أن تدفئ وتظل، أي: هي بالصفة التي إذا كان البيت عليها أدفأ وأظل، ولا يجيء هذا المعنى مع إظهار المفعول، إذ لا تقول: حجرات من شأن مثلها أن تدفئنا وتظلنا، هذا لغو من الكلام، فاعرف هذه النكتة فإنك تجدها في كثير من هذا الفن مضمومة إلى المعنى الآخر الذي هو توفير العناية على إثبات الفعل، والدلالة على أن القصد من ذكر الفعل أن تثبته لفاعله لا أن تعلم التباسه بمفعوله"(١).

فأين هذا من قول الخطيب في بيان الغرض من الحذف في الأبيات: "فإن الأصل لمتنا وأدفأتنا وأظلتنا، إلا أنه حذف المفعول من هذه المواضع ليدل على مطلوبه بطريق الكناية"(٢).

أما حذف المفعول من قوله: "وألجأوا" إذ إن أصله: وألجأونا، فلا أرى له

---

(١) دلائل الإعجاز ١٨١.

(٢) الإيضاح ١/ ٢١٨.

غرضًا سوى مجرد الإيجاز والاختصار لأن حكمة حكم ما عطف عليه وهو قوله: "خلطونا بالنفوس"..

وقد يقصد بحذف المفعول الإيضاح بعد الإبهام وهو غرض جليل لأن الشيء إذا أبهم تطلعت النفوس إليه واشتاقت لمعرفته فإذا ما بين بعد ذلك وقع في النفس موقعًا حسنًا وترك فيها أثرًا طيبًا.. ويكثر هذا الحذف في مفعول المشيئة أو الإرادة الواقعة بعد "لو" و"إن" ونحوهما من أدوات الشرط، كما ترى في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل ٩]، إذ المعنى: ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين، فحذف مفعول "شاء" لدلالة جواب الشرط عليه، وفي هذا الحذف إبهام يعقبه إيضاح وتبيين، لأن المخاطب إذا سمع قوله تعالى: "ولو شاء"، تعلقت نفسه بشيء قد أبهم وهو مفعول "شاء" وتطلعت إلى معرفته، فإذا ما ذكر الجواب: "لهداكم" استبان ذلك الشيء وعرف بعد أن كان قد أبهم، ولذا كان أوقع في النفس وأبلغ وأشد تأثيرًا.

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام ٣٥]... ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الشورى ٢٤]... ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ [الشورى ٣٢، ٣٣]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة ١٣]، فقد حذف مفعول المشيئة في الآيات الكريمة وتقديره: لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم .. فإن يشأن الله الختم على قلبك يختم .. إن يشاء الله إسكان الريح أسكنها.. ولو شئنا إيتاء كل نفس هداها لآتينا.. ولا يخفى عليك ما في حذف المفعول ثم دلالة الجواب عليه، من الإيضاح بعد الإبهام، وهذا مما يجعل المعنى يقر في النفس ويثبت ويقع منها موقعًا حسنًا..

ومن ذلك قوله طرفة بن العبد:

فـإنْ شِـئْتُ لَمْ تُرْقِـلْ وإن شِـئْتُ أَرْقَلَـتْ مَخَافَـةَ مَلْـوِيٍّ مِـنَ الْقَـدِّ مُحْـصِدِ[1]

---

(١) لم ترقل: لم تسرع. والملوي: السوط المفتول المحكم وكذلك المحصد، والقد: الجلد المشقوق.

يتحدث عن ناقته فيقول: إن شئت الإرقال أرقلت وإن شئت عدم الإرقال لم ترقل، فطوى مفعول المشيئة في الموضعين كما ترى، وفي طيه إبهام أزاله وبينه جواب الشرط...

ومثله قول البحتري:

لَوْ شِئْتَ لَمْ تُفْسِدْ سَمَاحَةَ حَاتِمٍ كَرَمًا وَلَمْ تَهْدِمْ مَآثِرَ خَالِدِ[١]

يصف ممدوحه بأنه قد بلغ الغاية في الكرم والمجد حتى فاق شهرة حاتم وخالد فيهما، والأصل: لو شئت عدم إفساد سماحة حاتم وعدم هدم مآثر خالد لم تفسد ولم تهدم فأبهم بحذف المفعول ثم بين بجواب الشرط..

يقول عبد القاهر: "الأصل لا محالة لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته في الثاني عليه، ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب في حكم البلاغة ألا ينطق بالمحذوف ولا يظهر إلى اللفظ فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت: لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، صرت إلى كلام غث وإلى شيء يمجه السمع وتعافه النفس، وذلك أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له أبدا لطفًا ونبلاً، لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك. وأنت إذا قلت: لو شئت، علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة في المعنى بشيء فهو يضع في نفسه أن ههنا شيئًا تقتضي مشيئته له أن يكون أو ألا يكون، فإذا قلت: لم تفسد سماحة حاتم، عرف ذلك الشيء.."[٢].

ثم اقرأ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال ٣١]، أي: لو نشاء أن نقول مثل هذا لقلناه.. وقوله عز وجل: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام ٣٩] أي: من يشأ إضلاله يضلله ومن يشأ أن يجعله على صراط مستقيم

(١) حاتم هو حاتم الطائي وخالد هو خالد بن إصبع النبهاني الذي نزل عليه امرؤ القيس.
(٢) دلائل الإعجاز ١٨٣.

يجعله.. فلن يخفى عليك ما في حذف المفعول من دقة وجمال مردهما إلى ما يتركه الإيضاح بعد الإبهام في النفس من وقع طيب وأثر حسن.

هذا إذا لم يكن في تعلق فعل المشيئة أو الإرادة بالمفعول به غرابة، وذلك بأن يكون المفعول من الأمور العجيبة الغريبة أو من الأمور البعيدة التي نادرًا ما تقع، فإن كان الأمر كذلك وجب ذكر المفعول ليتقرر في نفس السامع ويأنس به..

انظر إلى قول أبي الهندام الخزاعي في الرثاء:

قَضَى وَطَرًا مِنْكَ الْحَبِيبُ الْمُوَدِّعُ ... وَحَلَّ الَّذِي لا يُسْتَطَاعُ فَيُدْفَعُ

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ ... عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

لما كان بكاء الدم من الأمور العجيبة الغريبة، وكانت إرادة الإنسان لأن يبكي دمًا أعجب وأغرب، فقد ذكره الشاعر ليتقرر في نفس السامع ويأنس به، لأنه عندئذ يكون قد ذكره مرتين مرة مفعولاً للمشيئة ومرة جوابًا للشرط، والشيء إذا كرر فإنه يتقرر في النفس وتأنس به وتسكن إليه خاصة وأن غرابة المفعول تقتضي هذا التقرير..

ويقول الإنسان مخبرًا عن عزة نفسه، مفتخرًا بعلو مكانته: لو شئت أن أرد على الأمير لرددت ولو شئت أن ألقى الخليفة كل يوم للقيته، تراه قد ذكر مفعول المشيئة لكونه من الأمور المستبعدة التي تنكرها النفس ولا تقرها بسهولة، فالأمر إذًا يحتاج إلى تقرير وتأكيد، ولذا ذكر المفعول، وكرر بذكره ثانية في الجواب..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ** ﴾ [الزمر: ٤]، فاتخاذ الله ولدًا من الأمور الغريبة العجيبة، وقد آثر النظم الكريم التعبير عن ذلك بأسلوب الشرط «لو» وهي حرف امتناع لامتناع – كما درست– ردعًا وزجرًا لأولئك الذين قالوا اتخذ الله ولدًا، فقد قالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقال المشركون الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.. فلما كان المفعول بهذه الغرابة وجب ذكره بعد الإرادة كما ترى..

أما قول أبي الحسين علي بن أحمد الجوهري أحد شعراء الصاحب بن عباد:

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي بَكَيْتُ تَفَكُّرًا ... فَلَمْ يُبْقِ مِنِّي الشَّوْقُ غَيْرَ تَفَكُّرِي

فليس مفعول المشيئة فيه غريبًا، لأن المراد بالبكاء المذكور بعد "شئت": بكاء الدمع لا بكاء التفكر المذكور في الجواب، فالشاعر لم يرد أن يقول: فلو شئت أن أبكى تفكرًا لبكيت تفكرًا، ولكنه أراد أن يقول: أفناني النحول فلم يبق مني وفىً غير خواطر تجول حتى لو شئت بكاء فمريت جفوني وعصرت عَيْنَيّ ليسيل منهما دمع لم أجده ولخرج بدل الدمع التفكر، فالبكاء الثاني لا يصلح أن يكون تفسيرًا للبكاء الأول لو حذف، ومراد الشاعر لا يتم إلا بذكر مفعول المشيئة، وليس المعنى هنا في هذا البيت كالمعنى في بيت أبي الهندام، لأن البكاء هناك في الموضعين بكاء دم، أما هنا فالأول بكاء دموع والثاني بكاء تفكر، فلا يصلح الثاني دليلاً على الأول كما قلت.

ونظيره أن تقول: لو شئت أن تعطي درهمًا أعطيت درهمين، فالثاني وهو جواب الشرط لا يصلح أن يكون تفسيرًا للأول وهو مفعول "شئت" لأن الأول إعطاء درهم والثاني إعطاء درهمين.. ولا نبعد إذا قلنا: إن الغرابة في بيت الجوهري، في جواب الشرط "بكيت تفكرًا" وأنه لغرابته لا يدل على مفعول المشيئة لو حذف، ولذا وجب ذكره حتى لا يضيع غرض الشاعر كما بينا.

وقد يقصد بحذف المفعول تهيئة العبارة لوقوع الفعل على صريح لفظ المفعول، إظهارًا لكمال العناية بوقوعه عليه..

انظر إلى قول البحتري يمدح المعتز:

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي السُّوْ ... دَدِ وَالْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ مِثْلاً

يريد أن يقول: قد بحثنا لك عن شبيه في صفاتك العالية، فأجهدنا البحث وأضنانا دون أن نعثر على هذا الشبيه، فأنت فرد في صفاتك لا نظير لك ولا مثيل.. وتجد الشاعر قد حذف مفعول طلب ليتسنى له أن يوقع نفي الوجود على صريح لفظ المثل، لأن نفي الوجود هو الأصل في المدح والغرض منه، أما الطلب فكالشيء يذكر ليبنى عليه الغرض ويؤكد به أمره ولو قيل: قد طلبنا لك مثلاً في السؤدد

والمجد والمكارم فلم نجده، لوقع الفعل "طلب" على صريح لفظ المفعول، والفعل المنفي الذي هو الغرض الأصلي للمديح "فلم نجد" على ضميره، وفرق بين أن يقع الفعل على صريح اللفظ وأن يقع على ضميره، من أجل هذا حذف الشاعر مفعول "طلب"، لأن حذفه يمكنه من أن يوقع نفي الوجود على صريح لفظ المفعول.

وشيء آخر تراه وراء حذف المفعول في البيت وهو البيان والإيضاح بعد الإبهام، فحذف مفعول "طلب" قد جعل السامع يشغل به ويبحث عنه، فلما ذكر مع الفعل الثاني "فلم نجد" وقع في نفسه موقعًا حسنًا، لأنه جاء والنفس متطلعة إليه ومنشغلة به.

ومزية ثالثة تجدها وراء حذف المفعول في هذا البيت وهي مراعاة الأدب في مقام المدح، فالشاعر كان حذرًا ولطيفًا؛ إذ تحاشى أن يواجه الممدوح بأنه يطلب له نظيرًا ويبحث عن مثيل له، بل أشار إلى ذلك إشارة خاطفة ولم يمد القول، وكأنه يريد أن يطويه سريعًا ليصل إلى الغرض الأصلي من المدح وهو نفي وجود المثل[(١)].

وتأمل قول ذي الرمة يمدح بلال بن أبي بردة وينفي عن نفسه مدح اللئام:

وَلَمْ أَمْدَحْ لأُرْضِيَهُ بِشِعْرِي ... لَئِيمًا أَنْ يَكُونَ أَصَابَ مَالاَ
وَلَكِنَّ الْكِرَامَ لَهُم ثَنَائِي ... فَلاَ أَجْزِي إِلَى مَا قِيلَ قَالاَ

تجد أنه لما كان الغرض الأصلي أن ينفى عن نفسه مدح اللئام، وكان الإرضاء تعليلاً له، فقد ذكر الشاعر المفعول في الموضوعين وذلك ليقع نفي المدح على صريح لفظ اللئيم، ويقع الإرضاء على ضميره، ولو أنه حذف مفعول "أمدح" فقال: "ولم أمدح لأرضى بشعري لئيما، لما تحقق غرضه، ولتوهم متوهم أنه يريد أن ينفي عن نفسه إرضاء اللئيم، وأن هذا هو أصل كلامه وغرضه منه، أما "أمدح" فيكون كالشيء يذكر تبعًا ليبنى عليه الغرض، كما في بيت البحتري السابق، وليس هذا مراد الشاعر، بل مراده – كما قلت– أن ينفى عن نفسه مدح اللئام ليوقع في نفس ممدوحه آن ما يسمعه من شعره لا يعرف إلا الكرام وأنه ليس موكلاً إلا بهم..

---

(١) انظر الإيضاح ١/ ٢٢٢.

فالمقام في بيت البحتري قد اقتضى أن يحذف مفعول "طلب" ليقع نفي الوجود على صريح لفظ المثل، واقتضى في بيت ذي الرمة أن يذكر مفعولا "أمدح وأرضي"، ليقع نفي المدح على صريح لفظ اللئيم.. فكل من الحذف والذكر قد هيأ العبارة ليقع الفعل الأصلي على صريح لفظ المفعول.

وقد يقصد بحذف المفعول دفع توهم غير المراد ابتداء، ووقوع المعنى الذي يريده المتكلم في نفس مخاطبه من أول الأمر كما في قول البحتري يمدح أبا الصقر الشيباني في قصيدته التي مطلعها:

أَعَنْ سَفَهٍ يَوْمَ الْأُبَيْرِقِ أَمْ حِلْمِ ... وُقُوفٌ بِرَبْعٍ أَوْ بُكَاءٌ عَلَى رَسْمِ

قال مخاطبًا أبا الصقر:

وَكَمْ ذُدْتَ عَنِّي مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ ... وَسَوْرَةِ أَيَّامٍ حَزَزْنَ إِلَى الْعَظْمِ

يريد أن يقول إن الممدوح طالما دفع عنه عوادي الزمن، ورد عنه طغيان أيام ضربته فأوجعته، حتى بلغت في قسوتها الغاية، فقوله "حززن إلى العظم" كناية عن بلوغها الغاية في الشدة.. وتلاحظ أن الشاعر قد حذف مفعول "حز" وتقديره حززن اللحم إلى العظم وهو يريد بهذا الحذف أن يقع المعنى في نفس السامع ابتداء، إذ لو ذكر المفعول فقال: "حززن اللحم" لتوهم أن الحز كان ضعيفًا وأنه أصاب بعض اللحم مما يلي الجلد ولم يصل إلى العظم، فما دفعه عنه الممدوح إذًا شيء يسير، وليس سورة أيام وأحداثًا قد تحاملت عليه، فإذا ما وصل السامع إلى قوله: "إلى العظم" اندفع هذا التوهم وزال، ولكن الشاعر الحاذق هو الذي يوقع المعنى في ذهن سامعه من أول وهلة ولا يجعله يتصور في أول الأمر شيئًا غير مراد ثم ينصرف إلى المراد.

يقول عبد القاهر: "الأصل لا محالة: "حززن اللحم إلى العظم" إلا أن في مجيئه به محذوفًا وإسقاطه له من النطق وتركه في الضمير، مزية عجيبة وفائدة جليلة، وذاك أن من حذق الشاعر أن يوقع المعنى في نفس السامع إيقاعًا يمنعه به من أن يتوهم في بدء الأمر شيئًا غير المراد ثم ينصرف إلى المراد، ومعلوم أنه لو أظهر المفعول فقال: "وسورة أيام حززن اللحم إلى العظم" لجاز أن يقع في وهم السامع

إلى أن يجيء إلى قوله: "إلى العظم" أن هذا الحز كان في بعض اللحم دون كله، وأنه قطع ما يلي الجلد ولم ينته إلى ما يلي العظم، فلما كان كذلك ترك ذكر اللحم وأسقطه من اللفظ ليبرئ السامع من هذا ويجعله بحيث يقع المعنى منه في أنف الفهم "أي: في أوله لأن أنف الشيء أوله" ويتصور في نفسه من أول الأمر أن الحز مضى في اللحم حتى لم يرده إلا العظم.."(١).

وقد يحذف المفعول لإرادة التعميم والامتناع عن أن يقصره السامع على ما يذكر دون غيره. انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ [يونس ٢٥]، تجد أن المفعول قد حذف لإفادة العموم وأن الدعوى ليست مقصورة على أحد دون آخر بل تتعدى إلى كل من تتأتى دعوته فالمراد – والله أعلم – يدعو كل أحد تصلح دعوته إلى الجنة..

وتقول لصاحبك. قد كان منك ما يؤلم، أي: ما الشأن في مثله أن يؤلم كل أحد فحذفك المفعول أفاد التعميم مبالغة في إيلام ما كان منه، فهو من الشدة بحيث يؤلم كل أحد ولو ذكرت المفعول فقلت: قد كان منك ما يؤلمني، لفاتت تلك المبالغة المطلوبة..

وتأمل قول البحتري:

إِذَا بَعُدَتْ أَبْلَتْ وَإِنْ قَرُبَتْ شَفَتْ فَهِجْرَانُهَا يُبْلِي وَلُقْيَانُهَا يَشْفِي

تجده قد حذف المفعول في أربعة مواضع والتقدير: إذا بعدت عني أبلتني وإن قربت مني شفتني فهجرانها يبليني ولقيانها يشفيني.

والحذف – كما ترى أفاد المبالغة وعموم الفعل، وصور أن بعدها يبلي كل أحد فهو البلى والداء المضني، وأن قربها ولقيانها هو الشفاء والبرء من كل داء..

واقرأ قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات١].

يقول الزمخشري: وفي قوله تعالى: "لا تقدموا" من غير ذكر المفعول وجهان:

أحدهما: أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدم.

---

(١) دلائل الإعجاز ١٩١.

والثاني: ألا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدمة، كأنه قيل: لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ولا تجعلوه منكم بسبيل كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [غافر ٦٨]، ويجوز أن يكون من قدم بمعنى تقدم[١].

وقد يحذف المفعول حتى لا يقع عليه الفعل وذلك لمزية بلاغية وهدف يقصد إليه المتكلم.. انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً﴾ [الفرقان ٤١]، فالأصل: أهذا الذي بعثه الله رسولاً، فحذف المفعول وهو الضمير العائد إلى النبي ﷺ، وهذا الحذف ينبئ بحقد المشركين على النبي صلوات الله وسلامه عليه، ويصور مدى كراهيتهم له، حتى كأنهم لا يطيقون النطق بالبعث واقعًا عليه، فهم يتحاشون مجرد النطق بالبعث منسوبًا إليه، فضلاً عن الإيمان بذلك وتصديقه..

وخذ قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى ١، ٢] فقد حذف المفعول وهو الضمير العائد إلى النبي ﷺ، والتقدير: وما قلاك، وذلك لصونه عن نسبة القلى إليه وتحاشيًا لوقوع الفعل "قلى" على ضمير المخاطب ولو كان هذا الفعل منفيًا، لأن في ذلك ما يوحش، بخلاف "ودعك" فليس التوديع كالقلى وحذف المفعول في الآية له مزية أخرى وهي رعاية الفاصلة والمحافظة على التنغيم الصوتي لما له من قوة تأثير في النفوس وذلك عندما يقتضيه المقام ويتطلبه المعنى، وهذا هو شأن الفواصل في النظم الكريم، فهي تأتي تابعة للمعنى ومحققة لما يقتضيه المقام، وعندما يتطلب المعنى، ويقتضي المقام التخلي عن تتابع الفواصل تجد الفاصلة قد قطعت، وما يقتضيه المعنى قد أقر وأثبت[٢].

واقرأ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا

(١) الكشاف ٣/ ٥٥٢.

(٢) هذا وكثير من البلاغيين لا يرتضى أن تكون رعاية الفاصلة علة بلاغية لأنها - كما يقولون - علة لفظية والأسلوب القرآني قد بنى على مراعاة المعاني لا الألفاظ وهذا ليس بشيء لأن الفواصل - كما قلت - تابعة للمعنى وخاضعة لما يقتضيه المقام.. راجع في ذلك النكت للرماني ص١١ وما بعدها وخصائص التراكيب ص٢٨٧ وما بعدها.

حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾ [الكهف ١، ٢] فقد حذف مفعول "لينذر" والأصل: لينذر الذين كفروا بأسًا شديدًا، وذلك حتى لا يقع الإنذار على الذين كفروا فيكون في هذا تنفير لهم من قبول الهدى والإذعان للحق... فحذف المفعول فيه ترغيب لهم في قبول الهداية والإيمان، واستمالة لهم نحو الحق والنور المبين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف ١٤٣] فالمراد – والله أعلم- أرني ذاتك فحذف المفعول حتى لا تقع عليه الرؤية، إذ الذات العلية لا تقع عليها الرؤية المحيطة كما تقع على الأشياء، وإنما هي تجليات، ولذا قال موسى – عليه السلام- "رب أرني" وأمسك ليفيد قصده دون أن تقع الرؤية على الذات الإلهية، لأن هذا شيء ولا يليق بالجلال، ففي مثل هذه الأمور الهائلة وفي تلك المقامات الربانية ينبغي أن يكون الطلب تلميحًا وإيماء ولا يليق أن يكون صريحًا مكشوفًا(١).

وقد يحذف المفعول استهجانًا لذكره والتصريح به، كما ترى في قول عائشة – رضي الله عنها-: "كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَرَسُولُ الله ﷺ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ فَمَا رَأَيْتُ مِنْهُ وَلاَ رَأَى مِنِّي"(٢). فقد حذفت المفعول استهجانًا للتصريح به..

وقد يحذف لمجرد الاختصار والإيجاز حيث تدل عليه القرينة دلالة بينة جلية فيعد ذكره عندئذ عبثًا، كما تقول: أصغيت إليه، تريد أذني، وأغضيت عنه: تعني: بصري.. ومنه قوله جل وعلا: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء ١١٠]، فالدعاء في الآية بمعنى التسمية والأصل: قل ادعوه الله أو ادعوه الرحمن، فحذف المفعول إيجازًا واختصارًا..

وقد يحذف لتعينه كما في قولك. نحمد ونشكر، تريد: نحمد الله ونشكره، فتسكت عن ذكر لفظ الجلالة لتعينه وانصراف الفعلين له تعالى.

وقد يحذف لصون لسانك عن النطق به، كما تقول: لعن الله وأخزى، تريد:

---

(١) انظر خصائص التراكيب ص٢٨٥.

(٢) رواه البخاري في الغسل برقم [٢/ ٢٥٠] ومسلم في كتاب الحيض برقم [٤٣/ ٣٢١] وغيرهما من أصحاب السنن.

الشيطان، فتحذفه صونًا للسانك عن النطق به.. إلى غير ذلك من الأسرار الدقيقة التي تراها كامنة وراء طي المفعول وإسقاطه والسكوت عنه، فهي لا تخفى على صاحب الذوق السليم، ذي الطبع العربي القويم، عندما يقرأ وينظر في التراكيب الجيدة والأساليب الرفيعة.

***

تقديم المفعول ونحوه من المتعلقات على العامل

وتقديم المفعول ونحوه من المعمولات كالجار والمجرور والظرف والمصدر والحال على العامل يفيد غالبًا الاختصاص، أي: قصر العامل المؤخر على معموله المقدم، تقول: زيدًا أكرمت، وبمحمد مررت، وضاحكًا جاء زيد، وإشفاقًا أعطيت. إلخ. فتفيد بذلك قصر الإكرام على زيد، والمرور على كونه بمحمد، وقصر مجيء زيد على هيئة الضحك، وإعطائك على كونه من أجل الإشفاق..

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة ٥]، أي: نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة فلا نستعين إلا بك، فتقديم المفعول "إياك" في الموضعين قد أفاد القصر أي: قصر العبادة والاستعانة عليه تعالى..

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران ١٥٨].. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة ١٣٩] .. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة ١٧٢]....، فتقديم المعمولات: "إلى الله.. عليه.. إياه" في الآيات الكريمة قد أفاد الاختصاص..

ومن ذلك قول شوقي:

بالعلمِ والمالِ يَبْني النَّاسُ مُلْكَهُمُ ... لَمْ يُبْنَ مُلْكٌ على جَهْلٍ وإقلالِ

وقوله أيضًا:

على الأخلاقِ خُطُّوا الملكَ وابْنُوا ... فليسَ وراءهَا لِلْعِزِّ رُكْنُ

فتقديم الجار والمجرور "بالعلم" "على الأخلاق" أفاد قصر بناء الملك على كونه بالعلم والمال وعلى الأخلاق.. ومثله قول الْـمُرَّار بن سعيد الفَقْعَسِيّ (شاعر أموي):

إذا شِئْتَ يومًا أَنْ تَسُودَ عَشِيرَةً فَبالْحِلْمِ سُدْ لاَ بِالتَّسَرُّعِ وَالشَّتْمِ

فقد قصرت السيادة في البيت على الحلم بحيث لا تتعداه إلى التسرع والشتم.. كما قصر بناء الممالك وخطها في بيتي شوقي على العلم والمال وعلى الأخلاق فليس وراءها للعز ركن.. والعامل المقدر في ذلك كالمذكور، فقولك: زيدًا عرفته، إن قدر المفسر بعد المنصوب أي: زيدًا عرفت عرفته أفاد التخصيص، وإن قدر قبله أي: عرفت زيدًا عرفته، أفاد التوكيد وتقوية الحكم.

أما قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت ١٧]، في قراءة من قرأن بنصب "ثمود" فلا يفيد إلا الاختصاص. لأنه لا يتأتى أن يقدر المفسر قبل المنصوب، فلا يقال: أما فهدينا ثمود لوجوب الفصل بين "أما" والفاء، هذا ما قرره العلماء، والذى أراه أن الذي يمتنع هو ذكر المفسر أما تقديره فجائز لأن من المقدر مالا يصح ذكره كالضمير المستتر وجوبًا..

ولكون تقديم المعمول على عامله يفيد غالبًا الاختصاص، كان من الخطأ أن تقول: ما زيدًا ضربت ولا غيره، لأن تقديم المفعول وإيلاءه أداة النفي أفاد نفي الضرب عن زيد وإثباته لغيره، فقولك بعده: "ولا غيره" يناقضه ويدفعه، أي أن عجز الجملة يتناقض مع صدرها، ونحوه قولك: ما بهذا أمرتك ولا بغيره لأن قولك: "ما بهذا أمرتك" أفاد نفي الأمر عن الجار والمجرور المقدم وإثباته لغيره، وقولك بعده: "ولا بغيره" يناقضه، والصواب أن يقال: ما ضربت زيدًا ولا غيره، ما أمرتك بهذا ولا بغيره، بدون تقديم أو يقال: ما زيدًا ضربت بل عمرًا.. ما بهذا أمرتك لكن بغيره..

وكذا من الخطأ أن تقول: ما زيدًا ضربت ولكن أكرمت لأن تقديم المفعول أفاد نفي الضرب عن زيد وإثباته لغيره، وقولك: "ولكن أكرمت" رجوع عن إثبات الضرب لغير زيد، فالصواب أن تقول: ما ضربت زيدًا ولكن أكرمته أو

تقول: ما زيدًا ضربت ولكن عمرًا، فاعرف هذا فإنه دقيق، وهو مبني كما قلت لك على إفادة التقديم للاختصاص..

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة ١٤٣] تجد أن الجار والمجرور قد أخر عن شبه الفعل في قوله: "شهداء على الناس". وقدم عليه في قوله: "عليكم شهيدًا"، وذلك لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم دون إفادة اختصاصهم بتلك الشهادة، وفي الثاني المراد إفادة اختصاصهم يكون الرسول ﷺ شهيدًا عليهم، وليس مجرد إثبات شهادته.

يقول الزمخشري: "روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم، فيؤتى بأمة محمد -ﷺ- فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم؟ فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتي بمحمد -ﷺ- فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء ٤١].. وقيل لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا، فيما لا يصلح إلا بشهادة العدول الأخيار ويكون الرسول عليكم شهيدًا يزكيكم ويعلم بعدالتكم، فإن قلت: لم أخرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخرًا؟ قلت: لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول ﷺ شهيدًا عليهم"(١).

واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم ٢٧]، وقوله عز وجل ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم ٩] تجد أن الجار والمجرور قد أخر في الآية الأولى، لأنه لا معنى للدلالة على الاختصاص فيها، إذ كون الإعادة أهون من البدء أمر مسلم به لا ينكره أحد.. أما في الآية الثانية فقد قدم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص، لأن المقام يقتضي ذلك..لأن ولادة العاقر التي بلغ بعلها من الكبر عتيًا مما ينكر ويستبعد.

---

(١) الكشاف جـ١ ص٣١٧، ٣١٨.

يقول الزمخشري: "فإن قلت: لم أخرت الصلة في قوله: "وهو أهون عليه"، وقدمت في قوله: "هو عليَّ هين"؟ قلت: هناك قصد الاختصاص وهو محزه فقيل: هو عليَّ هين وإن كان مستصعبًا عندكم أن يولد بين هرم وعاقر، وأما ههنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى.."(١).

وقد يفيد التقديم بالإضافة إلى الاختصاص مزية أخرى وهي المحافظة على الفواصل والاستمرار في التنغيم الصوتي، على نحو ما ترى في قوله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحاقة ٣٠-٣٢]، فتقديم المفعول: "الجحيم" والجار والمجرور: "في سلسلة" يفيد الاختصاص والمحافظة على الفاصلة واستمرار النغم الصوتي المؤثر في الأنفس، ومثله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾ [المدثر ١-٥]..

وقد يقدم المعمول لكونه محل الإنكار، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام ١٦٤]، فمحل الإنكار هو كون غير الله بمثابة أن يبغى ربًا ولذا قدم فولى همزة الاستفهام.

ومن ذلك قول الشاعر:

أَبَعْدَ الْمَشِيبِ الْمُنْقَضِي فِي الذَّوَائِبِ ... تُحَاوِلُ وَصْلَ الْغَانِيَاتِ الْكَوَاعِبِ؟

فموضع الإنكار هو كون محاولة الوصل بعد ظهور المشيب في الذوائب ولذا قدم الظرف "بعد" فولى الهمزة.

ومثله قول القاضي عياض:

أَبَعْدَ نَذِيرِ الشَّيْبِ إِذْ حَلَّ عَارِضِي ... صَبَوْتُ بِأَحْدَاقِ الْمَهَا وَسُبِيتُ

فقد قدم الظرف: «بعد» في البيتين لكونه موضع الإنكار، فالأول لا ينكر

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٠.

محاولة وصل الغانيات الكواعب، وعياض لا ينكر صبوته بأحداق المها وسبيهن له، وإنها ينكران أن يكون ذلك بعد المشيب وبعد نذير الشيب.

وقد يكون التقديم للتوكيد والاهتمام بالمقدم وتقوية الحكم كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝﴾ [الضحى ٩، ١٠] فتقديم "اليتم" و"السائل" لتأكيد النهي وتقرير الحكم إذ لا معنى لقصر النهي عن القهر على اليتيم والنهي عن النهر على السائل ولا يخفى عليك ما وراء التقديم من مجيء الفاصلة في الآيتين على حرف الراء، وما ينبئ به ذلك من شدة الزجر وقوة التحذير..

وتقول: عن الصلاة لا تغفل.. الزنا لا تقرب، فيفيد التقديم المبالغة في النهي وشدة التحذير.

تقديم بعض المتعلقات على بعض

الأصل في صياغة الكلام وبناء الجمل وتأليف العبارات أن يتقدم الفاعل على المفعول ونحوه من المتعلقات، وأن يتقدم المفعول الأول على الثاني والثاني على الثالث فيقال مثلاً: أكرم محمد خالدًا، وأعطى حاتم الفقير درهمًا، وأعلمت عمرًا ابنه ناجحًا..

وقد يخالف هذا الأصل فيقدم أحد المتعلقات على الفاعل أو تقدم بعض المتعلقات على بعض وذلك لأسرار بلاغية يقصد إليها البلاغي ويقتضيها المقام، فإذا كان الغرض من الكلام معرفة وقوع الفعل على المفعول وانشغل الناس بذلك قدم المفعول على الفاعل فيقال مثلاً: قتل الخارجيَّ عمرو، وأمسك بالمجرم الشرطيُّ، وذلك لأن الناس منشغولون بأمر الخارجي والمجرم، والغرض من الكلام متوجه إليهما..

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام ١٥١]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء ٣١] تجد في الآية الأولى: "نحن نرزقكم وإياهم" قد قدم ضمير المخاطبين على ضمير الأولاد وفي الآية الثانية "نحن نرزقهم وإياكم" قدم ضمير الأولاد على ضمير المخاطبين، وسبب ذلك أن الخطاب في الأولى للفقراء بدليل قوله تعالى: "من

إملاق"، فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أبنائهم، إذ هم في حاجة إليه، ولذا قدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم والخطاب في الثانية للأغنياء بدليل قوله تعالى "خشية إملاق"، فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع، فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم، لأنه حاصل، ولذا قدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم..

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام ١٠٠]، فقد قالوا: إن مفعولي "جعل" قوله "لله شركاء" وقال آخرون: "الجن" مفعول أول و"شركاء" مفعول ثان، وعلى كلا الرأيين فقد قدم "لله" المفعول الثاني "لجعل" أو متعلق المفعول الثاني – على الرأي الآخر– قدم على المفعول الأول، وذلك لأن تقديمه أبلغ في الإنكار وأقوى في الردع والزجر.. وتأمل: "وجعلوا لله شركاء الجن". وجعلوا الجن شركاء لله. فسوف ترى بعد ما بين القولين، إن محل الإنكار وموضع العناية والغرض من الكلام هو الجار والمجرور "لله" ولذا قدم ليكون الزجر أقوى والتحذير أشد..

واقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ [النمل ٦٧، ٦٨]، وقوله عز وجل: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المؤمنون ٨١-٨٣] تجد في الآية الأولى: "وعدنا هذا نحن وآباؤنا" وفي الثانية: "وعدنا نحن وآباؤنا هذا"، وذلك لأن السياق في الآية الأولى ينبئ بأن مصب الإنكار وموضعه والجهة التي نظر إليها الكفرة وقصدوها بإنكارهم إنما هي البعث، فبعثهم وإخراجهم بعد موتهم وصيرورتهم ترابًا هم وآباؤهم هو الغرض الذي تعمد بالكلام وقصد: "أإذا كنا ترابًا وآباؤنا أإنا لمخرجون"؟ ولذا قدم اسم الإشارة المشار به إلى البعث، إذ هو الغرض المقصود والمساق له الكلام.. أما في الآية الثانية، فالسياق ينبئ بمدى تمسكهم بعقائد الآباء وحرصهم على محاكاتها وتقليدهم فيها، فموضع الإنكار ومصبه، والجهة المنظور منها هي المبعوثون لا البعث في سياق

الحديث والغرض الذي تعمد به وقصد: "بل قالوا مثل ما قال الأولون. قالوا أإذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أإنا لمبعوثون" ولذا قدموا هم وآباؤهم على اسم الإشارة المشار به إلى البعث.. "وعدنا نحن وآباؤنا هذا".. فلما كان الغرض المقصود في الآية الأولى هو البعث قدم اسم الإشارة ولما كان الغرض المقصود في الآية الثانية هم المبعوثون قدم ما يدل عليهم "نحن وآباؤنا".. كما أن وراء تقديم اسم الإشارة في الآية الأولى وتأخيره في الثانية غرضين آخرين، أولهما المحافظة على النسق القرآني في الآيتين، وثانيهما الإشارة إلى البعد في الآية الأولى حيث صاروا ترابًا، أما في الأخرى فقد صاروا ترابًا وعظامًا(١).

وقد يكون الغرض من تقديم أحد المعمولات على الآخر هو أن تأخيره يخل بالمعنى ويوهم خلاف المراد، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ [غافر ٢٨]، فقد وصف الرجل بثلاث صفات: الإيمان، وكونه من آل فرعون، وكتمانه إيمانه، وقدم "من آل فرعون" على "يكتم إيمانه" لأنه لو أخر فقيل: وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون، لتوهم أنه متعلق بالفعل "يكتم"، وأن الرجل يكتم إيمانه خوفًا من آل فرعوه، وفي هذا إخلال بالمعنى المراد، إذ لا يفهم منه عندئذ أن الرجل كان من آل فرعون، بل يتوهم أنه كان يكتم إيمانه خوفًا منهم، وفي هذا إخلال – كما قلت – وضياع للهدف والغرض من الآيات، إذ المراد إبراز عناية الله تعالى، ورعايته لموسى –عليه السلام– بأن جعل من آل فرعون من يدافع عنه ويجادلهم فيه ويناقشهم من أجله..

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون ٣٣]، وقوله عز وجل: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون ٢٤]، تجد الآية الأولى قد قدم فيها الجار والمجرور "من قومه" على صفة الملأ وهي: "الذين كفروا وكذبوا.."، وذلك لأنه لو أخر فقيل: "وقال الملأ الذين كفروا، وكذبوا بلقاء

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ٤٠ والإيضاح ١/ ٢٣٤.. وارجع إلى إيضاح هذين الغرضين في كتابنا: من بلاغة النظم القرآني في باب التقديم.

الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا من قومه"، لتوهم أنه من صلة الدنيا، وأن المعنى وأترفناهم في الحياة الدنيا من قومه أي: القريبة منهم، وبذا يكون القائلون ليسوا من قومه. فدفعا لهذا التوهم قدم الجار والمجرور، وقد نشأ التوهم من طول الصفة بالصلة وما عطف عليها كما هو واضح. أما في الآية الثانية فليس فيها ما يوهم خلاف المراد، لعدم طول الصفة، ولذا تأخر الجار والمجرور فلم يقدم على الصفة.

وقد يكون الغرض الدلالة على الاختصاص كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾ [النساء ٧٩]، فتقديم الجار والمجرور "للناس" على "رسولا" دل على اختصاص رسالته ﷺ بشمولها الناس كافة، واللام في الناس للاستغراق ولا يصح أن تكون للعهد ولا للجنس.

وقد يقدم أحد المتعلقات لإفادة التبكيت والتوبيخ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ ﴾ [يس ٢٠]، حيث قدم الجار والمجرور "من أقصى المدينة" على الفاعل "رجل"، لأن في هذا التقديم زيادة في تبكيت أولئك القوم وتوبيخهم فقد كانوا قريبين من الرسل، وشاهدوا منهم ما لم يشاهده ذلك الرجل الذي كان في أقصى المدينة، وعلى الرغم من ذلك، فقد جاء ينصح لهم بما لم ينصحوا به أنفسهم..

واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [القصص ٢٠]، تجد أن الجار والمجرور لم يقدم على الفاعل كما قدم في الآية السابقة، لأن المقام لم يقتض التقديم هنا كما اقتضى هناك..إذ المراد أن يعلم موسى بنبأ الائتمار دون قصد لمعنى آخر..

وتأمل قوله تعالى: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة ٢٨]، تجد أن تقديم الجار والمجرور على المفعول في قوله: "بسطت إلى يدك" أفاد أنه كان حريصًا على قتل أخيه، وأن جل اهتمامه متوجه إليه، إلى قتل الأخ لا إلى مطلق القتل، وفي هذا من التوبيخ والتبكيت ما فيه. وفيه أيضًا تنبيه إلى ما هو مقبل عليه من خطأ ودعوى له أن يتأمل فيرتدع وينزجر ويكف عن قتل أخيه، وانظر إلى الأداة "إن" وإيثار التعبير بها وما ينبئ به ذلك من

أن بسط اليد لقتل الأخ ينبغي أن يكون من الأمور المستبعدة النادرة الوقوع.. أما قوله: "ما أنا بباسط يدي إليك"، فقد أخر فيه الجار والمجرور "إليك" عن المفعول "يدي" لأنه ليس حريصًا على قتل أخيه، بل ليس ممن يصدر عنه القتل مطلقًا، وينبئ بهذا أسلوب القصر: "ما أنا بباسط يدي إليك" الذي أفاد نفي البسط عنه وإثباته لغيره.

وقد يكون التقديم من أجل المحافظة على الفاصلة ومراعاة النسق الصوتي وماله من أثر في المعنى ووقع في النفس كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه ٦٦-٦٨] حيث قدم المفعول: "خيفة" والجار والمجرور: "في نفسه" على الفاعل؛ لأنه لو قدم عليهما فقيل: فأوجس موسى في نفسه خيفة، أو فأوجس موسى خيفة في نفسه، لكان في ذلك خروج على النسق الصوتي، وإخلال بموسيقى النظم، وما لها من وقع في النفس وأثر في المعنى.

وقد تلحظ في تقديم المتعلقات ما للمقدم من فضل ومزية على المؤخر كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج ٢٧] فقد قدم: "رجالاً"، لأن من حج راجلاً أفضل منـزلة عند الله عز وجل لما يقاسيه من الجهد والمشقة.. ولذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "وددت لو حججت راجلاً، فإن الله قدم الرجالة على الركبان في القرآن"..

وتأمل قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران ١٤]، تجد أن ترتيب المتعلقات قد لوحظ فيه أفضليتها عند النفس ومدى تعلقها بها، فالنساء أكثر تمكنًا في النفس من البنين لما يظهر فيهن من قوة الشهوة، والبنون أقوى محبة من المال، والذهب أشد تمكنًا من الفضة، والخيل أدخل في المحبة من الأنعام، والأنعام أقعد من الحرث.

إلى غير ذلك من الاعتبارات والمزايا البلاغية، والدقائق واللطائف، التي تلاحظ في تقديم بعض المتعلقات على بعض في نسق الكلام.

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

قد يخرج الكلام عن مقتضى الظاهر لأغراض ومقاصد يقصد إليها البلاغي ويقتضيها المقام .. وصور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر كثيرة، وقد مر بك منها عند الحديث عن أضرب الخبر، تنـزيل المنكر منـزلة غير المنكر فيلقى إليه الكلام بلا تأكيد، وتنـزيل غير المنكر منـزلة المنكر فيؤكد له الكلام وجوبًا، وكذا تنـزيل السائل المتردد منـزلة غيره، فيلقى إليه بلا تأكيد أو مؤكدًا وجوبًا بأكثر من مؤكد وهذا التنـزيل يكون لأغراض بلاغية يقصد إليها المتكلم وقد وقفت عليها هناك(١).

ومنها أيضا: " وضع المضمر موضع المظهر، ووضع المظهر موضع المضمر، والالتفات وأسلوب الحكيم والقلب والتغليب والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وعن الماضي بلفظ المضارع.. وقد اعتاد البلاغيون أن يتحدثوا عن تلك الظواهر الأسلوبية بعد انتهائهم من الحديث عن أحوال المسند إليه، ولكنني آثرت الحديث عنها هنا، لأنها ليست قاصرة على المسند إليه، بل تتعداه إلى المسند ومتعلقات الفعل، فهي تشمل كل أجزاء الجملة.. وإليك بيان ذلك.

وضع المضمر موضع المظهر

الأصل في ضمير الغائب ألا يذكر إلا إذا وجد في الكلام ما يعود هذا الضمير إليه، وكان متقدمًا لفظًا ورتبة، أو لفظًا فقط أو رتبة فقط، فلا يعود ضمير الغائب على متأخر لفظًا ورتبة، ولذا عد البلاغيون قول النابغة الذبياني:

جَزَى ربُّه عَنِّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ ... جَزَاءَ الْكِلاَبِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

غير فصيح، إذ عاد الضمير في قوله: "ربه" على المفعول به: "عدي" المتأخر لفظا ورتبة، وذا ضعف تأليف يخل بفصاحة الكلام.

وعلى الرغم من وضوح هذا الأصل فإنك تجد بعض الأساليب وقد ذكر فيها ضمير الغائب ثم فسر بمتأخر عنه، فيكون ذلك وضعًا للضمير في موضع الاسم

(١) ارجع إلى أضرب الخبر في الفصل الأول من هذا الكتاب.

الظاهر لغرض بلاغي، وهو الإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال، حتى يتمكن المعنى في ذهن السامع، ويستقر في نفسه، ويثبت في فؤاده..

فمن ذلك أسلوب نعم وبئس كقولك: نعم رجلاً زيد، وبئس عدوًا الجهل، عند إعراب المخصوص بالمدح أو الذم، مبتدأ خبره محذوف أو خبرًا لمبتدأ محذوف، فيكون فاعل نعم أو بئس ضميرًا مستترًا تقديره: "هو" يعود إلى زيد أو إلى الجهل، وكان مقتضى الظاهر أن يؤتى به اسمًا ظاهرًا فيقال: نعم زيد رجلاً وبئس الجهل عدوًا، إذ لم يتقدم ما يعود إليه الضمير – كما قلت–، ولكن عدل عن الظاهر إلى الضمير للسر البلاغي المشار إليه.

ومثله قول زهير بمدح هرم بن سنان:

نِعْمَ امْرَأً هَرِمٌ لَمْ تَعْدُ نَائِبَةٌ ... إِلَّا وَكَانَ لِمُرْتَاعٍ بِهَا وَزَرَا

أما إذا أعرب المخصوص بالمدح أو الذم مبتدأ والجملة قبله خبرًا فعندئذ يكون الضمير عائدًا على متقدم في الرتبة ولا يكون من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.. ومن وضع المضمر موضع المظهر: ضمير الشأن أو القصة كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج ٤٦]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١]، وقوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون ١١٧]، فالضمير في قوله: "فإنها.. قل هو .... إنه.." يسمى ضمير الشأن أو القصة، ولم يتقدم له مرجع كما ترى، وإنما فسر بالجملة بعده، فهو من وضع الضمير موضع الظاهر، وسره البلاغي هو تفخيم الشأن أو القصة وتثبيتها في الأنفس؛ لأن مجيء الضمير مبهما بدون عائد متقدم يجعل المخاطب ينشغل به ويبحث عما يفسره فيصغى إلى الكلام، وعندما يعثر على المفسر يقع في النفس موقعًا حسنًا فيقر بها ويثبت؛ لأن للبيان بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال أثرًا حسنًا في النفس ووقعًا جميلاً..

ويتضح لك هذا لو وضعت الاسم الظاهر موضع الضمير في الآيات

الكريمة، فقلت: "إن الأبصار لا تعمى... قل الله أحد ... إن الكافرين لا يفلحون" فإنك تجد الفخامة قد ولت والروعة قد زالت، لأنه لم يتقدم عندئذ ما ينبه ويثير النفس إلى التفتيش والتنقيب عن مفسر لما أبهم، ولذا نجد ضمير الشأن أو القصة لا يستعمل إلا في الأمور المهمة، والأخبار ذات البال، والمعاني الجليلة، على نحو ما رأيت في الآيات الكريمة.

وعلى نحو ما ترى في قول أبي تمام:

عـــلى أَنَّهـــا الأيـــامُ قـــدْ صِرْنَ كلُّهـــا عَجائِـــبَ حَتَّـــى لَـــيْس فِيهَـــا عَجَائِـــبُ

وفي قول السعاء عبد الواحد بن نصر المخزومي (ت٣٩٨ هـ):

هِـــيَ الـــدُّنَيا تَقُـــولُ بِمـــلْءِ فِيهَـــا حَـــذَارِ حَـــذَارِ مِـــنْ بَطْـــشِي وَفَتْكِـــي

ومنه من غير ضمير الشأن قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء ٣]، وقول النبي ﷺ: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بالليْل ومَلاَئِكَةٌ بالنَّهار"[١]. حيث وضع الضمير "واو الجماعة" في "أسروا" و"يتعاقبون" موضع الاسم الظاهر وغرضه البلاغي البيان بعد الإبهام وماله من وقع في النفس وتثبيت للمعاني في الوجدان.

وضع المظهر موضع المضمر

أما وضع المظهر موضع المضمر فيكون لأغراض بلاغية كثيرة يقتضيها المقام ويقصد إليها البلاغي.. انظر إلى قول أحمد بن يحيي المعروف بابن الرَّاوَنْديِّ وكان يُرْقَى بالزندقة:

كَـــمْ عَاقِـــلٍ عاقـــلٍ أَعْيَـــتْ مَذَاهِبُـــه وَجَاهـــلٍ جاهـــلٍ تَلْقَـــاهُ مَرْزُوقَـــا
هَـــذَا الَّـــذِي تَـــرَكَ الْأَوْهَـــامَ حَـــائِرَةً وَصَـــيَّرَ الْعَـــالِمَ النِّحْرِيـــرَ زِنْـــدِيقَا[٢]

(١) رواه البخاري في المواقيت برقم [١٦/ ٥٥٥] ومسلم في المساجد برقم [٢١٠/ ٦٣٢].

(٢) أعيت مذاهبه. أعجزته طرق معاشه أو أعيت عليه، متعدية ولازمة.. والأوهام العقول من تسمية المحل باسم الحال مجازاً مرسلاً.. والنحرير من نحر المسائل علماً أي أتقنها.. والزنديق الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام.

تجده قد وضع اسم الإشارة في أول البيت الثاني موضع الضمير، فهو يشير به إلى الحكم السابق في البيت الأول وهو كون العاقل محرومًا والجاهل مرزوقًا، وهذا الحكم غير محسوس، فكان ينبغي أن يستعمل الضمير لتقدم مرجعه فيقول: "هو الذي ترك" ولكن الشاعر عدل عن الضمير إلى اسم الإشارة لغرض يقصد إليه وهو كمال العناية بالمسند إليه وتمييزه وإبرازه، تهيئة للإخبار عنه بذلك الخبر الغريب العجيب، وهو جعل الأوهام حائرة والعالم النحرير زنديقًا.

وقد يقصد البلاغي بوضع اسم الإشارة موضع الضمير التنبيه إلى غباوة المخاطب وبلادته وأنه لا يدرك إلا الأمور المحسة، كما ترى في قول الفرزدق مخاطبًا جريرًا:

أُولئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ   إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ

إذ كان ينبغي أن يقول: "هم آبائي" لتقدم الحديث عنهم في الأبيات السابقة، ولكنه آثر التعبير باسم الإشارة: "أولئك"، للتعريض بغباوة جرير والتنبيه إلى بلادته وقلة فهمه، وكأنه يريد أن يبرز ويصور جريرًا في صورة من لا يدرك إلا الأمور المحسة.. ولا يخفى عليك ما وراء اسم الإشارة الموضوع للبعيد: "أولئك" من تعظيم لآباء الفرزدق وتنبيه لسمو مكانتهم وعلو منـزلتهم..

وقد يقصد البلاغي باستخدام اسم الإشارة مكان الضمير الدلالة على كمال ظهوره وتمام بيانه، حتى كأنه صار مرئيًا ومدركًا بالحواس..

كما في قول مرة بن عبد الله الهلالي:

تَعَالَلْتِ كَيْ أَشْجَى وما بِكِ عِلَّةٌ   تُرِيدِينَ قَتْلِي، قَدْ ظَفِرْتِ بِذَلِكِ

فمقتضى الظاهر أن يقول: قد ظفرت به، ولكنه عدل عن الضمير إلى اسم الإشارة للدلالة على ظهور القتل وكمال وضوحه وأنه لا يخفى على أحد، لأنه صار مرئيًا للجميع، ولعلك تحس أيضًا بما وراء التعبير بتلك الجملة: "قد ظفرت بذلك" من تمنعه وتأبيه على صويحباته، وكأنه لا رغبة له فيهن، فهو لا يهوى إلا تلك التي تعاللت، وهي وحدها التي ظفرت بأسره وتملكه..

واقرأ قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا

دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [الرعد ٣٥]، وقوله عز وجل: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصلت ٢٢، ٢٣]، فقد عبر باسم الإشارة: "تلك" و"ذلكم" في موضع الضمير للدلالة على كمال النعيم وتمام ظهوره، فقد بلغ الغاية في الظهور والبيان حتى صار مدركًا بالحواس.. وكذا القول في الآية الثانية، فقد بلغ ظنهم الغاية في الظهور والبيان حتى صار كأنه مدرك بالحواس، مشار إليه..

ويقول المعلم بعد إيضاح مسألة لتلاميذه أو إظهار رأي: "وهذا واضح.. وتلك بينه جلية".. فيدل باسم الإشارة على تمام ظهور الرأي، وكمال بيان المسألة... وكذا يقول الخصم عند مجادلة خصمه ومحاولته إقامة الحجة عليه: "وهذه ظاهرة أو مسلمة" فكان مقتضى الظاهر أن يقول: وهي ظاهرة ولكنه عدل إلى خلاف الظاهر ادعاءً لكمال الظهور وتمام البيان.

وقد يقصد بوضع الظاهر موضع المضمر زيادة التمكين والتقرير، وقوة تثبيته في الأنفس والسرائر، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]، تجد إيثار التعبير بالاسم الظاهر وهو لفظ الجلالة في قوله "الله الصمد" وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالضمير فيقال: "وهو الصمد" لتقديم مرجعه، ولكن النظم الكريم آثر التعبير بالاسم الظاهر "الله" لزيادة تمكينه في الأنفس، وتقريره وتثبيته في الأذهان، إذ التعبير بالاسم الظاهر أقوى وأبلغ في إبراز المعنى واستقراره في النفس من التعبير بالضمير..

وخذ قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت ١٩، ٢٠]، تجد أن وضع لفظ الجلالة موضع الضمير فيه زيادة تثبيت وتقرير، لأنه يوحي بالجلال والعظمة ويعمل على تربية مهابة الحق في الأنفس والسرائر، ولو عبر بالضمير فقيل: "إن ذلك عليه يسير.. ثم هو ينشئ.. إنه على كل شيء قدير.." لما كان في التعبير إلى ذلك المعنى من سبيل..

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء ١٠٥]، تجد أن إعادة الاسم الظاهر "وبالحق" قد أفاد من التوكيد وإبراز المعنى وتثبيته في النفس ما لم يفده الضمير لو قيل: وبالحق أنزلناه وبه نزل.

واقرأ قول عبد الله بن عنمة الضبي:

إنْ تَسْأَلُوا الْحَقَّ نُعْطِ الْحَقَّ سَائِلَهُ ... وَالدِّرْعُ مُحْقَبَةٌ وَالسَّيْفُ مَقْرُوبُ[1]

وقول النابغة الذبياني:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا ... وَعَلَّمَتْهُ الْكَرَّ وَالإِقْدَامَا

وتأمل فرق ما بين: "إن تسألوا الحق نعط الحق" وقولك: إن تسألوا الحق نعطه، وبين: "نفس عصام سودت عصامًا"، وقولك: نفس عصام سودته، فستجد الفرق دقيقًا، وسوف يتبين لك أن التعبير بالاسم الظاهر فيه من الإيضاح وإبراز المعنى، وتقريره وتثبيته، ما ليس في التعبير بالضمير.

وقد يقصد بوضع الظاهر موضع الضمير تقوية داعي المأمور على الامتثال وتحقيق الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران ١٥٩]، فقد أوثر التعبير بلفظ الجلالة في موضع الضمير حيث لم يقل: فتوكل على إني أحب، لما في ذلك من تقوية الداعي إلى الامتثال وتحقيق التوكل وإيجاده، فهو توكل على الله الذي يحب المتوكلين..

وقد يقصد به إدخال الروع في نفس السامع وتربيه المهابة حتى يقبل على الامتثال والخضوع كقول الخليفة: أمير المؤمنين يأمر بكذا، فمقتضى الظاهر أن يقول: أنا آمر، ولكنه عدل عنه إلى الاسم الظاهر لما فيه من تربية المهابة وإدخال الروع في الأنفس فتقبل إلى الامتثال والخضوع..

وقد يقصد به الاستعطاف كما في قول إبراهيم بن أدهم:

إلَهِي عَبْدُكَ الْعَاصِي أتَاكَ ... مُقِرًّا بالذُّنُوبِ وقَدْ دَعَاكَ

فَإنْ تَغْفِرْ فأنتَ لِذاكَ أَهْلٌ ... وَإِنْ تَطْرُدْ فمَنْ يَرْحمْ سِوَاكَ

---

(١) ارجع إلى هذا البيت في صور الالتفات.

فلم يقل: إلهي أنا العاصي أتيتك، بل قال: "عبدك" فوضع الظاهر في موضع الضمير. لما في الظاهر من الإشعار بالعبودية المضافة لرب العزة، وما يكون وراء ذلك من ترقب الشفقة والرحمة، واستحقاق العطف..

وقد يقصد به إبراز الوصف الذي يفيده الاسم الظاهر وتقريره، لإفادة مقصد يقصد إليه البلاغي، كما ترى في قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة ٥٩]، فقد أعيد ذكر "الذين ظلموا" ولم يقل: فأنزلنا عليهم، لما في الاسم الظاهر من إبراز معنى الظلم وتقريره، والإشارة بذلك إلى أنهم قد استحقوا العذاب النازل عليهم بسبب هذا الظلم.. ونرى هذا الأسلوب يرد كثيرًا في النظم الكريم ليحقق مقاصد وأهدافًا دقيقة.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ ﴾ [ص ١ - ٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ ٤٣] تجد أن في التعبير بالكافرين في قوله: "وقال الكافرون" وبالذين كفروا في قوله تعالى: "وقال الذين كفروا للحق.." إبرازًا لمعنى الكفر وتسجيلاً عليهم وإبرازهم جاحدين كافرين متعنتين، وتصوير مدى ضلالهم وتعاميهم عن الحق الواضح، فقد كفروا به، وقالوا وقد وضح لهم الحق وبان: "إن هذا إلا سحر مبين،، وصفوا الحق الواضح بالسحر المبين، فلا عجب إذا ما نزل بهم العذاب وأهلكوا كما أهلك الكفرة من قبلك..

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٦ ﴾ [التوبة ٢٥، ٢٦] تجد أن ذكر المؤمنين في موضع الضمير حيث لم

يقل، على رسوله وعليكم، قد أبرز هذه الصفة وأبرز اتصافهم بها واستحقاقهم لها ووراء ذلك من التعظيم والتكريم مالا يخفى عليك ثم تأمل مدى التحقير والإهانة بإعادة ذكر الكافرين في قوله: "وذلك جزاء الكافرين" وأن لم يقل: وذلك جزاؤهم، لما في الاسم الظاهر من وسمهم بتلك السمة وإبرازهم بهذا الوصف.

وقد يوضع الظاهر موضع الضمير قصدًا لإجراء أوصاف عليه كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ [الأعراف ١٥٨]، فوضع الاسم الظاهر "ورسوله" موضع الضمير حتى يمكن وصفه بما بعده من صفات. وفيه أيضًا إبراز لمعنى الرسالة وتثبيت لها في النفوس وإيضاح أن الإيمان بمحمد – عليه الصلاة والسلام- إنما هو من أجلها فنحن نؤمن به رسولاً نبيًا، ولا نؤمن بذاته مجردة من تلك المهمة أي: نؤمن بكونه رسولاً نبيًا أميًا يؤمن بالله وكلماته..

وقد يوضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أن الصفة جارية على غير ما هي له كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا ﴾ [الكهف ٧٧]، فجمله "استطعما أهلها" صفة للقرية وقد وضع الاسم الظاهر فيها موضع الضمير فلم يقل "استطعماها" للدلالة على أن هذه الصفة جارية على غير ما هي له، فالمستطعم هم الأهل وليس القرية.

***

أسلوب الالتفات

الالتفات مأخوذ من قولهم: التفت الإنسان إذا تحول بعنقه من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين، وأول من أطلق هذه التسمية هو الأصمعي، فقد روي أنه سأل بعض من كان يتحدث إليهم فقال له: أتعرف التفاتات جرير؟ فأجاب لا. فما هي؟ قال:

أَتَنْسَى إِذْ تُوَدِّعُنَا سُلَيْمَى ... بِعُودِ بَشَامَةٍ سُقِيَ الْبَشَامُ

ألا تراه مقبلاً على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له.

وقوله:

طَرِبَ الْحَمَامُ بِذِي الأَرَاكَ فَشَاقَنِي لاَ زِلْتَ فِي غَلَلٍ وأَيْكٍ نَاضِرِ

فالتفت إلى الحمام فدعا له[١]:

فهو يطلق الالتفات على نوع من التعبير وهو ذلك الكلام الذي يظن المخاطب أن محدثه قد فرغ منه وانتهى من معناه وسيترك هذا المعنى ويتجاوزه إلى معنى آخر، فإذا به يلتفت إلى المعنى الذي فرغ منه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به.

ومن قبل أشار أبو عبيدة إلى نوع آخر من الالتفات وإن لم يسمه بهذه التسمية حيث يقول: «ومن مجاز ما جاءت به مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]: أي بكم»[٢].

ثم جاء عبد الله بن المعتز فذكر في كتابه البديع أن الالتفات يرد على نوعين: نوع ينصرف فيه المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، وهذا هو ما يصدق عليه الالتفات في الآية الكريمة التي ذكرها أبو عبيدة، ونوع ينصرف فيه المتكلم عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر، وهذا ما ذكره الأصمعي[٣].

وقد أهمل البلاغيون النوع الثاني فلم يتحدثوا عنه، وفصلوا القول في النوع الأول، واشتهر في تحديد مفهومه رأيان: رأي للسكاكي ورأي لجمهور البلاغيين، أما الجمهور فيرون أنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة وهي: التكلم أو الخطاب أو الغيبة، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها... وأما السكاكي فيرى أنه التعبير بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره، أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه

---

(١) انظر الصناعتين ٣١١، والبشام: شجر طيب يستاك به، وذو الأراك: مكان ينبت فيه شجر الأراك... والأيك: الشجر الملتف، والغلل: المكان الخصب الذي يجود بالغلة.

(٢) انظر مجاز القرآن: ١١.

(٣) انظر البديع: ١٠٧.

بغيره فهو يلتقي مع الجمهور في الجزء الأول من التعريف ويخالفهم في الجزء الثاني، إذ يرى في نحو قول ربيعة بن مقروم:

بَانَتْ سُعَادُ فَأَمْسَى الْقَلْبُ مَعْمُودًا ... وَأَخْلَفَتْكَ ابْنَةُ الْحُرِّ الْمَوَاعِيدَا(١)

التفاتًا، حيث كان مقتضى الظاهر أن يقول: وأخلفتني: فالتفت إلى الخطاب وقال: وأخلفتك... ومثله قوله أيضًا:

تَذَكَّرْتَ والذِّكْرَى تَهِيجُكَ زَيْنَبَا ... وَأَصْبَحَ بَاقِي وَصْلِهَا قَدْ تَنَضَّبَا

وَحَلَّ بِفَلْجٍ فَالأَبَاتِرِ أَهْلُنَا ... وَشَطَّتْ فَحَلَّتْ غَمْرَةً فَمُثَقَّبَا(٢)

إذ كان مقتضى الظاهر أن يعبر بطريق التكلم فيقول: تذكرتُ ولكنه خالف هذا الظاهر فالتفت إلى الخطاب كما ترى، ولا يخفى عليك ما في البيت الأول من وضع المظهر موضع المضمر في قوله: "ابنة الحر" إبرازًا لصفة الحرية وتقريرًا لها، وما يضفيه ذلك على فتاته «سعاد» من أصالة وتشريف... كما لا يخفى عليك الالتفات في البيت الثالث حيث التفت من الخطاب في قوله: تذكرت إلى التكلم في قوله: أهلنا، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: وحلَّ بفلج فالأباتر أهلك، وهذا التفات على رأي السكاكي والجمهور معًا، أما الالتفاتان الأولان فعلى رأي السكاكي فقط، ويمكن أن يحملا على التجريد، وأن ربيعة جرد من نفسه شخصًا آخر وأخذ يخاطبه قائلاً: وأخلفتك، تذكرت، وتلك عادة مشهورة بين الشعراء.

وعند تأمل تعريف السكاكي والجمهور للالتفات يتضح لك أن تعريف الجمهور أخص، فكل التفات عندهم التفات عند السكاكي، وليس كل التفات عند السكاكي التفاتًا عندهم، على نحو ما رأيت في البيتين المذكورين، فقد جعلهما السكاكي من الالتفات بناءً على مذهبه فيه، وحملهما الجمهور على التجريد -كما بينا-

---

(١) بانت: بعدت... ومعمودًا: حزينًا... وابنة الحر هي سعاد.

(2) تنضب: جف، ويروى تقضب بمعنى: انقطع... وفلج والأباتر وغمرة ومثقب أماكن... وشطت: بعدت.

صور الالتفات وما يكمن وراءها من أسرار بلاغية

مما تقدم يتبين لك أن للالتفات -على مذهب الجمهور- ست صور ووراء كل صورة من هذه الصور، بل وراء كل شاهد من شواهد الالتفات مغزى بلاغي جليل، وهذا يقتضي منا أن نقف مع كل صورة من صوره وقفة متأنية لنبرز ما وراء شواهدها من دقائق وأسرار.

الصورة الأولى: الالتفات من التكلم إلى الخطاب

كما في قوله تعالى: ﴿ **وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢** ﴾ [يس ٢٠- ٢٢]؛ فقد التفت من التكلم في قوله: ﴿ **وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى** ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾، وفضلاً عما يفيده أسلوب الالتفات من تحريك وإثارة وإيقاظ لمشاعر السامع وأحاسيسه وتنبيه لذهنه وفكره، لما فيه من التنويع وعدم المضي على وتيرة واحدة -فضلاً عن ذلك- فإنك تشعر بما وراءه في الآية الكريمة من ترغيب للقوم واستمالة لهم نحو الهدى وقبول الحق واتباع المرسلين، حيث أجري التعجب من عدم العبادة على نفسه: «**ما لي لا أعبد**» حتى لا ينفروا من قبول النصح.

ويتضح لك هذا الغرض أكثر عندما ترجع إلى سياق الآيات الكريمة: «**يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرًا وهم مهتدون**» فقد أضافهم إلى نفسه ثم بين لهم أن المرسلين لا يسألونهم أجرًا على تبليغ الرسالة وهذا أدعى لاتباعهم وقبول ما جاءوا به، ثم هم فوق ذلك مهتدون، فينبغي الاقتداء بهم، ولما أراد أن يتعجب من تخلي القوم عن هؤلاء الرسل وعدم الاقتداء بهم في عبادة الله وحده، أجري هذا التعجب على نفسه ملتفتًا عنهم: «**ما لي لا أعبد**» حتى يكون في ذلك مزيد من الاستمالة والترغيب، ثم التفت إليهم محذرًا من استمرارهم في الباطل، وتماديهم في الضلال، ومبينًا لهم أن مرجعهم إلى الله وحده الذي فطرهم «**وإليه ترجعون**»، وبهذا يتبين لك ما وراء الالتفات من ترغيب واستمالة وإمحاض المناصحة ثم التعقيب بالتحذير الشديد.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، تجد التفاتًا من التكلم في قوله «**إني أمرت أن أكون أول من أسلم**» إلى الخطاب في قوله: «**ولا تكونن من المشركين**» ووراء هذا الالتفات ما وراءه من وعيد وتهديد، وتحذير من الوقوع في الشرك، ومما يبرز هذا، الانتقال من الخبر فيما سبق إلى النهي فيما لحق فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يخبر وأن يقول إنه أمر أن يكون أول من سلم، ثم نهاه رب العزة: «**ولا تكونن من المشركين**» إنه وعيد شديد لمن يستمر على الشرك، ولا عجب فهو أكبر الكبائر، والله عز وجل لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وتجد كثيرًا من الأحاديث الشريفة التي حذرت من الشرك، وبينت أنواعه المختلفة، وطرقه العديدة، التي ينبغي على المسلم أن يتبينها، وأن يبتعد عنها حتى يكون بمنأى عن كل ما يؤدي إلى الشرك بربه... نسأل الله أن يجعلنا من المخلصين، وأن يجنبنا النفاق والرياء والشرك بأنواعه... اللهم آمين.

الصورة الثانية: الانتقال من التكلم إلى الغيبة

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝﴾ [الكوثر ١، ٢]، حيث التفت من التكلم في قوله: «**إنا أعطيناك**» إلى الغيبة في قوله: «**فصل لربك**» إذ الأصل: فصل لنا، وترجع بلاغة الالتفات في الآية الكريمة إلى ما في التصريح بلفظ الرب من الحث على فعل المأمور به لأن من يربيك ويرعاك فهو جدير بعبادتك، مستحق لصلاتك ولذا كان الالتفات مقويًا لداعي الصلاة، ومنبهًا وحاثًّا إلى أدائها والحرص عليها...

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فقد انتقل من التكلم في قوله «**إني رسول الله**» إلى الغيبة في قوله: «**فآمنوا بالله ورسوله**»، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: فآمنوا بالله وبي، وترجع بلاغة الالتفات

في الآية إلى أن الاسم الظاهر قد مكن من إجراء تلك الأوصاف: «**النبي الأمي الذي...**» على الرسول -عليه الصلاة والسلام- وفيه أيضًا إشارة وتنبيه إلى أن الإيمان والتصديق ليس بذات محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما بتلك الصفات أي: بكونه رسولاً نبيًا أميًا يؤمن بالله وكلماته، فهي بمثابة البرهان على صدق رسالته(١).

ومثله قوله تعالى: ﴿ **حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦** ﴾ [الدخان ١-٦]، فقد التفت من التكلم في قوله «**إنا أنزلناه... إنا كنا... من عندنا...**»إلى الغيبة في قوله «**رحمة من ربك**» وتكمن بلاغة الالتفات في الآية الكريمة في التصريح بلفظ الرب الذي يشير إلى معنى التربية والرفق والعناية، وملاءمة هذا لمعنى الرحمة المذكورة، وفيه أيضًا تهيئة العبارة لخطاب المنزل عليه وهو الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

وخذ قوله تعالى: ﴿ **قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ** ﴾ [الزمر: ٥٣]، فالأصل: لا تقنطوا من رحمتي، فالتفت إلى الغائب إبرازًا للفظ الجلالة الملائم لذكر الرحمة والمغفرة.

الصورة الثالثة: الالتفات من الخطاب إلى التكلم

كما في قوله تعالى: ﴿ **وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ** ﴾ [هود: ٩٠]، وقوله جل وعلا ﴿ **قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ** ﴾ [هود: ٦١]، فقد التفت في الآيتين من الخطاب في قوله: «**استغفروا ربكم ثم توبوا...**» وقوله «**هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه**» إلى التكلم في قوله: «**إن ربي رحيم ودود**»، وقوله: «**إن ربي قريب مجيب**» وهذا الالتفات ينبئ بعظمة ذي الجلال ورحمته وإجابته من دعاه، واختصاصه -سبحانه وتعالى- بتلك

---

(١) ارجع إلى هذه الآية الكريمة في وضع الاسم الظاهر موضع الضمير.

الصفات، ويدفع توهم انصرافها إلى آلهتهم فيما لو قيل «إن ربكم رحيم ودود... إن ربكم قريب مجيب».

ومن ذلك قول علقمة بن عبدة:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبُ ... بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

يُكَلِّفُنِي لَيْلَى وَقَدْ شَطَّ وَلْيُهَا ... وَعَادَتْ عَوَادٍ بَيْنَنَا وخُطُوبُ[1]

فقد التفت من الخطاب في قوله: طحا بك قلب، إلى التكلم في قوله يكلفني ليلى، وهذا الالتفات ينبئ بأنه معني بليلاه إلى أبعد حد، ولذا أجرى الكلام المتعلق بها على نفسه إجراء مباشرًا، فإنه أقوى مما لو قيل: يكفلك ليلى بصيغة الخطاب.

وفي «طحا بك»التفات عند السكاكي... ويروي البيت الثاني برواية أخرى وهي: «تكلفني» بالتاء، فإن كان الفاعل ليلى؛ فلا التفات، وإن كان ضميرًا مستترًا تقديره «أنت» وليلى مفعول، ففيه التفات من الغائب «قلب» إلى المخاطب «أنت».

الصورة الرابعة: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

كما في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٣، ٢٤].

فقد التفت من الخطاب في قوله «**ذلكم ظنكم... فأصبحتم**» إلى الغيبة في قوله: «**فإن يصبروا**» وهذا الالتفات ينبئ بالطرد من رحمة الله. وذلك بإبعادهم عن ساحة الحضور والمخاطبة، وصيرورتهم إلى مكان سحيق حيث النار والعذاب، وإن يستعتبوا ندمًا فلا عتاب...

ومثله قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢].

---

(١) طحا: ذهب وبعد. وتصغير (بعيد) يفيد أن هذا كان قريبًا من عنفوان الشباب... وطروب بمعنى له طرب ونشاط في طلبهن، وشط وليها: بعد قربها، وعادت عواد: رجعت عوائق كانت تحول بيننا إلى ما كانت عليه، ويجوز أن تكون «عادت» من المعاداة... وخطوب: أحداث.

التفت من الخطاب في قوله «**كنتم في الفلك**» إلى الغيبة في قوله «**وجرين بهم**»، وبلاغة هذا الالتفات تكمن في أنهم لما كانوا في مقام الحضور والمشاهدة خوطبوا فلما جرت بهم السفن وابتعدوا لازم هذا أن يتحدث عنهم بطريق الغيبة... وشيء آخر وراء الالتفات وهو أنه يشعر بأن هؤلاء الذين إذا أصابهم ضر دعوا ربهم، فإذا نجاهم بغوا في الأرض بغير الحق، يستحقون الإبعاد وعدم الالتفات إليهم بالمخاطبة، وأن تروى قصتهم وتحكى تشهيرًا بهم واعتبارًا لمن يعتبر.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ** ﴾ [الأنبياء ٩٢، ٩٣]، تجد إقبال الله عليهم بالخطاب لكونهم أمة واحدة، فلما تقطعوا الأمر بينهم وتشتت كيانهم واختلفوا غابوا عن مشهد الحق، وغاب عنهم المنهج القويم، والدستور الحكيم، فانصرف الله عز وجل عنهم وهذا سر الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في الآية الكريمة.

ولعلك تشعر بنبرة الوعيد والتهديد لهؤلاء الذين تقطعوا أمرهم بينهم في قوله جل وعلا: «**كل إلينا راجعون**»، وكذا القول في قوله تعالى: ﴿ **أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [النحل: ١]. فقد التفت عن المشركين التفات الغاضب المتوعد.

تأمل قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٤]، تجد أن الالتفات من الخطاب في قوله: «**جاءوك**» إلى الغيبة في قوله «**واستغفر لهم الرسول**» يفيد تفخيم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام وتعظيم استغفاره والتنبيه إلى أن شفاعة واستغفار من اسمه «الرسول» من الله بمكان(١).

الصورة الخامسة: الانتقال من الغيبة إلى التكلم

كما في قوله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ [فاطر: ٩] حيث التفت من الغيبة في قوله: «**والله الذي أرسل الرياح**» إلى التكلم في قوله: «**فسقناه... فأحيينا به**»

---

(١) انظر الكشاف جـ ١ ص ٥٣٨.

وينبئ هذا الالتفات بأهمية السوق والإحياء، وبتجلي قدرة الله عز وجل في سوق السحاب وإحيائه تلك الأرض الميتة، فهذا ضرب من قسمة الأرزاق بين الناس، ولذا ناسب أن يلتفت إليهما، أي: إلى السوق والإحياء، تجلية لأهميتهما، وإبرازًا لقدرة رب العزة سبحانه وتعالى.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ ﴾ [فصلت: ١١، ١٢] فقد التفت من الغيبة في قوله «**استوى، فقال... فقضاهن، وأوحى**» إلى التكلم في قوله «**وزينا**» وهذا الالتفات يشير إلى أن السماء الدنيا من أظهر وأوضح الآيات التي تدل على قدرة الخالق جل وعلا، ولذا حث القرآن في مواضع كثيرة على النظر إليها، وتأمل ما بها، فكأن الالتفات هنا لفت للمؤمن إلى موضع العبرة والعظة.

وخذ قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، تجد التفاتًا من الغيبة في قوله: «**الذي أسرى بعبده ليلاً**» إلى التكلم في قوله: «**باركنا حوله لنريه من آياتنا**» ثم إلى الغيبة ثانية في قوله: «**إنه هو السميع البصير**».

وينبئ هذا الالتفات بما للمسجد الأقصى من مكانة، فقد بارك الله حوله، ولم يقل «بارك» على الظاهر فيمضي الأسلوب على طريقة واحدة، بل قيل: «**باركنا**» تنبيهًا للمؤمن إلى تلك المكانة السامية، كما يبرز الالتفات أيضًا الغاية من الإسراء وهي إراءة النبي من الآيات الكبرى، فقد التفت إليها: «لنريه من آياتنا» إشارة إلى أن ذلك هو المراد وهو الغاية من الإسراء، ثم التفت بعد ذلك من التكلم في قوله: «باركنا... لنريه» إلى الغيبة في قوله «**إنه هو السميع البصير**».

وتأمل قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَلَقَدْ

ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ [لقمان: ١٠ - ١٢]، تجد عدة التفاتات، فقد التفت من الغيبة في قوله: «خلق... وألقى... وبث» إلى التكلم في قوله: «**وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا**»، وهذا الالتفات ينبئ بأهمية الإنزال والإنبات لهم، فهم إليهما متطلعون وبهما متعلقون، إذ لا حياة لهم بدون الماء والنبات... ثم رجع إلى الغيبة في قوله: «**هذا خلق الله**» وكان الأصل أن يقال: خلقنا، وتشعر بما وراء هذا الالتفات من التصريح باسم الله الخالق الأعظم وما له من أثر كبير في تربية المهابة واستمتاع المؤمن بذكره والنطق به... ثم التفت ثانية إلى التكلم في قوله: «**فأروني**» ولعلك تشعر بنبرة الوعيد والتحذير وراء هذا الالتفات... ثم التفت إلى الغيبة في قوله: «من دونه» لينبئ بعظمة خلق الله تعالى، وأن هذا الخلق لا يتأتى لبشر، وفي الآيات التفات آخر من الخطاب في قوله: «**ترونها... بكم... فأروني**» إلى الغيبة في قوله: «**بل الظالمون في ضلال مبين**»، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: بل أنتم، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى أمرين:

أولهما: أن الخطاب في الآيات عام، وليس كل المخاطبين في ضلال مبين، بل الظالمون منهم.

وثانيهما: أن في الالتفات تسجيلاً على هؤلاء، ووسمهم بتلك الصفة، صفة الظلم التي صيرتهم في ضلال مبين، وعما قليل ستجعلهم في عذاب مهين.

الصورة السادسة: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ١-٥] فقد التفت من الغيبة في قوله: «**مالك**» إلى الخطاب في قوله: «**إياك نعبد**»، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى ما تحدثه الآيات في نفس المؤمن من زيادة الخشوع والتقرب إلى ربه جل وعلا، فقد بدأت بذكر الحمد وربوبيته تعالى للعالمين ثم الرحمة الغامرة فملكه ليوم الدين وعندما تقع تلك المعاني في نفس المؤمن يزداد قربًا إليه تعالى فيخاطبه معلنًا اختصاصه بالعبادة ومد العون «**إياك نعبد وإياك نستعين**».

وتأمل آخر السورة الكريمة ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ

عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة: ٧]، حيث نسب الإنعام إليه تعالى تعظيمًا لشأنه ولم ينسب الغضب إليه بل بنيت العبارة للمفعول تأدبًا وتلطفًا... وفي ذلك ما فيه من تعظيم للمنعم عليهم وتحقير وتنفير من المغضوب عليهم.

ومن هذه الصورة قوله تعالى: ﴿ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ۝ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴾ [الإنسان ٢١، ٢٢]، حيث التفت من الغيبة في قوله: «سقاهم ربهم» إلى الخطاب في قوله: «لكم... سعيكم» تكريمًا وتعظيمًا للمتحدث عنهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝ ﴾ [مريم: ٨٨، ٨٩]، التفت من الغيبة في قوله: «قالوا» إلى الخطاب في قوله: «جئتم» تنبيهًا إلى عظم هذا الافتراء وتوبيخًا لهم وردعًا حتى لكأنهم حاضرون ومواجهون بافترائهم تأنيبًا لهم وتسفيهًا لعقولهم.

ومنه شعرًا قول عبد الله بن عنمة الضبي:

مَا إِنْ تَرَى السَّيِّدُ زيدًا في نفوسِهم ... كَمَا يَرَاهُ بَنُو كُرْزٍ وَمَرْهُوبُ

إِنْ تَسْأَلُوا الْحَقَّ نُعْطِ الْحَقَّ سَائِلَه ... والدِّرْعُ مُحْقَبَةٌ والسَّيْفُ مَقْرُوبُ

وَإِنْ أَبَيْتُم فَإِنَّا مَعْشَرٌ أُنُفٌ ... لاَ نُطْعَمُ الْخَسْفَ إِنَّ السُّمَّ مَشْرُوبُ[1]

فقد التفت من الغيبة في قوله: «زيدًا» إلى الخطاب في قوله: «تسألوا» وذلك مواجهة لهم بالحديث، وكأنهم مشاهدون أمام الشاعر، يوجه إليهم حديثه ويطلب منهم إبداء رأيهم والإفصاح عن نواياهم... ثم التفت من الخطاب في: «تسألوا» إلى الغيبة في قوله: «سائله»، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: «نعطه لكم» ولكنه عدل عن المضمر إلى المظهر، فأعاد ذكر الحق، ثم التفت فقال: «سائله»، لأنه يريدهم

(١) السيد وزيد وكرز ومرهوب: أحياء من ضبة قوم الشاعر، يريد أن السيد لا يوجبون لزيد من الحرمة والنصرة ما يوجبه كرز ومرهوب والضمير في قوله «تسألوا»: لزيد... والمحقبة: المشدودة في الحقيبة... والمقروب: الموضوع في قرابه، وأنف: أعزة... والخسف: الذل... والمراد بقوله: «والسم مشروب» أنهم أقوياء أشداء قد اعتادوا الشدائد والأهوال.

سائلين الحق، خاضعين له، وهذا هو سر الالتفات، إنه أبرز السؤال وقرره، كما قرر استعمال الظاهر في موضع الضمير «الحق» وأبرزه، ولو مضى الأسلوب على ما يقتضيه الظاهر، فقيل: إن تسألوا الحق نعطه لكم، لما تحققت تلك الإفادة التي قصد إليها الشاعر... ثم التفت من الغيبة في قوله: «سائله» إلى الخطاب في قوله: «وإن أبيتم» توعدًا وتهديدًا، فهو التفات الغاضب المتوعد، ولعلك تشعر بما وراء استخدام «إن» في قوله: «وإن أبيتم» من الدلالة على أن الإباء مستبعد وقوعه منهم.

وفي الأبيات التفات آخر من الغيبة في قوله: «ترى السيد» إلى التكلم في قوله: «نعط» ولا يخفى ما وراء هذا الالتفات من الفخر والعزة والأنفة.

وأما قول امرئ القيس:

تَطَاوَلَ ليلُكَ بِالأَثْمَدِ ... وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُدِ

وباتَ وباتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ ... كَلَيْلَةِ ذِي الْعَائِرِ الأَرْمَدِ

وَذَلِكَ مِنْ نَبَأٍ جَاءَنِي ... وَخُبِّرْتُهُ عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ[1]

ففيه التفات من الخطاب في قوله: «ليلك... ولم ترقد» إلى الغيبة في قوله «وبات وباتت له»، ثم إلى التكلم في قوله: «جاءني وخبرته»، أما البيت الأول؛ فلا التفات فيه إلا على مذهب السكاكي، والجمهور -كما رأيت- يرون أنه من قبيل التجريد.

ويرى بعض البلاغيين أن في البيت الثالث التفاتين هما من الخطاب في قوله: «ليلك» إلى التكلم في قوله «جاءني» ومن الغيبة في قوله: «وبات» إلى التكلم أيضًا في قوله: «جاءني»... وهذا ليس بشيء؛ لأنه بالانتقال من الخطاب في البيت الأول إلى الغيبة في البيت الثاني لم يعد الخطاب موجودًا، فلم يبق إلا الالتفات من الغيبة في الثاني إلى التكلم في الثالث.

---

(1) الأبيات قيل إنها لامرئ القيس حندج بن حجر الجاهلي، وقيل: لامرئ القيس بن عابس الصحابي في رثاء ابن عمه أبي الأسود، وقيل: لعمرو بن معد يكرب، والأثمد: اسم موضع. والعائر: قذى العين، والأرمد: المصاب بالرمد وأبو الأسود على القول الأول كنية أبيه حجر ملك بني أسد والخبر الذي جاءه هو خبر قتله.

ويرى آخرون أن الالتفاتين في الثالث هما من الغيبة في قوله: «وبات» إلى الخطاب في قوله «وذلك» ثم من الخطاب في «وذلك» إلى التكلم في قوله: «جاءني»... ولا يخفى ما في هذا من تكلف الخطاب في قوله: «وذلك».

فالرأي عندي أن ما في الأبيات التفات سكاكي في قوله: «ليلك» والتفاتان جمهوريان من الخطاب في: «ليلك... ولم ترقد» إلى الغيبة في: «وبات وباتت له»، ثم إلى التكلم في: «جاءني وخبرته».

هذا وإذا كان لكل أسلوب من أساليب الالتفات فائدة خاصة وغرضًا محددًا يعرف من خلال النظر في السياق ومعرفة قرائن الأحوال -كما رأيت- فإن هنالك فائدة عامة تراها في كل التفات، وهي أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن وأبلغ في تجديد نشاط السامع، وأكثر إيقاظًا لمشاعره وتنبيهًا لأحاسيسه، فيقبل إلى الكلام ويصغى إليه، وعندئذ يقع في نفسه موقعًا حسنًا، ويحقق فوائده وأغراضه المرجوة.

***

أسلوب الحكيم

ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر أسلوب الحكيم، وقد عرفوه بقولهم: «تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد، أو تلقي السائل بغير ما يتطلب بتنـزيل سؤاله منـزلة غيره تنبيهًا على أنه الأولى بحاله أو المهم له...»(١).

فمن الأول قول ابن القبعثري الشيباني، وكان ممن خرجوا على الحجاج بن يوسف الثقفي، فقال له الحجاج متوعدًا بالقيد: «لأحملنك على الأدهم» فقال ابن القبعثري حاملاً كلامه على غير مراده: «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب»

فقد أبرز وعيده في معرض الوعد، لأن الحجاج أراد بالأدهم: القيد، وابن القبعثري أراد به: الفرس الأدهم وهو الذي يغلب سواده بياضه، ثم عطف عليه

---

(١) الإيضاح ١/ ١٦٠.

الأشهب، وهو الذي غلب بياضه على سواده، وكأنه يريه بألطف وجه أن من كان على صفته في السلطان وبسطة اليد فجدير به أن يكرم لا أن يعذب، وأن يعد فيعطي لا أن يتوعد ويهدد.

ولذا لما قال له الحجاج بعد ذلك: «إنه الحديد»، أجابه: لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا، صرف كلامه أيضًا إلى غير مراده، لأن الحجاج أراد أنه قيد حديد، فصرفه ابن القبعثري إلى الفرس قائلاً: لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا، أي: لأن يكون الفرس ذا حدة وقوة ونشاط خير من أن يكون بليدًا فاترًا وهو بهذا ينبه إلى أن ما ينبغي أن يفعله يجب أن يكون من جنس التكريم والإنعام فهذا هو الأولى بمن في مثل مقامه، واللائق بمن في مكانته وعلو منـزلته.

واقرأ قول الشاعر مفتخرًا بكرمه:

أَتَتْ تَشْتَكِي عِنْدِي مُزَاوَلَةَ الْقِرَى ... وَقَدْ رأتْ الضِّيفَانَ يَنْحَوْنَ مَنْزِلِي
فَقُلْتُ كَأَنِّي مَا سَمِعْتُ كَلاَمَهَا ... هُمُ الضَّيْفُ جِدِّي في قِراهُمْ وعَجِّلِي

فقد جاءته تشتكي مزاولة القرى، وذلك لكثرة ضيوفه، فهي لا تكف عن العمل في إعداد الطعام لهم، إذ كلما ذهب ضيف أقبل آخر، وبدل أن يجيبها فيخفف عنها مزاولة القرى، ويكف أو يقلل من ضيافته، يطلب منها الجد ومضاعفة الجهد: «هم الضيف جدي في قراهم وعجلي» فهذا هو المهم عنده واللائق به، لا أن يحقق ما أرادت ويمتنع عن إكرام الضيفان.

تراه قد حمل كلامها على غير مراده ووجهه إلى ما ينبغي أن يكون، وكأنه يخطئها فيما قالت، ولذا سماه عبد القاهر: أسلوب المغالطة، وسماه غيره من البلاغيين أسلوب الحكيم، لأنها مغالطة حكيمة لطيفة، حيث لم تقم على المواجهة الصريحة المكشوفة، بل قامت على الإخفاء واللطف والطرافة، مراعاة للأدب والذوق.

انظر إلى قول ابن الرومي:

وقَالُوا: قَدْ صَفَتْ منَّا قُلُوبٌ ... لَقَدْ صَدَقُوا ولكنْ مِنْ وِدَادِي

وتأمل: كيف يخطئهم ويكذبهم وهو يقول: صدقوا... إنها مغالطة حكيمة لطيفة.

ومن الثاني: أي تلقي السائل بغير ما يتطلبه سؤاله، بأن ينزل هذا السؤال منزلة غيره تنبيهًا على أنه الأولى بحاله والمهم له، قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] فقد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الهلال فقالوا: ما باله يبدو دقيقًا مثل الخيط ثم يتزايد قليلاً حتى يمتلئ ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود مثل ما بدا؟ أي أنهم سألوا عن السبب وعن العلة في تغير منازل القمر، فأجيبوا ببيان الحكمة والفائدة من ذلك التغيير: «قل هي مواقيت للناس والحج» تنبيهًا على أنه الأولى بحالهم والمهم لهم...

ومنه قوله عز وجل. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥] فقد سألوه عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصرف للتنبيه على أنه هو المهم لهم وهو الذي ينبغي أن تتجه إليه هممهم وعنايتهم، فليس المهم أن يكون المنفق قليلاً أو كثيرًا ذهبًا أو فضة ما دام من جنس الخير، ولكن المهم أن يصرف فيما ينببغي أن يصرف فيه وأن يقع في موقعه المشروع.

ولله در حسان بن ثابت ﷺ إذ يقول:

إنَّ الصَّنيعَةَ لا تَكُونُ صَنيعَةً ... حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمُصْنِعِ

فَإذَا صَنَعْتَ صَنيعَةً فَاعْمَدْ بِهَا ... لله أَوْ لِذَوِي الْقَرَابَةِ أَوْدَعِ

واقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣- ٢٨، تجد أن فرعون قد سأل عن رب العالمين يريد أن يعرف ذاته: «ما رب العالمين»أي: ما نوعه وما جنسه، ثم سأل من حوله معجبًا ومتعجبًا: أيسمعون؟ ثم أكد جنون موسى -عليه السلام- وفي كل مرة يصرف موسى السؤال عن ظاهره ويجيب بما لا يتطلبه السؤال: رب السموات والأرض وما بينهما، ربكم ورب آبائكم... رب المشرق والمغرب... وذلك لينبههم إلى أن هذا هو المهم لهم وهو الذي ينبغي أن يسألوا عنه وأن يشغلوا به.

أسلوب القلب

ومنها أسلوب القلب وهو أن يجعل المتكلم أحد أجزاء الكلام مكان جزء آخر يجعله مكانه على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر، فليس منه التقديم في نحو قولك: في الدار زيد، وضرب عمرًا زيد، لأنك في مثل هذا التقديم لم تثبت حكم المقدم للمؤخر ولا العكس.

وقد قسم البلاغيون القلب إلى قسمين:

١-قلب معنوي: وهو أن يكون الداعي للقلب من جهة المعنى، وذلك لتوقف صحته عليه، ويكون اللفظ تابعًا... ومنه قولهم: عرضت الناقة على الحوض، إذ الأصل: عرضت الحوض على الناقة، لأن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور واختيار لأجل أن يميل إلى المعروض أو يحجم عنه، والداعي إلى هذا القلب هو أن المعتاد في ذلك أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه، ولما كانت الناقة هي التي يؤتى بها إلى الحوض، نزل كل منهما منزلة الآخر فأعطي حكمه.

ومثله قولك: أدخلت الخاتم في الإصبع والقلنسوة في الرأس، والثوب في الجسم، فالأصل أن يقال: أدخلت الإصبع في الخاتم والرأس في القلنسوة والجسم في الثوب، وذلك لأن العادة جرت أن يتحرك بالمظروف نحو الظرف ولكن لما كان المظروف في الأمثلة وهو الإصبع والرأس والجسم ثابتًا، والظرف وهو الخاتم والقلنسوة والثوب متحركًا، نزل كل منهما منزلة الآخر فأعطي حكمه...

ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج:

وَمَهْمَهٍ مُغْبَرَّةٍ أَرْجَاؤُهُ   كَأَنَّ لَونَ أَرْضِهِ سَمَاؤُه[1]

إذا الأصل كأن لون سمائه لغبرتها لون أرضه فقلب التشبيه لقصد المبالغة...

---

(١) مَهْمَهَ فلان فلانًا ومهمه به أي: زجره، وقال له: مه مه أي: اكفف، فَمَهْ: اسم فعل أمر بمعنى: اكفف. والمُهْمَهُ: المفازة جمعها: مَهَامِهُ.

وقول أبي تمام يصف قلم الممدوح:

لَعَابُ الأَفَاعِي الْقَاتلاتِ لُعَابُهُ   وَأَرْيُ الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيدٍ عَوَاسِلُ[1]

والأصل: لعابه لعاب الأفاعي وأرى الجني، فقلب التشبيه للمبالغة...

وقول محمد بن وهيب:

وبدَا الصَّبَاحُ كأنَّ غُرَّتَهُ   وَجْهُ الخليفةِ حينَ يُمْتَدَحُ

والأصل تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح فعكس مبالغة في التشبيه...

ومنه قول الآخر:

رَأَيْنَ شَيْخًا قد تَحَنَّى صُلْبُهُ   يَمْشِي فَيَقْعَسُ أو يُكَبُّ فَيَعْثُرُ

والأصل: أو يعثر فيكب، فقلب مبالغة في ضعفه ووهنه وأنه صار يعثر حتى في أثناء انكبابه...

٢-قلب لفظي: وهو أن يكون الداعي إليه من جهة اللفظ، بأن تتوقف صحة اللفظ عليه، ويكون المعنى تابعًا، كما إذا وقع ما هو في موقع المبتدأ نكرة وما هو في موقع الخبر معرفة... ومثاله قول القطامي:

قِفِي قبلَ التَّفَرُّقِ يَا ضِبَاعَا   وَلاَيَكُ مَوْقِفٌ مِنْكِ الْوَدَاعَا[2]

فالقلب في قوله: ولا يك موقف منك الوداع، لأن الشاعر عرف «الوداع»، وهو في موضع الخبر، ونكر «موقف منك»، وهو في موضع المبتدأ، فهو قلب لفظي والأصل، ولا يك موقف الوداع موقفًا منك، إذ لا يصح الإخبار بالمعرفة عن النكرة ولذا جعل من القلب، ولو أن الشاعر قال: ولا يك موقف منك وداعًا بتنكير «الوداع» لاستغنى عن تقدير القلب في البيت، لأنه عندئذٍ يكون الأسلوب قد جاء على الأصل من الإخبار بالنكرة عن النكرة المعتمدة على مسوغ وهو الوصف: «منك»، والنهي: «لا يك» وهذا قد أجازه النحاة...

---

(1) أري الجنى: العسل من إضافة الموصوف للصفة، واشتارته: جنته والأيدي العواسل: العارفة بجنيه، والصفة الأولى صفة القلم مع الأعداء والثانية صفته مع الأصدقاء.

(2) الألف في: «ضباعا» للإطلاق وهو مرخم ضباعة اسم بنت للقطامي وقيل اسم امرأة غيرها.

ومنه أيضا قول حسان:

كَأَنَّ سَبِيئَةً من بيتِ رأسٍ ... يكونُ مزاجَهَا عَسَلٌ ومَاءُ
عَلى أَنْيَابِهَا أو طَعْمُ غَضٍّ ... مِنَ التُّفَّاحِ عَصَّرَهُ اجْتِنَاءُ(١)

فقوله: يكون مزاجها عسل وماء قلب لفظي، لأنه نكر ما في موضع المبتدأ وعرف ما في موضع الخبر، والأصل فيهما العكس - كما عرفت - ويروى البيت برفع «مزاجها» على أن اسم يكون ضمير الشأن وجملة: مزاجها عسل وماء خبرها، وعندئذ فلا قلب في البيت.

***

آراء البلاغيين في أسلوب القلب

اختلف البلاغيون في أسلوب القلب، فبعضهم يقبله مطلقًا، ولو أوهم خلاف المراد، ومن هؤلاء السكاكي، وحجتهم أنه أسلوب يورث الكلام ملاحة ولطفًا، لأن قلب الكلام مما يحوج إلى التفكر والتنبيه للأصل... ورده بعضهم مطلقًا، واحتجوا بأن الكلام إنما وضع لإفادة ما يصح، والقلب يؤدي إلى ما لا يصح، لأنه عكس للمطلوب.

ويرى الجمهور أن القلب لا يمكن إنكاره ورده؛ لأنه وارد على ألسنة العرب وكثيرًا ما يكون له اعتبارات لطيفة ومزايا حسنة، كما أنه لا يمكن قبوله مطلقًا، لأنه قد يوهم خلاف المراد، وقد يرد ولا يكون وراءه اعتبار لطيف، ولذا فهم يقبلون منه ما تضمن اعتبارًا لطيفًا زائدًا على مجرد الملاحة، كما رأيت في الأمثلة والشواهد المتقدمة، ويردون ما لا يتضمن اعتبارًا لطيفًا، لأنه عندئذ يكون عكسًا للمراد وعدولاً عن الظاهر بلا نكتة يعتد بها...

(١) السبيئة: الخمر المشتراة للشراب، وبيت رأس بلد بالشام بين رملة وغزة، والغضك الطري، وقوله: عصره بمعنى أساله كناية عن إدراكه وفت نضجه، شبه ريق محبوبته بخمر مزجت بعسل أو بسائل التفاح.

فمن ذلك القلب المردود قول القطامي عن ناقته:

فلمَّا أنْ جَرَى سِمَنٌ عليهَا كَمَا طَيَّنْتَ بِالْفَدَنِ السِّيَاعَا
أَمَرْتُ بِهَا الرِّجَالَ لِيَأْخُذُوهَا وَنَحْنُ نَظُنُّ أنْ لَنْ تُسْتَطَاعَا(1)

يريد: أنها صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسياع، وفي ذلك قلب معنوي، إذ الأصل: كما طينت الفدن بالسياع، فإن حمل السياع على الآلة التي يطين بها، فليس وراء القلب عندئذ اعتبار لطيف، وإن حمل على الطين فيجوز أن يكون المقصود المبالغة في سمنها لأنه يقصد عندئذ تشبيه السمن بالسياع الذي صار لكثرته كأنه الأصل، والفدن هو الفرع فكذلك السمن قد صار ضخمًا عظيمًا، ولكن هذا لا يخلو من تكلف كما ترى...

ومنه قول قطري بن الفجاءة:

لاَ يَرْكَنَنْ أَحَدٌ إِلَى الإِحْجَامِ يَوْمَ الوغَى متخوفًا لِحِمَامِ
فلقَدْ أراني لِلرِّمَاحِ دَرِيئَةً مِنْ عَنْ يَمِينِي مَرَّةً وأَمَامِي
حَتَّى خَضَبْتُ بِمَا تَحَدَّر مِنْ دَمِي أَكْنَافَ سَرْجِي أَوْ عِنَانَ لِجَامِي
ثُمَّ انْصَرَفْتُ وقد أَصَبْتُ ولم أُصَبْ جَذْعَ البَصِيرَةِ قَارِحَ الإِقْدَامِ(2)

والشاهد في البيت الأخير، إذ الجذع يطلق على حديث السن غير المجرب للأمور، فالأصل أن يقال: جذع الإقدام قارح البصيرة، لأنه يفخر بنفسه ويتمدح، وهذا لا يتأتى إلا على القلب إذ يقال في المدح: «إقدام غر ورأي مجرب» وبناء على ذلك فالقلب لم يتضمن معنى لطيفًا، بل أوهم خلاف المراد.

---

(1) الفدن، القصر، والسياع: الطين المخلوط بالتبن، أو الآلة التي يطين بها، يعني أنها صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسياع، وقوله: أن لن تستطاع معناه: أن لن يقدر عليها أحد لملاستها وضخامتها.

(2) الإحجام: التأخر، والوغى: الحرب، والحمام: الموت، والدريئة: حلقة يتعلم عليها الطعن شبه نفسه بها وهي من الدرء بمعنى الدفع، وأكناف السرج: جوانبه، والعنان: سير اللجام، وجذع البصيرة بمعنى غير مجرب للأمور، وقارح الإقدام بمعنى إقدام أصحاب السن القديمة.

وقد أجيب عنه بأنه لا قلب في البيت بل المعنى يحتمل أحد أمرين:

أولهما: أن قوله: «لم أصب» بمعنى: لم أوجد بهذه الصفة، وليست بمعنى: لم أجرح، بدليل البيت قبله، فإن الخضاب بما تحدر من دمه يدل على أنه جرح، وأيضًا فحوى كلامه ينبئ بأنه جرح ولم يمت، إذ يعلن أن الإقدام غير علة للحمام ويحث على الشجاعة، وينفر من الفرار والإحجام، فمعنى البيت الأخير: ثم انصرفت وقد أصبت من الأعداء ولم أوجد جذع البصيرة قارح الإقدام بل وجدت: قارح البصيرة جذع الإقدام.

وثانيهما: أنه يريد أن يشبه بصيرته بالجذع في عدم الاختلاط والتزلزل من الهول، وأن يشبه إقدامه بالقارح في الصبر والاحتمال، ولا يخفى عليك أن الإجابة الأولى أقوى وأقرب لأنها تتفق مع سياق الأبيات، وعلى كلتا الإجابتين فلا قلب في البيت كما هو واضح.

ومن القلب المردود قول عروة بن الورد:

فَلَوْ أَنِّي شَهِدْتُ أَبَا سُعَادٍ غَدَاةَ غَدَا لِمُهْجَتِهِ يَفُوقُ
فَدَيْتُ بِنَفْسِهِ نَفْسِي وَمَالِي وَمَا آلُوكَ إِلاَ مَا أُطِيقُ (١)

فالأصل: فديت نفسه بنفسي ومالي، وليس وراء هذا القلب اعتبار لطيف، لأنه يوهم خلاف المراد.

ومنه قول خداش بن زهير:

وَتَلْحَقُ خَيْلٌ لا هَوَادَةَ بينَهَا وتَشْقَى الرِّمَاحُ بالضَّيَاطِرَةِ الْحُمْرِ (٢)

فالأصل: وتشقى الضياطرة الحمر بالرماح فهو قلب معنوي لا تجد وراءه اعتبارًا لطيفًا، وقد ذكر له سوى القلب وجهان: أحدهما أن يجعل شقاء الرماح بهم

---

(١) يقال: فاق بمهجته ولمهجته يفوق: إذا أشرفت نفسه على الخروج أو خرجت، وما آلوك بمعنى: لم أقصر فيك.

(٢) الهوادة: اللين، والمعنى لا لين بين أصحابها. والضياطرة جمع ضيطر وهو الضخم اللئيم العظيم الإست. والحمر: جمع أحمر اللون وقيل هو الذي لا سلاح معه.

استعارة لكسرها وتحطيمها بطعنهم بها، والثاني أن يجعل نفس طعنهم شقاء للرماح، تحقيرًا لشأن الضياطرة، وأنهم ليسوا أهلاً لأن يطعنوا بها كما يقال: شقي الخز بجسم فلان، إذا لم يكن أهلاً للبسه...

ومنه قول حسان السابق:

كـــأنَّ سَـــبِيئَةً مـــن بَيْـــتِ رَأْسٍ ... يَكُـــونُ مِزَاجَهَـــا عَـــسَلٌ ومـــاءٌ

وقول القطامي وقد سبق أيضًا:

قِفِـــي قَبْـــلَ التَّفَـــرُّقِ يَـــا ضِـــبَاعَا ... ولا يـــكُ مَوْقِـــفٌ مِنْـــكِ الْودَاعَـــا

وقد وقفت على ما في البيتين من قلب لفظي ليس وراءه اعتبار بلاغي، وتبين لك أن بيت حسان يمكن حمله على غير القلب.

هل يوجد أسلوب القلب في النظم الكريم؟

أجاب بعض البلاغيين بنعم وزعموا أن منه قوله تعالى: ﴿**وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ**﴾ [الأعراف: ٤]، على أن الأصل: جاءها بأسنا فأهلكناها.

وقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ**﴾ [النجم: ٨]، والأصل: ثم تدلى فدنا، وقوله تعالى: ﴿**اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ**﴾ [النمل: ٢٨]، والأصل: فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم.

ومنع ذلك الجمهور، لأنه لا يوجد وراء تقدير القلب في الآيات الكريمة اعتبار لطيف، ولذا رأوا أن الأصل في الآيات: وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا، ثم أراد الدنو من محمد ﷺ فتدلى أي: فتعلق عليه في الهواء. ثم تول عنهم، أي: تنح إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك، فانظر ماذا يرجعون، فيقال: إنه دخل عليها من كوة فألقى الكتاب إليها وتوارى في الكوة ليسمع ما يقولون.

***

أسلوب التغليب

ومنها التغليب وقد عرفوه بقوهم: هو إعطاء أحد المتصاحبين أو المتشابهين حكم الآخر بجعله موافقا له في الهيئة أو المادة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٢]، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وكانت من القانتات، ولكن النظم الكريم عدل عن ذلك فعد الأنثى من الذكور بحكم التغليب، وفيه إشعار بأنها قد بلغت في طاعتها مبلغ أولئك الرجال فعدت منهم...

ومنه قوله تعالى: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨]، فقد أدخل شعيب –عليه السلام– في قوله: «لتعودن» بحكم التغليب، لأنه لم يكن في ملتهم أصلاً حتى يقال: إنه يعود فيها، وإنما غلب عليه الذين آمنوا معه، فعد منهم، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: أو ليعودن.

ومثله قوله جل وعلا: ﴿ إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ [الأعراف: ٨٩]، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [البقرة: ٣٤]، فقد عد إبليس من الملائكة بحكم التغليب... وقوله عز وجل: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، فمعنى «يذرؤكم فيه»: يبثكم ويكثركم في هذا التدبير وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجًا حتى كان بين الذكور والإناث التوالد والتناسل، وقد جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير، ولذا عبر بالحرف «في» دون «الباء» فقيل: «يذرؤكم فيه»، ولم يقل: «به» ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، حيث جعل القصاص كالمنبع والأصل للحياة... والتغليب في الآية الكريمة تغليب العقلاء المخاطبين على الأنعام الغائبة، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: يذرؤكم ويذرؤها فيه...

ومن تغليب أحد المتشابهين على الآخر قولنا: الأبوان للأب والأم والقمران للشمس والقمر، والعمران لعمر وعمرو...ومن التغليب أيضًا خطاب الواحد خطاب الاثنين والجمع، وخطاب المثنى مخاطبة الجمع، حيث يغلب المثنى على المفرد والجمع على المفرد والجمع على المثنى... وهكذا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ٧٨]، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: وتكون لك الكبرياء في الأرض، فعدل عن هذا إلى قوله: «لكما» تغليبًا للمثنى على المفرد، والمراد بالمثنى: موسى وهارون –عليهما السلام–.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، حيث غلب الجمع على الواحد، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: «إذا طلقت النساء فطلقهن» فعدل إلى الجمع، لأنه حكم عام وتشريع للأمة وليس خاصًا به –عليه الصلاة والسلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ [يونس: ٨٧]، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: واجعلا بيوتكما قبلة، فعدل عن ذلك إلى قوله جل وعلا «واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة» تغليبًا للجمع على المثنى، لأن الأمر لم يعد خاصًا بموسى وهارون، بل تجاوزهما إلى كل مكلف بُلِّغَ الرسالة.

***

المخالفة في صيغ الأفعال

ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر المخالفة في صيغ الأفعال بأن يعبر عن المستقبل بلفظ الماضي أو باسم الفاعل أو المفعول، وعن الماضي بلفظ المضارع، وعن المصدر أو المضارع بلفظ الأمر، وذلك لا يكون إلا لأغراض بلاغية ومزايا يقتضيها المقام ويهدف إليها البلاغي...

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، تجد التعبير عن المضارع بلفظ الماضي في الآية الكريمة لسر بلاغي، وهو إفادة تحقق الوقوع، وأن ما هو للواقع في المستقبل، وهو النفخ في الصور وصعوق من في السموات والأرض كالواقع الآن، لأنه واقع لا محالة...

ومثله قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، قيل: «ففزع»و «أتوه» والمراد: فيفزع، ويأتونه، إذ الحدث لم يقع بعد، ولكن عبر عنه بالماضي إشارة إلى تحقق وقوعه، فهو واقع لا محالة.

وكذا القول في الآيات الكريمة ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ [الأعراف: ٤٨]، فالتعبير بالماضي عن الأحداث المشار إليها جعل المتوقع الذي لابد من وقوعه في المستقبل بمنـزلة الواقع المحقق.

وهكذا عندما تقرأ أساليب القرآن الكريم تجد لهذا التعبير مذاقًا حلوًا ووقعًا حسنًا، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧﴾ [الشعراء: ٩٠- ٩٧]، وتأمل الأفعال «أزلفت... برزت... قيل: كبكوا... قالوا»، وكيف قربت الجنة للمتقين، وهم ما زالوا أحياء في الدنيا، وكيف برزت الجحيم، وقيل للغاوين ما قيل تبكيتًا، بل كيف قالوا هم: تالله إن كنا لفي ضلال مبين، وهم لا يزالون يعاندون في الدنيا ويكابرون.

واقرأ قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقوله عز من قائل: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣﴾ [ق ١٩- ٢٣] وتأمل كيف طويت الأحداث في الآيات وأبرزت تلك الأفعال محققة واقعة ويرجع ذلك إلى التعبير عنها بلفظ الماضي كما ترى.

ومثل ذلك التعبير عن المضارع باسم الفاعل كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾

[الذاريات: ٦]، أو باسم المفعول كقوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

فقد عبر في الآيات الكريمة عما سيقع لا محالة باسم الفاعل واسم المفعول فأفاد ذلك تحقق وقوعه، وأنه لا محالة واقع.

ومن التعبير عن الماضي بلفظ المضارع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]، فقد عبر عن الماضي بلفظ المضارع في قوله: «فتثير سحابًا» استحضارًا لصورته العجيبة البديعة الدالة على القدرة الباهرة، وكأنها واقعة أمامك وأنت تشاهدها الآن وتتأملها وتبصر ما فيها من عجب وغرابة فيكون تأثيرها أشد ووقعها أقوى.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: ما تلت فعبر بالمضارع استحضارًا لصورته العجيبة.

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقد مرت بك هذه الآيات عند الحديث عن «لو» كما مر بك أيضًا التعبير بالمضارع عن الماضي في قول تأبط شرًا وزعمه أنه قد قتل الغول عندما تعرضت له في الفلاة:

فَشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِي فأَهْوَتْ ... لهَا كفِّي بمَصْقُولٍ يمَانِي

فأَضْرِبُهَا بلا دهشٍ فخرَّتْ ... صريعًا لِلْيَدَيْنِ ولِلْجِرَانِ[1]

فكان مقتضى الظاهر أن يقال: فكأنما خر من السماء فخطفته الطير أو هوت به الريح، ثم قال له كن فكان... فأهوت لها كفي فضربتها ولكن عدل عن هذا المقتضى إلى التعبير بالمضارع لإبراز تلك الأحداث وإحضارها ماثلة أمامك مشاهدة

---

(١) ارجع إلى تقييد الفعل بـ"إن" و"إذا" و"لو" في أحوال المسند الفصل الثالث.

بناظريك، لأنها أحداث عجيبة وغريبة... تتخيل المشرك وقد خر من السماء والطير تخطفه أو الريح تهوي به إلى مكان سحيق... وتمثل أمامك القدرة الإلهية، «كن فيكون» وتصور تأبط شرًا يصارع الغول ويضربها فتخر صريعًا ويريح الإنسانية من شرها ومن شر الإخافة بها.

ثم تأمل قوله عز وجل ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، حيث لم يعبر بالماضي فيقال: «إذ حكما في الحرث» ولا باسم الفاعل فيقال: «مسبحات» حسب مقتضى الظاهر، ولكن عدل عنه إلى المضارع إبرازًا وإحضارًا لصورة الحدثين وهما يقعان وكأن القارئ يشاهدهما يحدثان أمامه...

ومثل التعبير بالمضارع عن الماضي استحضارًا وإبرازًا لصورته العجيبة، التعبير به عن اسم الفاعل أو اسم المفعول كما في الآية السابقة وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، فمقتضى الظاهر أن يقال: «مسبحات»؛ لأن التسبيح قد وقع في زمن داود عليه السلام، ولكن النظم الكريم خالف هذا الظاهر وعبر بالمضارع: «يسبحن» ليحضر الحدث من الماضي البعيد ويبرزه في مقام المشاهدة، وكأنك تنظر إلى هذا الحدث العجيب واقعًا أمامك، وذلك لأن تسبيح الجبال وتأويبها مع داود من الأحداث العجيبة الدالة على قدرة الله عز وجل.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وقوله عز وجل: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: فسخرنا له الريح جارية بأمره، ولسليمان الريح عاصفة جارية بأمره، ولكن عدل عن هذا الظاهر فعبر بالمضارع إحضارًا لتلك الصورة العجيبة الدالة على القدرة الإلهية وكأنك حين تقرأ الآيات تشاهد الريح تجري بأمر سليمان عليه السلام، وتتمثل صورة جريانها بقدرة الله تعالى وتسخير الله إياها له عليه السلام.

وقد يعبر بفعل الأمر عن الماضي أو المضارع كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: أمر ربي بالقسط وإقامة وجوهكم ودعوته مخلصين... فعدل عن هذا الظاهر إلى الأمر: «وأقيموا... وادعوه» للدلالة على مزيد العناية بالمأمور به، والإيحاء بأن السامع ينبغي أن يلتفت إليه، وأن يؤمر به، وينبه إلى عظمه وأهميته...

وتأمل قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ ﴾ [هود: ٥٣، ٥٤]، تجد أن مقتضى الظاهر أن يقال: أشهد الله وأشهدكم، فعدل عن ذلك إلى الأمر: «واشهدوا» لمغزى بلاغي جليل وهو أن في أمرهم أن يشهدوا ببراءته من دينهم ضربًا من التحدي الذي ينبئ بحقارة ما يعبدون، وفيه أيضًا دلالة على أن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، ولذا عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما...

هذا وبعض البلاغيين كالعلوي صاحب الطراز وابن الأثير صاحب المثل السائر، يجعل مخالفة مقتضى الظاهر في صيغ الأفعال من باب الالتفات الذي مر بك، كما يجعلون منه أيضًا مخاطبة الواحد خطاب المثنى أو الجمع ومخاطبة المثنى خطاب الجمع أو الواحد ونحو ذلك مما يخرج فيه الكلام عن مقتضى الظاهر، إذ يرون أن الالتفات هو العدول عن أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول، ويقولون إن هذا أحسن من قصره على العدول من غيبة إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة، أي: من قصره على الانتقال من إحدى طرق الكلام إلى الأخرى، كما مر بك.

وأيا ما كان الأمر فلا نرى لمثل هذا الخلاف فائدة، لأن المهم هو أن تعرف هذه الصور التي خالفت مقتضى الظاهر، وتقف على ما وراءها من مزايا وأسرار بلاغية، أما كونها من الالتفات أو جعلها صورًا مستقلة عنه، فإن ذلك لن يفيد الدارس شيئًا، ولذا ضربنا صفحًا عن مناقشة مثل هذه الخلافات.

تم بحمد الله تعالى الجزء الأول من كتاب «علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني»، ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء الثاني وأوله أسلوب القصر... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصل اللهم وسلم وبارك على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

الجزء الثاني

أحوال الجملة والجمل

- أساليب القصر.
- أساليب الإنشاء.
- الفصل والوصل.
- الإيجاز والإطناب.

الفصل الخامس
أساليب القصر

أساليب القصر أساليب ثرية، فهي من الأساليب الغنية بالاعتبارات الدقيقة والملاحظات اللطيفة، ولذا قالوا: إن القصر فن دقيق المجرى، لطيف المغزى، جليل المقدار، كثير الفوائد، غزير الأسرار (١).

انظر إلى قول عبد الله بن قيس الرقيات:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللهِ   تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ

تجده يفيد المبالغة في وصف مصعب بالشجاعة والإقدام بعبارة مختصرة وأسلوب موجز، وقد آثر الشاعر التعبير بإنما ليدل على أن اتصاف مصعب بصفة الشجاعة أمر ظاهر بين، فتلك خصوصية من خصوصيات «إنما» -كما سنرى- وبهذا يتضح لك أن أسلوب القصر في البيت، قد حقق ثلاث مزايا: الإيجاز والمبالغة والدلالة على شهرة مصعب وذيوع شجاعته.

ويرجع ثراء أساليب القصر وكثرة فوائدها إلى تنوع طرقها وما بين تلك الطرق من فروق دقيقة، واعتبارات وملاحظات لطيفة.

هذا والقصر في اللغة معناه: الحبس، يقال: قصرته أي: حبسته، وهو مقصور أي: محبوس، قال تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٢]، أي: محبوسات قد قصرن نظرهن على أزواجهن، فالمرأة قاصرة الطرف هي التي تحبس طرفها على بعلها وتخصه به فلا تمده إلى غيره.

وفي اصطلاح البلاغيين: «هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص» (٢) فعندما نقول: زهير شاعر لا كاتب، فإننا نخص زهيرًا بصفة الشعر بحيث لا يتجاوزها إلى صفة الكتابة، فزهير مقصور، والشعر مقصور عليه، وقد قيد البلاغيون التخصيص بالطريق المخصوص، ليخرج كل ما أفاد القصر بغير تلك

(١) انظر كتاب الطراز جـ ٢ ص ٣٢

(٢) انظر بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٣

انطرق المخصوصة، فقولنا: زيد مقصور على العلم، وجاء محمد وحده... وعلي يختص بالشعر... وخالد ينفرد بالشجاعة.

وقال أبو ذؤيب:

وإذا الْمَنِيَّةُ أنشبَتْ أظفارَها ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تنفعُ

هذه الأقوال وإن أفادت اختصاص شيء بشيء إلا أنها لا تدخل في نطاق دراسة البلاغيين وميدان بحثهم لأن التخصيص فيها لم يتم عن الطرق المعهودة التي حددوها.

وعند التأمل نجد أن إفادة القصر بغير الطرق التي حددها البلاغيون، ليس وراءها اعتبارات بلاغية تستدعي الدراسة والبحث، ولذا حصر البلاغيون دراسة القصر في تلك الطرق الغنية بالاعتبارات والملاحظات الدقيقة... وهي «التقديم» كقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٤]، والعطف نحو: محمد كاتب لا شاعر، وإنما كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَنٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٥]، والنفي والاستثناء كقوله عز وجل: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٣]، وأضاف بعضهم: «تعريف المسند أو المسند إليه بأل»، «وتوسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر» نحو: محمد الجواد...والشجاع عمرو... وعلي هو العالم... وزاد بعضهم طرقًا أخرى حتى وصلت طرق القصر عندهم إلى أربعة عشر طريقًا(١).

ولكن ما عليه جمهور البلاغيين هو الطرق الأربعة الأولى النفي والاستثناء، و«إنما»والتقديم والعطف «بلا وبل ولكن»؛ لأنها هي الغنية بالاعتبارات والملاحظات دون غيرها.

والبلاغيون في دراستهم لأسلوب القصر ينظرون إلى غرض المتكلم من الاختصاص... وإلى حال المخاطب التي وقف عليها المتكلم فأحدث هذا التخصيص... وإلى طرفي القصر أي المقصور والمقصور عليه... ثم إلى طرق القصر المشهورة وما بينها من فروق واعتبارات... فالقصر كما عرفوه: «تخصيص شيء

---

(١) انظر الإتقان جـ ٢ ص ٥٠.

بشيء بطريق مخصوص»، الشيء الأول هو المقصور عليه، والثاني هو المقصور، ومعنى اختصاص المقصور بالمقصور عليه: ألا يتجاوزه ويتعداه إلى غيره... ففي قولنا: «ما شاعر إلا زهير» قصر للشاعرية على زهير بحيث لا تتعداه إلى غيره.

وهذا الغير الذي انتفت عنه صفة الشعر إن كان عامًّا فالقصر حقيقي، وإن كان معينًا فالقصر إضافي... والعام إن كان مطابقًا للواقع الخارجي فالقصر حقيقي تحقيقي، وإن كان مبنيًّا على الادعاء والمبالغة فهو حقيقي ادعائي... ثم القصر الإضافي ينظر فيه إلى حال المخاطب فهو إما أن يكون مترددًا في إثبات المقصور للمقصور عليه ونفيه عن المنفي عنه... وإما أن يكون معتقدًا الشركة أي: اشتراك المنفي عنه والمقصور عليه في المقصور...وإما أن يعتقد العكس أي: إثبات المقصور للمنفي عنه ونفيه عن المقصور عليه... فالأول قصر التعيين والثاني قصر الإفراد والثالث قصر القلب.

ثم ينظرون إلى طرفي القصر، أي: المقصور والمقصور عليه، لأنه لابد أن يكون أحدهما موصوفًا والآخر صفة، ولذا فالقصر إما أن يكون قصر صفة على موصوف أو قصر موصوف على صفة.

هذا وليست طرق القصر سواء في الدلالة عليه، بل بينها فروق دقيقة -كما قلت- تحتاج من الدارس لكي يقف عليها إلى تأمل واع ونظر دقيق؛ ثم إن تحديد المقصور والمقصور عليه ليس بالشيء الهين، بل يحتاج من الدارس أيضًا إلى نظر وتأمل في أسلوب القصر فمثلاً قولك: إنما ضرب محمد زيدًا يفيد قصر الضرب الواقع من محمد على المفعول: زيد، وقولك: إنما ضرب زيدًا محمد، يفيد قصر الضرب الواقع على زيد، على فاعله محمد، وبينهما فرق كبير.

هذا إجمال مخل لما ذكره البلاغيون في حديثهم عن أساليب القصر، ولكي يتبدد هذا الإخلال فتقف على مزايا القصر وأسراره ودقائقه، والفروق بين طرقه، فإننا نتبعه بالتفصيل والإيضاح والبيان فيما يلي إن شاء الله تعالى.

القصر الحقيقي والقصر الإضافي

ينقسم القصر باعتبار غرض المتكلم وما يقصد إليه إلى قسمين:

قصر حقيقي، وقصر إضافي:

فالقصر الحقيقي: ما كان غرض المتكلم منه أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره أصلا... وهذا يعني أن المنفي عنه يكون عامًا، فالمقصور مختص بالمقصور عليه منفي عن كل ما عداه... كما في قوله تعالى: ﴿ **وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ** ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ففي الآية طريقان من طرق القصر الأول التقديم «وعنده مفاتح الغيب»، والثاني: النفي والاستثناء «لا يعلمها إلا هو» فمفاتح الغيب عنده وليست عند غيره، وعلمها مقصور عليه تعالى، منفي عن كل ما عداه، وتكرار القصر أفاد تأكيد هذه الحقيقة وتقريرها، وهي أن العلم بالغيب مختص به تعالى، لا يتعداه إلى أحد من خلقه... ومنه قولنا: «ما خاتم الأنبياء إلا محمد»، فالمراد: أن ختم النبوة مقصور على محمد ﷺ لا يتعداه إلى غيره من الرسل...وقوله عز وجل: ﴿ **قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا** ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فالمراد قصر العبادة على الله تعالى بحيث لا تتعداه إلى غيره مطلقًا.

والقصر الإضافي: أن يختص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة إلى شيء معين، أي بالإضافة إليه، بحيث لا يتجاوزه إلى ذلك المعين... كما في قولنا: زهير شاعر لا كاتب، فالمراد: قصر زهير على صفة الشعر، بحيث لا يتجاوزها إلى صفة معينة محددة، وهي صفة الكتابة... وهذا لا ينافي أن يكون لزهير صفات أخرى كالخطابة مثلاً. ففي القصر الإضافي يكون المنفي معينًا محددًا، والمراد ألا يتجاوز المقصور المقصور عليه إلى هذا المنفي المعين، وإن أمكن أن يتجاوزه إلى غيره... ومنه قولنا: الشاعر ذو الرمة لا زياد، فصفة الشعر مقصورة على ذي الرمة، لا تتعداه إلى زياد، وإن صح أن تتعداه إلى نصيب والكميت وجرير والفرزدق وغيرهم من الشعراء.

هذا وينقسم القصر الحقيقي إلى قسمين: حقيقي تحقيقي وحقيقي ادعائي.

فالتحقيقي: ما كان المنفي فيه عامًا يتناول كل ما عدا المقصور عليه من حيث

واقع الحال وحقيقة الأمر، فالمقصور يختص بالمقصور عليه لا يتعداه إلى غيره في واقع الأمر وحقيقة الحال، كما في الشواهد التي مرت بنا وكما في قولك: ما أكرمت إلا زيدًا، إذا كان الإكرام لم يقع منك إلا على زيد في واقع الأمر وحقيقته...

ومنه قولنا: «لا يحج إلى مكة إلا المسلمون»، فالواقع يطابق هذا، لأن الحج إلى مكة مقصور على المسلمين، ومنفي عن كل من عداهم من أصحاب الملل الأخرى.

ومنه قوله تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١]، فالملك مختص بالله في الحقيقة والواقع ومنفي عن كل ما عداه، وقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، فالعبادة وطلب العون مختصان بالله، ومنفيان عن كل ما عداه في واقع الأمر وحقيقته[١].

وقوله عز وجل: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فغفران الذنوب مختص بالله تعالى، منفي عما عداه في الواقع والحقيقة...

ونلاحظ أن المقصور في جل الشواهد المذكورة صفة، والمقصور عليه موصوف، فالقصر الحقيقي التحقيقي يقع كثيرًا في الكلام إذا كان المقصور صفة، ويقل في قصر الموصوف على الصفة، لأن الغالب في الموصوف أن يتصف بعدة صفات ولا يوقف على صفة واحدة، أما الصفة فيجوز وقفها على موصوف واحد وحصرها فيه.

وقد غالى بعض البلاغيين فقالوا: إن قصر الموصوف على الصفة قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا لا يتأتى لأنه ما من موصوف إلاوله صفات كثيرة تتعذر الإحاطة بها أو تتعسر، فإذا قلنا: ما زهير إلا شاعر... وما زياد إلا كاتب... لا يتأتى أن يكون زهير مقصورًا على صفة الشعر لا يتجاوزها إلى غيرها... ولا أن يكون زياد موقوفًا على الكتابة لا يتعداها إلى غيرها... كيف وهما يأكلان ويتكلمان ويمشيان، ويتصفان بالحياة، وبالبياض أو السواد وبالقصر أو الطول وبالذكاء أو الغباء... إلى آخر ما يمكن أن يتصف به الحي؟

---

(١) قصر العبادة على الله تعالى قصر حقيقي تحقيقي، أما قصر الاستعانة عليه تعالى فهو قصر حقيقي غير تحقيقي، لأن هنالك استعانات بين العباد، ولكن الاستعانة بغير الله كلا استعانة.

بل إن البعض خرج بالمسألة عن نطاق الدراسة البلاغية، فقالوا: إن الصفة المنفية لها نقيض البتة، وهذا النقيض من الصفات، فإذا نفيت جميع الصفات لزم ارتفاع النقيضين... واحتدم النقاش واشتد الأخذ والرد، ودخلت المسألة في مماحكات كلامية ينبغي أن يتنزه عنها الدرس البلاغي، لأنها من الشوائب التي تعكر صفوه وتكدر عذبه(١).

ولو تنبه هؤلاء إلى قول عبد القاهر: «واعلم أن قولنا في الخبر إذا أخر نحو: ما زيد إلا قائم، أنك اختصصت القيام من بين الأوصاف التي يتوهم كون زيد عليها، ونفيت ما عدا القيام عنه، فإنما نعني أنك نفيت عنه الأوصاف التي تنافي القيام نحو أن يكون جالسًا أو مضجعًا أو متكئًا أو ما شاكل ذلك، ولم نرد أنك نفيت ما ليس من القيام بسبيل، إذ لسنا ننفي عنه بقولنا ما هو إلا قائم أن يكون أسود أو أبيض أو طويلاً أو قصيرًا أو عالمًا أو جاهلاً، كما أنا إذا قلنا ما قائم إلا زيد لم نرد أنه ليس في الدنيا قائم سواه، وإنما نعني ما قائم حيث نحن وبحضرتنا وما أشبه ذلك»(٢)، لو تنبهوا إلى هذا القول ما خرجوا بالمسألة عن نطاق الدرس البلاغي وخاضوا بها الخوض الذي خاضوه.

وخلاصة القول أن المنفي عنه في القصر الحقيقي التحقيقي، ما هو بسبيل من المقصور عليه، وواقع في دائرته، ويتبادر إلى الذهن عند سماع أسلوب القصر، «فإذا قلت ما شاعر إلا زيد؛ فإنك لا تعني نفي الشاعرية عن كل من ولدته حواء في كل العصور وكل الأمم، وإنما تعني نفي الشاعرية في حدود ما يشير السياق والقرائن»(٣)، وكذا إن قلت ما زهير إلا شاعر، لا يعني أنك تنفي عن زهير كل صفة غير الشعر، وإنما يعني أنك تنفي عنه كل ما هو بسبيل من صفة الشعر كالخطابة والكتابة، وكل ما هو في نطاق القول والإبداع مما يحدده السياق وتشير إليه القرائن.

---

(١) انظر إن شئت شروح التلخيص والمطول.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٢٥.

(٣) دلالات التراكيب ص ٤٢.

أماالقصر الحقيقي الادعائي، فهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره، ادعاء ومبالغة، فالمقصور يختص بالمقصور عليه وينفي عن كل ما عداه مما هو بسبيل منه نفيًا يقوم على المبالغة والتجوز، ولا يقوم على المطابقة الحقيقية للواقع...

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فقد قصرت خشية الله على العلماء ونفيت عن كل من عداهم... ولا يعني هذا أن غير العالم لا يخشى الله تعالى، بل قد يكون غير العالم أشد خشية لله من العالم، ولكن سياق الآيات في التنويه بشأن العلماء وتعظيم منزلتهم، والحث على النظر والتأمل. اقرأ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]، ولذا كانت خشية الله مقصورة على العلماء دون غيرهم، لأن خشية غيرهم لا يعتد بها في هذا المقام.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ [المائدة: ٢٥]، أثبت موسى عليه السلام، ملكيته لنفسه ولأخيه ونفاها عن كل من عداهما، والمراد: لا أملك في سبيل الله والدفاع عن كلمة الحق إلا نفسي وأخي، والسياق يرشد إلى أنه كان هناك رجلان يخافان الله، قد أنعم الله عليهما بالإيمان، ولكن موسى لم يعتد بإيمانهما، نظرا لتقلب قومه وتغير أحوالهم ولذا قال: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

ومن ذلك قولنا: ما شاعر إلا زهير...وما الرثاء إلا رثاء ابن الرومي، وما خطيب إلا زياد... فقد بنى القصر على الادعاء والمبالغة وعدم الاعتداد بغير زهير في الشعر، وبغير ابن الرومي في الرثاء الحزين المؤلم، وبغير زياد في الخطابة وحسن البيان...

ومنه قول عمر اليافي (ت ١٢٣٣).

لاَ سَيْفَ إلاَّ ذُو الْفقَارِ وَلاَ فَتًى إلاَّ عَلِيْ[1]

فالمراد إثبات القوة والمضاء لذي الفقار وهو سيف الإمام علي -كرم الله وجهه- ونفيها عما عداه، وإثبات الفتوة له -رضي الله عنه-ونفيها عن غيره، ادعاء ومبالغة في قوته وشجاعته، فهناك سيوف كثيرة ماضية نفاذة وهناك ألوان من الفتوة والبطولة لا تقل عن بطولته -كرم الله وجهه- ولذا كان القصر في البيت من قبيل الادعاء والمبالغة...

ومنه قوله ﷺ: «لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، ورَجَلٌ آتاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»[2]، فقد قُصِرَ الحسد بمعنى الغبطة على هاتين الصفتين، ونُفِيَ عما عداهما ادعاء ومبالغة؛ لأن الغبطة تكون في غير الاثنتين المذكورتين ولكنه نزل غيرهما منزلة العدم على سبيل الادعاء.

هذا والقصر الادعائي كثير في كلام العرب، ويرد في مقامات المبالغة والمدح والتعظيم نحو قولهم: ما مؤدب إلا فلان... ما عالم إلا فلان... ما شاعر إلا امرؤ القيس... ما خطيب إلا صحار العبدي... ما كاتب إلا فلان... يبنون الكلام في ذلك على المبالغة وعدم الاعتداد بغير المذكور في تلك الصفات.

قصر الإفراد والقلب والتعيين

تقدم أن القصر الإضافي، ما يكون المنفي فيه معينًا ومحددًا، فالمقصور يختص بالمقصور عليه لا يتجاوزه إلى ذلك المعين كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢، ٢٣]، حيث قصر الرسول ﷺ على صفة الإنذار، دون أن يملك تحويل القلوب عما هي عليه من العناد والمكابرة.

---

(١) هذا البيت مجتزأ من قول السيد الحميري (ت :١٧٣) في وصف الإمام علي وسيفه :

لا سَيْفَ إلاَّ ذُو الْفَقَارِ وَلاَ فَتًى إلاَّ عَلِيٌّ إنْ عَدَدْتَ فِخَارَا

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم برقم (١٥/ ٧٣).

وكما في قول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

إِلَى اللهِ أَشْكُو لاَ إِلَى النَّاسِ أَشْتَكِي أَرَى الْأَرْضَ تَبْقَى وَالأَخِلاَّءَ تَذْهَبُ

فقد قصر الشكوى على الله، عز وجل بحيث لا تتعداه إلى شيء معين، وهو «الناس»...

وهذا القصر الإضافي ينقسم باعتبار حال المخاطب، واعتقاده الذي وقف عليه المتكلم، إلى ثلاثة أقسام: قلب... وإفراد... وتعيين.

فقصر القلب:

هو تخصيص أمر بأمر مكان آخر...ويخاطب به من يعتقد العكس، كقولك: جاءني زيد لا عمرو، مخاطبًا من يعتقد أن عمرًا هو الذي جاءك دون زيد، فأنت تعكس وتقلب ما يعتقده، ولذا سمي قصر قلب.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣]، لأن المنافقين يعتقدون أن المؤمنين هم السفهاء دونهم، فقلب الله عز وجل اعتقاهم وبين أن المنافقين هم السفهاء ولكن لا يعلمون.

وقوله تعالى: ﴿ **مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ [المائدة: ٧٥]، فالنصارى يعتقدون أن الله ثالث ثلاثة: ﴿ **لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ** ﴾ [المائدة: ٧٣]، فقلب الله تعالى اعتقادهم: ﴿ **مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ** ﴾ [المائدة: ٧٥]، فالمسيح مقصور على كونه رسولاً يخلو كما خلت الرسل من قبله، ولا يتجاوز ذلك إلى كونه إلهًا كما اعتقد الكفرة، ولذا فالقصر في الآية الكريمة قصر قلب.

وتأمل قول أبي تمام:

وَالْعِلْمُ فِي شُهُبِ الْأَرْمَاحِ لاَمِعَةً بَينَ الْخَمِيسَيْنِ لاَ فِي السَّبعةِ الشُّهُبِ

تجده قد قصر العلم على كونه في قوة الجيش والعتاد، ونفاه عن كونه في علم

المنجمين الذين نصحوا المعتصم بألا يقبل على الجهاد في ذلك الوقت، لأن النجوم تنبئ بأن يتريث ولا يتعجل، ولكن المعتصم لم يعبأ بما قالوا، وأقبل إلى الجهاد فانتصر وفتح عمورية، وأنشد أبو تمام هذه القصيدة مشيدًا بنصره، ومشيرًا إلى قصور علم المنجمين... فالقصر في البيت المذكور قصر قلب، لأنهم اعتقدوا أن العلم في السبعة الشهب لا في قوة الرماح والجيش، فنفي أبو تمام هذا وأثبت عكسه كما ترى.

وقصر الإفراد

هو تخصيص أمر بأمر دون آخر، ويخاطب به من يعتقد الشركة، كقولك: محمد الجواد لا علي لمن اعتقد أنهما يشتركان في صفة الجود.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ** ﴾ [المائدة: ٧٣]، فهم يعتقدون الشركة وأن الله ثالث ثلاثة، وأفاد أسلوب القصر أن الإله واحد، «**وما من إله إلا إله واحد**» فهو قصر إفراد...حيث اعتقدوا أن صفة الألوهية يشترك فيها ثلاثة، وأفرد لها القصر واحدًا يختص بها دون الآخرين.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فالصحابة رضوان الله عليهم لشدة تعلقهم وحبهم للنبي ﷺ، نزلوا منزلة من يعتقد أن محمدًا عليه الصلاة والسلام يجمع بين صفتي الرسالة والخلد، فجاء أسلوب القصر مفيدًا أنه عليه الصلاة والسلام مقصور على صفة الرسالة، فهو رسول يخلو كما خلت الرسل من قبله، لا يتجاوز صفة الرسالة إلى التخليد في الدنيا.

وخذ قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝** ﴾ [فاطر: ٢٢، ٢٣]، فلما كان النبي ﷺ يتمنى هداية قومه، حريصًا بل شديد الحرص على قبولهم الهداية، نزل عليه الصلاة والسلام منزلة من يعتقد أنه يجمع بين صفتي الإنذار والقدرة على خلق الهداية في النفوس التي أصرت على الضلال والمكابرة، فجاء أسلوب القصر: «إن أنت إلا نذير» محددًا مهمة النبي ﷺ وقاصرًا له على صفة الإنذار، لا يتعداها إلى القدرة على إسماع من في القبور.

ويشترط في قصر الموصوف على الصفة إفرادًا، عدم تنافي الوصفين حتى يتصور اجتماعهما لموصوف واحد في ذهن المخاطب، فلا يقال في قولك: محمد أبيض لا أسود، إنه قصر إفراد، إذ لا يتصور أن يعتقد معتقد أن محمدًا يتصف بالبياض والسواد معًا...

كما اشترط الخطيب القزويني في قصر الموصوف على الصفة قلبًا، تنافي الصفتين حتى يكون إثبات إحداهما مشعرًا بانتفاء الأخرى كقولك: محمد طويل لا قصير، زيد ذكي لا غبي، عمرو شجاع لا جبان، حاتم كريم لا بخيل... ورد عليه بأن قصر القلب يرد كثيرًا في الصفات غير المتنافية -كما مر بك- فلا وجه لهذا الاشتراط.

قصر التعيين

وهو تخصيص أمر بأمر دون آخر، ويخاطب به المتردد بين شيئين، كقولك لمن يتردد شاكًا في الناجح أعمرو أم بكر، إنما الناجح عمرو، وقولك: لمن يشك في أمر زيد أمقيم أم مسافر، زيد مقيم لا مسافر.

تأمل قول أبي العلاء المعري:

فإن كان في لُبْس الْفَتى شَرَفٌ لَهُ ... فَمَا السَّيْفُ إلاَ غِمْدُهُ والْحَمَائِلُ

تجده قصرًا إضافيًا صالحًا لأن يكون قصر قلب أو إفراد أو تعيين، وذلك حسب تصورك لحال المخاطب، فإن كان يعتقد أن الشرف في اللبس والزينة دون الفضائل النفسية، فهو قصر قلب، وإن اعتقد أن الشرف فيهما معًا فهو قصر إفراد، وإن تردد وشك في مرجع الشرف، أإلى اللبس والزينة يرجع أم إلى الفضائل النفسية فهو قصر تعيين، والأرجح أن يكون قصر تعيين؛ لأن الشاعر يريد أن يقرر أن مرد الشرف إلى ما يتصف به الإنسان من الفضائل لا إلى الشكل والزينة، فهذا من الأمور الواضحة الجلية. ولا يرتاب فيها إلا من ارتاب في الأمور البديهية، كمن يرتاب مثلاً في مزية السيف وجودته أإلى حدته وشدة قطعه ترجع أم إلى غمده والحمائل، فمن ارتاب في هذا الأمر البين، فقل له موبخًا، ومشيرًا إلى ضعف عقله، وقلة تفكيره، وشدة غبائه: ما السيف إلا غمده والحمائل.

هذا ومراد البلاغيين بحال المخاطب: ما وقف القارئ للتعبيرات الجيدة عليه من قرائن الأحوال وسياقات الكلام، فالسياق وما به من قرائن هو الذي يبرز لك حال المخاطب...

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقوله عز وجل: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [المائدة: ٧٥]، فالعبارات واحدة والبناء هو البناء، وعلى الرغم من ذلك نقول: إن القصر في الآية الأولى قصر إفراد، وفي الثانية قصر قلب، والذي جعلنا نقول هذا القول الوقوف على أحوال المخاطبين من خلال تأمل سياق الآيتين.

اقرأ سياق الآية الأولى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٢- ١٤٤] فهو ينبئك بمدى حب الصحابة رضي الله عنهم للرسول عليه الصلاة والسلام، وتغلغل هذا الحب في نفوسهم، إلى درجة أنهم قد غفلوا عن أمر موته، ولم يخطروه ببالهم.

فها هو ذا عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما- يقول: «فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر، فتلاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها»... وهذا هو عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- يقول: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعرفت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض».

فلشدة حب الصحابة لرسول الله ﷺ وتعلقهم به نزلوا منزلة من يستبعد موته، وكأنهم يعتقدون أنه يجمع بين الرسالة والتبري من الهلاك، ولذا كان القصر قصر إفراد.

ثم اقرأ سياق الآية الثانية: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ

إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة: ٧٢- ٧٥]، فستقف منه على حال هؤلاء، فهم اعتقدوا أن عيسى –عليه السلام- إلهًا، وأن الله ثالث ثلاثة، ولذا كان القصر هنا قصر قلب، حيث قلب اعتقادهم، وأفاد أن المسيح مقصور على كونه رسولاً يخلو كما خلت الرسل من قبله، لا يتجاوز ذلك إلى مرتبة الألوهية التي اعتقدوها.

وتتكون حال المخاطب لدى المتكلم وترسم في ذهنه من خلال خبرته ومعرفته بشئون مخاطبه، فعند التأمل نجد أن حال المخاطب تئول إلى المتكلم وما قد علمه ووعاه عن مخاطبه... وفي كثير من الشواهد لا تستطيع أن تحدد مخاطبًا أو تعين حالاً له، بل تجد القصر منظورًا فيه إلى حال المتكلم وما يحكيه عن نفسه...

تأمل قول أبي تمام:

وكنتُ امرأً أَلْقَى الزَّمَانَ مُسَالِمًا فآلَيْتُ لا ألقَاهُ إلا محُارِبَا

تجد القصر فيه قصر قلب، فالشاعر قد تغير وتبدل وانقلب من امرئ يلقى الزمان مسالمًا إلى امرئ لا يلقاه إلا محاربًا، وأنت إن ذهبت تفتش عن حال هنا لا تجد إلا حال المتكلم وحديثه عن نفسه.

وقد انشغل كثير من البلاغيين والدارسين بمسألة المخاطب هذه، وخاضوا فيها خوضًا، وقالوا أقوالاً كثيرة، ولا نرى داعيًا لإثارة مثل هذه الأمور أو الانشغال بها؛ لأنها لا تعود على الدارس بفائدة، والأمر مآله -كما قلت لك- إلى المتكلم وما يرتسم في ذهنه ويعلمه عن مخاطبه... ونحن عندما ندرس مسائل البلاغة في التعبيرات الجيدة، والأساليب الرفيعة، إنما نتأمل السياق لنقف على قرائن الأحوال فيه. وعندئذ نعرف الغرض من الكلام وما تهدف إليه التراكيب، وعلى ضوء هذا يتحدد المراد من القصر وغيره من فنون البلاغة.

***

قصر الصفة على الموصوف والموصوف على الصفة

وينقسم القصر باعتبارطرفيه: المقصور والمقصور عليه إلى قصر صفة على موصوف، وقصر موصوف على صفة، والمراد بالصفة هنا الصفة المعنوية التي هي معنى قائم بالغير سواء كان فعلاً أو مصدرًا أو مشتقًا أو ظرفًا أو جارًا ومجرورًا أو غير ذلك، وليس المراد بها النعت النحوي؛ لأنه لا يقع قصر بين نعت ومنعوته، كقولك: جاء رجل فاضل، ففاضل نعت نحوي للرجل، لا يفصل بينهما ولا يتصور بينهما قصر.

كما أن المراد بالموصوف هنا كل ما قام به غيره، وإن كان هو في نفسه صفة، تقول في قصر الصفة على الموصوف: ما شاعر إلا زهير، ما كتب فلان إلا الشعر، ما أكرمت إلا زيدًا... وفي قصر الموصوف على الصفة، ما شوقي إلا شاعر، إنما أنت والد... محمد فارس لا عالم، ما حاتم بخيلاً بل جواد.

فقصر الصفة على الموصوف معناه: ألا تتجاوز الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر أصلاً، إذا كان القصر حقيقيًا، أو إلى موصوف آخر إذا كان القصر إضافيًا، ولا يمنع هذا أن يتصف الموصوف المقصور عليه بصفات أخرى غير تلك الصفة المقصورة تقول: الخالق هو الله، فتقصر صفة الخلق على الله سبحانه وتعالى قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، حيث قصرت صفة العبادة وكذلك صفة الاستعانة على الله تعالى قصرًا حقيقيًا تحقيقًا في الأول وهو قصر العبادة، وقصرًا حقيقًا غير تحقيقي في الثاني وهو قصر الاستعانة...، ومنه قوله تعالى ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، حيث قصر العلم بمفاتيح الغيب على الله تعالى قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا فهو قصر صفة على موصوف.

ومنه قول أبي تمام:

لاَ يَطْرُدُ الْهَمَّ إِلاَّ الْهَمُّ مِنْ رَجُلٍ مُقَلْقِلٍ بَنَاتِ الْقَفْرَةِ النُّعُبِ[1]

---

(١) المراد بالهم الأول: ما يجده الرجل في صدره من أحزان، والمراد بالهم الثاني: الهمة والعزيمة، ومقلقل من القلقلة =

فقد قصر الشاعر طرد الهم وهو صفة على الهم من رجل مقلقل لبنات القفرة وهو موصوف قصرًا حقيقيًا ادعائيًا؛ لأن الناس يطردون همومهم بأمور كثيرة، ولكن الشاعر لم يعتد بشيء منها إلا بالرحلة التي غيرته وأضنته والتي كانت سببًا في حزن صاحبته وانسكاب عبراتها، فأراد أن يبين لها أن تلك الرحلة هي الوسيلة الوحيدة لطر الهموم والأحزان...

تأمل سياق البيت:

رَأَتْ تَشَنُّنَهُ فاهْتَاجَ هائجُهَا ... وقَالَ لاَ عِجُهَا لِلْعَبْرَةِ انْسَكِبي

لاَ تُنْكِرِي منْهُ تَخْديدًا تجَلَّلَهُ ... فَالسَّيْفُ لا يُزْدَرَى إنْ كانَ ذا شُطُبِ[1]

لاَ يَطْرُدُ الْهَمَّ إلاَّ الْهَمُّ مِنْ رَجُلٍ ... مُقَلْقِلٍ لِبَنَاتِ الْقَفْرَةِ النُّعُبِ

فهو لم يعتد بغير الرحلة في طرد همومه وأحزانه، على الرغم من وجود سائل كثيرة لطرد الهموم -كما قلت- ولذا كان القصر حقيقيًّا ادعائيًّا:

ومنه قول الإمام علي كرم الله وجهه:

إلى الله أشكُو لا إلى النَّاس أَشْتكِي ... أَرَى الأَرْضَ تَبْقَى والأَخِلاَّءَ تَذْهَبُ

قصرت صفة الشكوى على الله تعالى بحيث لا تتجاوزه إلى الناس فهو قصر إضافي...

وقول المتنبي في رثاء جدته:

ولمْ يُسْلِهَا إلاَّ الْمَنَايَا وإِنَّمَا ... أشدُّ من السُّقْمِ الَّذِي أذهَبَ السُّقْمَا

فقد قصر سلوها على المنايا قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا؛ لأن جدته كانت قد اشتاقت إليه في غيبته فلما وصلها كتابه قبلته وفرحت ثم أُخْبِرَتْ كذبًا أنه قد مات فحمت وماتت، فرثاها بتلك القصيدة.

=

وهي الحركة العنيفة، وبنات القفرة: الإبل التي تقطع القفار، والنعب مفردها نعوب، والنعبان: تحريك الناقة رأسها في السير وهذا دليل النشاط والقوة.

(١) شطب السيف: بضم الشين وبضم الطاء وفتحها: طرائفه التي في متنه، ومفرده: شُطْبَة وشُطَبَه وشِطْبَة بالضبط المذكور. انظر لسان العرب مادة: شطب.

أما قوله: «وإنما أشد من السقم الذي أذهب السقم» فلك أن تجعله قصر صفة على موصوف، أي: قصر «أشد من السقم» على «الذي أذهب السقم»، والمراد بأشد من السقم: صفات الكآبة والألم والفقدان والوجع التي تغلب السقم وتقهره وتعلوه، لأنه لا يقهر الشيء إلا ما هو أشد منه وأقوى، فهو يتخيل صفات كآبة أقوى من السقم، ويقصرها على ما أذهب السقم، وهذا إغراب في الخيال[1].

ولك أن تجعله من قصر الموصوف على الصفة، أي: قصر الذي أذهب السقم وهو المنايا على كونه أشد من السقم، ويكون طريق القصر عندئذ هو التقديم، و«إنما» ملغاة، كما في قوله:

أَسَامِيًا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً ... وَإِنَّمَا لَذَّةً ذَكَرْنَاهَا

وسيأتي تفصيل القول في هذا، وهو ما أراه وأرجحه؛ لأن في الأول تدقيقًا وإغرابًا في الخيال ما أظن أن المتنبي قد قصد إليه.

وقصر الموصوف على الصفة معناه: ألا يتجاوز الموصوف تلك الصفة إلى صفة أخرى أصلاً، إذا كان القصر حقيقيًا، أو إلى صفة أخرى معينة إذا كان القصر إضافيًا، وهذا لا يمنع أن تكون تلك الصفة المقصور عليها وصفًا لموصوف آخر غير المقصور، فقولك: ما عمرو إلا شجاع، قصر لعمرو على صفة الشجاعة بحيث لا يتعداها إلى صفة أخرى، أما الشجاعة، فليس هنالك ما يمنع من أن يتصف بها غير عمرو. وتقول: زيد كاتب لا شاعر، فتقصر زيدًا على صفة الكتابة بحيث لا يتجاوزها إلى صفة الشعر، فهو قصر إضافي، وتقول: ما شوقي إلا شاعر، فتقصر شوقيًّا على صفة الشعر بحيث لا يتجاوزها إلى صفة الكتابة، فيكون قصرًا إضافيًّا، أو لا يتجاوزها إلى أية صفة أخرى، فيكون قصرًا حقيقيًّا.

ولا يقال: كيف يوقف الموصوف على صفة واحدة؟ هذا محال ولا يتأتى؟... لأننا نقول: المراد بالصفات المنفية، تلك الصفات التي تتصل بالمعنى المذكور، فالصفة المقصور عليها في المثال، صفة الشعر، ومعنى قصر شوقي عليها قصرًا

(١) انظر دلالات التراكيب ص ٧.

حقيقيًا، أنك نفيت عنه كل ما يتصل بها ويدور في فلكها أو كما يقول عبد القاهر، كل ما هو بسبيل منها، كالكتابة والخطابة والفقه والحديث والنحو وما إلى ذلك، فهو ليس بارعًا في فرع من فروع المعرفة إلا في الشعر الذي قصر عليه، وليس المراد أنك نفيت عنه كل صفة يمكن أن يوصف بها، ككونه مصريًّا أو فقيرًا أو سليمًا معافًا أو أبيض أو كريمًا أو شجاعًا، ليس هذا مرادًا بل المراد -كما قلت- ما هو بسبيل من صفة الشعر المقصور عليها.

ومن شواهد قصر الموصوف على الصفة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فاطر: ٢٢، ٢٣]، حيث قصر الرسول ﷺ على صفة الإنذار، لا يتجاوزها إلى أن يملك تحويل القلوب المشركة، عما هي عليه من العناد والمكابرة، وقوله عليه الصلاة والسلام «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ واللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي»(١).

فقد قالوا في معناه: كان بعض الصحابة يسمع الحديث ولا يفهم منه إلا الظاهر الجلي، ويسمعه آخرون منهم فيستنبطون منه المسائل الكثيرة، فالرسول ﷺ حين يحدثهم يكون كلامه مقسومًا بينهم، شركة بين الجميع، أما الفهم والاستنباط فهو من عطاء الرحمن.

ففي الحديث قصر الرسول ﷺ على كونه قاسمًا لا يتجاوز تلك الصفة إلى الإعطاء، فالإعطاء وتحقيق الفهم من الله تعالى، وكأن الصحابة رضوان الله عليهم لفرط اعتقادهم في هدايته عليه الصلاة والسلام -رأوا أنه يقسم ويعطي، ولذا بين لهم ﷺ أنه لا يملك إلا القسم، وأما الإعطاء فمن الله تعالى، فالقصر قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًا إفراديًا.

ومنه قول دريد بن الصمة:

وَهَلْ أَنَا إِلاَّ مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم برقم (١٣/ ٧١).

حيث قصر الشاعر نفسه على كونه من تلك القبيلة لا يتعداها إلى أن يكون من غيرها من القبائل فهو قصر حقيقي تحقيقي...

وقول شوقي:

وإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاَقُ مَا بَقِيَتْ   فَإِنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلاَقُهُمْ ذَهَبُوا

فقد قصر الأمم على الأخلاق قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقيًا ادعائيًا، فهناك أمور كثيرة تكون بها الأمم كالقوة والمال والرقي والحضارة وغير ذلك، ولكن الشاعر لم يعتد بها وجعل الأمم مقصورة على صفة الأخلاق لا تتعداها إلى غيرها، فإذا وجدت الأخلاق وسادت كانت الأمم وإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

ومثله قول المفضل بن المهلب بن أبي صفرة الأموي:

هَلِ الْجُودُ إِلاَّ أَنْ تَجُودَ بِأَنْفُسٍ   عَلى كُلِّ مَاضِي الشَّفْرَتَيْنِ قَضِيبِ

حيث قصر الجود على الجود بالأنفس قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقيًا ادعائيًا، فالشاعر لم يعتد بما عدا الأنفس مما يمكن أن يبذل كالمال والرأي والجهد وغير ذلك من ضروب البذل، وجعل الجود مقصورًا على كونه بالأنفس فقط، إذ الجود بالنفس أسمى غاية الجود.

ولا يخفى عليك أن قصر الموصوف على الصفة يفيد بلوغ الموصوف الغاية، ووصوله حد النهاية في تلك الصفة، فقولك: «ما زهير إلا شاعر» يفيد كمال المبالغة في شاعريته، وأنه قد بلغ الغاية في الشعر، ووصل إلى حد جعلنا لا نعتد بالصفات الأخرى التي يمكن أن يتصف بها، وذلك لقصور تلك الصفات عن صفة الشعر التي تفوق فيها ووصل إلى حد النهاية.

ولذا كان قولنا: «ما زهير إلا شاعر» أبلغ في وصفه بالشاعرية من قولنا «ما شاعر إلا زهير» أو بمعنى آخر: يكون قصر الموصوف على الصفة أبلغ وأكمل وأقوى في اتصاف الموصوف بتلك الصفة من قصر الصفة على الموصوف، لاحتمال كون هذه الصفة التي قصرت على الموصوف دون المستوى الأمثل إذ لم تصل إلى حد الكمال كل ما هنالك أنها وجدت في زهير دون غيره من الناس.

هذا والمراد بالصفة -كما قلت- الصفة المعنوية التي هي معنى قائم بغيره كما أن المراد بالموصوف ما قام به غيره وإن كان هو في نفسه صفة، وقد نظر البلاغيون في جملة القصر ووضعوا لك ضوابط تعينك على تحديد كل من الصفة والموصوف، حيث ذكروا أن القصر إذا وقع بين ركني الجملة الاسمية، فإن قصر المبتدأ على الخبر يكون من قصر الموصوف على الصفة كقولك: ما زيد إلا أخوك وإنما محمد كاتب، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد] وقولك: إنما زيد في الدار، وما الجود إلا أن تجود بالنفس، إلا إذا كان الخبر اسمًا جامدًا والمبتدأ مشتقًا، فإن القصر عندئذ يكون من قصر الصفة على الموصوف كقولك: ما الكاتب إلا زيد، وما القائم إلا عمرو، لأنك أردت الحكم على الكاتب بأنه زيد، وعلى القائم بأنه عمرو، فالكاتب مبتدأ خبره زيد والقائم مبتدأ خبره عمرو، والقصر قصر صفة على موصوف.

وقصر الخبر على المبتدأ من قصر الصفة على الموصوف كقوله تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقوله عز وجل: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، فقد قصرت مهمة الرسول ﷺ على البلاغ قصر صفة على موصوف، أما قوله «وعلينا الحساب» فهو قصر للمبتدأ «الحساب» على الخبر «علينا»، قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا.

وإذا وقع القصر بين أجزاء الجملة الفعلية، فإن قصر الفعل على الفاعل يكون من قصر الصفة على الموصوف كقولك: ما كتب إلا محمد، لا ينال العلا إلا المجد، ومنه قول أبي تمام -وقد تقدم-: «لا يطرد الهم إلا الهم من رجل» وقوله جل وعلا ﴿ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٧ي، وقوله عز قائلا: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقصر الفعل على المفعول كقولك: ما ضرب محمد إلا زيدًا، وإنما أكرم زيدٌ عمرًا وكما في الآيات الكريمة ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ [المائدة: ١١٧]، ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الأنعام:٢٦]، ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ [النجم:٢٨].

وكقول النبي ﷺ: «فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ القَاصِيَةَ»(١).

يجوز أن تعد هذه الشواهد من قبيل قصر الصفة على الموصوف أي: قصر الفعل الواقع من الفاعل على المفعول فيكون المعنى عندئذ، ما مضروب محمد إلا زيد، ما مكرم زيد إلا عمرو، ما مقولي إلا ما أمرتني به، ما مهلكهم إلا أنفسهم، ما متبعهم إلا الظن، ما مأكول الذئب إلا الغنم القاصية، فتؤول الصفة المقصورة اسم مفعول، لأن الحدث لم يقع من المفعول المقصور عليه، وإنما وقع عليه.

ويجوز أن تعد من قبيل قصر الموصوف على الصفة، أي: قصر الفاعل على الفعل الواقع على المفعول، ففي الأمثلة المذكورة قصر محمد على ضرب زيد، وزيد على إكرام عمرو، وعيسى عليه السلام على قول ما أمره الله به... إلى آخر تلك الشواهد.

وتلاحظ مدى التكلف في الوجه الأول، وأن الوجه الثاني غير ممكن إذا كان طريق القصر «إنما» لأنه يؤدي إلى أن يكون المقصور عليه قد ولى إنما، ومعلوم أن المقصور عليه بإنما هو المؤخر... والأولى من هذين الوجهين أن يجعل الفعل الصادر من الفاعل مقصورًا على تعلقه بالمفعول، تقول في الشواهد المذكورة: قصر ضرب محمد على تعلقه بزيد، وإكرام زيد على تعلقه بعمرو، وقول عيسى على تعلقه بما أمره الله به، وأكل الذئب على تعلقه بالغنم القاصية، وهكذا في بقية الشواهد المذكورة.

وقصر الفاعل على الظرف نحو: ما سافر خالد إلا يوم الخميس، أو على المفعول لأجله نحو: ما زرتك إلا محبة، وقوله عز وجل: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، أو على المفعول المطلق المبين للنوع أو للعدد نحو: ما قلت إلا قول المخلصين، ما حججت إلا حجتين، وقوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢]، أي: ظنًا ضعيفًا، أو على التمييز كقولك: ما طاب محمد إلا نفسًا، أو على الجار

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة برقم ٥٤٧ والنسائي في الإمامة باب التشديد في ترك الجماعة... والحديث كاملا: «مَا مِنْ ثَلاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلاَ بَدْوٍ لاَ تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلاةُ إِلاَّ قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ القَاصِيَةَ».

والمجرور نحو: ما عملت إلا في بيتك وما دافعت إلا عنك، أو على غير ذلك من المتعلقات التي يقع فيها القصر، فإن القصر فيها يكون إما من قصر الموصوف على الصفة، أو من قصر الصفة على الموصوف بالاعتبارات الموضحة في قصر الفاعل على المفعول.

وقصر صاحب الحال على الحال من قصر الموصوف على الصفة نحو: ما جاء علي إلا راكبًا، وما لقيته إلا ضاحكًا... ما انتصر المسلمون إلا وهم متحدون.

وقصر الحال على صاحبها من قصر الصفة على الموصوف نحو: ما جاء راكبًا إلا خالد، ما لقيني مرحبًا إلا عمرو، ما انصرف غاضبًا إلا زيد.

وأما المفعول المطلق المؤكد لعامله، والمفعول معه فلا يتأتى فيهما القصر إذ لا يقال «ما ضربت إلا ضربًا» ولا «ما سرت إلا والنيل» أما قوله تعالى: ﴿ **إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا** ﴾، فمعناه: إن نظن إلا ظنًّا ضعيفًا، فهو مصدر مبين للنوع.

***

ما الفرق بين القصر الحقيقي الادعائي والقصر الإضافي:

وكما م[illegible] بك في أنواع القصر، فإن القصر الحقيقي الادعائي المنفي فيه عام، إذ يشمل كل م[illegible] المقصور عل[illegible] عاء ومبالغة، فقولك: ما شاعر إلا زهير، قصر لصفة الشعر على زهير بحيث لا تتعداه إلى غيره من الشعراء على سبيل المبالغة، وكذا قولك: ما زهير إلا شاعر، قصر لزهير على صفة الشعر لا يتعداها إلى غيرها أصلاً، وهذا يعني أنه قد تفوق في هذه الصفة وبلغ فيها الغاية، إلى درجة جعلتك لا تعتد بأية صفة أخرى غيرها.

أما القصر الإضافي فالمنفي فيه محدد وليس عامًا، تقول: زهير شاعر لا كاتب، فتقصر زهيرًا على الشعر، وتنفي عنه الكتابة، إفرادًا أو قلبًا أو تعيينًا حسب اعتقاد المخاطب وتقول: حاتم جواد لا علي، فتقصر صفة الجود على حاتم وتنفيها عن علي.

هذا وعند التحقيق والتأمل تجد أن القصر الإضافي بأنواعه الثلاثة، إما أن

يكون تحقيقيا وإما أن يكون ادعائيًا، لأن قولك: حاتم جواد لا علي، إذا كان مطابقًا للواقع بمعنى أن يكون حاتم هو الكريم فعلاً، وعلي هو البخيل كان القصر تحقيقيًا، وإن كان علي كريمًا ولكنك لم تعتد بكرمه لأمر ما، فجعلت حاتمًا هو الجواد دونه كان القصر ادعائيًا مبنيًا على المبالغة.

وكذا القول في قصر الموصوف على الصفة، فقولك: زهير شاعر لا كاتب... إن كان فعلا لا يجيد الكتابة ولا يعرف طرقها وفنونها، كان القصر تحقيقيًا، وإن كان يعرفها ولكنك لم تعتد بتلك المعرفة لكونه في الشعر أفصح وأبلغ كان القصر مبنيًا على الادعاء والمبالغة...

***

طرق القصر

عرفت فيما سبق أن طرق القصر التي اصطلح عليها البلاغيون أربعة: العطف «بلا، وبل، ولكن»، والنفي، والاستثناء، وإنما والتقديم، وأضاف بعضهم طريقين آخرين وهما: توسط ضمير الفصل وتعريف أحد ركني الإسناد بأل، وقد اشتهرت هذه الطرق عند البلاغيين، ولكن إفادة القصر ليست مقصورة عليها، فهناك طرق كثيرة غيرها، وقد ذكر السيوطي أن طرق القصر بلغت أربعة عشر طريقًا، كما أن القصر يفاد بغير تلك الطرق المعهودة على نحو ما مر بك، ولكن ليس وراء إفادة القصر بغير طرقه المعهودة اعتبارات تذكر، ولذا لم يلتفت البلاغيون لغير هذه الطرق المشهورة، الغنية بالاعتبارات والملاحظات البلاغية... وإليك بيان تلك الطرق وما يكمن وراء دلالتها على القصر من مزايا وأسرار بلاغية.

١- العطف بلا وبل ولكن

تقول: زيد كريم لا عمرو، وفلان جواد لا بخيل، وهو يدعوك إلى الخير لا إلى الشر، وخالد ينصحك مخلصًا لا مرائيًا، وجاء خالد لا عمرو، وليس حاتم بخيلاً بل جواد، ولم ينصحني عمرو ولكن صديقه، فتجد أن القصر قد أفيد بأحد الحروف المذكورة وواضح أن طريق العطف يصرح فيه بكل من المثبت والمنفي، أي: المقصور عليه، والمنفي عنه، ولذا كان أقوى طرق القصر وآكدها، لأن غيره من الطرق لا يصرح فيها بالنفي بل يفهم ضمنًا كما سترى.

وعلى الرغم من أن فائدة التأكيد أقوى في هذا الطريق، فإن مزية الإيجاز فيه تتضاءل للتصريح فيه بالإثبات والنفي كما قلت.

و «لا» صالحة لكل أنواع القصر، والمقصور عليه بها هو المقابل لما بعدها ويشترط لدلالتها على القصر أن يكون المعطوف بها مفردًا وألا يتقدمها نفي أو نهي وألا يكون ما بعدها داخلاً في عموم ما قبلها، تقول: زيد شاعر لاغير فتفيد قصر زيد على صفة الشعر قصرًا حقيقيًا... وتقول: زيد شاعر لا كاتب فتفيد قصره على الشعر قصرًا إضافيًا.

وتأمل قول أبي تمام:

بيضُ الصَّفَائِح لاَ سُودُ الصَّحَائِفِ في مُتُونِهِنَّ جِلاَءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ[(١)]

تجده قد قصر السيوف التي حققت النصر وفتحت عمورية على كونها بيض الصفائح مشرقة لامعة، ونفاها عن كونها سود الصحائف، سوداء مظلمة، فالمقصور عليه -كما ترى- هو المقابل لما بعد لا، ثم قصر «جلاء الشك واليب» على كونه في متون هذه السيوف أي: جوانبهن، ونفاه عن كتب المنجمين، وطريق هذا القصر هو التقديم الآتي بيانه.

ولايخفى عليك ما وراء أسلوبي القصر في البيت من توبيخ وتحقير لهؤلاء المنجمين، وتفنيد لقولهم وما تخبر به صحفهم...

ومثله قوله في هذه القصيدة أيضًا، محقرًا كتب المنجمين:

وَالْعِلْمُ في شُهُبِ الأَرْمَاحِ لاَمِعَةً بين الْخَمِيسَيْنِ لاَ في السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

حيث قصر العلم على كونه في شهاب الأرماح ونفاه عن النجوم التي يستنبئها المنجمون أي: عن «السبعة الشهب».

---

(١) بيض الصفائح: كناية عن السيوف، وسود الصحائف: كناية عن كتب المنجمين، متونهن: جوانبهن، جلاء: كشف وإزالة، الريب: الظنون، يقول: إن السيوف البيضاء هي التي تزيل الشك وتظهر الحقيقة، أما صحائف المنجمين السوداء فإنها تضيع الحقائق وتنشر الأباطيل، والبيت من قصيدة له في فتح عمورية.

وانظر إلى قول الميكالي عبد الله بن أحمد (ت ٤٣٦هـ):

عُمْرُ الْفَتَى ذِكْرُهُ لا طُولُ مُدَّتِهِ ... ومَوْتُهُ خِزْيُهُ لا يومُهُ الدَّانِي

فقد قصر عمر الفتى وحياته على ما يخلفه من أثر طيب وذكر حسن ونفاه عن طول مدته وامتداد أجله في الدنيا، كما قصر الموت على ما يرضى به بعض الأحياء من خزي وهوان، ونفاه عن اليوم الداني ومفارقة الحياة، ولعلك تشعر بما وراء القصر من حث على الأعمال الصالحة التي تنفع الإنسان وتبقى بعد حياته؛ أثرًا حسنًا ولسان صدق، ومن تنفير من الذل والهوان والخزي، فلا يقبل مثل هذا ويرضخ له إلا فاقد الحياة.

و «لا» صالحة لكل أنواع القصر -كما ذكرت- تقول في قصر الصفة على الموصوف زهير شاعر لا عمرو، وفي قصر الموصوف على الصفة: زهير شاعر لا كاتب وفي القصر الحقيقي: زهير شاعر لا غيره... وفي القصر الإضافي: خالد جواد لا عمرو، فيكون قصر قلب أو إفراد أو تعيين حسب اعتقاد المخاطب على نحو ما مر بك.

فإذا سبقت «لا» بنفي نحو: ما جاء زيد ولا عمرو أو نهي نحو: لا تفعل هذا ولا ذاك، أو كان المعطوف بها جملة نحو: زيد مقدام لا أبوه كريم، والفقير يعطى من الصدقة لا أحد ينكر هذا، أو كان ما بعدها داخلا في عموم ما قبلها نحو: عاد الحجاج لا إبراهيم، ونجح الطلاب لا خالد، فعندئذ لا تدل على القصر، لأنها لا تفيد إثبات أمر لآخر ونفيه عن غيره، كما هو واضح في الأمثلة.

و «بل» تفيد القصر إذا وليها مفرد، وتقدمها نفي أو نهي؛ لأنها في هذه الحال تقرر حكم ما قبلها وتثبت ضده لما بعدها، فتتضمن النفي والإثبات، وذلك عماد القصر، فقولك: ما جاء زيد بل عمرو، يفيد نفي المجيء عن زيد وإثباته لعمرو، فالمقصور عليه (ببل) هو ما بعدها.

ويرى البلاغيون أنها صالحة للقصر الإضافي إفرادًا وقلبًا وتعيينًا، ولا تصلح للقصر الحقيقي، لأن المنفي معها يكون أمرًا محددًا دائمًا، فإن جاء عامًا لا يكون منفيًا بل يكون مسكوتًا عنه نحو: ما جاءني أحد بل زيد فلا تفيد هذه الجملة سوى إثبات

المجيء لزيد، أما ما قبل «بل» وهو أحد فمسكوت عنه والمسكوت عنه لا يوصف بنفي ولا إثبات، بل يرى الجمهور أن ما قبل «بل» مسكوت عنه حتى ولو كان محددًا نحو: ما جاءني زيد بل عمرو، ما زيد قائمًا بل قاعد.

ولذا فهي لا تفيد قصرًا، ويرى بعض أن النفي لما قبل «بل» ولما بعدها، فقولك: ما جاء زيد بل عمرو، يفيد نفي المجيء عنهما معًا ولذا فهي لا تفيد القصر، لأن النفي والإثبات غير محقق[١].

والذي أراه أن «بل» تفيد القصر بأنواعه، الإضافي: قلبًا وإفرادًا وتعيينًا، والحقيقي: تحقيقيًّا وادعائيًّا، فهذا ما يفهم من الأساليب والتعبيرات ولا يمكن دفعه ولا إنكاره، تقول: ما جاء زيد بل عمرو، فيكون قصر صفة على موصوف قصرًا إضافيًّا، وتقول: ما زيد قائمًا بل قاعد[٢]، فيكون قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًّا، وتقول: ما جاءني أحد بل عمرو، فيكون قصرًا حقيقيًّا، ولا أرى معنى لكون ما قبلها مسكوتًا عنه، ولا لتوجه النفي لما بعدها.

أما إذا وقعت «بل» بعد الإثبات نحو جاء زيد بل عمرو، فلا تفيد القصر؛ لأن المعنى على أنك نقلت المجيء إلى التابع «عمرو» وجعلت المتبوع «زيد» في حكم المسكوت عنه، فالجملة لا تفيد سوى مجرد إثبات المجيء لعمرو، وعندئذ فلا قصر، لأن القصر نفي وإثبات كما علمت.

ومن شواهد القصر ببل قول الإمام علي كرم الله وجهه:

ليس الْيَتِيمُ الَّذِي قَدْ مَاتَ وَالِدُهُ ... بل اليتيمُ يتيمُ الْعِلْمِ والأَدبِ[٣]

فقد قصر الشاعر اليتيم على صفة الحرمان من العلم والأدب ونفاه عن فقدان

---

(١) ارجع إلى شروح التلخيص جـ ٢ ص ١٩٠.

(٢) قاعد: لا تعرب نصبًا عطفًا على لفظ «قائمًا» لأن «ما» لا تعمل في المثبت وإنما تعمل في المنفي، وتعرب رفعًا عطفًا على محل «قائمًا» عند البصريين وعليه أفاد الأسلوب القصر، فإن أعربت خبرًا لمبتدأ محذوف فلا قصر، لأن ما بعد بل عندئذ يكون جملة.

(٣) ويروى الشطر الثاني: «إن اليتيم يتيم العلم والأدب»، وعلى هذه الرواية؛ فلا قصر في البيت، حيث فصل بين شطريه لشبه كمال الاتصال.

الوالد قبل بلوغ مبلغ الرجال، فهو قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًا، وأراه قصر قلب، لانه قلب ما هو راسخ في الأذهان من أن اليتيم هو الذي قد مات والده قبل بلوغ سن الرجال، وفيه حث على التزود بالعلم والتحلي بالأخلاق والآداب الرفيعة، ففاقدهما هو اليتيم.

ومنه قول عبد الله بن المعتز:

لـيس التَّعَجُّـبُ مـنْ مَوَاهِـبِ مَالِـهِ   بَـلْ مِـنْ سَـلاَمَتِهَا إلى أوْقَاتِهَـا

حيث قصر التعجب على سلامة الأموال إلى أوقات الاحتياج ونفاه عن المواهب والعطايا، لأن هباته وعطاياه ثابتة وواقعة فهي لا تستحق التعجب، وإنما التعجب من إصابة المحز، وبلوغ الهدف المنشود، حيث تبذل الأموال إلى مستحقيها وفي أوقاتها، وتسلم لهذا.

و «لكن» تفيد القصر إذا سبقها نفي أو نهي ووليها مفرد، «كبل» مثل: ما أكرمني زيد لكن عمرو، فقد قصر الإكرام على عمرو ونفي عن زيد، فالمقصور عليه (بلكن) هو الواقع بعدها مثل «بل» تماما وهي صالحة للقصر الإضافي قلبًا وإفرادًا وتعيينًا حسب اعتقاد المخاطب وللقصر الحقيقي بنوعيه، ويرى بعض البلاغيين أنها لا تصلح للقصر الحقيقي، لأن المنفي معها دائما يكون أمرًا خاصًا.

ويشترط بعضهم للقصر بلكن بالإضافة إلى ما ذكر ألاتقترن بالواو، وهذا ليس بشيء لأنا نراها في الأساليب الجيدة والتراكيب الممتازة قد اقترنت بالواو وأفادت القصر، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فقد قصر النبي عليه الصلاة والسلام على الرسالة والختم لا يتجاوزهما إلى أبوة زيد، قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًا، "ولكن" مقرونة بالواو كما ترى.

ومنه قول الخنساء:

إن الْـجَدِيدَيْنِ في طُـولِ اخْـتِلاَفِهِمَا   لاَيَفْـسُدَان وَلَكِـنْ يَفْـسُدُ النَّـاسُ

فقد قصرت الإفساد على الناس ونفته عن الجديدين وهما الليل والنهار.

وقول عروة بن الورد:

وَمَا شَابَ رَأْسِي مِن سِنِينَ تتابَعَتْ   عَلَيَّ ولكنْ شَيَّبَتْني الوقَائعُ

حيث قصر التشييب على الوقائع ونفاه عن تتابع السنين[١]...

ومن مجيء لكن مفيده للقصر وهي غير مقرونة بالواو قول الشاعر:

مَا نال في دُنْيَاهُ وانِ بُغْيَةً   لكن أخُو حَزْمٍ يجِدُّ ويَعْمَلُ

فقد قصر نيل البغية على «أخو حزم» ونفاها عن المتراخي الكسول، وفيه حث على الجد والاجتهاد، فالدنيا كفاح وميدان تسابق، والذي يصل إلى هدفه ويحقق غايته هو الجاد الذي يكد ويكدح ويسابق ويغالب.

وهذا الذي ذكرته لك هو أرجح الآراء وأولاها بالقبول في دلالة تلك الحروف على القصر، وهناك خلافات كثيرة حول هذه الدلالة، فمن البلاغيين من يرى أن «لكن» لا تفيد القصر، ومنهم من يرى أن «بل» مسكوت عما قبلها سواء سبقت بنفي أم لم تسبق -كما ذكرت لك- ومنهم من يرى أن «بل» لا ترد في فصيح الكلام، ومنهم من يرى أن لكن لقصر القلب دون الإفراد، ومن يرى أنها للإفراد دون القلب، ومنهم من يرى أن لكن وبل تدلان على القصر ولو كان معطوفهما جملة...

كما في قول ابن الرومي:

ما افْتَرَيْنَا في مَدْحِهِ بَلْ وَصَفْنَا   بَعْضَ أَخْلاَقِهِ وذلكَ يَكْفِي

وكما مر في قول عروة:

وما شابَ رأسِي من سِنينَ تَتَابَعَتْ   عَلَيَّ ولكن شَيَّبَتْني الْوَقَائِعُ

وقول الخنساء:

إنَّ الْجَدِيدَيْنِ في طُولِ اخْتِلاَفِهِمَا   لاَ يَفْسُدَانِ ولكن يَفْسُدُ النَّاسُ

---

(١) لا يخفى عليك أن ما بعد لكن في البيتين جملة فدلالة لكن على القصر فيهما، بناء على رأي بعض البلاغيين كما سترى... أما الجمهور فيشترطون لدلالتها على القصر أن يليها مفرد.

فمنهم من يرى أن «بل ولكن» في الأبيات تدلان على القصر، ومنهم من يرى أنهما يفيدان معنى القصر، وليس ما في الأبيات قصرًا، أي: ليس طريقًا من طرقه، لأنه مفاد من جملتين، ومثله قولك: جاء عمرو ولكن زيد لم يأت، وقلت لك هذا لكن ذلك لم أقله.

وحتى «لا» التي هي رأس هذا الطريق لم تسلم من تلك الخلافات، فقد ذكر عبد القاهر أنها تفيد عكس ما يعتقد المخاطب ولا يؤتى بها إلا لذلك، فهي عنده لتصر القلب دون غيره، وقد رأيت أنها صالحة لكل أنواع القصر... إلى غير ذلك من الخلافات فهي كثيرة، وقد أعرضنا عن مناقشتها لعدم الجدوى من تلك المناقشة.

***

٢-النفي والاستثناء

تقول: ما القادم إلا زيد، وما أنت إلا مصيب، فتفيد قصر الصفة على الموصوف في الأول، والموصوف على الصفة في الثاني، ويستخدم هذا الطريق فيما ينكره المخاطب ويدفعه، أو فيما يجهله ولا يعرفه، أو فيما يشك فيه ويرتاب.

يقول عبد القاهر: «وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، فإذا قلت: ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطئ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته، وإذا رأيت شخصًا من بعيد فقلت: ما هو إلا زيد، لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد وأنه إنسان آخر، ويجد في الإنكار أن يكون كذلك...»[(١)].

تأمل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، تجده قد قصر الاتباع على الوحي لا يتجاوزه إلى غيره، فهو قصر حقيقي، وقد أوثر التعبير بالنفي والاستثناء، إذ المخاطبون وهم الكفرة المشركون ينكرون ذلك

(١) دلائل الإعجاز ١٢٧.

ويدفعونه، فهم يعتقدون أنه شاعر أو ساحر أو كاهن، لا يقرون بالوحي، بل يقولون: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، فلما كان المشركون منكرين أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام متبعًا لوحي يوحى إليه ويجحدون ذلك ويدفعونه، جاء القصر «بإن وإلا» ليبدد هذا الإنكار ويدفع ذلك الجحود.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وقوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، فقد جاء القصر بالنفي والاستثناء في الآيتين، لأن المخاطب ينكر الحكم ويدفعه إذ الكفرة لا يقرون بالوحدانية، والرسول ﷺ يدفع وينكر كون ما جاء به أساطير الأولين، ويوقن إيقانًا راسخًا أنه حق من عند الله.

فهذا الطريق -النفي والاستثناء- يستخدم عندما ينكر المخاطب ويجحد الحكم أو عندما ينزل تلك المنزلة، وسيتضح لك هذا عند الحديث عن فروق طرق القصر وأوجه الاختلاف بينها.

ومثل النفي مع الاستثناء في إفادة القصر: النهي والاستفهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فقد قصر غفران الذنوب على الله سبحانه وتعالى قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيًّا، وطريقه هو النفي والاستثناء؛ لأن الاستفهام في الآية الكريمة مراد به النفي، إذ المعنى: لا يغفر الذنوب إلا الله.

ومثله قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، حيث قصر جزاء الإحسان على الإحسان قصر موصوف على صفة، وطريقه هو النفي والاستثناء، لأن الاستفهام بمعنى النفي... وتقول: لا تفعل إلا الخير... لا تصاحب إلا الوفي، لا تعتمد إلا على الله، فتقصر الفعل على الخير والمصاحبة على الوفي والاعتماد على الله، وطريق القصر -كما ترى- هو النهي والاستثناء.

والمقصور عليه في طريق النفي والاستثناء هو المستثنى أي: الواقع بعد أداة الاستثناء، سواء تقدم أو تأخر تقول: ما جاء إلا زيد فتقصر المجيء على زيد.

ويقول زهير بن أبي سلمى:

وَمَا الْحَرْبُ إلاَّ ما عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ ومَا هُوَ عَنْهَا بالْحدِيثِ الْمُرَجَّمِ

فقد قصر الحرب على الذي علموه وذاقوه من ويلاتها، قصر موصوف على صفة...

ويقول المتنبي:

لا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إلاَّ سَيِّدٌ فَطِنُ لمِا يَشُقُّ على السَّادَاتِ فَعَّالُ

قصر إدراك المجد على السيد الفطن الذي يستطيع إدراك ما يشق على السادة الكرماء... وتقول: لا أختار الوفي إلا منكم ولا أختار منكم إلا الوفي، فتفيد بالأول: قصر اختيارك الوفي على كونه منهم، ففيه مدح لهم وتنويه بشأنهم، وأن من أراد الوفي فعليه بالاتجاه إليهم فهم جميعًا أوفياء، وتفيد بالثاني قصر اختيارك منهم على الوفي، وهذا يعني أن فيهم الوفي وغير الوفي، فأنت تختار الوفي وتترك غيره، ولا يخفى عليك بعد ما بين القولين...

وتأمل قول السيد الحميري يمدح بني هاشم:

لو خُيِّرَ الْمِنْبَرُ فِرْسَانَه مَا اخْتَارَ إلاَّ مِنْكُمُ فَارِسًا

تجده قد قصر اختيار الفارس على كونه منهم، وهذا يعني أنهم جميعًا فرسان وأن المنبر لا يتجه إلا إليهم حين يتاح له أن يختار فارسه، ولو قال الشاعر: ما اختار منكم إلا فارسًا، لتغير المعنى، إذ يصبح المراد: قصر اختيار المنبر منهم على الفارس دون غيره، فهم ليسوا جميعًا فرسانًا.

وتلاحظ في البيت تقديم إلا وما وليها على المفعول «فارسًا» وهو جزء من المقصور -كما عرفت- إذ المراد قصر اختيار المنبر فارسه عليهم دون غيرهم، وهذا التقديم، قد منعه بعض البلاغيين، وقالوا: إنه يؤدي إلى قصر الفعل قبل تمامه،وذهب البعض إلى أنه كلامان وليس كلامًا واحدًا، فالمفعول المؤخر، مفعول لفعل محذوف دل عليه المذكور، والمعنى: ما اختار إلا منكم. اختار فارسًا.

وتقول: ما أعطيت إلا زيدًا درهمًا، والمعنى: ما أعطيت إلا زيدًا... أعطيت

درهمًا، وكأنك لما قصرت الإعطاء على زيد، شعرت بحاجة السامع إلى نوع العطاء، فأردت أن تبينه فقلت: درهمًا وحذفت الفعل والفاعل لدلالة ما تقدم عليهما.

وبعضهم أجازه إذا صرح بالمستثنى منه، كأن يقال: ما ضرب أحد أحدًا إلا زيد عمرًا، فزيد مستثنى من أحد الأول، وعمرو مستثنى من أحد الثاني[١]...

ومنهم من أجاز ذلك التقديم مطلقًا من غير تصريح بالمستثنى منه، وإن كان هذا التقديم قليلاً في التعبيرات الجيدة، وحجتهم أن أداة الاستثناء لا يخرج بها إلا شيء واحد هو ما يليها، فلا يقع لبس فيما بعدها، فإذا قلت: ما ضرب إلا محمدٌ زيدًا، لا يتوهم أن محمدًا هو المستثنى وهو المقصور عليه وكذا قولك: ما شرب إلا اللبن محمد، لا يتوهم أن اللبن هو المقصور عليه المستثنى.

وهذا هو الأولى بالقبول لوروده في التعبيرات الجيدة، على نحو ما رأيت في بيت الحميري.. وطالما قد عرف موضع المقصور عليه وحده، إذ هو دائما الواقع بعد أداة الاستثناء، فلا ضير بعدئذ أن تتقدم به الأداة أو تتأخر، وليس ثمة مانع من أن يتأخر جزء من المقصور عن المقصور عليه، لأن الأخير قد حدد وعين موطنه، والمهم ألا تتخلى أداة الاستثناء عن المستثنى وألا تتزحزح عنه، لأن زحزحتها وتقديمها أو تأخيرها بدونه يغير المعنى.

وعد إلى الأمثلة المذكورة: ما اختار إلا منكم فارسًا... ما أعطيت إلا زيدًا درهمًا... ما ضرب إلا محمد زيدًا... ما شرب إلا اللبن محمد... ثم زحزح «إلا» وحدها فقل: ما اختار منكم إلا فارسًا... ما أعطيت زيدًا إلا درهمًا... ما ضرب محمد إلا زيدًا... ما شرب اللبن إلا محمد... تجد أن المعنى قد تغير وتبدل بتلك الزحزحة.

وخلاصة الأمر أن المقصور عليه هو ما يلي أداة الاستثناء سواء تقدمت به الأداة أو تأخرت، فالراجح أنه لا مانع من هذا التقديم لوضوح المراد وزوال اللبس بمعرفة موضع المقصور عليه.

---

(١) انظر شروح التلخيص ٢/ ٢٢٧.

وتأمل قول المتنبي يتحدث عن نفسه في قصيدته التي رثى فيها جدته:

تَغَــرَّبُ لا مُــسْتَعْظِمًا غَــيْرَ نَفْــسِهِ   وَلاَ قَــابِلاً إلاَّ لخَالِقِـــهِ حُكْــمًا

وَلاَسَـــالِكًا إلاَّ فُـــؤَادَ عَجَاجَـــةٍ   وَلاَ وَاجِـــدًا إلا لمِكْرَمَـــةٍ طَعْــمًا

فقد قصر الاستعظام على نفسه، والسلوك على فؤاد العجاجة وقبول الحكم على خالقه، ووجود الطعم على المكرمة، وواضح تقديم إلا بالمقصور عليه -في القصرين الأخيرين- على المفعول (حكمًا وطعمًا) وهو جزء من المقصور ولم يؤد هذا التقديم إلى خفاء ولا إلى لبس لوضوح كل من المقصور والمقصور عليه.

ومثله قول كعب بن مالك الأنصاري (ت ٥٠هـ):

النَّــاسُ إِلْــبٌ عَلَيْنَــا فَلَــيْسَ لَنَــا   إلاَّ الــسُّيُوفَ وَأَطْــرَافَ الْــقَنَا وَزَرُ

والأصل: فليس لنا وزر إلا السيوف وأطراف القنا.

***

وجه دلالة النفي والاستثناء على القصر

النفي والاستثناء هو رأس باب القصر، وهو الطريق الأم بين طرقه، إذ نراهم يقيمون عليه غيره فيقولون مثلا في: إنما زهير شاعر، معناه: ما زهير إلا شاعر وقولك: لك هذا، معنا: ما هذا إلا لك، فلا منازعة في أن النفي والاستثناء يدل على القصر دلالة واضحة وضوحًا تامًا وظاهرة ظهورًا قويًا، وعلى الرغم من ذلك نرى البلاغيين يتحدثون عن وجه هذه الدلالة.

فيقولون: إن وجه دلالة «النفي والاستثناء» على القصر هو أن النفي في الاستثناء المفرغ وهو الذي ترك فيه المستثنى منه ففرغ الفعل الذي قبل إلا وشغل عنه بالمستثنى المذكور بعدها نحو: ما ضرب إلا زيد وما فعل زيد إلا هذا وما كسوته إلا جبة، يقولون النفي في هذا الاستثناء متوجه إلى مقدر عام وهو المستثنى منه، لأن إلا للإخراج، والإخراج يقتضي مخرجًا منه، ولابد أن يكون عامًا ليتناول المستثنى وغيره، فيتحقق الإخراج، وأن يكون مناسبًا للمستثنى في جنسه وصفته فيقال في الأمثلة المذكورة: ما ضرب أحد إلا زيد... ما فعل زيد شيئًا من الأشياء إلا هذا... ما كسوته من اللباس إلا جبة.

وإذا كان النفي متوجهًا إلى هذا المقدر العام المناسب للمستثنى في جنسه وصفته فعندما توجب من ذلك المقدر شيئًا بإلا أو غيرها من أدوات الاستثناء يكون القصر، لأن ما عدا هذا المثبت يظل باقيًا على صفة الانتفاء، وكل قصر يفيد إثباتًا ونفيًا، أي: إثبات المقصور للمقصور عليه ونفيه عما سواه على الإطلاق في القصر الحقيقي، أو عن معين في القصر الإضافي.

ويذكر السيوطي أن قولك: ما قام إلا زيد، صريح في نفي القيام عن غير زيد ويقتضي إثبات القيام لزيد، قيل بالمنطوق، وقيل بالمفهوم وهو الصحيح، ولكنه أقوى المفاهيم(١).

أما جمهور البلاغيين فيرون أن «النفي والاستثناء» مثل التقديم وإنما، الدلالة في ثلاثتها نص على المثبت دون المنفي، والخطب في ذلك يسير، لأن البلاغيين نظروا إلى الجملة بعد تمامها، والسيوطي نظر إلى ما يتبادر إلى الذهن أولاً، فالذي يتبادر إلى ذهنك عند سماعك: ما قام إلا زيد، هو نفي القيام عن غير زيد، ثم يأتي بعد ذلك إثباته لزيد، وكأنه تحقيق له وتحديد، وتلك دقيقة جيدة في تحليل دلالة العبارة.

هذا وعندما تقول: ما زيد إلا شاعر، فتدخل النفي على الذات، لا يكون القصد إلى نفي الذات، لأن أنفس الذوات لا تنفي، وإنما يتجه النفي إلى أوصافها وأحوالها التي يحددها السياق، ففي المثال المذكور، حيث لا نزاع في طول زيد وقصره، ولا في كرمه وشجاعته وما شاكل ذلك، وإنما النزاع في كونه شاعرًا أو كاتبًا أو خطيبًا، تناول النفي هذه الصفات التي هي موضع النزاع فإذا قيل إلا شاعر، جاء القصر(٢).

هل يفيد الاستثناء التام القصر؟

لا خلاف بين البلاغيين في أن الاستثناء التام المنفي نحو قولك: ما جاءني أحد إلا زيد وما أكرمت أحدًا إلا عمرًا.

---

(١) انظر الإتقان ٢/ ٥٢.

(٢) انظر الإيضاح جـ ٢ ص ١٢.

وقول المتنبي:

كَأَنْ لَمْ يَمُتْ حَيٌّ سِوَاكَ ولمْ يَقُمْ عَلَى أَحَدٍ إلاَّ عَلَيْكَ النَّوَائِحُ

لا خلاف بينهم في أنه يفيد القصر، ولكن الخلاف في جعله من طرق القصر الاصطلاحية، فبعضهم يرى أنه ليس قصرًا اصطلاحيًّا بل هو قيد يصحح الحكم المنفي. فإذا قلت: ما جاءني أحد إلا زيد، كان استثناء زيد قيدًا مصححًا للحكم، لأن قولك: ما جاءني أحد، حصل به الحكم المنفي، لكن لما كان هذا الحكم شاملاً لزيد وهو لم يأت، قيد المجيء بغير زيد ليصحح الحكم المنفي، وحجتهم أن ما قبل الأداة كلام تام يحسن السكوت عليه، فمناط الفائدة وهو الحكم قد حصل قبل الأداة، وعندئذ يكون ما بعدها كأنه قيد مصحح.

ويرى آخرون أنه قصر اصطلاحي كالاستثناء المفرغ، ولكنه جاء على خلاف الأصل، حيث صرح فيه بالمثبت له والمنفي عنه معًا، والجمهور على أن الأصل في طريق النفي والاستثناء النص على المثبت له فقط[1].

أما الاستثناء التام الموجب كقولك: جاء القوم إلا زيد، وأكرمت الطلاب إلا المهمل، فالصواب أنه ليس قصرًا، بل هو قيد مصحح للحكم لا غير، وكأنك قلت: جاء القوم المغايرون لزيد، وأكرمت الطلاب المغايرين للمهمل، كما تقول: جاء القوم الصالحون... وقيل: إنه قصر لأن المعنى على قصر عدم المجيء على زيد، وعدم الإكرام على المهمل، وهذا ليس بقول، فالصواب هو الأول وهو أن الاستثناء التام الموجب يفيد القصر أي: الإثبات والنفي ولكنه ليس طريقًا من طرقه.

وخلاصة القول أن الاستثناء المفرغ كقولك: ما جاء إلا زيد، قصر اصطلاحي باتفاق البلاغيين، والاستثناء التام المنفي كقولك: ما جاء أحد إلا زيد، قصر اصطلاحي على الراجح من أقوالهم، والاستثناء التام الموجب كقولك: قام القوم إلا زيد يفيد القصر وليس قصرًا اصطلاحيًّا على الراجح من أقوالهم.

---

(١) انظر شروح التلخيص ٢/ ٢٠٧.

هل يجوز اجتماع «النفي والاستثناء» والعطف بلا؟

طريق النفي والاستثناء لا يجتمع والعطف بلا، فلا يجوز أن تقول: ما جاء إلا زيد لا عمرو، وذلك لأن المنفي في قولك: ما جاء إلا زيد، عام فهو يشمل ما عدا زيدًا، وعمرو داخل في دائرة المنفي، و«لا» العاطفة وضعها القوم لأن ينفي بها الشيء ابتداء، لا لأن ينفي بها شيء قد نفى بغيرها.

يقول شيخ البلاغة: «ليس من كلام الناس أن يقولوا: ما زيد إلا قائم لا قاعد، فإن ذلك إنما لم يجز من حيث إنك إذا قلت: ما زيد إلا قائم فقد نفيت عنه كل صفة تنافي القيام وصرت كأنك قلت: ليس هو بقاعد ولا مضطجع ولا متكئ، وهكذا حتى لا تدع صفة يخرج بها من القيام، فإذا قلت من بعد ذلك: لا قاعد كنت قد نفيت بلا العاطفة شيئًا قد بدأت فنفيته، وهي موضوعة لأن تنفي بها ما بدأت فأوجبته، لا لأن تفيد بها النفي في شيء قد نفيته...»(١).

ولذا عيب قول الحريري:

لَعَمْـرُكَ مَـا الإِنْـسَانُ إلا ابـنُ يَوْمِـهِ عَـلَى مَـا تجَـلَّى يَوْمُـهُ لاَ ابْـنُ أَمْـسِهِ

وينبغي أن تفرق بين «لا» العاطفة و«لا» الداخلة على الجملة، فإن الأخيرة يجوز أن تجتمع «والنفي والاستثناء»، نحو: ما زهير إلا شاعر، لا يقول أحد غير ذلك، ما هذا إلا لك، لا يشاركك فيه أحد، ليس السكوت عن العيوب إلا جبنًا، لا يرى أحد غير ذلك، وإنما كان هذا جائزًا، لأنك لم تنف «بلا» شيئًا قد نفى قبل، بل نفيت بها جملة مستقلة وأكدت بها جملة القصر السابقة.

***

٣- إنما

ودلالة إنما على القصر دلالة وضعية وعلى الرغم من ذلك لم يفت البلاغيون أن يتحدثوا عن وجه دلالتها على القصر، فقد ذكروا أنها تدل على القصر لتضمنها معنى «ما وإلا» واستدلوا على ذلك بوجوه.

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٢٦.

ومنها: قوه تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ ﴾ [النحل: ١١٥] بالنصب، حيث ذكر المفسرون الذين يحتج بهم في اللغة كابن عباس ومجاهد ونحوهما من الصحابة والتابعين، أن المعنى: ما حرم عليكم إلا الميتة وهو المطابق لقراءة الرفع حيث يفاد القصر في هذه القراءة بتعريف الطرفين، فالآية فيها ثلاث قراءات، وكلها تفيد القصر.

القراءة الأولى: بناء «حرم» للمعلوم ورفع «الميتة» وعلى هذه القراءة تكون «ما» اسم موصول وعائده محذوف والمعنى: إن الذي حرم عليكم هو الميتة، وهو قصر للتحريم على الميتة وما بعدها، وطريق القصر تعريف الطرفين.

والقراءة الثانية: ببناء «حرم» للمفعول ورفع الميتة، وعلى هذه القراءة، فما إما اسم موصول، والمعنى: إن الذي حرم عليكم هو الميتة وإما كافة لإن والمعنى: ما حرم عليكم إلا الميتة، وهذا قصر أيضًا للتحريم على الميتة وما تلاها وطريقه تعريف الطرفين في الأول، وإنما في الثاني.

والقراءة الثالثة: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ ﴾ ببناء «حرم» للفاعل ونصب «الميتة» فما كافة لإن، والمعنى: ما حرم عليكم إلا الميتة، فهو قصر طريقه إنما، وبهذا يتضح لك تطابق القراءات الثلاث في إفادة القصر، سواء كانت «ما» كافة لإن أو موصولة.

ومنها: قول من يحتج بقولهم من النحاة وهم من أخذوا اللغة من كلام العرب مشافهة: إن (إنما) لإثبات ما يذكر بعدها ونفي ما سواه، أي: لإثبات الحكم المتضمن لما بعدها ونفي ما سوى ذلك الحكم، وهذا القول من النحاة يقتضي تضمنها الإثبات والنفي كما وإلا، إما في قصر الموصوف على الصفة كقولك: إنما زيد قائم، فهو لإثبات قيام زيد ونفي ما عداه من القعود ونحوه، وإما في قصر الصفة على الموصوف كقولك: إنما يقوم زيد، فهو لإثبات قيام زيد ونفي ما سواه من قيام عمرو وخالد وبكر وغيرهم، وهذا هو القصر الذي يدل عليه النفي والاستثناء.

ومنها: صحة انفصال الضمير معها كقولك: إنما يقوم أنا، وإنما يكرم أنت، وإنما يعطى نحن، وذلك لأنه متى أمكن اتصال الضمير فلا يعدل إلى انفصاله إلا

لغرض، فلا يجوز أن تقول: يكرم أنت، أو يقوم أنا، أو يعطى نحن، ولكن بإمكانك أن تقول: تكرم وأقوم ونكرم ونعطى، فلما صح انفصال الضمير مع «إنما» دل ذلك على أنها بمعنى «ما وإلا»، لأن إلا لا يليها سوى الضمير المنفصل كقولك: ما يقوم إلا أنا، وما يكرم إلا نحن.

وكقول عمرو بن معد يكرب:

قَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وَجَارَاتُهَا مَا قَطَّرَ الْفَارِسَ إِلاَّ أَنَا[١]

ومن ورود الضمير منفصلاً بعد إنما قول الفرزدق وهو من الذين يستشهد بشعرهم على صحة التراكيب وبلاغتها:

أَنَا الذَّائِدُ الْحَامِي الذِّمَارَ وَإِنَّمَا يُدافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِم أَنَا أَوْ مِثْلِي[٢]

فقد قصر الدفاع عن أحسابهم عليه هو أو مثله، قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًّا ادعائيًّا، ولو قال: إنما أدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي لكان قصرًا لدفاعه على كونه عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم قصر موصوف على صفة، ويكون قوله: «أنا أومثلي» توكيدًا لا مقصورًا عليه، وليس هذا مراد الشاعر، لأنه قصد إلى الفخر والاعتداد بنفسه وأنه هو المدافع عن أحسابهم دون غيره، ولم يقصد أنه يدافع عن أحساب قومه دون أحساب غيرهم، لا يقصد الفرزدق هذا،لأنه يتنافى ومقام المدح والفخر.

نقول: إنما يفهم البلاغة المتذوق، فتجده أبلغ من قولك: إنما يفهم المتذوق البلاغة، لأن الأول أفاد قصر فهم البلاغة على الذواقة دون غيره، والثاني أفاد قصر فهم المتذوق على البلاغة دون غيرها من العلوم، فالأول هو المناسب لمقام المدح والتعظيم كما ترى.

---

(١) قطر بمعنى صرعه صرعة شديدة.

(٢) الذائد: من الذود وهو الدفاع، والذمار: ما يلزم الشخص حمايته من أهل ومال ونحوهما مأخوذ من الذمر وهو الحث على الدفاع والقتال، يقال: تذامر القوم؛أي: تحاضوا وحث بعضهم بعضا على الجد في القتال.. انظر لسان العرب مادة: ذمر.

ولا يقال: إن القصر في البيت طريقه تعريف الطرفين وأن «ما» موصولة وليست كافة لإن، والمعنى إن الذي يدافع عن أحسابهم هو أنا أو مثلي، فيكون الداعي لفصل الضمير وقوعه خبرًا وليس وقوعه بعد «إنما» التي بمعنى «ما وإلا». لا يقال ذلك لأن المقام مقام فخر كما قلنا فهو يقتضي «من» الموصولة التي للعاقل وليس هنالك سر بلاغي ولا ضرورة شعرية تقتضي العدول عن «من» إلى «ما» ولذا فليست «إنما» إلا مركبة من «إن» وما الكافة.

وأضاف السكاكي وجهًا لطيفًا لإفادة «إنما» القصر، يسند إلى علي بن عيسى الربعي وهو أنه لما كانت كلمة «إن» لتأكيد إسناد المسند إلى المسند إليه ثم اتصلت بها «ما» المؤكدة، وليست ما النافية كما يظنه من لا وقوف له على علم النحو، ناسب أن يضمن معنى القصر، لأن القصر ليس إلا تأكيدًا على تأكيد، وعلى الرغم من لطافة هذا الوجه فإنه لا يصلح دليلاً لإفادة إنما القصر، لعدم اطراده في كل الأساليب التي يجتمع فيها مؤكدان نحو: إن زيدًا لقائم(١).

وأضاف بهاء الدين السبكي أن من الأدلة على إفادة «إنما» القصر قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقوله عز وجل: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾ [هود: ٣٣]، وقوله جل وعلا ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف: ٢٨٧]، فإنه إنما يحصل مطابقة الجواب إذا كانت إنما للحصر ليكون معناه لا آتيكم به إنما يأتي به الله، ولا أعلمها إنما يعلمها الله(٢).

وتلك إضافة جيدة، فقد نظر ابن السبكي إلى استعمالات إنما في التراكيب ولم ينظر إلى ما قاله العلماء وأهل صناعة الكلام في شأنها، وعندما تتأمل سياق الآيات الكريمة التي أشار إليها تجد أن «إنما» يتحتم أن تكون للحصر، تأمل سياق الآية الأولى: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا

(١) انظر الإيضاح ٢/ ١٤.

(٢) انظر شروح التلخيص ٢/ ١١٣.

تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحقاف ٢١- ٢٣]، تجد أن القوم قد طلبوا العذاب الذي أنذرهم به -عليه السلام- واستعجلوا وقوعه، فأجابهم بأن مهمته إنما هي تبليغ ما أرسل به وأن العلم بوقوع العذاب عند الله وحده، لا يتعداه إلى هود فما هود إلا مبلغ، وبهذا يتضح لك أن قوله تعالى: «إنما العلم عند الله» يدل على القصر لا محالة.

وتأمل سياق الآية الثانية: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾ [هود: ٣٢، ٣٣]، فالمراد يأتيكم به الله إن شاء لا أنا، لأن مهمته -عليه السلام- تقف عند حد التبليغ.

وانظر سياق الآية الثالثة: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أريد: علمها عند ربي ليس عندي، فالسياق -كما رأيت- يقتضي أن تكون «إنما» للقصر لإفادتها النفي والإثبات معًا.

هذا والمقصور عليه «بإنما» هو المؤخر دائمًا، تقول في قصر العلم على محمد، إنما العالم محمد، وفي قصره على العلم، إنما محمد عالم، وتأتي «إنما» لإفادة كل أنواع القصر؛ فهي تفيد القصر الحقيقي بقسميه التحقيقي والادعائي كما تفيد القصر الإضافي بأنواعه الثلاثة: القلب والإفراد والتعيين.

اقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١]، تجد إرادة الشيطان قد قصرت «بإنما» على إيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين في الخمر والميسر وصدهم عن الذكر والصلاة، فهو قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًا غير تحقيقي، لأنه مبني على المبالغة، إذ الشيطان يسلك كل طريق لكي يبعد العبد عن طاعة ربه، ولكن لما كانت هذه الأمور وهي الخمر والميسر والصلاة والذكر من الخطورة بمكان فقد قصرت إرادة الشيطان عليها، أي: على ما يكون فيها من إيقاع العداوة بينهم في الخمر والميسر، والصد عن الذكر والصلاة، وكأن ما عداها لا يعتد به إذا ما قورن بها.

ولما كانت «إنما» تستعمل في الأمور المعلومة التي لا تنكر ولا تدفع -كما سيأتي- فقد أوثرت بالتعبير هنا لتنبيئ بأن هذا الأمر من الأمور المعلومة التي لا ينكرها أحد ولا يدفعها مدافع.

ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٩]، حيث قصر ما يأمر به الشيطان على السوء والفحشاء والقول على الله بلا علم قصرًا حقيقيًّا غير تحقيقي، لأنه يأمر بهذا وبغيره مما يكون سببا في هلاك من اتبعه.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]، حيث قصر خشية الله على العلماء قصرًا حقيقيًا غير تحقيقي، لأن غير العلماء يخشون الله تعالى، بل قد يكون غير العالم أشد خشية لله من العالم، ولكنه لم يعتد بذلك، لأن المقام مقام حث على العلم والنظر والتأمل في عجيب صنع الله، وقد مرت بك هذه الآية الكريمة، فارجع إلى ما قلناه فيها.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴾ [البقرة: ١٨١]، إذ المراد أن من بدل الوصية وحرفها وغير حكمها، فالإثم واقع عليه وحده، والله سبحانه وتعالى مطلع عليه وكاشف أمره، وواضح أن القصر في الآية قصر صفة الإثم أو العقاب على الذين يبدلون، قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا.

وانظر إلى قول شوقي:

وإنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاَقُ مَا بَقِيَتْ ... فَإِنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلاَقُهُم ذَهَبُوا

تجده قد قصر الأمم على الأخلاق قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقيًا ادعائيًا، وهذا القصر ينبئ بقيمة الأخلاق وأهميتها في بناء الأمم والشعوب حيث لم يعتد الشاعر بما سواها مما يمكن أن يساهم في بناء المجتمعات.

وتقول: إنما زهير شاعر، فتفيد قصر زهير على صفة الشعر لا يتعداها إلى صفة الكتابة، فيكون قصرًا إضافيًّا إما قصر قلب أو إفراد أو تعيين، حسب اعتقاد المخاطب -كما مر بك-.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧]، تجد فيه قصر الرسول ﷺ على صفة الإنذار لا يتعداها

إلى الإتيان بالآيات، فهو قصر إفراد، إذ يعتقد الكافرون أنه -عليه الصلاة والسلام- يجمع بين صفتي الإنذار والإتيان...

وقد ذكر عبد القاهر[١] أن «إنما» لا تستعمل إلا في قصر القلب، والصواب ما ذكرناه وهو أنها تستعمل في كل أنواع القصر كما رأيت في الشواهد وهو ما عليه جمهور البلاغيين.

هل تفيد «أنما» القصر؟

يرى بعض العلماء كالزمخشري والبيضاوي والتنوخي، أن «أنما» من طرق القصر، فهي كإنما بالكسر في الدلالة على القصر، لأنها فرع عنها، وما ثبت للأصل يثبت للفرع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، وقوله عز وجل ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]، والذي أراه -والله أعلم- أن «ما» في «أنما» زائدة للتأكيد وأن المراد في الآية الأولى: قصر «يوحى إلي» على «أنما إلهكم إله واحد» والمعنى ما يوحى إلي في أمر الإله إلا وحدانيته، والمراد في الآية الثانية قصر الرسول -عليه الصلاة والسلام- «أنا» على بقية الجملة، أي على كونه بشرًا مثلهم يوحى إليه أن إلههم إله واحد... والله تعالى أعلى وأعلم.

***

٤- التقديم

ومن طرق القصر «التقديم» وهو باب واسع من أبواب البلاغة، يكمن وراءه الكثير من المزايا والأسرار البلاغية، وعد إلى تقديم المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل في الجزء الأول فقد تكفل ببيان هذه المزايا وتلك الأسرار، ومرادنا هنا أن نبرز دلالة التقديم على القصر...

---

(١) ارجع إلى دلائل الإعجاز ٢٢٠.

تأمل قولك: ما أنا قلت هذا الشعر، فقد دل تقديم المسند إليه وإيلاؤه أداة النفي على القصر، أي: نفي الشعر عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره.

ومن ذلك قول المتنبي:

وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جِسْمِي بِهِ ولاَ أَنَا أَضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارَا

وقوله أيضا:

وما أنا وَحْدِي قُلْتُ ذَا الشِّعْرَ كُلَّهُ وَلكنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

فتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بعد أداة النفي، يفيد -غالبًا- الاختصاص، ولذا كان من الخطأ أن نقول: ما أنا قلت هذا ولا قاله أحد غيري، أو تقول: ما أنا قلت شعرًا، أو ما أنا أكرمت إلا زيدًا(١).

وكذا تقديم المسند إليه في الإثبات كقولك: أنا سعيت في حاجتك، محمد يقري الضيف، فإنه يفيد القصر أو التقوية، وتأكيد الحكم، حسبما يقتضيه السياق وقرائن الأحوال، والنكرة في هذا كالمعرفة تقول: ما رجل جاءني، فيفيد تقديم النكرة: القصر أي: نفي المجيء عن جنس الرجال وقصره على جنس النساء، والمعنى: ما رجل جاءني بل امرأة، أو نفيه عن الواحد وإثباته لغيره، والمعنى: ما رجل جاءني بل أكثر.. وتقول: رجل جاءني فيفيد تقديمها تقوية الحكم وتأكيده أو القصر، أي قصر المجيء على جنس الرجال ونفيه عن جنس النساء، والمعنى: رجل جاءني لا امرأة، أو قصره على العدد، والمعنى: رجل جاءني لا رجلان(٢).

ومن تقديم المسند الذي أفاد تقديمه القصر قوله جل وعلا: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات: ٤٧]، وقوله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

ومنه قول عمرو بن كلثوم:

لنا الدُّنَيا ومَنْ أضحَى عَلَيْهَا وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا

(١) ارجع إلى الجزء الأول لتعرف وجه الصحة والصواب لتلك الأقوال في باب تقديم المسند إليه.

(٢) تفصيل القول في هذا تراه في الجزء الأول في تقديم المسند إليه.

وقول الإمام علي كرم الله وجهه:

رَضِينَا قِسْمَةَ الْجَبَّارِ فِينَا لَنَا عِلْمٌ وَلِلْجُهَّالِ مَالُ

وقول أبي تمام:

لَكَ القلمُ الأَعْلَى الَّذِي بِشَبَاتِهِ يُصَابُ من الأَمْرِ الكُلَى والمَفَاصِلُ(١)

ومن تقديم أحد المتعلقات على الفعل قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣].

ومنه قول شوقي في مدح الرسول ﷺ:

بِكَ يا ابنَ عبدِ الله قامتْ سَمْحَةٌ بالْحَقِّ من مِلَلِ الْهُدَى غَرَّاءُ

وقول الإمام علي كرم الله وجهه:

إلى الله أشْكُو لا إلى الناس أَشْتَكِي أرَى الأرضَ تبقَى والأَخِلاَّءَ تَذْهَبُ

وتقول: ما بهذا أمرتك... ما زيدًا أكرمت، فيكون كلامًا مستقيمًا، لأنك قصرت الأمر والإكرام المنفيين على المقدم أي: نفيت الأمر عن الجار والمجرور المقدم وأثبته لغيره، ونفيت الإكرام عن زيد وأثبته لغير زيد، فإن قلت: ما بهذا أمرتك ولا بغيره... ما زيدًا أكرمت ولا أحدًا من الناس قلت ما ليس بقول(٢).

هذا والمقصور عليه بهذا الطريق هو المقدم دائمًا، وهو صالح لكل أنواع القصر، فقوله تعالى: «إياك نعبد» قصر للعبادة على الله قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، وقول عمرو: «لنا الدنيا ومن أضحى عليها» قصر للدنيا ومن عليها على كونها لهم قصر موصوف على صفة قصرًا حقيقيًا ادعائيًّا، وقول الإمام علي كرم الله وجهه: «إلى الله أشكو لا إلى الناس» قصر إضافي صالح لأن يكون قلبًا أو إفرادًا أو تعيينًا حسب اعتقاد المخاطب.

---

(١) شباة كل شيء حدة طرفه وجمعها شبوات بفتح الشين في المفرد والجمع، والمراد أنهم يصيبون المحز بها يكتبون ويقولون، فالبيت كناية عن الفصاحة وإجادة القول، والكلي: جمع كلية بضم الكاف.

(٢) ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب،باب تقديم المتعلقات على العامل

٥-ضمير الفصل

· ومن طرق القصر التي أقرها بعض البلاغيين ضمير الفصل وهو أن يعقب المسند إليه بضمير يسمى ضمير الفصل لتخصيصه بالمسند بمعنى جعل المسند مقصورًا على المسند إليه، كقولك: زهير هو الشاعر، ففيه قصر لصفة الشعر على زهير، لا تتعداه إلى غيره، وطريق القصر هو الفصل بالضمير، وهذا الضمير حرف باتفاق جمهور النحاة وليس اسمًا، والقائلون بأنه اسم أكثرهم على أنه لا محل له من الإعراب، وهو يقع إما بين المبتدأ والخبر كما في المثال المذكور أو بين ما أصلهما المبتدأ والخبر، كقولك: صار امرؤ القيس هو الشاعر،وعلمت أن حاتمًا هو الكريم، والمقصور عليه بهذا الطريق هو المبتدأ والمقصور هو الخبر.

وتلاحظ في الأمثلة المذكورة أن ضمير الفصل قد أفاد بالإضافة إلى القصر: تأكيد نسبة الخبر إلى المبتدأ، وتلك الإفادة تراها وراء كل أسلوب من أساليب القصر، كما أفاد أيضًا الدلالة على أن ما بعد المبتدأ خبر له وليس صفة، لأن قولك: زهير الشاعر، فيه إيهام أن الشاعر صفة لزهير، فإذا قلت: زهير هو الشاعر، اندفع هذا التوهم، وأصبحت الجملة دالة دلالة بينة على أن الشاعر خبر لزهير لا صفة.

ومن شواهد القصر بضمير الفصل قوله: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧]، التوفية في الآية بمعنى الرفع، فقد جاءت التوفية في كتاب الله على ثلاثة أوجه: بمعنى الموت كما في قوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [الزمر: ٤٢]، وبمعنى النوم كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الانعام: ٦٠]، وبمعنى الرفع كما في قوله جل وعلا: ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾(١).

وفي الآية الكريمة قصر لصفة المراقبة بمعنى: المراعاة والحفظ والعلم على موصوف وهو الله تعالى، وطريق القصر هو ضمير الفصل: «أنت» ولو لم يكن ضمير الفصل في الآية الكريمة للدلالة على القصر لما حسن، لأن الله لم يزل رقيبًا

---

(١)انظر فتح القدير ٢/ ٩.

عليهم في جميع الأحوال، وإنما الذي حصل بتوفيته عيسى -عليه السلام- وقد كان شهيدًا عليهم يراقبهم ويأمرهم بعبادة الله، أنه لم يبق لهم رقيب غير الله تعالى، ولذا ينبغي أن يتعين إعرابه فصلاً دالًا على القصر[١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠]، فقد قصرت صفة الفوز على أصحاب الجنة قصرًا إضافيًا، فهي لا تتعداهم إلى أصحاب النار، وطريق القصر هو ضمير الفصل، وذلك لأن الآية الكريمة تقرر عدم الاستواء بين أهل الجنة وأهل النار، فأهل الجنة هم الفائزون بكل مطلوب، الناجون من كل مكروه، وهذا لا يحسن إلا بأن يكون ضمير الفصل «هم» للاختصاص، ولا يتأتى إعرابه مبتدأ ثانيًا ولا تأكيدًا للجملة.

ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨]، حيث قصرت صفة الرزق على الله تعالى قصرًا حقيقيًا، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ٣]، قصرت صفة «الأبتر» على «شانئك» والمعنى: إن عدو رسول الله ﷺ هو المحروم من رحمة الله، المقطوع من كل خير.

ويمكن أن يكون طريق القصر في الآيات الكريمة تعريف المسند بأل الاستغراقية وعندئذ يكون ضمير الفصل لتأكيد القصر.

وتأمل قوله عز وجل: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٩]، تجد أن صفة الولاية قد قصرت على الله تعالى لا تتعداه إلى تلك المعبودات التي اتخذوها من دونه، فهو سبحانه وتعالى الخالق الرازق، الضار النافع، المحيي المميت، القادر على كل شيء، الحقيق أن يتخذ وليًا، وطريق القصر: لك أن تجعله ضمير الفصل «هو» ولك أن تجعله تعريف المسند بأل الاستغراقية، ويكون الضمير تأكيدًا للقصر.

***

---

(١) انظر شروح التلخيص ٢/ ٣٨٧.

٦-تعريف المسند أو المسند إليه «بأل»

إذا كان المبتدأ والخبر معرفتين فالراجح أن السابق منهما هو المبتدأ، واللاحق هو الخبر، تقول: زيد المنطلق، فتخبر عن زيد بالانطلاق، وتقول: محمد الشجاع، فتخبر عن محمد بالشجاعة، وتقول: الشجاع محمد فتخبر عن الشجاع بأنه محمد، وتقول: زيد أخوك، وأخوك زيد، فالأول إخبار عن زيد بأنه أخوه، والثاني إخبار عن أخيه بأن اسمه زيد.

وعندما يكون أحد طرفي الإسناد معرفًا «بأل» التي للعهد أو للجنس، فإن هذا التعريف يدل على القصر، إذ هو طريق من طرقه عند بعض البلاغيين، كما عرفت، تقول: عمرو المنطلق، فتفيد قصر الانطلاق المعهود على عمرو، وتقول: محمد الكريم، والكريم محمد، فتفيد بهذا قصر الكرم على محمد في الموضعين، فالمقصور هو المعرف «بأل» الجنسية سواء تقدم أو تأخر، والمقصور عليه هو الآخر، وتقول: خالد الأمير، والأمير خالد، فتفيد قصر الإمارة على خالد قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، إذا لم يكن ثمة أمير سواه، وتقول: محمد الشجاع، والشجاع محمد فتفيد قصر الشجاعة على محمد قصرًا حقيقيًّا ادعائيًّا لأنك تجعله الكامل في الشجاعة، ولا تعتد بشجاعة غيره لقصورها عن رتبة الكمال، وتقول محمد القوي، والقوي محمد، فتفيد قصر القوة على محمد قصرًا إضافيًّا، إذا أردت أنه القوي دون زيد أو عمرو مثلاً، وتقول أنت المقدام، وهو المطاع، ونحن الأبطال، فتفيد قصر الصفات المذكورة على موصوفيها، قصرًا حقيقيًّا أو إضافيًّا حسب مرادك بتلك الأقوال.

فإن كان طرفا الإسناد معرفين «بأل» الجنسية كقولك: العالم المنطلق، فإن السياق هو الذي يحدد ويعين المراد.

والمقصور بهذا الطريق وهو المعرف بأل، أو الذي يحدده السياق إذا كان الطرفان معرفين معا بها.. قد يكون على إطلاقه كما في الأمثلة السابقة، وقد يقيد بتيد، كقولك: محمد المطاع في قومه، وأنت القائد الجريء، حيث قصرت الطاعة المقيدة بالجار والمجرور على محمد وقصرت القيادة المقيدة بالجرأة على المخاطب. ومن ذلك قولهم: هو الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيرًا، وهو الجواد حين يبخل الناس.

ومنه قول الأعشى:

هُـــوَ الْـــوَاهِبُ الْـــمِائَةَ الْمُـــصْطَفَا ةَ إِمَّـــا مخَاضًـــا وَإِمَّـــا عِـــشَارًا

فالمخاض: الحوامل من النوق، والعشار جمع عشراء، وهي التي مضى لحملها عشرة أشهر، والشاعر قد قصر الهبة على الممدوح، ليس مطلقًا، وإنما مقيدة بكونها من النوق وبكونها مائة وبكونها مصطفاة، وبكونها إما مخاضًا وإما عشارًا، وهذا أبلغ في مقام المدح من قصر الهبة المطلقة، كما لا يخفى.

وعندما يقيد المقصور بقيد كما في الشواهد المذكورة يكون القصر قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا، أما إذا كان على إطلاقه فغالبًا ما يكون قصرًا ادعائيًا وقد يكون تحقيقيًا إذا وجد في السياق ما يعين ذلك(١).

هذا وقد يأتي التعريف بلام الجنس لإفادة التأكيد وتقرير الحكم، دون الدلالة على القصر، كما في قول الخنساء:

إِذَا قَـــبُحَ الْـــبُكَاءُ عَـــلَى قَتِيـــلٍ رَأَيْـــتُ بُكَـــاءَكَ الْـحَـــسَنَ الْـجَمِـــيلاً

فليس المعنى على إرادة القصر، وإنما مرادها أن تقرر الحسن والجمال لبكائها صخرًا، وأن تدل على أن حسنه حسن ظاهر وجماله جمال بين، فلا أحد يستطيع أن ينكره أو يشك فيه، وإذا استقبح البكاء على قتيل، ظل بكاؤك الحسن الجميل الذي لا يستقبحه أحد، فالناس لا يترددون في حسن بكاء وقبح آخر، حتى يكون المعنى على القصر، وإنما هم يستقبحون البكاء على القتلى، ويستحسنون بكاءها صخرًا، وبهذا يتضح لك أن المراد بتعريف المسند في البيت «بأل» الجنسية «الحسن الجميل» هو تقرير الحسن والجمال وتأكيدهما، وإبراز بكائها صخرًا حسنًا دائمًا وجميلاً أبدًا، وليس المراد به الدلالة على القصر.

***

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٨٠.

فروق طرق القصر وأوجه الاختلاف بينها

ومن أهم ما ينبغي أن تتجه إليه عناية الدارس لأسلوب القصر، أن يقف على ما بين طرقه من فروق وأوجه اختلاف، فإن هذه الطرق على الرغم من اشتراكها في الدلالة على معنى القصر فإنها تختلف من عدة أوجه، ويوجد بينها فروق دقيقة ينبغي على الدارس أن يلم بها، وأهم هذه الأوجه:

١-أن دلالة التقديم، وضمير الفصل، وتعريف الطرفين أو أحدهما «بأل» على القصر ليست دلالة وضعية، وإنما هي دلالة تذوقية تفهم من فحوى الكلام وسياقاته وقرائن أحواله، فصاحب الذوق السليم، والطبع العربي الأصيل يستطيع إذا تأمل التقديم بين أجزاء الكلام أن يدرك ما يكمن وراءه من أسرار ودقائق، وأن يميز بين تقديم قصد به الدلالة على القصر وتقديم الغاية منه مزية أخرى، فليس كل تقديم يدل على القصر، وإنما يقع التقديم بين أجزاء الكلام للدلالة على أغراض شتى ومزايا عديدة[(١)].

وكذا توسط الضمير بين طرفي الإسناد، قد يكون ضمير فصل يدل على القصر، أويؤكده إذا دل على القصر غيره، وقد يكون لتأكيد مضمون الكلام فيكون عندئذ اسمًا ويعرب مبتدأ ثانيًا، فليس دائمًا لإفادة الاختصاص.

وتعريف الطرفين أو أحدهما، بأل الاستغراقية قد يكون للتقرير وتأكيد نسبة المسند إلى المسند إليه، كما مر بك في بيت الخنساء:

إِذَا قَبُحَ الْبُكَاءُ عَلى قَتِيلٍ   رأيتُ بُكاءَكَ الْحَسَنَ الْجَمِيلاَ

وبهذا يتضح لك أن دلالة هذه الطرق الثلاثة على القصر مرجعها إلى السياق ومعرفة قرائن الأحوال، والمتأمل الواعي، ذو الذوق السليم، الخبير بدلالات الكلام وخصائص التراكيب، هو الذي يميز بين ما يدل على القصر منها وما يقصد به إلى غاية أخرى.

أما النفي والاستثناء و«إنما» و«العطف بلا وبل ولكن» فدلالتها على القصر

---

(١) ارجع إلى أغراض التقديم في الجزء الأول من هذا الكتاب.

دلالة وضعية، وعلى الرغم من ذلك خاض البلاغيون في بيان وجه تلك الدلالة، وقد مر بك وجه دلالة كل منها على القصر، ولا تتنافى الدلالة الوضعية لهذه الطرق الثلاثة مع دراستها، والبحث عنها في علم المعاني، لأنه لا يبحث فيه عن دلالتها على القصر وإنما يبحث فيه أصلاً عن مزايا القصر وأحواله وعن المقامات التي تدعو إلى التعبير بأساليب القصر وما من شك في أن هذا من صميم علم المعاني.

٢-أن الأصل في طريق «العطف بلا وبل ولكن» النص على المثبت والمنفي معًا، تقول: زهير شاعر لا كاتب، ما شوقي كاتبًا بل شاعر، ما عمرو جوادًا لكن حاتم، ولا يترك النص على المثبت والمنفي في هذا الطريق إلا كراهة الإطناب في مقام الإيجاز، كما إذا قال لك قائل: زيد يعلم البلاغة والنحو والصرف والعروض والأدب، أو زيد يعلم البلاغة وخالد وعمرو وبكر وحاتم، فتقول له: زيد يعلم البلاغة لا غير، والمعنى في الأول : قصر زيد على علم البلاغة، أي زيد يعلم البلاغة لا غيرها، وفي الثاني: قصر علم البلاغة على زيد أي: زيد يعلم البلاغة لا غيره...

ومثله قول الشاعر:

جَوَابًا بِهِ تَنْجُو اعْتَمِدْ فَوَرَبِّنَا ... لَعَنْ عَمَلٍ أَسْلَفْتَ لا غَيرُ تُسْأَلُ

فقد نص في القصرين: «زيد يعلم البلاغة لا غير».. «عن عمل أسلفت لا غير تسأل»، على المثبت فقط دون المنفي خشية الإطناب؛ إذ المقام مقام إيجاز واختصار.

أما بقية الطرق فالأصل فيها أن ينص على المثبت فقط دون المنفي، تقول: ما شاعر إلا زهير، في قصر صفة الشعر على زهير، فقد صرح بالمثبت وهو زهير دون المنفي وهو من عداه وكذا القول في: ما زهير إلا شاعر، إنما أنت أب، إياك أكرمت، محمد الشجاع، خالد هو الوفي، ففي هذه الطرق قد نص على المثبت فقط، أما المنفي فمفهوم من القصر بمعرفة سياقات الكلام وقرائن أحواله...

وقد يصرح في بعض هذه الطرق بالمنفي دون المثبت كقولك في التقديم: ما أنا فعلت هذا، ففيه نفي للقول عن المسند إليه المقدم وإثباته لغيره، فالمقصور عليه الذي صرح به هو المنفي عنه دون المثبت له كما ترى، وقد ينص على المثبت والمنفي

معا كقولك في الاستثناء التام: ما قام القوم إلا زيد، وقد مر بك أن الاستثناء المفرغ هو الأصل في الدلالة على القصر.

٣-اجتماع طريقين من طرق القصر

لا يجوز أن يجتمع طريق النفي «بلا» العاطفة وطريق النفي والاستثناء -كما مر بك- لأن «لا» موضوعة لأن ينفي بها ما أوجب للمتبوع كقولك: زيد كريم لا شجاع فهي موضوعة للنفي ابتداء، لا لأن تعيد بها النفي في شيء قد نفيته، وهذا الشرط مفقود في النفي والاستثناء، لأن قولك: ما زيد إلا قائم، يفيد نفي كل صفة وقع فيها التنازع عن زيد وإثبات صفة القيام له، فلو قلت: «لا قاعد» فقد نفيت «بلا» العاطفة شيئًا هو منفي قبلها بما النافية.

ولذا عيب قول الحريري:

لَعَمْـرُكَ مَـا الإِنْـسَانُ إِلاَّ ابـنُ يَوْمِـهِ عـلى مَـا تجَـلَّى يَوْمُـهُ لاَ ابْـنُ أَمْـسِهِ

هذا إذا كانت «لا» العاطفة داخلة على المفرد، فإن دخلت على الجملة كقولك: ما هذا إلا لك لا يشاركك فيه أحد، فهو جائز، لأنك عندئذ لا تنفي «بلا» شيئًا قد نفي أولا، وإنما تنفي بها جملة مؤكدة لجملة القصر المتقدمة عليها.

أما بقية الطرق فتجتمع والنفي «بلا» تقول في اجتماعه وإنما: «إنما زيد كريم لا شجاع»، وفي اجتماعه والتقديم: «إلى الله أشكو لا إلى الناس» وفي اجتماعه والتعريف بأل: زيد الكريم لا عمرو، وذلك لأن النفي في هذه الطرق ليس نفيًا صريحًا، فأنت لم تنف «بلا» ما قد نفى من قبل نفيًا صريحًا بأداة من أدوات النفي الموضوعة له، بل نفيت بها ما قد فهم نفيه في الجملة المتقدمة بغير أداة، والقصر عندئذ طريقة «إنما» و«التقديم» و«التعريف بأل» أما العطف «بلا» فتأكيد للقصر.

وينبغي مراعاة ذلك عند بناء الجمل وصياغتها، فلا تبنى بناء تتناقض فيه أجزاؤها... لا تقول: «إنما هذا لك لا ذاك» لأن المقصور عليه بإنما هو المؤخر، والمقصور عليه بلا هو المقابل لما بعدها، «فإنما» تقتضي أن يكون المقصور عليه هو «لك» و«لا» تقتضي أن يكون المقصور عليه «هذا» وذا تدافع وتناقض في القول، فالصواب أن يقال: «إنما هذا لك لا لغيرك»، «إنما أخذ زيد لا عمرو»، «إنما زيد يأخذ لا يعطي»، «إنما أكرمت عمرًا لا زيدًا».

وتقول: زيد الكريم لا عمرو، وحاتم هو الثري لا خالد، وبهذا تنشغل لا بذاك، وبهذا تأمر لا بغيره فتراه كلامًا مستقيمًا، إذ لا تدافع بين التعريف «بأل» أو «التقديم» وبين العطف «بلا»، فإن قلت زيد الكريم لا البخيل، وعمرو هو الشجاع لا الجواد، وبهذا تأمر لا تنهي، تناقض قولك وتدافع.

فإن سألت: ألا يجوز أن يكون التقديم في المثال الأخير للتأكيد وتقوية الحكم، وعندئذ يكون طريق القصر «لا» والمقصور عليه: «تأمُرُ»؟، قلت: لا غبار على ذلك حيث لا تدافع في الدلالة عندئذ، ولا تناقض في القول، فالذي ينبغي مراعاته هو التنبه لما بين طرق القصر من فروق في تحديد موضع كل من المقصور والمقصور عليه حتى لا تبنى الجمل بناء تتناقض فيه أجزاؤها.

فقد تجتمع –مثلاً– «إنما» وضمير الفصل أو التعريف بأل، فيقال: إنما الجواد أنت، إنما العالم هو محمد، وتجده كلامًا مستقيمًا، إذ المقصور عليه بالتعريف أو بضمير الفصل هو الخالي من «أل» والمقصور عليه بإنما هو المؤخر، فلا تناقض في بناء العبارة، كما ترى بل إن طريقي القصر يؤكد كل منهما الآخر، فإن قلت: إنما أنت الجواد، إنما محمد هو العالم، تدافع الطريقان، ولو جعلت ضمير الفصل أو التعريف للتأكيد وتقوية الحكم وتقريره فلا تدافع، إذ يكون القصر مدلولاً عليه بإنما، والتعريف وضمير الفصل مؤكدان له.

وقد يجتمع طريق «إنما» وطريق «التقديم» كقولك: إنما زيدًا أكرمت وإنما بهذا أمرتك... وإنما عليك المعول... فعندئذ يتحتم إلغاء دلالة أحد الطريقين على القصر ويبقى الآخر، وذلك لأنه لا يمكن أن نلائم بين طريق إنما وطريق التقديم، إذ المقصور عليه بـ«إنما» هو المؤخر، والمقصور عليه في التقديم هو المقدم، والذي يحدد ذلك هو السياق وقرائن الأحوال وما يقتضيه المعنى.

تأمل قول المتنبي:

أَجِزْني إذا أُنْشِدْتَ شِعْرًا فإنَّما ... بِشِعْرِي أتاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدَّدَا

تجد المعنى يقتضي أن يكون المقصور عليه هو الجار والمجرور «بشعري»؛ لأنه أراد أن شعره قد احتوى كل فنون المديح واشتمل على كل الخصال والمناقب التي

يمكن أن تحوم حولها أخيلة الشعراء ولذا فإن الشعراء إذا أتوا مادحين، فإنما يمدحون بشعره، ويكررون قوله، فالمعنى يقتضي أن يكون طريق القصر هو التقديم، وأن تكون «إنما» ملغاة...

وخذ قول الآخر يرثي صديقه:

أَلاَ فَلْيَمُتْ مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ إِنَّمَا ... عَلَيْكَ مِنَ الْأَقْدَارِ كان حَذَارِيَا

تجد المعنى يقتضي أن يكون حذر الشاعر مقصورًا على مرثيه: «عليك»، لا يتعداه إلى غيره، فالمقصور: الحذر من الأقدار والمقصور عليه الجار والمجرور «عليك» وهذا معناه أن إنما ملغاة وأن طريق القصر هو التقديم...

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، تجد المعنى يقتضي أن يكون الجار والمجرور: «عليك» مقصورًا و«البلاغ» مقصورًا عليه، لأن المراد: قصر مهمة الرسول ﷺ على التبليغ لا تتعداه إلى الحساب ونحوه، وليس مرادًا قصر البلاغ على الرسول، وهذا معناه: أن طريق القصر هو «إنما» وأن دلالة التقديم على القصر ملغاة فهو للتأكيد وتقوية الحكم.

أما قوله: «وعلينا الحساب» فهو قصر للحساب على الله تعالى لا يتجاوزه إلى غيره، وطريقه: التقديم، ومعنى الآية الكريمة: فإما نرينك بعض الذي نعدهم من الإهلاك والعذاب أو نتوفينك قبل تعذيبهم، فإن الذي عليك هو الإنذار وتبليغهم الرسالة، وعلينا نحن الحساب والجزاء لا عليك، وهذا المعنى قد اقتضى أن يكون طريق القصر في الجملة الأولى -كما وضحنا- هو «إنما» وفي الجملة الثانية هو التقديم...

واقرأ قول المتنبي في مدح عضد الدولة:

وَقَدْ رأيتُ الْمُلُوكَ قَاطِبَةً ... وَسِرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مَوْلاَهَا

وَمَنْ مَنَايَاهُمْ بِرَاحَتِهِ ... يَأْمُرُهَا فِيهِمْ وَيَنْهَاهَا

أَبَا شُجَاعٍ بِفَارسٍ عَضُدَ الدَّوْ ... لَةِ فَنَّاخُسْرُو شَهَنْشَاهَا

أَسَـــامِيًا لَمْ تَـــزِدْهُ مَعْرِفَـــةً ... وَإِنَّـــمَا لَـــذَّةً ذَكَرْنَاهَـــا

فقد عدد أسماء آباء الممدوح، ولما كانت العادة قد جرت على أنه لا تعدد أسماء الآباء إلا عند إرادة التعريف بشخص خامل الذكر، قليل الشهرة، تدارك الشاعر ذلك فقال:

أَسَـــامِيًا لَمْ تَـــزِدْهُ مَعْرِفَـــةً ... وَإِنَّـــمَا لَـــذَّةً ذَكَرْنَاهَـــا

أي: ما ذكرناها إلا من أجل اللذة، «فلذة» مقصور عليه مقدم، و«إنما» ملغاة.

وقد يحتمل المعنى أن يكون القصر بأي من الطريقين. على نحو ما ترى في قول العباس بن الأحنف:

كَـــانَ لِي قَلْـــبٌ أَعِـــيشُ بِـــهِ ... فَاصْـــطَلَى بِالنَّـــارِ فَاحْتَرَقَـــا

أَنَـــا لَمْ أُرْزَقْ مَـــوَدَّتَكُمْ ... إِنَّـــمَا لِلْعَبْـــدِ مَـــا رُزِقَـــا

فجائز أن يكون ما للعبد مقصورًا على رزقه، لا يتعداه إلى رزق غيره، وجائز أن يكون: «ما رزقا» مقصورًا على «كونه للعبد» لا يتعداه إلى كونه لغيره، فعلى الأول يكون طريق القصر «إنما» ودلالة التقديم ملغاة، وعلى الثاني يكون طريق القصر «التقديم» ودلالة «إنما» ملغاة، فالبيت -كما ترى- يحتمل المعنيين.

هذا ويرى بعض أنه إذا أدى اجتماع أي طريقين من طرق القصر إلى تدافع أجزاء الكلام ألغي أحدهما حسبما يقتضي السياق وتحدد القرائن، ولا يحكم على الكلام بالتناقض والتدافع، فلو قلت: إنما هذا لك لا ذاك ووجدت «إنما» لا تستقيم مع «لا» فعليك أن تلغي أحد الطريقين حسبما يملي عليك السياق، ولو قلت: إنما لك هذا لا لغيرك، فوجدت «إنما» متدافعة مع «التقديم» و«لا» فإما أن تلغيها وإما أن تلغي التقديم و«لا»[1].

ولعل من رأى هذا قد نظر إلى اجتماع «إنما والتقديم» وإلى إلغاء أحدهما حسبما يقتضي السياق، فرأى أن ما يجري على «إنما والتقديم» عند اجتماعهما يمكن أن

---

(١) انظر الإيضاح جـ ٢ ص ٢٨.

يجري على أي طريقين، فليس هناك ما يدعو إلى التفرقة بين اجتماع «إنما والتقديم» واجتماع غيرهما.

والذي أراه أنه لا يمكن التعويل على مثل هذه الأمثلة المصطنعة في إصدار هذه الأحكام، بل ينبغي أن يعتمد فيها على التعبيرات الجيدة والأساليب الرفيعة من أقوال البلغاء، وأن ينظر إلى اجتماع طرق القصر في تلك التعبيرات الجيدة، ويقر عندئذ ما يقضي به سياقها على نحو ما رأيت في اجتماع «إنما» والتقديم في النظم الكريم وفيما مر بك من شواهد.

٤-بين « إنما» و«النفي والاستثناء»

الأصل في طريق «النفي والاستثناء» أن يستعمل فيما شأنه أن يجهله المخاطب وينكره، والأصل في «إنما» أن تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ولا ينكره.

يقول عبد القاهر: «وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: ما هذا إلا كذا وإن هو إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، فإذا قلت: ما هو إلا مصيب أو ما هو إلا مخطئ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته، وإذا رأيت شخصًا من بعيد فقلت: ما هو إلا زيد لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر، ويجد في الإنكار أن يكون كذلك»(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦٢]، فالخطاب في الآية لمن يحاجون في عيسى ويرفعونه إلى مرتبة الإله، ويجدون في ذلك ولذا دعوا إلى الابتهال: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [آل عمران: ٦١]، ثم أكد الخبر بإن واللام: «إن هذا هو القصص الحق» ثم جاء القصر بالنفي والاستثناء «وما من إله إلا الله» ثم أكد الخبر مرة ثانية: «وإن الله لهو العزيز الحكيم»... وفي هذا ما يدفع إنكار

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٧.

المنكرين ويبدد جحودهم ويدفعهم إلى ترك المحاجة في شأن عيسى عليه السلام بعد وضوح الأمر ومجيء العلم.

واقرأ قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ [الأنعام: ٢٥- ٢٦]، فالرسول ﷺ ينكر أشد الإنكار أن يكون ما يدعوهم إليه أساطير الأولين، وهم يعتقدون أنهم يهلكون بعنادهم وجدالهم الرسالة وصاحبها، وينكرون أنهم يهلكون أنفسهم ولذا جاء القصر في الموضعين بالنفي والاستثناء.

وخذ قوله تبارك وتعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، فالمخاطبون وهم الكفرة ينكرون أشد الإنكار أن يكون الرسول متبعًا لوحي يوحي ويرون أن ما يقوله أساطير الأولين، ولذا جاء القصر بالنفي والاستثناء: «إن أتبع إلا ما يوحي إلي».

ومن ذلك قول المتنبي في ذكر سيف الدولة ووصف جيوشه وما يتبعها من طير:

لَهُ عَسْكَرَا خَيْلٍ وَطَيْرٍ إِذَا رَمَى ... بِهَا عَسْكَرًا لمْ يُبْقِ إلاَّ جمَاجِمَهُ

فكون الجيش على هذه الصورة من القوة وشدة الفتك وأنه لا يبقى من الأعداء حيًا ولا جسدًا ميتًا، وإنما يبقى الجماجم ليس إلا، أمر غريب تتوقف النفوس في قبوله، ويكون منها إنكار له ودفع، ولذا كان القصر بالنفي والاستثناء: «لم يبق إلا جماجه».

ومنه قول التميمي:

فَمَا زادَنِي الشَّيْبُ إلاَّ نَدًى ... إِذَا اسْتَرْوَحَ الْمُرْضِعَاتُ الْقُتَارَ[1]

لأن ما ذكره من شأنه أن ينكر ويدفع وأن تتوقف النفوس في قبوله والتسليم به، فقد ذكر أن الشيب زاده ندى، ومن شأن من بلغ الشيب أن يكون حريصًا، ثم ذكر أن الوقت وقت شدة وحاجة فهو وقت تستروح فيه المرضعة القتار، فإذا كانت

(١) استروح: اشتم، والقتار بضم القاف: ريح الشواء.

المرضعة وهي التي يحتال لها ويعتنى بها قد وصل بها الحال إلى أن تشم رائحة الشواء ولا تطعمه، فما بالك بغيرها ؟.. إن ازدياد من بلغ الشيب ندى في هذه الحال أمر يدفع وينكر، ولذا كان القصر بالنفي والاستثناء: «ما زادني الشيب إلا ندى»، دفعًا لهذا الإنكار.

قلت: إن الأصل في النفي والاستثناء أن يستعمل فيما شأنه أن يدفعه المخاطب وينكره ويجهله، وقد يخرج النفي والاستثناء عن هذا الأصل فيستعمل في الأمر المعلوم الذي لا ينكر تنزيلاً له منزلة المجهول المنكر لاعتبارات بلاغية مناسبة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ففي الآية قصر للرسول ﷺ على صفة الرسالة لا يتعداها إلى التبري من الهلاك، فهو رسول يموت ويخلو كما خلت الرسل من قبله، والمخاطبون وهم الصحابة رضي الله عنهم، يعلمون يقينًا أنه ﷺ مقصور على الرسالة ولا يتجاوزها إلى الخلد، فهو غير جامع بين الرسالة والتخليد في الدنيا، ولكنهم لما كانوا متعلقين به -عليه الصلاة والسلام- ويستعظمون موته، ويعدونه أمرًا خطيرًا وحدثًا جليلاً، نزلوا منزلة من ينكر موته، ويعتقد أنه يجمع بين الرسالة والخلد أو التبري من الهلاك فخوطبوا خطاب المنكر.

والسر البلاغي هو تصوير حال الصحابة والإشعار بعظم ذلك الأمر في نفوسهم وشدة حرصهم على بقائه ﷺ بينهم، كما لا يخلو الأمر من عتاب عنيف لهم لعدم مضيهم على وفق ما يعلمون، وما هو راسخ في نفوسهم، ولا يخفي عليك هذا المعنى عندما تقرأ سياق الآية الكريمة: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾، فأنت تشعر بنعمة العتاب والتحذير من الانقلاب على الأعقاب وعدم المضي على ما ثبت في النفوس ورسخ، من إيمان واعتقاد، ولو استعملت «إنما» هنا، لكونها للأمر المعلوم غير المنكر فقيل: إنما محمد رسول يخلو كما خلت الرسل من قبله لما كان هذا المعنى ولما تحققت تلك المزية وهي إبراز حال الصحابة، وتصوير شدة الموقف وما أصابهم من هول.

واقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١٠، ١١].

فالرسل عليهم السلام لا ينكرون أنهم بشر ولا يجهلون ذلك، ولكنهم نزلوا منزلة من ينكر ذلك ويدفعه، فجاء القصر بالنفي والاستثناء: «إن أنتم إلا بشر مثلنا...» لاعتقاد الكفرة أن الرسول لا يكون بشرًا، وإصرار الرسل -عليهم السلام- على دعوى الرسالة، فهم بهذا الإصرار قد أنكروا بشريتهم -في اعتقاد المتكلمين وهم الكفرة- واعتقدوا أنهم ليسوا بشرًا، فكان القصر: «إن أنتم إلا بشر» قصر قلب أي: أنتم بشر لا رسل، بناء على اعتقاد الكفرة الفاسد، التنافي بين الرسالة والبشرية وعدم اجتماعهما، وإيثار التعبير بالنفي والاستثناء في هذا الأمر المعلوم الذي لا ينكره الرسل بتنزيلهم منزلة المنكر، يصور حال الكفرة وما خيم عليهم من جهل واعتقادات فاسدة أعمتهم عن الحق وحالت بينهم وبين قبول الهداية.

أما قول الرسل لهم «إن نحن إلا بشر مثلكم» فمن مجاراة الخصم، للتبكيت والإلزام والإفحام، لأن من عادة من ادعى عليه خصمه الخلاف في أمر لا يخالف فيه ولا ينكر، أن يعيد كلامه على وجهه، كما إذا قال لك من يناظرك: أنت من شأنك كذا، فتقول: نعم أنا من شان كذا ولكن لا يلزمني من أجله ما ظننت أنه يلزم، فكأن الرسل -عليهم السلام- قالوا: إن ما قلتم من أننا بشر مثلكم هو ما قلتم لا ننكره، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الله قد من علينا بالرسالة فالله يمن على من يشاء من عباده.

فقد سلم الرسل بتلك المقدمة: «إن نحن إلا بشر مثلكم» بألفاظها ومعناها وفي هذا ما يؤنس نفوس الكفرة، ويستميلهم نحو الحق والهدى، ولكنه لا يستلزم مقصودهم وهو أن الإنسان لا يرقى إلى أهلية الرسالة، إذ لا منافاة عند الرسل والمؤمنين بين الرسالة والبشرية فليس هنالك ما يمنع من أن يرقى الإنسان ويسمو فيكون من عباد الله الذين اصطفى ويصير أهلاً للرسالة وتلقى الوحي.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝ ﴾ [فاطر: ١٩-٢٣] فقد قصر ﷺ على صفة الإنذار قصر إفراد فهو لا يتجاوز تلك الصفة إلى الجمع بينها وبين صفة الهداية، والرسول عليه الصلاة والسلام يعلم ذلك لا ينكره ولا يجهله، ولكن لما كان عليه الصلاة والسلام شديد الحرص على هداية قومه، ملحًا في توجيه الدعوة إليهم حتى شق على نفسه، نزل منزلة من يعتقد أنه يجمع بين الإنذار والهداية، فجاء القصر بالنفي والاستثناء: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝ ﴾وسر بلاغته تسلية الرسول ﷺ وتصوير حاله وإبراز حرصه على هداية قومه، وإلحاحه في دعوتهم وتبليغهم الرسالة، فقد بلغ في ذلك مبلغًا نزل فيه منزلة من اعتقد أنه يستطيع حمل الناس على الهداية قسرًا.

وسياق الآيات الكريمة يرشد إلى هذا المغزى، فقد بين أنه لا يمكن أن تستوي تلك الأضداد: الظل والحرور- الأعمى والبصير- الظلمات والنور- الأحياء والاموات- ثم صرح بأن الله سبحانه وتعالى يسمع من يشاء، وأنه ﷺ لا يستطيع إسماع من في القبور، فهؤلاء الكفرة قد صاروا في عداد الموتى، والرسول في إجهاد نفسه وبذل كل ما في وسعه وإلحاحه في إسماعهم وهدايتهم كمن يسوي بين الأضداد الأحياء والأموات، وهي ليست سواء، وكمن يحاول إسماع من في القبور، ولا جدوى في إسماعهم، فما عليك يا محمد، إذا لم يقبلوا الهدى، فقد بلغت ونصحت، وأرشدت ووضحت، وما عليك بعد ذلك إذا لم يهتدوا: «إن أنت إلا نذير...».

هذا وقد يرد النفي والاستثناء فيما لا يتصور فيه إنكار مخاطب أو تنزيله منزلة منكر، تأمل قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، تجد أن صفة الألوهية قد قصرت على الله سبحانه وتعالى قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا، وطريق القصر هو النفي والاستثناء، ولا نستطيع القول بأن المخاطب هنا منكر أو منزل منزلة المنكر، كيف ويونس -عليه السلام- يضرع إلى الله عز وجل بهذا الدعاء فلا يتأتى ولا

يعقل فيه مراعاة حال المخاطب -جل وعلا- وإنما التأكيد هنا مرده إلى حال المتكلم وهو يونس -عليه السلام- ومدى انفعاله بالخبر، فقد ألقى الخبر مؤكدًا كما أحس، وكما امتلأت به نفسه، وفاض به ضميره، دون نظر إلى حال مخاطب.

وتأمل قوله: ﴿ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وماذا لو قيل: لا إله إلا أنت سبحانك فأنا من الظالمين، إنه يكون كلامًا ساقطًا، فأنت تشعر عندئذ بخلخلة في السياق وعدم تناسق، مرده إلى التخلي عن التأكيد الذي يبرز قوة الخبر واستقراره في نفس المتكلم.

وانظر إلى قول دريد بن الصمة:

وَهَلْ أَنَا إِلاَّ مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

إنه يفخر بالانتماء إلى قبيلته وقومه، وقد ألقى الخبر مؤكدا ليعبر عن استقراره في نفسه وعن عمق شعوره بهذا الانتماء، ولو حاولت أن تتصور هنا مخاطبًا منكرًا أو منزلاً منزلة المنكر لكنت كمن يحاول المحاول، ويتعسف في القول تعسفا الكلام في غنى عنه.

وبهذا يتضح لك أن حال المخاطب لا يمكن أن يعول عليها دائما في استخدام «النفي والاستثناء» أو في تأكيد الخبر، بل قد ينظر إلى غير المخاطب[١].

***

أما «إنما» فالأصل فيها -كما قلت- أن تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ولا ينكره، فهي أداة هادئة تستعمل في المعاني الواضحة التي لا ينكرها المخاطب ولا يجهلها، وهذا عكس «النفي والاستثناء» الذي يستعمل في المعاني القوية والنبرات الحادة والأمور الغريبة.

وكأن «إنما» أداة همس وتنبيه، يهمس بها المتكلم وينبه مخاطبه إلى تلك الأمور

---

(١) ارجع إلى أضرب الخبر في الجزء الأول من هذا الكتاب.

المعلومة، والمعاني الواضحة، تقول: إنما هو أخوك... إنما هو صاحبك... إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية... إنما يعجل من يخشى الفوت، فتلك أمور معلومة لا يجهلها أحد ولا يدفعها مدافع، والقصر فيها تنبيه للمخاطب وتذكير له بما ينبغي أن يفعله تجاه الأخ والصديق، وما ينبغي أن يفعله تجاه الاتحاد والتضامن، ومبادرة الفرصة... إنها معان واضحة والقصر فيها -كما قلت- تنبيه للمخاطب وتذكير... ولو وضعت «ما وإلا» مكان إنما في تلك الأمثلة لما استقام المعنى؛ لأن النفي والاستثناء تلائمه المعاني القوية الثائرة.

تأمل قولك لصاحبك: أشفق على خالد، وعامله معاملة طيبة، فإنما هو ابن صديقك عمرو، تجد أن القصر بإنما كأنه همس وتنبيه للمخاطب، وتذكير له بتلك الصداقة، وما ينبغي عليه أن يفعله تجاهها، ثم انظر إلى قولك: كيف تؤذي خالدًا وتقسو عليه، وما عهدناك إلا صديقًا حميمًا لأبيه، تجد أن المعنى هنا أقوى حدة وأشد إثارة ولا تشعر فيه بالهدوء الذي لمسته في القول الأول، ولذا لاءمه النفي والاستثناء.

ومن شواهد «إنما» قول المتنبي في مدح كافور الإخشيدي:

إِنَّـمَا أَنْـتَ وَالِـدٌ وَالأَبُ الْقَـا ... طِـعُ أَحْنَـى مِـنْ وَاصِـلِ الأَوْلاَدِ

فالشاعر لم يرد أن يعلم كافورًا أنه بمنزلة الولد، ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام، ولكنه أراد أن يذكره بالأمر المعلوم، ليبني عليه استدعاء ما يوجبه، وليلفته إلى حق الولد على أبيه من العطف والحنان...

ومثله قوله:

إِنَّـمَا تَـنْجَحُ الْـمَقَالَةُ فِي الْـمَرْ ... ءِ إِذَا صَـادَفَتْ هَـوًى فِي الْفُـؤَادِ

وقول أبي تمام:

وَلاَ تُمْكِـنِ الإِخْـلاَقَ منهَـا فَـإِنَّمَا ... يَلَـذُّ لِبَـاسُ الْـبُرْدِ وَهْـوَ جَدِيـدُ

وقول علي بن الجهم:

وَقُلْـنَ لَنَـا نَحْـنُ الأَهِلَّـةُ إِنَّـمَا ... تُـضِيءُ لِـمَنْ يَـسْرِي بِلَيْـلٍ وَلاَ تَقْـرِي

وقول الخطفي جد جرير:

وَفِي الصَّمْتِ سَتْرٌ لِلْغَبِيِّ وَإِنَّمَا صَحِيفَةُ لُبِّ الْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَا

وقول الآخر:

وَمَا الزَّيْنُ فِي ثَوْبٍ تَرَاهُ وَإِنَّمَا يَزِينُ الْفَتَى مَخْبُورُهُ حِينَ يُخْبَرُ
فَإِنْ طُرَّةً رَاقَتْكَ فَانْظُرْ فَرُبَّمَا أَمَرَّ مَذَاقُ الْعُودِ وَالْعُودُ أَخْضَرُ(١)

وغير خاف عليك دخول إنما في تلك الشواهد على معان واضحة معلومة، لا يجهلها المخاطب ولا يدفعها.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٠]، تجد أن الصداقات قد قصرت على كونها للفقراء وما عطف عليهم، لا تتعدى تلك الأصناف إلى غيرها، وهذا أمر معلوم لا يتردد فيه عاقل ولا يدفعه منكر...

وكذا القول في الآيات: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨]، ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ﴾ [التوبة: ٩٣]، ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[الرعد: ٧]، فقد جاء القصر «بإنما» في الآيات الكريمة، لأن المعاني التي استعملت فيها معان واضحة بينة، لا يجهلها المخاطب ولا ينكرها السامع.

وقد تستعمل «إنما» في الأمور التي ينكرها المخاطب ويدفعها تنزيلاً لتلك الأمور منزلة ما لا يجهله المخاطب ولا ينكره، وذلك لغاية بلاغية يقصد إليها ويعمد.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، تجد أن كون هؤلاء المنافقين مصلحين خبر ينكره المخاطب ويدفعه فكان حق القصر أن يكون بالنفي

---

(١) طرة الثوب: شبه علمين يخاطان بجانبي البرد على حاشيته... انظر لسان العرب مادة: طر.

والاستثناءك «إن نحن إلا مصلحون» ولكن النظم الكريم آثر التعبير «بإنما» تنزيلاً لهذا الخبر المنكر منزلة الأمر المعلوم الظاهر، فهم يدعون أن كونهم مصلحين أمر ظاهر من شأنه ألا يجهله المخاطب ولا ينكره، لأنه من الوضوح بمكان.

ولذا جاء الرد عليهم عنيفًا وقاسيًا: «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» فقد بدأ بألا، الاستفتاحية التي تفيد التنبيه وتهيئة الأذهان لما يلقى بعدها، ثم جاء قصر الإفساد عليهم بحيث لا يتعداهم إلى غيرهم، وكأنه ليس على وجه الأرض مفسدون سواهم، وأكد ذلك «بإن»، «ألا إنهم هم المفسدون» ثم جاء هذا الاستدراك ولكن لا يشعرون. الذي بين أن خفاء تلك الحقيقة عليهم مرده إلى فقدانهم الشعور، فهم قوم لا يشعرون، ولو كان عندهم قدر من شعور لأدركوا حقيقة انحصار الفساد فيما بينهم وقصره عليهم.

وانظر إلى قول عبد الله بن قيس الرقيات في مدح مصعب بن الزبير:

إِنَّمَا مُصَعَبٌ شِهَابٌ من الله ... تجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ

فقد وصف مصعبًا بأنه شهاب من الله، وآثر التعبير «بإنما» ليفيد أن كونه موصوفًا بتلك الصفة أمر ظاهر معلوم لا يرتاب فيه مرتاب ولا ينكره أحد وذلك على عادة الشعراء إذا مدحوا، أن يدعوا في كل ما يصفون به ممدوحيهم الجلاء، وأنهم قد شهروا به حتى إنه لا يدفعه أحد...ولذا أنكر عبد الملك بن مروان مدح ابن قيس له بقوله:

يَأْتَلِقُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ ... عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

وقال له: ألست أنت القائل في مصعب: «إنما مصعب شهاب من الله» وكأن عبد الملك قد أحس بما في مدح مصعب من شدة ظهور وصدق إحساس وقوة شعور، وأن ما قاله ابن قيس فيه لا يقارن بما قاله في مصعب، خاصة وأنه قد مدحه بأمر ظاهر محس، لا فخر فيه ومدح مصعبًا بفضيلة من الفضائل النفسية وهي القوة والشجاعة، والمدح إنما يفضل ويحسن بمثل تلك الفضائل النفسية.

***

٥-تحديد موقع المقصور والمقصور عليه

ويختلف موقع المقصور والمقصور عليه باختلاف طريق القصر -كما رأيت- فالمقصور عليه بإنما هو المؤخر دائمًا تقول: إنما أنت جواد، فتقصر مخاطبك على صفة الجود، وإنما الشاعر زهير، فتقصر صفة الشعر على زهير.

والمقصور عليه في التقديم هو المقدم كقولك في قصر الكرم على زيد: زيدًا أكرمت... والمقصور عليه في العطف ببل ولكن هو الواقع بعدهما تقول:ما جاء زيد بل عمرو... ما الشاعر زهير بل عنترة... ما الشجاع حاتم لكن عمرو... فتفيد بذلك قصر المجيء على عمرو، والشعر على عنترة، والشجاعة على عمرو، والمقصور عليه بضمير الفصل أو بتعريف أحد الطرفين بأل الاستغراقية هو الخالي من «أل»، تقول: عمرو هو الجواد، فتقصر صفة الجود على عمرو، وتقول: الشجاع خالد فتقصر صفة الشجاعة على خالد...

أما المقصور عليه في النفي والاستثناء فهو الواقع بعد أداة الاستثناء، ويجوز تقديم المقصور عليه مع أداة الاستثناء. تقول: ما أكرمت إلا زيدًا في قصر إكرامك على زيد، وتقول: ما جئت إلا راكبًا في قصر مجيئك على تلك الحال، وتقول: ما كسوت زيدًا إلا جبة، في قصر الكساء الذي كسوته زيدًا على كونه جبة، وتقول: ما اخترت صديقًا إلا منكم، في قصر اختيارك الصديق على كونه منهم، ولك أن تقول: ما اخترت إلا منكم صديقًا، فتقدم المقصور عليه مع أداة الاستثناء.

ومنه قول السيد الحميري في مدح بني هاشم:

لَو خُيِّرَ الْمِنْبَرُ فِرْسَانَهُ ... مَا اخْتَارَ إِلاَّ مِنْكُمْ فَارِسَا

ولا يجوز أن تقدم المقصور عليه بدون أداة الاستثناء، لأن أداة الاستثناء لو زحزحت من مكانها بتأخيرها عن المقصور عليه أو بتقديمها عنه لاختل المعنى، تأمل قولك: ما اخترت منكم إلا صديقًا: ما اخترت صديقًا إلا منكم... وقولك: ما اختار منكم إلا فارسًا... وما اختار إلا منكم فارسًا تجد المعنى قد تغير وتبدل[(١)].

---

(١) ارجع إلى طريق النفي والاستثناء لتقف على تفصيل القول في ذلك.

فعليك أن تتنبه إلى أن المقصور عليه في طريق النفي والاستثناء هو ما يلي أداة الاستثناء، وأنه لا يقدم إلا حيث تقدمت معه أداته وإلا تغير المعنى واختل المراد من الكلام.

***

جمال التعريض «بإنما»

صرح الشيخ عبد القاهر بأن أفضل مواضع «إنما» هو التعريض، لأنها فيه أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب، فقد علمت أن الحكم الذي تستعمل فيه «إنما» من شأنه أن يكون معلومًا، لا يجهله أحد ولا ينكره منكر، لذلك امتازت عن بقية طرق القصر بأنها تستعمل في كلام لا يكون الغرض منه إفادة الحكم للعلم به، وإنما يكون الغرض التلويح به إلى معنى آخر على سبيل التعريض، تقول: لمن يهمل في مدارسة العلم ولا يجتهد في تحصيله: إنما ينال العلا من اجتهد، فأنت لم ترد أن تعلمه هذا الحكم لوضوحه وظهوره، وإنما قصدت أن تلوح له بإهماله وأنه لن يحقق رغبته في نيل العلا إلا بالجد...

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]، فالمعنى: إنما يتذكر الحق ويعقله أرباب العقول السليمة والفكر السديد، وليس الغرض من الآية أن يعلم السامعون هذا المعنى الظاهر، بل ترمي من وراء ذلك؛ إلى التعريض بذم الكفار، وأنهم من فرط العناد وغلبة الأهواء عليهم، قد صاروا في حكم من ليس بذي عقل، فالذي يطمع منهم في أن ينظروا كمن يطمع في ذلك من غير أولي الألباب.

وتلاحظ أن التعريض بإنما قد جاء بعد مقارنة بين العالم بآيات الله وأمور دينه، وبين الأعمى الذي أعرض عن الحق على الرغم من وضوحه وبيانه، فاستحق ذلك التوبيخ الذي أفاده أسلوب التعريض.

وكذا القول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، فالمعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فكأنه ليس له أذن تسمع ولا قلب يعقل فالإنذار معه كلا إنذار.

ومنه قول العباس بن الأحنف:

كَانَ لِي قَلْبٌ أَعِيشُ بِهِ فَاصْطَلَى بِالنَّارِ فَاحْتَرَقَا
أَنَا لَمْ أُرْزَقْ مَوَدَّتَكُمْ إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رُزِقَا

فإنه تعريض وتلويح بعلمه أنه لا مطمع له في وصلها، لأنه لم يرزق محبتها ولذا يئس من أن يكون منها إسعاف له...

وقوله أيضًا:

يَلُومُ فِي الْحُبِّ مَنْ لَمْ يَدْرِ طَعْمَ هَوىً وإِنَّمَا يَعْذُرُ الْعُشَّاقَ مَنْ عَشِقَا

يريد أن يقول: ينبغي للعاشق ألا ينكر لوم من يلومه، فإنه لا يعلم كنه بلوى العاشق إلا من عشق،ولو كان هذا اللائم قد ابتلي بالعشق مثله، لعرف ما هو فيه، فعذره وما لامه.

وقول محمد بن أحمد العمرواني يمدح عبيد الله بن يحيى بن خاقان:

مَا أَنْتَ بالسَّبَبِ الضَّعِيفِ وَإِنَّمَا نُجْحُ الْأُمُورِ بِقُوَّةِ الْأَسْبَابِ
فَالْيَوْمَ حَاجَتُنَا إِلَيْكَ وإِنَّما يُدْعَى الطَّبِيبُ لِسَاعَةِ الْأَوْصَابِ

يقول في البيت الأول: ينبغي أن أنجح في أمري حين جعلتك السبب إليه، وفي الثاني: إنا قد طلبنا الأمر من جهته حين استعنا بك فيما عرض لنا من الحاجة، وعولنا على فضلك كما أن من يعول على الطبيب فيما يعرض له من السقم يكون قد أصاب في فعله وطلب الأمر من موضعه[1].

هذا والتعريض معنى يفهم من عرض الكلام وجانبه، ويستشف من أطراف المعاني المباشرة بمعرفة السياق وقرائن أحواله، وليس هناك وسيلة نحدد بها أي الأساليب يكون للتعريض وأيها لغيره، فالمعول عليه في ذلك هو سياق الكلام وقرائن الأحوال، وما يفيض به التركيب من معان جانبية وإشارات وإيحاءات...

---

(١) ارجع إلى الإيضاح ٢/ ٢٣.

وقد حاول عبد القاهر تفسير جريان المعنى في أسلوب التعريض، وارتباطه «بإنما» لدلالتها على القصر، حتى إنك لو حذفت «إنما» يسقط المعنى التعريضي، فلو قيل: «يتذكر أولو الألباب» لم يدل هذا القول على التعريض كما دلت عليه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الرعد:١٩] والسبب في ذلك أن التعريض إنما وقع لأن من شأن «إنما» أن الكلام معها يتضمن معنى النفي بعد الإثبات والتصريح بامتناع التذكر ممن لا يعقل، وإذا أسقطت من الكلام فقيل: يتذكر أولو الألباب، كان مجرد وصف لأولي الألباب بأنهم يتذكرون ولم يكن فيه معنى نفي التذكر عمن ليس من أولي الألباب، ومحال أن يقع تعريض بشيء ليس له في الكلام ذكر ولا فيه دليل عليه... ويجوز أن يقع التعريض بقولك: «يتذكر أولو الألباب» بإسقاط «إنما» إذا دل دليل على نفي التذكر عن غيرهم، بأن أردت به مدح إنسان بالتيقظ وبأنه فعل ما فعل وتنبه لما تنبه له لعقله وحسن تمييزه، كما يقال: «كذا يفعل العاقل»، و«هكذا يفعل الكريم»، عند التعريض بغير العاقل وبغير الكريم[١].

---

١) ارجع إلى دلائل الإعجاز ٢٣١.

الفصل السادس
أساليب الإنشاء

تقديم:

وقفت في الجزء الأول من هذا الكتاب على الأسلوب الخبري وأحوال الإسناد الخبري وأحوال أجزاء الجملة من مسند ومسند إليه ومتعلقات الفعل، وعرفت ما يمتاز به هذا الأسلوب.. إنه مبني على الحكاية ويقصد به الإخبار والإعلام بمضمون الجملة الخبرية، وبجانب هذا الأسلوب الخبري، توجد الأساليب الإنشائية التي يقصد بها إنشاء الكلام وإيجاده ابتداء، فليس الهدف منها الإعلام وحكاية الخبر، وإنما هي عبارات تصاغ ابتداء وتنشأ إنشاء ليطلب بها مطلوب، وتمتاز الأساليب الإنشائية بالحث وإثارة الذهن وتنشيط العقل وتحريك المخاطب... ولمزيد من الإيضاح والتفرقة بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي تعالوا ننظر في تلك الشواهد...

يقول الغنوي في رثاء أخيه:

أَخٌ كانَ يَكْفِينِي وَكَانَ يُعِينُنِي ... عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنُوبُ
عَظِيمُ رَمَادِ الْقِدْرِ رَحْبٌ فِنَاؤُهُ ... إلى سَنَدٍ لَمْ تَحْتَجِبْهُ غُيُوبُ
حَلِيفُ النَّدَى يَدْعُو النَّدَى فَيُجِيبُهُ ... سَرِيعًا وَيَدْعُوه النَّدىَ فَيُجِيبُ(١)

عندما تتأمل هذه الأبيات تجد أن الشاعر يحكي عن أخيه ويخبر بأنه كان يأخذ بيده في أوقات الشدة، وكان كريمًا تقصده الضيوف فلا يحتجب عنهم؛ لأن الكرم خلقه وشيمته، فهما حليفان لا يفترق أحدهما عن الآخر، ولا يتخلف عن إجابة دعواه... وهذا الذي يخبر به الغنوي قد يطابق الواقع فيكون صادقًا، وقد يخالفه فيكون كاذبًا...وقارن بين رثاء الغنوي في الأبيات المذكورة، وقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

---

(١) السند: ما ارتفع عن الوادي وسفل عن الجبل، والغيوب مفردها :غيب، والغيب: البطن المنخفض من الأرض... وحليف الندى أي: بينه وبين الندى وهو الكرم حلف وعهد.

أَعَيْنَـــيَّ جُـــودَا وَلاَ تَجْمُــــدَا ... أَلاَ تَبْكِيَـــانِ لِــصَخْرِ النَّـــدَى

أَلاَ تَبْكِيَـــانِ الْـــجَوَادَ الْـــجَمِيلاَ ... أَلاَ تَبْكِيــــانِ الْفَتَـــى الْـــسَّيِّدَا

تجد الأسلوب هنا يختلف، فالخنساء لا تخبر وإنها تنادي وتأمر وتنهى وتسأل، هي تحض عينيها وتحثهما على بكاء صخر، فهذه أساليب إنشائية، وهي وإن كان لها واقع في نفس الخنساء إلا أنه لا يقصد بتلك الأساليب مطابقة هذا الواقع أو مخالفته وإنها يقصد بها إنشاء تلك المعاني...

وكذا القول في قول سعد بن ناشب مناديًا قومه آل رزام:

فَيَـــا لَــــرِزَامٍ رَشِّــحُوا بِي مُقْـــدِمًا ... إِلَى الْـــمَوْتِ خَوَّاضًـــا إِلَيْـــهِ الْكَتَائِبَـــا

وقول المتنبي:

فياليـــتَ طالِعَـــةَ الشَّمْـــسَيْنِ غَائِبَـــةٌ ... ويـــا ليـــتَ غَائِبَـــةَ الشَّمْـــسَينِ لمْ تَغِـــبِ

وقول أبي شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) مادحًا:

لَيْـــتَ الكواكـــبَ تَـــدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَـــا ... عُقُـــودَ مَـــدْحٍ فـــمَا أَرْضَى لكُـــمْ كَلِمـــي

فهؤلاء الشعراء لم يريدوا الإخبار، وإنما قصدوا إلى إنشاء تلك المعاني... ولذا ساغ للبلاغيين أن يقسموا الكلام إلى قسمين:

القسم الأول: الخبر، وقالوا عنه: إنه قول يحتمل الصدق والكذب لذاته، كقولك: جاء زيد... ذهب خالد... نجح عمرو... فتلك أخبار تحتمل الصدق والكذب، وقيدوه بقولهم «لذاته» أي: لذات القول، لينبهوا إلى تلك الأقوال التي لا تحتمل إلا الصدق كأخبار القرآن الكريم والحديث الشريف، وكالأقوال الثابتة نحو السماء فوقنا والأرض تحتنا، والواحد نصف الاثنين، فتلك الأخبار لا تحتمل سوى الصدق ولكن هذا الاحتمال ليس لذات القول، وإنما بالنظر إلى قائله وهو الله تعالى، والرسول عليه الصلاة والسلام، وباعتبار ثبات الأقوال في تلك الأخبار التي تتضمن حقائق ثابتة.

ولينبهوا أيضًا إلى الأخبار التي لا تحتمل إلا الكذب كأقوال مسيلمة الكذاب فمثل هذه الأقوال لا تحتمل إلا الكذب، ليس لذات القول، بل باعتبار من قالها،

ولذا قيدوا احتمال الخبر للصدق والكذب بقولهم «لذاته» أي: بغض النظر عن قائله.

ومرجع احتمال الخبر للصدق والكذب إلى تطابق النسبتين الكلامية والواقعية أو عدم تطابقهما، فقولك: نجح عمرو، له نسبتان كلامية يفيدها النطق بالخبر والإعلام به، وخارجية وهي ما عليه الواقع، فإن تطابقت النسبتان كان الخبر صادقًا وإن تخالفتا كان كاذبًا.

القسم الثاني: الإنشاء: وقد عرفوه بقولهم: «قول لا يحتمل الصدق والكذب»، وذلك لأن أساليب الإنشاء يقصد بها -كما قلت- إلى إنشاء المعاني، وصوغها ابتداء ليطلب بها مطلوبًا معينًا، وهذا لا يعني أن أساليب الإنشاء ليس لها نسبة خارجية حتى ينظر في مطابقتها للنسبة الكلامية فيكون المعنى على الصدق أو عدم مطابقتها فيكون المعنى على الكذب، بل لها نسبة خارجية وهي قيام المعنى الإنشائي من تمن أو أمر أو نهي أو استفهام أو نداء في نفس المتكلم، ولكن ليس المقصود من الجملة الإنشائية الإخبار بمطابقة هذه النسبة للنسبة الكلامية، وإنما المقصود هو إنشاء المعنى وابتداؤه[(١)].

وأنت تستطيع أن تدرك ذلك عندما تتأمل الأسلوب الإنشائي وتقارن بينه وبين الأسلوب الخبري.

انظر إلى قول «الشاعر» السيد أبي الحسن:

وَلي كَبِدٌ مَكْلُومَةٌ مِنْ فِرَاقِكُمْ أُطَامِنُهَا صَبْرًا عَلَى مَا أُجِنَّتِ[(٢)]

وقارنه بقول المتنبي:

فَيَا لَيْتَ مَا بيْنِي وبينَ أَحِبَّتِي مِنَ الْبُعْدِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَصَائِبِ

تجد أن المعنى في البيت الأول مبني على الحكاية والإعلام بالخبر الذي يحدث به عن نفسه ونستطيع أن نقول: إنه صادق فيما يخبر أو كاذب، أما المعنى في البيت

(١) ارجع إلى شروح التلخيص ١/ ١٦٦، وما بعدها.

(٢) هذا البيت أنشده ابن رشيق للسيد أبي الحسن .. و«أُجنت» بيناء الفعل للمفعول: أصابها الجنون.

الثاني فالمراد منه: إنشاء التمني وإيجاد النسبة وإيقاعها دون قصد إلى المطابقة لما في نفس الشاعر أو عدم المطابقة، ولذا تجد المعاني الإنشائية قد ترد في أسلوب الخبر كقولك: غفر الله لك وفرج كربك وأثابك، وكقوله ﷺ: «**لاَ يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»(١).

كما أن المعاني الخبرية قد ترد في أسلوب الإنشاء نحو قوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وكقوله عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(٢)، وسنفصل القول في هذا -إن شاء الله تعالى- فيما بعد.

ولك أن تخبر عن أساليب الإنشاء فتقول: تمنيت لك الخير وأمرت خالدًا بالمعروف، ونهيته عن المنكر واستفهمت عن موعد الاختبار وناديت عمرًا فأقبل إلي، ورجوت لك الخير والصلاح وأقسمت بالله أن أبر والدي.. وعندئذ يأخذ الأسلوب طابع الحكاية والخبر فيكون كلامًا يحتمل الصدق والكذب.

الإنشاء الطلبي وغير الطلبي:

وينقسم الإنشاء إلى قسمين:

١-**إنشاء طلبي**: وهو ما يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب ويشمل أساليب الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء... تأمل قوله تعالى: ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وانظر في قول عمر يوصي ابنه عبد الله رضي الله عنهما: «**يَا بُنَيَّ اتَّقِ اللهَ فَإِنَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ وَقَاهُ وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْه كَفَاهُ وَمَن شَكَرَهُ زَادَهُ**».

ثم تأمل قوله تعالى: ﴿ **يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي** ﴾ [الفجر: ٢٤]، وقوله جل وعلا: ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا** ﴾ [البقرة: ١٤٢].

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ في المدنية رقم ١٨، ١٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم برقم (٣٨/ ١١٠).

وقول شوقي في رثاء حافظ إبراهيم:

مَاذَا حَشَدْتَ مِنَ الدُّمُوعِ لِحَافِظٍ وذَخَرْتَ مِنْ حُزْنٍ لَهُ وَبُكَاءِ

تجد أن هذه الشواهد قد اشتملت على أساليب إنشائية يطلب بها أمر غير حاصل وقت الطلب، فالله عز وجل يأمر نبيه «فاصدع» و«أعرض» والأمر طلب للفعل، وينهاه: «لا تحسبن» والنهي طلب الكف عن الفعل، وعمر ينادي عبد الله: «يا بني»، وفي النداء طب الإقبال، ثم يأمره «اتق الله» بعد أن هيأه بالنداء للإصغاء.

والكافر يتمنى «يا ليتني قدمت» والتمني: طلب المحبوب الذي لا طمع فيه، والسفهاء يسألون «ما ولاهم» وشوقي يستفهم: «ماذا حشدت»والاستفهام: طلب الفهم.

فهذه الأساليب قد طلب بها -كما ترى- أمور غير حاصلة أثناء الطلب، ولذا كان الإنشاء فيها إنشاء طلبيًا، فإذا استعملت تلك الأساليب- الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء في أمور حاصلة وقت الطلب وجب تأويلها بالطلب بحسب القرائن وما يناسب المقام.

تأمل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وقوله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقول عمر السابق: «يا بني اتق الله...» تجد أن التقوى والإيمان المأمور بهما حاصلان وقت الطلب، فالمعنى فيهما على طلب دوام الإيمان واستمرار التقوى.

٢-**إنشاء غير طلبي**: وهو ما لا يستدعي مطلوبًا، وله صيغ كثيرة منها: القسم كقوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وأفعال المدح والذم كقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقوله عز وجل: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٥]، والترجي كما في قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، والتعجب كما في قول الصمة بن عبد الله القشيري:

بِنَفْسِي تِلْكَ الأَرْضُ مَا أَطْيَبَ الرُّبَا وَمَا أَحْسَنَ الْمُصْطَافَ وَالْمُتَرَبَّعَا

الربا: ما ارتفع من الأرض، والمصطاف: مكان المصيف، والمتربع: مكان الربيع، والمعنى أفدي بنفسي تلك الأرض لطيب رباها العجيب وجمال فصليها...

ومنها ألفاظ العقود كقولك: بعت واشتريت، ومنها رب وكم الخبرية لدلالتهما على إنشاء التقليل أو التكثير كما في قول القائل: «رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ» وكما في قوله عز من قائل ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

هذا وقد اهتم البلاغيون بدراسة أساليب الإنشاء الطلبي، وأهملوا دراسة أساليب الإنشاء غير الطلبي، وحجتهم في ذلك أن الإنشاء الطلبي غني بالاعتبارات والملاحظات البلاغية وأن أساليبه وهي الأمر والنهي والتمني والاستفهام والنداء قد ترد ويراد بها غير معانيها، فالأمر لطلب حصول الفعل وقد يرد للتهديد ونحوه والاستفهام لطلب الفهم وقد يرد للإنكار وغيره... وهكذا فتلك الأساليب الطلبية يتولد منها بحسب القرائن والسياق معانٍ بلاغية متعددة.

أما أساليب الإنشاء غير الطلبي فقد أهملوها لأمرين هما:

١-أن أكثر هذه الأساليب في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء.

٢-أنها لا تستعمل إلا في معانيها التي وضعت لها، فالقسم لا يفيد إلا القسم والتعجب لا يرد لغير التعجب.

وهذا لا يعني أن تلك الأساليب خالية من الاعتبارات البلاغية والمزايا الجمالية، بل تكمن وراءها ملاحظات بلاغية واعتبارات دقيقة، انظر إلى أسلوب التعجب في التعبيرات الجيدة تجد وراءه كثيرًا من الدقائق واللطائف، التي يتوهج فيها الإحساس بالأشياء والمعاني.

وتأمل أسلوب القسم في القرآن وتعدد مواقعه واختلاف المقسم به وأجوبة القسم تجد وراء ذلك اعتبارات جديرة بالبحث والدراسة... وهكذا تجد وراء كثير من أساليب الإنشاء غير الطلبية مزايا واعتبارات تستحق الدراسة والتأمل... وسنقوم -إن شاء الله تعالى- بالنظر في تلك الأساليب وتجلية ما وراءها من أسرار واعتبارات في بحث آخر مستقل... أما الآن فإليك أساليب الإنشاء الطلبية.

***

أسلوب الأمر

للأمر صيغ أربع وهي:

١- فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله عز وجل: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[هود: ٣٧].

٢- الفعل المضارع المقرون بلام الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ [الطلاق: ٧]، وقوله عز وجل: ﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ... ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٣- اسم فعل الأمر، نحو: صه بمعنى اسكت، ومه بمعنى: اكفف، وعليك بمعنى الزم، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

٤- المصدر النائب عن فعل الأمر كقوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء: ٣٦]، أي: وأحسنوا بهما، وقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ [محمد: ٤]، أي: فاضربوا الرقاب.

ومنه قول قطري بن الفجاءة.

فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا   فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ

وكقوله عليه الصلاة والسلام: «رِفْقًا بِالْقَوَارِيرِ»(١)، وتقول: سعيًا في الخير وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر ورميًا بالرمح وضربًا بالسيف وحمدًا لله وشكرًا.

وقد قالوا في تحديد مفهوم الأمر: هو طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء حيث يكون من الأعلى إلى الأدنى، فالأعلى يطلب ممن هو دونه حصول الفعل وتحقيقه ويبعثه عليه ويحث، وقد اختلف البلاغيون فيما يستعمل فيه أسلوب الأمر، فيرى بعضهم أنه يستعمل في الوجوب وأن المراد به الإلزام والتكليف،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب برقم (١١٦/ ٦٢١٠).

وبعضهم يرى أنه للندب، وآخرون يرون أنه يستعمل في معنى يشمل الوجوب والندب وهو الطلب على جهة الاستعلاء، ويرى آخرون أنه من الألفاظ المشتركة بين الوجوب والندب فقط، أو بين الوجوب والندب والإباحة، وذلك كاشتراك لفظ الغزالة في الشمس والظبي، والخال في الشامة بخد الحسناء وأخ الأم، فأسلوب الأمر موضوع للمعنيين: الوجوب والندب أو للمعاني الثلاثة: الوجوب والندب والإباحة، أو لمعنى يشملها مثل الإذن(١).

ولهذا وجدنا الخطيب القزويني يحتاط عند تعريفه للأمر حيث قال: «والأظهر أن صيغته من المقترنة باللام نحو: ليحضر زيد، وغيرها نحو: أكرم عمرًا ورويدًا بكرا، موضوعة لطلب الفعل استعلاء لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك وتوقف ماسواه على القرينة»(٢).

فلم يجزم بتعريفه -كما ترى- بل جعله «الأظهر»، ولعل سبب اختلاف البلاغيين في تحديد استعمال أسلوب الأمر، مرده إلى أن صيغ الأمر قد شغلت الدارسين في كثير من المجالات وبخاصة الفقهاء والأصوليين لاتصالها بالوجوب والندب وما إلى ذلك من أحكام فقهية، توجب الحذر في الدراسة والاستنتاج(٣).

والذي أراه أن الأصل في صيغ الأمر أن تستعمل في طلب حصول الفعل على سبيل التكليف والإلزام من الأعلى للأدنى؛ لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند سماعها- كما ذكر الخطيب- وقد تستعمل في غير هذا الأصل الذي وضعت له فتفيد الإباحة أو الدعاء أو التهديد أو التمني أو الحث والإثارة أو الاستمرار والدوام على تحقيق الفعل... إلى غير ذلك من المعاني التي تفيدها صيغ الأمر بمعونة السياق وقرائن الأحوال، وقد اهتم البلاغيون بالحديث عن هذه المعاني وتجليتها والكشف عن دقائقها ومزاياها في التعبيرات.. على نحو ما سنرى الآن.

***

---

(١) انظر شروح التلخيص ٢/ ٣١٠.

(٢) ارجع إلى الإيضاح ٢/ ٥٣.

(٣) انظر دلالات التراكيب ص ٢٦١.

المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر ووجه الدلالة عليها:

الأصل في أسلوب الأمر -كما بينت- طلب حدوث شيء لم يكن حاصلاً وقت الطلب على سبيل التكليف والإلزام من جهة عليا آمرة إلى جهة دنيا مأمورة، وقد يخرج الأمر عن هذا الأصل فيفيد معاني كثيرة يرشد إليها السياق وقرائن الأحوال، وأهم هذه المعاني:

١ -الإباحة:

وذلك عندما تستعمل صيغة الأمر في مقام يتوهم فيه السامع حظر شيء عليه، كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، فليس المراد هنا طلب الفعل استعلاء، ولكن لما كان السامع يتوهم عدم جواز الجمع بين مجالستهما لما كان بينهما من سوء المزاج، أباح المتكلم له مجالسة أيهما شاء فالأمر -كما ترى- يفيد الإباحة، حيث يبيح للسامع أن يجالس أحد العالمين أو كليهما أو لا يجالس، وليس ملزمًا له بفعل شيء...

ومن جميل ذلك قول كثير عزة:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةً   لَدَيْنَا وَلاَ مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ[١]

أي: لا أنت ملومة ولا مقلية، فكثير يبيح لعزة أن تسيء إليه أو تحسن، فهو راض في الحالتين غاية الرضا، وسر جمال هذا التعبير أي: التعبير بصيغة الأمر في مقام الإباحة في هذا البيت أنه يكشف لنا عما أصاب الشاعر من عشق وهيام، فقد وصل به إلى منتهاه، حتى صار يطلب منها الإساءة كما يطلب الإحسان، ويلح في ذلك إلحاحًا، وكأن الإساءة أمر مطلوب مرغوب، فالإنسان عندما يصل به الحب إلى حد الإفراط يصير كل فعل يصدر عن حبيبه لا يراه إلا جمالاً، وبهذا يتضح لك أن استعمال الشاعر لصيغة الأمر في مكان الإباحة يكشف عن مكنون نفسه ويبرز ما بداخله، بأخصر طريق وأجمله.

واستعمال الأمر في معنى الإباحة كثير في آي الذكر الحكيم، من ذلك قوله

---

(١) القلي: البغض والكراهية وفي قوله: تقلت، التفات وحذف للمفعول، والأصل إن تقليتنا فالتفت إلى الغائب وحذف المفعول.

تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فالمراد من الأمر في الآية الكريمة إباحة الأكل والشرب في ليالي رمضان حتى طلوع الفجر، وفي التعبير بصيغة الأمر مكان الإباحة حث على تناول السحور وكأنه أمر مطلوب مرغوب فيه لما فيه من البركة التي نبه إليها النبي ﷺ في قوله: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً»(١).

ومثله قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، ففيه حث على العمل وابتغاء الرزق.

٢-**التخيير**:

ويكون في مقام التخيير بين شيئين أو أشياء بحيث يختار منها السامع ما يميل إليه ويرغب فيه.

كما في قول بشار:

فَعِشْ واحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ ... مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ

فهو يخير مخاطبه بين أمرين: العيش واحدًا منعزلاً أو صلة الإخوان ومخالطتهم مع التجاوز عما يكون منه من إساءات، فتلك لابد منها، على حد قول النابغة الذبياني:

ولَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لاَ تَلُمُّهُ ... عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ

هذا والفرق بين الإباحة والتخيير، أن الإباحة إذن في الفعل وإذن في الترك فهي إذنان معًا، أما التخيير فهو إذن في أحدهما من غير تعيين، ولذا فالتخيير لا يجوز الجمع بين الشيئين والإباحة تجوزه... فالأمر في قولك: تزوج هندًا أو أختها للتخيير ولا يصح أن يكون للإباحة، إذ لا يجوز الجمع بين الأختين.

٢-**التهديد**:

ويكون في مقام عدم الرضا بالمأمور به، كما تسمع من الرئيس يقول لمرءوسه:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم برقم (٢٠/ ١٩٢٣).. والسَّحُور : بفتح السين: ما يتسحر به، وبضمها: مصدر بمعنى: التسحر.. انظر فتح الباري جـ ٢ ص ١٤٠.

افعل ما بدا لك، أو من السيد يقول لعبده: دم على عصيانك فالعصا أمامك، فليس المراد من الأمر في الموضعين الامتثال، أي: فعل ما أمر به، ولكن المراد هو التهديد والوعيد، وكأن الرئيس والسيد يطلبان من المرءوس والعبد أن يخالفاهما وذلك لرغبتهما القوية في إنزال العقوبة بالمرءوس والعبد إن خالفا ولم يمضيا على الطريقة ممتثلين، فإذا ما كانت المخالفة كان العقاب مرًّا والإيذاء شديدًا...

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، فقد أخبر الله عز وجل عنهم أنهم أشركوا به وجعلوا له أندادًا ليضلوا عن سبيله ثم جاء الوعد والتهديد: «تمتعوا فإن مصيركم إلى النار»، فليس المراد بالأمر في الآية «الامتثال»، وكأن الله تبارك وتعالى لما ارتكب هؤلاء ما لا يغفر وهو الشرك، أراد لهم أن يقوى طغيانهم ويشتد إعراضهم ويزدادوا تمتعًا بشهواتهم، فإذا ما تم لهم ذلك كان عقابهم أشد وأقوى، فليس الأمر مرادًا -كما ترى- بل المراد هو الزجر والوعيد حتى يقلع هؤلاء عما هم فيه من عناد ومكابرة.

وتدبر الالتفات من الغيبة في قوله: «جعلوا... ليضلوا» إلى الخطاب في قوله: «تمتعوا فإن مصيركم...» فهو التفات الغاضب المتوعد...

وخذ قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤]، فقد أمر المنافقون بالاستهزاء لا ليمتثلوا بل ليزدادوا نفاقًا على نفاقهم فيكون عقابهم أشد وأعتى، وفي هذا من الزجر والتوعد والتهديد ما فيه، وتجد الالتفات هنا من الغيبة إلى الخطاب، كما في الآية السابقة يفيد شدة الوعيد وقوة الزجر... ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

فليس المراد بالأمر: «اعملوا» أن يمتثلوا فيعملوا ما يشاءون بل المراد الزجر والتهديد حتى يقلعوا عن الإلحاد ويكفوا عن العناد، وكأن الله سبحانه وتعالى -لشدة غضبه عليهم- يأمرهم بما يوجب عقابهم لينكل بهم أشد تنكيل، وهذا هو سر بلاغة التعبير بالأمر في مقام الوعيد والتهديد...

وخذ قوله ﷺ: «**إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»[١]، ثم قارن بينه وبين قوله عليه الصلاة والسلام: «**لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ- فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ-**»[٢]، تجد أن الأمر في الحديث الأول يفيد التهديد والتوعد بدليل قوله: «إذا لم تستحي»، وفي الثاني يفيد التبشير وكمال الرضا عنهم، فالله سبحانه وتعالى قد أقبل إليهم «اطلع»، وفي هذا من التشريف والتكريم ما لا يخفى، وقد أنعم عليهم بالرحمة والغفران، ووجوب الجنة «إني قد غفرت لكم»..«فقد وجبت لكم الجنة» وبهذا يتضح لك ما للسياق وقرائن أحواله فهو الذي يحدد المعنى الذي يفيده أسلوب الأمر، وعد إلى الآيات السابقة فتأمل سياقها وأنعم فيه النظر، وعندئذ فسيتضح لك أن أسلوب الأمر لم يفد ما أفاده إلا بمعونة السياق ومعرفة قرائن الأحوال في الآيات الكريمة.

٤ - **التعجيز:**

ويكون في مقام إظهار عجز من يدعي قدرته على فعل أمر ما وليس في وسعه ذلك. كما في قوله تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٣]، فليس المراد بالأمر في الآية الكريمة التكليف والإلزام بالإتيان بسورة من مثله، وإنما المراد إظهار عجزهم عن الإتيان، لأنهم إن حاولوا ذلك الإتيان بعد سماع صيغة الأمر ولم يمكنهم بدا عجزهم وظهر.

وسر بلاغة التعبير بالأمر في مقام التعجيز إبراز قوة التحدي والتسجيل عليهم ليتعظوا ويقلعوا عما هم فيه من عناد ومكابرة.

ومثله قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة: ١١١]، وقوله عز وجل: ﴿ **الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿ **هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ** ﴾ [لقمان: ١١]، ولا يخفى عليك ما في الآيات الكريمة من قوة التحدي والتسجيل

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب برقم (٧٨/ ٦١٢٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب المغازي برقم (٩/ ٣٩٨٣).

على المخاطب وإبراز عجزه، وفي ذلك لفتهم إلى النظر في حالهم والتفكير فيما هم فيه من عناد ومكابرة وسوء تقدير...

وتأمل قول المهلهل مخاطبًا آل بكر، ومعلنًا شدة غضبه لقتلهم أخاه كليبًا:

يَـا لَبَكْـرٍ أَنْـشِرُوا لِي كُلَيْبًـا ... يَـا لَبَكْـرٍ أَيْـنَ أَيْـنَ الْـفِرَارُ

فهو يهددهم بالويل والثبور ويطلب منهم إعادة كليب إلى الحياة، وإعادة كليب إلى الحياة من المحال، فالأمر في قوله: «أنشروا لي» للتعجيز، وسر بلاغة التعبير بأسلوب الأمر في البيت: إشعارهم بأنه لا منجي لهم ولا مهرب، وأنه آخذ بثأره منهم لا محالة.

وخذ قول الفضل بن يحيى بن خالد:

أروني بَخِـيلاً نَـالَ مجْـدًا بِبُخْلِـهِ ... وهَـاتُوا كَـرِيمًا مَـاتَ مِـنْ كَثْـرَةِ الْبَـذْلِ

فالشاعر يتحدى المخاطبين أن يقفوه على بخيل قد نال مجدًا، أو امتد عمره وطال أجله بسبب بخله[١]، وأن يبرزوا له كريمًا قد مات من كثرة البذل والعطاء، وتشعر بها وراء ذلك من التنفير من البخل، والحث على الكرم والعطاء، فأسلوب الأمر في البيت، أسلوب موح ومقنع، يكشف أمر البخيل حتى يقلع البخلاء عن بخلهم ويبرز فضل الكريم المعطاء فيزداد كرمًا وتطيب نفسه ويقتنع بسلامة منهجه وصحة مسلكه.

ومثله قول الآخر:

أرُوني أُمَّـةً بَلَغَـتْ مُنَاهَـا ... بِغَـيْرِ الْعِلْـمِ أَوْحَـدِّ الْحُـسَامِ

فغير خاف عليك ما وراء الأمر والتحدي من حث على طلب العلم ومكافحة الأعداء حتى ترقى الأمة وتبلغ مناها.

---

(١) يروى البيت برواية أخرى، وهي:

أَرُونِي بَخِـيلًا طَـالَ عُمْـرًا بِبُخْلِـهِ ... وَهَـاتُوا كَـرِيمًا مَـاتَ مِـنْ كَثْـرةِ الْبَـذْلِ

٥-الإهانة والتحقير:

وتكون في مقام عدم الاعتداد بالمخاطب وقلة المبالاة به كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، فالكافر لا يمكنه الذوق، لأنه يعاني غصص العذاب وآلامه ومحنه، وتلك حال لا يستطيع فيها أن يذوق إلا الحميم والغسلين، ولا يخفى عليك ما وراء أسلوب الأمر من الإهانة والتحقير والتهكم والاستهزاء بهؤلاء الذين انحرفوا عن الحق وحادوا عن المنهج القويم وتنبعث تلك السخرية من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾، فهي استعارة تهكمية، إذ لا عزة ولا كرامة، وإنما ذلة ومهانة.

ومثله قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨]، فالأمر بالتبشير في الآية يحمل معنى الإهانة والتحقير لهؤلاء المنافقين.

وتأمل قول ابن أبي عيينة:

فَدَعِ الْوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِي أَطَنِينُ أَجْنِحَةِ الذُّبَابِ يَضِيرُ

فأمره بترك الوعيد يشعر بمدى الحقارة والاستهزاء بهذا الذي يتوعد ويهدد وليس في إمكانه أن يحقق هذا الوعيد، فوعيده طنين كطنين أجنحة الذباب، وأنى لمثل هذا الوعيد أن يضير، بل كيف يتوعد من هذا شأنه.

٦-التسوية:

وتكون في مقام توهم رجحان أحد الأمرين على الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾[التوبة: ٥٣]، أي: يستوي عدم القبول منكم سواء أكانت النفقة صادرة عن طواعية أو عن كراهية، وذلك أنه سبحانه وتعالى قد علم من حالهم عدم الاهتداء، وربما يتوهم المخاطب أن الإنفاق طوعًا مقبول فدفع ذلك بالتسوية بينهما.

ومثله قوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقوله عز وجل: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الإسراء: ١٠٧]، أي: يستوي الصبر وعدمه في عدم النفع وذلك دفعًا لما قد يتوهم من أن الصبر نافع للكفار في عذاب يوم القيامة... وتشعر في الآية الثانية فضلاً عن التسوية

بين الإيمان وعدمه، بمعنى الاحتقار والازدراء وقلة المبالاة، أي: آمنوا أو لا تؤمنوا فقد آمن به من هم أفضل منكم وأعظم، ولذا استوى إيمانكم وعدم إيمانكم.

٧- التمني:

ويكون في مقام طلب الشيء المحبوب الذي لا قدرة للطالب عليه ولا طمع له في حصوله... كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، فقد طلبوا الخروج من النار وهو محال ولا طمع لهم في حصوله ولكنه التمني.

وانظر إلى قول امرئ القيس:

ألاَ أيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ ألاَ انْجَلِي   بِصُبْحٍ ومَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

فالشاعر قد كثرت همومه وتكالبت عليه الشدائد حتى أصابه الأرق وهجره النوم، فهو يتمنى أن ينجلي ذلك الليل، وينأى بظلامه عنه حتى يستقبل الصباح وينعم بضيائه، ثم عاد على ذلك بالنقض فقال: «وما الإصباح منك بأمثل»، فأنت وهو سواء، وإنما طلب انجلاء الليل مع هذا، لأن في تغير الزمن راحة على كل حال... وليس الغرض من صيغة الأمر «انجلي» طلب الانجلاء من الليل، لأن الليل ليس مما يخاطب ويؤمر، وإنما يتمنى الشاعر ذلك تخلصًا مما يعانيه.

وتأمل قول أبي العلاء المعري:

فيَا مَوْتُ زُرْ إنَّ الْحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ   وَيَا نَفْسُ جِدِّي إِنَّ دَهْرَكِ هَازِلُ

فالشاعر قد استعمل صيغة الأمر «زر» وأراد بذلك التمني، لأن الموت لا يقبل أن تطلب منه الزيارة، ولكن أبا العلاء يرى أن الموت قد تأخر تأخرًا مملاً، ولذا تمنى زيارته حتى يلبي تلك الزيارة فقد أصبحت الحياة جحيمًا لا يطاق، والشاعر يتمنى الموت تخلصًا مما يعانيه من قسوتها، تلك نظرة التشاؤم عند أبي العلاء، يفوح بها البيت، وهذا المعنى تراه شائعًا على ألسنة هذا الصنف من الناس أمثال أبي العلاء، فهم يطلبون الموت عند حلول الشدائد والأزمات وتكالب الأحزان، وعدم قدرتهم على تحمل نوائب الدهر ومصائبه، فيتمنون الموت تخلصًا من تلك النوائب..

أما الأمر في الشطر الثاني: « ويا نفس جدي» فهو حث لها وتحريك وإثارة، لمضاعفة الجهد والعمل.

٨- الدعاء:

وهو الطلب على سبيل التضرع والخضوع، ويكون في أسلوب الأمر إذا صدر من الأدنى إلى الأعلى منزلة، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ﴾ [طه: ٢٥- ٣٢]، وقوله عز وجل: ﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقوله جل وعلا: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فالأمر في هذه الآيات الكريمة ونحوها، المراد منه التضرع إلى الله والتوجه إليه والدعاء له، لأن الله جل وعلا لا يأمره أحد من خلقه، وسر التعبير بأسلوب الأمر في مقام الدعاء في الآيات الكريمة هو إظهار كمال الخضوع لله عز وجل وبيان شدة الرغبة في تحقيق تلك الأفعال، حتى كأنها أمور مطلوبة من الله جل وعلا...

وتأمل قول المتنبي يخاطب سيف الدولة:

أزِلْ حَسَدَ الْحُسَّادِ عَنِّي بِكَبْتِهِم   فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَّدَا

وقوله أيضًا:

أخَا الْجُودِ أَعْطِ النَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكُ   وَلاَ تُعْطِيَنَّ النَّاسَ مَا أَنْتَ قَائِلُ

تجد المتنبي يخاطب سيف الدولة بأسلوب الأمر: «أزل... أعط» ولا يريد بالأمر حقيقته من الإلزام والتكليف، لأن الأمير لا يأمره أحد من رعاياه، وإنما أراد المتنبي التوسل والدعاء، وإيثاره أسلوب الأمر يدل على رغبته القوية في تحقيق ما يريد، وكأنه أمر مطلوب من سيف الدولة.

٩- الالتماس:

ويكون عند خطاب من يساويك في الرتبة والمنزلة، والطلب منه على سبيل التلطف وبدون تضرع ولا استعلاء.

على نحو ما ترى في قول امرئ القيس:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فهو يخاطب صاحبيه ويطلب منهما الوقوف في هذا المكان العزيز على نفسه، ليذرفا معه الدمع قضاءً لحق هذه الذكرى الغالية، وهو طلب صاحب من صاحبيه بأسلوب الأمر، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يراد بصيغة الأمر «الالتماس» لا الإلزام والتكليف، لأن خطاب الند نده لا يراد به معنى الإلزام...

ومثله قول كثير:

خَلِيلَيَّ هَذَا رَبْعُ عَزَّةَ فَاعْقِلاَ ... قَلُوصَيْكُمَا ثُمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتِ(١)

فهو يطلب من خليليه أن يقفا معه ساعة في منزل فتاته «عزة» وفاء لها وقياما بحقه من البكاء فيه، لخلوه من ساكنيه.

والتعبير بصيغة الأمر في مقام «الالتماس» يوحي بمدى انفعال الشاعر وسيطرة ذكرياته عليه حتى أنسته كل شيء ما عدا رغبته في تحقيق ذلك الأمر من جميع الرفاق، وكأن البكاء ليس مطلوبًا منه وحده بل مطلوب منهم جميعًا، وأسلوب الأمر لا يكون حسنًا ومقبولاً بين الرفاق إلا إذا كان بينهم تواضع جم وحب شديد؛ ولذا تلاحظ كثيرا يقول: «خليلي»، فهما خليلاه اللذان اصطفاهما وارتضى صحبتهما وألفهما.

١٠ - النصح والإرشاد:

وقد يكون أسلوب الأمر للنصح والإرشاد وذلك إذا تضمن نصيحة لم تكن على وجه الإلزام، كما في قوله تعالى: ﴿ **يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ** ﴾ [لقمان: ١٧]، وقوله عليه الصلاة والسلام لأبي ذر الغفاري ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ**»(٢)، ففي الآية الكريمة يوصي لقمان ابنه بتلك الفضائل وفي الحديث ينصح ﷺ أبا ذر ﷺ

(١) الربع: الحي أو الدار، والقلوص: بفتح القاف: الناقة الشابة، وعقل البعير: قيده.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم: [١٤٢/ ٢٦٢٥]

ينصح ﷺ أبا ذر ﷺ يحثه على أن يتحلى بتلك الخصلة الحميدة، ولا يقال إن الأمر هنا للوجوب إذ المأمور به واجب، لأن المأمور به إنما يكون واجبا إذا وردت تلك الأوامر في مقام الأمر والإلزام من الله عز وجل، أو من النبي ﷺ أما ورودها هنا على لسان لقمان في الآية الكريمة وعلى لسان المصطفى ﷺ في الحديث، فإن المقام يقتضي أن تكون للنصح والإرشاد.. ولا يتناقض النصح والإرشاد مع الوجوب، فالمنصوح يجب عليه أن ينهض بتلك الأوامر وأن يمتثلها، إذ الواجب ينصح به ويرشد إليه.

ومن هذا القبيل تلك الأوامر التي ترد على ألسنة الوعاظ والمرشدين والموجهين، فهم يريدون منها النصح والإرشاد، وأن يعبروا عما يضمرونه من حب وإخلاص لأتباعهم، وهذا هو سر التعبير بأسلوب الأمر في مقام الإرشاد والنصح.

١١-الإكرام:

كما في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر: ٤٦]، فقد قالوا في معناه: إنهم لما صاروا في الجنات فإذا ما انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول إلى التي أرادوا الانتقال إليها: «ادخلوها» إكرامًا لهم وحفاوة بهم ورفعًا من شأنهم وإعلاءً لمنزلتهم(١)، فأسلوب الأمر في الآية مراد به الإكرام للمؤمنين وهذا شائع بين الناس، فإنك تقول لضيفك وهو مستمر في الأكل والشرب: كل واشرب، وقد تقسم عليه أن يأكل ولا تقصد إلا زيادة إكرامه وأن تصور ما في خلجات نفسك من حب له وسرور به.

١٢-وقد يأتي الأمر لتصوير حال المتكلم والدلالة على ما هو فيه من الحيرة والتخبط، كما في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٥٠]، فأصحاب النار يعلمون يقينًا أن ما في الجنة محرم عليهم، ولكنهم لفرط ما هم فيه من هول وعذاب، كأنهم قد فقدوا عقولهم فصاروا يطلبون ما لا سبيل إلى تحقيقه.

---

(١) انظر روح المعاني ج ١٤ ص ٥٧.

ومثله قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وقوله عز وجل: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧]، وكأن الكافر لما حضره ملك الموت وأبصر زبانية العذاب أصابه الهول فصار يطلب ما لا سبيل إلى تحقيقه، ولا يدري ماذا يقول، وكذا في الآية الثانية، كأن الأشقياء لشدة ما ذاقوا من العذاب في جهنم أصبحوا في حيرة وتخبط فصاروا يطلبون ويتمنون ما لا سبيل إلى تحقيقه.

١٣- وقد يأتي الأمر للإثارة والإلهاب والتهييج وذلك عندما يوجه إلى المأمور الواقع منه الفعل، والذي لا يتصور أن يكون منه خلافه، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [الأحزاب: ١]، وقوله عز وجل: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢]، وقوله جل وعلا: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [الروم: ٣٠]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي يوجه فيها الأمر بما هو حاصل أو النهي عن غير الحاصل إلى الرسول ﷺ، فإن الغرض من الأمر أو النهي عندئذ هو الإثارة والتهييج والإلهاب حتى يزداد المخاطب تمسكًا بما هو عليه من الحق واليقين ويستمر ويداوم، ولذا قالوا: إن التعبير بالأمر في مثل هذه الآيات وكذا النهي، يفيدان طلب الدوام والاستمرار، أي: طلب دوام التقوى والاستقامة والابتعاد عن الكفار وعن الطغيان...

ونرى أن أسلوب الأمر والنهي الموجهين إلى الرسول ﷺ في مثل هذه الآيات يفيدان بالإضافة لما سبق، الإشارة إلى بسط سلطان الربوبية وتفردها بالأمر والنهي وأن البشرية في أسمى صورها وأعلى منازلها، وهي النبوة تؤمر وتنهي، وهذا تعميق للفرق بين الألوهية والنبوة، وهو ما حرص الإسلام على إبرازه وتقريره، حتى لا يتطرق إلى عقيدة الوحدانية عند هذه الأمة، ما تطرق إليها عند الأمم السابقة، فقد قالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، ولهذا كان أسلوب الأمر أو النهي الموجه إلى النبي ﷺ في مثل هذه الآيات «استقم -اتق الله- لا تطع-

لا تكونن من المشركين» مشيرًا إلى أن محمدًا ﷺ وهو الذي ما خلق الله ولا ذرأ ولا برأ نفسا أكرم عليه منه، إنما هو بشر يؤمر وينهى ويحذر ويتوعد: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٦] وبذا يظل للألوهية سلطانها القاهر المهيمن وتقف النبوة عند منزلتها السامية التي مهما سمت لا ترقى إلى مرتبة الألوهية[1].

١٤-وقد يأتي الأمر تصويرًا للحدث وبيانًا لكيفية وقوعه انقيادًا لقدرة الله تعالى، كما في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقوله جل وعلا: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾[البقرة: ٢٤٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فالأمر في الآيات الكريمة: «ائتيا -موتوا- كن» يصور حال الحدوث وسرعة وقوعه وانقياده لأمر الله تعالى... وفي هذا من الدلالة على القدرة البالغة ما لا يخفى على صاحب الذوق الرفيع، وتأمل ما في الآيات من أمر يعقبه استجابة سريعة، ثم قارن بينه وبين أن تقول: فأماتهم الله ثم أحياهم، إنما أمره إذا أراد شيئا يكون... فأمرهما بالطاعة فأطاعتا.. فستجد أن تصوير الحدث وبيان كيفية وقوعه وانقياده الخاطف لقدرة الله عز وجل، قد ولى وذهب، في هذه الأقوال.

١٥-وقد يأتي الأمر بالفعل مرادًا به الحث على الاتصاف بصفة معينة، كما في قولك: مت وأنت كريم... مت وأنت تقي... صل وأنت خاشع... واقرأ وأنت يقظ، فأنت في هذه الأقوال لا تريد أمره بالموت ولا الصلاة ولا القراءة وإنما تريد أن تحثه على تلك الصفات المذكورة وهي الكرم والتقوى والخشوع واليقظة، وأن يحافظ ويستمر على الاتصاف بها، ويحرص على ذلك طوال حياته فهذا هو الأولى به واللائق بأمثاله من الكرماء الأتقياء.

ومثل الأمر في ذلك أسلوب النهي تقول: لا تصل إلا وأنت خاشع... لا تمت إلا وأنت كريم، ومرادك من هذا النهي: أن تحثه على الخشوع والكرم، لا نهيه عن

---

(١) انظر من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ص ٩

الصلاة والموت... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، فالمراد حثهم على التمسك بالإسلام وألا يكونوا على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، أي: حثهم على أن يستمروا طوال حياتهم متمسكين بالإسلام محافظين عليه فإذا ما جاءهم الموت- وهو لا يأتي إلا بغتة- ماتوا وهم مسلمون.

١٦-وقد يرد الأمر ولا يراد به مأمور معين وإنما يراد به كل من يتأتى منه الخطاب، كما في قوله -عليه الصلاة والسلام- «بَشِّرِ الْـمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْـمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١)، لا يريد ﷺ مخاطبًا معينًا، وإنما أراد عموم الأمر، حتى كأن كل فرد من أفراد الأمة مبشر لهؤلاء، وفي هذا تكريم للمشائين إلى المساجد وتنويه بشأنهم وبرضا الله تعالى عنهم وتجليه عليهم بالرحمة والغفران والنور التام... إلى غير ذلك من الأغراض والمعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر، فهي كثيرة يطول حصرها، وما نريده الآن هو أن نقف على وجه دلالة أسلوب الأمر على تلك المعاني.

وجه دلالة أسلوب الأمر على معانيه البلاغية

قال كثير من البلاغيين: إن هذه المعاني التي يفيدها أسلوب الأمر معان مجازية بمعنى أن الأسلوب قد انتقل من الدلالة على الأمر إلى إفادة تلك المعاني، وكل مجاز لابد فيه من علاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي، وقد خاض البلاغيون وجدوا في التماس تلك العلاقات، فالعلاقة بين الأمر والإباحة هي الإطلاق والتقييد، لأن الأمر إذن مقيد، والإباحة لمطلق الإذن، فاستعمال الأمر في الإباحة مجاز مرسل، ويجوز أن تكون العلاقة: التضاد، لأن إباحة كل من الفعل والترك تضاد الإيجاب... والعلاقة بين الأمر والتهديد: شبه التضاد وبين الأمر والإهانة: اللزوم... وهكذا(٢).

---

(١) رواه الترمذي في الصلاة برقم (٥١/ ٢٢٣). وابن ماجه في المساجد برقم (١٤/ ٧٨١)

(٢) ارجع إلى هذه العلاقات في شروح التلخيص جـ٢ ص ٣١٣، وما بعدها.

وبعضهم يجعل استعمال الأمر في تلك المعاني من قبيل الكناية، وبعضهم يجعله من قبيل مستتبعات الكلام... وكذا القول في المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي أو أساليب الاستفهام الآتي بيانها.

والذي نراه أن دلالة الأمر وكذا النهي والاستفهام على تلك المعاني من مستتبعات الكلام، وهذا ما ذهب إليه أصحاب الرأي الثالث، ومعنى مستتبعات الكلام: أن السياق وقرائن الأحوال هي التي تحدد تلك المعاني المرادة، وأنه لا داعي للخوض في التماس علاقات واهية بين تلك المعاني وبين أساليب الأمر والنهي والاستفهام، لأنه على الرغم من وهن هذه العلاقات فإنه لا فائدة للدرس البلاغي وراءها، فالأولى أن تصرف الهمم وأن توجه الأذهان إلى معرفة المزايا والأسرار الكامنة وراء استعمال الأساليب الإنشائية في الدلالة على هذه المعاني، والوقوف عليها من خلال سياقات الكلام ومعرفة قرائن أحواله، لا أن تبدد في اللهث وراء التقاط علاقات لا تنمى ذوقًا ولا تفيد شيئًا.

تأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقوله ﷺ: «**لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الجَنَّةَ أَوْ- فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»(١).. وقوله ﷺ: «**إذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»(٢) تجد أن أسلوب الأمر واحد «اعملوا ما شئتم- اصنع ما شئت»، وعلى الرغم من ذلك اختلفت دلالته، وهذا الاختلاف مرده إلى السياق ووقوفنا على مرمى الكلام ومغزى الحديث، فالآية تتحدث عن الكفرة الذين يلحدون في آيات الله وتبين أنهم لا يخفون عليه تعالى، فهو عليم بهم ومصيرهم إلى النار، فليعملوا ما شاءوا، الأمر كما ترى ينبئ بالوعيد والتهديد الشديدين، وكذا الحديث الثاني يتحدث عن الذي لا يستحيي من الله تعالى، فقوله ﷺ في خطابه: «اصنع ما شئت» إنما هو وعيد وتهديد وزجر وتحذير... أما الحديث الأول فإنه يتحدث عن هؤلاء الذين رضي الله عنهم ورضوا

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي برقم (٩/ ٣٩٨٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب برقم (٧٨/ ٦١٢٠)

عنه إنهم أهل بدر، وقول الله تعالى لهم: «اعملوا ماشئتم» إنما هو وعد ورضا ونعيم ورضوان.

مثل هذا هو الذي ينبغي أن تكرث الجهود لمعرفته والإحاطة به فهو الذي ينمي الأذواق ويصقل الأذهان ويقف الدارس من خلال تأمله وتدبره، على خبايا التراكيب وأسرارها، ومزاياها الجمالية.

أما أن يشغل الدارس بمعرفة أن استعمال الأمر في مقام التهديد مجاز مرسل علاقته ما بين الطلب والتهديد من شبه التضاد، إذ المأمور به إما واجب أو مندوب والمهدد عليه إما حرام أو مكروه، وأن شبه التضاد هو الذي جوز استعمال الطلب مكان التوعد والتهديد استعمالاً مجازيًا، فهذا ما أرى أنه لا فائدة من معرفته ولا ثمرة من الوقوف عليه، ولذا ينبغي أن يكون عن البلاغة بمعزل.

ومن أجل هذا فضلت القول بأن دلالة أساليب الإنشاء على معانيها البلاغية من مستتبعات التراكيب، وأن الواجب على الدارس أن يجد في تذوق تلك المستتبعات التي هي سياق الكلام وقرائن أحواله وأن يقف على أسرارها ودقائقها، ومن خلال ذلك يصل إلى المعاني البلاغية التي تفيدها تلك الأساليب.

***

أسلوب النهي

هو كل أسلوب يطلب به الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام، فيكون من جهة عليا ناهية إلى جهة دنيا منهية، وله صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بلا الناهية كقولك: لا تصاحب الأشرار، لا تفعل السوء، لا تكف عن البذل والعطاء.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقوله عز من قائل: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فقد أفاد النهي في الآيات الكريمة طلب الكف عن قتل الأولاد وعن الإفساد في الأرض وعن اقتراب حدود الله، وصيغته كما ترى هي المضارع المقرون «بلا» الناهية.

المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي:

والذي تهتم به الدراسات البلاغية ليس هو طلب الكف عن الفعل وهو المعنى الأصلي لتلك الصيغة، وإنما تهتم بما وراء ذلك من معان بلاغية يفيدها أسلوب النهي، وأهم هذه المعاني:

١- الدعاء: وذلك عندما تكون تلك الصيغة صادرة من الأدنى إلى الأعلى، كما في قوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ** ﴾[البقرة: ٢٨٦]، فالمقام مقام ضراعة، وخضوع، والمؤمنون يبتهلون إلى الله تعالى بهذا الأسلوب على سبيل التضرع والتذلل، فالمقصود منه الدعاء والابتهال، وسر التعبير بصيغة النهي في مقام «الدعاء» في الآية الكريمة، هو بيان رغبة هؤلاء المؤمنين في أن يتجلى الله عليهم بالرحمة والغفران وإظهار كمال ضراعتهم وتذللهم إلى الله جل وعلا.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** ﴾ [آل عمران: ٨]، وقوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ** ﴾[آل عمران: ١٩٤]، إلى غير ذلك من الآيات التي يتضرع فيها المؤمن إلى الله عز وجل داعيا وراجيا بهذا الأسلوب الذي يصور صدق رغبته وشدة حرصه على أن يحقق الله له دعاءه ويجيب طلبه.

٢- الالتماس: وذلك إذا كان النهي من المساوي والند بدون استعلاء ولا خضوع وتذلل، كقولك: لنظيرك: لاتفعل هذا، لا تؤذ ضعيفًا، لا تهن مسلمًا، ومنه قوله تعالى على لسان هارون يخاطب أخاه موسى -عليهما السلام- ﴿ **قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي** ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه: ٩٤]، فالنهي في قوله: «لا تأخذ» المراد به: «الالتماس»؛ لأنه ليس فيه استعلاء وإلزام، ولا تذلل وخضوع حيث وجه من هارون إلى موسى عليهما السلام وهما متساويان في الرتبة والمنزلة فهو يلتمس منه بهذا النهي، عدم إنزال العقوبة به، فقد خشي إن خرج عليهم أن يتفرقوا.

وفي إيثار التعبير بنسبته إلى الأم «يا ابن أم» على الرغم من كونه أخاه لأبيه وأمه: استعطاف لموسى وترقيق لقلبه، والسر البلاغي وراء التعبير بصيغة النهي في

مقام الالتماس، في الآية الكريمة، هو إظهار حرص هارون على ترقيق قلب أخيه، ورغبته القوية الأصيلة في العفو والتسامح فقد كان له عذر...

ومنه قول المتنبي في سيف الدولة.

فَلا تُبْلِغاهُ مَا أَقُولُ فَإِنَّهُ شُجَاعٌ مَتَى يُذْكَرْ لَهُ الطَّعْنُ يَشْتَقِ

فهو يلتمس من صاحبيه أن يكتما عن سيف الدولة ما يقوله في وصف شجاعته وحسن بلائه في الحروب، وقد عبر بأسلوب النهي في هذا المقام، مقام الالتماس، إظهارًا لشدة حرصه على كتمان هذا الأمر عن سيف الدولة، وفي ذلك ما فيه من تهويل وتفخيم لشجاعته وقوة فتكه بأعدائه.

ومنه قول ابن الدمينة:

خَلِيلَيَّ مِنْ بَيْنِ الأَخِلاَّءِ لاَ تَكُنْ حِبَالُكُمَا أُنْشُوطَةً مِنْ حِبَالِيَا[١]

فهو يلتمس من خليليه الأثيرين عنده المحببين إلى نفسه ألا تكون مودتهما وصلتهما ضعيفة واهية، وقد عبر بأسلوب النهي إبرازًا لشدة رغبته في أن يتحقق له ما يريده من قوة الصلة ودوام المودة وتلاحم الروابط بينه وبينهما.

٣-النصح والإرشاد: كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠١]، فليس المراد بالنهي عن السؤال في الآية الكريمة: الإلزام وطلب الكف، وإنما أريد به النصح والإرشاد، وقد جاء بصيغة النهي رغبة في الاستجابة والامتثال.

ومنه قول أبي العلاء:

ولاَ تَجْلِسْ إِلَى أَهْلِ الدَّنَايَا فَإِنَّ خَلاَئِقَ السُّفَهَاءِ تُعْدِي[٢]

فهو ينصح مخاطبه ويرشده إلى الابتعاد عن السفهاء وأهل الدنايا، وقد عبر بصيغة النهي لبيان رغبته وحرصه على أن يمتثل المخاطب ويستجيب لنصحه وإرشاده.

---

(١) أنشوطة: واهية ضعيفة غير وثيقة العقد.

(٢) الدنايا: جمع دنية وهي العيب والنقيصة، والمراد: بتعدي: تنتقل إلى من يجالسهم.

٤-الحث على الفعل...

كما في قول الخنساء:

أَعَيْنَيَّ جُودَا وَلاَ تَجْمُدَا ... أَلاَ تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى

فهي تحث عينيها على البكاء وأن تجودا بالدمع وتنهملا وألا تبخلا به، فإنهما تبكيان صخر الندى، والتعبير بالأمر والنهي في هذا المقام يظهر شدة حزنها ورغبتها القوية في أن يتحقق ما تريده فتفيض عيناها بالبكاء وفاء لحق هذا المقام.

ومنه قول إسماعيل صبري:

لا تَقْرَبُوا النِّيلَ إنْ لَمْ تَعْمَلُوا عَمَلاً ... فَمَاؤُهُ الْعَذْبُ لَمْ يُخْلَقْ لِكَسْلاَنَ

فهو ينهي المصريين عن الشرب من ماء النيل إذا لم يقدموا عملاً عظيمًا يصبحون به جديرين أن يشربوا ماءه، والغرض من النهي هو الحث على التقدم والتفاني في سبيل رفعة مصر.

وإيثار التعبير بالنهي في مقام الحث في البيت، يبرز حب الشاعر لمصر ويظهر عاطفته القوية نحو تقدمها ورقيها، فهو يرى أنه لا يستحق الحياة من لا يعمل لرفعة وطنه ويبذل جهده لتقدمه وازدهاره.

٥-التمني:

كما في قول الشاعر:

يَالَيْلُ طُلْ يانَوْمُ زُلْ ... يَاصُبْحُ قِفْ لاَ تَطْلُعِ

فهو يتمنى أن يمتد الليل ويطول، وأن يذهب النوم ويزول، وألا يطلع النهار، وذلك حتى يطول اجتماعه بحبيبته والتحدث إليها، ووقوف الصبح وعدم طلوعه من المحال، ولكن الشاعر لرغبته الشديدة في أن يطول الليل خيل إليه أن توقف الصبح وعدم طلوعه أمر ممكن، فأمره بالوقوف: «قف» ونهاه عن الطلوع: «لا تطلع» ومراده بهذا: التمني ورغبته القوية في الاجتماع بحبيبته والتمتع بحديثها.

٦-التحقير والإهانة: كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فالأمر والنهي في الآية الكريمة يحملان معنى الإهانة والتحقير

لهؤلاء الذين غلبت عليهم شقوتهم في الدنيا وكانوا قومًا ضالين، ثم جاءوا يوم القيامة يتمنون الخروج من جهنم ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾[المؤمنون: ١٠٧]، فكانت تلك الإهانة ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

ومنه قول الحطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر:

دَعِ الْمَكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

فالمراد بالأمر: «دع واقعد» والنهي: «لا ترحل» تحقير المخاطب وإهانته وإظهار أنه ليس أهلاً للكفاح من أجل المكارم والمعالي، فعليه أن يقعد وسيأتيه طعامه وكساؤه ممن يحسنون ويتصدقون عليه وعلى أمثاله.

٧-التوبيخ:

كما في قول أبي الأسود الدؤلي:

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

فالمراد بأسلوب النهي: «لا تنه عن خلق وتأتي مثله»: توبيخ من ينهي الناس عن الشر والسوء ولا ينتهي هو عنه.

ومثله قول أبو الصوفي سعيد بن مسلم المجيزي:

لاَ يُدْرِكُ الْمَجْدَ مَنْ لاَنَتْ مآكِلُهُ ... لاَ تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ

لَنْ تَبْلُغَ الْمَجدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَا

فالنهي في قوله: «لا تحسب» المراد منه توبيخ من يتقاعد ويتكاسل وهو يطمع في تحصيل المجد، وفي نفس الوقت فيه حث على العمل والجد لنيل العلا وتحقيق المجد.

٨-التهديد: كقول الرئيس لمرءوسه: لا تطع أمري... لا تقلع عن عنادك، فهو لا يطلب منه ترك الامتثال لأوامره وإنما يهدده ويتوعده...

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، فليس المراد نهيهم عن الاعتذار والتوبة، وإنما المراد التهديد والتحذير حتى يقلعوا عن غيهم وعنادهم ويسلكوا مسلك الحق والهدى.

٩-التيئيس: كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التحريم: ٧]، فلا معنى لنهيهم عن الاعتذار في ذلك اليوم، وإنما هو التيئيس وإعلامهم أنه لن يقبل منهم ولن يلتفت إليهم، فليس أمامهم إلا الجزاء على كفرهم وضلالهم...

ومنه قول المتنبي في مدح سيف الدولة:

لا تَطْلُبَنَّ كَرِيمًا بَعْدَ رُؤْيَتِهِ ... إِنَّ الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدًا خُتِمُوا

فقد أراد بالنهي: «لا تطلبن» تيئيس المخاطب من أن يصل إلى كريم بعد أن رأى سيف الدولة ونال كرمه، فسيف الدولة أكرم الكرماء، وأسخى الأسخياء، وقد ختم به الكرام، ومهما حاول المخاطب أن يعثر على كريم مثله فلن يفلح، وفي هذا من المبالغة في كرم سيف الدولة وكثرة عطائه ما ترى.

١٠-التفظيع والتهويل: كقولك: لا تسأل عن فلان وقاك الله شر ما أصيب به... تريد أن فلانًا هذا قد ألمت به الشدائد وأحاطت به المصائب التي لا توصف لشدتها وهولها وفظاعتها، فليس المراد بأسلوب النهي: «لا تسأل» طلب الكف عن السؤال عنه، وإنما أريد به التهويل وتفظيع ما ألم به، كأن المتكلم لا يستطيع وصفه، أو كأن المخاطب لا يطيق سماعه أو كأن المتحدث مشفق على مخاطبه فلا يريد إساءته بإسماعه تلك الأهوال...

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلْ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [البقرة: ١١٩]، في قراءة من قرأ بالنهي وجزم المضارع، أي: لا تسأل عن فرط ما هم فيه من العذاب وما آل إليه أمرهم من النكال، فإنه لا يستطيع أحد أن يصف لك هول ما هم فيه، أو لا تستطيع أنت سماعه لفظاعته وشناعته... وقد يكون التهويل في النعيم والخير، كأن تقول: «لا تسأل عن فلان»، وتريد بذلك فلانا الذي حل به من الخير والنعيم ما لا يوصف لكثرته ووفرته.

١١-وقد ينهى عن الفعل مقيدًا بقيد أو موصوفًا بوصف، ولا يكون الغرض: النهي عن الفعل في هذه الحال بل النهي عن الفعل مطلقًا، ويكون القيد أو الوصف عندئذ للمبالغة في التنفير والتحذير كقولك: لا تضيِّع دينك بكسرة خبز... لا تضيع

حق جارك الصالح... لا تريد النهي عن ضياع الدين في هذه الحال، أو عن ضياع حقوق الجار الصالح فقط، وكأنك تبيح له أن يضيع دينه إذا غلا ثمنه، وأن يضيع حقوق جاره غير الصالح، وإنما تريد حثه على التمسك بدينه، وحفظ حقوق جاره مطلقًا. وقد قيدت التضييع بكسرة الخبز ووصفت الجار بالصلاح، لأن في ذلك مزيدًا من التنفير والتقبيح، والمخاطب عندئذ يكون أكثر استجابة وأسرع انقيادًا...

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وقوله عز وجل: ﴿ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[النور: ٣٤]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝ ﴾[النساء: ٢]، وقوله عز من قائل: ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ﴾ [النساء: ٦]، فالأفعال المنهي عنها في الآيات الكريمة قد قيدت بقيود من شأنها أن تبعث على التنفير وأن تبرز فظاعة تلك الأفعال وشناعتها، وليس المراد النهي عن الأفعال المذكورة في الحال التي قيدت بها فقط دون ما عداها، وإنما المراد النهي المطلق، وقد جيء بالقيد للتبشيع والتنفير كما قلت.

انظر إلى آية النهي عن الربا، تجد هذا النهي قد قيد بكونه أضعافًا مضاعفة، والمراد النهي عن أكل الربا مضاعفًا وغير مضاعف، ولكنه جيء بهذا القيد تبشيعًا للصورة وتنفيرًا للنفوس.

وتأمل آية النهي عن البغاء، وانظر كيف اختير الإكراه لينهى عنه: «لا تكرهوا»، والمراد هو النهي عن البغاء سواء أكان عن طريق إكراه الفتيات أو بإقبالهن طواعية، ثم جيء بهذا القيد: «إن أردن تحصنا»، والفتاة لا تكره على البغاء إلا إن أرادت التحصن والتعفف، وكأن القيد تأكيد للإكراه المنهي عنه، وفي هذا مزيد من التفظيع والتنفير، وتصوير الصورة في أبشع صورها، فتاة تعففت وتحصنت وسيد يكرهها على البغاء على الرغم من عفافها وتحصنها، تلك هي الصورة المنهي عنها، وهي صورة تستبشعها النفوس، وتستفظعها وتنفر منها، والمراد -كما قلت- هو النهي عن البغاء مطلقًا.

وتأمل الآيات التي تناولت تحريم أموال اليتامى في القرآن تجد أن هذا

التحريم قد قيد بالأكل: «لا تأكلوا» ولا يعني ذلك أنه يجوز الاستيلاء على مال اليتيم واستخدامه في غير الأكل كالملبس والمشرب والمسكن ونحو ذلك، وإنما المراد النهي عن الاعتداء على أموال اليتامى بأي وجه من وجوه الاعتداء، ولكن لما كان العربي يتذمم بملء البطن وكثرة الأكل ويعد ذلك من البهيمية، فقد أوثر التعبير بالأكل تفظيعًا وتنفيرًا.

وهكذا تجد الآيات التي تتناول تحريم الاعتداء على أموال الغير... انظر: «ولا تأكلوا الربا»... «لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»... «لا تأكلوا مال اليتيم» فالتعبير بالأكل فيها يفيد التفظيع والتنفير، والمراد هو النهي عن الاعتداء على أموال الغير بأي وجه من الوجوه.

وعد إلى آيتي أموال اليتامى المذكورتين، «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم...»، «ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا» تجد أن هذين القيدين: «إلى أموالكم»، و«إسرافا وبدارا أن يكبروا»، قد جيء بهما لزيادة التنفير وإبراز الصورة -صورة الاعتداء على مال اليتيم- في أبشع الصور وأفظعها، هذا غني يضم أموال اليتامى إلى أمواله طمعًا وجشعًا وذاك يسرف ويبادر خشية أن يكبر اليتيم فيأخذ منه ماله.

ومما جاء على هذه الطريقة في أسلوب الأمر قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ [النساء: ٨]، فذوو القربى ممن لا يرثون وكذا اليتامى والمساكين يعطون قدرًا من الميراث على سبيل الندب وإرضاء النفس لا على سبيل الوجوب -وهذا مما تهاونت به الناس ولم يلتفتوا إليه- وهذا القدر يعطى للقريب غير الوارث وللمسكين واليتيم سواء أحضروا القسمة أم لم يحضروا، وقد قيد الأمر: «فارزقوهم» بحضور القسمة ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ ﴾ ليكون ذلك أبعث على العطاء، ودافعًا أقوى لترضية ذوي القربى غير الوارثين واليتامى والمساكين وإسعافهم والقول لهم قولاً معروفًا[١].

❊❊❊

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٢٧٦.

أساليب الاستفهام

تقديم:

الهمزة والسين والتاء إذا زيدت في الفعل الثلاثي، أفادت معنى الطلب، يقال: استزاد أي: طلب الزيادة، واستغفر: طلب المغفرة، واستفهم: طلب الفهم، فالاستفهام معناه طلب الفهم، ولذا قالوا في تعريفه: الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل بأدوات خاصة.

وهذه الأدوات هي: الهمزة وهل، ومن، وما، وكيف، وكم، وأين، وأيان، ومتى، وأنى، وأي... وقد عرفت أن الجملة الخبرية التي تدخل عليها هذه الأدوات تتكون من أجزاء هي المسند والمسند إليه وأحد المتعلقات، وبضم هذه الأجزاء وإسناد بعضها إلى بعض تتكون الجملة التي تفيد حكمًا معينًا بهذا الضم أو بذاك الإسناد...

وعندما تدخل هذه الأدوات على الجملة الخبرية يكون الاستفهام بها عن أحد أمرين: إما عن النسبة أي: الإسناد أو الحكم المفاد من الجملة ويسمى «تصديقًا» وإما عن أحد أجزاء الجملة ويسمى «تصورًا»... فالتصديق هو إدراك النسبة بين الشيئين ثبوتًا أو نفيًا... والتصور هو إدراك أحد أجزاء الجملة، المسند أو المسند إليه أو أحد المتعلقات...

وأدوات الاستفهام بحسب المستفهم عنه ثلاثة أنواع:

١- ما يطلب به التصور تارة والتصديق تارة أخرى، وهو الهمزة وحدها.

٢- ما يطلب به التصديق فقط، وهو هل...

٣- ما يطلب به التصور فقط، وهو بقية الأدوات.

ولهذا كان لبناء جملة الاستفهام مع «الهمزة وهل» ضوابط واعتبارات دقيقة ينبغي الوقوف عليها والإحاطة بها، أما بقية الأدوات فلكونها لطلب تصور أشياء محددة، فإنهم لا يلتزمون في بناء الجملة معها شيئًا زائدًا عن الضبط العام في النظام الإعرابي ووجوب تصدر هذه الأدوات.

وإليك إيضاح وتفصيل لكيفية بناء الجملة مع الهمزة وهل، وبيان لما يسأل عنه ببقية أدوات الاستفهام.

الهمزة

ويطلب بها إما التصديق، أي: إدراك النسبة الواقعة بين الطرفين ثبوتًا أو نفيًا، وذلك عندما يكون السائل عالمًا بأجزاء الإسناد، ويجهل الحكم أو مضمون الجملة، فهو يسأل ليقف على هذا الحكم... وإما التصور، أي: إدراك أحد أجزاء الجملة عندما يكون السائل عالمًا بالحكم ولكنه يجهل أحد أجزاء البناء.

فإذا كانت الهمزة لطلب التصديق، كان جواب الاستفهام بالنفي أو بالإثبات «بنعم أو لا أو بلى»، ولا يذكر معها معادل، ويليها غالبًا الفعل إن وجد.

تقول: أنجح خالد... أعمرو شجاع؟ إذا كنت تتصور أجزاء الكلام: «نجح وخالد وعمرو وشجاع» وتتصور النسبة بين أجزائه أي بين نجح وخالد، وبين عمرو وشجاع، ولكنك تجهل وقوع هذه النسبة، أواقعة هي ومحققة أم غير واقعة، ولذا يجاب سؤالك بنعم أو بلا، أي بتحقق هذه النسبة ووقوعها أو بعدم تحققها.. وتقول: ألم يكرمك خالدٌ، فيجاب بنعم نفيًا، وببلى إثباتًا.

ومن ذلك قول عمارة بن عقيل في خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني:

أَأَتْرُكُ أَنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ زِيَارَتَهُ؟ إِنِّي إِذًا لَلَئِيمُ

فالجواب هنا بالنفي أي: «لا» لن أترك زيارته أن قل ماله، لأن السؤال عن التصديق إذ المتكلم يعرف الفعل ويتصور الفاعل وهو المتكلم نفسه ويعلم المفعول وهو زيارة خالد، كما أنه يتصور النسبة بين تلك الأجزاء، ولكنه يتساءل أتقع منه أم لا تقع.

فإن ذكر المعادل «أم» بعد همزة التصديق هذه، كانت أم منقطعة بمعنى بل وكانت بعدها همزة أخرى مقدرة كما في قول متمم بن نويرة اليربوعي:

وَلَسْتُ أُبَالِي بَعْدَ فَقْدِيَ مَالِكًا أَمَوْتِيَ نَاءٍ أَمْ هُوَ الآنَ وَاقِعُ

فالسؤال بالهمزة عن النسبة و«أم» للإضراب عن الكلام السابق، أي: عن

هذا التساؤل وبعدها همزة مقدرة يسأل بها سؤال آخر، والمعنى: أموتي ناء؟ بل أهو الآن واقع؟

وإذا كانت الهمزة للتصور وجب أن يليها المستفهم عنه... ويذكر للمستفهم عنه -غالبًا- معادل بعد «أم» المتصلة، وقد يستغنى عن ذكر المعادل إذا وجد ما يدل عليه... ولا يكون جواب الاستفهام عندئذ بنعم أو بلا، وإنما يكون بتعيين وتحديد المستفهم عنه.

تقول في السؤال عن الفاعل: أمحمد جاء أم عمرو؟ فيكون الجواب: محمد أو عمرو أي بتعيين من جاء منهما، ولا يقال عندئذ: «نعم» أو «لا»، وفي السؤال عن الفعل أجاء محمد أم تخلف؟ فيقال: جاء أو تخلف وعن المفعول: أعمرًا ضربت أم زيدًا؟ فيجاب: عمرًا أو زيدًا وعن الظرف: أفي البيت زارك عمرو أم في المدرسة؟ فيجاب: في البيت أو في المدرسة.

وقد يستغنى عن المعادل إذا دل عليه دليل، كما في قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، فالسياق وقرائن الأحوال تدل على أن المسئول عنه هو الفاعل، حيث أشاروا إلى الفعل «هذا» فهو معلوم لهم، وهم يشاهدون الأصنام محطمة ويجهلون الفاعل، ولذا ولي الفاعل الهمزة «أأنت» والمعنى: أأنت فعلت هذا أم غيرك؟ وقد أجابهم -عليه السلام- معينًا لهم الفاعل على سبيل التهكم ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وينبغي أن يراعى عند ذكر المعادل بعد «أم» المتصلة أن يكون موافقًا لما بعد الهمزة وألا يتناقض معه، على نحو ما ترى في الآيات الكريمة ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩]، ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٧٨]، ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ [الدخان: ٣٧]، ﴿ لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]، حيث تجد أن ما بعد «أم» مماثل لما بعد الهمزة.

ولذا كان من الخطأ أن تقول: أزيدًا أكرمت أم أهنت... أأكرمت زيدًا أم عمرا... أجاءك خالد أم علي... لتناقض ما بعد الهمزة مع ما بعد «أم» المتصلة، وهو

ليس تناقضًا في تركيب العبارة فحسب، بل تناقض واضطراب في الإدراك والوعي؛ إذ تقديم المفعول مثلاً في قولك: أزيدًا أكرمت؟ ينبئ بأنك تجهل المفعول وتتصور الفعل وهو الكرم والفاعل وهو المخاطب، فلو قلت بعد ذلك: «أم أهنت» أو قلت: «أم خالد» بالرفع تناقضت العبارة وتناقض فهمك واضطرب إدراكك لما تقول.

وعليك أن تعلم أن الفعل إذا حدد وعين كان الشك في الفاعل والجهل به كقولك: أأنت بنيت هذه الدار؟ ولا يصح قولك: أبنيت هذه الدار؟، لأن تحديد الفعل وتعيينه بالإشارة إليه يجعله معلومًا ويجعل الشك في الفاعل، وتقديم الفعل وإيلاءه الهمزة ينفي ذلك ويجعل الشك في الفعل وهذا تدافع وتناقض، فإذا أردت الاستفهام عن الفعل ينبغي عليك ألا تحدده، بل تتركه بلا تحديد، كأن تقول: أبنيت الدار التي كنت علي أن تبنيها؟ أقلت الشعر الذي عزمت على قوله؟ ولا يصح أن تسأل عن فاعل هذا الفعل غير المحدد فلا تقولت: أأنت بنيت الدار التي كنت علي أن تبنيها؟ أأنت قلت الشعر الذي عزمت على أن تقوله؟... لأن تقديم الفاعل يدل على أن الفعل قد وقع والمطلوب معرفة فاعله، وقولك: التي كنت علي أن تبنيها... الذي عزمت على أن تقوله، يدل على أن الشك في الفعل. وهذا تناقض.

فالسؤال عن الفاعل يقتضي بالضرورة معرفة فعل محدد معين حتى يقال في الجواب: «فعله فلان»، ولا يعقل أن يسأل عن فاعل فعل غير محدد، فلا يقال: أأنت أكلت طعامًا؟... أأنت رأيت اليوم إنسانًا؟... أأنت قلت شعرًا؟ وإنما يسأل في مثل هذا عن الفعل فيقال: أأكلت طعامًا؟ ... أرأيت اليوم إنسانًا؟... أقلت شعرًا؟.

هذا وقد ذكر سيبويه أن قولك: أزيد عندك أم عمرو؟ أزيدًا لقيت أم بشرًا؟ أفضل وأحسن. فإن قلت: أعندك زيد أم عمرو؟ ألقيت زيدًا أم بشرًا؟ كان حسنًا جائزًا[١].

وهذا الذي ذكره سيبويه يتناقض مع ما قاله البلاغيون، لأنهم أوجبوا إيلاء المستفهم عنه الهمزة -كما رأيت- وسيبويه يجوز تأخيره، بل يعده حسنًا.

---

(١) انظر الكتاب جـ٣ ص ١٦٩.

ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن ما أجازه سيبويه كان في مراحل سابقة، اللغة فيها تنمو، والتراكيب تتطور، ثم إن الترقي في التراكيب الهادف إلى تنقية الصياغة قد تجاوز ذلك إلى الصورة المنضبطة التي قررها البلاغيون ورفضوا ما عداها مما أجازه سيبويه واستحسنه، وإشارة سيبويه إلى أن هناك تركيبين يفيدان هذا المعنى أحدهما أفضل من الآخر وأحسن، توحي بصحة هذه الإجابة(١).

وقد يكون السؤال بالهمزة عن الفعل ويلي الهمزة غيره لغرض بلاغي وهو المبالغة في الإنكار، وتأكيد الردع والزجر، وذلك عندما يلي الهمزة ويعطف على ما وليها الفاعل أو المفعول أو الظرف الذي ليس للفعل غيره، كقولك: أفي ليل وقع هذا أم في نهار؟ فأنت لا تسأل عن الظرف، وإنما تنكر وقوع الفعل، ولم يل الفعل الهمزة كما ترى، بل وليها وعطف على ما وليها الظرف الذي ليس للفعل ظرف سواه، فإذا ما انتفى الظرف الذي لا ظرف يقع فيه الفعل غيره، كان هذا أبلغ في انتفاء الفعل، وأشد إنكارًا وأقوى ردعًا لمن يدعي وقوعه...

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾[الأنعام: ١٤٤].

وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

فالمعنى على إنكار «التحريم» و«الإذن» وقد ولي الهمزة غيرهما مبالغة في الإنكار والزجر؛ لأنه إذا انتفى المفعول الذي ليس للفعل مفعول غيره، في الآية الأولى والفاعل الذي ليس للفعل فاعل سواه في الآية الثانية، كان ذلك أبلغ في انتفاء الفعل، وأشد ردعًا وأقوى زجرًا، لمن ادعى وجوده وثبوته(٢).

---

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ٢١٩.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ١٤٧.

هل

أما «هل» فإنها لطلب التصديق فحسب، تقول: هل قام زيد؟، وهل عمرو ناجح؟، فتسأل عن نسبة القيام للأول والنجاح للثاني، ولذا يكون جوابك: نعم أو لا، أي: بإفادتك ثبوت النسبة أو نفيها... ولما كانت «هل» لطلب التصديق فحسب: فقد ترتب على ذلك ما يلي:

١-امتناع أن يذكر بعدها معادل «بأم» المتصلة، فلا يقال: هل زيد قائم أم عمرو؟ لأن «هل» تدل على أن مضمون الجملة وهو النسبة غير معلومة وأن السؤال عنها، ووقوع المفرد بعد «أم» دليل على أن «أم» متصلة، «وأم» المتصلة تدل على أن مضمون الجملة معلوم وأن المطلوب هو تعيين أحد الأمرين: المفرد الذي قبلها أو المفرد الذي بعدها، والسؤال عن ذلك إنما يكون بهمزة التصور: أزيد قائم أم عمرو؟ فالجمع بين «هل» و«أم» المتصلة في مثال واحد يؤدي إلى التناقض... ويصح اجتماع «هل» و«أم» المنقطعة، لأنها بمعنى بل، فالكلام بعدها مستقل عما قبلها.

ومن ذلك قول مالك بن الريب التميمي:

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرَتِ الرَّحَا رَحَا الْحَرْبِ أَمْ أَضْحَتْ بِفَلْجٍ كَمَا هِيَ

«فأم» في البيت منقطعة، وقد ذكرت بعد هل- كما ترى- والمعنى: هل تغيرت الرحا: رحا الحرب؟ بل أأضحت بفلج كما هي؟ فهما كلامان.

فإن وردت «أم» بعد «هل» وكان بعد «أم» المفرد، وجب تأويله بالجملة، وجعل «أم» منقطعة للإضراب مع استفهام آخر مقدر، من ذلك ما روي أنه ﷺ قال لجابر: «**هَلْ تَزَوَّجْتَ بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟**» فقال جابر: تَزَوَّجْتُ ثَيِّبًا، قال ﷺ: «**فَهَلَّا تَزَوَّجْتَ بِكْرًا تُلَاعِبُهَا وتُلَاعِبُكَ؟**»[(١)]، فالمعنى: بل هل تزوجت ثيبًا؟ ولذا لو قيل في المثال المذكور: هل قام زيد أم عمرو؟ إن المعنى: بل هل قام عمرو؟ لجاز ذلك وصح.

٢-يقبح استعمال «هل» في كل تركيب يتقدم فيه المسند إليه على الخبر الفعلي

---

(١) رواه البخاري في الجهاد برقم (١١٣/ ٢٩٦٧).

أو المفعول على الفعل كقولك: هل زيد قام؟ وهل زيدًا أكرمت؟ ووجه قبحه عند الجمهور، أن التقديم في هذين الحالين، قد يكون للاختصاص، والاختصاص يقتضي وقوع النسبة والعلم بها، وأن المراد هو السؤال عن الفاعل أو المفعول، وهل لا يؤتى بها لهذا، بل هي للتصديق، أي طلب العلم بالنسبة، فإذا كانت النسبة معلومة، عند دلالة التقديم على الاختصاص، كانت «هل» لطلب حصول الحاصل، وهذا عبث...

وظاهر هذا الوجه المنع، ولكنهم عدوه قبيحًا لاحتمال أن يكون التقديم لمجرد الاهتمام بالمقدم، لا للتخصيص الذي يقتضي العلم بالنسبة، أو لاحتمال تقدير فعل محذوف دل عليه المذكور، فعلى الاحتمال الأول وهو جعل التقديم لمجرد الاهتمام بالمقدم يكون على خلاف الغالب، إذ الغالب في تقديم المفعول على الفعل أو المسند إليه على خبره الفعلي أن يكون للتخصيص، ومخالفة الغالب قبيحة، وعلى الاحتمال الثاني، يكون الفعل الظاهر قد منع من العمل بلا شاغل عنه وذلك قبيح.

ورجح العلامة سعد الدين أن وجه عدم امتناعه هو الاحتمال الثاني دون الأول، لأننا لو قلنا إن التقديم في: هل زيد قام وهل زيدًا أكرمت للاهتمام، لم يكن هنالك وجه لعده قبيحًا، وإلا للزم أن يكون التقديم للاهتمام قبيحًا مطلقًا ولا قائل به[1].

وأما قولك: هل زيدًا أكرمته؟ فهو صحيح لا قبح فيه، لان الفعل هنا مشغول عن الاسم المنصوب بضميره، والكلام على تقدير فعل محذوف هو الناصب لزيد، ويكون هذا الفعل مقدمًا على المنصوب، وبهذا تكون هل قد وليها الفعل، فلا قبح.

وكما يقبح دخول هل على المعرفة وبعدها فعل، فإنه يقبح دخولها على النكرة المتلوة بفعل نحو: هل رجل سافر؟ لنفس الأسباب المذكورة... والقبح هنا في تقديم النكرة باتفاق البلاغيين، لأنه يفيد الاختصاص على مذهب السكاكي، إذ يرى أن الأصل: هل سافر رجل، فرجل فاعل في المعنى، إذ هو بدل من الضمير

---

(١) المطول ص ٢٢٨.

المستتر في سافر، وقد قدم من تأخير، أما قولك: هل زيد قام فالتقديم فيه لا يفيد الاختصاص على مذهب السكاكي، لأنه ليس مقدمًا عن تأخير، ولو تأخر لكان فاعلاً في اللفظ لا في المعنى، فلم يتوفر الشرطان اللذان ذكرهما لإفادة التقديم الاختصاص، كما توفرا في تقديم النكرة، فكان يلزم ألا يكون تقديم المعرفة في: هل زيد سافر، قبيحًا على مذهب السكاكي حيث جعل علة القبح التقديم المفيد للاختصاص، ولكن هذا التقديم قبيح بإجماع النحاة.

فهل هناك تعليل آخر لهذا القبح المجمع عليه، لا يرتبط بدلالة الاختصاص التي لم يقرها السكاكي؟ نعم هناك تعليل آخر –وإن لم يذكره السكاكي- يرجع إلى طبيعة هل وأصلها، لا إلى دلالة الاختصاص التي يحتملها التقديم، فقد قالوا: إن «هل» في الأصل بمعنى قد، وكانت ترد مسبوقة بالهمزة فيقال: أهل جاء زيد...

ومن ذلك قول خطام المجاشعي:

أَهَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بِالْغَرِيَّيْنْ ... لَمْ يَبْقَ مِنْ آيٍ بِهَا يُحَلَّيْنْ

غَيْرَ خِطَامٍ وَرَمَادٍ كِنْفَيْنْ ... وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْثَفَيْنْ[١]

وقول زيد الخيل الطائي (ت:٩ هـ):

سَائِلْ فَوَارِسَ يَرْبُوعٍ بِشِدَّتِنَا ... أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ الْقَاعِ ذِي الأَكَمِ[٢]

فلما طالت ملازمتها الهمزة تشربت منها معنى الاستفهام، فسقطت الهمزة وبقيت هل دالة عليه، ولما كانت قد لا تدخل إلى على الأفعال، كانت كذلك «هل» التي بمعناها.

وعلى ذلك إذا وجد الفعل في التركيب، وجب مراعاة معنى «هل» الأصلي في

(١) الغريّان: بناءان طويلان هما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش وسميا بالغريين، لأن النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله يوم بؤسه، والخطام: الزمام، والحبل يعلق في حلق البعير، وناحيتا كل شيء: كنفاه، والجمع: أكناف والمفرد: كنف وكنفة، والأثفية: الحجر الذي توضع عليه القدر وجمعه أثافٍ، يقال: أثفيت القدر وثفيتها: جعلت لها الأثافي... والمراد: وصف المكان بأنه لم يعد به أية آية أو علامة... صار خرابًا لاترى به إلا حبالاً بالية ورمادًا وحجارة في جوانبه وأكنافه. انظر لسان العرب مادةك غرا.

(٢) الأكم: الموضع الذي يكون أشد ارتفاعًا مما حوله.

لزوم إيلائها الفعل، وإن لم يوجد الفعل أصلاً في التركيب، روعي في «هل» معنى الاستفهام الذي استمدته من الهمزة، فجاز دخولها على الاسم، ولذا لا يقبح أن يقال: هل زيد قائم؟ وإنما يقبح أو يمتنع نحو قولك: هل زيد قام؟ ... والفرق بين التركيبين، أنها إذا رأت الفعل في حيزها تذكرت عهودًا بالحمى وحنت إلى الإلف المألوف وعانقته ولم ترض بافتراق الاسم بينهما سبيلًا، بخلاف ما إذا لم تره في حيزها، فإنها تتسلى عنه ذاهلة(١).

هذا ونجد أن ما قبحه البلاغيون والتمسوا العلل المذكورة في بيان وجه قبحه، نجده يرد في كلام أهل الفصيح من الشعراء...

كما في قول علقمة الفحل:

هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتَوْدَعْتَ مَكْتُومُ ... أَمْ حَبْلُهَا إِذْ نَأَتْكَ الْيَوْمَ مَصْرُومُ

أَمْ هَلْ كَبِيرٌ بَكَى لَمْ يَقْضِ عَبْرَتَهُ ... إِثْرَ الْأَحِبَّةِ يَومَ الْبَيْنِ مَشْكُومُ

وقول ابن الرومي في رثاء ولده:

هَلِ الْعَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَكفِي مَكَانَهُ ... أمِ السَّمْعُ بعدَ الْعَيْنِ يهْدِي كمَا تَهْدِي

بل نراه قد ورد في آي الذكر الحكيم.. في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [فاطر: ٣]، ولهذا كان ينبغي ألا يصف البلاغيون تلك التراكيب بالقبح، بل الأولى أن يقال: إنها قليلة ونادرة، فإنه إذا جاز أن نصف ما ندر وروده على ألسنة البشر بالقبح والكدارة، فلا يجوز أن نطلق ذلك على ما ورد في القرآن الكريم، بل ينبغي الاحتراس وتنزيه أساليب القرآن الكريم عن مثل هذه الأوصاف(٢).

٣-ومن خصائص «هل» أنها إذا دخلت على الفعل المضارع خلصته للاستقبال، ولذا لا يجوز أن تقول: هل يقوم زيد الآن، لأن في ذلك تدافعًا في بناء الجملة، إذ «هل» تمحضها للاستقبال والتقييد بلفظ «الآن» يجعلها للحال، وكأنك

(١) انظر المطول ص ٢٢٩.

(٢) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٧.

تقول: هل يقوم بعد الآن؟ ثم تقول: الآن، وهذا تناقض واضطراب، وكذا إذا دلت قرينة حالية على أن المضارع مراد به الحال، كقولك: هل تسيء إلى صاحبك؟ إذا دل الحال على وقوع الإساءة، ولهذا لا تقع هل موقع الهمزة في مثل قوله تعالى: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨]، وقوله عزوجل: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥]، وكل ما دل فعله على الحال.

وهذا الذي قاله البلاغيون نراه منخرمًا، إذ نجد في كثير من آيات الذكر الحكيم دخول «هل» على المضارع والقرائن تدل على أن المضارع أريد به الحال...

تأمل الآيات الكريمة: ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ [المائدة: ٥٩]، ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾ [التوبة: ١٢٧]، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ [الرعد:١٦]، ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨]، ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝ ﴾ [الشعراء: ٩٠- ٩٤]، ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٨].

فبإنعام النظر في هذه الآيات الكريمة، وغيرها كثير نجد أن المضارع بعد «هل» قد أريد به الحال، ولم تتمحض دلالته للاستقبال، ولذا كان ينبغي ألا يُبنى ذلك على القطع والإطلاق، بل على الغالب والاحتمال فيقال مثلا: إن «هل» إذا دخلت على الفعل المضارع فإنه -غالبًا- يراد به الاستقبال، وقد يراد به الحال، أما القطع بأنها تمحضه للاستقبال، فهو مردود بنحو الآيات الكريمة التي أشرنا إليها[(١)].

ومما تقدم يتضح لك أن «هل» لها مزيد اختصاص بالأفعال، وأن ذلك يرجع إلى الأمور الآتية:

١-أنها في الأصل بمعنى «قد» وقد لا تدخل إلا على الأفعال، فكذلك ما هو بمعناها.

---

(١) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٩٤.

٢-تأثيرها في بعض أنواع الفعل وهو المضارع بتخليصه -غالبًا- للاستقبال.

٣-اختصاصها بطلب التصديق وهو إدراك النسبة، وهذا بطبيعته يتوجه إلى المعاني لا إلى الأفراد، أي: إلى الفعل دون الاسم؛ لأن الحكم بالثبوت أو الانتفاء يتوجه إلى الحدث الذي هو جزء من مفهوم الفعل، إذ الفعل حدث وزمن.

ولكون «هل» لها مزيد اختصاص بالأفعال، فإنه لا يعدل عن الفعل إلى الاسم بعدها إلا لنكتة بلاغية... وهي أن يجعل ما يحدث ويتجدد، الذي هو مفاد الجملة الفعلية، أو يجعل ما سيوجد باعتبار «هل» تخلص المضارع في الغالب للاستقبال، يجعل هذا في معرض الكائن الحاصل الذي هو مفاد الجملة الاسمية، اهتمامًا بشأنه واعتناء بأمره، وذلك بناء على قول البلاغيين: إن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠] وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨] تجد أن قوله: «هل أنتم شاكرون»، «فهل أنتم مسلمون» أدل على طلب حصول الشكر والإسلام من قولك: فهل تشكرون؟ فهل تسلمون؟ أو فهل أنتم تشكرون؟ فهل أنتم تسلمون؟ وذلك لأن الجملة الاسمية تفيد التوكيد وتدل على معنى أوفى مما تدل عليه الجملة الفعلية، ولأن إبراز ما يحدث ويتجدد في معرض الحاصل الثابت أقوى دلالة على الاهتمام بشأنه وكمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله. وكذا من قولك: أفأنتم شاكرون؟ أفأنتم مسلمون؟، وإن كانت صيغته للثبوت -كما ترى- لأن «هل» نزاعة إلى الفعل وأدعى له من الهمزة، فتركه معها أدل على كمال العناية بحصوله وشدة الاهتمام بوقوعه.

ولهذا قال البلاغيون: إن قولك: هل زيد منطلق، أقوى دلالة على طلب حصول الانطلاق والاهتمام بوقوعه من أن تقول: أزيد منطلق؟ ... وقالوا: إن العدول عن الهمزة إلى «هل» في مثل هذا المثال لا يحسن إلا من البليغ، لأنه هو الذي يلتفت إلى تلك الدقائق ويراعي هذه النكات البلاغية ويقدر على تطويع الكلام وتكييف العبارات وصياغتها على حسب مايقتضيه المقام.

ومن الفروق الدقيقة بين همزة التصديق و«هل» أن الهمزة لا يستفهم بها حتى يهجس في النفس إثبات ما يستفهم عنه، فأنت لا تقول: أجاء عمرو؟ إلا ولديك شعور قوي بمجيئه، أما «هل» فإنه لا يترجح فيها إثبات ولا نفي، فعندما تقول: هل جاء عمرو؟ لا يكون لديك ترجيح لمجيئه أو عدم مجيئه، فالنسبة المطلوبة بالهمزة يترجح فيها لدى السائل إثباتها ووقوعها، ويكون عنده هواجس قوية ترجح الإثبات على النفي، أما النسبة المطلوبة بهل فلا يترجح فيها إثبات ولا نفي(١).

بقية أدوات الاستفهام

وبقية أدوات الاستفهام للتصور فحسب، فيسأل بها عن معانيها، ويكون الجواب عنها بتعيين المستفهم عنه، ولذا لا يلتزم في بناء الجمل معها سوى الضبط العام في النظام الإعرابي لصياغة الجمل، مع مراعاة تصدر تلك الأدوات، فليس وراء بناء الجمل مع تلك الأدوات دقائق ينبغي مراعاتها، كما هو الحال بالنسبة للهمزة و«هل».

«فمن»: يطلب بها تصور من يعقل أو من يعلم، كقولك: من عندك؟ من فتح بلاد الأندلس؟ فيقال في جواب الأول: زيد، وفي جواب الثاني: القائد البطل طارق بن زياد... ولك أن تقول في جواب الأول العالم الصادق... وفي جواب الثاني: القائد البطل الذي لا تخفى على أحد بطولاته وتفانيه في نشر دين الله... أي أن الجواب يكون إما بذكر الذات المستفهم عنها، وإما بذكر الأوصاف الخاصة بالمستفهم عنه، المشخصة له.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]، فقد أجاب موسى -عليه السلام- ببيان الصفات الخاصة برب العزة المنفرد بها سبحانه وتعالى... وانظر في قوله عز وجل: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝﴾ [الأنبياء: ٥٩، ٦٠]، وقوله عز من قائل: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟

---

(١) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٨٩

مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]، وواضح في الآيتين الكريمتين أن الجواب قد اشتمل على ذكر الذات المستفهم عنها.

و«ما» يستفهم بها عن غير العقلاء، فيطلب بها بيان الذات كقوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٧، ١٨]، وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ [الشعراء: ٧٠- ٧١]، كما يطلب بها بيان حقيقة المسمى وصفته كقولك: مازيد؟ فيجاب عالم أو طويل.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٢، ٥٣]وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤].

فالمراد بالاستفهام في الآيتين بيان حقيقة المسمى وصفته التي يعرف بها وقد جاء الجواب على خلاف ما يقتضي الاستفهام في الآية الأولى، وعلى خلاف ما يريد السائل ويتوقع في الآية الثانية(١).

ويطلب بها أيضًا إيضاح الاسم نحو: ما العسجد؟ فيجاب: الذهب.

«متى»: ويستفهم بها عن الزمان ماضيًا كان أو مستقبلاً، كقولك: متى حضرت؟ ومتى تسافر؟ ومتى الامتحان؟ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ ﴾ [يس: ٤٨].

«أيّان»: ويستفهم بها عن الزمان المستقبل وتستعمل في مواضع التفخيم والتهويل كقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الذاريات: ١٢].

«أين»: ويسأل بها عن المكان، كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ [القيامة: ١٠].

---

(١) ارجع إلى أساليب الاستفهام في القرآن ص ٣٠٩.

«كيف»: ويسأل بها عن الحال كما في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨].

«أنّى»: وتكون بمعنى كيف كقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران: ٤٠].

وبمعنى من أين كقوله تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وبمعنى متى كما في قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، (فأنى) في الآية الكريمة تحتمل المعاني الثلاثة، أي: متى شئتم، وكيف شئتم، ومن أين شئتم، على أن يكون الإتيان في موضع الحرث.

«كم»: ويستفهم بها عن العدد كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [الكهف: ١٩].

ومنه قول الفرزدق يهجو جريرًا:

كم عَمَّةً لكَ يا جَرِيرُ وخَالَةً ... فَدْعَاءَ قَدْ حَلَبَتْ عَلَيَّ عِشَارِي

في رواية من نصب «عمة» و«خالة»،ومعنى«فدعاء»: من الفدع، وهو عوج في المفاصل، والعشار: مفردها عشراء، وهي الناقة النفساء أو التي مضى لحملها عشرة أشهر(١).

«أي»: وتستعمل في تمييز أحد المتشاركين في أمر يعمهما، كما في قوله تعالى: ﴿ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم: ٧٣].

ويسأل بها أيضًا عن تمييز الزمان أو المكان أو الحال أو العدد، وكذا عن تمييز العاقل وغير العاقل، فهي تكتسب معنى ما تضاف إليه، فتقول في السؤال بها عن تمييز الزمان: في أي يوم عاد البطل؟ وعن المكان: في أي مكان نلتقي؟ وعن الحال: على أي حال تركت أباك؟ وعن العدد: إلى أي عدد بلغت دراهمك؟ وعن العاقل: أي الرجلين أكبر سنًا؟ وعن غير العاقل: أي جواد امتطيت؟

---

(١) يهجو جريرًا بعماته وخالاته حيث ذمهن من جهتين: وصفهن بالفدع وهو عوج مفاصلهن تقبيحًا لهن... وجعلهن خدمًا عنده يحلبن عشاره، وفي هذا حط من شأنهن.

تلك هي معاني أدوات الاستفهام وهي وإن كانت لا تخلو من فوائد ودقائق واعتبارات بلاغية، وبخاصة بناء الجمل مع الهمزة، وهل، إلا أن جل اهتمام البلاغيين يتجه إلى المعاني التي تفيدها أساليب الاستفهام، فتعالوا ننظر في هذه المعاني البلاغية.

المعاني البلاغية للاستفهام

يفيد الاستفهام كثيرًا من المعاني البلاغية، كالإنكار والتعجب والاستبعاد والتهديد والتهكم والتحقير ونحو ذلك، وكثير من البلاغيين وبخاصة المتأخرين منهم يطلقون على هذه المعاني: «المعاني المجازية للاستفهام» ونحن لا نوافقهم على هذه التسمية، ولا نرتضي هذا الإطلاق، ولا نقر أن تلك المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام معان مجازية، وذلك للأسباب الآتية:

١-أن المتقدمين من البلاغيين لم يتحدثوا عن وجه دلالة الاستفهام على تلك المعاني، وإنما بينوا أنها معان تستنبط من سياق الكلام والوقوف على قرائن أحواله، أما وجه الدلالة، فقد شاع الحديث عنه بين المتأخرين الذين تكلفوا وأسرفوا في التقاط العلاقات بين المعنى الأصلي للاستفهام والمعاني البلاغية التي يفيدها، وقد أتعبوا أنفسهم وأتعبوا الدارسين معهم في محاولة الوصول إلى علاقات بين طلب الفهم وبين هذه المعاني دون أن يصلوا إلى شيء مقنع[(١)].

٢- أن المعنى الأصلي للاستفهام وهو طلب الفهم من المخاطب وإثارته وتحريك ذهنه يظل باقيا عند إفادة الاستفهام لتلك المعاني البلاغية، ومزية أداء هذه المعاني بطريق الاستفهام على أدائها بطرقها المعهودة، ترجع إلى بقاء معنى الاستفهام في تلك الأدوات، ولذا يذكر الفراء في كتابه «معاني القرآن» عند حديثه عن الآية الكريمة: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ﴾[البقرة:٢٨] أن الاستفهام فيها قد دخله وشابه معنى التعجب فلم يعد استفهامًا محضًا، بل صار استفهامًا غير

---

(١) ارجع إلى البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف ص ٣٠٢.

محض[١]، وهذا دليل على أن معنى الاستفهام ظل باقيًا عند إفادة الأسلوب لمعنى التعجب.

ويقول عبد القاهر بعد ذكره لجملة من المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام: «واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيي بالجواب، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه، فإذا ثبت على دعواه قيل له: «فافعل» فيفضحه ذلك، وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله، فإذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته وقيل له: فأرناه في موضع وفي حال وأقم شاهدًا على أنه كان في وقت.

ولو كان يكون للإنكار وكان المعنى فيه من بدء الأمر، لكان ينبغي ألا يجيء فيما لا يقول عاقل إنه يكون حتى ينكر عليه، كقولهم: أتصعد إلى السماء؟ أتستطيع أن تنقل الجبال؟ أإلى رد ما مضي سبيل؟

وإذ قد عرفت ذلك فإنه لا يقرر بالمحال وبما لا يقول أحد إنه يكون إلا على سبيل التمثيل وعلى أن يقال له إنك في دعواك ما ادعيت بمنزلة من يدعي هذا المحال، وإنك في طمعك في الذي طمعت فيه بمنزلة من يطمع في الممتنع...»[٢].

فهو يشير إلى أن الاستفهام عند إفادته لمعانيه البلاغية يظل باقيا فيه معنى التنبيه وإثارة ذهن المخاطب ولفته إلى موضع التعجب أو الإنكار أو التقرير، حتى يتأمل ويتدبر ويعلم أنه لا جواب لهذا الاستفهام إلا بالإذعان للمعنى الذي يلفته إليه... كما في الأمثلة التي ضربها.

٣-عندما تنظر بإنعام إلى تلك المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام لا تستطيع أن تقول: إن الأسلوب الاستفهامي يفيد معنى واحدًا كالتعجب مثلاً، بل ترى عدة معان تنبعث من الأسلوب الاستفهامي... تأمل الآية السابقة ﴿ كَيْفَ

---

(١) ارجع إلى معاني القرآن ١/ ٢٣.

(٢) دلائل الإعجاز ١٥١.

تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨]، تجد أن الاستفهام بها يفيد إنكار الكفر والتعجب من وقوعه والتوبيخ والاستبعاد والتوعد، وغير ذلك من المعاني التي تنبعث من الأسلوب وتشع منه...

فلو قلنا إن إفادة الاستفهام في الآية الكريمة لمعنى التعجب إفادة مجازية والتمسنا علاقة بين طلب الفهم والتعجب، فكيف أفاد غير التعجب؟ أو فماذا نقول في إفادته لبقية المعاني التي أفادها؟

٤-إن المتأخرين أنفسهم الذين قالوا بمجازية هذه المعاني وجدوا في التماس العلاقات لبيان وجه المجاز، تراهم مترددين، وكأنهم غير مقتنعين بما يقولون، فهم يذكرون وجوهًا من الاحتمالات، قد يكون أحدها أقرب من غيره أو أقل إغرابًا منه، فالعلاقة بين طلب الفهم ومعنى الاستبطاء مثلا في قوله تعالى: ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، هي اللزومية، فهو مجاز مرسل علاقته اللزوم من استعمال الملزوم في اللازم، لأن السؤال عن الشيء يستلزم الجهل به، والجهل به يستلزم كثرته عادة أو ادعاء، وكثرته تستلزم بعد زمن الإجابة عن زمن السؤال والبعد يستلزم الاستبطاء...

هكذا يبحرون في التقاط والتماس تلك العلاقات... وليت وراء هذا الإبحار صيدًا يشبع النفس ويمتعها ويربي فيها ملكة التذوق، إنه ليس وراءه إلا التعب وكد الذهن بلا فائدة مرجوة ولا ثمرة مرتقبة، ثم تراهم إذا عجزوا عن الوصول إلى علاقة بين طلب الفهم والمعنى الذي هم بصدد الحديث عنه، تراهم يقولون: إن المعنى هنا مفاد عن طريق الكناية أو عن طريق مستتبعات التراكيب(١).

فما كان أحرى بهؤلاء المتأخرين أن يلتزموا طريقة المتقدمين التي أشرنا إليها عند الفراء وعبد القاهر، وأن يذعنوا بأن الاستفهام قد دخلته هذه المعاني وشابته وصار بإفادته لها استفهامًا غير محض، إذ التنبيه وإيقاظ المخاطب وحثه على التأمل الذي هو لب الاستفهام، لا يفارقه عند إفادة تلك المعاني... وهذا هو الذي نراه وندعو إليه... ندعو إلى تأمل هذه المعاني في سياقاتها الجيدة وتراكيبها الرفيعة،

---

(١) ارجع إن شئت إلى شروح التلخيص ٢/ ٢٩١، والمطول ص ٢٣٥.

والوصول إليها عن طريق تأمل السياق وإنعام النظر فيه ومعرفة قرائن أحواله، وإيماءات تراكيبه، فهذا هو الذي يربي وينمي ملكة التذوق لدى الدارس.

فتعالوا ننظر في هذه المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام ونحاول أن ندركها ونتذوقها من خلال السياق وما ينبئ به.

١ – الاستبطاء

نجد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٤]،إذ الخطاب في الآية الكريمة للصحابة رضوان الله عليهم، والمعنى: أحسبتم أن تدخلوا الجنة بلا ابتلاء وتمحيص، وقد جرت سنة الله تعالى أن يبتلي عباده، فقد ابتلي الأمم قبلكم ابتلاء شديدًا، ومستهم البأساء والضراء حتى قال الرسول وهو أعلم الناس بالله وأوثقهم بنصره، وقال الذين آمنوا معه –لشدة ما حل بهم ونزل–: متى نصر الله؟ فقد استطالوا مدة العذاب واستبطأوا مجيء النصر.

وسر التعبير بأسلوب الاستفهام في مقام الاستبطاء هو إظهار المعاناة من طول الانتظار وجذب انتباه السامع ودعوته للمشاركة والنظر فيما نزل وحل.

ولا يخفى عليك ما للسياق في الآية الكريمة من إبراز وتصوير لحال هؤلاء القائلين وما حل بهم من ابتلاء وشدة جعلتهم يتطلعون إلى فرج الله ونصره الذي طال انتظارهم له.

ومن ذلك أن تقول وقد اشتد الحر وأنت صائم متى يؤذن لصلاة المغرب؟ أنت لا تجهل موعد الأذان والإفطار ولكنك تصور حالتك وطول انتظارك وترقبك لهذا الوقت وتدعو المخاطب ليشاركك ما تعاني منه وتتطلع إلى تفريجه.

ومثله قولك وقد طال انتظارك للقطار: متى يصل القطار؟ وقولك لصاحب لك تدعوه كثيرًا للحضور وهو يماطل ويتأخر ولا يجيب دعوتك: كم دعوتك؟ فأنت تستبطئ إجابته وتحثه على مراجعة نفسه ومعرفة تقصيره وخطئه.

ومنه قول المتنبي:

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النَّجْمَ فِي الظُّلَمِ   وَمَا سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلاَ قَدَمِ

نساري: من السرى وهو السير ليلاً، يقول: إلى متى نسري مع النجم في الليل. وهو لا يسري على خف كالإبل ولا على قدم كالناس فهو لا يتعب مثلنا ومثل مطايانا، فالمتنبي لا يسأل عن الزمان، ولكنه يستبطئ مجيء هذا اليوم الذي يصل فيه إلى هدفه ويحقق بغيته...

ومثله قول البهاء زهير:

أمَــــوْلايَ إنيِّ فِي هَـــــوَاكَ مُعَـــــذَّبٌ   وَحَتَّـــامَ أَبْقَـــى في الْعَـــذَابِ وأَمْكُـــثُ

فهو يستبطئ ويتطلع إلى مجيء يوم الخلاص مما يعانيه.

٢- الاستبعاد

وقد يراد من الاستفهام معنى "الاستبعاد" وهو عد الشيء بعيدًا والفرق بينه وبين الاستبطاء: أن الاستبعاد متعلقه غير متوقع، أما الاستبطاء فمتعلقه متوقع والمستفهم يتطلع إلى وقوعه ومجيئه.

ومن الاستفهام الذي جاء مفيدًا لهذا المعنى "الاستبعاد" قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ [ق: ٢- ٣] فالكفرة يستبعدون البعث وينكرون وقوعه، وقد عبروا عن هذا الاستبعاد بصيغة الاستفهام التي طوى فيها البعث المستفهم عنه والتقدير: أنبعث إذا متنا وكنا ترابًا؟ ذلك رجع بعيد، وكأنهم يريدون أن يظل البعث هكذا سؤالاً مثارًا وتعجبًا مقامًا يسأله كل كافر ويتعجب من وقوعه كل جاحد عنيد...

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان: ١٣- ١٤]، والمعنى: من أين لهم التذكر والاعتبار والرجوع إلى الحق وقد جاءهم رسول جلَّى وبين لهم الحق فأعرضوا عنه واتهموه بالجنون، أيريدون الآن أن يتذكروا وأن يكشف عنهم العذاب...؟ هيهات هيهات لقد مضى وقت التذكر والاعتبار... وفي ذلك إثارة لهؤلاء الكفرة وتنبيه إلى ما هم فيه من غفلة وعناد ومكابرة، وحث لهم على قبول الهدى والانصياع للحق.

ومن ذلك قول أبي تمام:

مَــــنْ لِي بِإِنْــــسَانٍ إِذَا أَغْــــضَبْتُهُ وَجَهِلْــتُ كَــانَ الْحِــلْمُ رَدَّ جَوَابِــهِ

فهو يستبعد أن يوجد إنسان على هذا القدر من الحلم والصفح وقوة الاحتمال... وتقول: لقد صرنا في زمن أغبر، كثر فيه الظلم واعتداء القوي علىالضعيف، صار الناس يظلم بعضهم بعضا، ويأكلون أموالهم بينهم بالباطل، فمن يتقي الله اليوم في اليتيم؟ ومن يساعد المسكين؟ ومن يعيد الناس للانصياع إلى الحق المبين؟ فأنت تستبعد أن يوجد في هذا الزمان الأغبر من يقوم بواجبه تجاه دينه وتجاه اليتامى والمساكين..تستبعد أن يوجد في هذا الزمان، من ينهض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيعيد الناس إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل.

٣-التحسر

ويرد الاستفهام مرادًا به معنى التحسر والتألم وذلك في مقام يظهر فيه المستفهم حزنه وتألمه وتحسره على ما فاته.

تأمل قول حافظ إبراهيم في وصف حريق:

سَــــائِلُوا اللَّيْــــلَ عَــــنْهُمْ وَالنَّهَــــارَا كَيْــفَ بَاتَــتْ نِــسَاؤُهُمْ وَالْعَــذَارَى؟

فهو يتحسر ويتفجع لهؤلاء المنكوبين الذين ساءت أحوالهم وأتى الحريق على ما يملكون من متاع ومأوى فباتوا هم وأهلهم في العراء، وقد لجأ الشاعر إلى أسلوب الاستفهام ليلهب الناس ويثير حميتهم لمساعدة المصاب لتبديد ما ألم به وأصابه...

وانظر إلى قول البارودي في رثاء زوجه:

يــاَ دَهْــرُ فِــيمَ فَجَعْتَنِــي بِحَلِيلَــةٍ كَانَــتْ خُلاَصَــةَ عُــدَّتِي وعَتَــادِي

إِنْ كُنْــتَ لَمْ تَــرْحَمْ ضَــنَايَ لِبُعْــدِها أَفَــلاَ رَحِمْــتَ مِــنَ الأَسَــى أَوْلاَدِي

تراه حزينًا متألمًا لفراقها وقد صاغ ألمه وتحسره في أسلوب استفهامي ليظهر أساه وليلهب الناس ويثيرهم إلى مشاركته حزنه وألمه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩

يَقُولُ ٱلۡإِنسَـٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴾ [القيامة: ٧- ١٠]، فالاستفهام في الآية يفيد تحسر الإنسان وندمه على ما فاته في الدنيا واستبعاده الفرار في ذلك اليوم ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝ ﴾ [القيامة: ١١، ١٢].

٤ – التعجب

نجد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴾ [النمل: ٢٠]، فسليمان –عليه السلام– لما تفقد الطير ولم يجد الهدهد تعجب، كيف لايراه وهو لا يغيب إلا بإذنه، ولذا توعده بالعذاب الشديد إذا لم يكن غيابه هذا لسبب قوي يدعو إليه: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ [النمل: ٢١].

ومثله قوله عز وجل: ﴿ قَالَتۡ يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَـٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ۝ ﴾ [هود: ٧٢]. فقد تعجبت امرأته من بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، كيف تلد وهي عجوز وقد عاشت حياتها عقيمًا، وهذا بعلها قد صار شيخًا، إنه لأمر عجيب، ولذا تساءلت الملائكة متعجبة من تعجبها ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ ﴾ [هود: ٧٣].

ومنه قول المتنبي في وصف الحمى:

أَبِنْـتَ الـدَّهْرِ عِنْـدِي كُـلُّ بِنْـتٍ فَكَيْـفَ وَصَـلْتِ أَنْـتِ مِـنَ الزِّحَـامِ؟

ومنه قول المتنبي في وصف الحمى:

أَبِنْـتَ الـدَّهْرِ عِنْـدِي كُـلُّ بِنْـتٍ فَكَيْـفَ وصَـلْتِ أَنْـتِ مِـنَ الزِّحَـامِ؟

فهو يتعجب من الحمى، كيف وصلت إليه على الرغم من تزاحم الشدائد والأهوال حوله وتكالبها عليه.

٥–التنبيه إلى ضلال:

كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٦]، فهو تنبيه للكفرة إلى خطأ ما يقولون وإلى ضلال ما يعتقدون وباطل ما يعبدون من دون الله.

ويتضح لك هذا التنبيه عندما تتأمل سياق الآيات الكريمة: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [التكوير: ١٥-٢٦] فقد أقسم سبحانه وتعالى بالنجوم الدالة على قدرته في أحوال ظهورها واختفائها «الخنس... الجواري... الكنس» ثم أقسم بالليل يقبل بظلامه وبالصبح الذي يبدد ذلك الظلام، إن القرآن لمن عند الله نزل به رسول أمين على صاحبكم محمد ﷺ، وآثر التعبير بالصاحب ليلفتهم إلى أنه صاحبهم الذي يعرفون صدقه وأمانته فهو صادق فيما يبلغهم عن ربه، أمين عليه، وقد رأى وأبصر من آيات ربه الكبرى، رأى جبريل بالأفق المبين، وهو حريص على إبلاغ رسالة ربه، لا يضن بها عليكم، لقد وضح الأمر وانكشف الحق، فأين تذهبون بعدئذ عنه إلا إلى ضلالات ومتاهات؟

إن مجيء الاستفهام عقب هذا البيان وتلك التجلية ينبه الغافل ويحذر المعاند ويحث المكابر على النظر والتأمل ليقبل على الحق ويتخلى عن الضلال والعناد.

٦-التهويل:

كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ ﴾ [الحاقة: ١-٣]، ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة: ١-٣]، ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾[الهمزة: ٥]، فالاستفهام في الآيات الكريمة يكشف عن أهوال يوم القيامة، ويصور ويبرز فظاعة العذاب وشدته.

٧-الوعيد والتهديد:

كقولك لمن يسيء إليك:ألم أؤدب فلانًا؟ ألم أحذرك من هذا؟ تريد بذلك تهديده وتوعده حتى يقلع عن إساءته.

ومنه قوله عز وجل: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [المرسلات: ١٥- ١٨]، ولا يخفى عليك ما يفيده الاستفهام من توعد للكفرة وحث لهم على الإقلاع عن كفرهم والانصياع لصوت الحق حتى لا يصيبهم ما أصاب الأولين والآخرين من إهلاك وتعذيب.

٨-الأمر والحث على الفعل:

كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧]، وقوله عز وجل: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١]، وقوله: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ [الحديد: ١١]، فالمراد بالاستفهام في الآيات الكريمة الأمر، وقد جاء في صيغة الاستفهام، لأن في ذلك إغراء للمخاطب وحثًا له على الاستجابة وقبول الأمر.

٩-التقرير:

وقد يأتي الاستفهام ويراد به التقرير بمعنى طلب الإقرار أو بمعنى التحقيق والإثبات، فمن الأول قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، فهم يريدون حمله على الإقرار والاعتراف بالفاعل، وعندما يكون التقرير بالهمزة ينبغي أن يليها ما حمل المخاطب على الإقرار به فهم هنا يقررون بالفاعل ولذا أجابهم ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٢].

ومثله قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [المائدة: ١١٦]، فهو تقرير بما يعرفه عيسى -عليه السلام- من هذا الحكم، وهو أنه لم يصدر منه هذا القول، فهو تقرير بالفعل وقد ولى الهمزة الفاعل «أنت» الذي ليس للفعل غيره، أي: لو صدر لا يصدر إلا منه، فهو الرسول المرسل إليهم، وفي هذا زيادة توبيخ وتبكيت لمن اتخذوه وأمه إلهين من دون الله.

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨]، فالمراد بالاستفهام تذكير موسى -عليه السلام- بنشأته وتربيته فيهم وحمله على الإقرار بذلك، أملاً من فرعون في أن يقلع ويكف عما جاء به من قبل الله تعالى، ولكن أنى له ذلك، وموسى -عليه السلام- رسول رب العالمين.

ومنه قوله تعالى:: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٦،

٧]، ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ [الشرح: ١، ٢]، ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ [الفيل: ٢]، ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ ﴾ [الإنسان: ١]، فالمراد بالاستفهام في الآيات التقرير بمعنى التحقيق والإثبات ومجيء التحقيق في صورة الاستفهام فيه تنبيه للمخاطب وحث له إلى تدبر الأمر وتأمله.

ومنه قول جرير في مدح بني أمية:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالمِينَ بُطُونَ رَاحِ

فهو تحقيق وإثبات لكرمهم وشجاعتهم وقد صاغه في صيغة استفهام ليرشد وينبه إلى فضلهم وسبقهم إلى العلا.

١٠- الإنكار:

والهمزة هي أكثر أدوات الاستفهام دلالة على معنى الإنكار، ويليها دائمًا المستفهم عنه سواء أكان الاستفهام لمجرد طلب الفهم أم للتقرير أم للإنكار أم لغير ذلك كما عرفت في بناء جملة الاستفهام مع الهمزة... والاستفهام الإنكاري يرد على نوعين: إنكاري توبيخي وإنكاري تكذيبي.

فالأول: إنكار وتوبيخ على أمر قد وقع في الماضي، ولوم وعتاب للمخاطب على وقوعه، ومعناه: ما كان ينبغي أن يقع، أو على أمر يخشى المستفهم أن يقع في المستقبل، ولوم وعتاب للمخاطب لإصراره على وقوعه، ومعناه: ينبغي ألا يكون، فالإنكار أو النفي في الاستفهام التوبيخي موجه إلى الانبغاء والمعنى: ما كان ينبغي في الماضي، وينبغي ألا يكون في المستقبل.

تأمل قوله تعالى: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧]، فالمعنى: ما كان ينبغي أن يقع هذا الكفر وقد خلقك الله وسواك وأنعم عليك بالنعم التي تباهي بها وتفتخر.

ومثله قوله تعالى: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ [يوسف: ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [الصافات: ١٢٥]، فالاستفهام في الآيتين لتوبيخ على أمر واقع، ولوم وعتاب للمخاطبين لفعلهم إياه،

والمراد: ما كان ينبغي أن يقع منكم ما وقع...

ومنه قول امرئ القيس:

أغــرَّكِ مِنِّــي أَنَّ حُبَّــكِ قَــاتِلِي وَأَنَّــكِ مَهْــمَا تَــأْمُرِي الْقَلْــبَ يَفْعَــلِ

والمعنى: ما كان ينبغي أن يغرك حبي لك، وتعتقدي أني أصبحت متيمًا في هواك، أفعل ماتأمرين به... وتقول: أعصيت ربك... أأذيت جارك... أأهملت في واجبك؟ أي ما كان ينبغي أن يقع هذا منك... ولعلك تشعر بما في بيت امرئ القيس من تصوير جميل لقصة حبه مع ما في التعبير من إيجاز وإخفاء لهذا الحب وراء الاستفهام، فهو يستفهم عنه ولا يفصح بإثباته ووقوعه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤] تجد أن الاستفهام موجه إلى تلك الإرادة وهي غير واقعة، بل يحتمل وقوعها في المستقبل، والمراد: لا ينبغي أن تكون هذه الإرادة.. وتقول: أتعصي ربك... أتؤذي أباك.. أتنسى إحسان فلان... آتخرج في هذا الوقت؟ والمراد تنبيه المخاطب إلى خطأ ما هو مقبل عليه حتى يرتدع عنه، فالمعنى: لا ينبغي أن تكون منك هذه الأفعال.

والثاني: وهو الإنكار التكذيبي، ويسمى أيضًا بالإنكار الإبطالي، إذا كان التكذيب في الماضي، أي: لأمر اعتقده المخاطب، ويزعم أنه قد وقع، كان الاستفهام بمعنى: لم يكن، وإذا كان في المستقبل،أي: لأمر لم يقع والمخاطب يعتقد أنه سيقع، كان بمعنى: لن يكون.

تأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]، تجد أن الاستفهام في الآية يفيد تكذيبهم وإبطال ما قالوه واعتقدوه والمعنى: لم يكن من الله تعالى اصطفاء ولا اتخاذ.

ومنه قول امرئ القيس:

أَيَقْتُلُنِــي وَالْمَــشْرَفِيُّ مُــضَاجِعِي وَمَــسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَــابِ أَغْــوَالِ

فهو يكذب إنسانًا توعده بالقتل وينكر أن يقع منه ذلك والمعنى: لن يكون

هذا القتل. واقرأ قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨]، فالمراد: أنجبركم ونكرهكم على الاهتداء بها، والمعنى: لن يكون ذلك الإجبار إذ لا إكراه في الدين. وتقول: أيرضى عنك ربك وأنت مقيم على عصيانه؟ أي: لن يكون هذا.

ومنه قول عمارة بن عقيل:

أَأَتْرُكُ أَنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ زِيَارَتَهُ؟ إِنِّي إِذًا لَلَئِيمُ

أي: لن يكون ذلك مني... فالشاعر مخلص في وده خالداً الشيباني، ويكذب من يزعم أنه سيتركه ويجافيه بسبب أن قلت دراهمه، لأنه أي: الشاعر، ليس لئيما فيفعل ذلك.

هذا وموضع الإنكار -كما مر بك- هو ما يلي الهمزة، تقول في إنكار الفاعل: أأنت تقدر على هذا؟ أأنت تمنعني حقي؟ أأنت تقري الضيف؟ أأنت تؤذي المسلمين؟ تريد: لن يكون هذا منك ولن تستطيعه فلست له أهلا، أو لن يكون لأنك لست بمثابة من يفعله، لأنك أعظم شأنًا، أو لأنك أقل شأنًا ونفسك نفس تأباه[١].

وتقول في إنكار المفعول: أعمرًا أهنت؟ بمعنى لم يكن ذلك، وتأمل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فالمعنى على إنكار أن يكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا أو يبغي ربا... وتقول في إنكار الفعل: أتؤذي أباك...؟ ومنه قوله تعالى: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقوله عز وجل: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١]، والمعنى: ينبغي ألا يقع هذا القول، وينبغي ألا يكون هذا الاستبدال... وتقول: أتقتلني؟ والمعنى لن يكون ذلك منك، وقد مرت بك شواهد كثيرة لإنكار الفعل إنكارًا توبيخيًا أو إنكارًا تكذيبيًا.

وقد يكون الإنكار للفعل ويلي الهمزة غيره وذلك عندما يكون للفعل فاعل

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١١٨.

محدد أو مفعول أو ظرف ليس للفعل سواه فيلي الهمزة ويعطف على ما وليها بأم المتصلة ذلك المحدد كقولك في إنكار الفعل: أفي ليل وقع هذا أم في نهار؟ منكرا الوقوع، لأن الفعل إذا نفي فاعله أو مفعوله أو محله -كما في المثال المذكور- الذي ليس له غيره، لزم من ذلك انتفاء الفعل، وهذا أبلغ في إنكار الفعل وانتفائه، لأن نفي الفعل فيه بطريق الكناية واللزوم، فهو بمثابة دعوى بدليلها... وقد مرت بك شواهد هذه الصورة في بناء جملة الاستفهام مع الهمزة فعد إليها هناك.

١١- النفي:

وقد يأتي الاستفهام بمعنى النفي، كما في قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، والمعنى: ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، تلك حقيقة مقررة لا يعارض فيها عاقل، ولكن فرق بين الدلالة عليها بالاستفهام والدلالة عليها بطريق النفي المعهود، إن في الاستفهام تحريكًا للفكر، وتنبيهًا للعقل وحثًا على النظر والتأمل... وهذا هو الفرق بين النفي الصريح والنفي عن طريق الاستفهام...

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾ [الفتح: ١١]، فالمعنى لا محالة: لا أحد يملك لكم من الله شيئًا، ولكن الدلالة على هذا المعنى بالاستفهام فيها تنبيه لهؤلاء المخلفين وحث لهم على تدبر أحوالهم ومراجعة أنفسهم والانقياد للحق واتباع سبيل الرشاد.

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ [البقرة: ١١٤]، ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فالدلالة على النفي بالاستفهام في الآيات الكريمة تمتاز عن الدلالة عليه بطريقه المعهود؛ إذ النفي الصريح خال من التحريك والتنبيه وإثارة المشاعر، أما الاستفهام ففيه بعث على النظر والتأمل وحث على التفكير والتدبر حتى يتبين للمخاطب وجه الخطأ فيقلع عنه ويبتعد.

وعد إلى دلالة الاستفهام على الإنكار وتأمل فرق ما بين قولك: أتؤذي أباك؟ أتنسى إحسان فلان؟ وقولك: لا ينبغي أن تؤذي أباك.. لا ينبغي لك أن تنسى معروف فلان، فنحن وإن كنا نفسر الاستفهام بهذا المعنى إلا أن هنالك فرقًا جوهريًا يمتاز به الاستفهام الإنكاري عن النفي الصريح وهو أن في الاستفهام إغراء لمن تخاطبه كي يقلع عما فعل أو سيفعل وعما اعتقد أو يعتقد، حيث لم تواجهه صراحة بالنفي أو التكذيب، كما أن في الاستفهام تحريكًا لفكر المخاطب وتنبيهًا له، ودعوى كي يتأمل ويتدبر ويعيد النظر فيما يفعل أو يعتقد لعله يستيقن فيذعن للحق ويقلع عن الباطل والضلال.

ومن الاستفهام الدال على النفي قول البحتري:

هَلِ الدَّهْرُ إلاَّ غَمْرَةٌ وانْجِلاَؤُهَا ... وَشِيكًا وَإلاَّ ضِيقَةٌ وانْفِرَاجُهَا

فالشاعر أراد بالاستفهام أن يحث المخاطب على النظر والتأمل حتى يدرك هذه الحقيقة الواقعة ويعيها فكره، وهي أن الدهر ليس إلا شدة سرعان ما تنجلي وتنكشف، وضيقًا يعقبه انفراج..

ومثله قول الحسين بن عبد الرحمن:

هَلِ الدَّهْرُ إلاَّ سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِي ... بِمَا كَانَ فِيهَا مِنْ بَلاءٍ وَمِنْ خَفْضِ؟

١٢ - التشويق:

وقد يأتي الاستفهام للتشويق وذلك عندما يقصد المتكلم إلى ترغيب المخاطب واستمالته، كما في الآيات الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف: ١٠]، ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥]، ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات: ١٥، ١٦]، ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩]، فلا يخفى عليك ما في الآيات الكريمة من ترغيب للمخاطب وتشويق له إلى معرفة الجواب، فهو يفكر فيه وينشغل به وينتظره في ترقب وتطلع وعندئذ يأتي الجواب فيقع في نفس المخاطب موقعًا حسنًا، لأنه جاء والنفس مهيأة له ومتلهفة إلى معرفته.

إلى غير ذلك من الأغراض البلاغية التي يفيدها الاستفهام، فهي أكثر من أن

يحاط بها، لأنها معان تستنبط من السياق وتأمل أحواله، والمعول عليه في ذلك، هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب الجيدة، ولا ينبغي أن تقتصر في ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه إلى غيره، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية والله الهادي[١].

ومنها بالإضافة لما سبق دلالته على التعظيم.

كما في قول المتنبي:

مَنْ لِلْمَحَافِلِ وَالجَحَافِلِ وَالسُّرَى   فَقَدَتْ بِفَقْدِكَ نَيِّرًا لاَ يَطْلُعُ

فهو يريد تعظيم المخاطب والإشادة بفضله، وأن المحافل والمجامع والجحافل وهي الجيوش والسرى أي السير ليلا والزحف إلى الأعداء، هذه الأمور قد فقدت بفقده نيرا، أي: بدرًا كان مشرقًا مضيئًا، فصار لا يطلع.

ومثله قول عبد الرحمن بن عمر العرجي:

أَضَاعُونِي وأَيَّ فَتًى أَضَاعُوا   لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ

فالمراد بالاستفهام تعظيم نفسه والإشادة بشجاعته وفروسيته، ولا يخفى عليك ما في البيتين من إظهار التحسر والتفجع لفقد من فقدته المحافل والجحافل، وإضاعة القوم لفتاهم المغوار.

ومنها التحقير، كما في الآيات الكريمة: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠]، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]، ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وكما في قول الهذلول بن كعب العنبري:

تَقُولُ وَدَقَّتْ نَحْرَهَا بِيَمِينِهَا   أَبَعْلِيَ هَذَا بالرَّحَا المُتَقَاعِسُ

وقول ابن أبي عيينة:

فَدَعِ الْوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِي   أَطَنِينُ أَجْنِحَةِ الذُّبَابِ يَضِيرُ؟

---

(١) المطول ص ٢٣٩.

ومنها التهكم، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ﴾[هود: ٨٧]، فهم يسخرون منه ويتهكمون بما جاء به، وقد عبروا عن ذلك بصيغة الاستفهام ليدلوا على ثباتهم في الكفر ووقوفهم الصامد في الضلال والمكابرة.

ومنها: التمني، وذلك عندما يطلب السائل الأمور المحالة أو البعيدة الحصول، كما في قوله تعالى على لسان أهل النار ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف: ٥٣]، ﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: ٤٤]، ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٤٧]، وكأنهم لفرط ما هم فيه من هول العذاب وشدته صاروا يسألون غير الممكن، كما يسأل عن الشيء الذي لا استحالة في وجوده.

هذا وكما ذكرت لك فإن هذه المعاني يستنبطها الدارس ويقف عليها، من خلال النظر في السياق وتأمل تراكيبه وقرائن أحواله، وكثيرًا ما تجد أسلوب الاستفهام يفيض بأكثر من معنى بلاغي.

تأمل قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨]، تجد الاستفهام بها يفيد الإنكار التوبيخي، أي: لا ينبغي أن يكون منكم كفر وقد علمتم قصة خلقكم وحياتكم، كما يفيد التعجب من وقوع هذا الكفر والحث على الإقلاع عنه والإقبال على الهدى والإيمان، لأن في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان من العبر والعظات والأدلة على قدرة الله تعالى، ما لو تأمله الكافر وتدبره لأقلع عن كفره وضلاله، فوجود الكفر منه بعدئذ يدعو إلى التعجب والإنكار.

ومثله قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، فالاستفهام في الآية إنكار لوقوع ذلك منهم وتعجب من وقوعه وحث للإقلاع عنه.

وخذ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ [القيامة ٧-١٠]، تجد الاستفهام بها يدل على الحيرة والتخبط،

والتحسر والندم، وتمني الفرار من العذاب الذي ينتظره، وأنى له ذلك: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١ - ١٢].

وتأمل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، فالسؤال الأول يفيد التقرير، والسؤال الثاني يفيد طلب المزيد من الوقود وتمنيه، وينبئ بمدى غيظ جهنم وشدة غضبها لكفر هؤلاء الكفرة، وتطلعها وتشوقها إلى المزيد منهم.

وخذ هذه الآية -وقد مرت بك- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ۝﴾ [البقرة: ٢١٤]، فاستفهام الرسول ومن معه وهم صفوة الناس، وقولهم وقد زلزلوا ومستهم البأساء والضراء: متى نصر الله؟ يفيد تطلعهم للنصر وتشوقهم وتمنيهم وقوعه وحلوله، كما يفيد استبطاءهم لمجيئه، وهذا ما يصور شدة ابتلائهم ويبين أنه على المؤمنين أن يكونوا على استعداد وأن يهيئوا أنفسهم لمثل هذا الابتلاء، فلن يدخلوا الجنة إلا إذا محصوا كما محص من قبلهم واختبروا كما اختبروا... وبهذا يتضح لك أن الأسلوب الاستفهامي يفيض بكثير من المعاني التي يستطيع أن يقف عليها الدارس بتأمل سياقه وتدبر قرائن أحواله.

***

أسلوب النداء

النداء: هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب كلمة: «أدعو»، والغاية منه أن يصغي من تناديه إلى أمر ذي بال، ولذا غلب أن يلي النداء أمر أو نهي أو استفهام أو إخبار بحكم شرعي ونحو ذلك من الأمور المهمة كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾ [المدثر: ١-٤]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١]، وقوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ...﴾ [الطلاق: ١].

ودلالة النداء على الطلب دلالة مطابقة على أرجح الأقوال، لأنه طلب الإقبال، فهو بمعنى: «أقبل» الأمر، وقيل: إن دلالته على الطلب التزامية، لأنه بمقتضى تعريفه: «طلب إقبال المخاطب بحرف نائب مناب كلمة: أدعو» ليصغى إلى ما يريده المتكلم... و«أدعو» فعل مضارع لا أمر، ولكن الدعاء يتضمن طلب الإقبال فلذا جعل النداء من أقسام الطلب، ودلالته عليه دلالة التزامية تضمينية.

ومنهم من يرى أنه مجرد تنبيه لا طلب فيه... والراجح هو الرأي الأول -كما ذكرت- لأنك عدما تقول: «يا محمد»، فإنك تطلب منه الإقبال عليك، وكأنك تقول له: «أقبل» بصيغة الأمر، وليس «أدعو» بصيغة المضارع.

وحروف النداء هي: الهمزة، وأي، ويا، وآ، وآي، وآيا، وهيا، و(وا) وأكثرها استعمالاً في نداءات القرآن الكريم هو كلمة: «يا».

وهذه الأدوات نوعان: ما ينادى به القريب وهو أداتان: الهمزة: وأي... وما ينادى به البعيد وهو بقية الأدوات.

وإذا كان النداء هو طلب الإقبال، فإن الأصل فيه أن يكون للقريب الذي لا يجاوز امتداد صوت المنادِي، ولكنهم توسعوا فيه فنادوا البعيد الذي لا يمكن أن يسمع صوت المنادى، أو بمعنى آخر الذي لا يمكن أن يصل إليه صوته، وجعلوا لندائه أدوات ولنداء القريب أدوات -كما رأيت.

ولم يتوقفوا عند نداء البعيد الذي لا يصله صوت المنادى، بل اتسع تصرفهم في النداء فنادوا غير الحي العاقل، كالناقة والطير والوحش، ومشاهد الطبيعة من برق وسحاب وأقمار وشموس وأشجار وأرض وسماء وجبال، وفيافي، وقبور، وأطلال، وديار، كما نادوا أحوال النفس وعواطفها، من حب وبغض وحسرة وويل ولذة، ونداء مثل هذه الأمور لا يكون لطلب الإقبال، وإنما يكون لأغراض بلاغية ومقاصد يقصد إليها المتكلم.

قلت: إن النداء يكون بحروف نائبة مناب كلمة: «أدعو»، وهذه الحروف قد تذكر كما في الآيات التي مرت بك، وكما في قولك: أمحمد، يا خالد، هيا سلمى، وقد تحذف فتقول: محمد.. خالد.. سلمى، تريد نداءهم.

ومما ورد فيه حذف أداة النداء، قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ٢٩]، ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾[يوسف: ٤٦]، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: ٣١]، فقد حذفت أداة النداء في الآيات الكريمة وتقديرها: أيوسف... يا أيها الصديق... يا أيها المرسلون.

ومن ذلك نداء الرب في أساليب القرآن الكريم، فلا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب، بل ينادى مجردًا من حرف النداء، ولعل في ذلك تعبيرًا عن شعور الداعي بقربه من ربه عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وعلى كثرة نداء الرب في القرآن الكريم، لم يأت مسبوقًا بحرف النداء إلا في الآيتين الكريمتين: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨- ٨٩]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

ولعل مجيء حرف النداء مع الرب في هاتين الآيتين بصفة خاصة، تعبيرا عن حال النبي ﷺ وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم فلم يزدهم ذلك إلا تماديا في كفرهم، فآلمه ذلك وضاق صدره، بسبب كفر قومه وإعراضهم، فأراد أن يرفع صوته زيادة في الضراعة إلى الله واستجلاب رضاه، كما أن في امتداد الصوت بهذا الحرف «يا» ما ينبئ بما ألم به ﷺ وكأنه وجد فيها متنفسًا لآلامه وأحزانه.

وفي نداء لفظ الجلالة يجوز استبدال ميم مشددة في آخره بحرف النداء فيقال: اللهم، بدلا من: يا الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦].. وهذه الميم علامة للجمع في الضمائر، نحو: أنتم، وهم ولكم ولهم، وكأن المنادي بتلك الصيغة: «اللهم» قد جمع في ندائه أسماء الله الحسنى، وناداه بها جل في علاه.

هذا وقد ينزل البعيد منزلة القريب فينادى بالهمزة وأي، لغرض بلاغي، وهو الإشعار بأنه حاضر في القلب لا يغيب عن الخاطر، حتى صار كأنه حاضر مشاهد.

من ذلك قول أبي فراس وهو أسير في بلاد الروم ينادي سيف الدولة.

أَسَيْفَ الْهُدَى وَقَرِيعَ الْعَرَبْ ... إلامَ الْجَفَاءُ وَفِيمَ الْغَضَبْ؟
وما بالُ كُتْبِكَ قَدْ أَصْبَحَتْ ... تنكَّبُنِي مَعَ هذِي النَّكَبْ[1]

فعلى الرغم من تباعدهما جاء النداء بالهمزة ليعبر عما يضمره له من حب، فهو حاضر في قلبه لا يغيب عن خاطره، وكأنه مشاهد أمامه.

ومثله قول ابن حيوس محمد بن سلطان (٤٧٣هـ).

أَسُكَّانَ نُعْمَانِ الأَرَاكِ تَيَقَّنُوا ... بِأَنَّكُمُ فِي رَبْعِ قَلْبِي سُكَّانُ[2]

فهو ينادي سكان هذا المكان وقد عبر بالهمزة الموضوعة لنداء القريب لينبئ بأنهم قريبون منه، لا يتركون فكره ولا يبرحون خياله.

ومنه قول عبد الله بن عنمة الضبي:

أَأُبَيُّ لا تَبْعُدْ وَلَيْسَ بِخَالِدٍ ... حَيٌّ وَمَنْ تُصِبِ الْمَنُونُ بَعِيدُ

فهو ينادي أُبيًّا الذي أصابته المنون فصار بعيدًا عنه، يناديه بالهمزة ليعبر عن حضوره في قلبه واستقراره في فؤاده.

---

(١) قريع العرب: سيدهم، تنكبني: تجنبني والمراد أن هذه نكبة تضاف إلى نكبة أسره، وكتبك بسكون التاء ضرورة: رسائلك، مفردها: كتاب.

(٢) نعمان الأراك: اسم موضع، والربع: المنزل.

وتقرأ رسالة والد إلى ولده أرسلها له من مكان بعيد فتراه يقول: «أي بني عليك بالاستقامة وترك المعاصي فإن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي»، فقد عبر بأي التي ينادى بها القريب، في ندائه ابنه وهو بعيد عنه، ليدل على أنه حاضر في قلبه لا يبرح خياله ولا يغيب عن فكره ووجدانه.

***

نداءُ القريب نداءَ البعيد

وكما ينزل البعيد منزلة القريب فينادى بالهمزة أو بأي، فقد ينزل القريب منزلة البعيد، فينادي بغير الهمزة وأي لأغراض بلاغية أهمها:

١-الإشعار ببعد منزلته وعلو مكانته، فينزل بعد المنزلة وعلو المكانة منزلة البعد المكاني، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٤- ٤٥]، فإبراهيم -عليه السلام- ينادي أباه وهو قريب منه، وقد استخدم «يا» الموضوعة لنداء البعيد لينبئ ببعد مكانته وسمو منزلته وهذا أدب الابن مع أبيه حتى ولو كان على غير دينه... ومن ذلك نداؤك لفظ الجلالة فتقول: « يا الله» مع أنه أقرب إليك من حبل الوريد.

٢-الإشعار بأن المنادى وضيع المنزلة منحط المكانة وكأنه بعيد عن القلب، فينزل هذا البعد النفسي منزلة البعد المكاني...

كما في قول جرير يهجو ابن أبي خليد:

فَخَلِّ الْفَخْرَ يَا ابْنَ أَبِي خُلَيْدٍ ... وَأَدِّ خَرَاجَ رَأْسِكَ كُلَّ عَامِ

ومثله قول الفرزدق في هجاء جرير:

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ ... إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ

٣-التنبيه على عظم الأمر المدعو له وعلو شأنه، حتى كأن المنادى مقصر فيه غافل عنه مع شدة حرصه على الامتثال، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، ويحمل على ذلك كل النداءات الموجهة من الله تعالى

إلى عباده «يا أيها الذين آمنوا... يا أيها الناس... يا موسىٰ أقبل ولا تخف... يا عيسى ابن مريم... يا نوح اهبط بسلام منا» فالله عز وجل أقرب إلى عباده من حبل الوريد، وقد جاء النداء «بيا» الموضوعة لنداء البعيد للتنبيه على عظم الأمر الذي نودي من أجله والدلالة على علو شأنه، وليبادر المنادى بالامتثال والاستجابة.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان لقمان يوصي ابنه ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۞ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾.

٤-أن يكون المنادى نائمًا أو ساهيًا، فيكون كل من النوم والسهو بمنزلة البعد الذي يقتضي علو الصوت، كقولك: هيا عمرو استيقظ، أيا خالد تنبه ولا تسه.

٥-الإشعار بغفلة المنادى عن الأمر العظيم الذي يقتضي اليقظة والانتباه، كقولك: هيا فلان تهيأ للحرب...

ومنه قول محمود سامي البارودي:

يَـا أَيُّهَـا السَّـادِرُ الْـمُزْوَرُّ مِـنْ صَـلَفٍ مَهْـلاً فَإِنَّـكَ بالأَيَّـامِ مُنْخَـدِعُ

وكأن غفلة هذا الغافل جعلتك تبعده عن ساحة الحضور وتنزله منزلة البعيد فتناديه نداءه لينهض من غفلته، ويهبّ من نومه.

ومنه قول مرة بن محكان السعدي يخاطب ربة بيته ويناديها.

يَـا رَبَّـةَ الْبَيْـتِ قُـومِي غَـيْرَ صَـاغِرَةٍ ضُـمِّي إِلَيْـكِ رِحَـالَ الْقَـوْمِ وَالْقِـرَبَا

***

الأغراض البلاغية التي يفيدها أسلوب النداء

ويأتي أسلوب النداء مفيدًا لمعان بلاغية كثيرة تفهم من السياق وقرائن أحواله، فعندما تنادي القبور أو النوق أو البرق أو التعجب أو الويل، فإنه يراد بهذا النداء مقاصد وأغراض يرمي إليها المنادِي، كما قد ينادى الحي العاقل لغرض آخر بالإضافة إلى طلب الإقبال... وإليك أهم هذه المقاصد:

١-الإغراء: وهو الحث على طلب الأمر الذي ينادى له، كقولك لمن يتظلم: يا مظلوم تكلم، فأنت تريد بهذا النداء إغراءه وحثه على بث الشكوى وإظهار

التظلم... وكقولك لمن يتردد في الإقدام: يا شجاع تقدم، تريد حثه على المضي والتقدم.

٢-الاختصاص: وهو تخصيص حكم علق بضمير باسم ظاهر صورته صورة المنادى أو المعرف بأل أو بالإضافة أو بالعلمية، فمثال كون الدال على التخصيص صورته صورة المنادى قولك: أنا أفعل كذا أيها الرجل... ونحن نقول كذا أيها القوم، واغفر اللهم لنا أيتها العصابة، فالمراد بالمنادى هو المتكلم نفسه والمعنى: أنا أفعل كذا متخصصًا من بين الرجال، ونحن نقول متخصصين من بين الأقوام... واغفر لنا متخصصين من بين العصائب... ولا مانع من نداء الإنساء نفسه كما في قول عمر رضي الله عنه «كُلُّ النَّاسِ أَفْقَهُ مِنْكَ يَا عُمَرُ»، ومثال الاختصاص المعرف بأل: «نحن العربَ أسخى من بذل»، وبالإضافة قوله ﷺ «**إِنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْتُ بَعْدَ مَئُونَةِ عَامِلِي وَنَفَقَةِ نِسَائِي صَدَقَةٌ**»[1]، وبالعلمية: «بنا تميمًا يكشف الضباب».

والغرض من الاختصاص إما تأكيد مدلول الضمير... كما في قولك: أنا أفعل كذا أيها الرجل... وإما إظهار المسكنة والتواضع كقولك: أنا أيها المسكين أطلب المعروف، وإما الافتخار كقولك: نحن العرب أقرى للضيف.

٣-الاستغاثة كقولك: يا لله، أي: أقبل علينا لإغاثتنا، ويا لله للمسلمين... يستغاث به تعالى لإنقاذهم وإنجائهم.

ومنه قول الشاعر:

يَـــا لَقَـــوْمِي ويَالَأَمْثَـــالِ قَـــوْمِي ... لِأُنَـــاسٍ عُتُـــوُّهُمْ فِي ازْدِيَـــادِ

وقول أبي حية النميري:

يَـــا لمَعَـــدٍّ وَيَـــا لَلنَّـــاسِ كُلِّهِـــمُ ... وَيَـــا لَغَـــائِبِهِمْ يَوْمًـــا وَمَـــنْ شَـــهِدَا

٤-الندبة: وهي نداء المتوجع منه أو المتفجع عليه، كقولك: يا رأساه، واعيناه، وامحمداه...

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٩٩٧٢).

ومنه قول المتنبي:

وَاحَـــرَّ قَلْبَــــاهُ مِمَّـــنْ قَلْبُــــهُ شَـــبِمُ ... ومَــنْ بِجِــسْمِي وَحَــالِي عِنْــدَهُ سَــقَمُ

٥-التعجب: كقولك وقد شربت ماء باردًا حلوًا عذبًا: «يا للماء» تريد التعجب من برودته وحلاوته.

ومنه قول امرئ القيس:

فيَالَـــكَ مِـــنْ لَيْـــلٍ كَـــأَنَّ نُجُومَـــهُ ... بِكُـــلِّ مَغَـــارِ الْفَتْـــلِ شُـــدَّتْ بِيَـــذْبُلِ

وقول الفرزدق يهجو جريرًا:

فَوَاعَجَبًـــا حَتَّـــى كُلَيْـــبٌ تَـــسُبُّنِي ... كَـــأَنَّ أَبَاهَـــا نَهْـــشَلٌ أَوْ مُجَاشِـــعُ

وقول الآخر:

فَـــوَا عَجَبًـــا كيـــف اتَّفَقْنَـــا فَنَاصِـــحٌ ... وَفِيٌّ وَمَطْـــوِيٌّ عَـــلَى الْغِـــلِّ غَـــادِرُ

٦-الزجر: كما في قول علي الجارم:

يَـــا قَلْـــبُ وَيحْـــكَ مَـــا سَـــمِعْتَ لِنَاصِـــحٍ ... لَـــمَّـــا ارْتمَيْـــتَ وَلاَ اتَّقَيْـــتَ مَلاَمَـــا

فهو يريد بالنداء زجر قلبه وتأنيبه لعدم استجابته للنصائح وعدم ارعوائه عن هواه وصبابته.

ومثله قول الآخر:

أَفُـــؤَادِي مَتَـــى الْـــمَتَابُ أَلَمَّـــا ... تَـــصْحُ وَالـــشَّيْبُ فَـــوْقَ رَأْسِي أَلَمَّـــا

٧-الوعيد: كما في قول المهلهل متوعدًا آل بكر:

يَـــا لَبَكْـــرٍ أَنْـــشِرُوا لي كُلَيْبًـــا ... يَـــا لَبَكْـــرٍ أَيْـــنَ أَيْـــنَ الْفِـــرَارُ

٨-التنبيه: وقد يأتي حر النداء لمجرد التنبيه وذلك عندما يدخل على الحروف، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٣]، وكما في قوله ﷺ «يَا رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ»(١).

---

(١) رواه البخاري في التهجد برقم (٥/ ١١٢٦).

٩-التحسر والتحزن: وذلك عند نداء الأطلال والمنازل والمطايا والقبور والأموات والويل والحسرة وما إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ﴾ [الفرقان ٢٧- ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦]، فنداء الحسرة والويل في الآيتين يفيد التحسر والتحزن وإظهار الندم، وكأنه يقول: يا ويلتى ويا حسرتى أقبلا، فهذا هو أوانكما، وكأنه أي الكافر لفرط ما هو فيه صار يتخيل أن الويل والحسرة يسمعان ويجيبان فناداهما... وهذا ينبئ عما بداخله من أحزان وآلام وتحسر وندم.

ومن ذلك نداء القبر في قول الحسن بن مطير:

فَتًـى عِـيشَ في مَعْرُوفـهِ بَعْـدَ مَوْتِـهِ ... كَـمَا كَـانَ بَعْـدَ السَّيْلِ مجْـرَاهُ مَرْتَعَـا
أَيَـا قَـبرَ مَعْـنٍ كُنْـتَ أَوَّلَ حُفْـرَةٍ ... مِـنَ الْأَرْضِ خُطَّـتْ لِلسَّمَاحَةِ مَضْجَعًا
وَيَـا قَـبْرَ مَعْـنٍ كَيْـفَ وَارَيْـتَ جُـودَهُ ... وَلَـوْ كَـانَ حَيًّـا ضِـقْتَ حَتَّـى تَـصَدَّعَا

ونداء الميت في قول العتبي بن مالك:

أَعُـدَاءُ مَـا لِلْعَـيْشِ بَعْـدَكَ لَـذَّةٌ ... وَلاَ لخَلِيـلٍ بَهْجَـةٌ بِخَلِيـلِ
أَعُـداءُ مَـا وَجْـدِي عَلَيْـكَ بِهَـيِّنٍ ... وَلا الـصَّبْرُ إنْ أُعْطِيتُـهُ بِجَمِيـلِ

وفي قول عبد الله بن الأهتم يرثي ابنا له:

دَعَوْتُـكَ يَـا بُنَـي فَلَـمْ تجُبْنِـي ... فَـرُدَّتْ دَعْـوَتِي يَأْسًـا عَلَيَّـا

وفي قول الآخر يرثي ابنته:

يَـا دُرَّةً نُزِعَـتْ مِـنْ تَـاجِ وَالِـدِهَا ... فَأَصْـبَحَتْ حِلْيَـةً فِي تَـاجِ رِضْـوَانِ

ونداء المنازل والديار كما في قول النابغة الذبياني:

يـا دارَ ميَّـةَ بالْعَلْيَـاءِ فَالـسَّنَدِ ... أَقْـوَتْ وَطَـالَ عَلَيْهَـا سَالِفُ الْأَمَـدِ

وقول ابن خاتمة الأندلسي أحمد بن علي (ت ٧٧٠هـ):

أَيَـا مَنَـازِلَ سَـلْمَى أَيْـنَ سَـلْمَاكِ ... مِـنْ أَجْـلِ هَـذَا بَكَيْنَاهَـا بَكَيْنَـاكِ

ونداء الناقة في قول حفص بن الأحنف الكناني:

نَفَرَتْ قَلُوصِي مِنْ حِجَارةِ حَرَّةٍ ... بُنِيَتْ عَلَى طَلْقِ الْيَدَيْنِ وَهُوبِ
لاَ تَنْفِرِي يَا نَاقُ مِنْهُ فَإِنَّهُ ... شَرَّابُ خَمْرٍ مُسْعِرٌ لِحُرُوبِ

ونداء البرق في قول أبي العلاء المعري:

فَيَا بَرْقُ لَيْسَ الْكَرْخُ داري وَإِنَّمَا ... رَمَانِي إِلَيْهِ الدَّهْرُ مُنْذُ لَيَالِ
فَهَلْ فِيكَ مِنْ مَاءِ الْمَعَرَّةِ قَطْرَةٌ ... تُغِيثُ بِهَا ظَمْآنَ لَيْسِ بِسَالِ

فوراء تلك النداءات تكمن آلام الشعراء وأحزانهم وتحسرهم وكأنهم لفرط ما يجدون من الوجد والأسى توهموا أن تلك الأشياء تحس وتشعر، أو أرادوا أن يبرزوا ويصوروا للمخاطب أنها تشعر وتعي، وعليها أن تشاركهم آلامهم وأن تستجيب لنداءاتهم، فالقبر في خيال الشاعر حي يعقل وعليه أن يجيب نداءه، والناقة تشعر بآلامه وتفرح لفرحه وتأنس لتلك الحجارة كما أنس... والميت في قبره ينعم ويحيا ويرى ويسمع تأوهاته... والمنازل... والبرق... والأشجار...وغيرها، تستجيب لنداء المكروب وتشعر بألم المتألم... ووراء ذلك تكمن آلامهم وأحزانهم التي تنبعث من تلك النداءات... وهذا هو السر البلاغي وراء النداءات في الشواهد المذكورة.

هذا والنداء يصحب -غالبًا- الأمر والنهي والاستفهام، وكأنه يعد النفس ويهيؤها لتلقي تلك الأساليب، ولذا فهي تتقوى به، لأن النداء يوقظ النفس ويلفت الذهن وينبه المشاعر؛ فإذا ما جاء بعده الأمر أو النهي أو الاستفهام صادف نفسًا مهيأة يقظة، فيقع منها موقع الإصابة حيث تتلقاه بحس واع وذهن منتبه.

ولذا كثر مصاحبة النداء لتلك الأساليب في النظم الكريم على نحو ما ترى في الآيات الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ... ﴾ [الحج: ١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ [المائدة: ٨٧]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الصف: ١٠]، وقد تجمع هذه الأساليب جميعها كما في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحجرات: ١٢].

وتجد النداء في الآيات المذكورة قد تقدم على تلك الأساليب وقد يتأخر عنها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

وقد تقوى هذه الأساليب وتتأكد بغير النداء، وذلك بأن يقع بعدها ما يحث عليها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فقوله: ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ حث على الصلاة وترغيب فيها... ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤]، فقوله: (إنهم كفروا) حث على النهي وتنفير من الصلاة عليهم.

ومن ذلك قول بشار:

بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجِيرِ … إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

فقوله: «إن ذاك النجاح في التبكير» حث على الأمر وترغيب فيه.

وكانت هذه الجمل الخبرية المؤكدة الواقعة بعد الأمر أو النهي أو الاستفهام كذلك، لأنها جمل تعليلية، فهي مستأنفة استئنافًا بيانيًا، ولذا تقوت بها تلك الأساليب وتأكدت.

***

أسلوب التمني

قالوا في تعريفه: هو طلب أمر تحبه النفس وتميل إليه وترغب فيه، ولكنه لا يرجى حصوله إما لكونه مستحيلاً، أو لكونه بعيدًا لا يطمع في نيله... والأداة الموضوعة له هي: «ليت»، تقول في تمني الأمر المحبوب الذي لا طمع فيه لكونه مستحيلاً، لا يمكن حصوله: ليت الشباب يعود يومًا... ليت الكواكب تدنو لي.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣]، وقوله عز وجل ﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧]، فمريم تتمنى أن تكون قد ماتت قبل ذلك... والكفرة يتمنون عند معاينة الحساب أن يردوا إلى الدنيا فيؤمنوا ولا

يكذبوا... والظالم يعض على يديه ندمًا ويتمنى أن يكون قد اتخذ مع الرسول سبيلا، وتلك الأمور المتمناة لا يرجى حصولها أبدًا،لكونها مستحيلة الوقوع.

ومنه قول الشاعر:

أَلاَ لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَومًا فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ(١)

وقول أبي شامة المقدسي:

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي

فالأمر المتمنى في البيتين لا يرجى حصوله لكونه مستحيل الوقوع.

ومنه قول علي بن الجهم:

سَقَى اللهُ لَيْلاً ضَمَّنَا بعْدَ فُرْقَةٍ وَأَدْنَى فُؤادًا مِنْ فُؤادٍ مُعَذَّبِ
فَيَا لَيْتَ أَنَّ اللَّيْلَ أَطْبَقَ مُظْلِماً وَأَنَّ نُجُومَ الشَّرْق لَمْ تَتَغَرَّبِ(٢)

فقد ملأ لقاء الحبيب عليه نفسه، ولم يدع فيها مجالاً لوعي أو فكر، فأخذ يدعو بالسقيا لليل الذي ضمهما بعد فرقة، ولا معنى لسقيا الليل إلا فقدان الشاعر لوعيه وفكره، ثم أخذ يتمنى، فتمنى أمرًا محالاً لا يرجى حصوله، وهو أن يظل الليل مطبقًا عليهما بظلامه، ثم تمنى أمرًا محبوبًا يستبعد حصوله وهو أن تبقى نجوم الشرق فلا تتغرب تاركة بلاد الشرق، ومراده بنجوم الشرق علماؤه ومفكروه.

وتقول في تمني الشيء المحبوب الذي يمكن حصوله ولكنه غير مطموع فيه لبعد مناله: ليت لي مالاً فأحج منه، ليتني ألقى فلانا فأنتفع بعلمه، والبعد هنا بعد نفسي، مرده إلى شعور النفس وإحساسها بذلك الشيء، وقد لا يكون بعيدًا بالنسبة للواقع أو العرف أو العقل.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ

---

(١) وينشد لعبد الرحمن العبدروس (ت ١٧٧٨م):

أَلاَ لَيْتَ الصِّبَا يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ الشَّبَابُ

(٢) المراد بنجوم الشرق في البيت: العلماء والمفكرون، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [القصص: ٧٩]، فقد تمنوا أن يكون لهم مثل تلك الكنوز التي تنوء مفاتحها بالعصبة أولي القوة وهي أمنية محببة لنفوسهم، وليست مستحيلة، بل هي ممكنة الوقوع، ولكنهم لا يطمعون فيها لبعد مناها.

ومنه قول مالك بن الريب:

ألاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِجَنْبِ الْغَضَا أُزْجِي الْقِلاَصَ النَّوَاجِيَا
فَلَيْتَ الْغَضَا لَمْ يَقْطَعِ الرَّكْبُ عَرْضَهُ ... وَلَيْتَ الْغَضَا مَاشَي الرِّكَابَ لَيَالِيَا

فقد تمنى الشاعر في البيت الأول أن يبيت ليلة بجنب الغضا، ذلك الوادي الحبيب إلى قلبه، وهذا غير محال، ولكنه بعيد المنال في نفس الشاعر الذي أحس بدنو أجله فخاطب صاحبيه.

فَيَا صَاحِبَيْ رَحْلِي دَنَا الْمَوْتُ فَاحْضُرَا ... بِرَابِيَةٍ إِنِّي مُقِيمٌ لَيَالِيَا
وَخُطَّا بِأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ مَضْجَعِي ... وَرُدَّا عَلَى عَيْنَيَّ فَضْلَ ردائيا
وَلاَ تَحْسُدَانِي بَارَكَ اللهُ فِيكُمَا ... مِنَ الأَرْضِ ذَاتِ الْعَرْضِ أَنْ تُوسَعَا ليا
تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ ... سِوَى السَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ بَاكِيَا

أما تمنيه في البيت الثاني ألا يقطع الركب عرض الغضا وأن يماشي الغضا الركاب، فهو تمن للأمر المحال وقوعه، وهذا ينبع بمدى حب الشاعر وتعلقه بهذا الوادي.

ويلاحظ أن التمني الأول قد جاء بأداة الاستفهام «هل» التي تنبئ بشدة الرغبة في وقوع المتمنى... أما التمني الثاني فقد جاء بالأداة الأصلية «ليت».

فإذا كان الأمر الممكن يطمع في حصوله، صار طلبه ترجيا وعندئذ تستعمل فيه الألفاظ الدالة على الترجي كلعل وعسى... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾ [عبس: ٣، ٤]، وقوله عز وجل ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [المائدة: ٥٢]، وكون الممكن مرجوا حصوله، مطموعًا فيه أو بعيد الحصول لا طمع فيه، مرده -كما أشرت- إلى

نفس المتكلم وإحساسه، فمثلا إذا كنت تطلب حصول مال وتتوقعه وتطمع في وجوده ونيله قلت مترجيا: لعل لي مالا فأحج به، وإن كنت غير متوقع له ولا طمع لك في نيله، قلت متمنيا: ليت لي مالا فأحج به.

التمني بغير ليت

عرفت أن الأداة الموضوعة للتمني هي «ليت» وقد يتمنى بألفاظ أخرى غيرها لأغراض بلاغية يقصد إليها ويراد تحقيقها.

ومن هذه الألفاظ أدوات الاستفهام مثل: هل وأين ومتى، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [غافر: ١١]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝ ﴾ [القيامة ٧- ١١]، ويقول من وقع في شدة يستبعد زوالها: متى الخلاص؟ والسر البلاغي وراء التمني بالاستفهام في الآيتين هو أن هؤلاء لشدة دهشتهم وفرط حيرتهم طارت عقولهم فظنوا أن غير الممكن صار ممكنا، فاستفهموا عنه، ولذا فإن الدلالة على التمني بطريق الاستفهام تبرز المستحيل -كما في الآيتين- أو البعيد الحصول- كما في المثال، وكما في البيت الأول لمالك بن الريب، في صورة المستفهم عنه الممكن الوقوع، وهذا ينبئ بكمال العناية به وشدة الرغبة في وقوعه.

وقد يتمنى بلو كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر: ٥٨]، وقوله عز وجل: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٠- ١٠٢] فلو في هذه الآيات الكريمة تفيد التمني بدليل نصب المضارع بأن مضمرة بعد الفاء المسبوقة بها، والفرق بين التمني بلو والتمني بليت هو أن التمني بلو يزداد المتمنى فيه بعدًا واستحالة، وسياق الآيات الكريمة ينبئ بهذا، فقد وقع هذا التمني بعد رؤيتهم العذاب وتيقنهم وقوعه، وهذا مما يزيد شعورهم باليأس واستحالة الرجوع إلى الدنيا، ويرجع ازدياد التمني «بلو» بعدًا أو استحالة إلى طبيعة دلالتها إذ هي حرف امتناع لامتناع.

ومن التمني بلو شعرا قول جرير:

وَلَّى الشَّبَابُ حَمِيدَةً أَيَّامُهُ ... لَوْ كَانَ ذَلِكَ يُشْتَرَى أَوْ يَرْجِعُ

ولعلك تشعر بشدة استحالة المتمنى في البيت وهو رجوع الشباب أو شراؤه، وازدياد بعده عن قولك: ليت الشباب يعود يومًا، ومرد ذلك -كما قلت- إلى كون «لو» حرف امتناع لامتناع[(١)].

وقد يتمنى بلعل كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ [غافر: ٣٦]، فبلوغ أسباب السموات من الأمور المستحيلة التي لا يمكن وقوعها وهذا يقتضي استعمال أداة التمني الأصلية، «ليت»، ولكنه عدل عنها إلى «لعل» التي تفيد الترجي لغرض بلاغي وهو إبراز المتمنى المحال في صورة الممكن القريب الحصول وذلك لكمال العناية به وشدة الرغبة في وقوعه...

ومنه قول بشارة الخاقاني (ت ١٧٧٢م):

أَسِرْبَ الْقَطَا هَلْ مَنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ ... لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوِيتُ أَطِيرُ

فقد تمنى بهل، في الشطر الأول: « هل من يعير جناحه»؟ وبلعل في الشطر الثاني «لعلي إلى من قد هويت أطير» والعدول عن «ليت» إلى هاتين الأداتين: «هل ولعل» ينبئ برغبة الشاعر القوية في لقاء بل في سرعة لقاء من يهوى والطيران إليه.

وكما تستعمل لعل في مقام: التمني، فقد تستعمل ليت في مقام الترجي.

كما في قول جرير:

أَقُولُ لهَا مِنْ لَيْلَةٍ لَيْسَ طُولهُا ... كَطُولِ اللَّيَالِي لَيْتَ صُبْحَكِ نَوَّرَا

فانبلاج الصبح وهو أمر مترقب الحصول أبرزه جرير في صورة البعيد الحصول فعبر عنه بليت، وذلك لإبراز الشيء المرجو القريب الوقوع في صورة الشيء البعيد إشعارًا بعزته وامتناعه، وهذا ينبئ بمعاناة الشاعر، وشعوره بامتداد الليل وطوله.

***

(١) انظر دلالات التراكيب والإيضاح ٢/ ٣٣.

حروف التنديم والتحضيض:

وهي: « هلا »... و« ألا »... و« لولا »... و« لوما ».

يرى السكاكي أن هذه الأحرف كانها مأخوذة من «هل»، و«لو» بقلب الهاء همزة في « ألا » مركبتين مع «لا وما»، الزائدتين لإفادتها معنى التمني، وذلك ليتولد من التمني الذي أفادتاه، معنى التنديم في الماضي، كقولك: هلا أكرمت صاحبك... لولا قاتلت الأعداء، ومعنى التحضيض في المضارع، كقولك: ألا تكرم صاحبك، لوما تجتهد في عملك، لأن تمني ما فات يتولد منه التنديم وتمني ما هو آت يتولد منه التحضيض.

وهذا الوجه في تحليل دلالة تلك الأحرف على معنيي التنديم والتحضيض مبني على افتراض أن استعمال: «هل ولو» في التمني سابق لاستعمال: «هلا وألا ولولا ولوما» في التنديم والتحضيض، لأنه يفترض أن المعنى الثاني مما تولد عن هذا الاستعمال، ولا وجه لإثبات ذلك الافتراض، وبخاصة إذا لاحظنا أن «هل ولو» لم توضعا للتمني، فاستعمالها فيه لابد أن يكون قد جاء في مرحلة متأخرة عن استعمالها فيما وضعتا له، ويترتب على هذا أن يكون التنديم والتحضيض قد جاء في الطور الثالث من استعمال الكلمتين، على الرغم من أن التنديم والتحضيض من المعاني التي يحسها الإنسان ويحتاج للعبارة عنها في نفس المرحلة التي يعبر فيها عن معانيه القلبية والذهنية والتي منها التمني والاستفهام وامتناع الشيء لامتناع غيره، فإذا أضفت إلى هذا أن «هل» كانت في الأصل بمعنى «قد» ثم أشربت معنى الاستفهام لطول ملازمتها الهمزة، ازداد هذا الوجه بعدًا(١).

ولم يكن هذا البعد في وجه الدلالة خافيا على السكاكي، ولذا تراه لم يقطع به، بل بناه على الاحتمال حيث قال: «وكأن حروف التنديم والتحضيض، هلا وألا بقلب الهاء همزة، ولولا ولما، مأخوذة منهما- أي من هل ولو- مركبتين مع لا وما المزيدتين، لتضمينهما معنى التمني، ليتولد منه في الماضي التنديم نحو: هلا أكرمت

---

(١) انظر دلالات التراكيب ٢١٣.

زيدًا، وفي المضارع التحضيض نحو: هلا تقوم...»[1]، ولذا فإني أرجح ما قاله النحاة في وجه دلالة هذه الأحرف، حيث ذكروا أنها موضوعة للتنديم والتحضيض من أول الأمر.

***

التعبير بالخبر في موضع الإنشاء

يقع الخبر في موقع الإنشاء وذلك لأغراض بلاغية، وأهداف ومقاصد يقصد إليها البلاغي... وأهمها ما يلي:

١-التفاؤل وإظهار الحرص والرغبة في وقوع المعنى الإنشائي وتحقيقه، إدخالاً للسرور على المخاطب، ويكون ذلك في «الدعاء» بأن يقصد المتكلم طلب الشيء وتكون صيغة الأمر هي الدالة عليه، أو طلب الكف وتكون صيغة النهي هي الدالة عليه، فيعدل عنهما إلى صيغة الإخبار بالماضي الدالة على تحقق الوقوع، وفيه إشعار بأن الدعاء للمخاطب قد حصل وتحقق.

من ذلك قولك لصاحبك: وفقك الله للتقوى والعمل الصالح، وسدد خطاك، ورحمك، وغفر لك... والمعنى: اللهم وفقه وسدد خطاه وارحمه، واغفر له.. وقولك: لا سمعت مكروهًا ولا رأيت شرًا، والمراد: اللهم لا تسمعه مكروهًا، ولا تره شرًا، فعدل عن الأمر والنهي الدالين على الدعاء إلى الإخبار عنه بالماضي الدال على تحقق الوقوع تفاؤلاً وإظهارًا لحرص المتكلم على حدوث ذلك للمخاطب، وإدخالاً للسرور عليه.

ومن ذلك قول عوف بن محلم الشيباني:

إِنَّ الثَّمَانِينَ -وبُلِّغْتَهَا- قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تُرْجُمَانِ

فقوله: «وبلغتها» دعاء للسامع، إذ المراد: اللهم أطل عمره، وبلغه هذه السن، وقد عبر عن ذلك بالماضي إظهارًا لرغبته وحرصه على تحققه ووقوعه.

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٤٧، وانظر الإيضاح جـ ٢ ص ٣٣.

ومثله قول طفيل الغنوي يمدح بني جعفر بن كلاب:

جَزَى اللهُ عنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَفَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِئِينَ فَزَلَّتِ

وقول الشماخ الذبياني في رثاء عمر رضي الله عنه:

جَزَى الله خَيْرًا مِنْ أَمِيرٍ وبَارَكَتْ ... يَدُ الله في ذَاكَ الأَدِيمِ الْمُمَزَّقِ

٢-الاحتراز عن صورة الأمر أو النهي المشعرة بالاستعلاء تأدبًا مع المخاطب حيث يقتضي المقام ذلك التأدب، كقولك لمعلمك: ينظر إلى أستاذي لحظة...لا يعاقبني أستاذي... ولو قلت: انظر بالأمر، أو لا تعاقب بالنهي، لكان قولك مخلاً بما يقتضيه المقام من تأدب التلميذ عند مخاطبة أستاذه.

٣- حمل المخاطب على تحقيق المطلوب وتحصيله وذلك كقول الصديق لصديقه «تزورني غدًا»، وقول الأستاذ لتلاميذه: تأتونني كل صباح... بدلاً من زرني وائتوني بصيغة الأمر، فقد عدل عن الإنشاء إلى الخبر الذي يحتمل الصدق والكذب -كما عرفت- فلو أن الصديق لم يحضر لزيارة صديقه ألصق به الكذب ونسبه إليه، وكذا التلاميذ إذا لم يأتوا كل صباح كما أخبر أستاذهم، نسبوه إلى الكذب وألصقوه به، والصديق حريص على أن ينزه صديقه ويبعده عن الكذب، والتلاميذ يحرصون على أن يكون أستاذهم بمنأى عن الكذب ومنزهًا عنه، ولذا كان التعبير بالخبر في موضع الإنشاء حاملاً للمخاطب على تحقيق المطلوب وتحصيله.

ومن ذلك قول النبي ﷺ «لَاَ يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»(١)، المراد: لا تجمعوا في جزيرة العرب بالنهي، وقد جاء بصيغة الخبر حملاً للمسلمين على تحقيق ذلك وتحصيله، والجهاد في سبيل رفع راية الإسلام حتى لا تعلوها راية.

ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، فقوله: «لا ينكح... لا ينكحها» خبر أريد به النهي، وفي بعض القراءات بالجزم على النهي، وعلى قراءة الرفع يكون التعبير بالخبر

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ في المدينة برقم ١٨، ١٩.

في موضع الإنشاء أبلغ في الزجر وآكد؛ لأنه يبرز المنهي عنه في معرض الواقع المحقق رغبة في حدوثه وحرصًا على تحقيقه وحثًا على الامتثال وسرعة الإجابة.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]، فالمعنى على النهي أي: لا تعبدوا إلا الله، لا تسفكوا دماءكم ولا تخرجوا أنفسكم، وقد عدل عنه إلى الخبر حملاً للمخاطبين على تحقيقه وتحصيله وحثًا لهم على سرعة الإجابة والامتثال.

***

التعبير بالإنشاء في موضع الخبر

وقد يقع الإنشاء في موقع الخبر لأغراض ومقاصد يرمي إليها البلاغي... أهمها:

١-الاهتمام بالشيء، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]، والمعنى: «وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد» فعدل عن الخبر إلى صيغة الأمر: ﴿وَأَقِيمُوا﴾ تنبيهًا إلى وجوب الاهتمام بالمأمور به والحرص على تحقيقه.. لأن في الانتقال من الخبر: « أمر» إلى الإنشاء : «وأقيموا» إيقاظا للمخاطب، وتنبيها له، وهذا يدفعه إلى الاهتمام بالمأمور به، والحرص على تحقيقه وسرعة امتثاله.

٢-الرضا بالواقع حتى كأنه مطلوب، كقوله ﷺ : «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١)، فالمعنى: «تبوأ مقعده من النار»، وقد عدل عنه إلى صيغة الأمر للدلالة على أنه مطلوب، وأنه واقع يؤمر به، وليس على الكاذب إلا الرضا وتنفيذ المطلوب وفي هذا ما فيه من الوعيد والتحذير والزجر.

٣-الاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]، فالمعنى: إني أشهد الله وأشهدكم فعدل

(١) رواه البخاري في كتاب العلم برقم (٣٨/ ١١٠).

عن ذلك إلى ما عليه النظم الكريم من التعبير بصيغة الأمر: «واشهدوا» احترازًا عن مساواة شهادتهم بشهادة الله عز وجل، وفيه أيضًا تعظيم لهود -عليه السلام- وإعلاء لشأنه وتحقير لهؤلاء الكفرة المشركين، والدلالة على دنو منزلتهم،حيث أبرز الأمر هودًا - عليه السلام - في صورة الآمر الذي يوجه إليهم الأمر، وعليهم أن يخضعوا ويذعنوا وأن يستجيبوا لما يأمر به.

***

تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء

وبعد أن عرفت الأساليب الإنشائية والخبرية وما بينهما من فروق دقيقة، وما في اللغة العربية من طواعية لصرف الجملة عن الإنشاء إلى الخبر، وعن الخبر إلى الإنشاء... ينبغي لك أن تعلم أن المتكلم البليغ والأديب المقتدر هو الذي يعرف مواطن الكلام وما يقتضيه كل موطن منها، فيورد كلامه ويصوغ عباراته ملائمة للمقام.

وتنويع الأسلوب بين الخبر والإنشاء مما يجذب السامع ويحرك فكره ويدعوه إلى المشاركة بوجدانه وأحاسيسه، فعلى البليغ مراعاة ذلك، وأن يعرف المواطن التي تحتاج إلى حدة وانفعال وإثارة وتحريك فيورد فيها الأساليب الإنشائية من أمر ونهي واستفهام وتعجب وترج وتمن ونداء، وأن يعرف المواطن التي تقتضي السرد والحكاية، فيورد بها الجمل الخبرية.

وأمام البليغ نماذج ثرية وأمثلة حية من الشعر العربي... انظر إلى الشعر الجاهلي وتبين كيف كان الشاعر يتساءل ويأمر صاحبيه ويتمنى ويصف ناقته ورحلته ويتعجب مما يرى ويشاهد، فتأتي أساليبه ملائمة للمقامات ومبنية على التنويع الذي يجذب السامع ويسترعي انتباهه.

الفصل السابع
الفصل والوصل

الفصل والوصل بين المفردات أو بين الجمل باب دقيق المجرى لطيف المغزى، جليل المقدار، كثي الفوائد، غزير الأسرار... وقد تنبه العلماء قديمًا لدقة هذا الباب وجعلوه البلاغة بأسرها، حيث سئل أحدهم عن البلاغة فقال: البلاغة معرفة الفصل من الوصل(١).

وقال عبد القاهر: «واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خفي غامض، ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب- أي: باب الفصل والوصل- أغمض وأخفى، وأدق وأصعب...»(٢).

والوصل معناه العطف؛ عطف الكلام بعضه على بعض، سواء أكان هذا العطف للمفردات أم للجمل، وسواء أكان بالواو أم بغيرها كالفاء وثم و«أو» والفصل هو ترك العطف، هذا ما ذكره السكاكي...(٣)

ولكن البلاغيين جرت عادتهم في حديثهم عن الفصل والوصل أن يتجاوزوا عطف المفردات وعطف الجمل التي لها محل من الإعراب، معللين ذلك بأن عطف المفردات وكذلك الجمل التي لها محل من الإعراب، أمره هين ويسير، إذ لا يقصد به سوى مجرد التشريك في الحكم الإعرابي، أما دقة الفصل والوصل فإنما تظهر في الجمل التي لا محل لها من الإعراب.

كما تجاوز البلاغيون العطف بغير الواو قائلين: إن الواو من بين حروف العطف هي التي لا تفيد سوى مجرد الإشراك في الحكم ومطلق الجمع، فالعطف بها دقيق مشكل، أما غيرها من حروف العطف فتفيد مع التشريك في الحكم معاني

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٨٨.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٣٧.

(٣) انظر مفتاح العلوم ص ١٢٠

أخرى، فالفاء تفيد: الترتيب والتعقيب، وثم تفيد: الترتيب والتراخي و«أو» تفيد تردد الفعل بين شيئين أو التخيير أو الإباحة، ولذا لم يشكل العطف بتلك الأحرف(١).

وهذا الذي ذكروه وإن كان لا يخلو من الصحة، إلا أننا لا نعدم وجوهًا دقيقة وأسرارا خفية نجدها كامنة وراء العطف بغير الواو، كما أننا لا نعدم وجوهًا أدق وأسرارًا أخفى تكمن وراء عطف المفردات والجمل التي لها محل من الإعراب... ولذا فإنا سنبدأ دراستنا للفصل والوصل بالإشارة إلى هذه الدقائق وتلك الأسرار.

***

العطف بغير الواو

انظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۝﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]، تجد أن الجمل قد وصلت في الآيات الكريمة بحرفي العطف «ثم» و«الفاء» ووراء الوصل بهذين الحرفين تكمن الدقائق واللطائف، فقد بدأت بالخلق الأول، خلق آدم عليه السلام من طين، ولما أريد وصله بالخلق الثاني، خلق التناسل، عطف عليه بثم لما بينهما من التراخي.

ثم تحدثت الآيات عن أطوار الخلق، فوصلت خلق العلقة بالنطفة «بثم» لما بينهما من التراخي، ثم توالت الأطوار خلق المضغة فالعظام فكساء العظام لحمًا، موصولة بالفاء، حيث لم يكن هناك تراخ بينها، ثم وصل تسويته إنسانًابكساء العظام لحمًا بحرف العطف «ثم» إشارة إلى التراخي بينهما(٢).

هذا وعندما تتأمل ما عطف بثم تجده أدق وأبعد مما عطف بالفاء، فقد نزل

---

(١)انظر دلال الإعجاز ص ٢٣١، والإيضاح ٢/ ٦٢.

(٢) ارجع إلى الطراز جـ ٢ ص ٤٤، ٤٥.

الاستبعاد عقلاً أو رتبة منزلة التراخي والبعد الحسي، فعطف بثم ونزل القرب عقلاً أو رتبة منزلة القرب الحسي، فعطف بالفاء[(١)].

ثم جاء قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ معطوفًا بالفاء على تلك الجمل التي جلت أطوار الخلق في هذا النظم المعجز لتنبيه الإنسان إلى ما يجب عليه من المبادرة والإسراع إلى تعظيم الله عز وجل، والإشادة بحسن خلقه وعجيب صنعه، ولهذا نطق أكثر من صحابي بختام الآيات الكريمة: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ قبل أن يمليه النبي ﷺ لكاتب الوحي، ويبتسم النبي ﷺ قائلاً «هكذا نزلت» أو «بها ختمت»[(٢)].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧- ٢٢].

ولاحظ كيف جاء تقدير الإنسان موصولاً بخلقه وإيجاده بالفاء، «خلقه فقدره»، تنبيهًا على أن التقدير مرتب على الخلق وأنه لا تراخي بينهما، وكذا عطف إقباره على موته بالفاء أيضًا: «أماته فأقبره»، إذ لا مهلة بين الموت والإقبار، ولما كان الزمن ممتدًا بين تيسير السبيل وتقدير خلقه، وبين التيسير والإماتة، وبين الإقبار والنشر جاءت هذه الجمل موصولة بثم التي تفيد امتداد الزمن وإطالة المسافة: «... فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذاشاء أنشره».

وخذ قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨١]، وتأمل كيف عطفت الهداية هنا على الخلق بالفاء «خلقني فهو يهدين»، بينما عطفت على الخلق والتقدير في سورة عبس بثم: «من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره» ويرجع هذا الاختلاف إلى السياق والمقام، فالآيات في سورة الشعراء تتحدث عن إبراهيم عليه السلام والعطف بالفاء ينبئ بقوة يقينه وكمال إيمانه بربه، فقد بلغ إيمانه مبلغًا جعله لا يعتد بما بين الخلق والهداية من طول الزمن وامتداد المسافة، ولذا عطف هدايته على خلقه بالفاء:

---

(١) روح المعاني جـ١٨ ص ١٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٢٤٢، وأسباب النزول ص ٢٣٤.

- «خلقني فهو يهدين» أما في سورة عبس فالحديث عن الكافر «قتل الإنسان ماأكفره»، ولهذا جاء العطف بثم.

وانظر في بقية الآيات تجد عطف السقي على الإطعام بالواو إذ المراد الجمع بينهما دون مراعاة لترتيب، وقدم الإطعام على السقي مراعاة لحسن النظم وتناسق الآيات.

ثم جاء عطف الشفاء على المرض «بالفاء» إشارة إلى حدوث ومجيء الشفاء عقب المرض وترتيبه عليه، وتنبيهًا إلى عظم المنة بالعافية بعد المرض بلا تراخ، وانظر إلى حسن الأدب حيث أسند الشفاء إلى الله تعالى دون المرض «مرضت... يشفيني»، ثم عطف الإحياء على الإماتة بثم لما بينهما من التراخي وامتداد الزمن.

هذا والسياق هو الذي يحدد كيفية الوصل بين الجمل ويعين حرف العطف الذي يتحتم استخدامه دون غيره.

انظر في قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا** ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف: ٥٧].

ثم تأمل قوله عز وجل: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٢]، تجد أن سياق الآية الأولى يتحدث عن الكفرة الذين ما زالوا يحيون... يعاندون ويكابرون، ويرفضون قبول الهداية ﴿ **وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا** ﴾ فهؤلاء يعرضون عن الآيات فور تذكيرهم بها ولذا ناسب العطف بالفاء التي تفيد التعقيب: «ذكر بآيات ربه فأعرض عنها»، أما سياق الآية الثانية فيتحدث عن المجرمين الذين انتهت حياتهم وماتوا على الكفر... ﴿ **ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ** ﴿٢٠﴾ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [السجدة: [٢٠ - ٢١].

وهؤلاء قد استمر تذكيرهم في الدنيا بالآيات وامتد زمانًا بعد زمان ثم أعرضوا عنها إعراضًا نهائيًا بالموت وهذا يلائمه العطف بثم التي تفيد الامتداد والتراخي... «**ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون**».

وبهذا يتضح أن العطف بغير الواو يكمن وراءه من الدقائق والأسرار واللطائف ما ينبغي إظهاره وتجليته ولا يمكن إغفاله والتغاضي عنه.

❊❊❊

عطف المفردات

يذكر بعض البلاغيين أن المفردات يعطف بعضها على بعض بالواو إذا كانت متناسبة متجانسة، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فالصلاة والنسك والمحيا والممات أسماء متناسبة، وكذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، الفواحش والإثم والبغي والشرك والقول على الله ما لا يعلمون، ألفاظ متجانسة، ومثله قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فالله والملائكة والكتب والرسل أسماءبينها تناسب وتآلف.

وهذا الذي ذكره البلاغيون غير سديد ولم يسلم لهم؛ لأن التناسب بين الألفاظ والتلاؤم والتجانس بين الكلمات مطلوب سواء أعطفت هذه الكلمات أم لم تعطف، وقد ذكروا ذلك في علم البديع وسموه: «مراعاة النظير»، فالمتكلم ينبغي له أن يراعى التناظر والتجانس والتآلف بين ألفاظه وألايباعد في القول.

ولذا عاب نصيب قول الكميت:

أَمْ هَلْ ظَعَائِنُ بِالْعَلْيَاءِ يَافِعَةٌ ... وَإِنْ تَكَامَلَ فِيهَا الْأُنُسُ وَالشَّنَبُ

فقد عقد عقدة عند سماعه، ولما سأله الكميت ماذا تحصي؟ أجاب: خطأك، باعدت في القول، أين الأنس من الشنب؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لَمْيَاءُ فِي شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ ... وفي اللِّثَاتِ وَفِي أَسْنَانها شَنَبُ

وعاب النقاد قول أبي تمام يمدح أبا الحسين محمد بن الهيثم.

زَعَمَتْ هَوَاكَ عَفَا الْغَدَاةَ كَمَا عَفَا ... عَنْهَا طُلُولٌ بِاللِّوَى وَرُسُومُ

لاَ وَالَّـــذِي هُـــوَ عَـــالِمٌ أَنَّ النَّـــوَى   صَـــبْرٌ وَأَنَّ أَبَـــا الْحُـــسَيْنِ كَـــرِيمُ
مَـا زِلْـتُ عَـنَ سَـنَنِ الْـوِدادِ وَلاَ غَـدَتْ   نَفْـسِي عَـلَى إِلْـفٍ سِـواكَ تحـومُ

حيث جمع بين مرارة النوى وكرم أبي الحسين وهما متباعدان لا تجانس بينهما، والذي أوقع أبا تمام في هذا العيب هو محاولته التخلص من الغزل والانتقال إلى المديح، ولكنه لم يحسن التخلص ووقع فيما وقع من عدم التجانس بين مرارة الفراق وكرم الممدوح.

وقد انتصر بعض لأبي تمام فقالوا: الجامع خيالي لتفاوتهما في خيال الشاعر، أو وهمي وهو ما بينهما من شبه التضاد؛ لأن مرارة النوى كالضد لحلاوة الكرم، أو التناسب، لأن كلا منهما داوء فالصبر دواء للعليل، والكرم دواء للفقير، وكل هذه تكلفات باردة، لا تبرر خطأ أبي تمام، إذ المعتد به هو التناسب الظاهر بين الكلمات والألفاظ.

وخلاصة القول أن التناسب والتجانس والتآلف بين الألفاظ ليس مقصورًا على كونها معطوفة، بل لابد من مراعاة النظير بين المفردات سواء أكانت معطوفة أم غير معطوفة.

ويذكر البلاغيون أن الصفات لا يعطف بعضها على بعض إلا إذا كانت متضادة، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [الحديد: ٣]، أما إذا كانت غير متضادة فإنها تذكر بلا عطف، كما في قوله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾ [الحشر: ٢٣- ٢٤].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم: ٥]، تجد أن الصفات قد توالت بلا عطف إلا «ثيبات وأبكارا» فقد عطفت «أبكارًا» على «ثيبات» لما بينهما من التضاد.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ١١٢]،

توالت الصفات بلا عطف ما عدا صفتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد جاءت الواو بينهما لأنهما متضادان.

وعندما يرى هؤلاء البلاغيون أن الواو قد جاءت بين صفتين ليس بينهما تضاد يحاولون أن يتلمسوا وجهًا من التضاد بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ [غافر: ١ - ٣]، حيث عطفت في الآية صفة: «قابل التوب»، على صفة«غافر الذنب» وهما غير متضادين ولكن البلاغيين يتعسفون عندما يحاولون إثبات وجه من التضاد بين الصفتين في الآية الكريمة.

فقد ذكروا أن المغفرة ترجع إلى السلب، لأن معنى «غافر» الذي لا يفعل العقوبة مع الاستحقاق، فغفران الذنب محوه وإزالته، وقبول التوبة يرجع إلى الإثبات، لأن معناه قبول الندم والعذر وبين السلب والإثبات تضاد...

وقالوا أيضًا: إن الجمع بينهما لسر لطيف وهو إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين، بين أن قبول توبته فتكتب له طاعة، وبين أن تمحى ذنوبه، كأنه لم يذنب.

وقالوا: إن المغفرة مختصة بالعبد وقبول التوبة مختص بالله تعالى، فالله عز وجل يغفر حينًا من تلقاء نفسه بفضله ومنه وكرمه، وحينًا يعفو عن المذنب بسبب ندمه واعتذاره وتوبته[1].

وما من ريب في أن هذا تعسف ظاهر، ونحن في غنى عنه خاصة وأن ما قالوه عن الصفات المتضادة وأنه يجب فيها العطف بالواو، قول غير سديد، فقد ترد الصفات متضادة وبدون عطف... كما في قوله تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝ ﴾ [الواقعة: ١-٣].

وكما في قول امرئ القيس:

مِكَـرٍّ مِفَـرٍّ مُقْبِـلٍ مُـدْبِرٍ مَعًـا ... كَجُلْمُـودِ صَـخْرٍ حَطَّـهُ السَّيْلُ مِنْ عَـلِ

كما ترد الصفات غير متضادة ومعطوفة، على نحو ما رأينا في الآية الكريمة:

---

(١) انظر الطراز ٢/ ٣٦.

«غافر الذنب وقابل التوبة»، ومثله قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٦- ١٧]، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ولذا فإن الأولى والأجدر أن تهتم الدراسة البلاغية بالبحث عن الأسرار الكامنة وراء الواو وأن تكشف وتجلي سر مجيئها حين تأتي وسر تركها حين تترك، فهذه الواو تفيد التغاير، وعندما تأتي بين الصفات فإنها تفيد كمال اتصاف الموصوفين بكل صفة منها على حدة، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝ ﴾ [آل عمران:١٧] تجد أن الواو دلت على كمالهم في كل واحدة منها(١).

وعندما تترك الواو وتأتي الصفات متوالية بلا عطف فإنها تفيد كمال اجتماعها في الموصوف، خذ قوله تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ﴾ الآية [التوبة:١١٢]، وقوله: ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ.. ﴾ الآية [التحريم:٥] وتأمل فستجد أن ترك الواو أفاد أن هذه الصفات مجتمعة في الموصوفين، وكأنها صفة واحدة، فذكر الواو بين الصفات يفيد أنهم كاملون في كل صفة على حدة، وتركها يفيد أنها مجتمعة فيهم(٢).

وعلى هذا فقول امرئ القيس:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

يفيد أن هذه الصفات قد اجتمعت في الجواد في وقت واحد من غير أن تكون مستقلة متغايرة، ولو أنه قال: مكر ومفر ومقبل ومدبر، لما صح أن يقول معا، وكذا

---

(١) انظر الكشاف ١/ ٢٦٣.

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٢٤٦.

القول في الآية الكريمة: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝ ﴾، أي: تخفض وترفع في زمن واحد، ويقع منها الفعلان معا، ولو قيل في غير القرآن خافضة ورافعة، لم يفد ذلك... وكذا قولنا: فلان كاتب شاعر يخالف قولنا: فلان شاعر وكاتب، فالأول أفاد اجتماع الكتابة والشعر، والثاني أفاد كمال اتصاله بكل صفة على حدة.

وكما تقع الواو بين الصفات، فقد تأتي بين الصفة والموصوف وبين الحال وصاحبها سواء أكانت الصفة مفردة أم جملة وسواء أكانت الحال مفردة أم جملة.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٥٣]، فالفرقان صفة للكتاب، وقد عطفت عليه بالواو، وأفاد هذا العطف الجمع بين كونه كتابًا منزلاً، وفرقانًا يفرق بين الحق والباطل.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨]، فضياء، وذكرًا، حال متعددة للفرقان، وقد جاءت بالواو لتفيد الجمع بين كونه فرقانًا وضياء وذكرًا...[١].

واقرأ قوله عز وجل: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد عطفت الواو جملة الصفة «ثامنهم كلبهم» على الموصوف «سبعة» وهذا العطف أفاد -كما ذكر الزمخشري- شدة لصوق الصفة بالموصوف، وهذا يؤذن بثبات تلك الصفة وصوابها، ولذا قال بعد القولين الأولين «رجمًا بالغيب»، وجاء عقب هذا القول: « مايعلمهم إلا قليل»[٢].

وإفادة الواو لشدة لصوق الصفة بالموصوف، يكمن وراء ما تفيده من معنى التغاير، فكأن القائلين قد قالوا قولين، قالوا: سبعة، وقالوا: ثامنهم كلبهم، ويتضح هذا في قولنا: جاء محمد غلامه يسعى بين يديه، وجاء محمد وغلامه يسعى بين يديه،

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٣٣، والكشاف ١/ ١٠٤.

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٥٥٧.

فالأول إخبار عن مجيء هذا حاله، والثاني إخبار عن المجيء وعن حاله وكأنك بعد الإخبار بالمجيء استأنفت إخبارًا آخر عن حال المجيء[(١)].

وتأمل الآيتين الكريمتين: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ﴾ [الحجر: ٤]، تجد أن الكتاب أي: الأجل المعلوم مما يمكن خفاؤه فيتسرب إليه الإنكار، أما المنذرون فلا يتأتى إنكارهم لظهورهم، ولهذا جاءت الواو بين الموصوف وجملة الصفة في الآية الثانية لتؤكد لصوق الصفة بموصوفها، دفعًا لما قد يقع من إنكار، وجاءت الآية الأولى بدون الواو، لأنها لا تحتاج إلى هذا التأكيد، وجاء التأكيد -كما قلنا- من إفادة الواو لمعنى التغاير، وكأنك تبتدئ بها إخبارًا آخر، ففرق بين أن تذكر قرية هذه الصفة جزء منها، وأن تذكر قرية ثم تبتدئ وصفًا لها[(٢)].

وقد زعم بعض البلاغيين أن الواو لا تدخل بين الصفة والموصوف فلا تقول: جاء زيد والكريم، على أن الكريم هو زيد، لأنه يستحيل عطف الشيء على نفسه[(٣)].

ولا يخفى عليك الآن رد هذا الزعم، كما لا يخفى عليك أن عطف الصفة على الموصوف، ليس عطفًا للشيء نفسه، بل إن الصفة تفيد معنى آخر ومرجع ذلك إلى ما تفيده الواو من معنى التغاير.

هذا وعندما ننظر في المفردات المعطوفة، وترتيبها في الكلام وتقديم ما قدم منها وتأخير ما أخر، نجد كثيرًا من الدقائق واللطائف والاعتبارات البلاغية.

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ﴾ [النساء: ١]، وقوله عز وجل: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، تجد أن عطف الوالدين والأرحام على ضمير لفظ الجلالة يدعو إلى الاهتمام بهم ويلفت وينبه إلى ما ينبغي لهم من حسن الرعاية، وجميل المعاملة، فلا يخفى عليك ما بين

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٤١.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ١٣٣.

(٣) انظر الطراز: ٢/ ٣٤.

المعطوف والمعطوف عليه من تباعد وتباين، وفي اقترانه به تشريف وتعظيم وحث على مزيد من البر والعطف.

وترى في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان:٤٨ - ٤٩]، تقديمًا للأنعام على الأناسي؛ لأن في حياة الأنعام حياة للأناسي...

وقد يكون في التقديم تعظيم وتشريف للمقدم كما في قوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، وقوله عز وجل: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقد يكون التقديم للترقي من العدد القليل إلى العدد الكبير كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء: ٣].

وقوله عز وجل: ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ ﴾ [فاطر: ١]، أو للتدني من الكثير إلى القليل كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ [سبأ: ٤٦]، أو مراعاة للتقديم الزمني كما في قوله عز وجل: ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ [التوبة: ١١١]، إلى غير ذلك مما يكمن وراء عطف المفردات من دقائق وأسرار.

***

الوصل والفصل بين الجمل

عرفنا فيما سبق أن الجمل نوعان: جمل لها محل من الإعراب، وجمل لا محل لها من الإعراب، كما عرفنا أن الجمل التي لها محل من الإعراب حكمها حكم المفرد، لأنها تقع موقعه وتأخذ حكمه الإعرابي، فالعطف عليها يكون بمثابة العطف على المفرد.

يقول عبد القاهر: «الجمل المعطوف بعضها على بعض، على ضربين، أحدهما: أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب، وإذا كانت كذلك، كان حكمها حكم المفرد، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد

وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد، وكان عطف الثانية عليها جاريًا مجرى عطف المفرد، كان وجه الحاجة إلى الواو ظاهرًا، والإشراك بها في الحكم موجودا»[١].

وهذا لا يعني أن الجمل التي لها محل من الإعراب لا تخضع لما تخضع له الجمل الأخرى التي ليس لها محل من الإعراب، بل هي خاضعة لما تخضع له وما يجري على هذه من أحكام الفصل والوصل يجري على تلك، بالإضافة إلى أن الجمل التي لها محل من الإعراب تختص بخضوعها لهذا الحكم الظاهر وهو وقوعها موقع المفرد، فإذا أردنا إشراك الجملة الثانية للأولى في حكمها الإعرابي عطفنا بالواو مع مراعاة المناسبة أو الجهة الجامعة التي تسوغ العطف، وإذا لم نرد التشريك في الحكم الإعرابي يمتنع العطف.

فتعالوا ننظر في هذا الحكم الذي تختص به الجمل التي لها محل من الإعراب، ثم نمضي بعد ذلك إلى مواضع الفصل والوصل التي تخضع لها جميع الجمل.

***

متى توصل الجمل التي لها محل من الإعراب؟ ومتى يتعين فصلها؟

: توصل الجمل التي لها محل من الإعراب، إذا قصد تشريك الثانية للأولى في حكمها الإعرابي، وكان بينهما مناسبة، أي: جهة جامعة تسوغ العطف، كما في قوله تعالى: ﴿ **مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فجملة «يقبض» وقعت خبرًا للفظ الجلالة، وجملة «يبسط» عطفت عليها بالواو؛ لأن القصد إشراك الثانية للأولى في الحكم الإعرابي وهو وقوعها خبرًا للمبتدأ، وبين الجملتين تناسب، إذ المسند إليه في كل منهما واحد وهو الله عز وجل، وبين المسندين «يقبض ويبسط» تضاد فهما متناسبان.

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٤٦.

وسر بلاغة الوصل في هذا الموطن أن الآية الكريمة تصور عظمة القادر، وأنه بيده الأمر وإليه المرجع، فالجمع بين القبض والبسط مما يحقق ذلك، ولو ترك العطف فقيل في غير القرآن: والله يقبض يبسط بدون الواو، لكان ذلك موهمًا أن قولنا: «يبسط» رجوع عن قولنا: يقبض وإبطال له، ومما يبرز تلك العظمة أيضا عطف جملة «وإليه ترجعون» على جملة ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ لمابينهما من التوسط بين الكمالين وعدم المانع من العطف -الآتي بيانه.

وانظر إلى ما أفادته «الفاء» في قوله «فيضاعفه له» من الترتيب والتعقيب... نظم بديع ودقائق عجيبة، المتصدق المنفق في سبيل الله كأنه يقرض الله قرضًا حسنًا، والله عز وجل يعجل له الثواب بل ويضاعفه له أضعافًا كثيرة، والذي يبادر بمضاعفة الثواب هو الله القادر، الذي يقبض ويبسط وإليه المرجع والمآل... وفي هذا حث على البذل والعطاء وتأكيد للإثابة ما بعده تأكيد.

ومن أمثلة العطف لقصد التشريك في الحكم الإعرابي قولنا: «فلان يعطي ويمنع ويضر وينفع ويأمر وينهي ويحسن ويسيء ويحل ويعقد...» تجد أن الواو قد أضفت على المعنى قوةً وظهورًا، حيث أوجبت للمسند إليه الفعلين معًا، وجعلته يفعلهما جميعًا، ولو قلت: يعطي يمنع... يضر ينفع، من غير واو لم يجب ذلك، بل قد يجوز أن يكون رجوعا عن الأول وإبطالاً له... وغالبًا ما تستعمل مثل هذه الأساليب في مقام المدح الذي يحتاج إلى المبالغة وإظهار قوة الفعل[١].

تأمل قول أبي تمام مادحًا:

لهَانَ عَلَيْنَا أنْ نَقُولَ وَتَفْعَلاَ وَنَذْكُرَ بعضَ الفَضْلِ منْكَ وتُفْضِلاَ

تجد أن جملة «أن نقول» قد وقعت فاعلا للفعل «هان» حيث سبل منها مع أن مصدر، ووقع المصدر المؤول من أن والفعل فاعلًا، ثم اشتركت معها بقية الجمل في هذا الحكم فعطفت بالواو، ولو أردت إسقاط هذه الواوات ما استطعت إلى ذلك سبيلا؛ لأنك تجد المعنى يمتنع عليك، حيث أراد أبو تمام أن يجمع بين مدحه وكرم

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٤٨.

الممدوح وبين ذكره لبعض فضائل الممدوح وزيادة الممدوح في العطاء... فأي واو تطاوعك في الذهاب دون أن يضيع المعنى الذي قصد إليه الشاعر؟

وتأمل قول اللهبي –الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب (ت ٩٥هـ):

لاَ تَطْمَعُوا أنْ تُهِينُونَا ونُكْرِمَكُم   وأَنْ نَكُفَّ الأذَى عَنْكُمْ وَتُؤذُونَا

تجده قد قصد إلى الجمع بين الإهانة والإكرام وبين كف الأذى والإيذاء، ولا يخفى عليك مدى الترابط بين هذه الجمل، وأنك لو حاولت نزع جملة منها لاختل المعنى وضاع غرض الشاعر.

ومن ذلك قول المتنبي:

وَلِلسِّرِّ مِنِّي مَوْضِعٌ لاَ يَنَالُهُ   نَدِيمٌ وَلا يُفْضِي إليهِ شَرابُ

فقد اشتركت الجملتان: «لا يناله نديم» و«لا يفضي إليه شراب» في وقوعهما صفة لموضع، ومقام المبالغة في كتمان السر يقتضي هذه المشاركة.

ومثله قول المعري:

وَحُبُّ الْعَيْشِ أَعْبَدَ كُلَّ حُرٍّ   وَعَلَّمَ سَاغِبًا أَكْلَ الْمِرَارِ(١)

اشتركت الجملتان: «أعبد كل حر» و«علم ساغبا أكل المرار» في وقوعهما خبرًا للمبتدأ «حب العيش»، ولو أسقطنا الجملة الثانية لضاع غرض المعري، حيث أراد: أن حب الحياة حبًا شديدًا والجري وراء متاع الدنيا قد جعل الحر عبدًا واضطر الإنسان إلى أن يحتمل الأذى، وهذا المعنى لا يتحقق إلا بالجملتين معًا.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٧]، تجد الجملتين: «لا يستطيعون نصركم»، و«لا أنفسهم ينصرون»، وقد وقعتا خبرًا للمبتدأ، والجمع بينهما يحقق ما تهدف إليه الآية الكريمة من تحقير هذه المعبودات، وهذا لا يتم إلا بالجملتين معًا كما لا يخفى.

---

(١) السَّغب: الجوع مع التعب، يقال: سغب سغبًا، أي: جاع مع تعب، والمسغبة: المجاعة، قال تعالى: (أو إطعام في يوم ذي مسغبة) [البلد: ١٤].

إلى غير ذلك من الشواهد والأمثلة التي يكون هدف المتكلم من ورائها اشتراك الجملتين في الحكم الإعرابي كقولك: علي يقرأ ويكتب... ألم تعلم أني أحترمك وأقدرك... إني أحسنت وأسأت... يكفيك ما قلت وسمعت... أيحسن أن تنهي عن شيء وتأتي مثله... ولا يخفى عليك وجه المناسبة بين الجملتين في كل ما مر من شواهد وأمثلة، فإذا انعدمت المناسبة بين الجملتين امتنع اقترانهما، فلا تقول: هو يكتب الشعر ويأكل السمك، حيث لا مناسبة بين كتابة الشعر وأكل السمك...

ولهذا عيب قول أبي تمام:

لاَ والَّـــذي هُـــوَ عَـــالمٌ أنَّ النَّـــوَى   صَـــبرٌ وأنَّ أبَـــا الْحُـــسَيْنِ كَـــرِيمُ

سواء أجعل من عطف المفرد على المفرد، أي: عطف كرم أبي الحسين على مرارة النوى أم عن عطف الجمل أي: عطف جملة: «أن أبا الحسين كريم» على جملة «أن النوى صبر» ووقوعهما معًا مفعولا به لقوله «عالم» وقد مر بنا البيت في عطف المفرات ووقفنا على دفاع من حاول الدفاع عن أبي تمام وأن يلتمس وجهًا للمناسبة بين كرم الممدوح ومرارة الفراق.

وأذكرك هنا بما قلته هناك من أن المناسبة والتآلف مطلوب بين المفردات وبين الجمل سواء أعطفت أم اقترنت بدون عطف، فكما لا يجوز أن تقول: هو يكتب الشعر ويأكل السمك، فإنه يمتنع أيضًا قولك: هو يكتب الشعر يأكل السمك، بدون واو وكذا يمتنع الجمع بين مرارة الفراق وكرم الممدوح بلا عطف.. فلا وجه إذًا لما صنعه البلاغيون من قصرهم المناسبة على المفردات المعطوفة والجمل المعطوفة، لأن المناسبة بين المفردات أو الجمل مطلوبة عند اقترانها بالعطف أو بدون العطف.

هذا وقول البلاغيين: «إن قصدت التشريك في الحكم الإعرابي عطفت»[(١)]، معناه: جواز العطف وأنه هو الغالب والأكثر ولا يفهم منه وجوب العطف، لأن مرادهم أنك إذا لم تقصد التشريك في الإعراب يمتنع العطف حتى لا يتوهم خلاف المراد، ومما يرجح هذا الزعم قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣

---

(١) الإيضاح ٢/ ٦٣.

عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن: ١-٤]، حيث اشتركت الجمل الثلاث في وقوعها خبرًا للمبتدأ، وقد جاءت مفصولة كما ترى... ومن ذلك قولنا: فلان أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل. كثرك بعد قلة، فعل لك ما لم يفعله أحد لأحد، فماذا تنكر من إحسانه؟

ومنه قول أبي هلال:

ووجـــهٌ تـــشَرَّبَ مَـــاءَ النَّعِـــيمِ فَلَــوْ عُــصِرَ الْحُــسْنُ مِنْــهُ انْعَــصَرْ
يَمُـــــرُّ فَأَمْنَحُـــــهُ نَــــاظِرَيَّ فَيَنْـــــشُرُ وَرْدًا عَلَيْـــــهِ الْـــــخَفَرْ

ومجيء هذه الجمل المشتركة في الحكم الإعرابي منقطعة يشعر بأن كل واحدة منها تنهض بالغرض وحدها من غير أن ينضم إليها غيرها(١).

-وكما قلت- فإن الغالب والأكثر أن تجيء الجمل التي قصد تشريكها في الحكم الإعرابي معطوفة، على نحو ما مر بنا من شواهد، بل أحيانًا نجد أن هذا العطف واجب قد تعين وأن تركه يوهم خلاف المراد -كما رأينا في قوله تعالى: «والله يقبض ويبسط»، وقولهم: «فلان يعطي ويمنع ويحل ويعقد».

وقول اللهبي- الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب (ت٩٥هـ):

لاَ تَطْمَعُـــوا أَنْ تُهِينُونَـــا وَنُكْـــرِمَكُمْ وَأَنْ نَكُـــفَّ الأَذَى عَـــنْكُمْ وَتُؤْذُونَـــا

فترك العطف في مثل هذه الشواهد يوهم إبطال الجملة الأولى والرجوع عنها، ومن ثم وجب وصلها حتى لا يتوهم خلاف المراد.

فإذا لم يقصد تشريك الجملة الثانية للأولى في الحكم الإعرابي تعين فصلهما، لأن الوصل عندئذ يوهم خلاف المراد، تأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة: ١٤- ١٥]، تجد أن جملة: «الله يستهزئ بهم»، قد فصلت عن جملة «إنا معكم» حيث لم يقصد التشريك بينهما في الحكم الإعرابي، فجملة: «إنا معكم» مقول القول، وجملة «الله يستهزئ بهم»، إخبار من الله عز وجل، ولو

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٠٤.

وصلت بالأولى لأدى هذا الوصل إلى توهم أنها من مقول المنافقين، فدفعًا لهذا التوهم تعين الفصل بينهما.

أما فصل: «إنا معكم» عن «إنما نحن مستهزءون» فلكمال الاتصال الآتي بيانه، وكذا لا يجوز عطف: «الله يستهزئ بهم»، على جواب الشرط: «قالوا»، لأن استهزاء الله بهم غير مقيد بوقت خلوهم إلى شياطينهم... ولاحظ الوصل بين جملتي: «يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم» لوقوعهما خبرًا للفظ الجلالة، فالعطف لقصد التشريك في الحكم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١- ١٢]، فجملة: «ألا إنهم هم المفسدون» لم يقصد تشريكها في الحكم الإعرابي لجملة: «إنما نحن مصلحون»، لأنها ليست من مقولهم بل هي من كلام رب العزة، إخبار منه تعالى، ولذا وجب الفصل بينهما حتى لايتوهم غير المراد.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣]، فقد فصل: «ألا إنهم هم السفهاء»، عن: «أنؤمن كما آمن السفهاء»، حتى لايتوهم أنها من كلام المنافقين، وهو ما لا يخفى فساده... ولاحظ في الآيتين الوصل بين جملتي: إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»، وبين جملتي: «إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون»، والوصل بينهما للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع من العطف -كما سنرى في مواضع الوصل-.

هذا وقصد التشريك في الحكم الإعرابي أو عدم قصده وإن كان ظاهرًا بينًا في كثير من التراكيب، إلا أنه قد يدق ويلطف بحيث يحتاج إلى مزيد من التأمل والنظر...

انظر في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ [آل عمران: ٣٦]، فقد يقول صاحب النظرة العاجلة إن الجمل: «رب إني وضعتها أنثى...

وليس الذكر كالأنثى، وإني سميتها مريم، وإني أعيذها»، من مقول مريم، أما جملة: «والله أعلم بما وضعت»، فمن كلام الله تعالى، وقد جاءت موصولةبمقولات مريم، ولكن عندما يتأنى هذا العاجل ويتأمل يتضح له أن هذه الجملة: «والله أعلم بما وضعت» جملة اعتراضية وليست معطوفة على مقولات مريم، وهنالك قراءة بضم تاء: «وضعت»، وعلى هذه القراءة تكون الجملة من مقولات مريم، ويكون في التركيب التفات من الخطاب في «رب» إلى الغيبة في: «والله» ثم التفات ثان إلى الخطاب في: «وإني أعيذها بك ...»، ووراء هذا الالتفات سر بلاغي دقيق وهو الإشارة إلى بعد المنزلة وعلو المكانة وكمال علمه تعالى ثم إلى قربه من عباده فهو أقرب إليهم من حبل الوريد، ولذا عندما دعت مريم خاطبت: «رب إني... وإني أعيذها بك وذريتها...»، وعندما أخبرت عن علمه، التفتت إلى الغيبة: «والله أعلم بما وضعتُ» ففي هذا الالتفات إنباء ببعد المنزلة وعلو المكانة وكمال علم الله تبارك وتعالى.

وخلاصة القول أن الجمل التي لها محل من الإعراب إذا قصد إشراكها في الحكم الإعرابي وصلت، وقد ترد نادرًا بلا وصل... وإذا لم يقصد التشريك وجب فصلها؛ لأن الوصل عندئذ يوهم خلاف المراد... وهذا الحكم يختص كما هو واضح بالجمل التي لها محل من الإعراب، ثم هي تخضع لأحكام فصل ووصل الجمل التي ليس لها محل من الإعراب، والتي سنتحدث عنها الآن.

***

مواضع الفصل

ذكر البلاغيون أن الفصل بين الجمل ينحصر في خمسة مواضع هي:

١ - **كمال الاتصال**: وهو أن تتفق الجملتان في الإنشائية أو الخبرية لفظًا ومعنى أو معنى فقط، ويكون بينهما من الاتصال والاتحاد والتلاحم ما يمنع العطف بالواو، لأن العطف وصل خارجي، وهذه الجمل قد صار ما بينها من التلاحم والاتصال والترابط أقوى وأشد من الربط الخارجي، ولذلك ينبغي أن نقول: ترك العطف بين هذه الجمل لقوة اتصالها وشدة ترابطها، ولا يقال: فصل بينها، وترجع قوة اتصال تلك الجمل وشدة ترابطها إلى أمور ثلاثة:

الأول: أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى تأكيدًا لفظيًا أو معنويًا، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق: ١٧]، تجد أن الجملة الثانية «أمهلهم رويدا»، توافق الجملة الأولى في اللفظ والمعنى وأنها توكيد لفظي لها، ولذا صارت الصلة قوية بين الجملتين فلا تحتاج إلى ربط بالواو؛ لأن التوكيد والمؤكد كالشيء الواحد، ومن ثم ترك العطف لعدم صحة عطف الشيء على نفسه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ [البقرة: ٢]، تجد أن الجملة الأولى: «ذلك الكتاب» أفادت: أن القرآن الكريم هو الكتاب الكامل الذي بلغ الغاية القصوى في كمال الهداية، وترجع هذه الإفادة إلى تعريف الطرفين: تعريف المسند إليه باسم الإشارة الدال على البعيد «ذلك» إشارة إلى بعد المنزلة وعلو المكانة، وتعريف المسند بالألف واللام «الكتاب»... وجملة «لا ريب فيه» تفيد نفي الريب عنه وأنه لا يتطرق إليه شك، وهذا تقرير وتأكيد لمعنى الجملة الأولى، إذ يلزم من بلوغ القرآن الكريم درجة الكمال ألا يكون محلاً للريب والشك، فجاءت جملة «لا ريب فيه» مقررة لهذا المعنى، ومؤكدة له...

وجملة «هدى للمتقين»، تفيد بلوغ القرآن في الهداية مبلغًا لا يدرك كنهه، حتى كأنه هداية محضة، وهذا مأخوذ من تنكير «هدى» الذي يدل على التعظيم، ومن أنه لم يقل «هاد»، بل «هدى»، وهدى خبر لمبتدأ محذوف أي هو هدى، فهو الهداية نفسها، ولا يخفى عليك تأكيد هذه الجملة لمعنى الجملة الأولى: «ذلك الكتاب»... ولذا ترك العطف بين هذه الجمل لأن بينها اتصال قوي فهي لا تحتاج إلى ربط بالواو.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ١٤]، فجملة «إنما نحن مستهزءون» مؤكدة لجملة «إنا معكم»، لأنهم ما داموا مستهزئين بالإسلام وأهله، فهم مستمرون في معية شياطينهم... ولاحظ أن الجملتين قد وقعتا مقولا للقول وهذا يؤكد ما قلناه لك من أن الجمل التي لها محل من الإعراب تخضع لمواضع الفصل والوصل التي تخضع لها الجمل التي ليس لها محل.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة: ٦-٩]، تجد أن جملة: «لا يؤمنون» مؤكدة لجملة: «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم»، لأن معنى الثانية: يستوي عندهم الإنذار وعدمه، وجملة: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم...» تأكيد ثان أبلغ من التوكيد الأول لأن من كانت حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر، كان في غاية الجهل وكان مطبوعًا على قلبه لا محالة، وعلى سمعه، وكان على بصره غشاوة، تحول بينه وبين رؤية الحق، ولذا ترك العاطف بين هذه الجمل الثلاث لما بينها من كمال الاتصال.

كما تجد أن جملة «يخادعون الله والذين آمنوا» مؤكدة لجملة «آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين»؛ لأن من يضمر خلاف ما يظهر؛ فإنه يخادع...يخادع الله، ويخادع رسوله، ويخادع المؤمنين.

وانظر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ [لقمان: ٧]، تجد أن جملة: «كأن في أذنيه وقرا» مؤكدة لجملة: «كأن لم يسمعها»، لأن معنى «كأن لم يسمعها»، أنه لم يسمعها مصادفة أو قصدًا لعدم سماعها، ومعنى الثانية: أنه لم يسمعها لفساد سمعه، فلما كانت الثانية مقررة ومؤكدة للأولى ترك العطف لما بينهما من كمال الاتصال.

هذا -وكما ذكرت لك- أن الجملة الثانية المؤكدة للأولى، إما أن تكون بمثابة التوكيد اللفظي، وهو ما يكون مضمون الجملة الثانية فيه مؤكدًا لمضمون الجملة الأولى لاتفاق مفهوميهما كما رأينا في الآية الكريمة ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝ ﴾ [الطارق: ١٧]، وكما في الآية الكريمة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾؛ فجملة: «هدى للمتقين» يتفق مفهومها مع جملة: «ذلك الكتاب»؛ لأن الكمال فيهما كمال في الهداية -كما رأينا-.

وإما أن تكون الثانية منزلة من الأولى منزلة التوكيد المعنوي وهو أن يختلف مفهوم الجملتين، ويكون معنى الثانية مقررًا لمعنى لأولى على نحو ما رأينا في

الشواهد المذكورة، وهذا يعني أن الجملة الثانية تتضمن معنى جديدًا، ولكنه يؤكد معنى الأولى...

تأمل الآية: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]، تجد أن الجملة الثانية تحمل معنى جديدًا يخالف معنى الأولى، ولكنه يؤكده ويقرره..

وتأمل الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ تجد أن جملة: «لا ريب فيه»، تحمل معنى جديدًا وهو نفي الريب عن القرآن، وهذا المعنى يؤكد ويقرر معنى الجملة الأولى: «ذلك الكتاب».

وانظر في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وتأمل شدة التلاحم وقوة الاتصال بين الجمل في هذا القول الكريم، ثم لاحظ أن كل جملة منها تحمل معنى جديدًا يغاير معنى الأخرى، ولكنها تصب جميعًا في جهة واحدة، وتهدف إلى غاية واحدة، ألا وهي توكيد الوحدانية(١).

ومن أقوالهم في هذا الصدد قول المتنبي:

وَمَا الدَّهْرُ إلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَصائِدِي ... إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

فالشطر الثاني لم يعطف على الشطر الأول، لأنهما قد اتحدا في المعنى واللفظ، فلا حاجة إلى وصلهما بالواو لقوة الرابطة وشدة الاتصال بينهما.

وقول الأحوص:

إِذَا رُمْتُ عَنْهَا سَلْوَةً قَالَ شَافِعٌ ... مِنَ الْحُبِّ مِيعَادُ السُّلُوِّ الْمَقَابِرُ

سَتَبْقَى لهَا في مُضْمَرِ الْقَلْبِ والْحَشَا ... سَرِيرَةُ حُبٍّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ

فجملة: «ستبقى لها...» مؤكدة ومقررة لجملة: «ميعاد السلو المقابر» ولذا ترك العاطف: لأن شدة الترابط وكمال الاتصال بينهما لا يحوجان إليه.

---

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ٣١٥.

الثاني: أن تكون الجملة الثانية منزلة من الأولى منزلة بدل الكل أو البعض أو بدل الاشتمال.. من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء: ١٣٢- ١٣٤]، فصلت الجملة الثانية: «أمدكم بأنعام ...» عن الأولى «أمدكم بما تعلمون»، لأن الثانية بمثابة بدل البعض من الأولى حيث إن النعم الأربع المذكورة بعض من النعم التي يعلمونها، فبين الجملتين ترابط قوي وكمال اتصال لا تحتاجان معه إلى ربط بالواو.

ومثله قوله تعالى: ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ ﴾ [الرعد: ٢]، فقوله: «يفصل الآيات» بدل بعض من قوله: «يدبر الأمر»، لأن تدبير الأمر يشمل تفصيل الآيات وغيرها.

وخذ قوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون: ٨١، ٨٢]، تجد أن الجملة الثانية بمثابة بدل الكل من الجملة الأولى.

وقوله عز وجل: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢٠، ٢١]، فصلت الجملة الثانية: «اتبعوا من لا يسألكم أجرا» عن الأولى: «اتبعوا المرسلين» لأن الثانية بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى، إذ المراد من الأولى حمل المخاطبين على اتباع الرسل والجمل الثانية أوفى بهذا، لأن معناها:أنتم لا تخسرون شيئًا من دنياكم، وتربحون صحة دينكم، فيكون لكم جزاء الدنيا وجزاء الآخرة.

ولا يخفى عليك أن الجملة الثانية التي هي بمثابة البدل أوفى بتأدية المعنى من الأولى فقوله: «أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون» أوفى بتأدية المعنى المراد من قوله: «أمدكم بما تعلمون» حيث دلت على المعنى بالتفصيل من غير إحالة إلى علمهم وهم المعاندون..وكذا قوله :« اتبعوا من لا يسألكم أجرًا وهم مهتدون» أوفى في حمل المخاطبين على الاتباع من قوله : « اتبعوا المرسلين» .. وهذا هو سر الإيضاح وداعي الكمال الموجب للفصل.

وانظر إلى قول الأخطل:

أَقُــولُ لَــهُ ارْحَــلْ لاَ تُقِــيمَنْ عِنْــدَنَا   وَإِلاَّ فَكُــنْ فِي الــسِّرِّ والْــجَهْرِ مُــسْلِمَا

تجد أن قوله: «لا تقيمن» بدل اشتمال من قوله «ارحل»، وقوله «لا تقيمن» أوفى بتأدية المراد، إذ المقصود: إظهار شدة الكراهة لإقامته بسبب خلاف سره العلن، وقوله: «لا تقيمن» يحقق ذلك، لأنك إذا قلت: لا تقم عندي، لم تقصد كفه عن الإقامة فحسب، وإنما تقصد إظهار الكراهة لإقامته.

الثالث: أن تكون الجملة الثانية بيانا للجملة الأولى، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، ففي الجملة الأولى: خفاء وإبهام، وفي الثانية بيان وإيضاح له، والبيان والمبين كالشيء الواحد فلا يعطف أحدهما على الآخر لما بينهما من قوة الترابط وكمال الاتصال...

وتكمن بلاغة هذه الصورة في أن للبيان بعد الإبهام وقعًا في النفس وأثرًا حسنًا، فالشيء، إذا أبهم تطلعت إليه النفس واشتاقت لبيانه، فإذا ما جاء البيان صادف نفسًا يقظة متطلعة، فيتمكن فيها فضل تمكن.

ومن شواهده كذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [فاطر:٣]، فجملة الاستفهام بيان لقوله: «اذكروا نعمة الله عليكم»، وقوله عز وجل: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨]، فجملة: «قالوا: ما أغنى عنكم»، بيان لجملة: «نادى أصحاب الأعراف».

وانظر في قول لبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ فِي خَلَفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ
يَتَآكَلُونَ مَغَالَةً وَخِيَانَةً وَيُعَابُ قَائِلُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَشْغَبِ.

تجد أن قوله: «يتآكلون مغالة وخيانة» بيان لقوله: «بقيت في خلف كجلد الأجرب».

وخذ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٤٩]، تجد أن جملة: «يذبحون أبناءكم»، والجملة المعطوفة عليها: «ويستحيون نساءكم» بيان وإيضاح لجملة: «يسومونكم سوء

العذاب»، ولذا لم يعطفا عليها بالواو لما بينهما من شدة ترابط وقوة تلاحم وكمال اتصال.

ثم انظر في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ [إبراهيم: ٦]، تجد أن الواو في هذه الآية من سورة إبراهيم قد وصلت جملتي «يسومونكم سوء العذاب»، «يذبحون أبناءكم» وذلك لأن المقام مقام تذكير بنعم الله تعالى... «اذكروا نعمة الله عليكم ...»، وهذا يقتضي تعداد النعم، فجعل الإنجاء من سوء العذاب نعمة، وإنجاء الأبناء من التذبيح نعمة أخرى، وكأن التذبيح جنس آخر لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه، ثم جاء إنجاء النساء من الاستحياء نعمة ثالثة.

أما في سورة البقرة فليس المقام مقام تذكير بالنعم، بل هو سرد للقصة وعرض لها وهذا قد اقتضى أن تكون الجملة الثانية وما عطف عليها:«يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم»، بيانًا وتفسيرًا للجملة الأولى: «يسومونكم سوء العذاب» وليستا جنسين آخرين مغايرين لسوء العذاب.

يقول الزمخشري: «فإن قلت: في سورة البقرة: يذبحون» وفي الأعراف «يقتلون» وههنا: «ويذبحون» مع الواو، فما الفرق؟ قلت: الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرًا للعذاب وبيانًا له، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر...»[(١)].

وهذا هو شأن الواو عندما تأتي بين الجمل التي بينها كمال اتصال وقوة ترابط، لأن ما فيها من معنى التغاير الذي لا يبرحها ينعكس على هذه الجمل فيوهم أنها معان متمايزة ومختلفة، ووراء ذلك تكمن الأسرار والدقائق اللطيفة.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٨...أما إيثار التعبير بالتذبيح في سورتي :«البقرة وإبراهيم»، وبالتقتيل في سورة : «الأعراف» فمرده إلى اختلاف سن من يذبح عن سن من يقتل، وهذا يتجلى لك بمراجعة السياق... انظر كتابنا: من بلاغة النظم القرآني.

إن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٢، ١٥٣]، ثم إلى قوله عز وجل في نفس السورة عن قوم شعيب: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٧]، تجد أن الواو قد ذكرت بين جملتي: «إنما أنت من المسحرين»، «ما أنت إلا بشر مثلنا» في مقالة أصحاب الأيكة لشعيب، وتركت في مقالة ثمود لصالح.

ويعلل الزمخشري ذلك بقوله: «فإن قلت: هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود؟ قلت: إذا أدخلت فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحرا ولا يجوز أن يكون بشرا، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحرا ثم قرر بكونه بشرا مثلهم...»[1].

وكأن أصحاب الأيكة أرادوا أن يعددوا في مقالتهم الأسباب المنافية للرسالة، ولذا أضافوا: «وإن نظنك لمن الكاذبين»، فصارت الأسباب ثلاثة: كونه مسحرا وكونه بشرا وكونه من الكاذبين، أما ثمود فكأنهم لم يقصدوا تعدادًا لهذه الأسباب ولذلك ذكروا سببا واحدًا وهو كونه مسحرا ثم قرروه بكونه بشرًا.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود: ٥٨]، وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧]، وتأمل تجد أن جملة: «ونجيناهم من عذاب غليظ»، مؤكدة لقوله: «نجينا هودا...»، وكذا جملة: «وأخذنا منهم ميثاقا غليظا» مؤكدة لقوله «أخذنا من النبيين ميثاقهم» فبين الجملتين كمال اتصال، وعلى الرغم من ذلك لم تترك الواو، بل جيء بها لغرض لطيف وسر دقيق، وهو التنويه بشأن الميثاق، والتفخيم والتهويل من شأن العذاب، ولذا وُصِفَ كلٌّ منهما بالغلظ، فالعطف بالواو مع الوصف بالغلظ ينبئ بأن الميثاق المأخوذ من النبيين صار كأنه ميثاق آخر مغاير للأول، وأن العذاب الذي نجى منه

(١) الكشاف ٣/ ١٢٧.

هود ومن معه صار كأنه عذاب آخر غير الأول وفي هذا ما ينبئ بعظم الميثاق ويومئ إلى هول العذاب وفظاعته.

وانظر في قول زهير بن جناب الكلبي:

أَبَنِيَّ إِنْ أَهْلِكْ فَإِنِّي ... قَدْ بَنَيْتُ لَكُمْ بَنِيَّةْ
وَجَعَلْتُكُمْ أَبْنَاءَ سَادَا ... تٍ زِنَادُكُم وَرِيَّةْ

تجد أن جملة: «جعلتكم أبناءسادات»، بيان لجملة: «بنيت لكم بنية»، وقد وصلهما الشاعر «زهير بن جناب الكلبي» بالواو التي تقتضي المغايرة، وذلك لتميز المعنى الذي دخلت عليه الواو في باب الشرف والسيادة، وكأنه يريد أن يجعله فوق ما ذكره في البيت الأول ومتميزًا عنه.

ثم تأمل الآيات الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨]، ﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٨]، ﴿ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢]، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الرعد: ٥]، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥]، فلا يخفى عليك مجيء الواو في هذه الآيات بين جمل بينها قوة ترابط وشدة تلاحم وكمال اتصال، وأن هذا المجيء ينبئ بمعان دقيقة وأسرار لطيفة، فتكرار الأمر بالتقوى وعطف أحدهما على الآخر يؤذن بأن الأمر الثاني غير الأول، ووراء ذلك إعلاء لشأن التقوى وحث عليها.

وكذا وصل الأمرين بالذكر «فاذكروا الله... واذكروه» إعلاء لشأن الذكر وحض عليه، وكأن الأمر الثاني غير الأول... وفي عطف الاصطفاء على الاصطفاء: «إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك...» إيهام بأنهما متغايران وكأن الله اصطفاها أولا ثم رجع فاصطفاها ثانيا، وفي هذا مزيد تكريم، ومثله عطف الفلاح على الهدى... «أولئك على هدى... وأولئك هم المفلحون» وفي آية سورة الرعد أبرزت

الواو ثلاث صور متغايرة للذين كفروا، في كل صورة منها من البشاعة والشناعة ما يجعلها شيئًا قائمًا برأسه، مستقلاً عن غيره (١).

وهكذا يتضح لنا أن مجيء الواو بين الجمل التي قد اشتد ترابطها وقوي تلاحمها وكمل اتصالها وراءه من الأسرار والدقائق واللطائف، ما لا يخفى على المتأمل الواعي والناظر الدقيق.

***

٢-**كمال الانقطاع بلا إيهام:** وهو أن يكون بين الجملتين تباين تام وانقطاع كامل ويرجع ذلك إلى اختلافهما إنشاء وخبرًا لفظًا ومعنى، أو معنى فقط، أو إلى فقدان المناسبة بينهما.

ويجب أن تعلم أن البلاغيين لا يجوزون بهذا تفكك الكلام وتنافر جمله وعدم ارتباط أجزائه وتباعد معانيه بحيث لا يضمه سياق، ولا يجمعه قران، هم لا يقصدون بكمال الانقطاع جواز الجمع بين الجمل المتشاردة، لأن هذه الجملة لا يضمها سياق واحد، ولا يجمعها قران واحد سواء أعطفت أم لم تعطف، وإنما يريدون به فقدان المناسبة الخاصة التي تسوغ العطف، وتجوز الوصل... وسيتضح لك هذا من خلال النصوص والشواهد.

ذكر البلاغيون أن كمال الانقطاع يتحقق في ثلاث صور:

الصورة الأولى: أن تختلف الجملتان خبرًا وإنشاءًا، لفظًا ومعنى، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ [فصلت: ٣٤]، فالجملة الأولى: «لاتستوي الحسنة ولا السيئة» خبرية لفظا ومعنى، والجملة الثانية: «ادفع بالتي هي أحسن» إنشائية لفظا ومعنى، والفصل بينهما لايوهم خلاف المقصود، ولذا وجب الفصل بينهما...

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الحجرات: ٩]، وقوله عز وجل: ﴿ **بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ** ﴾

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٢٢ وما بعدها.

[الحجرات: ٩]، وقوله عز وجل: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩]، فقد فصل بين الجمل في الآيات الكريمة لاختلافها إنشاءًاوخبرًا، لفظًا ومعنى، ولأن الفصل بينهما لا يوهم خلاف المقصود...

وانظر في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله عز وجل: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة:١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٨٤] تجد أن الجمل الخبرية: «نحن نرزقكم... إن صلاتك سكن... إنهم كفروا بالله...»، قد فصلت عن الجمل الإنشائية قبلها، وهذا الفصل إما أن يكون سببه كمال الانقطاع حيث اختلفت الجملتان خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنى، وإما أن يكون سببه شبه كمال الاتصال الآتي بيانه حيث وقعت الجملة الثانية جوابًا لسؤال أثارته الأولى.

ومن ذلك قول الأخطل:

وَقَالَ رَائِدُهُم أَرسُوا نُزَاوِلُهَا   فَكُلُّ حَتْفِ امْرِئٍ يَجْرِي بِمِقْدَارِ

فقد فصل جملة «نزاولها» عن جملة «أرسو» لكمال الانقطاع أو لشبه كمال الاتصال، ومثله قولك: لا تدن من الأسد يأكلك، برفع «يأكل».

هذا ونرى كثيرا من الجمل التي اختلفت إنشاءً وخبرا لفظًا ومعنى وقد جاءت موصولة بالواو، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٨٢] وقوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ [طه: ٨، ٩]، وقوله عز قائلاً: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥]، وقوله عز من قائل: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ [ص: ٢٠، ٢١]، تجد أن الواو

قد جاءت بين الجمل المختلفة إنشاءً وخبرًا لفظا ومعنى... ومن ذلك المثال المشهور: «لا تأكل السمك وتشرب اللبن» برفع تشرب، وقولنا:« باسم الله، الحمد لله، وصل اللهم وسلم على نبينا محمد»، إلى غير ذلك من أقوال..

وهذه الواو قد ذهب النحاة في توجيهها إلى أنها «واو الاستئناف» وليست عاطفة للخبر على الإنشاء، حيث يذكر ابن هشام أن الواو في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وفي قولهم: «لا تأكل السمك وتشرب اللبن» برفع: تشرب، وفي قولك: «دعني ولا أعود»، للاستئناف، وليست للعطف إذ لو كانت للعطف للزم عطف الخبر على الأمر أو النهي(١).

وذهب البلاغيون إلى أنها لعطف القصة على القصة أي لعطف مضمون كلام مسوق لغرض، على مضمون كلام مسوق لغرض آخر...

يقول الزمخشري في توجيه العطف في قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٤، ٢٥]: «فإن قلت علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه؟ قلت: ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهي يعطف عليه، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول: زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمرا بالعفو والإطلاق»(٢).

وهذا هو معنى الاستئناف الذي ذكره النحاة، فهو عطف لقصة على قصة، أو بمعنى آخر: عطف مضمون كلام على مضمون كلام، أو عطف جمل مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر، سواء أجاءت هذه الواو بين خبر وإنشاء، كما في الشواهد المذكورة، أم بين خبرين، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥]، وقوله عز وجل: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

---

(١) انظر مغني اللبيب: ٢/ ٣٣.

(٢) الكشاف ١/ ٢٥٣.

وكما في قول الشاعر:

عَلَى الْحَكَمِ الْمَأْتِيِّ يَوْمًا إِذَا قَضَى قَضِيَّةً أَلاَّ يَجُورَ وَيَقْصِدُ

أم بين إنشائين كقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠، ٥١].

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ [النساء: ١٠٣- ١٠٤].

والفاء في ذلك مثل الواو في إفادة الاستئناف، والفرق بينهما أن الواو لمطلق الجمع فهي تفيد جمع قصة إلى قصة، أي: تضم جملاً مسوقة لغرض إلى جمل مسوقة لغرض آخر، أما الفاء فترتب قصة على قصة، أي ترتب مضمون كلام على مضمون كلام آخر(١).

وخلاصة القول أن الواو عندما تذكر بين الخبر والإنشاء فهي إما واو الاستئناف التي تفيد عطف القصة على القصة -كما وضحنا- وإما أن تكون عاطفة لجملة على جملة، ويكون في الكلام حذف، والذي يحدد نوع الواو أهي عاطفة أم للاستئناف، إنما هو السياق ومقتضيات الأحوال.

انظر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥]، تجد أن الأمر «اتخذوا» مقول لقول محذوف والتقدير: وقلنا اتخذوا، فالواو عاطفة لجملة خبرية على أخرى مثلها.

ومثله قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحج: ٢٢]، أي: وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

---

(١) ارجع إلى دلالات التراكيب ص ٣٤٦ وما بعدها.

وخذ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، فالأمر «اهجرني» معطوف على محذوف والتقدير: فاحذرني واهجرني... أي أن الواو وصلت الجملة الإنشائية بأخرى مثلها.

الصورة الثانية: أن تختلف الجملتان إنشاء وخبرا معنى فقط وتتفقا لفظا، كقولنا: مات فلان رحمه الله، وقال عمر رضي الله عنه، فجملة: «رحمه الله» وجملة: «رضي الله عنه»، كل منهما خبرية لفظًا وإنشائية معنًى، لأنهما دعائيتان، ولذا فصل بين كل منهما وبين الجملة السابقة لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاء معنى فقط.

ومن ذلك قول اليزيدي:

مَلَّكْتُهُ حَبْلِي وَلَكِنَّهُ أَلْقَاهُ مِنْ زُهْدٍ عَلَى غَارِبِي
وَقَالَ: إِنِّي فِي الْهَوَى كَاذِبٌ انْتَقَمَ اللهُ مِنَ الْكَاذِبِ

فجملة: «انتقم الله...» جملة دعائية فهي خبرية لفظًا إنشائية معنى، ولذا فصل بينها وبين جملة: «قال إني في الهوى كاذب»، ويجوز أن يكون الفصل لشبه كمال الاتصال بتقدير: قلت، حيث تقع جملة: «قلت: انتقم الله من الكاذب» جوابًا لسؤال أثارته الجملة قبلها.

هذا ويشترط للفصل في هذه الصورة ألا يوهم خلاف المراد كما في الأمثلة المذكورة، فإن أوهم خلاف المقصود وجب الوصل كقولك لصديق لك: أشفي أخوك؟ فيجيبك: لا وعافاك الله، وجب الوصل بين جملتي الجواب؛ لأن الفصل يوهم خلاف المراد، وهو أن الصديق يدعو عليك لا لك، وسيأتي إيضاح ذلك وبيانه.

الصورة الثالثة: أن تتفق الجملتان خبرًا أو إنشاءً لفظًا ومعنى، ولكن يفقد الجامع بينهما، أي لا توجد المناسبة المعينة الخاصة التي تصحح العطف.

وذلك نحو قول أبي العتاهية.

الْفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ الْكَفَافَا مَنِ اتَّقَى اللهَ رَجَا وخَافَا

فقد اتفقت الجملتان في الخبرية لفظًا ومعنى، ولكن لم توجد المناسبة التي تسوغ عطف الثانية على الأولى، ولذا فصل بينهما.

ومثله قول الآخر:

إِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا لَدَيْهِ

فلا يوجد الجامع الذي يصحح عطف الجملتين على الرغم من اتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى ولذا فصل بينهما في البيت.

ويعني البلاغيون بالجامع أو التناسب بين الجملتين، أن يكون المسند إليه في إحداهما بسبب من المسند إليه في الأخرى وكذلك المسند، هذا ما أجمع عليه البلاغيون، والجمهور يرى أن تتوفر المناسبة أيضًا في المتعلقات، وسنفصل القول في هذا عند حديثنا عن مواضع الوصل، والذي نريد أن ننبه إليه الآن هو أن البلاغيين لا يعنون بفقدان الجامع جواز الجمع بين جمل شاردة متنافرة، لا يتأتى أن يضمها سياق واحد، وأن يعد الفصل بين تلك المتنافرات مبررًا لوضعها في قران، وجمعها في سياق واحد، بل إن مرادهم بفقدان الجامع: المناسبة الخاصة التي أشرنا إليها، لا المناسبة العامة التي ينبغي توافرها بين الجمل سواء أعطفت أم لم تعطف.

انظر مثلا إلى تلك الجمل: «سأل زكريا ربه أن يهبه وليا يرثه واختلف النقاد في شعر أبي تمام والضحك يبطل الصلاة ويشتد الحر صيفًا واليهود أعداء العرب». هذه الجمل لا تقال في سياق واحد هكذا فهي فاسدة سواء فصلت أم وصلت.

ولذا نبه البلاغيون إلى وحدة السياق وإلى مراعاة النظير، وتقديم من يقول البيت وأخاه على من يقول البيت وابن عمه، وذكروا حسن التخلص من غرض إلى آخر...

فالمناسبة إذًا نوعان، مناسبة خاصة وهذا إذا فقدت صح اقتران الجمل ولكنها تكون مفصولة لكمال الانقطاع وهو فقدان هذا الجامع الخاص، ومناسبة عامة وهذه لابد من وجودها بين الجمل الموصولة والمفصولة، وإلا فسد الكلام.

ومما فقدت فيه المناسبة الخاصة قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١-٦]

فقد فصل بين «الذين يؤمنون» و«إن الذين كفروا...» لعدم وجود المناسبة التي تسوغ العطف، أما المناسبة العامة التي تصحح جمع الجملتين في سياق واحد فهي «التضاد بينهما» وهو رابط حي ومثير لما يتضمنه من التشويق إلى معرفة القصة الثانية، قصة الكفرة بعد الوقوف على قصة المؤمنين.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿ طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل ١-٤].

وخذ قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن: ١- ٥].

تجد أن الترابط قوي بين «الشمس والقمر بحسبان» وما قبله، فسياق الآيات يبرز قدرة الخالق الرحمن الذي خلق الإنسان وعلمه البيان والذي أحكم حركة الشمس والقمر... أما المناسبة الخاصة التي تسوغ العطف فهي غير موجودة ولذا فصل بين «الشمس والقمر بحسبان» وما قبلها... إلى غير ذلك مما ترى المناسبة الخاصة فيه غير قائمة، والمناسبة العامة واضحة جلية.

هذا -وكما ذكرت- أن الواو إذا وجدت بين جمل بينها كمال انقطاع، فهي واو الاستئناف التي تفيد عطف القصة، سواء أوقعت تلك الواو بين خبر وإنشاء أم بين خبرين أم بين إنشاءين، على نحو ما مر بك من شواهد، وتكثر هذه الواو الاستئنافية في القصص القرآني، حيث تعطف بها القصة على القصة.

انظر في قوله تعالى: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ [الذاريات ٣٨- ٤٦]، تجد أن الواو قد عطفت أحداث قصة موسى على ما تقدمها من الحديث عن إبراهيم وضيفه، ثم عطفت قصة عاد وأحداثها على قصة موسى، ثم ثمود... وهكذا...

وتسمى هذه الواو كما قلنا: «واو الاستئناف»، ومثلها «فاء الاستئناف»، وقد مر الفرق بينهما... فالاستئناف ثلاثة أنواع: استئناف بالواو أو الفاء، واستئناف بغير الواو والفاء وهو ما يكون في تلك الجمل التي تتفق إنشاءً أو خبرًا لفظًا ومعنى ولا يوجد بينهما الجامع المسوغ للعطف فتأتي الجملة الثانية وقد استؤنفت، أي: ابتدئ بها معنى جديد، واستئناف بياني وهو شبه كمال الاتصال الذي سنتحدث عنه الآن.

٣-شبه كمال الاتصال

ويسمى أيضًا بالاستئناف البياني وهو أن تكون الجملة الأولى متضمنة لسؤال تقع الجملة الثانية جوابًا له كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٍۖ﴾ [هود: ٤٦]، الجملة الأولى: «إنه ليس من أهلك»، أثارت سؤالاً فحواه: كيف لا يكون من أهلي وهو ابني؟ وجاءت الجملة الثانية جوابًا لهذا السؤال المثار: «إنه عمل غير صالح» ولكون الجملة الثانية جوابًا لسؤال تتضمنه الجملة الأولى، وينبعث منها، كانت مرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا، كما يرتبط الجواب بالسؤال، ومن ثم ترك العطف بينهما لأن الجواب لا يعطف على السؤال، لما بينهما من ترابط وثيق وصلة قوية.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [القارعة ٨-١١] وقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٢، ١٣]، وقوله جل وعلا: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۖ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٧٢﴾ [الحج: ٧٢]، تجد الجواب قد فصل عن السؤال المصرح به في هذه الآيات الكريمة، وفصل الجواب عن السؤال المصرح به، إما لكمال الاتصال لما بين السؤال والجواب من صلة قوية وإما لكمال الانقطاع، لأن جملة السؤال إنشائية، وجملة الجواب خبرية.

وكما فصل الجواب عن السؤال المصرح به، فإنه يفصل كذلك عن السؤال المقدر الذي تضمنته الجملة الأولى وأثارته في ذهن المخاطب، وقد ذكر البلاغيون أن سبب الفصل عندئذ هو الاستئناف البياني أي شبه كمال الاتصال، وليس لكمال

الاتصال الذي مر، لأن الجواب ليس بيانًا للجملة الأولى، بل لشيء ينبعث منها وهو السؤال الذي أثارته وتضمنته.

وقد سمي الاستئناف هنا استئنافًا بيانيًا وهو غير الاستئناف بالواو أو الفاء أو الاستئناف بالجملة، أي: القطع، لأنه استئناف يوضح ويبين جواب السؤال المثار المنبعث من الجملة الأولى، فالجملة الثانية ليست منفصلة عن الأولى في الواقع، أو منقطعة عنها، بل مبينة وموضحة لشيء فيها، ولذا سميت الثانية مستأنفة استئنافًا بيانيًا...

هذا والسؤال المنبعث من الجملة الأولى قد يكون عن السبب العام كما في قول القائل:

قَالَ لِي كيفَ أنتَ؟ قُلْتُ عَلِيلُ ... سَهَرٌ دائِمٌ وحُزْنٌ طَوِيلُ(١)

فجملة: «قلت عليل»، أثارت سؤالا عن سبب العلة، تقديره: ما سبب علتك؟ وجاءت الثانية: «سهر دائم وحزن طويل» جوابا له، أما جملة: «قلت عليل»، فمفصولة عن السؤال المصرح به قبلها لكمال الاتصال أو لكمال الانقطاع، كما أوضحنا.

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري:

وَقَدْ غَرِضْتُ مِنَ الدُّنْيَا فَهَلْ زَمَنِي ... مُعْطٍ حَيَاتِي لِغَرٍّ بَعْدُ مَا غَرِضَا

جَرَّبْتُ دَهْرِي وَأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكَتْ ... لِيَ التَّجَارُبُ فِي وُدِّ امْرِئٍ غَرَضَا(٢)

فقد أثار البيت الأول تساؤلاً عن سبب سأمه وضجره، فكأن قائلاً قال له: لم تقول هذا ويحك؟ وما الذي جعلك تطوي عن الحياة إلى هذا الحد كشحك؟ فأجاب البيت الثاني هذا التساؤل المنبعث من البيت الأول: «جربت دهري وأهليه» ولذا فصل أو قل: ترك العطف بينهما لما بين السؤال والجواب من اتصال وثيق، وترابط قوي.

---

(١) نسب البيت إلى سعيد الجعفري وكان في زمن هارون الرشيد.

(٢) غرض: بكسر الراء: مل وسئم وضجر وبفتحها: حاجة، والغر: الغافل وما غرضا: لم يضجر الحياة بعد كما ضجرت.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٠]، تجد أن جملة: «تراود فتاها عن نفسه» قد أثارت سؤالاً عن سبب تلك المراودة وهو سؤال عن السبب العام، وقد جاء جوابه، «قد شغفها حبا» ثم إن هذا الجواب أثار تساؤلاً آخر فحواه، وما رأيكن في هذا؟ فأجيب «إنا لنراها في ضلال» وتلاحظ أن هذا التساؤل الثاني ليس عن السبب، بل هو عن رأيهن فيما صنعته امرأة العزيز من المراودة الناجمة عن حبها فتاها.

وقد يكون السؤال المثار عن السبب الخاص، أي عن سبب معين محدد..

كما في قول العلاء الضبي خال الفرزدق:

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أُنَاسٍ ... حَوَادِثَهُ أَنَاخَ بِآخَرِينَا

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا ... سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا[1]

فقد انبعث من الشطر الأول للبيت الثاني تساؤل عن سبب معين، وكأن سائلاً سأل: لم تقول لهم أفيقوا؟ هل سيلقوا كما لقيتم؟ فأجيب سيلقى الشامتون كما لقينا.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]، حيث فصلت جملة: «إن النفس لأمارة بالسوء»، عما قبلها؛ لأنها وقعت جوابًا لسؤال تضمنته، وهذا السؤال عن السبب الخاص، إذ فحواه: لم نفيت التبرئة عن النفس، هل النفس أمارة بالسوء؟ فجاء الجواب: إن النفس لأمارة بالسوء.

ومنه أيضًا قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٣٨ - ١٣٩]،

---

(١) ويروى البيت الأول بجر الكلاكل بدلاً من حر الحوادث .. هكذا:

إذا ما الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أُناسٍ ... كَلاكِلَهُ أَناخَ بِآخَرِينَا

فقد فصلت الجملتان: «سيجزيهم بما كانوا يفترون»، «سيجزيهم وصفهم» عما قبلهما لشبه كمال الاتصال، حيث وقعت كل منهما جوابًا لسؤال تضمنته الجمل قبلها، وكأن سائلاً سأل: لم هذه الافتراءات ولم تلك الأوصاف الجائرة؟ هل سيجزون على ذلك؟ فجاءت الإجابة: «سيجزيهم بما كانوا يفترون... سيجزيهم وصفهم»، وواضح أن السؤال المثار في الآيتين عن السبب الخاص.

وقد يكون السؤال المنبعث من الجملة الأولى عن غير السبب، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٨]، فقد فصلت الجمل: «قال: سلام» «قال ألا تأكلون» «قالوا: لا تخف» عما قبلها لأنها أجوبة لما تضمنته تلك الجمل من أسئلة أثيرت في ذهن السامع، وكأنه سأل فماذا قال إبراهيم؟ فأجيب: «قال سلام... قال: ألا تأكلون» وماذا قالت الملائكة؟ فأجيب: «قالوا لا تخف وبشروه..» ومثل هذا كل ما تراه في التنزيل من لفظ «قال» مفصولا عما قبله، غير معطوف عليه بعاطف.

ومن أقوالهم في هذا الصدد قول الشاعر:

زَعَمَ الْعَوَاذِلُ أَنَّنِي فِي غَمْرَةٍ   صَدَقُوا وَلَكِنْ غَمْرَتِي لَا تَنْجَلِي[١]

فالجملة الأولى: « زعم العواذل أنني في غمرة» حركت السامع، وأثارت في ذهنه سؤالًا فحواه: أصدقوا في ذلك الزعم أم كذبوا؟ فجاء الجواب في الشطر الثاني: « صدقوا...»

ومثله قول جندب بن عمار:

زَعَمَ الْعَوَاذِلُ أَنَّ نَاقَةَ جُنْدُبٍ   بِجَنُوبِ خَبْتٍ عُرِّيَتْ وَأُجِمَّتِ
كَذَبَ الْعَوَاذِلُ لَوْ رَأَيْنَ مُنَاخَنَا   بِالْقَادِسِيَّةِ قُلْنَ: لَجَّ وَذُلَّتِ[٢]

---

(١) الغمرة: الشدة، وتنجلي: تنكشف وتزول.

(٢) «عريت وأجمت» :أهملت وأزيل عنها رحلها فاستراحت، و« لج وذلت» اشتد في السير فأتعب ناقته وأجهدها.

فقد فصل البيت الثاني عن الأول لوقوعه جوابًا لسؤال فحواه أصدقن أم كذبن في زعمهن؟ وتلاحظ أن واو الجماعة في البيت الأول في قوله: «صدقوا» قد عادت إلى لفظ «العواذل»، إما على أنه جمع عاذل جمعا سماعيا مثل فارس: وفوارس، أو على أنه جمع عاذل بمعنى جماعة عاذلة من الذكور... أما في بيت جندب فقد عاد إليه ضمير النسوة: رأين وقلن، على أنه جمع عاذلة أي جمع مؤنث.

كما تلاحظ أن الجملة المستأنفة أي: جملة الجواب، في بيت جندب قد وضع فيها الظاهر موضع المضمر، فازداد بهذا أمر الاستئناف تأكيدًا من حيث وضعه وضعًا لا يحتاج فيه إلى ما قبله، وأتى به مأتى ما ليس قبله كلام.

ومثله وقد مر بك قول العلاء خال الفرزدق:

فَقُلْ للشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

فلم يقل «سيلقوا» بل وضع الظاهر موضع المضمر ليزداد الاستئناف تأكيدًا...

ومن الشواهد أيضًا قول أبي تمام:

لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنْكِ لي أَمَلاً إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجَّى حِينَ تَحْتَجِبُ

فكأن سائلاً سأله: كيف لا يحول الحجاب بينك وبين تحقيق آمالك ومآربك؟ فأجاب: إن السماء ترجى حين تحتجب.

وقول حاتم الطائي:

يَرَى الْبَخِيلُ سَبِيلَ الْمَالِ وَاحِدَةً إِنَّ الْجَوَادَ يَرَى في مَالِهِ سُبُلاَ

وكأن المخاطب عندما سمع الشطر الأول سأل، وما رأي الكريم في ماله؟ فأجاب: إن الكريم يرى في ماله سبلا...

وقول الراجز:

فَغَنِّهَا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ إِنَّ غِنَاءَ الْإِبِلِ الْحُدَاءُ

فعندما قال الشاعر: غنها وهي لك الفداء، انبعث من هذه الجملة سؤال،

وكأن سائلاً سأل: وما غناء الإبل؟ أغناؤها الحداء، أم أنك تقصد شيئًا آخر غير الحداء؟ فأجاب: إن غناء الإبل الحداء.

وترجع بلاغة هذا الأسلوب إلى ما يفيده من إثارة المخاطب وتحريك ذهنه، فهذا السؤال المنبعث من الجملة الأولى، قد انبعث في ذهن المخاطب أو في ذهن المتكلم الذي أدرك أن الجملة ينبعث منها هذا السؤال، وأن المخاطب ينتظر جوابًا له وبيانًا فعندما يأتي البيان ويرد الجواب يقع في النفس أحسن موقع وأفضله.

ولذا يقول المبرد عند حديثه عن بيت امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطَبًا وَيَابِسًا   لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَّابُ والْحَشَفُ الْبَالِي

«فهذا مفهوم المعنى، فإن اعترض معترض فقال: فهلا فصل فقال: كأنه رطبًا العناب وكأنه يابسًا الحشف البالي؟ قيل له: العربي الفصيح الفطن يرمي بالقول مفهومًا، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عيا»(١).

ولما قال خلف الأحمر لبشار وقد استمع لبيته:

بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجِيرِ   إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

«لو قلت يا أبا معاذ: بكرا فالنجاح، كان أحسن»، فقال بشار: «إنما بنيتها أعرابية وحشية... ولو قلت: بكرا فالنجاح، كان من كلام المولدين»... ومراده أن التكرار، أي تكرار فعل الأمر أفاد التأكيد بوجه ظاهر لا دقة فيه، أما ما صنعه فقد يفيد التوكيد بوجه خفي دقيق، مرجعه إلى انبعاث السؤال من الجملة الأولى وإجابة الجملة الثانية عنه.

وقد أجمل القزويني سر بلاغة هذا الأسلوب في قوله: «وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة: إما لتنبيه السامع على موقعه، أو لإغنائه أن يسأل، أو لئلا يسمع منه شيء، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه، أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ وهو تقدير السؤال وترك العاطف، أو لغير ذلك مما ينخرط في هذا السلك...»(٢).

---

(١) الكامل جـ ٢ ص ٣٦.

(٢) الايضاح جـ ٢ ص ٧٩

هذا ومن الاستئناف ما يأتي بإعادة اسم ما استؤنف عنه كقولك: أحسنت إلى زيد، زيد حقيق بالإحسان، ومنه ما يبنى على صفته، كقولك: أحسنت إلى زيد، صديقك القديم أهل لذلك، وهذا أبلغ لانطوائه على بيان سبب الإحسان.

وقد تأتي الجملة المستأنفة أي جملة الجواب بلا حذف شيء منها.

كما في قول المتنبي:

وَمَا عَفَتِ الرِّيَاحُ لَهُ محَلاًّ ... عَفَاهُ مَنْ حَدَا بِهِمُ وَسَاقَا

وكما في قول الوليد بن يزيد الأموي:

عَرَفْتُ الْمَنْزِلَ الْخَالِي ... عَفَا مِنْ بَعْدِ أَحْوَالِ
عَفَاهُ كُلُّ حَنَّانٍ ... عَسُوفِ الْوَبْلِ هَطَّالِ[١]

لما نفى المتنبي العفاء عن الرياح، ولما ذكر الوليد عفاء المنزل كان مظنة أن يسأل عن الفاعل من هو؟ أو ما هو؟ فأجابا عن ذلك: عفاه من حدا بهم وساقا... عفاه كل حنان، ولم يحذف شيء من جملة الجواب، إذ لو حذف الفعل فقيل: من حدا بهم... كل حنان، لما دل دليل عليه، وذكر جملة الاستئناف كاملة بلا حذف يجعلها أشد انفصالاً وأتم استقلالاً عن الجملة الأولى التي انبعث منها السؤال.

وقد يحذف صدر الاستئناف لقيام قرينة تدل عليه، ويكثر هذا عند ذكر الشعراء للديار والأطلال، وكذا عند المدح أو الفخر أو الرثاء أو الهجاء، حيث يقطع الكلام ويستأنف معنى جديد.

من ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

اعْتَادَ قَلْبَكَ مِنْ لَيْلَى عَوَائِدُهُ ... وَهَاجَ أَهْوَاءَكَ الْمَكْنُونَةَ الطَّلَلُ
رَبْعٌ قَوَاءٌ أَذَاعَ الْمُعْصِرَاتُ بِهِ ... وَكُلُّ حَيْرَانَ سَارٍ مَاؤُهُ خَضِلُ[٢]

---

(١) عفا: درس والمراد بالأحوال: الأحوال التي سعد فيها بأحبابه وسكانه، والحنان: السحاب: وعسوف الويل: شديد المطر.

(٢) المعصرات: السحاب وكذا الحيران والساري، أذاع به: ذهب، والخضل: الكثير، والقواء: الموحش.

لما ذكر أن الطلل قد هاج أهواءه المكنونة، اشتاقت النفس إلى معرفة خبر هذا الطلل وصفته، وكأنها سألت ما خبر هذا الطلل؟ وما صفته؟ فاستأنف الشاعر حديثا عنه، وبنى الكلام على حذف صدر الاستئناف «المسند إليه»، فقال: ربع قواء أذاع المعصرات به.

ومثله قول ذي الرمة:

إِلَى لَـوَائِحَ مِـنْ أَطْـلاَلِ أَحْوِيَـةٍ   كَأَنَّهَـا خِلَـلٌ مُوشِـيَّةٌ قُـشُبُ
دَارٌ لمِيَّـةَ إِذْ مَـيٌّ تُـسَاعِفُنَا   وَلاَ يُـرَى مِثْلُهَـا عُجْـمٌ وَلاَ عَـرَبُ[(١)]

استأنف مبينًا شأن الأطلال، فقال «دارٌ لمية» وفي رواية :«ديار مية»وقد حذف صدر الاستئناف، إذ المراد: تلك دار لمية...

ومنه في المديح قول أبي البرج المري:

هُـمُ حَلُّـوا مِـنَ الـشَّرَفِ الْـمُعَلَّى   وَمِـنْ حَـسَبِ الْعَـشِيرَةِ حَيْـثُ شَـاءُوا
بُنَـاةُ مَكَـارِمٍ وَأُسَـاةُ كَلْـمٍ   دِمَـاؤُهُمْ مِـنَ الْكَلَـبِ الـشِّفَاءُ[(٢)]

وقول محمد بن سعد الكاتب التميمي البغدادي:

سَأَشْـكُرُ عَمْـرًا إِنْ تَرَاخَـتْ مَنِيَّتِـي   أَيَـادِيَ لمْ تُمْـنَنْ وإِنْ هِـيَ جَلَّـتِ
فَتًى غَيْرُ محَجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ   وَلاَ مُظْهِـرُ الـشَّكْوَى إِذَا النَّعْـلُ زَلَّـتِ

وقول لقيط بن زرارة:

أَضَـاءَتْ لَـهُمْ أَحْـسَابُهُمْ وَوُجُـوهُهُمْ   دُجَـى اللَّيْـلِ حَتَّـى نَظَّـمَ الْـجِزْعَ ثَاقِبُـهُ
نُجُـومُ سَـمَاءٍ كُلَّـمَا انْقَـضَّ كَوْكَـبٌ   بَـدَا كَوْكَـبٌ تَـأْوِي إِلَيْـهِ كَوَاكِبُـهُ[(٣)]

إلى غير ذلك مما يقطع فيه الشعراء كلامهم ويستأنفون معاني أخرى فيحذفون

---

(١) اللوائح: ما تبين ولاح... وأحوية: بيوت مجتمعة واحدتها حواء، والخلل: بطائن أجفان السيوف واحدتها: خلة، وموشية: منقوشة، وقشب: جدد.

(٢) الكلم: الجرح، والكلب: داء يصيب الإنسان إذا عضه كلب.

(٣) الجزع: خرز فيه بياض وسواد

عندئذ صدر الاستئناف لدلالة الدليل عليه... فإن قلت: ألا يؤدي حذف صدر الاستئناف إلى احتياج جملة الاستئناف إلى ما قبلها، وعندئذ لا يكون انفصالها تامًّا واستقلالها كاملاً؟

قلت: ليس كل حذف يؤدي إلى الاحتياج وعدم الاستقلال؛ بل إن الحذف في الشواهد المذكورة قد ساعد على استقلال الجمل المستأنفة وعدم احتياجها إلى ما قبلها ويتضح لك هذا عندما تقدر المحذوف فتقول: ذاك ربع قواء... تلك دار لمية... هم بناة مكارم... هو فتى غير محجوب الغنى... هم نجوم السماء... إذ تجد أن اسم الإشارة والضمير قد جعل تلك الجمل المستأنفة، مرتبطة بما قبلها، محتاجة إليه، أما الحذف فيجعلها مستقلة عنه.(١)

ولاحظ أن هنالك فرقًا بين هذه الشواهد وبين بيتي المتنبي والوليد، إذ الحذف في بيتي المتنبي والوليد يؤدي إلى الغموض واللبس، لعدم وجود دليل يدل على المحذوف، واقرأ البيتين بعد حذف صدر الاستئناف وماعفت الرياح له محلاً.. من حدابهم.. عفا من بعد أحوال.. كل حنان عسوف الوبل... تجد المعنى لا يستقيم عند الحذف، ولو فرضت استقامته فستجد أن جملة الاستئناف محتاجة إلى ما قبلها.

أما حذف صدر الاستئناف في الشواهد المذكورة، فقد ساعد على استقلالها وعدم احتياجها إلى ما قبلها، كما وضحت لك.

ومما حذف فيه صدر الاستئناف من آي الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿يُسَبَّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]، بقراءة يسبح مبنيا للمفعول، وكأن سائلاً سأل: من يسبح؟ فأجيب: رجال بحذف صدر الاستئناف والمحذوف هنا هو المسند... ومن ذلك أسلوب «نعم وبئس». نحو: نعم الرجل خالد، وبئس رجلا عمرو، على اعتبار أن المخصوص بالمدح أو الذم خبر لمبتدأ محذوف، وكأن سائلاً سأل من الممدوح ومن المذموم؟ فأجيب: الممدوح خالد والمذموم عمرو.

---

(١) ارجع إلى حذف المسند إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وقد يحذف الاستئناف كله ويقوم ما يدل عليه مقامه، كقول الحماسي:

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ ... لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلافُ

فقد أثار البيت سؤالاً تقديره: أكذبنا أم صدقنا؟ فأجيب: كذبتم في زعمكم، وقد حذف هذا الجواب، وأقيم قوله: لهم إلف وليس لكم إلاف مقامه، لدلالته عليه، ويجوز اعتبار قوله: «لهم إلف وليس لكم إلاف»، جوابًا لسؤال اقتضاه الجواب المحذوف، وكأنه لما قيل: كذبتم، قالوا: لم كذبنا؟ قال: لهم إلف، وليس لكم إلاف، فيكون في البيت على هذا استئنافان... ويجوز أن يكون الفصل في البيت لشبه كمال الانقطاع الآتي بيانه.

وقد يحذف الاستئناف كله لدلالة السياق عليه كقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨]، أي: نعم الماهدون، نحن، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤]، أي نعم العبد أيوب... فقد حذف المخصوص بالمدح في الآيتين الكريمتين، وهو خبر لمبتدأ، أو مبتدأ لخبر، فهو جملة مستأنفة، سكت عنها لدلالة السياق عليها.

هذا وقد تأتي الجملة الواقعة موقع الجواب بالفاء أو بالواو، وتسمى الفاء فاء الاستئناف وكذا الواو تسمى واو الاستئناف، ولكن الاستئناف بهما يختلف عن الاستئناف البياني؛ لأن الاستئناف بالواو يؤذن باستقلال الكلام وانفصاله، إذ يكون المراد عطف القصة على القصة، أو عطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر، أو عطف جمل مسبوقة لغرض على جمل مسبوقة لغرض آخر، كما مر بك.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [سبأ: ٣١- ٣٣].

حيث جاءت الآية الثانية بدون الواو، فأفاد ذلك أنها متولدة عن الآية الأولى، إذ وقعت جوابًا لسؤال تضمنته، وجاءت الآية الثالثة بالواو فآذنت بالاستقلال، وصار الكلام معها من قبيل عطف القصة على القصة.

ومن ذلك قول الشاعر:

أَرَى بَصَرِي عَنْ كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ... يَكِلُّ وَخَطْوِي عَنْ مَدَى الْخَطْوِ يَقْصُرُ

وَمَنْ يَصْحَبِ الْأَيَّامَ تِسْعِينَ حِجَّةً يُغَيِّرْنَهُ والدَّهْرُ لاَ يَتَغَيَّرُ

حيث جاء البيت الثاني مستأنفًا بالواو التي تؤذن بالاستقلال.

والاستئناف بالفاء يختلف أيضًا عن الاستئناف البياني، فهو يجعل الكلام مرتبًا بعضه على بعض، وليس متولدًا بعضه من بعض.

انظر إلى قول أبي تمام:

لا تُنْكِرِي عُطْلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي

تجد أن الفاء قد جعلت الكلام مرتبًا بعضه على بعض.

وخذ قوله تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٣- ٢٥]، تجد أن هذه الفاءات: «فسقى لهما... فقال ربي... فجاءته إحداهما...»، قد جعلت الكلام مرتبًا بعضه على بعض.

أما الاستئناف البياني فالكلام فيه يتولد بعضه من بعض، إذ ينبعث من الجملة الأولى سؤال وتقع الثانية جوابًا له، فالثانية مرتبطة بالأولى ارتباط الجواب بالسؤال وهو ارتباط داخلي وثيق وليس ارتباطًا لفظيًا ظاهرًا، كما في الاستئناف بالفاء، ولا استقلالا وتباينا كما في الاستئناف بالواو.

***

٤- شبه كمال الانقطاع

وقد عرفوه بقولهم: أن تكون الجملة مسبوقة بجملتين يصح وصلها بالأولى منهما لوجود المناسبة التي تسوغ الوصل، ولا يصح عطفها على الثانية، فيترك العطف على الأولى دفعا لتوهم العطف على الثانية، وتصبح الجملة الثالثة بمنزلة المنقطعة عن الأولى، بهذا الحائل... ولذا كان الفصل لشبه كمال الانقطاع إذ ليس الانقطاع كاملاً، بل حالت الجملة الثانية بين وصل الجملة الثالثة بالجملة الأولى.

من ذلك قول الشاعر:

وَتَظُنُّ سَلْمَى أَنَّنِي أَبْغِي بِهَا بَدَلاً أَرَاهَا فِي الضَّلاَلِ تَهِيمُ

فقد فصل جملة: «أراها في الضلال ...» عن الجملة الأولى: «تظن سلمى...» لأن عطفها عليها يوهم أنها معطوفة على جملة: «.. أبغي بها بدلا»، فتكون بهذا من مظنونات سلمى، وهي من كلام الشاعر، لا من مظنوناتها، فدفعا لهذا التوهم وجب الفصل.

ومثله قول الآخر:

يَقُولُونَ: إِنِّي أَحْمِلُ الضَّيْمَ عِنْدَهُمْ أَعُوذُ بِرَبِّي أَنْ يُضَامَ نَظِيرِي

فصل جملة: «أعوذ بربي» عن جملة: «يقولون» مع جواز عطفها عليها، حتى لا يتوهم عطفها على جملة: «أحمل الضيم ...»، فتكون من مقولهم وهي لست منه، بل هي من كلام الشاعر:

ويمكن أن يكون من هذا الموضع قول الحماسي:

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُم قُرَيْشٌ لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَافُ

فيكون فصل جملة: «لهم إلف...» عن جملة: «زعمتم» دفعًا لتوهم عطفها على جملة: « إخوتكم قريش»، إذ هي ليست من زعمهم بل من كلام الحماسي.

وانظر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]، فقد مر بك امتناع عطف جملة: «الله يستهزئ بهم» على جملة: «إنا معكم»، أو على جملة: «قالوا»، أما عطفها على جملة الشرط وجوابه: «وإذا خلوا إلى شياطينهم»، قالوا: فجائز، ولكن يمنع منه توهم عطفها على إحدى الجملتين المذكورتين.

وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١١-١٣]، ولا يخفى عليك أنه يمكن رد سبب الفصل في هذه الشواهد- شواهد هذا الموضع- إلى شبه كمال الاتصال، كما نبه كثير من البلاغيين، وبذا يلغي هذا الموضع من مواضع الفصل.

***

٥-الفصل لعدم الاشتراك في القيد

أو كما عرفه بعض البلاغيين بالتوسط بين الكمالين مع وجود المانع من العطف وهو عدم الاشتراك في الحكم... وقد استشهدوا لهذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]، فقد فصل جملة: «الله يستهزئ بهم»، عن جملة «قالوا»، لأن قولهم مقيد بوقت خلوهم إلى شياطينهم أما استهزاء الله بهم فدائم في كل آن، وليس مقيدًا بهذا الوقت، ولذا وجب الفصل لعدم الاشتراك في القيد... وأما فصل هذه الجملة: «الله يستهزئ بهم» عن جملة «إنا معكم» فلعدم قصد التشريك في الحكم الإعرابي كما مر بك في الجمل التي لها محل من الإعراب.

بقي أن أذكرك بما نبهتك إليه من أن الجمل التي لها محل من الإعراب تخضع لما تخضع له الجمل التي لا محل لها من الإعراب من مواضع الفصل المذكورة.

وانظر مثلا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]، تجد أن الجمل الثلاث: «امرأة العزيز تراود...»، «قد شغفها حبًا»، «إنا لنراها في ضلال»، قد وقعت مقولا لقول النسوة فلها من الإعراب محل، وقد فصل بينها لشبه كمال الاتصال، إذ أثارت الجملة الأولى سؤالا فحواه ما سبب تلك المراودة؟ فجاء التعليل: « قد شغفها حبا»، وكذا تضمنت الثانية سؤالا تقديره: وما رأيكن؟ فأجيب بالجملة الثالثة: «إنا لنراها في ضلال مبين».

وارجع إلى ما سقناه من شواهد في مواضع الفصل المذكورة ليتضح لك أن الجمل جميعها سواء في تلك المواضع، وأنك لا تستطيع قصر هذه المواضع على الجمل التي لا محل لها من الإعراب.

وبهذا نكون قد فرغنا من مواضع الفصل بين الجمل وكما تقتضي العلاقات بين الجمل الفصل، وقد عرفت مواضعه، فكذلك تقتضي الوصل، والمعول عليه في ذلك، السياق وقرائن أحواله، وننتقل الآن إلى مواضع الوصل.. التي يقتضيها السياق وقرائن أحواله.

***

مواضع الوصل بين الجمل

وقفنا -فيما سبق- على أن الجمل التي لها محل من الإعراب، يوصل بينها إذا قصد التشريك في الحكم الإعرابي، ووجدت المناسبة المسوغة للعطف، ولم يكن هنالك مانع يمنع من الوصل.

وقد ذكر البلاغيون موضعين آخرين للوصل بين الجمل وهما:

١-التوسط بين الكمالين

والمراد بالكمالين: كمال الاتصال وكمال الانقطاع، وقد عرفوه بقولهم: أن تتفق الجملتان خبرا أو إنشاءً لفظًا ومعنى، أو معنى فقط.

فمثال اتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وقوله عز وجل: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧]، فقد اتفقت الجملتان: «إن الأبرار لفي نعيم»، «وإن الفجار لفي جحيم»، في الخبرية لفظا ومعنى، ووجدت المناسبة المسوغة للعطف، ولم يمنع من العطف مانع، ولذا وصل بينهما كما ترى.

وكذا القول في الآيتين الكريمتين: «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع... وتعز من تشاء وتذل... تولج اليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق...»، ولا يخفى عليك ما يفيده الجمع بين الجمل في الآيتين، من إبراز قدرة الله عز وجل في أسمى معانيها، وتأمل تؤتي الملك من تشاء وتنزع... وتعز من تشاء وتذل... تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب... لا يقدر على تلك الأضداد إلا الخالق القادر المهيمن ذو السلطان والملك.

ومثال ما اتفقت فيه الجملتان في الإنشائية لفظا ومعنى قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف:

٣١]، فقد اتفقت الجمل: خذوا زينتكم.. كلوا.. اشربوا.. لا تسرفوا.. في الإنشائية لفظا ومعنى، ومن ثم وصل بينها.

ومما اتفقت فيه الجملتان في الإنشائية معنى، قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣]، ففي الآية ثلاث جمل، الأولى: لا تعبدون إلا الله، والثانية: حذف فيها فعل الأمر وتقديرها: وأحسنوا بالوالدين إحسانا، والثالثة: وقولوا للناس حسنا، والجملتان الثانية والثالثة إنشائيتان لفظا ومعنى كما ترى، أما الأولى فخبرية لفظا، إنشائية معنى؛ لأن المراد بها النهي أي: لا تعبدوا إلا الله، وبهذا يكون اتفاق الجمل الثلاث في الإنشائية في المعنى فقط دون اللفظ.

ومما اتفقت فيه الجملتان في الخبرية معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [هود: ٥٤]، فجملة: «واشهدوا...» إنشائية لفظًا خبرية معنى، إذ المراد: إني أشهد والله وأشهدكم، وبهذا يكون اتفاق الجملتين في الخبرية معنى لا لفظًا.

وإنما عدت مثل هذه الجمل «توسطا بين الكمالين»، لاتفاقهما في الخبرية أو الإنشائية مع وجود المناسبة المسوغة للوصل، فليست من قبيل كمال الانقطاع الذي عرفته... كما أنها ليست من قبيل كمال الاتصال لعدم وجود الروابط والصلات القوية بينها والتي عرفتها في صور كمال الاتصال، ولذا سمي البلاغيون هذا الموضع بالتوسط بين الكمالين.

٢-كمال الانقطاع مع الإيهام

كقولك لتاجر: أتبيع هذه السلعة؟ فيجيبك: لا وعافاك الله، وقولك لصديق لك: أشفي والدك؟ فيجيب: لا ولطف الله به، وقولك: أتاب العاصي؟ فتجاب: لا ويهديه الله. فبين الجملتين كما ترى كمال انقطاع؛ لأن جملة «لا» خبرية لفظًا ومعنى، والجمل: عفاك الله- لطف الله به- يهديه لله، خبرية لفظا، إنشائية معنى، وكمال الانقطاع -كما درست- يوجب الفصل بين الجملتين، إلا أن الفصل هنا يوهم خلاف المراد، إذ يتوهم أن المجيب يدعو بعدم العافية وعدم اللطف وعدم الهداية،

وأنه قد أجاب بجملة واحدة منفية، سلطت فيها «لا» على مابعدها وليس بجملتين، فدفعا لهذا الإيهام يجب الوصل بين الجملتين.

ولذلك إذا اندفع هذا الإيهام بأن يسكت المتكلم قليلا بعد النطق بالحرف «لا»، أو يذكر الجملة المنفية كاملة، فيقول: لا أبيعه، ثم يذكر الجملة الدعائية «عافاك الله»، أو يغير في نبرة الصوت، فيرفع صوته عند النطق «بلا» ويخفضه عند النطق بالجملة الدعائية.. عندئذ يجب الفصل، إذ لا إيهام.

***

الجامع أو التناسب بين الجملتين

عرفت أن اتفاق الجملتين في الخبرية أو الإنشائية يوجب الوصل بينهما إذا وجدت المناسبة أو الجامع المسوغ للوصل، وكذا عند قصد التشريك في الحكم الإعرابي، فما مراد البلاغيين بهذا الجامع أو بتلك المناسبة؟ يريد البلاغيون بذلك: ان يكون المسند إليه في الجملة الأولى بسبب من المسند إليه في الجملة الثانية، وكذا المسند فيهما.

يقول عبد القاهر: « واعلم أنه يجب أن يكون المحدث عنه في إحدى الجملتين بسبب من المحدث عنه في الأخرى، كذلك ينبغي أن يكون الخبر عن الثاني مما يجري مجرى الشبه والنظير أو النقيض للخبر الأول فلو قلت: زيد طويل القامة وعمرو شاعر، كان خلفا، لأنه لا مشاكلة ولا تعلق بين طول القامة وبين الشعر، وإنما الواجب أن يقال: زيد كاتب وعمرو شاعر، وزيد طويل القامة وعمرو قصير، وجملة الأمر أنها -يقصد الواو- لا تجيء حتى يكون المعنى في هذه الجملة لفقًا لمعنى في الأخرى ومضامًا له، مثل أن زيدًا وعمرًا إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكي الأحوال على الجملة، كانت الحال التي يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاك ذلك مضمومة في النفس إلى الحال التي عليها الآخر من غير شك، وكذا السبيل أبدًا، والمعاني في ذلك كالأشخاص، فإنما قلت مثلا: العلم حسن والجهل قبيح، لأن كون العلم حسنًا مضموم في العقول إلى كون الجهل قبيحًا.

واعلم أنه إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحدًا كقولنا: هو يقول ويفعل

ويضر وينفع ويسيء ويحسن ويحل ويعقد وأشباه ذلك، ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهورًا وكان الأمر حينئذٍ صريحًا...»(١).

وقد اختلف البلاغيون في المتعلقات، هل ينبغي أن يعتبر فيها التناسب أيضًا؟ والصواب أنه لا يعتبر فيها ذلك، إلا إذا كانت مقصودة بالذات ومرادة في الجملتين، كقوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٤١].

وكما في قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي (ت ٢١هـ).

أُرِيدُ حيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي عَذِيرُكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادِ

هذا وقد تكون المناسبة بين الجمل دقيقة خفية وعندئذ تحتاج إلى تأمل السياق ومعرفة قرائن الأحوال به.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠ ﴾[الغاشية: ١٧-٢٠]، تجد أن المناسبة بين الإبل والسماء والجبال والأرض، لا تتضح لك إلا بالتأمل وإطالة النظر، إذ عند التأمل تعرف أن أهل الوبر تكون عنايتهم مصروفة إلى الإبل، حيث ينتفعون بها في جل معاشهم وانتفاعهم بها لا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب وذلك يكون بنزول المطر، فيكثر تقلب وجوههم في السماء، ثم لابد لهم من مأوى يتحصنون به، ولا شيء لهم في ذلك كالجبال، ثم لا غنى لهم لتعذر طول مكثهم في منزل عن التنقل من أرض إلى سواها، وبهذا يتضح لك أن الإبل والسماء والجبال والأرض متناسبة في ذهن البدوي وأخيلة أهل الوبر.

كما أنه قد يتحد كل من المسند والمسند إليه ولا تجد مسوغًا للوصل على نحو ما ترى في قولك: انظر إلى غزارة علم عمرو... وانظر إلى هذا القطع في ثوبك، فمثل هاتين الجملتين لا يجمعهما سياق واحد لا منفصلتين ولا موصولتين، على الرغم من اتحاد المسند والمسند إليه في كل منهما.

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٣٢، ٢٣٣.

وقد يختلف كل منهما في الجملتين وتوجد المناسبة المسوغة للوصل، على نحو ما ترى في قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ [يوسف: ٨٨]، فالمسند إليه فيهما: «الضر وإخوة يوسف» مختلفان لا تناسب بينهما، وكذلك المسندان: «المس والمجيء»، وعلى الرغم من هذا وصل بين الجملتين لوجود المسوغ للوصل وهو أن المس سبب في المجيء.

***

محسنات الوصل

ومن محسنات الوصل أن تتناسب الجملتان في الاسمية والفعلية، وفي المضي والمضارعة، وفي الأمر والنهي، وفي الإطلاق والتقييد.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، تجد تناسب الجملتين في الاسمية.

ومنه قول ذي الرمة:

أُسُودٌ إِذَا مَاأَبْدَتِ الْحَرْبُ سَاقَهَا   وفِي سَائِرِ الدَّهْرِ الْغُيُوثُ الْمَواطِرُ

ومن تناسبهما في المضي قوله تعالى: ﴿ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وقول البحتري:

أَعْطَيْتَ حَتَّى تَرَكْتَ الرِّيحَ حَاسِرَةً   وَجُدْتَ حَتَّى كَأَنَّ الغَيْثَ لَمْ يَجُدِ

ومن تناسبهما في المضارعة قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقول الصلتان العبدي:

نَرُوحُ ونَغْدُو لِحَاجَاتِنَا   وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَ لاَ تَنْقَضِي

ومن تناسبهما في الأمر والنهي قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله عز وجل: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝ ﴾ [لقمان: ١٧ - ١٩].

ومن تناسبهما في التقييد قول البحتري يمدح إبراهيم بن المدبر:

دَنَــوْتَ تَوَاضُــعًا وَعَلَــوْتَ مجْــدًا فَــشَأْنَاكَ انْخِفَــاضٌ وارْتِفَــاعُ

وإنما يعد التناسب فيما ذكر من محسنات الوصل ما لم يدع داع إلى المخالفة، فلو دعا داعٍ إلى المخالفة كان الحسن في تلك المخالفة التي دعا إليها هذا الداعي واقتضاها المقام.

انظر في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]؛ فقد آثر التعبير بالمضارع «يخادعون» ليفيد أن خداع المنافقين حادث متجدد، وبالاسم «خادعهم» ليفيد أن فعل الله ثابت ودائم في جميع الأحوال، وفي هذا زيادة في التنكيل والتعذيب.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

يقول الزمخشري في بيان السر البلاغي للمخالفة في الآية: «فإن قلت: هلا قيل وفريقًا قتلتم؟ قلت: هو على وجهين أن تراد الحال الماضية، لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس، وتصويره في القلوب، وأن يراد: وفريقًا تقتلونهم بعد، لأنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أني أعصمه منكم»(١).

وبهذا يتضح لك أن المقام قد يقتضي عدم تناسب الجملتين فيما ذكر، وعندئذ يكون الحسن فيما اقتضاه المقام ودعا إليه الحال.

***

فروق في الجملة الحالية

مر بك جواز مجيء الواو بين الصفة وموصوفها وبين الحال وصاحبها سواء أكانت الصفة مفردة أم جملة وسواء أكانت الحال كذلك مفردة أم جملة، وعرفت ما يكمن وراء مجيء الواو أو تركها من دقائق وأسرار.

---

(١) الكشاف ١/ ٢٩٥.

ونريد أن نفصل لك القول في الحال عندما تأتي جملة متى تقترن جملة الحال هذه بالواو، ومتى تمتنع الواو ومتى يجوز الإتيان بالواو ويجوز تركها، وقبل أن نفصل لك القول في تلك الجمل الحالية ننبهك إلى ما ذكرناه آنفا من أن الواو لما فيها من معنى المغايرة فهي تؤذن بالاستقلال، وكأن القائل عندما يقول: جاء زيد وغلامه يسعى بين يديه، قد أخبر إخبارين، أخبر بمجيء زيد ثم بحاله عند المجيء وهذا من شأنه أن يؤكد جملة الحال وأن يفيد شدة لصوقها بصاحبها.

أما إذا قال القائل: جاء زيد غلامه يسعى بين يديه، فهو يخبر خبرًا واحدًا، يخبر عن مجيء هذه حاله وتلك هيئته.

تأمل قول عبد القاهر: «وإذا قد عرفت هذا فاعلم أن كل جملة وقعت حالا ثم امتنعت من الواو فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد، وكل جملة جاءت حالاً ثم اقتضت الواو فذاك لأنك مستأنف بها خبرًا وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات.

تفسير هذا أنك إذا قلت جاءني زيد يسرع كان بمنزلة قولك: جاءني زيد مسرعًا في أنك تثبت مجيئًا فيه إسراع وتصل أحد المعنيين بالآخر، وتجعل الكلام خبرًا واحدًا وتريد أن تقول جاءني كذلك وجاءني بهذه الهيئة.

ومن ذلك قول علقمة بن عبدة.

وقَـدْ عَلَـوْتُ قُتُـودَ الرَّحْـلِ يَـسْفَعُنِي ... يَـومٌ تجَـيءُ بـِهِ الْـجَوْزَاءُ مَـسْمُومُ[1]

كأنه قال: وقد علوت قتود الرحل بارزًا للشمس ضاحيا.

وكذلك قول حندج بن حندج المري:

مَتَـى أَرَى الـصُّبْحَ قَـدْ لاَحَـتْ مخَايِلُـهُ ... وَاللَّيْـلَ قَـدْ مُزِّقَـتْ عَنْـهُ الـسَّرَابِيلُ

لأنه في معنى: متى أرى الصبح باديا لائحا بينا متجليا، وعلى هذا القياس أبدًا.

---

(١) .. ويروى الشطر الثاني برواية أخرى وهي: «يَوْمٌ قُدَيدِيمَةَ الْجَوْزَاءِ مَسْمُومُ» القتود: بضم القاف جمع قتد وهو خشب الرحل المعهود. وسفعه: لفحه بحره فغير لونه، وسفعته النار كذلك، وقديديمة: تصغير قدام ظرف مكان، والجوزاء من منازل الشمس، ويوم مسموم: هبت فيه ريح السموم بكثرة وهي ريح حارة.

وإذا قلت: جاءني وغلامه يسعى بين يديه، ورأيت زيدًا وسيفه على كتفه، كان المعنى على أنك بدأت فأثبت المجيء والرؤية، ثم استأنفت خبرًا وابتدأت إثباتًا ثانيًا لسعي الغلام بين يديه ولكون السيف على كتفه، ولما كان المعنى على استئناف الإثبات احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى فجيء بالواو كما جيء بها في قولك: زيد منطلق وعمرو ذاهب، والعلم حسن والجهل قبيح، وتسميتنا لها واو الحال، لا يخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم جملة إلى جملة»[١].

وإياك أن يلتبس عليك الأمر فتظن أن جملة الحال قد انفصلت بهذه الواو عن صاحبها وتباعدت عنه، إن الأمر على عكس هذا، لأن هذه الواو قد قربت الحال من صاحبها وأبرزتها جلية واضحة شديدة الالتصاق به، مؤكدة الانتساب إليه -كما وضحت لك- وإذ قد عرفت ذلك فاعلم أن الجملة الحالية قد يجب اقترانها بالواو وقد يمتنع وقد يجوز... وإليك البيان.

إذا كانت الحال جملة فعلية فعلها مضارع مثبت غير مقرون بقد، امتنع اقترانها بالواو كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقوله عز وجل: ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله عز من قائل: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل: ١٧، ١٨].

ومنه قول علقمة بن عبدة:

وَقَدْ عَلَوْتُ قُتُودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي ... يَوْمٌ تَجِيءُ بِهِ الْجَوْزَاءُ مَسْمُومُ

وقول أبي دؤاد:

وَلَقَدْ أَغْتَدِي يُدَافِعُ رُكْنِي ... أَحْوَذِيٌّ ذُو مَيْعَةٍ إِضْرِيجُ

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢٤، ٢٢٥.

سَلْهَبٌ شَرْجَبٌ كَأَنَّ رِمَاحًا ... حَمَلَتْهُ وَفِي السَّرَاةِ دُمُوجُ[(١)]

أما ما جاء من نحو قول العرب: قمت وأصك عينه، وقول عبد الله بن همام السلولي:

فلَمَّا خَشِيتُ أَظَافِيرَهُم ... نَجَوْتُ وَأَرْهَنُهُمْ مَالِكَا

وقول عنترة العبسي:

عُلِّقْتُهَا عَرَضًا وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا ... زَعْمًا لَعَمْرُ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَزْعَمِ

فقيل: إن ما في المثال شاذ وما في البيتين ضرورة، وقيل: إنه على حذف المبتدأ والتقدير: قمت وأنا أصك... نجوت وأنا أرهنهم... علقتها عرضًا وأنا أقتل... وقال عبد القاهر: ليست الواو للحال بل هي للعطف والفعل المضارع في تأويل الماضي والمعنى: قمت وصككت... نجوت ورهنت... علقت وقتلت[(٢)].

وإن كان المضارع مقرونًا بقد وجب اقتران الجملة بالواو كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٥]، وكقولك: لم لم تستعد وقد ترحل غدًا.

وإن كان المضارع منفيًا جاز أمران: اقتران الجملة بالواو، وترك الواو، والمضارع المنفي يظل مضارعًا إذا كان النفي بغير لم ولما، أما إذا كان النفي بلم أو لما فهو ماض معنى؛ لأن لم ولما يقلبانه إلى الماضي، وهو أي المنفي بلم ولما مما يجوز فيه الأمران أيضًا... فمما جاء بالواو قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ [يونس: ٨٩]: في قراءة من قرأ بتخفيف النون، وكقولهم: «كنت ولا أخشى بالذئب»، أي: لا أخوف به... وقولهم: يصيب ولا يدري ويقول ولا يفعل.

وكقول مسكين الدارمي:

أَكْسَبَتْهُ الْوَرِقُ الْبِيضُ أَبًا ... وَلَقَدْ كَانَ وَلَا يُدْعَى لِأَبِ

---

(١) الأحوذي: السريع في السفر وفي غيره، وصف للفرس، والإضريج: الفرس الجواد، الكثير العرق الشديد العدو، وذو ميعة: ذو ليونة وسهولة في السير، وسلهب: طويل على وجه الأرض وشرجب: طويل القوائم، والسراة: الظهر، ودموج: ملاسة وإحكام وتجمع.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٠٥.

وكقول مالك بن رفيع وكان قد جنى جناية فطلبه مصعب بن الزبير:

بَغَانِي مُصْعَبٌ وَبَنُو أَبِيهِ ... فَأَيْنَ أَحِيدُ عَنْهُمْ لاَ أَحِيدُ
أَقَادُوا مِنْ دَمِي وَتَوعَّدُونِي ... وَكُنْتُ وَمَا يُنَهْنِهُنِي الْوَعِيدُ

فكان في هذه الشواهد تامة بمعنى: وجد، وقد اقترنت الجملة الحالية بالواو كما ترى وفعلها مضارع منفي.

ومما جاء بغير الواو قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ [المائدة: ٨٤]، وقوله عز وجل: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[النساء: ٧٥].

وقول أرطاة بن سُهيّة:

إِنْ تَلْقَنِي لاَ تَرَى غَيْرِي بِنَاظِرَةٍ ... تَنْسَ السِّلاحَ وتَعْرِفْ جَبْهَةَ الأَسَدِ

وقول خالد بن يزيد بن معاوية:

لَوْ أَنَّ قَومًا لِارْتِفَاعِ قَبِيلَةٍ ... دَخَلُوا السَّمَاءَ دَخَلْتُهَا لاَ أُحْجَبُ

وقول الآخر:

عَهِدْتُكَ مَا تَصْبُو وَفِيكَ شَبِيبَةٌ ... فَمَا بَالُكَ بَعْدَ الشَّيْبِ صَبًّا مُتَيَّمَا

وكذلك إذا كانت الجملة الحالية جملة فعلية فعلها ماضٍ لفظًا أو معنى جاز الأمران أيضًا اقترانها بالواو، وعدم اقترانها، والماضي لفظًا لا يقع حالاً إلا وهو مقرون بقد ظاهرة أو مقدرة، والماضي معنى هو المضارع المنفي بلم أو لما كما ذكرت لك.

فمما جاء بالواو قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران: ٤٠]، وقوله عز وجل: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ [مريم: ٨].

وقول امرئ القيس:

أَيَقْتُلُنِي وَقَدْ شَغَفْتُ فُؤَادَهَا ... كما شَغَفَ الْمَهْنُوأَةَ الرَّجُلُ الطَّالِي[1]

---

(١) شعفت فؤادها: تمكن حبها له في قلبها، والمهنوأة: المطلية بالقطران وشعفها طلاها، والمعنى أن حبها له تمكن منها وأحاط بها وبلغ ما يبلغ القطران من الناقة المهنوأة.

وقوله أيضًا:

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَّتْ لِنَومٍ ثِيابَهَا لَدَى السِّتْرَ إلاَّ لِبْسَةَ الْمُتَفَضِّلِ

فالجملة الحالية كما ترى فعلها ماض لفظًا وقد اقترن بالواو.

ومما جاء فعلها ماضيا معنى، وقد اقترن بالواو أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقوله عز وجل ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٠].

وقول كعب بن زهير:

لاَ تأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أُذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِيَّ الْأَقَاوِيلُ

وقوله عز من قائل: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ﴾ [البقرة: ٢١٤]...

ومما جاء بلا واو قوله تعالى: ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ [النساء: ٩٠].

وقول أبي الصخر الهذلي:

وَإِنّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ هِزَّةٌ كَمَا انْتَفَضَ الْعُصْفُورُ بَلَّلَهُ الْقَطْرُ

وقول حندج المري:

مَتَى أرَى الصُّبْحَ قَدْ لاَحَتْ مخَايِلُهُ وَاللَّيْلَ قَدْ مُزِّقَتْ عَنْهُ السَّرَابِيلُ

وكقوله تعالى: ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، وقوله عز وجل: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وقول زهير:

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ[1]

وإذا كانت جملة الحال اسمية فالأولى أن تأتي بالواو كقولك جاء زيد وعمرو أمامه، وأتاني وسيفه في يده.

---

(١) الفتات: اسم لما انفت وتقطع من الشيء، والعهن: الصوف المصبوغ، والفنا: عنب الثعلب.

ومنه قول امرئ القيس:

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

وقوله أيضًا:

لَيَالِيَ يَدْعُونِي الْهَوَى فَأُجِيبُهُ ... وَأَعْيُنُ مَنْ أَهْوَى إِلَيَّ رَوَانِ[١]

وقد يأتي بدون الواو، كقولك: كلمته فوه إلى في، ورجع عوده على بدئه.

وقول سلامة بن جندل:

وَلَوْلاَ جِنَانُ اللَّيْلِ مَا آبَ عَامِرٌ ... إِلَى جَعْفَرٍ سِرْبَالُهُ لَمْ يُمَزَّقِ

فإن كان المبتدأ في الجملة الحالية ضمير صاحب الحال وجبت الواو ولا تصلح جملة الحال بدونها ألبتة، كقولك: جاء زيد وهو راكب ودخلت عليه وهو يملي الحديث...

فلا يجوز أن تقول: «جاء زيد هو راكب»، ولا «دخلت عيه هو يملي الحديث».

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وإن كان الخبر في الجملة الحالية ظرفًا أو جارًّا ومجرورًا وقدم على المبتدأ كثر فيها أن تجيء بغير الواو كقولك: قدم المقاتل على كتفه سيف، وأقبل في يده سوط.

وقول بشار:

إِذَا أَنْكَرَتْنِي بَلْدَةٌ أَوْ نَكِرْتُهَا ... خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِي عَلَيَّ سَوَادُ[٢]

وقول أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة الثقفي:

فَاشْرَبْ هَنِيئًا عَلَيْكَ التَّاجُ مُرْتَفِقًا ... فِي رَأْسِ غُمْدَانَ دارًا مِنْكَ مِحْلالاَ[٣]

---

(١) روان: جمع رانية، يقال: رنا يرنو أي: أدام النظر، فالمعنى: مديمات النظر إليه.

(٢) «البازي» ويقال له أيضًا «الباز»: ضرب من الصقور، و«عليَّ سواد»: أي: بقية من الليل.

(٣) غمدان: بضم الغين، حصن بصنعاء، ومحلال: لينة سهلة يحل الناس بها كثيرًا، والبيت لأبي الصلت وقيل لابنه أمية بن أبي الصلت في مدح سيف بن ذي يزن والأقرب أنه لأبيه.

ويقل مجيئها عندئذ بالواو، كقولك: جاء وعليه ثوب، ومر وفي يده سيف، وقد جاءت في النظم الكريم بالواو وبدونها.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ﴾ [الحجر: ٤]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، وقد مر بك السر البلاغي الكامن وراء ذكر الواو وتركها في الآيتين الكريمتين.

ومما يجيء بالواو في الأكثر، ثم يأتي بغير الواو في مواضع فيلطف مكانه، الجملة قد دخلتها «ليس» تقول: أتاني وليس عليه ثوب، ورأيته وليس معه شيء... هذا هو الكثير المستعمل، وقد جاءت بدون الواو فحسن موقعها ولطف، كما في قول الأعرابي:

لَنَا فَتًى وَحَبَّذَا الأَفْتَاءُ ... تَعْرِفُهُ الأَرْسَانُ وَالدِّلاَءُ
إِذَا جَرَى فِي كَفِّهِ الرِّشَاءُ ... خَلَّى الْقَلِيبَ لَيْسَ فِيهِ مَاءُ[1]

وقد تجد أن الجملة الاسمية جاءت بغير واو فحسنت، ثم تنظر وتتأمل فتجد أن سبب الحسن دخول حرف على المبتدأ، كما في قول الفرزدق.

فَقُلْتُ عَسَى أَنْ تُبْصِرِينِي كَأَنَّما ... بَنِيَّ حَوَالَيَّ الأُسُودُ الْحَوَارِدُ[2]

فإنه لولا دخول «كأن» على المبتدأ لم يحسن الكلام إلا بالواو بأن يقال: عسى أن تبصريني وبني حوالي الأسود.

وشبيه بهذا أن ترى الجملة قد جاءت حالاً عقب مفرد فلطف مكانها وحسن، ولو أردت أن تجعلها حالاً من غير أن يتقدمها هذا المفرد لم يحسن.

كما في قول ابن الرومي:

وَاللهُ يُبْقِيكَ لَنَا سَالِمًا ... بُرْدَاكَ تَبْجِيلٌ وَتَعْظِيمُ

---

(١) الأرسان: جمع رسن وهو الحبل. والرشاء: حبل الدلو، والقليب: البئر، وخلي القليب: تركه.

(٢) الحوارد: الغضاب مفرده حارد.

فقوله: «برداك تبجيل»، في موضع حال ثانية، ولو أنك أسقطت «سالمًا» من البيت فقلت: والله يبقيك برداك تبجيل وتعظيم لم يكن شيئًا(١).

وقد تجد الجملة الحالية جملة اسمية والمبتدأ فيها ضمير يعود إلى صاحب الحال وعلى الرغم من هذا تمتنع الواو بلاغة، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾[الأعراف: ٤]، فجملة: «هم قائلون»، حال ثانية، وقد صدرت بضمير يعود إلى صاحبها، فحقها أن تكون بالواو، ولكن الواو امتنعت هنا، وامتناعها لسر بلاغي وهو كراهة أن يتوالى حرفا عطف وهما «أو والواو» في اللفظ، فلما استقبح تواليهما امتنعت واو الحال. هذا والله أعلى وأعلم.

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٢٢.

الفصل الثامن
الإيجاز والإطناب

لكل مقام مقال، والبلاغة كما عرفها البلاغيون، مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فالحال قد تقتضي الإيجاز في القول، وطي الكلمات وعندئذ تكون البلاغة في أن يوجز المتكلم ويختصر كلامه، وقد تقتضي الإطناب وإطالة القول وعندئذ تكون البلاغة في الإسهاب وإشباع القول وإطالة الكلام... ولذا قال الأعرابي عندما سئل عن البلاغة: «البلاغة الإيجاز في غير عجز والإطناب في غير خطل»، وسأل معاوية صحار العبدي: ما تعدون البلاغة فيكم؟ فقال صحار: الإيجاز. قال معاوية: وما الإيجاز؟ فأجاب: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ[١].

وقال عبد الله بن المقفع: «البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا ومنها ما يكون شعرًا ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب بين السماطين وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطل[٢] والإطالة في غير إملال، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خبر أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته، فقيل له: فإن مل السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنه لا يرضيهما شيء، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله، وقد كان يقال: رضا الناس شيء لا ينال»[٣].

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٩٦.

(٢) الخطل بفتح الخاء والطاء: الكلام الفاسد الكثير المضطرب، والمنطق الهراء الفاسد.. انظر لسان العرب مادة: خطل.

(٣) البيان والتبيين ١/ ١١٥.

وقد امتدحوا الإيجاز كثيرًا فقالوا: البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى... والبلاغة لمحة دالة.. والبلاغة كلمة تكشف عن البقية... ولعل السبب في هذا يرجع إلى أمية العرب، وإلى أنهم أمة صافية الذهن، دقيقة الحس، سريعة الفهم، فالعربي تكفيه الإشارة وتغنيه اللمحة وغير العربي يحتاج إلى الإطالة وإشباع القول، وبهذا علل الجاحظ إيجاز القرآن الكريم عند خطاب العرب والأعراب، والبسط والإطالة عند خطاب بني إسرائيل(١)

... وهذا ما يفسر لنا أيضًا سر السؤال الذي وجه إلى ابن المقفع في قوله المذكور والذي ندرك منه رائحة الاعتراض على مدح الإطناب في موضعه وفي مقامه الذي اقتضاه: «فإن مل السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف...».

وبهذا يتضح لك أن للإيجاز مقامات تقتضيه، ومواضع تلائمه، كالحكم والأمثال والرسائل، كما أن للإطناب مقامات تقتضيه، ومواضع تلائمه، كالمدح والفخر والوعظ، وما يحسن فيه الإيجاز لا يحسن فيه الإطناب، وكذلك ما يحسن فيه الإطناب لا يحسن فيه الإيجاز، ومن مقامات الإيجاز مقامات الحذف التي عرفها في باب المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل، كما أن من مقامات الإطناب تلك المقامات التي وقفت عليها عند دراستك لذكر المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل(٢).

***

الإيجاز معناه وأنواعه

وقد عرفوا الإيجاز بأنه: اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل... أو عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة مع الإبانة والإفصاح ليسهل تعلقها بالذهن وتذكرها عند الحاجة إليها في المناسبات المختلفة... وهو نوعان:

١ -إيجاز قصر ٢- إيجاز حذف

---

(١) انظر الحيوان ١/ ٩٣.

(٢) ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب.

فإيجاز القصر هو الدلالة على المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، أي: تضمين العبارات القليلة القصيرة معاني كثيرة غزيرة دون أن يكون في تراكيبها لفظ محذوف.

كما في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فقد جمع في هذه الآية الكريمة جميع مكارم الأخلاق، لأن في «العفو» الصفح والإغضاء ومسامحة من أساء والرفق في كل الأمور، وفي الأمر بالعرف: صلة الأرحام ومنع اللسان عن الكذب والغيبة، وغض الطرف عن كل محرم، والقيام بمتطلبات الدعوة إلى الله عز وجل، وفي الإعراض عن الجهال: الصبر والحلم وكظم الغيظ... فهذه ألفاظ قليلة وقد فاضت معانيها إلى الغاية، وزادت عن الحد إلى غير نهاية.

وقوله عز وجل: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢]أي: من يطع الله في الفرائض، ورسوله في السنن، ويخش الله فيما مضى من عمره، ويتقه فيما بقى من عمره، فقد فاز، والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة.

ورد أن عمر ﷺ بينما هو قائم في مسجد النبي ﷺ إذا برجل من دهاقين الروم قائم على رأسه وهو يقول :أشهد ألا لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فقال له عمر: ما شأنك، قال: أسلمت، قال: هل لهذا سبب ؟ قال : نعم، إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيرًا من كتب الأنبياء، وإني سمعت أسيرًا يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت، قال عمر : ما هذه الآية؟ فذكر الرجل الآية الكريمة، فقال عمر : قال النبي ﷺ «أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فقد دلت هذه الجملة من الآية الكريمة على استقصاء جميع الأشياء والشئون، حتى روي أن ابن عمر رضي الله عنهما قرأها فقال: «من بقي له شيء فليطلبه».

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ٢ ص ١٩٤ ... والحديث رواه مسلم في المساجد برقم [٨/ ٥٢٣] و«دهَاقِينُ» جمع «دُهقان» بكسر الدال وبضمها وهم: التجار.. انظر لسان العرب مادة دهق.

ومنه قوله عز وجل: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فهذه الجملة يدخل تحتها كل أمر محبوب وينتفي بها كل صنوف المكاره..

وقوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾[التوبة: ٤١]، فتلك ثلاث كلمات حوت معاني غزيرة، إذ شملت الأمر بالنفير العام للجهاد، وقطعت جميع الحجج والذرائع المعوقة عن الجهاد.

وقوله عز جل ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٣١]، فقد دلت هذه الآية الكريمة على جميع ما أخرج من الأرض قوتًا ومتاعًا للناس وللدواب، من عشب وشجر وحطب ولباس ونار وماء وغير ذلك.

وانظر إلى قوله عز من قائل في وصف إنهاء الطوفان: ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود: ٤٤]، فقد قُصَّت القصة مستوعبة جميع الأحداث، مصورة كيف انتهى الطوفان، بحيث لم يخل بشيء من ذلك في أوجز عبارة وأخصر قول.

ومن المشهور في هذا الباب قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، إذ المراد به أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَلَ قُتِلَ كان ذلك داعيًا قويًا له إلى أن يكف عن القتل ولا يقدم عليه، فأوجب ذلك حياة الناس، فانظر كيف اندرجت المعاني المتكاثرة تحت هذه الألفاظ القليلة، وقد كان أوجز كلام قيل في هذا المعنى، قول العرب: «القتل أنفى للقتل»، ولكن الآية الكريمة بنظمها الدقيق المعجز، وبلاغتها السامية، فاقت هذا القول من وجوه متعددة أهمها:

١- فيما قالوه تكرار، والنظم الكريم لا تكرار فيه.

٢- ليس كل قتل نافيًا للقتل، إذ لا ينفى القتلُ القتلَ إلا إذا كان على حكم القصاص، وهذا ما تفيده الآية الكريمة دون القول المذكور.

٣- في الآية الكريمة طباق لطيف بين القصاص والحياة... والضد يظهر حسنه الضد.

٤- الآية الكريمة جعلت القصاص كالأصل للحياة وذلك بدخول

الحرف «في» عليه، وفي ذلك مالا يخفى من المبالغة الجميلة والتخييل العجيب، إذ جعل الفناء محلاً للحياة.

٥- الآية الكريمة أوجز من القول المذكور.

٦- في تنكير كلمة «حياة» إفادة للتعظيم والتنويع، فهي حياة عظيمة فريدة، تمتاز عن حياة البشر وكأنها حياة مستقلة خاصة، إذ إن من هم بالقتل عندما يعلم أنه سيقتص منه فإنه يرتدع وينزجر ويكف عن القتل فيسلم صاحبه ويسلم هو فيحيا ويحيا صاحبه. وتلك حياة عظيمة فريدة.

٧- خلو الآية الكريمة من لفظ «القتل» المشعر بالوحشة والذي جاء وتكرر في القول المذكور، وإشارتها إلى تحقيق العدل بلفظ القصاص. وتلك الإشارة لا توجد في القول المأثور.

ومن شواهد إيجاز القصر أيضًا قوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]، أي: لا شفاعة ولا طاعة، فليس المراد نفي طاعة الشفيع بمعنى أن الشفيع يوجد، ولكن لا يطاع، بل المراد أنه لا شفاعة أصلاً.

ومنه قول امرئ القيس:

عَلَى لاَحِبٍ لاَ يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ ... إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ النَّبَاطِيُّ جَرْجَرَا[١]

أي: لا منارة ولا اهتداء.

وقول أوس بن حجر:

لاَ يُفْزِعُ الأَرْنَبَ أَهْوَالُهَا ... وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ[٢]

أي: لا أرنب ولا فزع، ولا ضب ولا انجحار... ففي هذه الشواهد قد انتفى القيد والمقيد معًا، والنفي موجه إلى القيد فقط، ولا يخفى عليك ما في هذا من إيجاز...

---

(١) اللاحب: الطريق، والمنار: العلامة تجعل على الطريق. وسافه: شمه، والعود: بفتح العين وسكون الواو: الجمل المسن، والنباطي: الضخم، وجرجر: ضج ورغا، وإنما يرغو الجمل لمعرفته ببعد الطريق ومشقة السير فيه.

(٢) ينجحر: يدخل جحره... يصف مفازة بأنها غير مطروقة للناس.

وانظر إلى قول الشريف الرضي.

مَـالُوا إلى شُـعَبِ الرِّحَـالِ وَأَسْـنَدُوا أَيْـدِي الطِّعَـانِ إِلَى قُلُـوبٍ تَخْفِـقُ(١)

فإنه لما أراد أن يصف هؤلاء القوم بالشجاعة في أثناء وصفهم بالغرام، عبر عن ذلك بقوله: وأسندوا أيدي الطعان إلى قلوب تخفق.

وقول أبي تمام:

وَظَلَمْـتَ نَفْـسَكَ طَالِبًـا إِنْـصَافَهَا فَعَجِبْـتُ مِـنْ مَظْلُومَـةٍ لمْ تُظْلَـمِ

أراد: أكرهتها على تحمل الصعاب والمشاق فأنصفتها بذلك، إذ أوجبت لها مجدًا عريقًا وذكرًا حسنًا، فصارت بهذا الصنيع مظلومة لم تظلم.

وقول السموأل بن غريض بن عاديا الأزدي:

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِـلْ عَنِ النَّفْسِ ضَيْمَهَا فَلَـيْسَ إِلَى حُـسْنِ الثَّنَـاءِ سَـبِيلُ

فقد جمع في البيت الصفات الحميدة من شجاعة وسماحة ومروءة ونجدة وإغاثة ملهوف وغير ذلك، لأن هذه الصفات من ضيم النفس، إذ تجد بحملها مشقة وعناء.

ورسول الله ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، والكلام الجامع هو الذي تتكاثر معانيه وتقل ألفاظه، ومن جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام قوله: «**لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ**»(٢)، وقوله ﷺ للأنصار: «**إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ**»(٣)، وقوله: «**إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**»(٤)، وقوله: «**لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْـمُكَافِئِ وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا**»(٥)، فتلك ألفاظ قليلة حوت معاني كثيرة يطول بك القول لوصفها والإحاطة بها.

---

(١) شعب الرحال بضم الشين: خشبها، وميلهم إليها إشارة إلى ركوبهم عليها ورحيلهم للقتال. وتخفق: تضطرب لفراق الأحبة.

(٢) رواه ابن ماجة في الأحكام برقم (١٧/ ٢٣٤١).

(٣) رواه العسكري في الأمثال... انظر كنز العمال رقم (٣٧٩٥١).

(٤) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين برقم (٢٢١/ ٧٨٥).

(٥) رواه البخاري في كتاب الأدب برقم: [٥٩٩١]

ومن إيجاز الكُتَّاب ما كتبه عمرو بن مسعدة إلى المأمون بشأن رجل يهمه أمره إذ قال في كتابه: «كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه معنى بمن كتب له، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله».

وما كتبه إليه أيضًا يحثه على تعجيل أرزاق الجند: «كتابي إلى أمير المؤمنين، ومن قبلي من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما يكون جند تأخرت أرزاقهم، وانقياد كافة تراخت أعطياتهم، فاختلت لذلك أحوالهم، والتاثت معه أمورهم»(١)، ولا يخفى عليك ما في الكتابين من معانٍ غزيرة صيغت في عبارات قليلة وألفاظ موجزة، وهذا هو شأن إيجاز القصر الذي يجري مجرى الأمثال في الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة.

انظر إلى ما كتبه جعفر بن يحيى البرمكي إلى أحد عماله، ووقع به في كتاب رجل شكا إليه ذاك العامل من عماله: «قد كثر شاكوك وقل شاكرون فإما اعتدلت وإما اعتزلت».

***

إيجاز الحذف

أما إيجاز الحذف، فقد عرفه البلاغيون بأنه: التعبير عن المعاني الكثيرة في عبارة قليلة، وذلك بحذف شيء من التركيب مع عدم الإخلال بتلك المعاني، ولابد في كل حذف من وجود أمرين: داع يدعو إليه، وقرينة تدل على المحذوف وترشد إليه وتعينه... والمحذوف إما أن يكون جزء كلمة، أو كلمة أو جملة أو أكثر من جملة... وإليك بيان ذلك.

حذف جزء الكلمة

كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝﴾ [مريم: ٢٠]، فالأصل: ولم أكن بغيا، وقد حذفت النون تخفيفًا...وقوله عزوجل: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، في قراءة من قرأ بترخيم المنادى: «يا مالُ» والأصل: يا مالك، فحذفت الكاف من: «مالك» للدلالة على ما هم فيه من ألم وعذاب وضيق وحزن.

---

(١) التاثت معه أمورهم أي: اختلطت، يقال: التاث عليه الأمر أي: اختلط والتبس.

ومنه قول لبيد:

دَرَسَ الْمَنَا بِمُتَالِعٍ فَأَبَانِ ... بِالْحِبْسِ بَيْنَ الْبِيدِ وَالسُّوبَانِ[١]

أراد: درس المنازل..

ومنه قول علقمة بن عبدة:

كَأَنَّ إِبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ ... مُقَدَّمٌ بِسَبَا الْكِتَّانِ مَثْلُومُ

أراد: بسبائب الكتان...

وقول الحارث الجرمي:

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي ... فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي

أراد: يا أميمة، فحذف حرف النداء، ورخم المنادى فحذف منه التاء... وارجع إلى باب المسند إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب لتقف على الأسرار البلاغية الكامنة وراء الحذف في هذه الشواهد.

***

حذف الكلمة: وله صور كثيرة أهمها:

١-حذف الحروف، كحذف همزة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ ﴾ [محمد: ١٥]، إذ المراد: أمثل الجنة التي وعد المتقون كمن هو خالد في النار...؟ فحذفت الهمزة وفي حذفها زيادة تصوير لعناد المعاندين ومكابرة المكابرين الذين يسوون بين الحق والباطل وبين من يتمسك بالبينة ومن يتبع هواه.

يقول الزمخشري: «فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ

---

(١) متالع: جبل بناحية البحرين بين السَّوْدَة والأحساء وفي سفح هذا الجبل عين يسيح ماؤها يقال لها: عين متالع،وأبان والحبس والبيد والسوبان: أماكن.. انظر لسان العرب: مادة: تلع.

فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ ﴾ [محمد: ١٥].

قلت: هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله في حيزه وانخراطه في سلكه، وهو قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾، فكأنه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد في النار؟ أي: كمثل جزاء من هو خالد في النار، فإن قلت: فلم عري من حرف الإنكار وما فائدة التعرية؟ قلت: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار، وبين النار التي يُسقى أهلها الحميم...»[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٢٢]، إذ المراد: أو تلك نعمة..؟ وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: أو من ذريتي؟ فحذفت الهمزة في الموضعين[2].

وكحذف «لا» النافية كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ [يوسف: ٨٥]، أي: لا تفتأ... وكحذف حرف النداء كما في الآية الكريمة: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ ﴾ [يوسف: ٢٩]، وكما في بيت الحارث الجرمي:

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي ... فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي

إذ المراد: يا يوسف أعرض... يا أميمة. فحذف حرف النداء[3].

٢-حذف المسند إليه أو المسند أو أحد متعلقات الفعل كالمفعول والحال والجار والمجرور على نحو ما مر بك في تلك الأبواب.

٣-حذف المضاف، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٣.

(٢) ارجع إلى أسرار هذا الحذف في رسالتنا الحذف في ضوء أساليب القرآن.

(٣) ارجع إلى باب المسند إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب؛ لتقف على أسرار الحذف في هذه الشواهد.

فِيهَا ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي أهل القرية وأصحاب العير، فحذف المضاف في الموضعين، وحذفه يشير إلى شهرة السرقة وذيوعها وكأنهم يريدون: أن أمر سرقته قد اشتهر وذاع إلى حد أنك لو سألت الجمادات لأجابت، ولو سألت الحيوانات لنطقت وأخبرت.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ [البقرة: ١٧١]، إذ المراد: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بها لا يسمع إلا دعاء ونداء، فحذف المضاف وهو «داعي» رفعا لشأنه وتنزيهًا له عن أن يقرن في اللفظ بهذا الذي ينعق بها لا يسمع، وأن يضاف إلى الذين كفروا.

وحذف المضاف يقع كثيرًا في النظم الكريم على نحو ما ترى في الآيات الكريمة: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾[الحج:٧٨] أي: في سبيل الله، ﴿ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾[النساء:١٦] أي: تناول طيبات، ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ [الأحزاب:٢١] أي: رحمة الله ونعيم اليوم الآخر، ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٠] أي: من عذابه، وقد ظهرت هذه المضافات في الآية الكريمة، ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٧]، ومنه قوله عز وجل: ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ [يوسف:٣٢] أي: في مراودته.

٤-حذف المضاف إليه: كما في قوله تعالى: ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، أي: بعشر ليال، وقوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ [الروم: ٤]، أي: من قبل الغلب ومن بعده.

٥-حذف الموصوف: كما في قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ [ص: ٥٢]، أي: حور قاصرات الطرف... وقوله عز وجل: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٠]، أي: وعمل عملاً صالحًا فاكتفى بالصفة عن الموصوف في الآيتين لذيوع الصفة وشهرتها.

ومنه قول سُحَيم بن وَثيل:

أَنَــا ابْنُ جَــلاَ وَطَــلاَّعُ الثَّنَايَــا   مَتَــى أَضَــعِ الْعِمَامَــةَ تَعْرِفُــونِي[1]

(١) الثنايا: مفردها ثنيَّة، وهي الطريق في أعلى الجبل أو الطريق الصعب، والمراد بالعمامة عمامة الحرب أي: البيضة، وجلا: منكشف الأمر، أو كاشف الأمور... والمعنى :أنا ابن رجل معروف لا يخفى على أحد، أو أنا ابن رجل شجاع يكشف الكرب، ويبدد الخوف، ويقتحم الشدائد والأهوال.

حذف الموصوف وتقديره: أنا ابن رجل جلا.

٦-حذف الصفة: كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، أي: يأخذ كل سفينة صالحة، بدليل قوله: «فأردت أن أعيبها...»، والحذف هنا يوحي بجبروت هذا الملك وإفساده وشدة ظلمه، فغصبه ليس قاصرًا على الصالح من السفن، بل تجاوزه إلى غير الصالح، فغايته هي الغصب والاستيلاء،بهذا ينبئ الحذف فالحذف في الآية يصور مدى طغيان الملك وشدة ظلمه.

٧-حذف القسم كقوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠]، أي تالله لئن لم ينته، وقوله عز وجل: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، أي: والله لئن لم يفعل، فحذف القسم في الموضعين.

٨-حذف جواب القسم كقوله تعالى ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾[الفجر: ١-٥]، فقد حذف جواب القسم لوضوحه وبيانه وتقديره: لتبعثن.

٩-حذف الشرط: كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله عز وجل: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾[مريم: ٤٣]، والتقدير: فإن تتبعوني يحببكم الله، فإن تتبعني أهدك صراطًا سويا.

١٠-حذف جواب الشرط: كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[يس: ٤٥]، أي: أعرضوا بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦]، وهذا الحذف يشير إلى أنه كان ينبغي لهم أن يستجيبوا ويقبلوا النصح فيحققوا التقوى، وما كان ينبغي لهم الإعراض والتولي وكأن طيه من اللفظ ينبئ بضرورة التخلي عنه وإسقاطه من الأذهان والمسارعة إلى قبول الهداية والحق.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[الزمر: ٧٣]، والتقدير:

حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها سعدوا وحصلوا على النعيم المقيم الذي لا يحيط به الوصف... وبلاغة حذف الجواب هنا تكمن في أن النفس تذهب في تقدير الجواب المحذوف كل مذهب، وفي الدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف ولا تتسع له العبارة.

وتأمل ما وراء هذه الواو ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ من تكريم وتشريف لهؤلاء الذين اتقوا فقد فتحت لهم أبواب الجنة قبل أن يأتوها تكريما لهم وتعظيمًا لشأنهم، ثم انظر إلى وصف الذين كفروا ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ [الزمر: ٧١]، تجد أن «فتحت» قد جاءت بدون واو فهي جواب «إذا»، ومجيئها بدون الواو يشير إلى شدة مواجهتهم بالعذاب، فأبواب جهنم مغلقة لا تفتح إلا عند وصولهم إليها «إذا جاءوها فتحت أبوابها» حتى تواجههم بصنوف العذاب وألوان الآلام... أما أبواب الجنة فتفتح قبل مجيء الذين اتقوا وتجهز قبل وصولهم وتعد، تكريما لهم وتعظيمًا ﴿ جَنَّـٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾ [ص: ٥٠].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ [السجدة: 12]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾[الأنعام: ٢٧]، والتقدير: لرأيت أمرا عظيما وشيئًا فظيعًا لا يحيط به الوصف، فقد حذف الجواب هنا قصدًا إلى إفادة التهويل والتفظيع... ومن قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١]، والتقدير: لو أن قرآنًا أوتي تلك القوة الخارقة لكان هذا القرآن، فحذف جواب ﴿ لَو ﴾ هنا يشير إلى وضوحه وظهوره، وانصراف الأذهان إليه بمجرد التلفظ بجملة الشرط.

١١-حذف جواب الاستفهام: كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ [التوبة: ١٢٧]، فحذف جواب الاستفهام وتقديره: «لا يرانامن أحد» بدليل قوله «ثم انصرفوا»، لأنهم لم ينصروا إلى بعد تأكدهم من أنه لا أحد يراهم، والحذف هنا يشير إلى حذرهم ومبلغ حيطتهم وكأن الجواب كان همسًا في الآذان وليس أصواتًا مسموعة.

١٢- حذف المعطوف: كما في الآية الكريمة: ﴿ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ

ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ﴾ [الحديد: ١٠]، أي: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل، فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه.

***

حذف الجملة

والمراد بالجملة، الجملة التامة التي تفيد معنى مستقلاً، ولا تكون جزءًا من كلام آخر ولهذا لايدخل فيها حذف المعطوف وحذف الأجوبة: جواب القسم وجواب الشرط وجواب الاستفهام؛ لأنها وإن كانت جملاً فهي لا تستقل بالإفادة، بل هي جزء من كلام آخر ومن أجل هذا عددناها من قبيل حذف الكلمة.

ومن حذف الجملة قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ﴾ [البقرة: ٦٠]، والتقدير: فضرب فانفجرت، فحذفت جملة: ضرب، وحذفها يشير إلى سرعة إجابة موسى –عليه السلام– وامتثاله لأمر ربه، كما ينبئ بأن الانفجار مسبب عن الأمر "اضْرِبْ" وما صنعه موسى إنما هو أخذ بالأسباب، ومنه قوله تعالى: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٨]، والمعنى: فعل ما فعل من كسر قوة أهل الشرك، ليحق الحق ويبطل الباطل... وقوله جل وعلا ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فحذفت جملة الحال والتقدير: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وهما يقولان: ربنا تقبل منا... وهذا الحذف يصور لنا المشهد حيًّا بارزًا، مشاهدًا، وكأنك تراه الآن، وتشاهد إبراهيم وإسماعيل وهما يدعوان بهذا الدعاء، فكم في الانتقال هنا من الخبر إلى الدعاء من إعجاز فني بارز يكمن وراء طي جملة الحال[(١)].

ومنه قول أبي الطيب:

أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ فِي شَبِيبَتِهِ فَسَرَّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الْهَرَمِ

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص ٥٩.

أي: وأتيناه على الهرم فساءنا، والحذف في البيت ينبئ بما في نفس الشاعر من ضيق وألم لإدبار الدهر عنه وعدم تحقيق ما يصبو إليه من مجد وآمال.

***

حذف أكثر من جملة

كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ [يوسف ٤٥: ٤٦]، والتقدير: فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا فأرسلوه إليه فأتاه وقال له: يوسف أيها الصديق أفتنا... ومثله قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٦]، والتقدير: فأتياهم فأبلغاهم الرسالة فكذبوهما فدمرناهم. ويكثر هذا الحذف في النظم القرآني ولا سيما في ميدان القصص حيث يستغنى عن التفصيلات الجزئية التي تعرف من السياق وتفهم من قرائن الأحوال، ففي تخطيها وصول إلى العناصر الجوهرية في القصة وإبرازها جلية واضحة، وفي تخطيها أيضا حث للمخاطب وتحريك لمشاعره، وإثارة لذهنه، إذ يفهم تلك المشاهد المطوية ويقف عليها من خلال تأمله وتدبره أحداث القصة ووقوفه على سياقها وقرائن أحوالها.

قرائن الحذف

ولابد في الحذف من قرينة تدل على المحذوف وترشد إليه وتعينه، وإلا كان الحذف عبثًا وضربًا من الهذيان، إذ يؤدي عندئذ إلى اللبس والإشكال وعدم فهم المراد... وقرائن الحذف قد تكون لفظية، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾ [الطلاق: ٤]، فقد حذف خبر «اللائي لم يحضن»، لدلالة خبر «اللائي يئسن» عليه وتعيينه له، والتقدير: واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر كذلك.

ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝﴾ [فاطر:٤]، فقد حذف جواب الشرط وتقديره، وإن يكذبوك فاصبر، ودلت عليه القرينة اللفظية وهي: «فقد كذبت رسل من قبلك» فهذه الجملة ليست

هي جواب الشرط وإنما هي علة لجواب الشرط المحذوف، وفيها تسلية لرسول الله ﷺ كي لا يحزن لإعراضهم وتكذيبهم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ﴾ [الحديد: ١٠]، فقد دل المذكور: «من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا» على المحذوف والتقدير: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل».

هذا ولا يشترط في المحذوف أن يكون من جنس المذكور، بل الذي ينبغي مراعاته أن يدل المذكور على المحذوف دلالة واضحة بينة، ولذا لا أرى عيبًا في بيت عروة بن الورد:

عَجِبْتُ لهُمْ إِذْ يَقْتُلُونَ نُفُوسَهُمْ وَمَقْتَلُهُمْ عِنْدَ الوَغَى كَانَ أَعْذَرَا

إذ حذف الجار والمجرور من القتل الأول لدلالة «عند الوغى» عليه دلالة بينة ظاهرة، والتقدير: إذ يقتلون نفوسهم في السلم... ولا في قول الحارث بن حلزة.

وَالعَيْشُ خَيرٌ فِي ظِلالِ النَّوْكِ مِمَّنْ عَاشَ كَدًّا

أراد: والعيش الناعم في ظلال الحمق خير من العيش الشاق في ظلال العقل، فحذف «الناعم» لدلالة «كدا» عليه، وحذف العقل لدلالة «النوك» عليه... ولا في قول عبيد الله بن مسعود الهذلي:

أَعَاذِلُ عَاجِلُ مَا أَشْتَهِي أَحَبُّ مِنَ الأَكْثَرِ الرَّيِّثِ

أراد: عاجل ما أشتهي مع القلة أحب من الأكثر المبطئ، فحذف لفظ «القلة» لدلالة قوله: «الأكثر» عليه.

ويرى كثير من البلاغيين أن المحذوف ينبغي أن يكون من جنس المذكور ولذا عدوا الحذف في الأبيات المذكورة، مخلاً بالمعنى ومفسدًا له، لأن المذكور ليس من جنس المحذوف، فهو غير واف في الدلالة عليه، ولا أرى -كما بينت- إخلالا في الأبيات، بل أرى أن القرينة اللفظية فيها قد دلت على المحذوف دلالة واضحة وافية، وهذا هو ما ينبغي أن يعتد به ويعول عليه، ولا يشترط في القرينة اللفظية أن تكون من جنس ما حذف.

انظر إلى قول المتنبي السابق:

أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ في شَبِيبَتِهِ ... فَسَرَّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الْهَرَمِ

تجد أن قوله: «فسرهم» قد دل على المحذوف وتقديره: فساءنا، دلالة واضحة بينة وهو ليس من جنسه كما ترى.

وخذ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ [الإسراء: ١٦]، إذ المعنى -والله أعلم- أمرناهم بالطاعة ففسقوا، فقد حذفت «الطاعة» لدلالة قوله: «ففسقوا» عليها وهو ليس من جنسها.

وبهذا يتضح لك أن القرينة اللفظية لا يشترط فيها أن تكون من جنس المحذوف، بل يشترط أن تكون واضحة الدلالة عليه سواء أكانت من جنسه أم من غير جنسه(١).

وقد تكون القرينة معنوية، تفهم من السياق وقرائن الأحوال دون أن يصرح في العبارة بما يدل على المحذوف... كما في قوله جل وعلا ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢]، فالمعنى -والله أعلم- وجاء أمر ربك، لأن العقل لا يجوز مجيء الرب، بل الذي يأتي هو أمره أو عذابه أو بأسه ونحو ذلك.

ومثله قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠]، أي: هل ينظرون إلا أن يأتيهم عذاب الله أو أمره.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣]، أي: حرم عليكم تناول هذه الأشياء؛ لأن التحريم يتعلق بالأفعال لا بالذوات وكذا القول في الآيات الكريمة: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾[النساء: ٢٣]، أي: نكاحهن، ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢]، أي: في حبه أو مراودته، وسياق الآيات الكريمة ينطق بالمحذوف: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف: ٣٠]، ولا يعد هذا من قبيل القرينة اللفظية، لأنه ليس

(١) ارجع إلى الحذف في ضوء أساليب القرآن.

مذكورا في نفس الآية، والمخاطب يحتاج إلى مراجعة طويلة للسياق وتدبره حتى يقف على المحذوف.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: سل أهل القرية التي كنا فيها وأصحاب العير... لأن السؤال لا يوجه إلا إلى ذوي العقول والتمييز.

وقوله عز وجل: ﴿ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، أي: لو نعلم أن المكان مكان قتال، لأنهم كانوا أخبر الناس بالحرب وفنون القتال فكيف يقولون: إنهم لا يعرفونها؟ لابد إذا من حذف قدره المفسرون بقولهم: مكان قتال... ومنها قولك لمن أعرس: بالرفاء والبنين، فقد دلت الحال على المحذوف وتقديره: بالرفاء والبنين أعرست، إلى غير ذلك من القرائن التي تدل على المحذوف وترشد إليه.

***

الإطناب معناه وأنواعه

والإطناب في اللغة: مصدر أطنب، يقال: أطنب في كلامه، إذا بالغ فيه وطول ذيوله، وفي عرف البلاغيين معناه: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو عرض المعنى في عبارة زائدة بحيث تحقق الزيادة فائدة، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم: ٤]، فقد أراد زكريا -عليه السلام- أن يخبر بكبره وتقدم سنه، فجعل الألفاظ زائدة على المعاني لفائدة وهي: إظهار ضعفه، وتأكيد الوهن، لأنك لو قلت: رب إني قد كبرت، أفاد ذلك الإخبار بتقدم العمر فقط دون ظهور الضعف، إذ قد تكون مع تقدم سنك قويًا نشيطًا، أما الآيات فقد أخبرت عن هذا المعنى «تقدم السن» بوهن العظم، واشتعال الشيب، لتظهر ضعفه بجانب تقدم سنه، فالزيادة في الألفاظ -كما ترى- إنما هي لفائدة.

ومنه قوله عز وجل: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٧، ١٨]، فقد كان يكفي في الجواب أن يقول -موسى عليه السلام-: عصا، ولكنه أطنب وفصل فأضاف العصا إليه وذكر وظائفها بعضها مفصلا: «أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي»، وبعضها مجملا:

« لي فيها مآرب أخرى»، ولعله كان يطمع في أن يسأل عن هذه المآرب فيجيب عنها وبهذا يمتد الحديث ويطول؛ لأنه في مقام رب العزة، وهو مقام يحلو فيه الإطناب، لأنه مقام تعظيم وتشريف، فالزيادة في الجواب -كما ترى- تحقق فائدة.

فإذا لم تحقق الزيادة فائدة في الكلام كانت تطويلا أو حشوًا، وذلك أنها إذا كانت غير متعينة كالمترادفين مثل: الكذب والمين، والنأي والبعد، وأقوى وأقفر، ونوم ونعاس، وحظ ونصيب... سميت الزيادة تطويلاً.

من ذلك قول عدي بن يزيد العبادي:

وَقَــدَّدَتِ الأَدِيــمَ لِرَاهِــشَيْهِ ... وَأُلْفِــيَ قَوْلُهَــا كَــذِبًا وَمَيْنَــا[١]

فالكذب والمين بمعنى واحد ولا يتغير المعنى بإسقاط أحدهما...

وقول عنترة:

حُيِّيــتَ مِــنْ طَلَــلٍ تَقَــادمَ عَهْــدُهُ ... أَقْــوَى وَأَقْفَــرَ بَعْــدَ أُمِّ الْــهَيْثَمِ

فأقوى وأقفر بمعنى واحد، ولا يتغير المعنى بإسقاط أيهما شئت.

وكقول الحطيئة:

قَالَــتْ أُمَامَــةُ لَا تجْــزَعْ فَقُلْــتُ لهَــا ... إِنَّ العَــزَاءَ وَإِنَّ الــصَّبْرَ قَــدْ غَلَبَــا

هَــلاَّ الْتَمَــسْتِ لَنَــا إِنْ كُنْــتِ صَــادِقَةً ... مَــالاً نَعِــيشُ بِــهِ فِي النَّــاسِ أَوْ نَــشَبَا[٢]

فالعزاء والصبر بمعنى واحدن وكذا المال والنشب.

وكقول الآخر:

أَلَا حَبَّــذَا هِنْــدٌ وَأَرْضٌ بِهَــا هِنْــدُ ... وَهِنْــدٌ أَتَــى مِــنْ دُونهَــا النَّــأْيُ وَالبُعْــدُ

---

(١) قددت: قطعت، والفاعل المستتر يعود إلى الزباء ملكة تدمر والأديم: الجلد والراهشان: عرقان في باطن الذراع والضمير المضاف إليه يعود لجذيمة بن الأبرش ملك الحيرة، «وأُلفِيَ» بمعنى: وجد مبني للمفعول و«قولها» نائب الفاعل و«كذبًا» المفعول الثاني، وقصتها مشهورة، وخلاصتها أن الزباء كان لها دم عند جذيمة حيث قتل والدها فأرادت أن تثأر منه وتوددت إليه ولما التقت به ادعت أنها تريد أن تستشفي بدمه؛ لأن دم الملوك مما يستشفى به فقددت الأديم لراهشيه وظل ينزف حتى مات.

(٢) النشب: بفتح النون والشين: المال الأصيل، ويطلق أيضًا على العقار، يقال: نشب ونشبة ومنشبة.

فالنأي والبعد بمعنى واحد، وإذا أسقطت إحدى الكلمتين لا يتغير المعنى، أي أنه لم يتعين أي الكلمتين هو الزائد.

هذا والحكم بزيادة كلمة من الكلمات وخلوها عن الفائدة مرتبط بالمقام والحال التي قيلت في جوها الكلمة، وعندما تتأمل الأبيات المذكورة لا تستطيع أن تحكم بزيادة إحدى الكلمتين كما قال البلاغيون؛ لأن المقام في الأبيات يقتضي التأكيد، ومن شأن الترادف أن يفيد التأكيد، ثم إن الكلمات المترادفة لا تفيد معنى واحدًا، بل ذكر كثير من العلماء أن كل لفظ من الألفاظ المترادفة له ظلال جانبية وإفادات جزئية تختلف عن الآخر... ولذا لا نستطيع القول بأن أحد اللفظين المترادفين في الأبيات المذكورة زائد، بل إنه مؤكد للآخر والمقام -كما ذكرت- قد اقتضى هذا التأكيد.

وإذا كانت الزيادة متعينة سميت حشوًا، والحشو نوعان:

١-حشو يفسد به المعنى كقول المتنبي:

وَلَا فَضْلَ فِيْهَا لِلشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَصَبْرِ الفَتَى لَوْلاَ لِقَاءُ شَعُوبِ[1]

فكلمة «الندى» في البيت حشو أفسد المعنى، إذ المراد لا فضل في الحياة للشجاعة والصبر والندى لولا الموت واعتقاد الشجاع والصابر والجواد أنهم ملاقو الموت، وهذا صحيح بالنسبة للشجاعة والصبر؛ فاسد بالنسبة للندى، إذ الشجاع لو علم أنه مخلد لن يصيبه الموت، لكان إقدامه وشجاعته لا فضل فيهما، لأنه أقبل على البطولة وهو على يقين بأن الموت لن يصيبه، وكذا الصابر عندما يعلم أنه لن يموت، يكون صبره لا فضل فيه، وإنما تظهر مزية الشجاعة والصبر عندما يعلم صاحبهما أن الموت أمامه ثم يقبل أو يصبر فعندئذ يكون للإقدام مزية وللصبر فضل.

أما الندى فتظهر مزيته ويبدو فضله إذا علم صاحبه أنه مخلد ولن يموت، لأن علمه بأن الموت لن يلقاه، يدعوه إلى الإمساك وادخار المال كي ينتفع به إذ هو مخلد، فإذا جاد به عندئذ ظهر لجوده فضل وبدت له مزية، أما إذا علم أن الموت أمامه

---

(١) شعوب: بفتح الشين: علم جنس للمنية وهي الموت وقد جر بالكسر من أجل الروي لأنه مما لا ينصرف فجره بالفتحة.

وسياتماه لا محالة، فهذا يدعوه إلى البذل والعطاء، ولا فضل للندى عندئذ، إذ يقول: لو عوتب في بذل المال وإنفاقه: كيف لا أبذل ما لا أبقى له ولا أثق بأنني سأتمتع به؟ ولذا يقول طرفة بن العبد.

أَلا أَيُّهَــذا اللَّائِمِــي أَحْـضُرَ الْـوَغَى وَأنْ أَشْـهَدَ اللَّـذَّاتِ هَـلْ أَنْـتَ مُخْلِـدي
فَــإِن كُنْــتَ لَا تَــسْتَطِيعُ دَفْـعَ مَنِيَّتِــي فَــدَعْنِي أُبَادِرْهَــا بِــمَا مَلَكَــتْ يَــدي

ويقول مهيار الديلمي:

فَكُــلْ إِنْ أَكَلْــتَ وَأَطْعِــمْ أَخَــاكَ فَــلَا الــزَّادُ يَبْقَــى وَلَا الآكِــلُ

فالشجاعة والصبر لولا الموت لم يحمدا، والندى بالضد، ولذا كانت كلمة الندى في بيت المتنبي حشوا مفسدا للمعنى، وقد اعتذر للشاعر بأنه يريد بذل النفس لا بذل المال، على حد قول مسلم بن الوليد:

يَجُـودُ بِـالنَّفْسِ إِنْ ضَـنَّ الجـوَادُ بِهَـا وَالْـجُودُ بِـالنَّفْسِ أَقْـصَى غَايَـةِ الـجُودِ

ورد هذا الاعتذار بأن لفظ «الندى» لا يكاد يستعمل في بذل النفس وإن استعمل فعلى وجه الإضافة، أما مطلقًا فلا يفيد إلا بذل المال.

٢ – حشو لا يفسد به المعنى: كما في قول زهير:

وَأَعْلَــمُ عِلْــمَ الْيَــوْمِ وَالأَمْــسِ قَبْلَــهُ وَلَكِنَّنِــي عَــنْ عِلْــمِ مَــا فِي غَــدٍ عَمِــي

فكلمة «قبله» مستغنى عنها فهي حشو، ولكن ذكرها لا يفسد المعنى.

ومثله قول أبي العيال الهذلي في رثاء أخ له:

ذَكَــــرْتُ أَخِــــي فَعَــــاوَدَني صُــــدَاعُ الــــرَّأْسِ وَالوَصَــــبُ

فلفظ الرأس في البيت حشو لا فائدة فيه، لأن الصداع لا يكون إلا في الرأس، وليس بمفسد للمعنى، ويؤخذ على الشاعر أيضًا، أن مقام الرثاء لا يناسبه ذكر الصداع وألم الرأس، بل الملائم له ألم القلب وحراقته.

ومنه قول أبي عدي العبلي الأموي:

نَحنُ الرُّءُوسُ وَمَا الرُّءُوسُ إِذَا سمَتْ فِي المَجْــدِ لِلأَقْــوَامِ كَالأَذْنَــابِ

فقوله: «للأقوام» حشو لا فائدة فيه، وهو غير مفسد للمعنى.

وقول البوصيري:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمِ   مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ[1]

فقوله: «من مقلة» حشو لا فائدة فيه، لأن الدمع لا يجري إلا من العين، وهو حشو غير مفسد للمعنى.

وقول المتنبي:

وَخُفُوقُ قَلْبٍ لَوْ رَأَيْتِ لَهِيبَهُ   يَا جَنَّتِي لَرَأَيْتِ فِيهِ جَهَنَّمَ

فقوله: «يا جنتي» حشو غير مفسد للمعنى، وقد استحسنه بعضهم لإفادته معنى لطيفًا حيث طابق الشاعر بينه وبين «جهنم».

هذا -وكما ذكرت لك- ينبغي أن تعلم أن الحكم بزيادة كلمة وعدم فائدتها، تابع للمقام والحال التي قيلت في جوها الكلمة، ولا تستطيع أن تقطع بعدم الفائدة إلا إذا أحطت بالسياق وعرفت قرائن أحواله، وعندما تتأمل الأبيات المذكورة والتي استشهد بها البلاغيون للحشو غير المفسد يتضح لك أن تلك الكلمات التي حكموا بزيادتها وحشوها قد أفادت معنى اقتضاه المقام.

تأمل «دمعًا جرى من مقلة» «وأعلم علم اليوم والأمس قبله» «عاودني صداع الرأس» «وما الرءوس إذا سمت في المجد للأقوام» تجد أن تلك الكلمات: «مقلة، قبله، والرأس، للأقوام» قد أفادت تأكيدا اقتضاه المقام، وهذا التأكيد لا يفاد بطيها، ولذا لا نوافق البلاغيين في قولهم بأنها حشو ولا فائدة فيها، ونحن نقول: ذقته بفمي ورأيته بعيني وسمعته بأذني ووطأته بقدمي، ولا يقول أحد إن تلك الكلمات: بفمي، بعيني، بأذني، بقدمي، «حشو» لأنها أفادت تأكيدًا اقتضاه المقام.

واقرأ قوله عز وجل: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن

(١) ذو سلم: مكان على طريق البصرة إلى مكة.

قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقوله جل وعلا: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٢٦].

تجد أن التلقي لا يكون إلا بالألسنة، والقول لا يكون إلا من الفم، والقلب لا يكون إلا بالجوف، والسقف لا يكون إلا من فوق، ولا يقول قائل: إن هذه الألفاظ زائدة وليس وراءها فائدة، لأن المقام قد اقتضاها والمعنى قد تطلبها، فالآية الأولى مسوقة للرد على أهل الإفك وإنكار ما قالوه وخاضوا فيه، فقد رموا بفاحشة الزنا إلى من هي ظاهرة العفاف والطهر وهذا افتراء عظيم وإثم كبير، فالمقام إذا يقتضي أن يسجل عليهم ما خاضوا فيه، وأنه قد خرج من أفواههم وانبعثت به ألسنتهم، ليكون في ذلك مبالغة في الإنكار والرد.

وقل مثل هذا في الآية الثانية فهي مسوقة لإنكار الظهار وإنكار التسوية بين الأبناء والأدعياء... ولإفادة أن من يفعل هذا فيسوي بين الزوجة والأم في التحريم وبين ابنه ومولاه في الحقوق يكون كمن يجمع قلبين في جوف واحد، وقد اقتضى هذا أن يؤكد الكلام بذكر الجوف.

وتأمل إيثار التعبير بلفظ «لرجل»، وما يكمن وراءه من شدة المبالغة في الإنكار، وذلك أن المرأة قد يتصور وجود قلبين في جوفها، أما الرجل فلا يمكن أن يتصور وجود قلبين في جوفه بحال من الأحوال.

والآية الثالثة مسوقة للتخويف والترهيب وهذا يقتضي تأكيد ما حل بمن مكروا قبلهم، فقد أتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، فكلمة «من فوقهم» أفادت من التهويل والتخويف ما لا يفيده طيها.

وبهذا يتضح لك أن الأمر يحتاج إلى مراجعة دقيقة للسياق والوقوف على قرائن أحواله. فالنظرة السريعة العاجلة تجعلك تظن أن الكلمة زائدة ولا معنى لها في النظم فهي حشو، ولكن عند التأمل ومراجعة السياق مراجعة دقيقة واعية يظهر لك أن المقام قد اقتضاها وأن هنالك معنى دقيقا يكمن وراءها ولو طويت ما أفيد ذلك المعنى.

أنواع الإطناب وما يكمن وراءها من دقائق بلاغية

ويقع الإطناب في الكلام على أنواع مختلفة أهمها ما يلي:

١ -**الإيضاح بعد الإبهام**: وهو أن يجمل المعنى ويبهم ثم يفصل ويبين فيبدو في صورتين مختلفتين، وعندئذ يقع في النفس أطيب موقع ويتمكن لديها أفضل تمكن، لأن المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تطلعت النفس وتشوقت إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فعندما يأتي هذا التفصيل وذاك الإيضاح، يكون أشد وقعًا وأقوى أثرًا؛ لأنه جاء والنفس عنه تبحث وإليه تتطلع، وهم يقولون: إن الشيء إذا نيل بعد طلب ومشقة وبحث وتنقيب، يكون أوقع في النفس وأشد تأثيرًا ويحدث لها بالوقوف عليه عندئذ لذة ومتعة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ** ﴾ [الحجر: ٦٦]، فقد أبهمت الآية ما قضي به إلى لوط -عليه السلام- «ذلك الأمر»، ثم فصلته وبينته «أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين»، ففي الإبهام إثارة للمخاطب وتحريك لفكره فيتطلع إلى إيضاح ما أبهم، وعندئذ يأتي الإيضاح فيتقرر المعنى في ذهن المخاطب ويقع موقعه، وفي هذا تفخيم وتهويل للعذاب الذي حل بهم، لأنه ذكر مرتين، مرة على طريق الإجمال والإبهام ومرة على طريق التفصيل والإيضاح والشيء إذا ذكر مرتين كان آكد في الذهن وأشد تعلقًا والتصاقًا بالنفس.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٠]، ذكرت الوسوسة مجملة ثم فصلت بما بعدها وعندما أجملت اشتاقت النفس وتطلعت إلى معرفتها والوقوف عليها، فلما جاء البيان وقع في النفس موقعًا حسنًا.

وكذا القول في قوله تعالى: ﴿ **وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾** ﴾ [الشعراء: ١٣٢- ١٣٤]، ذكر ما أمدهم به مجملا فتطلعت النفس إلى معرفته، ثم فصل وبين فوقع في الأنفس موقعه.

وقوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ** ﴾ [الصف: ١٠- ١١]، أجملت التجارة التي تنجي من العذاب، ثم فصلت وبينت.

ومن الإيضاح بعد الإبهام باب نعم وبئس نحو: نعم الرجل زيد وبئس الصديق عمرو، وذلك على جعل كل من زيد وعمرو، خبرا لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ محذوف الخبر، فيكون الأسلوب مكونا من جملتين إحداهما مبينة ومفسرة للأخرى، أما على جعل كل من زيد وعمرو مبتدأ والجملة قبله خبر، فليس مما نحن فيه، لأن الأسلوب عندئذ يتكون من جملة واحدة.

ومنه التوشيع وهو أن يؤتى في عجز الكلام غالبا بمثنى مفسر باسمين أحدهما معطوف على الآخر، كقوله ﷺ: «**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتِشبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرَ**»(١).

وقوله ﷺ: «**الْخَمْرُ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ النَّخْلَةُ وَالْعِنَبَةُ**»(٢).

وقول عبد الله بن المعتز:

سَقَتْنِي فِي لَيْلٍ شَبِيهٍ بِشَعْرِهَا ... شَبِيهَةَ خَدَّيْهَا بِغَيْرِ رَقِيبِ

فَمَا زِلْتُ فِي لَيْلَيْنِ شَعْرٍ وَظُلْمَةٍ ... وَشَمْسَيْنِ مِن خَمْرٍ وَوَجْهِ حَبِيبِ

وقد يكون المثنى في أول الكلام، كقوله ﷺ: «**مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ مَالٍ**»(٣)، وقد لا يكون مثنى بل جمعا، كما في قوله ﷺ: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّاسِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إلاَّ لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»(٤).

ومنه قول ابن وهيب:

ثَلاَثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا ... شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالقَمَرُ

٢-ذكر الخاص بعد العام أو العام بعد الخاص:

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿ **تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ** ﴾[القدر:

---

(١) رواه مسلم في الزكاة برقم (١١٥/ ١٠٤٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (٧٧٣٥).

(٣) رواه الدارمي في المقدمة برقم (٣٢).

(٤) رواه البخاري في الإيمان برقم (٩/ ١٦).

٤]، فالروح وهو جبريل عليه السلام قد ذكر مرتين، مرة مندرجًا تحت العام وهو الملائكة ومرة وحده، وكأنه جنس آخر غير جنس الملائكة المعطوف عليهم، وهذا تكريم له وتعظيم لشأنه، ففي الآية إطناب طريقه ذكر الخاص بعد العام والغرض منه التنويه بشأن الخاص حيث يذكر مرتين.

ومنه قوله عز وجل: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فالصلاة الوسطى داخلة في عموم الصلوات، وقد خصت بالذكر بعد العام تنبيهًا إلى مزيتها وزيادة فضلها.

وقوله جل وعلا: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخلان في عموم الدعوة إلى الخير، ولكنهما خصا بالذكر بعد العام إشارة إلى مكانتهما من الشرف والفضل.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [نوح: ٢٨]، فالمؤمنون والمؤمنات لفظان عامان يدخل فيهما من ذكر قبل: «لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا»، والسر البلاغي الكامن وراء ذكر العام بعد الخاص هو العناية بشأن الخاص لذكره مرتين، مرة بلفظه، ومرة مندرجًا تحت العام.

٣-**التكرار**: ويأتي لأغراض كثيرة، منها إبراز المعنى وتقريره في النفس، كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [التكاثر: ٣، ٤]، فقد أكد الإنذار بتكراره ليكون أبلغ تحذيرًا، وأشد تخويفًا، وفي العطف بالحرف «ثم» ما ينبئ بأن الإنذار الثاني أقوى وأشد من الإنذار الأول، حيث نزل بعد المرتبة منزلة البعد الزمني فعطف بثم، وفي هذا دلالة على التدرج في الارتقاء.

ومن ذلك قوله جل وعلا ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾ الشرح: ٥، ٦]، فقد أفاد التكرار تأكيد المعنى وتقريره في النفس.

ومنها استمالة المخاطب وترغيبه في قبول النصح والإرشاد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا

﴿مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَٓخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٨، ٣٩]، ففي تكرار «يا قوم» استمالة لنفوس المخاطبين وترغيب لهم في قبول الحق والاهتداء، ووراء حرف النداء «يا» الموضوع لنداء البعيد تعظيم لهم وتشريف ورفع لمنزلتهم، وفي إضافة القوم إليه «يا قومي»، ما يبدد كل شك ويزيل كل ارتياب في نصحه وإخلاصه لهم.

ومنها التذكير بنعم الله التي لا تحصى ولا تعد، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٢]، فقد ذكر جل وعلا نعمة بعد نعمة في هذه السورة الكريمة، وعقب كل نعمة بهذا الاستفهام الذي يفيد التنبيه إلى نعمه الكثيرة والتذكير بها، فإن قيل قد عقب بهذا الاستفهام ما ليس بنعمة كما في قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾[الرحمن: ٣٥]، وقوله جل وعلا: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝﴾ [الرحمن: ٤٣- ٤٤]، قلت: العذاب وجهنم، وإن لم يكونا من آلاء الله تعالى، فإن ذكرهما ووصفهما على طريق الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات، يعد من الآلاء والنعم، لأن التحذير من المعصية والزجر عنها نعمة منه تعالى، إذ ينجم عن التحذير والزجر ابتعاد المؤمن عن المعاصي وعدم اقترابه منها[١].

ومن أغراض التكرار المبالغة في التحذير والتنفير، كما في قوله تعالى ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، فقد كررت هذه الآية الكريمة في سورة المرسلات عقب جملة من القصص والتذكير بنعمه تعالى حيث أعقب كل قصة بهذا الوعيد «ويل يومئذ للمكذبين» وفي هذا ما فيه من التنفير والتحذير.

ومنها الحث على التذكر والتدبر وأخذ العظة والعبرة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، حيث كررت هذه الآية في سورة القمر عقب كل قصة من قصص الأمم السابقة التي كذبت وأعرضت عن رسل ربها، فقد أخبرت عنهم السورة الكريمة وأبرزت نوع العذاب الذي حاق بكل أمة، وأتبعت كل قصة بهذه الآية الكريمة: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» حثا على العظة والاعتبار والتأمل والتدبر.

---

(١) انظر الإيضاح ٢/ ١٢٧.

ومنها أن يكرر اللفظ لطول في الكلام كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠]، وقوله جل وعلا: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٩]، فقد كرر: «إن ربك» في الآيتين الكريمتين لطول الكلام بين اسم إن «ربك» وبين خبرها «لغفور»، وفيه أيضًا تأكيد لمعنى الربوبية وإبراز لمعنى «الرب» المتفضل بالإنعام والمغفرة.

٤-**الإيغال**: وهو ختم البيت من الشعر بما يفيد فائدة يتم المعنى بدونها، ولا يكون إلا في الشعر كما في قول الخنساء:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ(١)

فقولها: «في رأسه نار» إطناب، لأنها شبهت أخاها «صخرا» بالعلم وهو الجبل المرتفع المعروف ووجه الشبه هو الاهتداء بكل، وقد تم التشبيه عند قولها: «كأنه علم»، فختمت البيت بما يفيد قوة المبالغة في التشبيه، إذ النار في رأس الجبل تزيده وضوحًا وانكشافًا وهذا أدعى لتمام الهداية وكمالها.

ومثله قول ذي الرمة:

قِفِ الْعِيسَ فِي أَطْلَالِ مَيَّةَ فَاسْأَلِ ... رُسُومًا كَأَخْلَاقِ الرِّدَاءِ الْمُسَلْسَلِ

أَظُنُّ الَّذِي يُجْدِي عَلَيْكَ سُؤَالُهَا ... دُمُوعًا كَتَبْذِيرِ الْجُمَانِ الْمُفَصَّلِ(٢)

فقد تم التشبيه في البيت الأول عند قوله «رسوما كأخلاق الرداء» وفي الثاني عند قوله: «دموعا كتبذير الجمان»، فاختتم البيتين بما يفيد زيادة المبالغة في التشبيه وهو قوله «المسلسل والمفصل».

---

(١) تأتم: تقتدي، والهداة: الذين يهدون الناس وإذا كانت الهداة تأتم به فمن باب أولى المهتدون بهم.

(٢) العيس: الإبل يخالط بياضها سواد خفيف مفردها أعيس، والأطلال: جمع طلل، وهو ما شخص من آثار الديار بخلاف الرسوم، والأخلاق جمع خلق وهو البالي، والمسلسل: الرديء النسج، ويجدي: يعطي ويفيد وعائد الموصول محذوف والتقدير يجدي به، والتبذير: التفريق، والجمان المفصل: اللؤلؤ المنظم.

ومنه قول امرئ القيس:

كَـأَنَّ عُيُـونَ الْـوَحْشِ حَـوْلَ خِبَائِنَـا   وَأَرْحُلِنَـا الْجَـزْعُ الَّـذِي لَمْ يُثَقَّـبِ(١)

حيث تم له التشبيه عند قوله: «الجزع» فاختتم البيت بما يفيد تحقيق التشبيه؛ لأن الجزع إذا كان غير مثقوب كان أشبه بعيون الوحش، فقوله: «الذي لم يثقب» إيغال أفاد تحقيق التشبيه وجعله دقيقًا وتامًّا.

ومثله قوله أيضًا:

حَمَلْـتُ رُدَيْنِيًّـا كَـأَنَّ سِـنَانَهُ   سَـنَا لَهَـبٍ لَمْ يَتَّـصِلْ بِـدُخَانِ(٢)

حيث أتى على التشبيه عند قوله: «كأن سنانه سنا لهب»، ثم اختتم البيت بإيغال أفاد دقة التشبيه وزيادة تحقيقه، وهو قوله «لم يتصل بدخان»؛ لأن سنان الرمح أكثر شبهًا بضوء اللهب الذي لم يتصل بدخانه.

وقول زهير بن أبي سلمى:

كَـأَنَّ فُتَـاتَ العِهْـنِ فِي كُـلِّ مَنْـزَلٍ   نَـزَلْنَ بِـهِ حَـبُّ الْفَنَـا لَمْ يُحَطَّـمِ(٣)

فقد أتى على التشبيه بقوله «حب الفنا»، ثم اختتم البيت بما يفيد دقة التشبيه وزيادة تحقيقه؛ لأن حب الفنا أحمر الظاهر أبيض الباطن فهو لا يشبه الصوف الأحمر إلا إذا لم يحطم، فقوله: «لم يحطم» إيغال حسن.

ومنه قول الأعشى:

كَنَـاطِحٍ صَـخْرَةً يَوْمًـا لِيَفْلِقَهَـا   فَلَـمْ يَـضِرْهَا وَأَوْهَـى قَرْنَـهُ الْوَعِـلُ(٤)

---

(١) الوحش: المراد به الظباء التي يصيدونها ويرمون أعينها حول خبائهم. والخباء: ما كان من وبر أوصوف لا شعر وقام على عمودين أو ثلاثة، وما فوقه: البيت . والأرحل:جمع رحل وهو المنزل والمأوى. والجزع: خرز فيه بياض وسواد على شكر دوائر.

(٢) الرديني: رمح منسوب إلى ردينة وهي امرأة كانت تقوم الرماح، وسنا اللهب: ضوؤه، وسنان الرمح: حديدته وجمعها: أسنة، وسميت بذلك لصقالتها وملاستها.

(٣) الفتات: اسم لما انفت وتقطع من الشيء، والعهن: الصوف المصبوغ، والفنا: عنب الثعلب، شبه فتات الصوف المصبوغ الذي زينت به الهوادج بحب الفنا في حمرته قبل تحطيمه، لأنه إذا حطم تزول حمرته.

(٤) الوعل: تيس الجبل، وجمعه: وعول وأوعال ووعل، والأنثى: وعلة.

حيث تم له المعنى بقوله: «وأوهى قرنه»، ثم اختتم البيت بإيغال حسن، وهو قوله «الوعل»؛ لأن الوعل ينحط من قمة الجبل على قرنه فلا يضيره.

هل يوجد إيغال في القرآن؟

الإيغال لا يكون إلا في الشعر، وليس في القرآن الكريم منه شيء، لأنه لا يوجد في آيات الذكر الحكيم كلمة يتم المعنى بدونها، بل كل كلمة في سياقها لها معنى تؤديه، ولا يصح بحال من الأحوال أن يقال: إن كلمة من كلمات القرآن الكريم يمكن السكوت عنها، لأن المعنى قد تم بدونها.

وزعم بعض أن الإيغال يقع في الشعر وفي النثر وأنه يوجد في آيات القرآن الكريم، ومثلوا له بنحو قوله تعالى: ﴿ **وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [يس: ٢٠، ٢١]، زاعمين أن جملة: «وهم مهتدون» إيغال وأن المعنى يتم بدونها.

وهذا ليس بقول لأن تلك الجملة قصد بها زيادة ترغيبهم وحثهم على اتباع الرسل، ولا يتم هذا المعنى إلا بها، ولم يكن الخطيب القزويني رحمه الله دقيقا حين صرح بأن الإيغال قد اختلف فيه العلماء فقيل: «هو ختم البيت بما يفيد نكته يتم المعنى بدونها» وقيل: لا يختص بالنظم ومثل له بقوله تعالى: ﴿ **ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [يس: ٢١]، والصواب ما أوضحنا وهو أن الإيغال خاص بالشعر وليس في القرآن الكريم منه شيء[١].

٥-**التذييل**: وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها لإفادة التوكيد، ويختلف التذييل عن الإيغال السابق من عدة جهات وهي:

١ - أن الإيغال يكون بالجملة وبغير الجملة، كما رأيت في شواهده، أما التذييل فلا يكون إلا بجملة، كما سترى.

٢ - الإيغال يفيد التوكيد وغيره من الأغراض التي يأتي لها، أما التذييل فهو للتوكيد خاصة.

---

(١) انظر الإيضاح ج ٢ ص ١٢٧، ١٢٩.

٣-التذييل يكون في آخر الكلام وفي أثنائه، أما الإيغال فلا يكون إلا في آخر الكلام.

والتذييل ضربان: تذييل يجري مجرى المثل وتذييل لا يجري مجرى المثل، فالأول هو أن يقصد بالجملة الثانية حكم مستقل عما قبلها، بمعنى أن جملة التذييل تفيد معنى يمكن استقلالها بإفادته عما قبلها، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، فقوله: «إن الباطل كان زهوقا»، تذييل أتى به لتأكيد الجملة قبله، وهو جار مجرى المثل بمعنى أن الجملة الثانية مستقلة بمعناها عن الجملة الأولى وجارية على الألسنة كما تجري الأمثال التي كثر استعمالها وفشا، فهي لا تحتاج في إفادة معناها إلى الجملة السابقة.

ومن هذا الضرب قول النابغة الذبياني:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ[1]

فقوله: «أي الرجال المهذب»؟ تذييل جرى مجرى المثل، حيث يجري على الألسنة مستقلا عما قبله.

ومثله قول الحطيئة:

تَزُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ وَمَنْ يُعْطِ أَثْمَانَ الْمَكَارِمِ يُحْمَدِ

الشطر الثاني تذييل للشطر الأول، خرج مخرج المثل.

والثاني وهو التذييل الذي لم يجر مجرى المثل، فهو ما لا يستقل معناه، بل يتوقف على ما قبله، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ: ١٦، ١٧]، فقوله: «وهل نجازي إلا الكفور»، تذييل غير جار مجرى المثل؛ لأن معناه لا يفهم إلا بما قبله.

---

(١) لاتلمه: لا تضمه، والشعث في الأصل انتشار شعر الرأس وتغيره فتكثر أوساخه والمراد به هنا العيب على سبيل الاستعارة. والاستفهام في البيت استفهام إنكاري بمعنى لا يوجد.

ومنه قول الحماسي:

فَــدَعَوْا نَــزَالِ فَكُنْــتُ أَوَّلَ نَــازِلٍ ... وَعَـــلَامَ أَرْكَبُــــهُ إِذَا لَمْ أَنْـــزِلِ

فقوله: «وعلام أركبه إذا لم أنزل؟» تذييل غير جار مجرى المثل؛ لأن فهم معناه يتوقف على ما قبله.

ومثله قول ابن نباتة السعدي:

لَمْ يُبْــقِ جُــودُكَ لِي شَــيْئًا أُؤَمِّلُــهُ ... تَرَكْتَنِــي أَصْــحَبُ الــدُّنْيَا بِــلَا أَمَــلِ

وقد اجتمع التذييلان في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [التوبة: ١١١]، فقوله: «وعدا عليه حقا»، تذييل غي جار مجرى المثل لاحتياجه في فهم معناه إلى ما قبله، وقوله: «ومن أوفى بعهده من الله» تذييل خرج مخرج المثل السائر لتحقيق وتأكيد ما تقدمه، فهو تذييل ثان للتذييل الأول.

وكذا اجتمع الضربان في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥]، فقوله: «أفإن مت فهم الخالدون» تذييل غير جار مجرى المثل إذ يتوقف فهم معناه على ما قبله، وقوله: «كل نفس ذائقة الموت» تذييل جرى مجرى المثل، لجريانه على الألسنة وعدم توقف فهم معناه على ما قبله.

٦-**التكميل**: ويسمى أيضًا بالاحتراس وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك التوهم، كما في قول طرفة بن العبد:

فَــسَقَى دِيَــارَكَ غَــيْرَ مُفْــسِدِهَا ... صَــوْبُ الرَّبِيْــعِ وَدِيمَــةٌ تَهْمِــي

فقوله: «غير مفسدها» احتراس عن المطر المسترسل الذي يسبب الخراب والدمار، لأن الديمة هي المطر المسترسل، وتهمي بمعنى تسيل والمطر إذا كثر وزاد عن حده سبب الخراب والدمار، فدفع الشاعر هذا التوهم بقوله «غير مفسدها».

ومن أجل هذا عيب قول ذي الرمة:

أَلَا يَـا اسْـلَمِي يَـا دَارَ مَـيٍّ عَـلَى الْـبِلَى ... وَلَا زَالَ مُـنْهَلًّا بِجَرْعَائِـكِ الْقَطْـرُ

وقيل: لا عيب في البيت، لأن الدعاء قرينة على عدم إرادة الضر، وللشاعر أن يكتفي بالدعاء فلا يحترس، وألا يكتفي به فيضم إليه الاحتراس.

ومنه قول عبد الله بن المعتز في وصف الخيل.

وَخَيْـلٍ طَوَاهَـا الـسَّيْرُ حَتَّـى كَأَنَّهَـا ... أَنَابِيـبُ سُـمْرٌ مِـن قَنَـا الْخَـطِّ ذُبَّـلُ

صَـبَبْنَا عَلَيْهَـا -ظَـالِمِينَ- سِـيَاطَنَا ... فَطَـارَت بِهَـا أَيْـدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُـلُ

فقوله: «ظالمين» احتراس، حيث دفع به ما قد يتوهم من أنها كانت بطيئة في الماشي، ثقيلة في السير، لا تجري وتسرع إلا بالضرب واستعمال السياط، وهذا خلاف المقصود لأن المقام مقام مدح.

ومنه قول الحماسي:

رَهَنْـتُ يَـدِي بِـالْعَجْزِ عَـنْ شُـكْرِ بِـرِّهِ ... وَمَـا فَـوْقَ شُـكْرِي لِلـشَّكُورِ مَزِيـدُ

الشطر الثاني من البيت احتراس، لأنه لما صرح في الشطر الأول بعجزه عن شكر بره، ربما يتوهم متوهم أنه لم يقم بشيء من الشكر، فدفع هذا التوهم بالشطر الثاني الذي أفاد أن شكره ليس للشكور وهو المبالغ في الشكر زيادة عليه.

ومنه قول كعب بن سعد الغنوي من قصيدة له في رثاء أخيه أبي المغوار:

حَلِـيمٌ إِذَا مَـا الْحِـلْمُ زَيَّـنَ أَهْلَـهُ ... مَـعَ الْحِـلْمِ فِي عَـيْنِ الْعَـدُوِّ مَهِيـبُ

فإنه لو اقتصر على وصفه بالحلم لأوهم أن حلمه عن عجز، ولذا احترس بقوله: «إذا ما الحلم زين أهله» فأزال هذا الوهم، ثم أكد الاحتراس بذلك التذييل: «مع الحلم في عين العدو مهيب».

ومنه قول السموءل بن عاديا:

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ فِي فِرَاشِهِ ... وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ[(١)]

فقد وصف قومه بشمول القتل إياهم وأنه لم يمت واحد منهم على فراشه، وهذا الوصف يوهم بضعفهم وقلة شجاعتهم، فأزال هذا الوهم بالشطر الثاني الذي وصفهم بالانتصار من قاتليهم.

ومنه قول المتنبي:

أَشَدُّ مِنَ الرِّيَاحِ الْهُوجِ بطشًا ... وَأَسْرَعُ فِي النَّدَى مِنْهَا هُبُوبَا[(٢)]

فإنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطش، لأوهم ذلك أنه عنف كله، ولا لطف عنده، فأزال هذا الوهم بوصفه بالسماحة والندى، ولم يتجاوز في الوصفين صفة الريح التي شبه بها ممدوحه.

ومما جاء من هذا النوع في النظم الكريم قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ [النساء: ٩٥]، فقوله جل وعلا: «غير أولي الضرر»، احتراس يدفع توهم أن القاعد بعذر داخل في مفهوم عدم الاستواء المذكور.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [النمل: ١٢]، فقوله: «من غير سوء» احتراس من نحو البهق والبرص.

هذا ولا يخفى عليك بالنظر في الشواهد المذكورة أن الاحتراس قد يتوسط الكلام، وقد يقع في آخره.

٧- **التتميم**: وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة مثل المفعول أو الحال أو الجار والمجرور، ونحو ذلك مما ليس بجملة مستقلة، ولا ركنا من أركان الكلام، وذلك لإفادة نكتة بلاغية.

---

(١) طل: بمعنى أهدر دمه ولم يقتص له.

(٢) الهوج مفردها: هوجاء وهي الريح التي لا تستوي في هبوبها ، وهي شديدة تقلع البيوت والزروع من شدتها... ويؤخذ على المتنبي جمع الريح في هذا المقام وهي إنما تجمع في مقام الرحمة وتفرد في مقام العذاب.

كما في قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨]، وقوله جل وعلا: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله عز وجل: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فإن قوله عز من قائل: «على حبه»، «مما تحبون» فضلة، وتركها لا يجعل الكلام موهمًا خلاف المقصود، وقد أتى بها في النظم الكريم لنكتة بلاغية وهي إفادة المبالغة في مدح هؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم ويطعمون وينفقون مالاً قد أحبوه وطعامًا قد اشتهوه وأرادوه.

وقيل: إن الضمير في قوله: «على حبه»، لله عز وجل لا للمال، أي: على حب الله، وعندئذ فلا إطناب في الآية؛ لأن الإنفاق لا يمدح شرعًا إلا إذا كان ابتغاء وجه الله لا لرياء ونحوه، فالجار والمجرور «على حبه» صار عندئذ مرادا، لا زائدا على أصل الكلام.

ومنه قول زهير:

مَـنْ يَلْـقَ يَوْمًـا عَـلَى عِلَّاتِـهِ هَرِمًـا ... يَلْـقَ الـسَّمَاحَةَ مِنْـهُ وَالنَّـدَى خُلُقَـا[(١)]

فقوله: «على علاته» تتميم حسن أفاد المبالغة في المديح:

وقول قيس بن الخطيم:

إِنِّي عَـلَى مَـا تَـرَيْنَ مِـنْ كِـبَرِي ... أَعْـرِفُ مِـنْ أَيْـنَ تُؤْكَـلُ الْكَتِـفُ

يريد أنه داهية، لأن الكتف تؤكل من أسفلها ويشق أكلها من أعلاها، ولذا يكنى عن الداهية بقولهم: يعرف من أين تؤكل الكتف، ويضرب هذا القول مثلا للإنسان الذي يعرف مداخل الأمور، وكيف يصل إلى المكنونات داخل الإنسان، فقول الشاعر: «على ما ترين من كبري»، تتميم جميل قصد به المبالغة فيما وصف به نفسه.

ويتضح لك مما سبق أن التتميم يختلف عن الإيغال من جهتين:

١ -التتميم مقيد بكونه فضلة، والإيغال لايتقيد بهذا.

---

(١) على علاته: العلات جمع علة والمراد بها ما ينويه من قلة ذات اليد والعوز والاحتياج.

٢-التتميم يكون في وسط الكلام وفي آخره، أما الإيغال فلا يكون إلا في آخر الكلام... كما يختلف التتميم عن التكميل من جهتين أيضًا.

١-التكميل يدفع به توهم غير المراد، والتتميم لا يدفع به إيهاما وإنما يؤتى به لنكتة بلاغية أخرى.

٢-التتميم مقيد بكونه فضلة، والتكميل لا يتقيد بذلك.

٨-**الاعتراض**: وهو أن يؤتى في أثناء الكلام الواحد أو بين كلامين متصلين في المعنى بأن يكون ثانيهما تأكيدا لأولهما أو بيانا له أو بدلا أو معطوفا...يؤتى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى دفع الإيهام، وذلك كالتنزيه في قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧]، فجملة «سبحانه» جملة اعتراضية والغرض منها: تنزيهه تعالى عن اتخاذ البنات... «وسبحان» جملة؛ لأنها واقعة موقع المصدر الذي هو التنزيه والمعنى: أنزهه تنزيها.

وكالتعظيم في قوله جلا وعلا: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ ﴾ [الواقعة ٥٧ - ٧٧]، فقد اعترض بين القسم وجوابه بقوله: «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم»، وداخل هذا الاعتراض اعتراض آخر بين الصفة والموصوف وهو «لو تعلمون» وقد أريد بالاعتراضين تعظيم القسم وتفخيم أمره، وفي ذلك تعظيم للمقسم عليه وهو القرآن الكريم، وتنويه برفعة شأنه.

وكالتقرير في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يوسف: ٧٣]، فجملة «لقد علمتم» جملة معترضة بين القسم والجواب لتقرير علم المخاطبين بالبراءة من الفساد والبعد عن تهمة السرقة.

وكالدعاء في قول عوف بن محلم:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتَهَا ... قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تُرْجُمَانِ

يخبر الشاعر بتقدم سنه وضعف سمعه حتى قد صار يحتاج إلى من يكرر له القول ليسمع، وجملة: «وبلغتها» جملة معترضة أريد الدعاء للمخاطب بطول العمر، وإثارة عطفه على الشاعر.

وكالتصريح بما هو المقصود كما في قول كثير عزة:

لَــوَانَّ الْبَــاخِلِينَ وَأَنْــتِ مِــنْهُمْ رَأَوْكِ لَعَلَّمُــوا النَّــاسَ الْمِــطَالاَ

فقوله: «وأنت منهم» جملة اعتراضية أريد بها التصريح بما هو مقصود من ذمها، وتأكيد انصراف الذم إليها.

والتنبيه كما في قول أبي علي الفارسي:

وَاعْلَــمْ فَعِلْــمُ الْــمَرْءِ يَنْفَعُــهُ أَنْ سَــوْفَ يَــأْتِي كُــلُّ مَــا قُــدِرَا

فجملة «فعلم المرء ينفعه» جملة اعتراضية، الغرض منها، التنبيه على فضل العلم ونفعه لصاحبه... ومثله قول ابن ميادة:

فَـلَا هَجْـرُهُ يَبْـدُو وَفِي الْيَـأْسِ رَاحـةٌ وَلَا وَصْـلُهُ يَبْـدُو لَنَـا فَنُكَارِمُـهُ

فجملة: «وفي اليأس راحة» اعتراضية، أريد بها التنبيه إلى سبب طلبه الهجر، وذلك لأن طلب هجر الحبيب وتمني وقوعه أمر فيه غرابة، فبين الشاعر بالجملة الاعتراضية أنه لم يتمن هذا إلا بعد اليأس وانقطاع الأمل من وصله: « وفي اليأس راحة».

وكالاستعطاف في قول المتنبي:

وَخُفُــوقُ قَلْــبٍ لَــوْ رَأَيْــتِ لَهِــيبَهُ يَــا جَنَّتِــي لَرَأَيْــتِ فِيْــهِ جَهَــنَّمَ

فقوله: «ياجنتي» جملة اعتراضية، لأنها بمعنى: أدعو، والغرض منها الاستعطاف والاستلطاف.

ومما جاء بأكثر من جملة قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤]، فقوله: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ تفسير لقوله: «وصينا» وقوله «حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين» اعتراض بينهما، وقد أريد به تأكيد التوصية بالأم والتذكير بحقها العظيم على الأبناء لما عانته وقاسته من آلام...

وقوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ [آل عمرن: ٣٦]، فقوله جل وعلا: والله أعلم بما

وضعت وليس الذكر كالأنثى، اعتراض وقع بين قولي امرأة عمران يفيد تأكيد ما أخبرت به.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[البقرة: ٢٢٢، ٢٢٣]، فقوله: «نساؤكم حرث لكم» بيان لقوله «**فأتوهن من حيث أمركم الله**» وقد اعترض بينهما بقوله عز وجل: «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين»، والغرض من هذا الاعتراض: الترغيب فيما أمر الله به والتنفير عما نهى عنه، إذ الغرض الأصلي في الإتيان هو طلب النسل، لا قضاء الشهوة، فلا تأتوهن إلا من حيث يتأتى من الإتيان تحقيق هذا الغرض وفي الاعتراض بما ذكر ترغيب في الأمر «فإذا تطهرن فأتوهن» وتنفير من النهي «ولا تقربوهن حتى يطهرن».

هذا ويتضح لك من الشواهد المذكورة أن الاعتراض قد يأتي بغير الواو والفاء، وقد يأتي بإحداهما فتسمى -الواو أو الفاء عندئذ واو الاعتراض أو فاء الاعتراض-، وتختلف واو الاعتراض، عن واو العطف أو الحال، والتمييز بين تلك الواوات، قد يكون بينا واضحا وقد يدق ويغمض بحيث يحتاج إلى مزيد من التأمل والتروي.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم ﴾[البقرة: ٥١، ٥٢]، تجد أن الواو في قوله: «وأنتم ظالمون»، صالحة لأن تكون واو الحال ولأن تكون اعتراضية، لأنه إذا قصد تقييد الاتخاذ بالجملة، كانت الواو حالية والمعنى: ثم اتخذتم العجل حال كونكم ظالمين باتخاذه، وإذا قصد استقلال جملة: «أنتم ظالمون» عن الاتخاذ كانت الواو اعتراضية والمعنى: ثم اتخذتم العجل وأنتم قوم عادتكم الظلم، فتكون جملة اعتراضية أتى بها تأكيدًا لظلمهم ولم يقصد بها الارتباط بالاتخاذ المذكور. ولذا تجد أن تمييز واو الحال ومثلها واو العطف من واو الاعتراض، قد يدق ويغمض بحيث يحتاج منك إلى مزيد من التأمل ومراجعة السياق.

ومما ينبغي أن تقف عليه وتعلمه، أن الإطناب ليس مقصورًا على تلك الأنواع

التي ذكرناها، بل قد يقع بغيرها، فمن مقاماته: مقامات الذكر التي مرت بك في أحوال المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل.

ومنها ما يكون بالإفاضة في جواب الاستفهام حيث يقتضي المقام لإطناب وامتداد القول كما رأينا في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝** ﴾ [طه: ١٧ - ١٨]، وكما في قوله تعالى: ﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ** ﴾ [الشعراء: ٦٩- ٧١]، فقد كان يكفي في الجواب: «أصناما»، ولكنهم أطنبوا فذكروا كلمة: «نعبد» ثم أضافوا: «فنظل لها عاكفين»، ليظهروا ابتهاجهم بعبادتهم، وافتخارهم بالمواظبة على تلك العبادة، ويريدون بهذا الإطناب أن يزداد غيظ السائل، وهو إبراهيم عليه السلام.

ومن الإطناب زيادة بعض الأحرف في النظم لتحقيق غرض من الأغراض البلاغية، كزيادة «أن» بعد «لما» في قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا** ﴾ [يوسف: ٩٦]، فزيادة «أن» بعد «لما» في الآية الكريمة، دلت على أن المجيء لم يكن على الفور بل كان هناك تراخ وتباطؤ، لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وكذا قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ** ﴾ [القصص: ١٩]، فقد زيدت أن بعد لما، للدلالة على أن موسى عليه السلام لم يسارع إلى البطش بالثاني كما سارع إلى وكز الأول.

وكزيادة «ما» بعد «إذا» في نحو قوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ** ﴾ [الشورى: ٣٧]، فزيادة «ما» في الآية الكريمة دلت على ندرة حدوث الغضب من هؤلاء فهم لا يغضبون إلا قليلا وإذا ما غضبوا هم يغفرون ويعفون عمن أغضبهم.

وفي قول القحيف العقيلي:

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً ... هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرتْ دَمَا

دلت زيادة «ما» على أنهم لا يغضبون إلا حين يوجب الحزم أن يغضبوا، فهم

يعفون كثيرا ولا يغضبون إلا نادرا، وحين يضطرهم الغير إلى الغضب ينتقمون شر انتقام فغضبتهم إنما هي غضبة الحليم.

ومن الإطناب زيادة بعض الكلمات التي تفيد زيادتها تأكيدًا اقتضاه المقام، على نحو ما رأينا في مثل قولهم رأيته بعيني وسمعته بأذني وقلته بفمي.. ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٢٦].

فالرؤية لا تكون إلا بالعين والسمع لا يكون إلا بالأذن والقول لا يكون إلا بالفم والألسنة، والقلب لا يوجد إلا في الجوف والسقف لا يكون إلا من فوق، وقد زيدت تلك الكلمات لإفادة التوكيد الذي اقتضاه المقام على نحو ما وضحت لك فيما سبق.

وبهذا يتبين لك أن الإطناب ليس مقصورًا على تلك الأنواع المذكورة، بل يتعداها إلى كل زيادة في النظم أفادت معنى يقتضيه المقام ويتطلبه.

المساواة

قالوا في تعريفها: إنها تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له، بأن تكون الألفاظ على قدر المعاني، لا يزيد بعضها عن بعض، ولا ينقص.

وقد اتخذوا من متعارف الأوساط مقياسا يقيسون عليه الكلام، فالكلام إذا قل عن متعارف الأوساط كان إيجازا، وإذا زاد عنه كان إطنابًا، وإذا جاء على حد متعارف الأوساط فهو المساواة وهي في باب البلاغة لا تحمد ولا تذم.

واستشهدوا لها بنحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقول الرسول -عليه الصلاة والسلام- «الحلالُ بيِّنٌ والحرامُ بيِّنٌ وبينهما مُشَبَّهاتٌ لَا يَعْلمها كثيرٌ مِن النَّاسِ»(١).

وقول النابغة الذبياني:

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي ... وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ المنتأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وقول طرفة بن العبد:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا ... وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وقول زهير:

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِن خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

هذا ولم تسلم هذه الشواهد التي استشهد بها البلاغيون للمساواة؛ لأنك عند التأمل تجدها راجعة إما إلى الإيجاز أو إلى الإطناب، فمثلاً في الآية الأولى إذا رجعت إلى سياقها في النظم الكريم: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ تراها قد وقعت تذييلاً، والتذييل -كما عرفت- من أنواع الإطناب، ثم إنها أسلوب قصر، والقصر من الإيجاز.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان برقم: (٣٩/ ٥٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾، وقول الرسول ﷺ: «الحلالُ بيِّنٌ وَالحرامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْبهاتٌ»، لا يخفى عليك رجوعهما إلى إيجاز القصر، لأن المعاني التي تكمن في الآية الكريمة والحديث الشريف معان كثيرة غزيرة، وألفاظهما قليلة -كما ترى- وهذا هو إيجاز القصر الذي مر بك.

وتجد الشطر الثاني من بيت النابعة: «وإن خلت أن المنتأى عنك واسع» تذييلا غير جار مجرى المثل، كما تجد في الشطر الأول من بيت طرفة إيجازًا بحذف الجار والمجرور والتقدير: ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا به... وفي بيت زهير تجد قوله: «وإن خالها تخفي على الناس» اعتراضا بين الشرط وجوابه.

وهكذا تستطيع أن ترجع ما استشهد به البلاغيون للمساواة، إما إلى الإيجاز وإما إلى الإطناب، فالأولى أن تجعل المساواة قاصرة على كلام الأوساط لأنها نادرة الوقوع في التعبيرات الجيدة والكلام البليغ، ولأن البلاغيين قد جعلوها خالية من جميع الاعتبارات البلاغية وقالوا: إنها لا تحمد ولا تذم في باب البلاغة.

تم بحمد الله تعالى في ٢٨ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٧هـ.

الموافق ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٨٦م.

والحمد لله أولا وآخرًا...

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أهم مراجع الكتاب

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي طبعة الحلبي ١٣٩٨ هـ.
٢- أسرار البلاغة لعبد القاهر. ط: دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢هـ. ت: محمد عبد المنعم خفاجي.
٣- الأسلوب للدكتور أحمد الشايب. طبعة السعادة. الطبعة الخامسة.
٤- أساليب الاستفهام في القرآن الكريم من الوجهة البلاغية للدكتور بسيوني عبد الفتاح مخطوط بالأزهر «رسائل».
٥- إعجاز القرآن للباقلاني. ط: دار المعارف ١٩٧٧م. ت: السيد صقر.
٦- أمال يالمرتضي. ط: الحلبي ١٣٧٣هـ. ت: محمد أبو الفضل إبراهيم.
٧- الإيضاح للقزويني وبهامشه البغية. للصعيدي، ط: صبيح ١٣٩١هـ.
٨- البرهان في علوم القرآن للزركشي، ط: دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٧، م، ت: محمد أبو الفضل.
٩- البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف للدكتور محمد أبو موسى، ط: دار الفكر العربي.
١٠- البيان والتبيين للجاحظ، ط: الخانجي، ت: عبد السلام هارون.
١١- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ط : الحلبي ١٣٧٣هـ.
١٢- تنزيه القرآن عن المطاعن لعبد الجبار. ط: دار النهضة- بيروت
١٣- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ط: دار المعارف ١٩٧٦م.
١٤- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود، ت محمد الهاشمي.
١٥- حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي، ط: دار الطباعة الخديوية.
١٦- الحيوان للجاحظ، ط: الساسي. ١٩٥٠م.
١٧- الخصائص لابن جني، ط: دار الهدى بيروت، ت: محمد علي النجار.
١٨- الخصائص لابن جني، ط: دار الهدى ببيروت، ت: محمد علي النجار.
١٩- خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى، ط: دار التضامن ١٩٨٠م.
٢٠- دلائل الإعجاز لعبد القاهر، ط: الفجالة، ت: محمد عبد المنعم خفاجي.
٢١- دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى، دار المعلم ١٣٩٩هـ.
٢٢- روح المعاني للألوسي، ط: دار إحياء التراث العربي ببيروت.

٢٣- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، ط: الخانجي، ت: علي فودة.
٢٤- شروح التلخيص.
٢٥- شرح المعلقات للزوزني، ط: المطبعة التجارية ١٩٧١م.
٢٦- الشعر والشعراء لابن قتيبة، ط: دار المعرف ١٩٦٧م، ت:أحمد شاكر.
٢٧- الصاحبي لأحمد بن فارس، ط:المؤيد ١٣١٨هـ.
٢٨- الصناعتين لأبي هلال العسكري، ط: الحلبي ١٩٧١م.
٢٩- طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ط: المدني، ت: الأستاذ محمود شاكر.
٣٠- الطراز ليحيى بن حمزة العلوي، ط: المقتطف ١٣٢٢هـ.
٣١- عقود الجمان للسيوطي، المطبعة الشرقية ١٣٠٥هـ.
٣٢- العمدة لابن رشيق٥، ط: دار الجيل، ت: محمد محيي الدين.
٣٣- عيار الشعر لابن طباطبا، ط: شركة فن الطباعة ١٩٥٦م.
٣٤- الكتاب لسيبويه، ط: الهيئة المصرية ١٩٧٧م، ت: عبد السلام هارون.
٣٥- الكشاف للزمخشري، ط: الحلبي ١٣٩٨هـ.
٣٦- الكامل للمبرد، ط: نهضة مصر ١٩٥٦، ت: محمد أبو الفضل.
٣٧- لسان العرب لابن منظور، ط: دار المعارف.
٣٨- متشابه القرآن لعبد الجبار، ط: دار النصر ١٩٦٩م، ت: عدنان زرزور.
٣٩- مجمع الأمثال للميداني، مطبعة السعادة ١٣٧٩هـ، ت: محمد محيي الدين.
٤٠- مجاز القرآن لأبي عبيدة، ط: الخانجي، ت: محمد فؤاد.
٤١- معاني القرآن للفراء، ط: الهيئة المصرية ١٩٨٠م.
٤٢- المطول لسعد الدين التفتازاني.
٤٣- معاهد التنصيص على شواهد التخليص للعباسي، ط: السعادة، ت: محمد محيي الدين.
٤٤- المغني للقاضي عبد الجبار، جـ ١٦، في إعجاز القرآن، ط: وزارة الثقافة.
٤٥- مغني اللبيب لابن هشام، مطبعة المدني، ت: محمد محيي الدين.
٤٦- مفتاح العلوم للسكاكي، ط: الحلبي ١٣٥٦هـ.
٤٧- المفضليات للضبي، ط: دار المعارف، الطبعة الخامسة، ت: محمود شاكر.
٤٨- مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث للدكتور إبراهيم الخولي، مخطوط بالأزهر، رسائل.

٤٩- من أسرار التعبير القرآني للدكتور محمد أبو موسى، ط: دار الفكر العربي ١٣٩٦هـ.
٥٠- من بلاغة النظم العربي للدكتور عبد العزيز عرفة، ط: دار الطباعة المحمدية ١٤٠٢هـ.
٥١- مناهج تجديد لأمين الخولي، ط: دار المعرفة ١٩٦١م.
٥٢- الموطأ للإمام مالك، ط: الحلبي ١٣٧٠هـ.
٥٣- الموازنة للآمدي، ط: المعارف ١٣٨٠ هـ، ت: السيد صقر.
٥٤- النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز، مطبعة السعادة ١٣٨٩هـ.
٥٥- النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١م.
٥٦- النقد الأدبي لسيد قطب، ط: دار الفكر العربي ١٩٥٤م.
٥٧- النقد المنهجي عند العرب للدكتور محمد مندور، ط: نهضة مصر ١٩٧٢م.
٥٨- نقد الشعر لقدامة، ط: مطبعة أنصار السنة ١٩٤٩م، ت: كمالمصطفى.
٥٩- نقد النثر: «البرهان في وجوه البيان» لابن وهب، مطبعة مصر ١٩٣٩م، ت: طه حسين وعبد الحميد العبادي.
٦٠- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي، مطبعة الآداب ١٣١٧هـ.
٦١- الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني، ط: الحلبي، ت: محمد أبو الفضل.
٦٢- يتيمة الدهر للثعالبي، ط: الصاوي ١٩٣٤م.

المحتويات

محتويات الكتاب